



المجلد رقم (٤٣) - ٢٠٠٥ م

الناشر

مكتبة الدار العربية للكتاب

شارع الطيران: الحى السابع - مدينة نصر

تليفون: ٢٨٧٨٥٥٣ - ص. ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

المدير المسئول: محمد رشاد

التصميم والغلاف: محمد ججى

التصحيح والمراجعة: محمد قنحى

التوزيع فى مصر

الدار المصرية اللبنانية

١٦ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون: ٣٩١٠٢٥٠

ص. ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

e-mail info@almasriah.com

www.almasriah.com

المراسلات والتوزيع الخارجى

أوراق الشرقية

بيروت - النويرى - شارع العريسى

ص. ب: ١١/٣٠٣١ - هاتف: ٦٣٠٧٩٤ - ٦٤٤٤٢٢ - برفقياً: Distlevan

المدير المسئول: محمود عطوى

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها

ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

رقم الإيداع بدار الكتب - ٩٩/٩٤٤٠

الترقيم الدولى: 977-5366-11-9

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

٢٠٠٥ هـ - ١٤٢٥ م



تُصدرُها

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المراسلات - الأستاذ الدكتور / رؤوف عباس حامد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

قطعة ٤ بلوك ٧ - المنطقة التاسعة - مدينة نصر - القاهرة

تليفون : ٦٧٠٧٢٩٤ - ٦٧٠٧٢٩٦ - فاكس : ٦٧٠٧٢٩٨

Email: Egyhisstu@masrawy.com

oboiikan.com



oboi.kan.com

تقديم

يسعد مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن يقدم للمهتمين بالدراسات التاريخية على مختلف تخصصاتهم المجلد رقم (٤٣) من "المجلة التاريخية المصرية".

وهذا المجلد، يتضمن ثلاث عشرة دراسة متنوعة تتناول عددًا من الموضوعات في مختلف فروع تخصصات التاريخ، والذي قام بكتابتها: نخبة من أساتذة التاريخ في مصر والعالم العربي.

وتأمل الجمعية أن يحوز هذا المجلد مثل سابقه رضا الباحثين والقراء، كما تأمل أن يساهم الباحثون والمتخصصون ببحوثهم في أعداد المجلة القادمة، وأن تتلقى الاقتراحات والآراء حول ما يضيف إلى المجلة الجديدة في حقل البحث التاريخي والدراسات التاريخية الجادة.

والله والوطن العزيز من وراء القصد،

أسرة التحرير

oboiikan.com

العبيد والإماء في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

الدكتور

فتحي عبد العزيز الحداد

جامعة عين شمس

oboiikan.com

العبيد والإماء في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

تناولت أغلب نصوص حضارات العالم القديم وفنونه ذكر وتصوير العبيد والإماء كفتنة اجتماعية اقتنتها البيوت الحاكمة وأعوانها، والوجهاء، والأسر المسورة الحال. فتحدثت النصوص عن ملكيتهم، وعن مصادر جلبهم، وعن بيعهم وشرائهم، وعن الأعمال المسندة إليهم، وتناولت الفنون القديمة تصوير هذه الفئة في أحجام صغيرة تعبر عن أوضاعهم في مجتمعاتهم، وصَوَّرَتهم وهم يقومون بالأعمال المسندة إليهم(*).

١- العبيد والإماء في نصوص شبه الجزيرة العربية

أ- الألفاظ الدالة على العبيد

عرفت المجتمعات القديمة في مختلف حضارات شبه الجزيرة العربية العبيد والإماء واقتنتهم أغلب أسرهم المسورة الحال، وقد عُرِفَت عدة ألفاظ في كتابات شبه الجزيرة العربية- المسند، والشمودية، واللحيانية، والصفوية، والنبطية - تُعبر عن العبيد والإماء. وكانت الكلمة الأكثر شيوعاً في نصوص المسند هي لفظة (𐩦𐩣𐩪) (ع ب د) أي (عبد،

(*) ربما كانت مجموعات تماثيل نقادة (بمحافظة قنا في صعيد مصر) الصغيرة التي مثلت ما يقوم به الخدم والأتباع هي أقدم هذه النماذج، وربما كان الخادم الذي حمل الصندل الملكي على لوحة نعرمر هو أقدم تمثيل لأعمال الخدم على اللوحات، مراعيًا أحجامهم بالنسبة لأحجام غيرهم. انظر: صالح، عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم، (مصر والعراق) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٧ م، ص ٥٧، ٨٠.

وخادم، وتابع) ووردت الكلمة في عبارات كثيرة منها: (عبد ذا رحب)^(١) (صورة ٣)، وهي عبارة تعني: خادم تابع (ل) رحب.

وقد استخدمت نفس الكلمة (ع ب د) في النقوش اللحيانية لتعبر عن العبد، واستخدمت كلمة (ع ب د) أيضاً في النقوش الصفوية لتعبر عن معنى العبد،^(٢) وعُرفت في اللغة الآرامية بكلمتي (ع ب د) بمعنى خادم، وجاءت مُعرفة (ع ب د ا) بمعنى الخادم^(٣).

ومن الألفاظ الأخرى التي استُخدمت في نصوص المسند لتعبر عن العبيد لفظ (𐩦𐩣𐩪) وتقرأ: (أ د م) حيث وردت في الكثير من نصوص المسند، ففي أحد النصوص التي اختصت بالأراضي الزراعية وردت العبارة التالية:

ووفى / بى ت س م / أح ز س م / وأدم س م / رث دو / ج ر وب س م .
والمعنى:

وفاء من البيت أحراراً وعبيداً، نظموا الحقول المدرجة^(٤)، وباستثناء معرفته في النصوص الصفوية كاسم علم^(٥) لم يتشر لفظ (أدم) في بقية كتابات شبه الجزيرة العربية القديمة كثيراً.

وكانت كلمة (𐩦𐩣𐩪) (ق ي ن) من الكلمات الأخرى التي استخدمت ليُعبر معناها عن العبيد حيث وردت كلمة (ق ي ن) في الكتابات الصفوية، وقد فُسرت بمعنى عبد،

(1) Cleveland, Ray L, An Ancient South Arabian Necropolis, The Johns Hopkins Press. BALTIMORE, 1965. p.65, Plates, 79. TC 1315.

(٢) الروسان، محمود، القبائل الثمودية والصفوية، دراسة مقارنة، عمادة شؤون المكتبات، الرياض ١٩٩٢م، ص ٢٥٤.

(٣) الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، دراسة تحليلية للنقوش الآرامية القديمة في تبء المملكة العربية السعودية - مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٤م، ص ٥٩، ١١١.

(٤) البرهسي، إبراهيم بن ناصر بن إبراهيم، الحرف والصناعات في ضوء نقوش المسند الجنوبي، وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، الرياض ٢٠٠٠م، ص ١١١.

(٥) الخريشة، فواز حمد، نقوش صفوية من بيار الغصين، مدونة النقوش الأردنية، المجلد الأول، منشورات جامعة اليرموك، الأردن ٢٠٠٢م، ص ٨١.

ووردت أيضاً في الكتابات اللحيانية بالمعنى نفسه^(١) بينما فسرها البعض في نصوص المسند بمعنى مسئول إداري (RES2743)^(٢) وعُرف اللفظ (قن) في النقوش الثمودية بصيغة (ق ي ن)، و(ق ن) بمعنى العبد أيضاً^(٣).

ومن الألفاظ الأخرى التي فسرها البعض بأنها تحمل معنى الخادم في نصوص شبه الجزيرة العربية لفظة (𐩦𐩣𐩬𐩪) (م ق ت و ي) أي مقتوى التي انتقلت من عربية المسند إلى العربية الفصحى، فهي في القاموس في مادة قن: أنه حُسن خدمة الملوك، والمقتوون: الخدام.^(٤) وقد وردت الكلمة أيضاً في الشعر الجاهلي في قول عمرو بن كلثوم في مُعلّقه:

تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لأمك مقتوينا

إلا أن البعض يرى أن كلمة مقتوى في لغة المسند أكبر درجة من الخادم حيث تعبر عن منصب رسمي تجعل من شاغله مقتوياً للمكرب أو للملك أي شخصاً هاماً ممن يعتمد عليهم هذا الزعيم أو ذاك في شؤون الدولة السياسية أو العسكرية^(٥).

ب- الألفاظ الدالة على الإماء

وردت عدة ألفاظ في نصوص شبه الجزيرة العربية عبرت عن الإماء.. ففي كتابة المسند استخدم اللفظ (𐩦𐩣𐩬𐩪) (أ م ت) بمعنى خادمة^(*)، وقد انتسبت الأمة في بعض النصوص لصاحب البيت أو للمعبد الذي تخدمه، وهو أمر

-
- (١) سلامة، عواطف أديب، قرش قبل الإسلام، دار المريخ، ١٩٩٤ م، ص ١٥٩ هـ.
- (٢) بافقيه، محمد عبد القادر، وآخرون، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، المنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٥ م، ص ١٦٥.
- (٣) الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، المعجم النبطي، دراسة مقارنة للمفردات والألفاظ النبطية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٠ م، ص ١٨٧-١٨٨.
- (٤) السعيد، سعيد بن فايز إبراهيم، نقوش عربية جنوبية قديمة من البرك (المملكة العربية السعودية)، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الثانية والعشرون، ١٤١٧ م، ص ١٢٧-١٢٨.
- (٥) الإرياني، مطهر علي، نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات والبحوث اليمنى صنعاء ١٩٩٠ م، ص ٤٧٨.
- (*) وفي اللغة العربية الفصحى (أمت المرأة: صارت أمة، ويقال: كانت حرة فتأمت: أي صارت أمة) المعجم الوسيط، مادة أمت.

سبق ذكره عند العبيد، فعلى قاعدة لوحة من الألبستر^(١) (صورة ٤) دُونَ نص من سطرين يقرأ:

١- أم ت / ذت

٢- رح ب م

أى الخادمة المتتمة ل رحب.

وهناك كلمات أخرى في نصوص شبه الجزيرة العربية عبرت بصيغ مختلفة عن الإماء، ففي النقوش الصفوية استخدم لفظ (ع ب د ت) ليعنى الخادمة والأمة^(٢)، وهى تأنيث لكلمة عبد. واستخدمت الكتابة اللحيانية كلمة (ق ن ت) بمعنى عبدة^(٣) وهى تأنيث للكلمة (قن) التى سبق ذكرها بمعنى عبد.

كما استخدمت كلمة (ع ب د) لتعبر عن صلة البشر بمعبوداتهم، وقد وردت في نصوص المسند عبارات توضح ذلك منها (فليحفظ المقه ثهوان خادمه يصبح)، أو فليستمر المقه في دعم خادمه كرب عثر بكل الأمنيات التى تمنها منه^(٤). وقد كانت صيغة أمثال هذه العبارات على النحو التالى (Ja822): (و س ت و ف ي / ا ل م ق هـ / ع ب د ي هـ و) أي: حفظ المقه عبديه^(٥). وفى عبارة أخرى: (و ل هـ ع ن ح / و (خ) م (ح) ت ع ن / (خ) أ ل م (ح) ق هـ / ب ع (خ) ل أ و م / أ د م هـ (ح) و / أ س (ح) ع د / ي ز د.

(1) Cleveland, Ray L, An Ancient South Arabian Necropolis.P65, Plates.79. TC 1300.

(٢) الروسان، محمود، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

(٣) أبو الحسن، حسين بن على، قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٧م، ص ٣٥٤.

(4) Jamme. A. South -Arabian Inscriptions, from the book of: Ancient Near Eastern Texts, Edited by -James B. Pritchard., Princeton University Press,USA,1974,P666-667.

(٥) عنان، زيد بن على، تاريخ حضارة اليمن القديم، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠٣م، النقش رقم ٢٥٠، ص ٢٤٦.

والمعنى: (وليعن ويُمَتَّعن المقه رب أوام عبيده أسعد ويزيد)^(١). وقد استخدمت كلمة (أ د م هـ و) بمعنى عبيده^(*).

وقد استخدم النص الواحد لفظتي (ع ب د) و (أ د م) في نفس الوقت للتعبير عن عبودية البشر لمعبوداتهم كما في النص السابق، وكما في النقش (عنان ٢٩) أيضاً وردت اللفظتان على النحو التالي (و هـ و ف ي ن / ا ل م ق هـ / ع ب د هـ و / هـ و ف ي ع ث ت) أى وأوفى المقه لعبده هـ و ف ي ع ث ت). أما العبارة الثانية في نفس النص (و ت ن ع م / ل أ د م هـ و / ب ن ي ب ذ ل) أى: ولينعم المقه على عبيده بنى بذل^(٢).

وفي نص آخر (MB2001 1-108) من محرم بلقيس لرجل يدعى (شرح ثت أزد وأخيه يهعن)^(٣). تكررت أربع عبارات في نفس الإطار الدلالي لللفظي (ع ب د)، و (أ د م) استخدمت في ثلاث منها لفظ (عبد) مرتين بصيغة (ع ب د هـ و)، ومرة بصيغة (ع ب د ي هـ و)، وفي المرة الرابعة استخدم لفظ (أ د م هـ و).

وبالنظر في استخدام النصوص السابقة للفظتي (ع ب د)، و (أ د م) يتأكد أنه لم يكن في كتابة المسند فرق في استخدام أى منهما للتعبير عن معنى عبد وخادم.

وربما دعت مكانة الملوك الكبيرة بعض القادة الكبار إلى أن ينعت بعضهم نفسه بأنه خادم الملك. ففي النص (إرياني ١٣) وهو نص للقائد (فارع حصن الأقياني) أحد كبار قادة الملك شعر أوتر ملك سبأ وذو ريدان^(٤) يذكر القائد فارع أنه (أ د م هـ و / ف ر ع م) أى خادمه فرعم (في الفقرة ١١). وفي (الفقرة ١٣) من نفس النص يذكر أنه (ع ب د هـ و / ف ر ع م) أى أنه عبد للمقه. ويلاحظ أنه استخدم لفظ (أ د م) مع الملك،

(١) (الحروف بين الأقواس زائدة) طيران، أحمد سالم، قراءة جديدة للنقش السبئي جام ٨٢٢ من معبد أوام، مجلة الدارة، العددان ١-٢، السنة السادسة والعشرون، ١٤٢١ هـ، ص ١٢٦-١٢٧.
(*) وفي اللغة العربية الفصحى فإن كلمة أدمة تعنى السُمره، والأدم من الناس: الأسمر منهم. انظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلد ١.

(٢) عنان، زيد بن علي، المرجع السابق، النقش رقم ٢٩، ص ٢٥٦

(3) Maraqtan, Mohammed, Newly discovered sabaic inscriptions from Mahram Bilqis, near Marib, Seminar For Arabian Studies, Vol32, 2002. P.213-214..Fig 6.

(٤) الإرياني، مطهر، علي، المرجع السابق، ص ١٠٩.

بينما استخدم لفظ (عبد) مع المعبود المقه. وقد استخدمت كلمة (أدم) في النصوص الصفوية كاسم علم في النص التالي (صورة ١٢) ويقرأ:

ل آدم بن ع ش ق

أي: ل آدم بن عاشق^(١).

ج - الألفاظ الدالة على العبيد في أسماء الأعلام

استخدمت كلمة (عبد) في الكثير من أسماء الأعلام المركبة في شبه الجزيرة العربية كقطع أول لتعبّر عن عبودية البشر للمعبودات وحرصهم على الارتباط بهم، وقد انتشرت هذه الأسماء بكثرة في أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة العربية، ففي جنوب شبه الجزيرة العربية عُرف منها: (ع ب د ش م س م) أي (عبد شمس) (CIH ٨١)^(٢)، و(ع ب د ع ث ر) أي (عبد عثر) (Ja 654)^(٣)، و(ع ب أ و م) أي: (عبد أوام) (JA ٦٦٩)^(٤)، و(ع ب د إ ل) أي (عبد إل) (RES3552)^(٥)، و(عبد عم Ja 651)^(٦)، وعند الثموديين عبد منات^(٧) وعبدل بمعنى عبد إل^(٨)، وعبد بن لهب^(٩)، وعبد ود^(١٠)، وعند الصفويين عبد، عبدل، وعبدى وعبد إل^(١١).

(١) الخريشة، فواز حمد، المرجع السابق، ص ٨١.

(٢) بافقيه، محمد عبد القادر، وآخرون، المرجع السابق، نقش رقم 4.

(3) Jamme, A, A Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Publications of the American Foundation For the Study of Man, Baltimore, Johns Hopkins Press, 1962, Pl.16.

(4) Ibid, P.l.19 -

(٥) بافقيه، محمد عبد القادر وآخرون، المرجع السابق، نقش رقم ٨٩.

(٦) Jamme, A, op cit, P155.

(٧) الروسان، محمود، القبائل التمودية والصفوية، ص ١٤٧، ١٣٢.

(٨) الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش ثمودية من سكاكا (قاع فريخة، والطوير، والقدير) المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢م، ص ٢٥، نقش ٩.

(٩) الروسان، محمود، المرجع السابق، ص ٨٣.

(١٠) نفس المرجع، ص ١٩٢.

(١١) الخريشة، فواز حمد، المرجع السابق، ص ١٩، ٢٣، ٧٧، ٨٦.

وقد عُرف عند الميديانيين أسماء كثيرة مثل: عبد اللات، وعبد ود، وعبد يغوث، وعبد مناة، وعبد باليل، وعبد تشباك^(١) وعند الأنباط وردت كلمة (ع ب د ا) في النصوص النبطية بمعنى الخادم، وانتشر لفظ (ع ب د) في أسماء الأعلام النبطية بشكل واسع^(٢)، ومن هذه الأسماء: عبد نثيرو^(٣)، وعبد عبودة، وعبد ملكو^(٤)، وعبد غوث^(٥).

وحتى قبيل ظهور الإسلام عُرفت مثل هذه الأسماء بين أهل قريش مثل عبد مناف وكان من أسماء العرب أيضاً: عبد غنم، وعبد كلال، وعبد رضى^(٦)، وعبد باجر، وعبد العزى^(٧)، وكان الاسم الأخير قد عُرف أيضاً في نصوص المسند التي عُثر عليها في قرية الفاو^(٨).

كما استخدم لفظ عبد بصيغ مختلفة للتعبير عن الأسماء المفردة مثل (ع ب د)^(٩) (صورة ٨) و(ع ب د و) في النصوص النبطية^(١٠) (صورة ٩) وورد بصيغة التصغير (ع ب ي د) كاسم مفرد في النصوص النبطية^(١١)، ومن النصوص التي ذكرت اسم (عبيد) JS 85,78; GL 945، و (C 678). ومن نماذج نصوص المسند التي ذكرت لفظ (عبيد) كاسم نص يقرأ:

- (١) سلامة، عواطف أديب، قريش قبل الإسلام، دار المريخ، ١٩٩٤، ص ١٩٣.
- (٢) الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، المعجم النبطي، دراسة مقارنة للمفردات والألفاظ النبطية، ص ١٨٨-١٨٧.
- (٣) عباس، إحسان، تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن ١٩٨٧م، ص ٣٨.
- (٤) المرجع السابق، ص ٦٧، ٦٢.
- (٥) الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية، قسم الآثار والمتاحف، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٨٤م، ص ١٤.
- (٦) الكلبي، هشام بن محمد، الأصنام، تحقيق، أحمد محمد عبيد، المجمع الثقافي، الإمارات، ٢٠٠٣م، ص ٦٣، ٦٦.
- (٧) المرجع السابق، ص ٤٦ هـ، ١٠٤ هـ.
- (٨) الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام، ص ٢٣.
- (٩) الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش جبل أم جذايد النبطية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢م، نقش ٣٦. وانظر: Littmann, "E., Nabataean Inscriptions from Egypt," BSOAS, Vol XVI, p.221.
- (١٠) المرجع السابق، نقش ٨، وانظر: Winnett, F.V. & Reed, W.L., Ancient Records from North Arabia, Toronto 1970 p.150.
- (١١) الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، المرجع السابق، ص ٣٤.

(ع م ر م / ي غ ن م / وأخ ي ه و / ع ب ي د م / و ي س ر م / ب ن ي ز ر ح ن). أى عمر يغنم وأخواه عبيد وياسر بنى زرحان^(١).

كما وردت بعض الألفاظ الدالة على العبيد كأسماء أعلام مفردة مثل: (ع ب د) الذى ورد كاسم علم فى كثير من النقوش الصفوية مثل: عبد بن بدرل (483 WSIJ) عبد بن حنن (297 WSIJ) عبد بن وخس (925 WSIJ). وفى النقوش الثمودية استخدم اسم عبد مثل: عبد بن عاصم (39 HTIJ)، وخبيت بن عبد (50 HTIJ)، وعبد مكت (112A HTIJ)^(٢).

ووردت كلمة (ق ن) كاسم علم بسيط بمعنى الخادم فى النصوص الثمودية مثل: (أ ط ب ن ق ن) (٣) أى: أ ط بن قن (صورة ١٠)، و(ق ن ب ن أ و س إل ق ن ص) (٤) أى: قن بن أوس (صورة ١١).

وقد دخل اسم (قن) فى أسماء الأعلام المركبة عند اللحيانيين مثل: قن مناة^(٥)، كما وردت كلمة (ق ن) كاسم علم فى الكتابات الصفوية، كما فى النص التالى (صورة ١٣):

ل ب ع م ه ب ن ق ن

أى: ل بعمه بن قين.

ونص آخر يقرأ:

ل ق ن ب ن ع ن أ ل

أى: لقين بن عون إيل^(٦).

(١) الإرياني، مطهر على، نقوش مسندية وتعليقات، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) الروسان، محمود، القبائل الثمودية والصفوية، ص ٣٣٤.

(٣) الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٨٠، نقش ٦٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٨٠، نقش ٨٨.

(٥) الروسان، المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٦) الحريشة، فواز حد، المرجع السابق، ص ١٤، نقش ٦.

د- الألفاظ الدالة على الإماء في أسماء الأعلام

واستخدم اللفظ (أ م ت) بكثرة في نصوص المسند في أسماء الإناث المركبة مثل ورودها في السبئية (أ م ت ا ل م ق هـ) (ja 706) أى أمة المقه^(١)، أمة حجر (C 69)، وأمة أب (C533)، وأمة شمس (C 22٤)، وفي القتبانية أمة عم (RES 3962)، وأمة دهنن (RES 3830)، وأمة كهل^(٢)، وأمة عزيز^(٣).

وكما استخدم لفظ عبد في أسماء الذكور. استخدم لفظ (أ م ت) في أسماء الإناث على نحو (أ م ت)، أى أمة^(٤)، كما عبر اللفظ نفسه (أ م ت) في النقوش الثمودية عن الأمة بالإضافة إلى لفظ (ق ن ت) الذى عبر عن نفس المعنى في الثمودية^(٥) وفي اللحيانية^(٦) كما ورد اللفظ (ق ن ت) بمعنى الخادمة^(٧) في النصوص النبطية ودخل في أسماء الأعلام^(٨)، ومن ذلك نص (صورة ٧) يقرأ:

ذكير قنت بر سحرو سلم.

أي: ذكرى وتحيات طيبة (من) قنت بن سحرو.

وفي نص لإحدى المقابر النبطية بمدائن صالح عُرف اسم (قينو) لزوجته صاحب المقبرة^(٨).

وكما استخدم لفظ (ع ب د) في الاسم المركب للعييد استخدم لفظ (أ م ت) على نفس الشاكلة فقد عُرفت في النقوش الثمودية أمة ستار^(٩) في النقوش التدمرية أمة

(١) Jamme A, op,cit.

(٢) الروسان، محمود، القبائل الثمودية والصفوية، ص ١٧٩.

(٣) صالح، عبد العزيز، المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الإصدارات الخاصة (١٤) جامعة الكويت، ١٩٨٥م، ص ٣٦.

(٤) بافقيه، محمد عبد القادر وآخرون، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، نقش رقم ٧١.

(٥) الروسان، محمود، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٦) أبو الحسن، حسين بن علي، المرجع السابق، ص ٣٥٤.

(٧) وفي اللغة العربية الفصحى.

(٨) الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش جبل أم جذايد النبطية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢م، ص ١٦٩، النقش رقم ١٦٤ -

(٩) الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، المرجع السابق، ص ٢٦.

(١٠) الروسان، محمود، المرجع السابق، ص ١٦٨.

اللات^(١)، وفي النقوش اللحيانية أمة يثع بنت داد^(٢)، وأمة حمد^(٣)، وكذلك وردت بصيغة (أ م ت إل) كما في النص (أبو الحسن ٨٨)^(٤)، (صورة ٥) والذي يقرأ:

١- أ م ت إل / فع ل ت .

٢- ه ط ل ل / فرضى هـ .

٣- وأخ ر ت هـ .

والمعنى:

١- أمة إل قدمت .

٢- الزكاة فرضى عنها .

٣- و(عن) ذريتها .

وكان اسم (أ م ت) قد استخدم كاسم علم بسيط لبعض السيدات في نصوص المسند كالنص (فخرى ١٠١) المدون على لوحة جنازية لسيدة سميت (أ م ت ب ن ت س ل م ت) أى أمة بنت سلمة^(٥)، واستخدم الاسم (أ م ت) أيضاً في النصوص النبطية، في عدة نصوص مثل (أمة خالدو)^(٦) وكما في النص التالى الذى يقرأ:

١- د ن ه ك ف ر ا دى ل أ م ت ب ر ت ك م و ل ت .

٢- ل ن ف س هـ و ل و ل د هـ وأخ ر هـ ب س ن ت .

٣- أ ر ب ع ل ر ب إل م ل ك ن ب ط .

والمعنى:

١- هذه المقبرة تخص أمة بنت كمولة

٢- لنفسها ولأولادها وذريتها، سنة

(١) موسكاتى، سبتينو، الحضارات السامية، ترجمة السيد يعقوب بكر، ص ٣٨٥.

(٢) الروسان، محمود، المرجع السابق، ص ١٩٣.

(٣) صالح، عبد العزيز، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٤) أبو الحسن، حسين بن على، قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا، ص ٢٣٧.

(٥) فخرى، أحمد، رحلة أثرية إلى اليمن، ترجمة هنرى رياض ويوسف محمد عبد الله، مراجعة عبد الحليم

نور الدين، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء ١٩٨٨م، ص ١٤٢.

(٦) ربما بمعنى الأمة التابعة للملكة النبطية (خالدو) زوجة الملك حارثة الرابع. انظر: عبد العزيز

صالح، المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة، ص ٢٧.

٣- أربع (من حكم) رب إل ملك نبط^(١).

هذا وقد صورت بعض فنون شبه الجزيرة العربية العبيد وهم في معية أسيادهم على بعض اللوحات، ومن ذلك نصب جنازى لامرأة (صورة ٢) على لوحة من المرمر محفوظ بالمتحف البريطاني^(٢)، وقد نقش نص من سطرين بخط المسند أعلى اللوحة ووسطها يقرأ:

١- ص و ر / ج ل ل ل ت / ب ت / م ف د ت

٢- و ل ي ق م ع ن / ع ث ت ر / ذ ي ث م ر ن ه و /

أى : نصب جليلة بنت مفادة

فليقمع عثر الشارق من يكسره.

وتصور هذه اللوحة الجنازية صاحبها جالسة على كرسي (في الجزء العلوي) تحمل طفلاً في وقار وهندام واضح، وعلى يمينها ويسراها خادمتان في حركة تليان أوامرهما. وفي الجزء السفلى من اللوحة تظهر السيدة راقدة على سرير وتقف عند رأسها أمة تمسح رأسها بيدها اليسرى وتمسك شيئاً بيدها اليمنى، وقد حرص الفنان على تصوير السيدة بحجم كبير والخادومات بحجم أصغر مراعيًا مقام السيدة.

٣- عبيد العرب في النصوص الأجنبية وكتابات الرحالة

وقد ورد اسم العبيد في نصوص الحضارات المجاورة لحضارات شبه الجزيرة العربية، ففي رقيم فارسي أخميني يشير إلى معلومات عن سكان ماكا (ماجان- عمان) ويسجل النص التزود بأنواع من الطعام والشراب ويسجل أسماء حاملي هذه البضائع وأعداد المسافرين وطرق سفرهم، ومن هذه النصوص نصان يعودان إلى حوالى عام ٤٩٩ قبل الميلاد، وقد ذكر النص الأول أن من تسلموا البضائع من العرب كانوا ٦٢ رجلاً

(١) الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش الحجر النبطية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٨ م، ص ٢٩٥.

(٢) Pirenne, J, "Notes d' Arche'ologie sud -Arabe, SYRIA, Tom XLII, Paris, 1965 (٢) p.113, Fig.1.

حرّاً، ومائة عبد، سافروا من سوسة إلى ماكا في السنة الثانية والعشرين من حكم الملك داريوس^(١). وكما سبق القول فإن نصوصاً بيزنطية ذكرت عبيد العرب وذلك ضمن اللائحة القانونية الحميرية التي صدرت في الفترة الممتدة بين، ٥٣٠-٥٦٠ م^(٢)، والتي وردت فيها بنود هامة تتعلق بالعبيد في جنوب شبه الجزيرة العربية.

وقد ورد ذكر لعبيد العرب في نص إغريقي عُرف برسالة الشهداء لحارثة يرجع إلى القرن السادس ومعنى النص: "وتقديم ما أنت مدين لي به دوماً لهذه السنة، أي ضريبة الأعناق عن كل فرد رجلاً كان أو امرأة، عبداً أو إنساناً حرّاً، شاباً أو عجوزاً، مزارعاً أو حرفياً، أي خلقة"^(٣).

وقد أورد مؤلف كتاب الطواف حول البحر الإريتري ما يشير إلى الاحتكار الملكي للبان أيضاً حيث ذكر أن العبيد الملكيين كانوا ضمن من يقومون بجمع اللبان من غابات اللبان في إقليم ساخاليتيس^(٤).

وتحدث استرابو عن الرقيق في المجتمع النبطي فذكر ما يلي: "ولما كان العبيد لديهم قليلين، فإن من يقوم بالخدمة فيما بينهم هم ناس منهم في معظم الأحوال، أو يخدم أحدهم الآخر، أو يقوم الفرد منهم بشئون نفسه وهذه العادة تشمل الملوك أنفسهم"^(٥).

٣- الاتجار في العبيد والإماء

تتحدث الكثير من نقوش جنوب شبه الجزيرة العربية عن حالات بيع وشراء العبيد، وكان العرب يتاجرون بالعبيد بين أسواق الرومان وإيران ويتعاونهم في

(١) ابن صراي، حمد محمد، منطقة الخليج العربي، من القرن الثالث ق.م إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين، المجمع الثقافي أبوظبي، ٢٠٠٠م، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٢) على النعيم، نورة بنت عبد الله، التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حير، الرياض ٢٠٠٠م، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٣) هاى، ستوارت مونرو، العملة النقدية في الإمبراطورية الحميرية، من كتاب اليمن، معهد العالم العربي، باريس، ودار الأهل لدمشق ١٩٩٩م، ص ١٩٧.

(٤) عبد الغنى، محمد السيد شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٥) عباس، إحسان، تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن ١٩٨٧م، ص ١٢١.

أسواقهم الداخلية الدائمة والموسمية، وكان في هذه الأسواق العبيد السود (الزنوج) المجلوبون من السواحل الشرقية الإفريقية (الحبشة) إذ يتم تجميعهم في ميناء (عدوى) فيخسون الرجال منهم ويحملونهم في السفن إلى اليمن وباقي مناطق شبه الجزيرة العربية.

بينما كان العبد الأبيض يستورد من أسواق العراق وبلاد الشام، حيث نجد إشارة في التوراة إلى السبثيين كانوا يشترون العبيد من مناطق بلاد الشام، حيث ورد لهم تهديد (يهوذا) يتوعد في صور وصيدون وبقاع فلسطين جميعاً، بأن لا يبيع بنيتهم وبناتهم بأيدي يهوذا للسبثيين، وهي أمة بعيدة، وذلك رداً على ما فعلوه، حين باعوا بني يهوذا وبني أورشليم لبني الياوانيين وهم اليونان المفروض أن يكون العبيد من غير العرب، ولكن قد يؤسر العربي في الحرب ثم لا يستطيع اقتداء نفسه بهال فيتحول إلى عبد لأن الأسير هو ملك لأسرة، يستخدمه في بيته أو يعهد إليه أى عمل يشاء، ليس له حق الاعتراض لأنه في ملك مالكه يحق له بيعه في الأسواق، وإذا أبى الأسير حق لصاحبه قتله، كما كان من حق مالك العبد أن يقتله، ولاحقاً لأحد من منعه لأنه ملك يمين، ولمالك اليمين التصرف بملكه كيفما يشاء^(١) وكانت مدين سوقاً تجارية لكثير من السلع ومنها تجارة الرقيق^(٢) وفي التوراة (سفر العدد ٣١-١٨) يتحدث عن حرب دارت بين اليهود وأهل مدين أريد فيها أهل مدين حيث قُتل جميع الذكور والنساء ما عدا ٣٢ ألف فتاة عذراء أخذهم اليهود سبايا^(٣).

وجاء في التوراة أن قافلة الإسماعيليين القادمة من جلعاد وجاهم حاملية كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين إلى مصر، وباعوا يوسف^(٤) (عليه السلام)، وقد وردت قصة بيع يوسف (عليه السلام) في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا

(١) الحمد، جواد مطر، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم، دار الثقافة العربية، الشارقة ٢٠٠٢م ص ١٩٥-١٩٦.

(٢) سلامة، عواطف أديب، قرش قبل الإسلام، دار المريخ، ١٩٩٤، ص ٢٨٥.

(٣) سلامة، عواطف بنت أديب بن علي، أهل مدين، دراسة للخصائص والعلاقات ١٣٥٠-١١٠٠ ق.م، الرياض، ٢٠٠١م، ص ٥٦٨.

(٤) التكوين ٣٧: ٢٥-٣٠.

وَأَرَادَهُمْ فَأَذَلَّ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾
وَسَرُّهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الرَّاغِبِينَ ﴿٦١﴾. وفي ذلك دليل على قدم
تجارة الرقيق .

وقد كان بنو يهودا يعملون في تجارة الرقيق، وكان لهم شأن كبير في هذه التجارة إما
باحتمارهم لها أو لتخصصهم في إدارة شؤون هذه التجارة على وجه الخصوص، وكانت
التجارة تتم بالمقايضة، ودفع التجار الرقيق ثمناً لتجارة البخور، وكان الرقيق متوافراً عن
طريق الحروب حيث يتم أخذ الأسرى والمتاجرة بهم كرقيق. وقد دفع الفينيقيون رقيقاً
من بنى إسرائيل ثمناً للبخور حيث كان العبيد يدفعون كمقايضة في مقابل بضائع العرب
الثمينة^(٢).

وفي مطلع القرن السابع الميلادي كان في مكة الكثير من الرقيق الأجنبي وامتلك
أهل مكة عبيدهم وإماءهم عن طريق الشراء غالباً. وقلة منهم عن طريق الأسر والسبي
نظراً لقلة حروب قريش وقلة اشتراكهم في الغزو والغارات. وشراء رقيقهم يتم من
أسواق تجارة الرقيق. فلشدة حاجة المجتمع إلى هذه البضاعة الحية خصصوا لها الأسواق
وشدوا الرحال إليها لجلب الرقيق^(٣).

ويبدو أن اقتناء الإماء أو بيعهن كان أمراً مألوفاً في أنحاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية
قبل الإسلام، ففي ممالك جنوب شبه الجزيرة العربية دلت على ذلك الكثير من النصوص
منها نص (من عصر الملك شمر يهرعش ملك سبأ وذو ريدان) يتحدث عن تنظيم
الاتفاقات التجارية والمالية^(٤) (صورة ١) يرد في السطر الثالث منه ذكر للعبيد ذكوراً كانوا
أم إناثاً- بصيغة (ع ب د م / ف أ و / أ م ت م)، أي عبداً أو أمة- كإحدى السلع التي
يتعامل فيها السبئيون بالبيع والشراء.

(١) سورة يوسف، الآيتان ١٩-٢٠.

(٢) سلامة، عواطف بنت أديب بن علي، أهل المرجع السابق، ص ٥٢٦-٥٢٧، ١٠٥٢٧.

(٣) سلامة، عواطف أديب، قريش قبل الإسلام، دار المريخ، ١٩٩٤، ص ٦٤، ٧٦.

(٤) رويان، كريستيان جوليان، حضارة الكتابة، كتاب اليمن، معهد العالم العربي بباريس، ١٩٩٩، ص

٨٥: وانظر: البريبي، إبراهيم بن ناصر إبراهيم، الحرف والصناعات في ضوء نقوش المسند الجنوبي،

وكالة الآثار والمتاحف، المملكة العربية السعودية الرياض ٢٠٠٠ م، ص ١٥١

وترجمة هذا النص:

هكذا أُمِرَ وقرّر وثبت ودون ، ملك شمر يهرعش ملك سبأ وذو ريدان ابن ياسر يهنع(م) ملك سبأ وذو ريدان لرعاياه قبيلة سبأ أعيان مدينة مأرب ووديانها فيما يتعلق بكل بيع ومعاملة سيقومون بها:

إن كان إنساناً أو إبلاً أو ثوراً أو بعيراً أو سواه، إذا اشترى أحد عبداً أو أمة، أو حيواناً أو شيئاً آخر، فلتكن مدة الانتظار (قبل إبرام العقد النهائي) شهراً ، وإذا أراد أحدهم بعد عشرة أو عشرين يوماً أن يعيد ثوراً أو جملًا أو حيواناً يتوجب عليه دفع أجرته عن المدة التي استخدمه فيها ،وعندما (وإذا) يموت الحيوان المشتري عند الشاري ، فالبائع ليس مسئولاً عن موته وعدم بقاءه ويجب على الشاري أن يدفع للبائع ثمنه ، وإذا استعار أحدهم أو أعار نقوداً أو أموالاً عينية، فإما أن ينص على أجره أو تسديد في تاريخ غير محدد بعبد أو أم (ة).

وعُرف عن الأنباط امتلاكهم للعبيد، وأن أثرياءهم كانوا يقتنون قينات تسرى عنهم في حفلاتهم^(١). وضم المجتمع الثمودي عبداً في تركيبته الطبقية ويصعب معرفة ما إذا كانوا من السكان الأصليين، أم جاءوا بطريق التجارة، ففي أحد النقوش يذكر صاحبه "داد أصبح عبد"، وكان البعض يعتق عبده أحياناً، ففي نقش يذكر صاحبه أنه "عبد حُر"^(٢).

وقد ملك بنو مخزوم إماء يونانيات وكذلك ملكهن العباس بن عبد المطلب. وكان لدى أهل مكة إماء فارسيات. وأغليتيهن تدين بالنصرانية^(٣).

وقد كانت المرأة اليهودية تُباع أيضاً كأمة حيث كان لأبائهم الحق في بيع بناتهم القاصرات^(٤). ويشير كتاب العهد القديم إلى بعض العلاقات التجارية بين العرب والعبرانيين، ومن ذلك إشارة إلى أن السبئيين في جنوب شبه الجزيرة العربية كانوا يشترون

(١) عباس، إحسان، المرجع السابق، ص ١٢١.

(٢) الروسان، محمود، القبائل الثمودية والصفوية، ص ١٣٩.

(٣) سلامة، عواطف أديب، قریش قبل الإسلام، دار المریخ، ١٩٩٤، ص ٧٧.

(٤) الحوفي، أحمد محمد، المرأة في الشعر الجاهلي، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٠.

العبيد من خارج البلاد للعمل في خدمة بيوت الأثرياء والعمل في مزارعهم، فتورد التوراة تهديداً من جانب يهوه يتوعد فيه صور وصيدون وجميع بقاع فلسطين بأن يبيع بنيتهم وبناتهم بأيدي يهوذا للسبئين. (وأبيع بناتكم بيد بنى يهوذا يبيعوهم للسبئين لأمة بعيدة) وذلك رداً على ما فعلوه، حين باعوا "بنى يهوذا وبنى أورشليم لبنى الياوانيين" وهم اليونان^(١).

وكان يبيع اليهوديات كإماء أمراً مألوفاً، فحينما تجددت ثورة اليهود ضد الرومان وقضى عليها هدریان فيما بين عامى ١٣٢-١٣٥ باع النساء اليهوديات كإماء^(٢).

٤-المصادر غير التجارية للعبيد

تناولت النصوص اليمنية القديمة الكثير من الحروب والصراعات التى قامت بين الممالك اليمنية فى الداخل وبينها وبين أعدائها فى الخارج، وتحدثت عن الكثير من السبى والأسر للأعداء، وكان الأسرى والسبايا يتحولون بطبيعة الحال إلى عبيد لدى من قاموا بأسرهم.

وقد ذكرت نصوص الحروب استيلاء المنتصرين على عبيد المنهزمين^(٣).

وتبين بعض النصوص أسلوباً غير واضح يقوم فيه البعض ببيع أبناء الأحرار كعبيد، ففى النص التالى (CIH 603=HAL 344=RES 2861) يعالج قضية بيع الأحرار كرقيق، أو تأجيرهم، ويضع المسئولية على كبير المدينة فى الحد من هذه الظاهرة عن طريق تدوين تحذير لمن يقوم بمثل هذا العمل^(٤).

ويقرأ النص:

- ١-
- ٢-
- ٣- وم

(١) يحيى، لطفى عبد الوهاب، العرب فى العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٩ م. ص ١٢٩، وانظر نبوءة يوثيل، إصحاح ٣: ٨.

(٢) مهران، محمد بيومى، تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٨، ص ٤٤٩.

(٣) بافقيه، محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء ١٩٨٥، ص ٦٣-٦٤.

(٤) على النعيم، نورة بنت عبد الله، المرجع السابق، ص ٤٨٨-٤٨٩.

- ٤- ن / ل ي ش أم / ب ن
- ٥- ع ب د / أ س م / و ع ش ب
- ٦- ه و / و ك و ن / خ
- ٧- ط أم / ش أم ت ن / ب
- ٨- أ ه ج ر ن / ل ك ذ / ك
- ٩- ب ر / ذ و ق ر / ج ذ ر ن
- ١٠- ش ب م / و ذ س أ
- ١١- م / ل و ع ن / ق د م
- ١٢- و د و ر م / و ل ي م ح
- ١٣- ن
- والمعنى:
- ٣- ومن
- ٤- يشتري ابن
- ٥- رجل حر كرقيق ويؤجره
- ٦- ويكون خطأ
- ٧- هذا الشراء (إذا) حدث
- ٨- داخل المدن
- ٩- فإن على الكبير (الذى) دون تحذيراً
- ١٠- من العقاب وهذا الشراء
- ١١- (لينظر فيه) عليه القوم.

وربما يوحى النص أن هناك من كان لديهم القدرة على سرقة أبناء الأحرار وتنكيرهم وبيعهم كعبيد في الأسواق، ولما انتشرت مثل هذه الأعمال صدر هذا المرسوم للقضاء على هذه الظاهرة ومعاقبة القائمين عليها حتى لا يتعرض أبناء الأحرار لما يتعرض له العبيد. ويذكر أن غالبية الرقيق في مكة قبل الإسلام كانوا من الغرباء عنها، أو أنهم كانوا من أسرى الحرب والغزو. حيث يكون مصير الأسير التملك فيباع ويشتري، أو إذا كان شريفاً في قومه يتخذ مولى وحليفاً^(١).

(١) سلامة، عواطف أديب، قریش قبل الإسلام، دار المريخ، ١٩٩٤، ص ٦٤. وانظر النويري ج ٣/ ١٢٢.

٥- الأوضاع الاجتماعية للعبيد والإماء

كانت القوانين المحلية والدولية تعد الاتجار ببيع العبيد والرقائق تجارة مشروعة وتُعد العبيد ملك يعين لصاحبه، كما لم تحول القوانين للعبد حق إبداء رأيه في مستقبله في أى حال من الأحوال، فهم ضرب من ضروب الملكية. وقد احتلوا في المصادر السريانية موضعاً يلى الذهب والفضة، أما في المصادر اليونانية، فيسبق العبيد في الترتيب الضياع والبساتين. وكان العبيد يقومون بالخدمة والأعمال التى يأنف الإنسان الحر من ممارستها، ويتوارث نسلهم هذه الأعمال وفقدان الحرية، إلا إذا مَنَّ المالك على عبده بفك رقبتة، فيصير حراً وتنتقل الحرية إلى نسله كذلك.^(١)

وتبين بعض النصوص طبقات المجتمع في شبه الجزيرة العربية، وتؤكد على الفروق الاجتماعية بين الأحرار والعبيد بوضوح. فقد ورد في نص معينى هذه الجملة : ب س م / كل / م ع ن م / ح ر م / وأج ر م / وم ش ك م / وض ب ر / وف ق ض م .

وتفسيره : " باسم كل معين : حر وأجير ومشك وضبر ونقض "، فهو يشير إلى فئات اجتماعية المجتمع المعينى، والأحرار هم المكونون للطبقة الأولى العليا من طبقات المجتمع كما أنهم المقربون، وهم المعبر عنهم في النص آنف الذكر بـ حرم، أى : الأحرار، أى أن لهم مطلق الحرية في تصرفهم وفي تعاملهم، يملكون الرقيق، وهم أيضاً على درجات تتناسب مع المكانة والقوة في العشيرة والجاه والمال.^(٢)

وتأتى طبقة (أ د و م ت) أو العبيد، كأدنى طبقة بين الطبقات المذكورة في نصوص جنوب شبه الجزيرة العربية، وهم غير أحرار تابعون للأرض، ويشغلون بالحرف، فهم أحرار من حيث التنقل وامتهان الحرف إلا أنهم من الفئات الدنيا، وهذا يدلنا على التفاوت بين أفراد القبيلة الواحدة اجتماعياً ووظيفياً وكذلك في الحرف والصناعات، مثل قبيلة سبأ، كما يوضحه هذا النقش:

(١) الحمد، جواد مطر، المرجع السابق، ص ١٩٥-١٩٦.

(٢) البرهوى، إبراهيم بن ناصر إبراهيم، الحرف والصناعات في ضوء نقوش المسند الجنوبي، وكالة الآثار والمتاحف، المملكة العربية السعودية الرياض ٢٠٠٠ م، ص ٣٠.

"هـ ن ي ك ر ب / م ل ك / و ت ر / م ل ك س ب أ / ب ن / ي د ع إ ل / ب ي
ن / م ل ك / س ب أ / و ع د / أ ل ذ / س ت ق ر ا / أ ش ع ب / س ب أ / خ ل ل /
و غ ن م / و د و م / و ع ه ر / و ف ي ش ن / و ن ز ح ت / و أ ر ب ع ن / و ح ر ن
/ و م ز و د / ب ك ي ت ه م و / ش ع ب ن / ز خ ل م / و ت ع ق م / ب ن / ع ل
ي / و م ه و / س ب أ / و ي ه ب ل ح / و ل د ه م و / و ذ ا ع / ذ ر ه م و / أ د
م ت ه م و".

والمعنى: "إن يكرب ملك وتار ملك سبأ بن يدع إل بين ملك سبأ أصدر هذا المرسوم
الذي أبلغه قبائل سبأ وهي: خليل، غانم، دوم، عهر فيشان، نزحت، أربعان، حران
ورؤساءها، كليتهم، وقبيلة زخل ونفق بن على وتابعي سبأ ويهبلح أبناء وآباء وأحرارا
وعبيدا"^(١).

وذكرت بعض الأسر في نصوصها العبيد في موضع يلي الأبناء ويسبق الممتلكات مثلما
فعل أبناء أب يدع بن أبجل حينما قدموا لمعبودهم حوكم القطاف الأولى من ثمارهم عن
أنفسهم وأناسهم وجميع أولادهم، وعبيدهم وأملاكهم^(٢). وكان العبد يلقي عند بعض
الأسر التي يعمل لديها عناية من أفرادها، وربما نظروا إلى عبوديته نظرة مؤقتة كأنها
عبودية عمل فقد تعدى عملهم المنزل إلى الاشتغال بالإنتاج، وقد تكفل راعي العبد
بحمايته، وكذلك أوصى من يُرسل إليه العبد بحمايته^(٣).

كان العبيد يعدون ضمن أملاك أسيادهم، وهم يُشترَو ويبيعون، ويُملكون
للعائلات الكبيرة الثرية بواسطة مراسيم ملكية تصدر بهذا الشأن^(٤).

وتذكر نصوص جنوب شبه الجزيرة العربية أنه كان للملك الكثير من التابعين الذين
عُرفوا بـ (𐩧𐩢𐩨𐩣 | 𐩧𐩢𐩨𐩣) (ع ب د / م ل ك ن) و (𐩧𐩢𐩨𐩣 | 𐩧𐩢𐩨𐩣) (أ د م / م ل ك

(١) البريقي، إبراهيم بن ناصر إبراهيم، المرجع السابق، ص ٣٠.

(٢) الروسان، محمود محمد، نقش دارة الملك عبد العزيز، مجلة الدارة، العدد الرابع السنة الثانية عشرة
مارس ١٩٨٧م، ص ١٩.

(٣) الحمد، جواد مطر، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

(٤) الشيبة، عبد الله حسن، دراسات في تاريخ اليمن القديم، مكتبة الوعى الثورى بتعز، اليمن ٢٠٠٠م،
ص ٢٤٦-٢٤٧.

ن (أى خادم الملك، أو تابعه. وقد كان هؤلاء العبيد في أغلب النصوص المعروفة لا يحملون اسم الملك التابعين له في تسميتهم مما يرجح أنهم كانوا في خدمة المؤسسة الملكية^(١)). وقد ذكرت بعض النصوص عبيد القصر الملكي المسمى شقير في شبوة^(٢).

وتبين النصوص أن بعض العبيد امتلكوا قطعاً من الأراضي والحيوانات ويُفهم من النقش أن بعض السادة قد منحوا قطعاً من الأراضي لعبيدهم كهبة، كما تُظهر النصوص العبيد في شبام سخيم (الغراس) ملاكاً للبيوت ومقدمين لنقوش تتحدث عن الأبنية^(٣). وكان سكان تدمر يتألفون من فئات مختلفة: المواطنون الأحرار والعبيد والأجانب الذين كان أغلبهم من الإغريق والعبيد المحررون. ولم تكن لهم مكانة محترمة في المجتمع^(٤). وقد دخل الرقيق المُعتق في عداد الموالى والحلفاء لقبائل مكة^(٥) حيث كانت أعراف القبيلة تنص على أن العبيد الذين حُرروا لا يصبحون أبناء القبيلة وإنما يتحولون إلى موالى أو أتباع مهما قَدِموا من خدمات^(٦).

ويظهر صدى امتلاك واستخدام العبيد في اليمن القديم في العهد الإسلامي، فثمة أمثلة كثيرة منها: كان مولياً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثوبان وفضالة من عبيد اليمن، كما كان ل (ذى الكلاع) عدد كبير من العبيد يتراوح بين ٤-١٢ ألفاً، ولـ (حمزة ابن أيفع الهمدانى) أربعة آلاف عبد أعتقهم كلهم ولبنى طريف من كندة عبيد، وهمدان^(٧). وقد كان للسيد سلطة كاملة، ونفذ تام على عبيده، وإمائه. وتتضح سلطته أكثر في تعذيب أولئك العبيد والإماء أيضاً إبان ظهور الدعوة الإسلامية في مكة، لأن الرقيق المضطهد سارع إلى اعتناق الإسلام والمشاركة الفعالة في هذه الثورة الدينية الحققة والاجتماعية. خاصة وأن الإسلام أعطاهم حقوقاً كثيرة افتقدوها في حياتهم. وضمن لهم

(١) الشيبه، عبد الله حسن، المرجع السابق، ص ٢٤٨.

(٢) بافقيه، محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم، ص ١٠٧.

(٣) الشيبه، عبد الله حسن، المرجع السابق، ص ٢٤٥، ٢٤٧.

(٤) خربوطلى، شكران، وسهيل زكار، تاريخ الوطن العربى القديم (الجزيرة العربية)، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٠م، ص ١١٥.

(٥) سلامة، عواطف أديب، قریش قبل الإسلام، دار المربخ، ١٩٩٤، ص ٦٤.

(٦) يحيى، لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، ص ٢٧٤.

(٧) الحمد، جواد مطر، المرجع السابق، ص ٢٠١-٢٠٢.

المساواة والعدالة الإنسانية الاجتماعية الرائعة. فيما كان من السادة إلا أن هبوا لمقاومة الرقيق وازدادوا في اضطهادهم بالتعذيب بشتى ألوانه وأنواعه الممكنة. فلجأوا إلى جلدهم بالسياط، وكبهم من الصخور الملتهبة من حرارة الشمس كما فعل أمية بن خلف بعبد بلال بن رباح^(١).

ولم تكن أوضاع الإماء أفضل حالاً من العبيد فكانت إمكانات التعبير لديهن محدودة، وكان الفرق كبيراً بينهما وبين النساء من الحرائر، ولكن كن يشتركن معهن في الاهتمام بالأسرة، وكان لهن حق التجارة. ففي النص (CIH 581) يساومن حجاراً على تسليم تمثال نذرى دون تدخل سيدهن أو رجال آخرين، وقمن برفض دفع الثمن، ولجأن إلى المعبد لحل هذا الخلاف^(٢). وأشار أحد النصوص اللحيانية إلى اهتمام الأسرة اللحيانية بالإماء وشموهن بالدعاء عند المعبودات كما في النقش (أبو الحسن ١٢٩) (صورة ٦)، والذي يقرأ كالتالى:

- ١- ع ب د ل وى
- ٢- (أ) ي ك م / و س ط
- ٣- ذ ع م ن / ح ج ج و
- ٤- ذ غ ب ت / ب ك ه ل
- ٥- ف ر ض ه م
- ٦- و ر ب ه م ز د ل ه / و ق ن ت / ت أ ل.

والمعنى:

- ١- عبد لوى
- ٢- أياكم وسط
- ٣- ذعمن قصدوا
- ٤- ذو غابة بكهل
- ٥- فرضى عنهم

(١) سلامة، المرجع السابق، ص ٦٨.

(٢) الشيبة، عبد الله حسن، المرجع السابق، ٧٢٤.

٦- وعن والدهم زيد لاه

٧- وعبدته تال^(١).

وكان زواج الإماء لا يحتاج إلى خطبة ومهر وعقد، وكان من حق صاحب الأمة، التصرف بها كيفما يشاء ومتى يشاء، فإن رغب في مضاجعتها أو بيعها أو منحها لأحد أولاده، أو للمعبد، أو أن يتزوجها، فإن أنجب منها أبناء كان من حقه أن يعتقهم ويلحقهم بنسبه، ومن حقه ألا يفعل ذلك ويظلوا عبيدا (٢٢٦، ٢٢٧).

وتحدث بعض النصوص التي تناولت موضوع الصلات الجنسية ومشاكلها عن دور للجوارى في هذه العملية، ففي أحد النصوص السبئية (JA 581) ترددت قصة امرأتين من الجوارى كانتا عاقرين فنصحهما الكهنة بتقديم ذبيحة نذراً، وفي أثناء تقديمها سوف تحبل واحدة منهما وفي اليوم السادس جاء رجل ليس له اسم وعاش معها في المنزل، وكانت نتيجة ذلك أن حملت واحدة منها^(٢).

وكثر الرقيق في بيوت أغنياء مكة، فامتلك السيد القرشي العديد من الرقيق بنوعيه ذكورا وإناثا، وبلونيه الأسود والأبيض. وتناسى السيد المالك في معظم الحالات أن عبيده وإماءه من البشر فلم يصن إنسانيتهم وأدميتهم، وعلى ذلك فقد كانت ترزح في الحضيض تحت نير سادتهم وطغيانهم عليهم. وتعتبر أدنى طبقات المجتمع في مكة، وتقوم بكافة أعمال الخدمة^(٣).

٦- الأعمال المسندة للعبيد والإماء

أسند للعبيد في مختلف مناطق حضارات شبه الجزيرة العربية عدة أعمال اشتهروا بممارستها، فقد مارس العبيد في اليمن القديم كل الحرف التي يستهجنها الأفراد الأحرار، منها الحرف والصنائع والمهن الخدمية وكذلك الزراعة. ويعتقد أن رقيق الأرض، كما أطلق عليهم (أ د و م ت) كانوا مرتبطين بالأرض يعدون جزءا منها، بحيث إذا بيعت

(١) أبو الحسن، حسين بن علي، المرجع السابق، ص ٢٩٠.

(٢) الحمد، جواد مطر، المرجع السابق، ص ٢٦٤-٢٦٥.

(٣) سلامة، عواطف أديب، قریش قبل الإسلام، دار المریخ ١٩٩٤، ص ٦٤.

بيعوا ضمنها، وحين قام الملك (كرب إل وتر) بشراء أراضي باسم الدولة كان عليها أناس (رقيق الأرض) وحيوان وزرع^(١).

ووظف أهل مكة عبيدهم في الأعمال التى تركها السادة وتخلوا عنها وقد وزعوا عبيدهم على مختلف الأعمال على عدة أوجه: حيث وظفوا الرقيق الأبيض في أعمال فنية تحتاج إلى الخبرة والمران إضافة إلى البراعة والمهارة في إنجاز العمل مثل: البناء والتجارة وبعض الحرف الدقيقة والمساعدة في إدارة أعمال التجارة وشؤونها. ووظفوا الرقيق الأسود وقد عمل في رعى المواشى وساس الخيل، والخدمة في البيوت وفي الأسفار والمزارع. كما قام السادة بتوظيف بعض الرقيق في الحروب حيث يدفع كل سيد بعبيده للحرب مع الفرسان عند الدفاع عن القبيلة. والإماء لخدمة ومساعدة النساء المشتركات في المعركة. وقد اشتهر الكثير من العبيد وأبناء الإماء بالفروسية، كما أجاد بعض العبيد في مكة القراءة والكتابة إلى جانب إتقان بعضهم المهن الحرفية اليدوية. وقد خصص أهل مكة للإماء الخدمة في البيوت كإعداد الطعام ونحوه، وكذلك في خارجها لجمع الحطب وحلب النوق، والاعتناء بسيدات قريش من تلييس وتزيين وتمشيط الشعر، وكذلك اتخذ السادة بعض الإماء زوجات، أو خليات لإمتاع السيد في أوقات السمر والتسلية يدخل بهن السيد دون عقد فهن ملك يمينه^(٢).

٧- المواد التشريعية الخاصة بالعبيد والإماء

ورد ذكر العبيد والإماء في كثير من التشريعات التى عُرفت في جنوب شبه الجزيرة العربية، كما ورد في عدة نصوص موضوعات ارتبطت بنزاعات قامت بين بعض العبيد وغيرهم من أبناء مجتمعاتهم، فقد تناولت بعض مواد تلك التشريعات الكثير من الحقوق والواجبات المفروضة عليهم، وكان منها ما يلي:

في مجال حقوق العبيد يظهر منهم مدعى عليهم ومدعين، فكانوا يقترضون أموالاً من غير أسيادهم، ويسددون ديونهم، وكانوا يقترفون الجنح ويتقاضون عليها (RES4964)^(٣).

(١) الحمد، جواد مطر، المرجع السابق، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٢) سلامة، عواطف أديب، المرجع السابق، ص ٦٦.

(٣) الشيبة، عبد الله حسن، المرجع السابق، ص ٢٤٦-٢٤٧.

وقد ورد في اللائحة القانونية الحميرية التي صدرت في الفترة الممتدة بين، ٥٣٠-٥٦٠ م، وتتكون من ٦٤ بنداً^(١) عدة بنود خاصة بالعبيد منها:

اعتراف القوانين بوجود الرق، ولكنها وضعت قيوداً عليه حيث حثت على حسن معاملته والرفق به وألزمت سيده بتوفير زوجة لعبده وزوجاً لأُمته، حفاظاً على عفتها^(٢) وإن تعذر السيد بعدم قدرته المالية على تحقيق ذلك، يُمنع من الحصول على الرقيق، ونصت مادة أخرى على أنه إذا مارس رجل حر الزنا مع امرأة مملوكة يصبح هو رقيقاً لأسيادها، والعكس إذا مارست امرأة حرة الزنا مع عبد تصبح هي مملوكة لأسياده^(٣).

كما حرصت السلطة على حسن معاملة العبيد حيث كان لها الحق بمنح الحرية للأرقاء الذين يسىء سيدهم معاملتهم^(٤) وطالبت السيد بتوفير ما يحتاجه الرقيق من كسوة ومثونة، كما منعت استخدام الضرب، وحرمت على من يمارسه اقتناء الرقيق، إلا بعد تعهده بعدم الإساءة إليهم^(٥) كما ساوت القوانين بين العبد والحر في حق اللجوء للكنيسة وبراء العبد من ذنبه إذا طُرد منها، ويُعاقب من طرده منها بتحويله إلى عبد عن طريق بيعه في سوق الرقيق^(٦).

٨-الأوضاع الدينية للعبيد والإماء

كان من الإماء من كن يعملن بغايا مقدسات في المعبد يوهبن للمعبود من قبل أهلهن أو يهبن هن أنفسهن. وفي أحد النصوص (RY4 796) قدم رجل جارية للمعبد كفارة بعد أن أوصى المعبود المقه ببراءته إثر اشتراكه في ثورة ضد الملك^(٧).

وارتبط بخدمة المعبد أفراد من العبيد والإماء عُرفت الإماء منهن بـ (بنات إل)، فقد ورد في النقشين (RES 2773)، (RES 3445) ذكر لنساء من أصول يمنية

(١) على النعيم، نورة بنت عبد الله، المرجع السابق، ص ٣٧٤-٣٧٥.

(*) البند ٥٩.

(♠) البند ١١.

(♦) البند ٥٣.

(●) البند ٥٤.

(Θ) البند ٤٣.

(٢) الحمد، جواد مطر، المرجع السابق، ص ٢٦١-٢٦٢.

وعربية^(١). وقد تُسبِن هؤلاء الإماء إلى ٢٤ موضعًا من خارج معين توزع بعضًا في مواطن عربية جنوبية وشالية داخل شبه الجزيرة العربية مثل مناطق: حضرموت وقتبان وأوسان في الجنوب، ومناطق: دادان ولحيان ويثرب وقيدار في الشمال وتوزع بعض آخر في مدن وأقطار بعيدة عن شبه الجزيرة العربية من أمثال: مؤاب وعمون وغزة وصيدا ومصر، وكان أكثرهن من غرة ٢٧ أمة، ودادان نسب إليها تسع، وقيدار ثلاث^(٢)، وثمانية منهن جلبن من مصر، وكان من بينهن واحدة حملت اسم (أم ت)^(٣).

وثمة آخرون من العبيد الذكور (أقنان) كانوا قد أُهدوا إلى المعبودات ليتولوا القيام بالأعمال الشاقة منذ إنشاء المعبد (CIH 545)^(٤).

وفي نقش معيني من العُلا إشارة إلى فئة من الناس كانوا قد قُدموا كرهائن للمعبد، وأصبحوا خدماً فيه. وفي النقش (RES 3357) يذكر أن امرأة تدعى (حو إل) كان قد اشتراها شخص ثم قام بإهدائها مع كل ما يملك للمعبود نكرح، وفي النص (GL 720) أهدى المدعو إل أوس زوجته حيوت وكل أبنائه إلى المعبودين عثر والمقه^(٥)، كما أهديت الأطفال إناثاً وذكوراً لخدمة المعابد كما ورد في النص (CIH 492)^(٦) ويقرأ:

١- ح ي و م / بن / بع ث ت ر / رح ض ن / ه ق ن ي / ذ ت ح

٢- م ي م / بن ي ه و / إل ذ ر أ / و ب ن ت ه و / أ ذ نة / و

٣- ك ل / ول د ه و / و م ه ر ت ه و / ب ذ ت ح م ي م

والمعنى:

حيوم بن بعثر رحضن قدم (إلى) ذات حميم بنيهو، إل ذراً وبتنهو أذنة، (أذينة)، وكل ولدهو وثروته لذات حميم.

(١) الجرو، أسمهان، دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم، دار الكتاب الحديث، القاهرة ٢٠٠٣م، ص ٧-١٦٦.

(٢) صالح، عبد العزيز، المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة، ص ٤١.

(٣) فخري، أحمد، رحلة أثرية إلى اليمن، ترجمة هنري رياض ويوسف محمد عبد الله، مراجعة عبد الحليم نور الدين، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء ١٩٨٨م، ص ١٧٠ هـ.

(٤) الجرو، أسمهان، المرجع السابق، ص ١٦٦-١٦٧.

(٥) الجرو، أسمهان، المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٦) بافتيه، محمد عبد القادر، وآخرون، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، نص رقم ١٠، ص ١٤٧.

وتتحدث عدة نقوش (RES 3956،547،533،532،CIH 523) عن التزام الإماء بتعاليم الطهارة الصارمة مثل بقية السكان، وكانت مخالفة بعضهم لهذا الالتزام تستوجب التكفير عنها علناً مع ذكر موضوع المخالفة^(١).

كما تقدمت الإماء بالقرايين ككفارة على الأخطاء المرتكبة مثلها مثل المرأة الحرة، ومن ذلك نص (CIH 504) ويقرأ:

- ١- قى ل ز ا د / أ م ت / ف و ق م
- ٢- ن / ه ق ن ي ت / ذ ت / ب ع د ن م
- ٣- م س ن د ن / ع ذ ب م / ب ذ ت
- ٤- س ل ب ت / ب ت ه / أ ب ع ل ي / ب
- ٥- ن / م ب ح ر / ع د ن / و ل
- ٦- ظ ي ن

والمعنى:

- ١- قيل زاد أمة بنى فوقم
- ٢- قدمت لذات بعدن
- ٣- لوحة مدونة كفارة لأن
- ٤- ابنتها أبعلى جلبت
- ٥- الماء من بركة عدن وهى غير
- ٦- طاهرة^(٢).

كما تتحدث النصوص في جنوب شبه الجزيرة عن وجود معبود خاص بالعبيد عُرف باسم (قين) في منطقة شبام سخيم^(٣). مما يدل على حرية العبيد في ممارسة شعائرتهم الدينية أمام معبود خاص.

(١) الشبية، عبد الله حسن، المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٢) على النعيم، نورة بنت عبد الله، التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية، ص ٤٥١-٤٥٢.

(٣) الشبية، عبد الله حسن، المرجع السابق، ص ٢٤٨.

٩- مقابر الأحرار تخلو من العبيد والإماء

تعددت النصوص التي تتحدث عن إنشاء المقابر بما فيها النصوص التي نُقشت على نصب المقابر في أنحاء شبه الجزيرة العربية، ولم يُعثر بين هذه النصوص على ما يثبت أن مقبرة بعينها كانت تخص العبيد أو الإماء، في أي ركن من ربوعها حتى الآن. وقد أظهرت الكثير من هذه النصوص حرصاً شديداً من أصحابها على التأكيد على دفن أحرار أسرهم في المقابر التي شيدها دون عبيدهم، وتكرر التشديد على كلمة الأحرار أو الذرية المنتمية إليهم. ومن نماذج هذه النصوص:

نص دون على صخرة لمقبرة منحوتة في الصخر (في قرية بيت الأحرق من جبال مراد) يسجل أن رجلاً بنى قبراً لرجال عائلته ونسائهم ويقرأ:

ذرحن / بن / أب ذخ ر..

ن / وذرف / ظرب / ورسع س / وب ر

أ / وهفح / مق ب رهو / ص ن ع ن / وكل

م س ودهو / وم ورت ي هو / وج ي ر

هو / وم برأت هو / لقت ب رم ..

اب هو / كل / أح رر / وح رت و / ب

ت هو / غى ل ن ..

ويدعى ذرحان بن أبي ذخ من آل خبزان (ينتمي إلى قبيلة) رفة. وقف وسوى وأنشأ مقبرته صنعان، وكذلك كل مباحر المقبرة ومدخليها وجيرها ومبناها ليقتبر بها كل أحرار بيت غيلان وحراته^(١).

نقش آخر من قرية الفاو لرجل يدعى عجل بن هفعم وورد فيه: عجل بن هوف عم بنى لأخيه ربيب آل بن هوف عم قبراً ليكون له ولولده ولامراته وأحفاده ونسائهم حرائر ذى آل غلوان، وأعاده بالمعبود كاهل ربه والمعبود عثر أشرق من كل تملك وتخريب

(١) عبد الله، يوسف محمد، أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، ص ٦١.

وشراء ورهن أبداً ومن كل نقصان حتى تمطر السماء دماً والأرض سعيراً^(١). ويلاحظ هنا أن كلاً من صاحب النص الأول المدعو (ذرحان)، وأيضاً صاحب النص الثاني المدعو (عجل) قد خص النساء الحرائر من آل بيته دون عبيدهم ليدفنوا في القبر الذي أنشأه كل منهما.

نتائج البحث

- عرفت جميع المجتمعات الحضارية في شبه الجزيرة العربية وجود العبيد ضمن فئاتها المختلفة، وترددت كلمات كثيرة في النصوص المختلفة بمعنى العبيد والإماء، ففي نصوص المسند عبرت كلمة (ع ب د) عن معنى العبد أو الخادم واتفقت معها الكتابات المنتشرة في أرجاء شبه الجزيرة العربية (الشمودية والليحانية والصفوية والنبطية والآرامية)^(٢) في التعبير عن نفس المعنى بنفس الكلمة (ع ب د).

استخدمت عدة كلمات أخرى للتعبير عن معنى العبد أو الخادم في نصوص شبه الجزيرة أعددهم على النحو التالي:

- كلمة (ق ي ن)، و(ق ن) التي عُرِفَتْ في الكتابات الصفوية والليحانية والشمودية. واستخدمت في نصوص المسند بنفس المعنى أحياناً، وبمعنى مسئول إداري أحياناً كثيرة.

- وكلمة (م ق ت و ي) التي عُرِفَتْ في لغتنا العربية الفصحى بمعنى الخادم وردت أيضاً في كتابة المسند، ورأى فيها البعض أنها تؤدي نفس المعنى، بينما رأى البعض أنها تعبر عن شخص يعتمد عليه الحاكم في إحدى المسئوليات.

- وكلمة (أ د م) في نصوص المسند.

عرفت كتابات شبه الجزيرة العربية عدة مفردات عبرت عن معنى الأمة أو الخادمة وهي على النحو التالي:

- كلمة (أ م ت) في نصوص المسند، واتفقت معها النقوش الشمودية والنصوص الليحانية والنصوص النبطية في ذلك.

(١) الأنصاري، عبد الرحمن، أضواء جديدة على دولة كندة، مجلة العرب، ج ١١ و ١٢ / السنة ١١ / ١٩٧٧، ص ٨٦٤.

(٢) وفي اللغة العربية الفصحى (العبد: الرقيق، الإنسان حُرّاً كان أم رقيقاً؛ لأنه مريبوب لله عز وجل). المعجم الوسيط، مادة عبد.

- كلمة (ع ب د ت) فى النصوص الصفوية، وهى تأنيث لفظى لكلمة (ع ب د) .
- كلمة (ق ن ت) فى النصوص الثمودية واللحيانية، وهى تأنيث لفظى لكلمة (ق ن)
- استخدمت بعض الكلمات السابقة فى أسماء الأعلام المفردة للعبيد والإماء، فبالنسبة للعبيد كانت الكلمات:

(ع ب د) فى النصوص الصفوية مثل عبد بن خنن، وفى النصوص الثمودية مثل خبيت بن عبد، ومثل (ع ب د) فى نصوص المسند وهى تصغير لكلمة عبد. وبالنسبة لأسماء الإماء المفردة استخدمت كلمة (أ م ت) فى المسند، وفى النبطية. استخدمت بعض الكلمات الدالة على العبيد والإماء فى أسماء الأعلام المركبة منتسبة إلى أحد المعبودات؛ لتدل على شدة حرص من سُموا بها على الارتباط بالمعبودات مثل:

(ع ب د ن ث ي ر و) فى النبطية، وعبد مناف عند عرب الجاهلية، وبالنسبة لأسماء الإماء المركبة المنتسبة إلى المعبودات عُرفت أسماء مثل:

- (أ م ت س ت ا ر) فى الثمودية، (أ م ت ي ث ع) فى اللحيانية.

- عبرت بعض الكلمات السابقة عن عبودية البشر لمعبوداتها مثل:

(ع ب د) فليل (ع ب د ه و) فى المسند (أ د م) فليل (أ د م ه و)

- رددت بعض نصوص الحضارات التى تعاملت مع حضارات شبه الجزيرة العربية عن العبيد التابعين لبعض المناطق الحضارية فى شبه الجزيرة العربية فذكرت النصوص الفارسية عبيداً من عمان، وتحدثت لوائح تشريعية إغريقية عن عبيد اليمن وحقوقهم، وتناول بعض الرحالة والمؤرخين الحديث عن العبيد، كذكر صاحب كتاب الطواف للعبيد التابعين للملك فى جنوب شبه الجزيرة العربية، وكذكر استرابو للعبيد عند الأنباط.

- كان العبيد والإماء إحدى السلع التجارية الهامة والمشروعة فى حضارات شبه الجزيرة العربية، وقد دل على أهميتها أن بعض المراسيم الملكية ذكرتها ضمن السلع التجارية المتداولة، ونظمت شروط بيعها.

- لم تكن التجارة هي المصدر الوحيد لتوفير للعبيد والإماء إنما كانت الصراعات السياسية البينية_ والتي شغف بها عرب شبه الجزيرة منذ أقدم العصور _ والخارجية مصدراً كبيراً لتحويل أسرى وسبايا الحروب إلى عبيد وإماء، علاوة على الاستيلاء على عبيد الخصوم وإماءهم في تلك الحروب.

- تفاوت الاهتمام بالعبيد والإماء في مجتمعات شبه الجزيرة العربية، وبصفة عامة فقد أسندت إليهم الأعمال الشاقة والدنيا، وارتبط بعضهم بالسخرة في الأراضي الزراعية وكانوا يباعوا ويشترون معها. ونال بعضهم معاملة حسنة ونال أغلبهم معاملة قاسية امتدت حتى قبيل الإسلام. وقد ظهرت حدتها في تعذيبهم عند دخولهم في الدين الإسلامي الحنيف.

- لم يدفن العبيد ولا الإماء في مقابر أسيادهم، وقد حرصت النصوص المرتبطة بالمقابر على تحديد تلك المقابر وتخصيصها لأبناء أصحابها الأحرار من الرجال والنساء وذريتهم على الدوام.

قائمة الاختصارات

- إيراني: مطهر على الإيراني نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات والبحوث اليمنى، صنعاء ١٩٩٠م.

- عنان: زيد بن علي عنان، تاريخ حضارة اليمن القديم، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠٣م.

- نامي: خليل يحيى نامي، نقوش خربة معين، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٢م.

- أبو الحسن: ، أبو الحسن حسين بن علي، قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٧م.

- BSOAS: Bulletin of the School of Oriental and African Studies.

- C: Inscriptions Published, in CIS, Pars V.

- CIH: corpus Inscriptionum Semiticarum Et Hemiariticas, Contens Vols I-III, 1889-1927.
- HTIJ: G.L Harding and E.Littman, Some thamudic Inscriptions from H.K of Jordan.
- Ja: Jamme.A.
- M B: Registration Siglum of inscriptions discovered by the AFSM excavations at Mahram Bilqis.
- RES: Repertoire d'Epigraphie Semitique, Vols 1-V III.1938-68.
- Ry: Ryckmans.
- WSII: Winnett, Safaitic Inscription From Fifty Safaitic Cairns.

قائمة الصور والنصوص

١- مرسوم ينظم تجارة السلع ومنها العبيد والإماء في مملكة سبأ وذو ريدان رويان، كريستيان جوليان، من كتاب حضارة الكتابة، كتاب اليمن، معهد العالم العربي بباريس، ١٩٩٩م، ص ٨٥.

٢- الإماء في خدمة سيدهن (جلیلة بنت مفادة)

- Pirenne, J, Notes D' Arche'ologie sud -Arabe, SYRIA, Tom XLII, Paris, 1965, Fig.1.

٣- نقش بالمسند يقرأ (عبد ذارحب)

- Cleveland, Rayl, AN Ancient South Arabian Necropolis, The Johns Hopkins Press. Baltimore, 1965. Plates, 79. TC 1315.

٤- نقش بالمسند يقرأ (أمة ذات رحب)

- Cleveland, Rayl, AN Ancient South Arabian Necropolis, The Johns Hopkins Press. Baltimore, 1965. Plates, 79. TC 1300.

٥- نقش لحياني لسيدة تدعى (أمة إل) فعلت الزكاة فرضي عنها و(عن) ذريتها.

أبو الحسن، حسين بن علي، قراءة لكتابات لحياينة من جبل عكمة بمنطقة العلا، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٧ م. نقش ٨٨.

٦- نقش لحياينة (لشخص يدعى عبد لوي)

-أبو الحسن، حسين بن علي، قراءة لكتابات لحياينة من جبل عكمة بمنطقة العلا، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٧ م. نقش ١٢٩.

٧- نقش نبطي (ذكرى وتحيات طيبة (من) قنة بن سحرو)

الذبيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش جبل أم جذايد النبطية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢ م، نقش ١٦٤.

٨- نقش نبطي (عبد منكو)

الذبيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش جبل أم جذايد النبطية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢ م، نقش ٣٦.

٩- نقش نبطي (عبد وبن)

الذبيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش جبل أم جذايد النبطية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢ م، نقش ٨.

١٠- نقش ثمودي (ل أط بن قن بن شنم وتشوق لوائلة)

الذبيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش ثمودية من سكاكا (قاع فريخة، والطوير، والقدير) المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢ م، نقش ٦٨.

١١- نقش ثمودي (ل قن بن أوس إيل قنص)

الذبيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش ثمودية من سكاكا (قاع فريخة، والطوير، والقدير) المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢ م، نقش ٨٨.

١٢- نقش صفوي (ل آدم بن عشق)

-الخريشة، فواز حمد، نقوش صفوية من بيار الغصين، مدونة النقوش الأردنية، المجلد الأول، منشورات جامعة اليرموك، الأردن ٢٠٠٢ م، نقش ٣٣٢.

١٣- نقش صفوى (ل بعمه بن قن).

-الخريشة، فواز حمد، نقوش صفوية من بيار الغصين، مدونة النقوش الأردنية، المجلد الأول، منشورات جامعة اليرموك، الأردن ٢٠٠٢م، نقش ٦.

المراجع العربية

- القرآن الكريم.
- العهد القديم.
- أبو الحسن، حسين بن على، قراءة لكتابات لحياينة من جبل عكمة بمنطقة العلا، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٧م.
- الإيراني، مطهر على نقوش مسندية وتعليقات، مركز الدراسات والبحوث اليمنى صنعاء ١٩٩٠م.
- الأنصارى، عبد الرحمن الطيب، قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام، في المملكة العربية السعودية، جامعة الرياض ١٤٠٢ هـ.
- الأنصارى، عبد الرحمن، أضواء جديدة على دولة كندة، ج ١١ و ١٢ س ١١ ١٩٧٧م.
- الأنصارى، عبد الرحمن الطيب، مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية، قسم الآثار والمتاحف، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٨٤م.
- بافقيه، محمد عبد القادر، وآخرون، مختارات من النقوش اليمنية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٨٥م.
- بافقيه، محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء ١٩٨٥م.
- البريهي، إبراهيم بن ناصر إبراهيم، الحرف والصناعات في ضوء نقوش المسند الجنوبي، وكالة الآثار والمتاحف، المملكة العربية السعودية الرياض ٢٠٠٠م.
- بن صراى، حمد محمد، منطقة الخليج العربى، من القرن الثالث ق.م إلى القرنين الأول والثانى الميلاديين، المجمع الثقافى أبوظبى، ٢٠٠٠م.
- الجرو، أسمهان، دراسات فى التاريخ الحضارى لليمن القديم، دار الكتاب الحديث، القاهرة ٢٠٠٣م.

- الجرو، أسمهان، دراسات في التاريخ الحضارى لليمن القديم، دار الكتاب الحديث، القاهرة ٢٠٠٣ م.
- جواد مطر الحمد ، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم، دار الثقافة العربية ، الشارقة ٢٠٠٢ م.
- الحوفي، أحمد محمد، المرأة في الشعر الجاهلي، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٠
- خربوطلي، شكران، وسهيل زكار، تاريخ الوطن العربي القديم (الجزيرة العربية)، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٠ م.
- الخريشة، فواز حمد، نقوش صفوية من بيار الغصين، مدونة النقوش الأردنية، المجلد الأول منشورات جامعة اليرموك، الأردن ٢٠٠٢ م.
- الروسان، محمود، القبائل الثمودية والصفوية، دراسة مقارنة، عمادة شؤون المكتبات، الرياض ١٩٩٢ م.
- الروسان، محمود محمد، نقش دارة الملك عبد العزيز، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الثانية عشرة، مارس ١٩٨٧ م.
- الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، دراسة تحليلية للنقوش الآرامية القديمة في تيماء (المملكة العربية السعودية)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٤ م.
- الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، المعجم النبطي، دراسة مقارنة للمفردات والألفاظ النبطية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٠ م.
- الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش الحجر النبطية، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ١٩٩٨ م.
- الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش ثمودية من سكاكا (قاع فريخة، والطوير، والقدير) المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢ م.
- الذيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش جبل أم جذايد النبطية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢ م.
- سلامة، عواطف بنت أديب بن علي، أهل مدين، دراسة للخصائص والعلاقات ١٣٥٠ - ١١٠٠ ق.م.، الرياض ٢٠٠١ م.

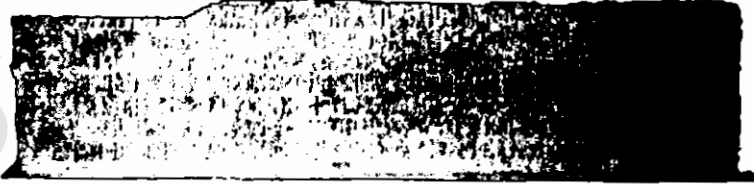
- سلامة، عواطف أديب، قريش قبل الإسلام، دار المريح، الرياض ١٩٩٤م.
- السعيد، سعيد بن فايز إبراهيم، نقوش عربية جنوبية قديمة من البرك (المملكة العربية السعودية)، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الثانية والعشرون، ١٤١٧م.
- الشيبة، عبد الله حسن، دراسات في تاريخ اليمن القديم، مكتبة الوعي الثوري بتعز، اليمن ٢٠٠٠م.
- صالح، عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم، (مصر والعراق) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٧م.
- صالح، عبد العزيز، المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الإصدارات الخاصة (١٤) جامعة الكويت، ١٩٨٥م.
- طيران، أحمد سالم، قراءة جديدة للنقش السبئي جام ٨٢٢ من معبد أوام، مجلة الدارة، العددان، ١-٢، السنة السادسة والعشرون، ١٤٢١هـ.
- عباس، إحسان، تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن ١٩٨٧م.
- عبد الغنى، محمد السيد شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة ١٩٩٩م.
- عبد الله، يوسف محمد، مدونة النقوش اليمنية القديمة، قبوريات بيت الأحرق، دراسات يمنية، العدد الثاني، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء ١٩٩٧م.
- عبد الله، يوسف محمد، أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٩٠م.
- على النعيم، نورة بنت عبد الله، التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير، الرياض ٢٠٠٠م.
- عنان، زيد بن علي، تاريخ حضارة اليمن القديم، دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠٠٣م.
- فخرى، أحمد، رحلة أثرية إلى اليمن، ترجمة هنرى رياض، ويوسف محمد عبد الله، مراجعة عبد الحليم نور الدين، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء ١٩٨٨م.
- الكلبي، هشام بن محمد، الأصنام، تحقيق، أحمد محمد عبيد، المجمع الثقافي، الإمارات، ٢٠٠٣م.

- موسكاتى، سبتينو، الحضارات السامية، ترجمة السيد يعقوب بكر.
- هاى، ستوارت مونرو، العملة النقدية فى الإمبراطورية الحميرية.

المراجع الأجنبية

- Cleveland, Ray Lan **Ancient South Arabian Necropolis**, The Johns Hopkins Press. BALTIMORE, 1965. Plates, 79. TC 1315.
- Jamme, A., **South-Arabian Inscriptions**, from the book of: Ancient Near Eastern Texts, Edited by -James B. Pritchard., Princeton University Press, USA, 1974.
- Jamme, **A Sabaeen Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib)**, Publications of the American Foundation For the Study of Man. 111), Baltimore, Johns Hopkins Press. 1962.
- Littmann, E., **Nabataean Inscriptions from Egypt**, BSOAS.
- Maraqtan, Mohammed, **Newly discovered sabaic inscriptions from Mahram Bilqis, near Marib**, Seminar For Arabian Studies, Vol 32, 2002.
- Pirenne, J, "Notes D' Arche' ologie sud -Arabe" , SYRIA , Tom XLII, Paris, 1965.
- Winnett, F.V. & Reed, WL., **Ancient Records from North Arabia**, Toronto, 1970.

ملحق الصور والنصوص

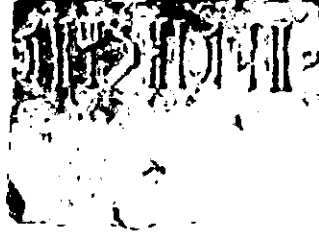


- ١- مرسوم ينظم تجارة السلع ومنها العبيد والإماء. في مملكة سبأ وذو ريدان
روبان، كريستيان جوليان، من كتاب حضارة الكتابة، كتاب اليمن، معهد
العالم العربي بباريس، ١٩٩٩م، ص ٨٥.



- ٢- الإماء في خدمة سيدتهم (جليله بنت مفادة)

Pirenne, J, Notes D' Arche'ologie sud -Arabe, SYRIA, Tom XLII, Paris, 1965, Fig. 1.



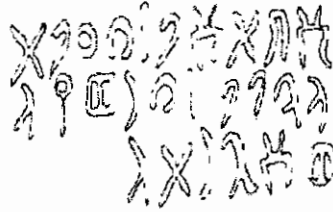
٣-نقش بالمسند يقرأ (عبد ذا رحب)

- Cleveland, Rayl, AN Ancient South Arabian
Necropolis, The Johns Hopkins Press.
BALTIMORE, 1965. Plates, 79. TC 1315.



٤-نقش بالمسند يقرأ (أمة ذات رحب)

- Cleveland, Rayl , AN Ancient South Arabian
Necropolis, The Johns Hopkins Press.
BALTIMORE, 1965. Plates, 79. TC 1300.



٥- نقش لحياني لسيدة تدعى (أمة إل)

فعلت الزكاة فرضى عنها و(عن) ذريتها

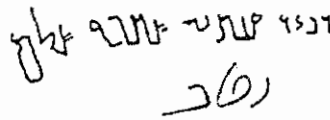
أبو الحسن، حسين بن علي، قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة
بمنطقة العلا، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٧م، نقش ٨٨.



٦- نقش لحياني (لشخص يدعى عبد لوي)

-أبو الحسن، حسين بن علي، قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة

بمنطقة العلا، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٧م، نقش ١٢٩.



٧- نقش نبطي (ذكرى وتحيات طيبة (من) قنة بن سحرو)

الذبيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش جبل أم جذايد النبطية،

مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢م، نقش ١٦٤.

سلا

٨- نقش نبطي (عبد منكو)

الذبيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش جبل أم جذايد النبطية، مكتبة الملك
فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢ م، نقش ٣٦.

٢٥٧٧

٩- نقش نبطي (عبدو بن)

الذبيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش جبل أم جذايد النبطية،
مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢ م، نقش ٨.

١٠- نقش ثمودي (ل أط بن قن بن شنم وتشوق لوائلة)

الذبيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش ثمودية من سكاكا (قاع
فريخة، والطوير، والقدير) المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك
فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢ م، نقش ٦٨.

١٥٠٢٥ - ١٥٠٢٥

١١- نقش ثمودي (ل قن بن أوس إيل قنص)

الذبيب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش ثمودية من سكاكا (قاع فريخة، والطوير، والقدير)
المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٢م، نقش ٨٨.

١٥١١٢٢

١٢- نقش صفوي (ل آدم بن عشق)

-الخريشة، فواز حمد، نقوش صفوية من بيار الغصين، مدونة
النقوش الأردنية، المجلد الأول منشورات جامعة اليرموك، الأردن
٢٠٠٢م، نقش ٣٣٢.

١٥١١٢٢

١٣- نقش صفوي (ل بعمه بن قن)

-الخريشة، فواز حمد، نقوش صفوية من بيار الغصين، مدونة النقوش
الأردنية، المجلد الأول منشورات جامعة اليرموك، الأردن ٢٠٠٢م،
نقش ٦.

oboiikan.com

البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية

الدكتور

عبد العزيز رمضان

oboi.kan.com

البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية*

فى النصف الثانى من القرن العشرين ثار بين الباحثين المحدثين المشتغلين فى حقل الدراسات البيزنطية جدل حول قضية الانقطاع أو التواصل الاثنى والثقافى بين الإغريق القدماء والبيزنطيين ، وفى الوقت الذى ذهب فريق من هؤلاء الباحثين إلى إنكار فكرة استمرارية الحضارة الإغريقية وتواصلها مع الحضارة البيزنطية ، اتجه فريق آخر إلى تفنيد هذا الرأى مستندين إلى شواهد بعينها تؤكد التواصل بين الثقافتين والأمتين.

وقد استهل روملى جينكينز Romilly Jenkins فى عام ١٩٦٣م طرح القضية على مائدة النقاش ، مقترحا ضرورة تناولها فى ظل ركيزتين أساسيتين وثيقتا الصلة بهذه القضية ، الأولى تتعلق بالأيديولوجية السياسية البيزنطية ، والثانية خاصة بما أطلق عليه "الانقطاع العرقى". وفى مجال الأيديولوجية السياسية أكد جينكينز على أن البيزنطيين هم الرومان الجدد، إمبراطوريتهم هى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة بعد انهيار الإمبراطورية الأولى ، وعاصمتهم مدينة القسطنطينية " روما الجديدة " بعد أن ضاعت روما القديمة تحت أقدام جحافل القبائل الجرمانية ، ويرى جينكينز أن هذه الأيديولوجية لم تسمح بوجود أى تمييز قومى أو عرقى بين الجماعات الاثنية العديدة التى قطنت أراضي الإمبراطورية ، حيث كان موضوع العرق غريبا عن الفكر السياسى البيزنطى. وأخيرا

يؤكد جينكينز على الانقطاع العرقى بين الإغريق والبيزنطيين ، خاصة بعد الغزوات السلافية ، هذا مع اعترافه بأن السلاف قد تهللوا بصورة تامة^(١).

وواصل جينكينز آراءه في كتابه " بيزنطة : القرون الإمبريالية " ، مشددا على أن شعب هيلاس القديمة انقرض منذ فترة مبكرة للغاية من التاريخ البيزنطي ، وأن الطابع الوحيد للاستمرارية الذى ورثه البيزنطيون عن هذا الماضى المجيد ، هو النصوص الكلاسيكية المنحولة عن اليونانية الآتيكية ، والتى استخدمت كأساس فى التعليم البيزنطى^(٢) ، وعلى درب جينكينز سار تلميذه سيريل مانجو Cyril Mango الذى تجاهل تماما وجود أى عنصر إغريقى فى مكونات الثقافة البيزنطية ، وكرر آراء جينكينز بشأن الانقطاع العرقى بين الإغريق القدماء والبيزنطيين^(٣).

وعلى الجانب الآخر ، اتجه فريق آخر من الباحثين المحدثين ، خاصة اليونانيين لأهداف ومشاعر قومية ، إلى معارضة آراء جينكينز ومن سار على دربه ، مؤكدين على وضوح وبروز العناصر الإغريقية التى أسهمت فى تشكيل الحضارة والثقافة البيزنطية ، ومنهم على سبيل المثال: الباحث اليونانى أبوستولوس فاكالوبولوس Apostolos Vakalopoulos ، الذى أكد على التواصل العرقى بين الإغريق القدماء والبيزنطيين ، كما فند الآراء المتجاهلة لوجود عناصر من الحضارة اليونانية فى بيزنطة ، وأكد على أن بقاء اللغة اليونانية ، ونصوصها ، والفلكلور والثقافة الشعبية ، وبعض مظاهر وسائط الفن اليونانى ، ومكتبات الأديرة العامرة بالمؤلفات والنصوص الكلاسيكية. وفوق هذا وذاك

(1) Jenkins ,R., *Byzantium and Byzantinism . Lectures in Memory of Louise Taft Semple* , Cincinnati , 1963.

(2) Jenkins , R., *Byzantium . the Imperial Centuries A.D.610-1071* , Newyork , 1966 , pp. 2 ,18.

(3) Mango , C., "Byzantium and Romantic Hellenism" , *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes* 28(1965) , pp.29-43; Idem , "Discontinuity with the Classical Past in Byzantium" , *Byzantium and the Classical Tradition* , ed. M.Mullett & R.Scott , Brimingham , 1981, pp.48-57.

وقد أعيد نشر هذه البحوث فى

Mango , C., *Byzantium and its Image . History and Culture of the Byzantine Empire and its Heritage* , London , 1984 , nos.I,III.

وجود وعى ملحوظ بين المثقفين البيزنطيين بالصلات الحضارية والثقافية التى تجمعهم بالإغريق القدماء، وكلها شواهد تظهر استمرارية ثقافية وفكرية، وتوصلا حضاريا مع الماضى الكلاسيكى^(١).

ودون الخوض فى عرض تفصيلات الجدل الدائر حول هذه القضية، والتى أفرد لها الباحث اليونانى سيروس فريونيس Speros Vryonis دراسة مستقلة عام ١٩٧٨م عرضت لمختلف أبعادها^(٢)، فإن هذه الدراسة مجرد محاولة للاقتراب من القضية من زاوية أخرى، تشكل - من وجهة نظرى - ركيزة أساسية وإضافية لفهم أبعاد هذه القضية، وهى موقف البيزنطيين أنفسهم تجاهها، فهل فكر البيزنطيون فى أصولهم العرقية والثقافية؟ وهل أدركوا أنهم أصحاب هوية خاصة ميزتهم عن غيرهم من الجماعات الاثنية العديدة التى قطنت أراضي الإمبراطورية، وعن غيرهم من الشعوب المعاصرة لهم أصحاب الهويات الاثنية والثقافية المتباينة؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب، فأية هوية.. هل اليونانية؟ بحكم وجودهم على أرض يونانية ذات حضارة هللينية متميزة وموغة فى القدم، أم الرومانية؟ لكون إمبراطوريتهم هى الوريث الشرعى للإمبراطورية الرومانية القديمة، ومدينتهم القسطنطينية هى "روما الجديدة" بعد ضياع القديمة فى قبضة القبائل الجرمانية.

يعرف باحثو علمى النفس والاجتماع مفهوم الهوية بمعنيين مختلفين، وينبع هذا الاختلاف كنتيجة منطقية لاختلاف مجالات اهتمام باحثى كل علم، فعالم النفس يهتم بإدراك الفرد لهويته الذاتية وموضعه فى العلاقة مع الآخرين والعالم المحيط به. أما عالم الاجتماع فيهتم بقضايا وثيقة الصلة بالهوية، وهى قضايا التضمين inclusion والإقصاء exclusion داخل المجتمع "أنا جزء من الجماعة a ولكننى أختلف عن الجماعة z"،

(1) Vakalopoulos, A., "Byzantium and Hellenism. Remarks on the Racial and the Intellectual Continuity of the Greek Nations", *Balkan Studies* 9(1968)pp.101,126.

(2) Vryonis, S.Jr., "Recent Scholarship on Continuity and Discontinuity of Culture : Classical Greeks, Byzantines, Modern Greeks", *Byzantina Kai Metabyzantina I* (= *The "Past" in Medieval and Modern Greek Culture*, ed. S.Vryonis), Malibu, 1978, pp.237-56.

وهذه الثنائية تمثل نقطة الالتقاء بين المعنيين ، فالنفس تحدد هويتها بالمقابلة مع الآخر ، والمجتمع يحدد هويته بمن يتضمنه من أفراد في مواجهة من أقصوا عنه ، وهذه الثنائية تمثل محورا أساسيا لأية صياغة للهوية^(١).

وعند تطبيق هذا السياق النظرى عمليا على إدراك المجتمع البيزنطى لهويته بالمقابلة مع المجتمعات الأخرى ، تطالعنا المصادر والنصوص البيزنطية بما يمكن أن يطلق عليها "هوية مزدوجة" ، يونانية ورومانية ، تركز الأولى على أصول هذا المجتمع الثقافية والحضارية. أما الثانية فتنبع من أيديولوجيته السياسية ، وكلا منهما تبرز بوضوح عندما يجد البيزنطيون أنفسهم بحاجة إلى تحديد وصياغة هويتهم في مواجهة الآخر .

لاشك في أن الإمبراطورية البيزنطية ككيونة سياسية هى امتداد وتواصل مباشر للإمبراطورية الرومانية القديمة ، التى اشتملت على عالم البحر المتوسط بأكمله وأجزاء كثيرة خارجه، وذلك منذ أن هجر الأباطرة الرومان الغرب وولوا وجوههم شطر الشرق، وبذلك انتقل الثقل السياسى للإمبراطورية إلى الشرق اليونانى ، إلى العاصمة الجديدة التى أقامها الإمبراطور قسطنطين ، حيثما كانت تقع المدينة اليونانية القديمة بيزنطة ، وأصبحت القسطنطينية هى "روما الجديدة" ، وغدا البيزنطيون هم الرومان الجدد ورثة الرومان الأقدمين .

غير أن الإمبراطورية البيزنطية ككيان حضارى نشأت على أرض يونانية ذات حضارة هيلينية لها سمات وخصائص خاصة تختلف عن نظيرتها الرومانية ، وفى هذا النصف الشرقى الواسع من الإمبراطورية كانت اليونانية هى لغة الحديث والثقافة ، ومع انتقال مركز الإمبراطورية الرومانية من الغرب إلى الشرق ، انتقلت معها اللغة اللاتينية كلغة رسمية للإدارة المركزية والجيش والقانون ، وكان الشرقى الذى

(1) Smyth , D.C., "Byzantine Identity and Labelling Theory" , *XIV International Congress of Byzantine Studies* . University of Copenhagen , 18-24 August 1996 , ed.K.Fledelius , Copenhagen , 1996 (Major Papers) , pp.26-36 , esp. pp.16,28-29.

ومن الملاحظ أن ديون سميث تناول فى هذه الدراسة العناصر المتضمنة داخل المجتمع والمقصية عنه من الشرائع والطبقات المختلفة ، ومدى شعور أفراد هذه الطبقات والشرائح بهويتهم داخل المجتمع الذى يعيشون فيه ، وهل اندمجوا فيه أم لا .

يريد المشاركة في هذه المجالات مضطرا إلى تعلم اللاتينية ، وربما اضطر في الغالب إلى تبني الثقافة اللاتينية ، وعلى الجانب الآخر ظلت اليونانية لغة الحياة اليومية والتعليم والثقافة^(١).

ومع تأسيس الممالك الجرمانية في الغرب الإمبراطوري، في غالة وأسبانيا وإيطاليا ذاتها، فقدت الإمبراطورية في القرن الخامس معظم العالم المتحدث اللغة اللاتينية، ومنذ ذلك الحين ظهر في القسطنطينية خطان سياسيان: أحدهما " روماني " هدفه استرداد الغرب وإحياء الإمبراطورية العالمية بتقاليد الرومانية القوية ، وتجسد هذا الاتجاه بوضوح في سياسة الإمبراطور جستنيان الاستردادية. والآخر " بيزنطي " انصرف عن استرداد الغرب الإمبراطوري كأمر غير قابل للتطبيق عمليا ، وركز على ترسيخ أقدام الإمبراطورية في الشرق اليوناني ، وتأسيس قاعدة قوية قادرة على مواجهة المؤثرة أمام الخطر الفارسي ، وفيما بعد أمام الخطر العربي الإسلامي ، وخير مجسد لهذا الاتجاه الإمبراطور هرقل في القرن السابع .

وبعد فشل جستنيان في محاولته الاستردادية للغرب الإمبراطوري ، والغزو اللومباردي لإيطاليا لم يعد إعادة تأسيس القوة الرومانية في الغرب هدفا أوليا لأية حكومة بيزنطية ، بل يمكن القول بأنه مع وفاة جستنيان بدأت العناصر الرومانية في المجتمع البيزنطي تفقد ما كان لها من أهمية بصورة سريعة ، وما أن جاء هرقل حتى أجهز على ما تبقى منها ، خاصة عندما تخلى عن اللقب الإمبراطوري الروماني التقليدي ، وبدأ يلقب نفسه في الوثائق الرسمية باللقب المجرد " إمبراطور *Βασιλεύς* " ، وأعاد الهيكلة الإدارية للإمبراطورية بما يتناسب مع الأوضاع السياسية والاقتصادية والإدارية الجديدة ، فأخرج نظاما بيزنطيا خلا أو كاد من أي أثر للنظام التقليدي القديم ،

(١) وأوضح الأمثلة على شرقيين تعلموا اللغة اللاتينية وتبنوا ثقافتها: الأنطاكي أميانوس مارسيلينوس (Ammianus Marcellinus ، والسكندري كلاوديان Claudian .

انظر الدراسة المتخصصة التي وضعها جيلبرت داجرون عن دور كلا من اللغتين في العصر البيزنطي الباكر :-

Dagron , G., "Aux origines de la civilisation byzantine :Langue de culture et langue d'état" , *Revue Historique* ccxli (1969) , pp.23-56.

وكما يقول الباحث روبرت برونينج Robert Browning : " لم يتبق في القرن السابع من الميراث الروماني سوى القانون الروماني ، الذي أصبح يدرس في ترجمات وتنقيحات يونانية ، والتصور المبهم لأصل السلطة الإمبراطورية في السناتو والشعب والجيش ، والتي لم يكن أحد يتذكره إلا عندما يكون اعتلاء العرش غير مرتب قبلا ، والشعور بالتفوق الموروث على المجتمعات والجماعات السياسية الأخرى ، وأخيرا اسم "روماني" Ρωμαίος^(١) .

ورغم أن كثيرا من العناصر الرومانية بدأت تفقد أهميتها في بيزنطة منذ القرن السابع ، إلا أن نظرية العالمية الرومانية ظلت تمثل أساس الهوية السياسية للإمبراطورية البيزنطية ومواطنيها ، و ظل اسم "الرومان " مستخدما على مدار تاريخ الإمبراطورية من البيزنطيين أنفسهم كمصطلح يدل على هويتهم ، والمتصفح للنصوص والمصادر يلاحظ من الوهلة الأولى أنه لا تكاد توجد صفحة واحدة تخلو من هذا الاسم إشارة للبيزنطيين ، ومن الملاحظ أن استخدام هذا الاسم اقترن دائما بأيديولوجية البيزنطيين السياسية في مواجهة الغرب الأوروبي ، أو بعبارة أخرى كمحاولة لمواجهة ادعاءات حكام الغرب في كونهم ورثة الإمبراطورية الرومانية ، وبأنهم الوحيدين أصحاب الحق في العرش والتاج وبالتالي في السلطة الرومانية العالمية.

وقد تلقت النظرية السياسية البيزنطية أول ضربة خطيرة في عام ٨٠٠م ، عندما توج شارلمان إمبراطورا على يد البابا ليو الثالث ، وإذا كان هذا الحدث يحمل مغزى خاصا للغرب يكمن في تدشين تولى أوروبا للسلطة كمفهوم سياسى ، إلا أنه شكل للبيزنطيين تهديدا مباشرا لهويتهم السياسية ، وتحديا سافرا لمفهوم الإمبراطور الواحد الذى يحكم إمبراطورية عالمية ، ورغم أن المشكلة تمت تسويتها بصورة جزئية ، إلا أن الأباطرة البيزنطيين الذين ظلوا حتى ذلك الحين يصفون أنفسهم باللقب المجرد "إمبراطور

(1) Browning , R., " The Continuity of Hellenism in the Byzantine World : Appearance or Reality?" , *Greece Old and New* , ed.T.Winniffrith &P.Murray , London , 1983 , pp.111-128 , repr.Idem , *History , Language and Literacy in the Byzantine World* . Northampton , 1989 , no.I.

Βασιλεύς " ، نادرا ما فوتوا فرصة بعد عام ٨١٢م إلا واستخدموا لقبهم الكامل "إمبراطور الرومان Βασιλεύς τῶν Ρωμαίων"^(١).

(١) من الملاحظ أن شارلمان رغم تنويجه على يد البابا ليو الثالث "إمبراطورا للرومان" ، إلا أنه كان أكثر اعتدالا من البابا بخصوص وضعه الإمبراطوري ، ففي البداية حاول حل المشكلة مع البيزنطيين بطلب يد الإمبراطورة أيريني للزواج ، غير أن الأخيرة عزلت على يد وزير ماليتها نقفور وقتها كان رسل شارلمان لا يزالون يتفاوضون معها ، ورفض خليفتها نقفور أية تسوية مع شارلمان تاركا الأمر لميخائيل الأول رانجابهيه ، الذي اعتلى العرش في ثورة أخرى عام ٨١١م ، وفي عام ٨١٢م اتفق السفراء البيزنطيون في أخن على أن يعيد شارلمان بعض الأراضي التي استولى عليها مؤخرا إلى إمبراطورهم ، لقاء الاعتراف به "إمبراطورا Βασιλεύς ولكن ليس " للرومان Βασιλεύς τῶν Ρωμαίων ، ورفع له منزلة " الأخ الروحي " للإمبراطور الروماني - البيزنطي - ، وكان هذا أفضل ما يمكن الحصول عليه بالنسبة لشارلمان ، الذي سلم بإمبراطورية محدودة لا تتعدى حدود أراضي مملكته الإفرنجية ، وفي حياته فقط ، وقبل بأن ينزل خلفاؤه إلى مرتبة الملوك - وليس الأباطرة - في أسرة الملوك الدائرة في فلك ربها الإمبراطور البيزنطي Pater Familias ، ولضمان الفهم الكامل لكلا الطرفين ، حررت الاتفاقية باللغتين اليونانية واللاتينية ، غير أن أقصى ما خسرته البيزنطيون في هذا الاتفاق ، أنهم اضطروا للمرة الأولى إلى الاعتراف بوجود إمبراطور في الغرب ، حتى وإن سلم هذا الإمبراطور بأنه ليس رومانيا ، أو قبل بالألا يمتد هذا اللقب إلى خلفائه ، فمن جاء بعد شارلمان من الأباطرة لم يلقوا هذا الاتفاق بالا ، واستمسكوا بحقهم - الذي منحهم بيزنطة إياه وأيدتهم فيه البابوية - ، ولذلك لم يكن غريبا أن يحاول أباطرة بيزنطة وضع حدا فاصلا باستخدام لقبهم الكامل "إمبراطور الرومان" ، بل والأكثر دلالة هو ظهور لقب جديد استخدمه هؤلاء الأباطرة ما بين عامي ٨١٥-٨٥٥م ، تميزا لمنزلتهم وعلو لقبهم على إمبراطور الغرب ، وهو "الإمبراطور الأعظم Μέγας βασιλεύς".

Theophanes , *The Chronicle of Theophanes Confessor : Byzantine and Near Eastern History AD. 284-813* , trans. C.Mango & R.Scott , Oxford , 1997 , pp. 653-4 , 678 ; Treadgold , W., *The Byzantine Revival , 780-842* , Stanford , 1988 , 178ff ; Nicol , M. D. , " The Byzantine View of Western Europe " , *Greek , Roman and Byzantine Studies* 8 (1967) , pp.320-1.

عفاف صبره ، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ١١٩-١٢٦

وعن نظرية " أسرة الملوك " و " رب الأسرة " البيزنطية ، انظر ، Ostrogorsky , G., "The Byzantine Emperor and the Hierarchical World Order" , *Slavonic and East European Review* 24(1965) , pp.1-14 , esp.pp.5-6,13.

وعن استخدام ميخائيل الثالث وباسيل المقدوني للقب " الإمبراطور الأعظم " على نقوش في مدينتي نيقية وأنقرة ، انظر ،

Grégoire ,H., "Michel III et Basile le macédonien dans les inscriptions d'Ancyre", *Byzantion* 5(1930),pp. 327-46 , esp.pp.344-6.

وتوالى الضربات للنظرية السياسية البيزنطية من حكام الغرب الأوروبى ، بدايةً بتتويج أوتو الكبير Otto the Great وإحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، انتهاءً بإضفاء فردريك بربروسا صفة القداسة على هذه الإمبراطورية ، بحيث أصبحت منذ منتصف القرن الثانى عشر تحمل اسم " الإمبراطورية الرومانية المقدسة " ، وقد استفزت هذه الأحداث مشاعر البيزنطيين ، خاصة حكامهم والمؤرخين المعبرين عنهم ، فكان لزاماً عليهم الدفاع عن رومانيتهم فى مواجهة الغرب الأوروبى ، الذى لم يترك هو الآخر أية فرصة إلا ولقب الإمبراطور الجالس على عرش القسطنطينية بلقب " ملك أو إمبراطور اليونانيين " ، ومن ثم شهدت المصادر البيزنطية خلال الفترة الواقعة ما بين القرن العاشر والثانى عشر الميلاديين ظهور قصة " الإمبراطورية المنقولة Translatio Imperii " على صفحاتها كأساس وبرهان لإثبات حق بيزنطة التاريخى فى وراثة الإمبراطورية الرومانية ، ففى القرن العاشر انفجر نقفور فوقاس غضباً فى وجه الوفد الذى حمل إليه رسالة البابا يوحنا الثالث عشر ، والذى خاطبه فيها بوصفه إمبراطور اليونان ، قائلاً : " أو لم يدرك ذلك الأب الأحق أن القديس قسطنطين قد نقل إلى مدينتنا - يقصد القسطنطينية - مقاليد السلطة الإمبراطورية ومعها السنااتو والجيش الرومانى ولم يترك فى روما غير العبيد وأبناء الزنا ؟! " (١). وفى أوائل القرن الثانى عشر ، راحت آنا كومنينيا تعبر عن نفس المفهوم فى ذهن أبيها الإمبراطور الكسيوس كومنينوس ، معلنة أن السلطة الإمبراطورية مع السنااتو والإدارة الرومانية بأكملها قد انتقلوا منذ وقت بعيد من روما القديمة ، إلى روما الجديدة (٢).

وقد بلغ الصراع البيزنطى - الغربى على وراثة الإمبراطورية الرومانية سياسياً ذروته فى عصر الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس ، الذى لم يكن ليفرط فى العقائد السياسية التى ورثها عن أسلافه ، خاصة وأنه كان يدرك تماماً أنه أمام خصم عنيد ، غاية طموحه أن يصبح إمبراطوراً رومانياً ، فعلاً وقولاً ، بل كان عليه أن يدافع عن منصبه الإمبراطورى فى مواجهة ادعاءات الإمبراطور الألمانى فريدرىك بربروسا التى باتت تهدد أمن وسلامة

(1) Liutprando of Cremona , De Legatione Constantinopolitana , in : *the Works of Liutprando of Cremona* , trans.F.A.Wright , London , 1930 ,p. 265.

(2) Anna Comnena , *Alexiad* , p. 62 .

إمبراطوريته^(١)، ويبدو أن مؤرخه وسكرتيره الخاص كيناموس كان بوقاً له في الإعلان عن حقه في كونه الإمبراطور الروماني الشرعي، ففي الكتاب الخامس راح كيناموس يناقش حملة بيزنطة ضد المجر في عام ١١٦٢ م، وأشار إلى أن ملك المجر تلقى مساعدات من حاكم بوهيميا فلاديسلاف الثاني Vladislav II الذي تلقى منصبه الملكي من بربروسا، وعند هذه النقطة ينفجر كيناموس في ثورة غاضبة لمهاجمة ادعاءات بربروسا الزائفة في صورة عبر عنها الباحث الكسندر بقوله: "غير معهودة في الكتابات التاريخية البيزنطية"^(٢).

لقد راح كيناموس يعلن أن منح اللقب الملكي لدوق بوهيميا على يد حاكم الهوهنشتاوفن أمر لا أساس له من الشرعية، ومنذ السطر الأول للخطبة المسهبة التي خطها ليدحض مزاعم الإمبراطور الألماني، راح يؤكد على أنه بعد عام ٤٧٦ م لم يعد هناك سوى إمبراطور شرعي واحد، عاصمته القسطنطينية وليست روما التي يحكمها - منذ وقت رومولوس أوغسطولوس وحتى زمنه - برابرة متمردون، ومن ثم فإن الشخص الوحيد القادر على منح مثل هذه الألقاب الملكية هو الإمبراطور الجالس على عرش القسطنطينية، لأن هذه الألقاب تستمد فاعليتها من سلطته الإمبراطورية^(٣).

(١) عن صراع مانويل الأول كومنينوس مع فردريك بربروسا على اللقب الإمبراطوري، انظر، Classen, P., "La Politica di Manuele Comneno tra Federico Barbarossa e le Città Italiane", *Popolo e Stato in Italia nell'età di Federico Barbarossa. Relazione Comuni Cozioni al 330 Congresso Storica Subalpino*, Turin, 1970, pp. 265-279; Lilie, R. J., "Manuel I Komnenos und Friedrich I Barbarossa: Die Deutsche und die Byzantinische Italien Politik Während der Zweiten Hälfte des. 12 Jahrhunderts in der Neueren Literatur", *Jahrbuch der Österreichischen Byzantinistik* 42 (1992), pp. 157-170.

عبد العزيز رمضان، العلاقات البيزنطية اللاتينية في عهد الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠ م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة عين شمس، ٢٠٠٠ م، ص. ٦١-٨٨.

(2) Alexander, J., "The Donation of Constantine at Byzantium and Its Earliest Use Against the Western Empire", *Zbornik Radova Vizanto-loškog Instituta* 8 (1963), p. 18.

(3) Kinnamos, J., *Deeds of John and Manuel Comnenus*, trans. Ch. Brand, Newyork, 1976, pp. 165-166.

وعلى هذا النحو ، يقدم لنا كيناموس مقدمة أراد بها إثبات حق بيزنطة التاريخي في وراثة الإمبراطورية الرومانية ، وكمدخل لهدفه الرئيسى وهو السخرية من مغتصبى اللقب الإمبراطورى فى الغرب ، وهو بذلك يعبر - دون شك - عن وجهة نظر سيده الإمبراطور التى ورثها عن أسلافه وتشربها بكل قوة ، فيستطرد قائلاً : " ولم يكتف حكام الغرب بالاعتداء الوقح على هبة المنصب الإمبراطورى عندما ادعوا لأنفسهم الحق فى السلطة الإمبراطورية ، بل كان لديهم من الوقاحة ما جعلهم يزعمون بأن الإمبراطورية فى بيزنطة تختلف عن تلك التى مقرها روما ، الأمر الذى جعلنى مدفوعاً للغثيان عدة مرات " (١) ، ولم يكتف كيناموس بذلك بل راح يواصل حديثه برثاء متشرب بروح السخرية والتهكم من تلك الأحداث المخزية التى تجرى فى روما ، متسائلاً : - " أى رجل هذا الذى يدعى لنفسه الشرف الإمبراطورى ، ثم يحط من قدره بالعدو أمام أسقف يمتطى حصاناً ، ويعترف به سيداً له لقاء أن يمنحه هذا اللقب الإمبراطورى ، وكأنه بذلك يضعه على قدم وساق مع الإمبراطور الرومانى " (٢) .

ونستشف من الحديث الذى جرى به قلم كيناموس بأنه كان هناك ثمة شعور قوى ساد الدوائر الحاكمة فى بيزنطة بأن ادعاءات بربروسا باتت تشكل خطراً داهماً يهدد حق الإمبراطور البيزنطى فى السيادة العالمية . ومن هنا نهض كيناموس للقيام بدور المتحدث الرسمى لتنفيذ هذه الادعاءات الزائفة ، وتحذير البابوية من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تترتب على إقرارها بهذه الادعاءات ، وعند هذه النقطة كان كيناموس هو أول بيزنطى يستخدم " هبة قسطنطين " التى تدعيها البابوية لإثبات حقها فى السيادة والسمو على السلطة الزمنية ، غير أن استخدام كيناموس لها كان مختلفاً كل الاختلاف ، فمن وجهة نظره أن البابوية إن اعترفت بادعاءات إمبراطور الغرب فهى بذلك تتصل من هبة قسطنطين ، وبالتالي تفقد حقها فى خدمات التبعية من جانب الإمبراطور (٣) ، فنجدته يخاطب البابا قائلاً : - " أيها البابا ، إذا لم تسلم بأن العرش الإمبراطورى فى بيزنطة هو ذاته عرش روما ، فعلى أى أساس حظيت بشرف منصبك ؟! رجل واحد فقط هو الذى

(1) Ibid , p. 166 .

(2) Ibid , p. 166 .

(3) Alexander , *Donation* , pp. 19-22 .

منحك هذا الشرف ، هو قسطنطين ، المسيحى الأول من بين جميع الأباطرة ، فكيف إذن تتلقى هبة الكرسي البابوي بسموه الفائق ، وفي الوقت نفسه تنكر أن إمبراطور بيزنطة هو الإمبراطور الرومانى الشرعى ؟! لقد كان لزاما عليك أن تقبل الأمرين أو ترفضهما معا^(١) ، وتزايد نبرة كيناموس حدة عندما راح يعلنها صراحة ، أنه إذا كان للبابا الحق فى أن يبارك الجالس على العرش الإمبراطورى ويضع يديه على رأسه ، فإن ذلك لا يعنى أن من حقه ، أو حتى فى نطاق سلطته أن يمنح المنصب الإمبراطورى لأن البابا سيلفستر Sylvester نفسه لم يستطع التفوه بحرف واحد عندما نقل قسطنطين العظيم المنصب الإمبراطورى من روما إلى القسطنطينية ، رغماً عنه^(٢) . وفى النهاية يختم كيناموس حديثه إلى البابا قائلاً : - " أيها البابا ، إذا زعمت بأنك واقع تحت ضغط أو إكراه من جانب أحد - يقصد الملك الألماني - فتلك حجة واهية ، فلا تكن على شاكلة الانتهازيين الذين يتلونون مع تقلبات الأحوال^(٣) " .

ولاشك فى أن تصور مانويل للسلطة الإمبراطورية والسيادة العالمية مستمد من الفكر السياسى البيزنطى الذى اعتنقه وتشرب به كل من جلس على عرش القسطنطينية ، حقيقة أن الإمبراطورية البيزنطية فى القرن الثانى عشر الميلادى لم تكن هى تلك التى كانت فى القرن الرابع الميلادى ، ولكنها مع ذلك ظلت متمسكة ، وعبر تاريخها الطويل ، بحقيقتها كونها الوريثة الشرعية للإمبراطورية الرومانية ، وظلت فكرة أن إمبراطورها هو الإمبراطور الرومانى الشرعى هى القاعدة الأساسية ، من الألف إلى الياء ، فى جميع العقائد السياسية البيزنطية ، وقد عبر أوستروجورسكى Ostrogorsky عن ذلك بعبارة بليغة جاء فيها : " لا يجرؤ أحد على ازدراء الحقائق عندما تتناقض مع العقائد كالبيزنطيين ، فحينها يتعارض الواقع مع عقائدهم ، تنتصر العقائد^(٤) " .

وحتى فى أحلك فترات الإمبراطورية سواداً ، وقتما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ظل البيزنطيون متمسكين بحقهم فى كونهم الرومان الحقيقيين ، وما عداهم مجرد برابرة

(١) Kinnamos , *Deeds* , p. 166 .

(٢) Ibid , pp. 166-167 .

(٣) Ibid , p. 167 .

(٤) Ostrogorsky , *Hierarchial World Order* , p.5.

أجلاف، وظلت قصة الإمبراطورية المنقولة تشكل أساسا لإثبات حق بيزنطة التاريخي في وراثة الإمبراطورية الرومانية في مواجهة الغرب ، فقد راح البطريك فيلوثيوس كاكينوس Philotheos Kakkinos^(١)، وقت استيلاء الجنوية على هيرقلية Herakleia عام ١٣٥٢م، يدافع عن هذا الحق بقوله : " لقد نقلت إمبراطورية الرومان العظيمة من إيطاليا إلى الشرق عندما اهتدى قسطنطين العظيم بإرادة الرب من الهللية إلى الإيمان المسيحي ، وشيد على أنقاض بيزنطة هذه المدينة العظيمة التي حملت اسمه ، ونقل السناتو من روما القديمة ليجعل من روما الجديدة صاحبة السيادة على كافة المدن الأخرى ، وهكذا استقرت الأمور، حتى عصر ليو الأرمني ، الذي أدى بحربه المشؤمة والشريرة ضد الأيقونات المقدسة إلى انقسام الكنيسة ، واختار أهل روما القديمة لأنفسهم ملكا بربريا من ألمانيا إمبراطورا لهم ، وادعوا أنهم الرومان ، فليعلموا أننا الرومان الحقيقيون ، وما يدفع الآخرين إلى الادعاء بكونهم روماننا إلا الحماقة وقصر النظر"^(٢).

ومن الملاحظ أن البطريك كاكينوس أشار في حديثه إلى الهللية في مقابل المسيحية ، أى أنه يقرنها بالوثنية - وبطبيعة الحال يقصد الوثنية اليونانية - وراح يحدد هويته وقومه بالرومانية ، فهل يعنى ذلك أنه يعبر عن رؤية البيزنطيين كافة للهللية ؟ وهل قصد بالرومانية هنا الهوية السياسية فقط ؟ أم أنها تتضمن أيضا المعنى العرقى والثقافى ؟

للإجابة على هذه التساؤلات ، قد يكون من الأفضل الرجوع بالزمن ثانية إلى الوراء ، وتحديدًا عند نهاية القرن الرابع الميلادى ، حيث يمكن رصد تغيرات جذرية في استخدام البيزنطيين لمصطلحات "رومانى" (Ῥωμαῖος) Rhomaïos و "هللىنى" (Ἑλλην) Hellenē ، ففي الوقت الذى اتسع مدى استخدام الأول ليستخدم دون تمييز في كافة أراضي الإمبراطورية ، بعد أن فقد دلالة الاثنية ، وأصبح من الآن فصاعدا مصطلحا ذا دلالة سياسية ، إلا أن اقتران الدولة بالدين ، أى الإمبراطورية الرومانية بالديانة المسيحية،

(١) بطريك القسطنطينية (١٣٥٣-١٣٥٤م \ ١٣٦٤-١٣٧٦م) ، كان أسقفا لهرقلية وقت استيلاء

الجنوية عليها ، وكتب وصفا حيا لتدميرها ، لمزيد من التفاصيل انظر ،

دونالد نيكول ، معجم التراجم البيزنطية ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، ص ٤١ .

(2) Nicol , Byzantine View , p.324 .

جعلت انتماء الفرد إلى الإمبراطورية العالمية يستلزم اعتناق ديانتها الرسمية، ومن هنا أصبح مصطلح "رومانى" ذو دلالة دينية أيضا .

وعلى الجانب الآخر ، فقدت مصطلحات " هليلنى " (Ελλην) Hellene كاسم، و"يتحدث اليونانية" (Ελληνίζειν) كفعل ، بدورها دلالاتها الاثنية والثقافية ، واقتصر استخدامها، خاصة خلال الفترة المبكرة من التاريخ البيزنطى ، على دلالتها الدينية ، فى البداية للإشارة إلى الطبقة العليا التى ظلت على تعلقها بالديانة اليونانية القديمة ، ثم بعد التحول الكامل إلى المسيحية للإشارة إلى أى شخص وثنى ، سواء أكان يتحدث اليونانية أم لا ، وتجاوز استخدام اسم "هليلنى" للإشارة إلى الخارجين عن دائرة المسيحية من كل نوع: ففى أواخر القرن السادس استخدمه إفاجريوس للإشارة إلى العرب لأنهم وثنيون^(١)، وفى القرن الثامن استخدمه البطريك نيقفور للإشارة إلى المسلمين عندما كتب أن الإمبراطور هرقل أطلق على والى مصر كيروس Kuroc " أنه هليلنى ελληνα لأنه أوصى بخطبة ابنة الإمبراطور لأمبروز Αμβροζ - ولعله يقصد عمرو بن العاص - قائد السراكنة Σαρακηνοι ، الهليلنى ελληνα ، عدو الرب والمسيحيين^(٢)، كذلك استخدم للإشارة إلى الثنويين Manichaeans ، واللاأيقونيين^(٣) Iconoclasts ، والسامريين Samaritans ، واللوطين Sodomites ، وكذلك اليهود^(٤) .

(1) Evagrius , *Historia Ecclesiastica* , ed.J.Bidez & L.Parmentier , London , 1898 , p. 238.

(2) Nicephoros Patriarch of Constantinople , *Short History* , ed.& trans. C.Mango , Washington , D.C., 1990 , pp. 74-5.

(3) Ibid ,pp. 152-3.

حيث يشير البطريك نيقفور إلى اللاأيقونية على أنها هليلنية ثانية ελληνισμού δευτέρου أخذت تنتشر بين المسيحيين.

وفى القرن التاسع وصف إجناتيوس الشماس اللاأيقونية بأنها " خرافة هليلنية " .

Ignatios the Deacon , *The Life of the Patriarch Tarasios (BHG 1698)* , ed. & trans. S.Efthymiadis , Aldershot , 1998 , p. 185.

(4) Garzya , A., "Byzantium" , *Perceptions of the Ancient Greeks* , ed.K.J.Dover , Oxford , 1992 , pp. 29-53 , esp. p.29.

ففى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر استخدم البطريك أثناسيوس الأول مصطلح "هليلنين" Ελλησιν للإشارة إلى الوثنيين كما استخدمها فى مناسبتين مصاحبة لاسم "اليهود" فى مقابل

ورغم اقتران اسم هلليني بالوثنية ، إلا أن هناك شواهد تشير إلى استمرار استخدامه بدلالة اثنية، ففي القرن السادس استخدمه بروكوبيوس للإشارة إلى سكان اليونان^(١)، وفي القرن السابع أكدت معجزات القديس ديمتريوس على الدلالة الاثنية لاسم "هلليني"، عندما استخدمته للإشارة إلى سكان الجزء الرئيسي من اليونان عند بداية القرن السادس^(٢)، وحولية مونيمفازيا في القرن العاشر تحدثت بوضوح عن "السكان الهلليين"^(٣) *Ελληνικά έθνη*. وفي فقرة وردت في كتاب "عن الإدارة الإمبراطورية" جمع قسطنطين السابع بين الدلالات الدينية والاثنية لهذا الاسم: "إن سكان مدينة ماينا Maina ليسوا من سلالة السلاف *Σκλάβων* السالفين الذكر ، بل من سلالة الرومان الأقدمين *Ρωμαίων* ، ورغم ذلك يدعوهم السكان المحليون حتى اليوم باسم هللينيين *Έλληνες* ، ذلك لأنهم في العصور الضاربة في القدم كانوا وثنيين وعابدين للتمثال على شاكلة الهلليين القدماء"^(٤)، وفي القرن الثاني عشر أشارت محاوره تياريون ، المنسوبة إلى نيقولاس كاليكيليس Nicholas Callicles ، الهلليين الذين توافدوا من كل صوب وحذب على سوق القديس ديمتريوس التجاري في سالونيك ، كما أشارت إلى أن اياكوس Aeacus ، عكس الكريتي مينوس Minos الذي لم يكن من سلالة إغريقية ، كان "هللينا" - بالمعنى الاثنى الحقيقي - من تساليا Thessaly^(٥).

المسيحيين *Ελλήνων καί Ιουδαίων* ، *Ιουδαίοις καί Έλλησι* ، هذا رغم انه استخدمه في موضع آخر بدلالة عرقية عندما يشير إلى "فوبوس Phoebus العظيم بين الإغريق".

The Correspondence of Athanasius I Patriarch of Constantinople : Letters to the Emperor Andronicus II , Members of the Imperial Family , and Officials , ed.& trans. A.M.Talbot, Washington , D.C.,1975 , pp. 112-13 ; 48-9 , 102-3 ; 150-1.

(1) Charanis , P., " The Formation of the Greek People " , *Byzantina Kai Metabyzantina* , vol. I (= *The "Past" in Medieval and Modern Greek Culture* , ed.S.Vryonis) , Malibu , 1978 , pp. 87-101 , 88.

(2) Acta S.Demetri , PG CXVI , 1293.

(3) Dujčev , I., *Cronaca di Monemvasia* , Palermo , 1976 , pp.xxvi ff.

(4) Constantine Porphyrogenitus , *De Administrando Imperio* , ed.G.Moravcsik , trans R.Jenkins, vol.I , Budapest , 1949 ,p. 50.

(5) *Timarion* , trans.B.Baldwin , Detroit , 1984 , pp.44 , 61.

كذلك تسجل لنا المصادر عددا من الحالات التي استخدمت فيها مصطلحات أخرى مماثلة بدلالة اثنية، منها مصطلح "إغريقي" Graikos (Γραικός)، فريسكوس البانيوني Priscus of Panion كتب عن شخص يوناني تزوج وعاش عدة سنوات في منطقة اليونان، أنه ظل "يتحدث اليونانية" Ἑλληνίζειν τη Φωνή، وظل يعلن أنه "إغريقي" ἔλεγε Γραικος μένε ἶναι το γένος^(١) وبالإضافة إلى مصطلحات "هلليني" و "إغريقي"، عاد مصطلح "هيلادي" Helladikos (Ἑλλαδικός)، الذي يرجع تاريخه إلى العصور القديمة الباكورة، إلى الظهور بدلالة اثنية، بعد أن كان يحمل في العصور الكلاسيكية مفهوما جغرافيا صرفا، فالحولية الفصحية Chronicon Paschale في منتصف القرن السابع، لجأت إلى حل وسط للتسوية بين المصطلحين "هلليني" و "هيلادي"، حيث أشارت إلى الإمبراطورة أثيناس-يودوكيا Athenais-Eudocia، زوجة ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠م)، على أنها "هيلادية" لكونها أثينية الأصل، و "هللينية" لأنها كانت وثنية قبل زواجها من الإمبراطور^(٢). ومع نهاية القرن السابع، وقت تحول إقليم اليونان البيزنطي إلى ثيم هيلاس Hellas، أصبح مصطلح "هيلاديين" Helladikoi مستخدما للإشارة إلى سكانه^(٣)، كذلك نجد مصطلحا آخر مماثلا استخدمه قسطنطين السابع في كتابه "عن الثيمات De Thematibus"، وهو "الآخين" Achaioi (Ἀχαιοί)، كبديل لـ "هلليني"، للإشارة إلى سكان البلوبونيز^(٤) Peloponnese.

ومما سبق يتضح أن هناك عدد من المصطلحات استخدمها البيزنطيون للإشارة إلى هويتهم، وأن هذه المصطلحات تغيرت مدلولاتها بتغير الظروف، وكان التحول الأول

(1) Priscus of Panion, ed. F.Bornmann, Florence, 1979, p. 46.

(2) Chronicon Paschale 284-628 AD, trans.M.& M.Whitby, Liverpool, 1989, pp. 67 - 8.

ومن الملاحظ أن الحولية الفصحية استخدمت دوما مصطلح "هلليني" بدلالته الوثنية، انظر، Ibid, pp. 50, 78, 87.

(3) Charanis, P., "The Term Helladikoi in Byzantine Texts of the Sixth, Seventh and Eighth Centuries", *Epeteris Etaireias Byzantinon Spoudon* 23(1953), pp. 615-20, repr.Idem, *Studies on the Demography of the Byzantine Empire*, London, 1972, no.17.

(4) Constantine Porphyrogenitus, *De Thematibus*, ed. Pertusi, Vaticano, 1952, p. 90.

عند الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية ، حيث أدى اقتران الدولة رسميا بالدين الجديد وتحليلها عن الديانة الوثنية ، إلى تغير مدلول مصطلحات " روماني " و "هلليني" ، ففي الوقت الذي أصبح الأول يستخدم للإشارة إلى الفرد المنتمى سياسيا للإمبراطورية الرومانية ، ودينيا للمسيحية ، غدا الثاني يحمل مدلولاً دينيا ، ويستخدم للإشارة إلى الوثنيين وغيرهم من الخارجين عن دائرة المسيحية ، وفي الوقت الذي فقد فيه المصطلحان أية دلالة عرقية داخل مركز الإمبراطورية والمناطق المتاخمة لها ، ظلت للمصطلح الثاني - كما يبدو - دلالاته الاثنية في المناطق البعيدة عن المركز ، خاصة - كما تشير الشواهد السابقة - في مناطق اليونان القديمة الرئيسية ، و أضيفت إليه مصطلحات مماثلة ، بعضها مستوحى من العصور الكلاسيكية اليونانية مثل : "هيلادي" و "الآخيين" ، بدلالة اثنية كاملة ، وظل الأول - على الأرجح - غير مستخدما في هذه المناطق .

ومن ناحية أخرى ، يمكن القول بأن استخدام كل من هذين المصطلحين ارتبط دوما بمقتضيات الصراع مع الآخر ، وكما ظهر سابقا أن استخدام مصطلح " روماني " من قبل البيزنطيين اقترن بحاجتهم لمواجهة الآخر ، والآخر هنا ممثلا في قوى سياسية أخرى ادعت لنفسها الحقوق والسلطات الواسعة لوراثة الإمبراطورية الرومانية ، كذلك اقترن استخدام مصطلح "هلليني" ، أو غيره من المصطلحات المشابهة ، بحاجة البيزنطيين لتحديد هويتهم الاثنية والثقافية الخاصة ، والتأكيد على أنهم لم يتخلوا عن هويتهم اليونانية غير القابلة للجدل ، في مواجهة الآخر ، والآخر في هذه الحالة ممثلا في العناصر والجماعات الاثنية العديدة التي قطنت أراضي الإمبراطورية ، والشعوب المعاصرة والمجاورة للبيزنطيين أصحاب الهويات الاثنية والثقافية المتباينة ، وتزايدت هذه الحاجة كلما شكلت هذه الجماعات والشعوب خطرا على هوية البيزنطيين ، وعلى ذلك يمكن القول بأن استخدام البيزنطيين للمصطلحين "روماني" و "هلليني" لا يشير إلى وعى متناقض ، أو لا وعى ، بهوية خاصة مميزة ، وإنما يشير إلى وعى بهوية مزدوجة " رومانية" و "يونانية" ، كل منها أدى دورا خاصا به "سياسيا" و "اثنيا" و ثقافيا" .

لقد اصطبغت الإمبراطورية البيزنطية ، خاصة عاصمتها ، عبر تاريخها الطويل بصبغة عالمية ، ومثلت أراضيها ومؤسساتها العسكرية والتجارية مرتعا ومصدرا لجذب الأجانب

من شتى الأنحاء ، هذا إلى جانب كونها إمبراطورية مترامية الأطراف ، ضمت مساحات واسعة قطنتها جماعات اثنية عديدة ، كالأرمن والبلغار والسلاف والأتراك واللاتين وغيرهم ، وداخل صفحات المصادر البيزنطية يلاحظ المرء أن هذه الجماعات ظل يشار إليها بأسمائهم الاثنية وليس كرومان أو هيلينيين ، و إن كانوا قد انضوا في بعض الحالات القليلة تحت المسمى الأول ، فالجيش البيزنطي - على سبيل المثال - ذكر دوما في المصادر البيزنطية على أنه " جيش الرومان " ، ولا يعنى هذا بالضرورة أن كل أفراد من البيزنطيين، كما استخدم مصطلح $\epsilon\theta\nu\iota\kappa\omicron\iota$ "الأجناس" للإشارة الاثنية إلى كافة العناصر الأجنبية^(١). أما من الوجهة الثقافية ، فقد أشير إلى هذه العناصر الأجنبية بمصطلحات عديدة ، تعكس عقدة البيزنطيين التقليدية في التشامخ على غيرهم من الشعوب والأجناس ، وكان مصطلح "برابرة" $\beta\acute{\alpha}\rho\beta\rho\omicron\iota$ الأكثر استخداما وشيوعا وشمولا لكافة الأجانب ، و إلى جانبه استخدم مصطلح "سكيزي" $\sigma\kappa\acute{\iota}\zeta\iota$ بمعنى أجنبي أو غريب^(٢).

ووسط الأقليات الأجنبية العديدة التي قطنت أراضي الإمبراطورية ، كان لدى مواطنيها ، أو على الأقل المثقفين منهم ، وعى كامل بأنهم يشكلون شعبا مختلفا عن هذه الأقليات ، شعب له هويته الاثنية والثقافية واللغوية الخاصة ، هوية تميزه عن غيره من الشعوب الأخرى ، ويظهر ذلك بوضوح تام عند تصفح أية دراسة تتناول علاقات الإمبراطورية بأى من هذه الشعوب .

كذلك هناك وفرة في النصوص الدالة على هذا الأمر داخل صفحات المصادر البيزنطية ، وحتى لا تأخذنا هذه النصوص بعيدا عن مهمة البحث الرئيسية ، سيكتفى

(١) هناك مصطلحات أخرى مشابهة ، مثل $\epsilon\theta\nu\iota\kappa\omicron\iota$ الذي استخدم لتمييز سكان الأقاليم $\epsilon\theta\nu\iota\kappa\omicron\iota$ ($\epsilon\theta\nu\iota\kappa\omicron\iota$) ، الشعب الكبادوكي $\epsilon\theta\nu\iota\kappa\omicron\iota \text{ Καπαδοκων}$ ، (الخ) ، و $\epsilon\theta\nu\iota\kappa\omicron\iota$ ، والإشارة إلى الغرباء عن المواطنين المحليين داخل أحد الأقاليم ، واستخدم المصطلح الأخير أيضا ، و $\epsilon\theta\nu\iota\kappa\omicron\iota \text{ Ρώμης}$ للإشارة إلى الغرباء عن العاصمة. عن هذه المصطلحات ، انظر ،

Ahrweiler , H., "Byzantine Concepts of Foreigner : the Case of the Nomads" , *Studies on the Internal Diaspora of the Byzantine Empire* , eds. H.Ahrweiler & A.Laiou , Washington , D.C., 1998 , pp. 1-16 , esp. pp.2-3.

(2) Ibid , p. 2.

الباحث بانتقاء أكثرها دلالة ، خاصة تلك التي ارتبطت بحاجة البيزنطيين إلى تحديد هويتهم في مواجهة الآخر. ففي القرن الحادى عشر أبدى بسللوس انزعاجه الشديد من غطرسة "بربرى" حقق نفوذا ملحوظا في بيروقراطية القسطنطينية، واعتاد أن يقول وهو يشير إلى يده اليمنى " إنه صافح بهذه أباطرة الرومان مرات عديدة"، ويستطرد بسللوس "سمعت ذات مرة يلفظ بهذه الكلمات ، فاعترانى استياء عارم، وكدت أخنى هذا البربرى المتغطرس بكلتا يداى ، إن صدمتى من هذه الكلمات كانت أكبر من أى قدرة على الاحتمال"^(١)، و إذا كان بسللوس لم يحتمل وجود أجنبى بالقرب من أباطرة القسطنطينية، فإنه كان أكثر استياء من أجنبى آخر ترأس شعب القسطنطينية الثائر ضد ميخائيل الخامس عام ١٠٤٢م عندما أقدم على عزل الإمبراطورة زوى ، ولذلك لم يستخدم كلمة "بربرى" فقط ، بل أضاف "لقد اختاروا لهم قائدا لم يكن هليلنى السلالة *γένος οὐκ Ἑλλήνα*"^(٢).

ومن الملاحظ هنا أن بسللوس استخدم مصطلح هليلنى بمعناه الاثنى. حقيقة أن المصطلح بمعناه الاثنى تردد - كما ذكر سابقا - في ثانيا بعض المصادر للإشارة إلى سكان أحد أقاليم الإمبراطورية ، إلا أن الجديد في استخدام بسللوس له هو أنه جاء كرد فعل من قبل بيزنطى لتحديد هويته في مواجهة أجنبى شكل - من وجهة نظره - خطرا وتهديدا مباشرا له ، والأكثر أهمية أن استخدامه جاء إشارة إلى البيزنطيين كافة ، وليس لسكان إقليم بعينه من أقاليم الإمبراطورية ، أو كما تشير أنتيرا جادولين *Anitra Gadolin* " أن بسللوس يربط إغريق عصره بالإغريق القدماء"^(٣).

وإذا كان استخدام بسللوس لمصطلح هليلنى بمعناه الاثنى للإشارة إلى البيزنطيين كافة يعد من الاستخدامات الأولى له ، فإن هذا الاستخدام شاع خلال القرن الثانى عشر

(1) Psellos , M., *Fourteen Byzantine Rulers : the Chronographia of Michael Psellos* , trans. E.R.A.Sewter , London , 1953 , p.169.

(2) Ibid , p. 36.

(3) Gadolin , A., *A Theory of History and Society with Special Reference to the " Chronographia " of Michael Psellus* , Stockholm , 1970 , pp. 209f.

الميلادى ، بل وتجاوز هذا الاستخدام معناه الاثنى ليشمل أيضا المعنى الثقافى ، بعد أن أصبح أساسا لتحديد الهوية البيزنطية فى مواجهة العنصر اللاتينى .

لقد فرضت تطورات الأحداث منذ القرن الثانى عشر ، خاصة نصفه الثانى ، على البيزنطيين تحديا خطيرا من الآخر ، ومن ثم باتت هناك حاجة ماسة إلى تحديد هويتهم أمام مد الآخر ، خاصة عندما بدأ الآخر يتغلغل بنفوذه فى قلب حياة العاصمة السياسية والاقتصادية والدينية ، ولما واثته الفرصة انتهزها - بكل فخر - ليلتهم العاصمة بأكملها عام ١٢٠٤م ، ولذا لم يكن غريبا أن تصبح كراهية المجتمع البيزنطى الكامنة للأجانب Xenophobia ، موجهة منذ ذلك الحين إلى اللاتين بصفة خاصة .

ولم يكن الصدام البيزنطى - اللاتينى وليد القرن الثانى عشر ، بل لقد فرضت مجريات الأحداث على البيزنطيين واللاتين منذ أمد بعيد أن يسيروا فى اتجاهين متباعدين ، وكلما دفعهم أمر ما إلى الاتصال ، تكون النتيجة الحتمية هى الصدام ، ويؤكد ذلك سلسلة من الأحداث بدأت بالأزمة اللايقونية ^(١) ، ثم إحياء اللقب الإمبراطورى فى الغرب ، فالانشقاق الدينى ^(٢) ، مروراً بتعاظم الخطر النورمانى على أراضى الإمبراطورية ^(٣) ،

(١) عن بيزنطة والغرب الأوروبى خلال الأزمة اللايقونية ، انظر ،

Miller ,D.H., " The Roman Revolution of the Eighth Century : the Ideological Background of the Papal Separation from Byzantium and Alliance with the Franks " , *Medieval Studies* 36(1974) , pp.78-133 ;Llewellyn , P., " The Roman Church on the Outbreak of Iconoclasm " , *Iconoclasm* , ed,A.Bryer & J.Herrin , Birmingham , 1975 , pp.7-14.

(٢) عن الانشقاق الدينى بين كنيسة القسطنطينية والبابوية ، انظر ،

Runciman , S., *The Eastern Schism : a Study of the Papacy and the Eastern Churches during the XIth. And XIIth. Centuries* , Oxford , 1956 .

(٣) عن الصراع البيزنطى - النورمانى ، انظر ،

Loud , G. A. , " Byzantine Italy and the Normans " , *Byzantium and the West* , C. 850-1200 , ed. J.D. Howard-Johnston , Amsterdam , 1988 , (= *Byzantinische Forschungen* 13) pp. 215-234 ; Mcqueen , W. B. , " Relations between the Normans and Byzantium , 1071-1112 " , *Byzantion* 56 (1986) , pp. 424-476 .

نبيلة إبراهيم مقامى ، العلاقات بين الدولة البيزنطية والنورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية من ١٠٢٥ - ١١٩٧م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة عين شمس ، ١٩٨٩م .

والاستغلال التجارى لمدن إيطاليا التجارية^(١)، ولم يؤد ذلك سوى إلى زيادة قناعة البيزنطيين بأنهم شعب مختلف تماماً عن اللاتين ، مختلف عنهم فى لغته وثقافته ونمط حياته، وبالإجمال فى هويته، ثم جاءت تجربة الحركة الصليبية ، التى تحمل الشعب البيزنطى خلالها الكثير من الإهانة وتكبد الخسائر الفادحة على يد الصليبيين ، لتسهم فى تقوية الشعور البيزنطى بالكراهية والتشامخ على كافة شعوب الغرب بوصفهم شعب الله المختار ، وقد أثّرت عقدة التشامخ هذه أكثر من كونها أحدثت مع الاحتكاك المباشر بممثلى الغرب اللاتينى الذين توافدوا على الإمبراطورية فى أعداد كبيرة خلال القرن الثانى عشر ، سواء فى صورة صليبيين أو تجار أو جنود مرتزقة، وسرعان ما عبرت كراهية البيزنطيين الدفينة لللاتين عن نفسها فى مذبحة دموية لللاتين المستوطنين بالعاصمة عام ١١٨٢م^(٢)، والأهم من ذلك أن الحركة الصليبية ضخمت من هوة اللاتفاهم ، وأكدت أوجه الخلاف ودعمت الشقاق الإيديولوجى بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى ، وبدا قادتها وجنودها فى أعين المجتمع البيزنطى كنوع غريب وهمجى من البشر، حثالة يتكلمون لغة غير مفهومة، لا يتسمون بشيء سوى الجشع وسوء السلوك، ولديهم تيه بالنفس لا يحتمل ، ومن ثم بدأ هذا المجتمع فى شحذ أسلحته ، وأصبح حريصاً على

(١) عن التجارة الإيطالية فى الأراضى البيزنطية ، انظر ،

Lilie , R. J. , *Handel und Politik Zwischen dem Byzantinischen Reich und den Italienischen Kommunen Venedig , Pisa und Genoa in der Epoch der Komnenen und der Angeloi , 1081-1204* , Amsterdam , 1984 ; Nicol , D.M., *Byzantium and Venice: a study in Diplomatic and Cultural Relations* Cambridge , 1988 , Day, G., *Genoa's Response to Byzantium , 1155-1204 : Commercial Expansion and Factionalism in a Medieval City* , Urbana / Chicago , 1988 .

حاتم الطحاوى ، بيزنطة والمدن الإيطالية (١٠٨١-١٢٠٤م) ، القاهرة ، ١٩٩٨م ؛ عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى ، دمشق ، ١٩٨٠ .

وعن العلاقات البيزنطية- اللاتينية عبر هذه الفترة الطويلة ، انظر الدراسة المتميزة ، اسحق عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قنسطنطين ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

(2) Garland , L. , " Political Power and the Populace in Byzantium Prior to the Fourth Crusade " , *ByzantinoSlavica* 53 (1992) , p. 36 .

تضامنه في وجه زمرة معادية عُرِفَت باللاتين ، نوع من الناس يختلف تماما عن الرومان الحقيقيين المتحدثين باللغة اليونانية^(١).

ومن اليسير تماماً حصد وجهات نظر الطبقة المثقفة من المجتمع البيزنطي لإظهار المدى الذي وصل إليه النفور من اللاتين ، فنيقتاس الخونيائي راح يؤكد على التباعد التام بين البيزنطيين واللاتين بقوله : " بيننا وبين اللاتين هوة سحيقة ، فنحن أقطاب مستقلة ، لا يجمعنا بهم أى فكر مشترك ، فهم متكبرون متغطرسون ، يستهويهم الاستهزاء بلطف واعتدال عاداتنا ، لكننا ننظر إلى جهلهم وغطرستهم كتدفق المخاط الذي يجعل أنوفهم في الهواء "^(٢) ، وفي الوقت نفسه عبر نيقتاس عن اشمئزازه من أولئك الأقزام ، أنصاف

(1) Nicol , *Byzantine View* , p. 339 .

كذلك أحدث تغلغل اللاتين في حياة العاصمة السياسية والاقتصادية والدينية ردود فعل عنيفة بين مختلف طبقات وفئات المجتمع البيزنطي ، ويكفى أن نتصفح روايات اللاتين المعاصرين لندرك إلى أى مدى وصل الاستياء البيزنطي من اللاتين ، وقد عبر المؤرخ الصليبي وليم الصوري عن ذلك بقوله : " لقد أدت رعاية مانويل لللاتين أن توغرت ضدنا صدور أشرف بيزنطة لاسيما أقارب الإمبراطور الأدنون ، وعششت البغضاء في نفوس غيرهم ، وامتألت القلوب كلها بالحقد الأسود الذي لا تنحل عقده " ، وهو الأمر الذي راح هوجو اتريانوس يؤكد به بقوله : " لقد أصبح يُشار إلى اللاتين في شوارع العاصمة كأشياء تثير المقت والكراهية " .

وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج ٤ ، ص ٢٧٤ .

Angold , M. , *Church and Society in Byzantium under the Comneni* , Cambridge , 1995 , p.513 .

(٢) تناول الباحث بالتفصيل تغلغل النفوذ اللاتيني في مختلف نواحي حياة العاصمة البيزنطية ، الاقتصادية والسياسية والإدارية والاجتماعية وحتى الدينية ، وموقف المجتمع البيزنطي بمختلف فئاته وطبقاته ، في الفصل الرابع من رسالته للمهاجستير ، والذي يحمل عنوان " اللاتين في بيزنطة " ، انظر ،

عبد العزيز رمضان ، العلاقات البيزنطية اللاتينية ، ص ١٠٤-١٣٠ .

وعن تأثير الحركة الصليبية على نظرة البيزنطيين لللاتين ، انظر ،

Charanis , P. , " Aims of the Medieval Crusades and How They were viewed by Byzantium " , *Church History* 21 , (1952) , pp. 123-134 ; Daly , W. M. , " Christian Fraternity , the Crusaders and the Security of Constantinople , 1097-1204 " , *Medievalia et Humanistica* 22 , (1960) , pp. 41-91 .

رأفت عبد الحميد ، " بيزنطة وخيانة القضية الصليبية " ، بحث منشور في كتاب قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٩٨ ؛ جوان هسي ، " بيزنطة والحروب الصليبية ١٠٨١-١٢٠٤ م " ، ترجمة وتعليق. عبد العزيز رمضان ، منشور ضمن كتاب : تاريخ الحروب الصليبية بإشراف كينيث سيتون ،

المتحضرين ، المتسمين بالغرور ، والذين نعموا في المنح الإمبراطورية في وقت اضطر رعايا الإمبراطور الحقيقيين إلى الارتشاء من وظائفهم ، وانتقد الإمبراطور لأنه وضع هؤلاء البرابرة الجهلة فوق الرومان المثقفين في الإدارة المحلية ، ومنحهم إقطاعات البرونويا ، في وقت اضطر الشرفاء إلى العمل لديهم كخدم^(١) ، كذلك راح كيناموس يصفهم بالفجور الأخلاقي قائلاً :- " سوقيون غير موثوق فيهم ، يتصفون بكافة الخصال البذينة للمشتغلين بالبحر ، ثرواتهم تزيد من طمعهم وعجرفتهم ، يسيئون معاملة كثيرين من النبلاء ويعتدون عليهم ، ومن بينهم أقارب الإمبراطور نفسه " ^(٢).

وإذا كان ذلك موقف الطبقة المثقفة في المجتمع البيزنطي ، فإن شعب القسطنطينية بمختلف فئاته وطوائفه كان أكثر تعصبا في موقفه العدائي من اللاتين ، حيث اعتبرهم حثالة من البشر ، أشد ما حز في نفسه رؤية ما يتمتعون به من امتيازات وما بحوزته من ثروات ، وراح التجار والصناع ، تحت وطأة المنافسة القاسية للتجار اللاتين ، يعارضون العنصر اللاتيني ويتظنون بفارغ الصبر يوم خروجه من الإمبراطورية بلا عودة^(٣) ، كما شعرت الطبقة البيروقراطية بالاستياء العميق من وجود جماعة ضغط لاتيني في البلاط البيزنطي امتلكت تقريبا أذن الإمبراطور ، وتوجست خيفة من كونها لن تستطيع ممارسة نفوذها التقليدي لدى الإمبراطور^(٤) ، وهذا الاستياء عُبر عنه بقوة في رسالة كتبها الأسقف البيزنطي جورج تورنيكوس George Tornikos رئيس أساقفة أفسوس في عام ١١٥٠م بعد ما فشل في مساعيه للحصول على وظيفة لعمه في البلاط الإمبراطوري ، حيث جاء فيها : " لا أكاد أصدق أن محبا للهيلينية والحرية ، يُدرج هليلنيا مع برابرة ، أو

تحرير سعيد البشاوي و محمد مؤنس عوض ، رام الله ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٩٤-٣٣٢ ؛ عبد العزيز رمضان ، العلاقات البيزنطية اللاتينية ، ص ٢٦-٥٠ .

Choniates , N., *O City of Byzantium : Annales of Nicetas Choniates* , trans. H.Magoulas , Detriot , 1984 , p. 167 .

(1) Ibid . pp. 38-39

(2) Kinnamos , *Deeds* , pp.209-210 .

(3) Brand ,Ch., *Byzantium Confronts the West , 1180-1204* , Cambridge , Mass. , 1968 . p.12

(4) Angold ,A., *The Byzantine Empire , 1025-1204 : A Political History* , London , 1984 , p. 204 .

يُدرج رجلاً حراً مع أناس هم عبيد بالفطرة ، ولا أكاد أطبق صنفاً من الناس في علاقات طيبة مع البرابرة فيفضلونهم على الهلليين ، زاعمين أن الهلليين رغم كونه بطلاً ومحباً للموساي (ربات الفنون) وهرميس أقل الطرفين شأناً^(١). كذلك راح يوحنا أبوكاوكوس John Apokaukos يشير إلى اللاتين في أعقاب الحملة الصليبية الرابعة بقوله : "الوحوش والشعابين البرية التي تود أن تسحقني ، أنا الهلليين ، بين أسنانها"^(٢).

ويعد هذا هو أول استخدام واضح لكلمة هلليني بمدلولاته الاثنية والثقافية في مواجهة الغرب الأوروبي ، فما دلالة هذا الاستخدام ؟ أهى محاولة من جانب البيزنطيين للتوصل من هويتهم كرومان ؟ أم محاولة لإعادة تحديد هويتهم ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما دافعهم إلى ذلك ؟

بداية ينبغي الإقرار بأن الحركة الصليبية قد أضفت على تجمع سكان الغرب الأوربي هوية موحدة ، وأن انضواءهم تحت راية الصليب كان أمراً مروعاً للشعب البيزنطي الذي بات لزاماً عليه أن يحدد هويته في مواجهة هذا المد اللاتيني ، ولم يكن الكتاب البيزنطيون عند تسمية أنفسهم هلليين يتصلون من هويتهم كرومان ، بل رغبوا في تمييز أنفسهم عن اللاتين الذين ادعوا أنهم أيضاً رومان والتأكيد على أن ما يميز البيزنطيين عن غيرهم ، ليس لأنهم روماناً فقط بل زادوا على ذلك بأن ثقافتهم هللينية^(٣) ، كذلك لا شك في أن لجوء أهل الفكر في بيزنطة إلى تحديد هويتهم في مواجهة تهديد المد اللاتيني ، وحينهم إلى أثينا القديمة وتفضيلهم اسم هلليني كان لتأكيد الهوية السحيقة لحالة الانسجام القائمة بين البيزنطيين واللاتين ، وأنهم يمثلون شعبين متباعدين ومختلفين ، لغة وثقافة وهوية^(٤).

وإذا كانت الحركة الصليبية وتغلغل النفوذ اللاتيني في حياة العاصمة خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر قد فرضت على البيزنطيين شعوراً بالخطر من الآخر ، وهذا

(1) Angold , *Church and Society* , p.512 .

(2) Magdalino , P. , " Hellenism and Nationalism in Byzantium " , in : P. Magdalino , *Tradition and Transfactions in Medieval Byzantium* , London , 1991 , No. XIV , p.12 .

(3) Ibid , p.12.

(4) Angold , *Church and Society* , p. 512 .

الخطر بدوره ولّد لديهم حاجة ماسة إلى إعادة تحديد هويتهم في مواجهة ذلك الآخر ، فإن هذا الشعور وهذه الحاجة تزايدت في أعقاب الغزو اللاتيني لمدينة القسطنطينية عام ١٢٠٤م ، كرد فعل طبيعي من جانب البيزنطيين لحدث وصفه أحدهم بأنه " طوفان عالمي"^(١). وقد بدا ذلك واضحا للغاية في إمبراطوريات المنفى ، خاصة نيقية Nicaea ، حيثما أصبح استخدام مصطلح هيليني ، للإشارة إلى البيزنطيين ، أمرا شائعا ومألوفا ، خاصة من قبل أهل الفكر والثقافة ، فمؤرخ القرن الثالث عشر جورج أكروبوليتيس George Akropolites أشار إلى نيقية على أنها " أرضنا الهلينية " ، كذلك أشار ثيودور الثاني لاسكاريس Theodore II Lascaris في إحدى رسائله إلى جدل ثار في بلاط نيقية بين علمائه وأعضاء سفارة ألمانية ، وأن النصر كان حليف الجانب النقي ، وهو الأمر الذي عكس - على حد تعبيره - " تفوقا كبيرا للهلينيين "^(٢).

وحتى بعد استرداد القسطنطينية عام ١٢٦١م ، ظل البيزنطيون حريصين على تأكيد هويتهم كهلينيين ، فأسقف سلمبريا يوحنا خورتاسمينوس^(٣) John Chortasminos (١٣٧٠-١٤٣٧م) استخدم في مراسلاته مصطلحي "روماني" و"هيليني" للإشارة إلى البيزنطيين ، كما راح يبدى خوفه من أن ينسى " الهلينيون " لغتهم اليونانية نتيجة استخدامهم للغة التركية ، وفي خطاب آخر راح يظهر حرصه واهتمامه بالأحوال الثقافية للهلينيين " الواقعين تحت السيطرة الإيطالية "^(٤).

وعلى ذلك ، يمكن القول أن محاولة البيزنطيين لتحديد هويتهم الاثنية والثقافية منذ القرن الثاني عشر الميلادي وربطها بالهلينية ، كان رد فعل من قبلهم إزاء الأحداث

(1) Darrouzès , J., "Les discours d'Euthyme Tornikès (1200-1205) ", *Revue des Études Byzantines* 26 (1968) , pp.82-3.

(2) Angold , M., "Byzantine Nationalism and the Nicaean Empire ", *Byzantine and Modern Greek Studies* 1(1975) , pp.49-70, esp.64-5.

(٣) كان أحد موظفي التوثيق في بطريركية القسطنطينية ، عاصر الحصار التركي لها خلال الفترة ١٣٩٤-١٤٠٢م ، عين أسقفاً لسلمبريا في إقليم تراقيا ثم تهرب في أخريات حياته ، له العديد من المواعظ والكتابات الدينية ، كما ترك مجموعة من القصائد والرسائل أكثرها موجه إلى الإمبراطور مانويل الثاني باليولوجوس ، انظر ،

دونالد نيكول ، معجم التراجم البيزنطية ، ص ٢٣٣.

(4) Vryonis , *Recent Scholarship* , pp.251-2 n.2.

والتطورات التي طرأت على علاقتهم بالآخر ، والآخر خلال هذه الفترة بات محددًا ومحصورًا في العنصر اللاتيني الذي بات يشكل تهديدًا خطيرًا على الهوية البيزنطية ، خاصة وأنه هو الآخر شارك البيزنطيين في ادعائهم الهوية الرومانية ، ومن ثمّ كان لزامًا على البيزنطيين أن يستجيبوا لذلك التهديد باللجوء إلى هوية أكثر تحديدًا وتمييزًا لهم عن الهوية المتنازع عليها مع اللاتين ، وذلك بإضافة الهلينية إلى الرومانية في سياق أكثر تحديدًا على المستويات الثقافية واللغوية والعرقية ، ولكن ذلك لم يعن تنازل البيزنطيين أو تنصلهم من هويتهم السياسية كرومان وكورثة للإمبراطورية الرومانية القديمة ، فهذه الهوية أيضًا ظلت حتى أواخر التاريخ البيزنطي تشكل أساسًا للفكر السياسي البيزنطي. فالشاعر البيزنطي ثيودور ميتوخيتيس Theodore Metochites (١٢٧٠-١٣٣٢م) أشار في إحدى قصائده إلى البيزنطيين في مواجهة الآخر على أنهم "هللينيون" قبالة "برابرة" Ἕλλησιν ἡ δὲ τε βαρβάρους، لم يجد تناقضًا أو اختلافًا عندما أشار إلى البيزنطيين في قصيدة أخرى على أنهم "الشعب الروماني" Ῥωμαῖδος Γενεῆς^(١) ، والأمير ذاته نجده في مراسلات البطريرك أثناسيوس (١٢٨٩-١٢٩٣م-١٣٠٣-١٣٠٩م) ، الذي ظل يطلق صفة الرومانية على الشعب والأرض والحكم^(٢).

ومن ناحية أخرى ، يمكن القول أيضًا بأن الهوية الهلينية ظلت في وجدان الشعب البيزنطي منذ فترة مبكرة من تاريخه ، حقيقة أن مصطلح هلليني اقترن بالوثنية فترة معينة ، إلا أن الهلينية كثقافة ولغة وعرق ظلت غالبية عليه ، وحتى المصطلح نفسه لم يقترن بالوثنية - على ما يبدو - إلا داخل العاصمة والمناطق المتاخمة لها. أما في الأقاليم البعيدة عن المركز فقد ظل لمصطلح هلليني مدلوله العرقي على الأقل ، وظل يستخدم للإشارة إلى سكان هذه الأقاليم ، ثم جاء القرن الثاني عشر ليرز فيه المدلول الثقافي إلى جانب العرقي لتمييز البيزنطيين عن غيرهم ، ولا يعنى هذا أن المدلول الديني القديم اختفى ، بل ظل يشار أحيانًا - وإن كانت قليلة - إلى الوثنية بالهلينية ، كما وضح في استخدامات

(1) Theodore Metochites s Poems " to himself " , ed.& trans. J.M.Featherstone , Wien , 2000 , poems XIV pp.24-5 , XVII pp.88-9.

(2) Correspondence of Athanasius I , pp.4 , 32-4 , 72-3 , 168-9 , 244-5.

البطريك كاكينوس والبطريك أثناسيوس في فترة متأخرة من التاريخ البيزنطي^(١)، والسبب في ذلك غير واضح، هل جريان العادة؟ أم ارتباط هؤلاء بوظائف دينية؟ أم أن هناك سبب آخر؟.

وخلاصة القول، أن الوجدان البيزنطي احتوى هويتين: هوية سياسية "رومانية"، وأخرى ثقافية وعرقية "هللينية"، برزت الأولى عن الثانية منذ القرن التاسع فصاعداً، عندما كانت مقتضيات الصراع مع الآخر سياسية، ثم تغير الوضع خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر، عندما وضح أن الهوية الثقافية والعرقية هي الأكثر تميزاً وخصوصية للبيزنطيين، وفي وقت باتت مقتضيات الصراع مع الآخر تتخذ طابع الصدام بين عرقين وثقافتين مختلفتين، ورغم بروز واحدة عن الأخرى، فإن الهويتين ظلتا في وجدان المجتمع البيزنطي، يمثلان هوية واحدة مزدوجة، فهم ورثة الرومان الأقدمين سياسياً، وهم أحفاد الإغريق القدامى، امتداداً لعرقهم، وورثة للغتهم وثقافتهم.

الجزيرة الفراتية بين الصراع الفارسي البيزنطي
من القرن الرابع الميلادي إلى الفتح الإسلامي
(ما قبل ٨ هـ - ٦١ هـ / ٦٢٩ م - ٦٨٢ م)

أ.د/ عفاف سيد صبره

أستاذ التاريخ الوسيط

كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر

١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م

oboi.kan.com

الجزيرة الفراتية بين الصراع الفارسي البيزنطي من القرن الرابع الميلادي إلى الفتح الإسلامي

يتناول موضوع البحث منطقة الجزيرة الفراتية والتي سنحدد موقعها الجغرافي لاحقاً - لأنها من أهم مناطق الوطن العربي الإسلامي حالياً، وتشهد ساحاتها وأراضيها صراعاً دولياً كبيراً للهيمنة عليها، لما تتمتع به من أهمية جغرافية واقتصادية وسياسية كبيرة.

ولعل ما تتركه بلاد العراق حالياً من محاولات دولية للهيمنة عليها، وفرض النفوذ السياسي على أراضيها، وانقساماتها الطائفية والعرقية، والتي تجعلنا نوجه أنظارنا إليها، داعين الله عز وجل أن يرفع عنها هذا البلاء لأنها تمثل القلب لهذا الكيان الإسلامي، فإذا توقف نبضه فستموت بقية الأعضاء، لأن معظم بلدان الجزيرة الفراتية - موضوع البحث - وجزءاً من بلاد العراق، وإن كان بعض منها يخضع حالياً لنفوذ قوى دولية أخرى مثل إيران وتركيا.

إن الأحداث المعاصرة والتي نعيشها الآن كانت حافزاً ودافعاً لاختيار هذه المنطقة في مرحلة تاريخية قبل ظهور الإسلام، حددت لها القرن الرابع الميلادي والذي يمثل فترة استقرار الأسرة الساسانية التي أعادت القوة للدولة الفارسية سنة ٢٥٨م، وكذلك يمثل هذا القرن تأسيس القسطنطينية في الشطر الشرقي للإمبراطورية الرومانية سنة ٣٣٠م.

هاتان القوتان اللتان مثلتا قمة الصراع العالمي في العصور الوسطى حيث خضعت مدن الجزيرة الفراتية لهما، وتوزعت بينهما تتقاذفها التيارات السياسية والدينية لكلا القوتين، وتلعب بمصائرهما وبانتماءاتها السياسية والدينية نتائج الحروب المشتعلة بينهما.

كأن هذه المنطقة عاشت تاريخاً قديماً مماثلاً لما تتعرض له في هذه الأيام من صراع دولي على تقسيمها بين المشاركين في قهرها وإعدامها، معنى ذلك أن الصراع بين الفرس والروم في هذه الفترة التاريخية كان يحدد أوضاع وأحوال مدن وبلدان الجزيرة الفراتية.

أولاً : الحدود الجغرافية للجزيرة الفراتية

قدم لنا الجغرافيون المسلمون آراء عديدة حول حدود الجزيرة الفراتية من مختلف الجهات.

فقد أشاروا إلى أقسامها المختلفة وحدودها بثلاثة أقسام :

١- ديار ربيعة

وتتألف من الأراضي الواقعة شرق نهر الخابور الكبير المنحدر من مدينة رأس العين، ومن الأراضي التي تقع شرق نهر المهرماس المنساب في وادي الثرثار باتجاه نهر دجله، وكذلك على ضفتي دجلة من أراضي تنحدر بإنحدار النهر من تل فافان إلى تكريت جنوباً، وتشمل الأراضي الواقعة غرب دجلة حتى نصيبين الواقعة وسط الجزيرة^(١).

وتشمل ديار ربيعة البلدان التالية :

أ- جزيرة بن عمر، والتي كانت تسمى جزيرة الأكراد وتقع على الضفة الغربية من المجرى الأوسط لنهر دجله^(٢).

ب- بلد وتقع شمال الموصل^(٣).

ج- الموصل، ولها العديد من القرى وهي شمال العراق.

د- ماردين، وتقع في أطراف الروافد العليا للخابور.

هـ- دنيسير.

و- دارا، تقع إلى الجنوب من ماردين^(٤).

(١) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرانسيس، ومخائيل عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥، ص ١١٥.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨ م، ج ٢، ص ١٣٨.

(٣) ياقوت، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨١.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩ م، ص ١٩٩.

ز- نصيبين، وتقع على الطريق من الموصل إلى الشام^(١).

ح- أذرمه، وهي من قرى نصيبين^(٢).

ط- كفرتوثا، وتقع على أحد الروافد التي تكون نهر البليخ^(٣).

ك- رأس العين، وتقع على نهر الخابور^(٤).

وتل موزون بين رأس العين وسروج وتل بنى سيار وتينيز وتقع على ضفة الخابور، وعرابان وتقع على الخابور، والشمانين جنوب عرايان، وماكسن على ضفة الخابور والفدين على الضفة الشرقية للنهر وواسط التي استحدثت في العصر الأموي وهي غربي الفرات، وبرقعيد قرب نصيبين ومن قرى الموصل وسنجان وتقع وسط ديار ربيعة، وتل أعفر عزب الموصل، والحضر وهما من مدن وسط الجزيرة القديمة^(٥).

٢- ديار بكر

وتشمل المدن التالية والتي تمتد من منبع دجلة وتشمل مدن: ميفارقين وآرزن وسعرت وآمد وحصن كيفا وفافان وثمانين^(٦).

٣- ديار مصر

وتشمل المدن التي تقع في غربي الجزيرة محاذياً للفرات من سمسياط حيث يغادر سلاسل الجبال منحدرًا إلى عانة مع السهول التي يسقيها نهر البليخ رافد الفرات المنحدر من حران^(٧).

وهذه المدن هي: جسر منبج، قلعة الدوسر، الرقة، الخانوقة، قرقسيا والرحبة وآلوسه، وهيت والرها وسروج وحران وجروان.

(١) ياقوت، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٨.

(٢) ياقوت، المصدر السابق، ج١، ص ١٣٢.

(٣) ياقوت، المصدر السابق، ج٤، ص ٤٦٨.

(٤) ليسترنج، المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٥) انظر ياقوت، المصدر السابق، ج٢، ج٣، ج٤، الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم

الكتب، بيروت، ١٩٨٩م، ج٢، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٦) ليسترنج، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٧) المرجع السابق، ص ١١٥.

ثانياً : عناصر السكان في مدن الجزيرة الفراتية

ازدحمت مدن الجزيرة بعناصر سكانية وطوائف عرقية عديدة. ولعل هذه السمة كما أوضحنا هي الغالبة حتى أيامنا هذه على هذه البلاد وسنحاول تحديدها بصورة عامة حيث تشمل:

١- العرب : وكانوا يشكلون في هذه الفترة غالبية سكان الجزيرة الفراتية، حتى إنها عرفت بيت عربية لكثرة العرب فيها، وكان بعضهم مستقراً والبعض من البدو وقد تعددت وتناثرت قبائلهم^(١).

٢- السريان أو الآراميون : وهم من الشعوب السامية التي استقرت في منطقة الجزيرة الفراتية قبل الإسلام وسأهم اليونان بهذا الاسم أثناء ترجمة التوراة إلى اليونانية، وقيل أنهم تركوا إسمهم القديم بعد اعتناقهم النصرانية وتسموا بالسريان وانقسموا بحسب المذهب إلى سريان مشاركة وهم النساطرة وسريان مغاربة وهم اليعاقبة ولغتهم هي الآرامية التي عرفت بالسريانية وانتشروا في عدد من مدن الجزيرة الفراتية، وقد يكون انتشار النصرانية بينهم بسبب اختلاطهم بالعرب المنتصرة من رعايا الفرس، وانتشر بينهم بشكل خاص المذهب النسطوري، وذلك بتأثير مدرسة نصيبين^(٢).

٣- الأكراد : كانوا أحد عناصر سكان الجزيرة، استقروا في عديد من مدنها قبل الإسلام فزلوا ماردين وكفر عزي وجزيرة الأكراد التي عرفت فيما بعد بجزيرة بن عمر^(٣).

٤- الفرس : وهم عنصر آخر من عناصر السكان نزلوا في عدد من مدنها وعلى رأسها سنجار وظل منهم بقايا في المدن التي خضعت للفرس مثل نصيبين.

(١) سعاد العمرى، الجزيرة الفراتية من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، دراسة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، رسالة دكتوراه غير مشورة، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤١٦ هـ ص ١٣٥.

(٢) سعاد العمرى، المرجع السابق، آرثر كريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٧، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٣) بيغوليفسكيا، نينا فيكتور فنا، العرب على حدود بيزنطة وإيران، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت، ١٩٦٤، ص ٩٠ - ٩١.

٥- الروم : وكانوا من المناطق البيزنطية أو من المناطق التابعة لها وشكلوا أبرز سكان الجزيرة^(١).

وبعد إستعراضنا لحدود الجزيرة الفراتية وما شملته من مناطق وبلاد وعناصر سكانها نود أن نحدد طبيعة القوى التي سيشملها البحث والذي تحددت له الفترة من القرن الرابع حتى الفتح الإسلامي لهذه البلاد في القرن السابع الميلادي.

كانت القوى السياسية التي جاورت الجزيرة الفراتية ونشرت سلطانها السياسي والحربي عليها تشمل :

أ- الدولة البيزنطية : أو الدولة الرومانية الشرقية.

اتخذت الدولة الرومانية مسارها ناحية الشرق منذ عصر الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٤ م - ٣٠٥ م حيث اتخذت من نيقوميديا عاصمة لها، وبعدها وفي عصر الإمبراطور قسطنطين الكبير قام بتأسيس مقر وعاصمة للإمبراطورية الرومانية في الشرق وهي مدينة القسطنطينية، وذلك عام ٣٣٠ م حيث تقع على البسفور وعند التقاء قارتي أوروبا وآسيا^(٢). وبذلك تقاربت دولة الروم مع هذه البلدان التي تجمعها الجزيرة الفراتية، وبدأت في فرض سلطانها السياسي عليها، علماً بأن معظمها كان خاضعاً من قبل لسلطان روما.

ب- الدولة الفارسية الساسانية.

قامت هذه الدولة بعد انتهاء الأسرة البارثية في ٢٢٦ م على يد أردشير بن بابك الذي قتل الملك البارثي أرتبان الخامس وكون ملكاً لأسرته الساسانية ويذكر أنه وطئ بقدمه رأس الملك الأعظم^(٣). وإذا اعتبر البيزنطيون أنفسهم خلفاء قياصرة الرومان، اعتبر الساسانيون أنفسهم خلفاء قورش سنة ٥٥٩ ق.م^(٤).

(١) بيغوليفسكيا، المرجع السابق.

(٢) Ostrogorsky, History of the Byzantine state, Oxford, 1965, p.40.

(٣) محمد عبد القادر محمد، إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامي، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ط١، ١٩٨٢، ص١٦٣.

(٤) زبيدة عطا، الدولة البيزنطية من قسطنطين إلى أنستاسيوس، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٧٧، ص ٧٩.

ومنذ القرن الثالث الميلادي بات الخطر الفارسي ملموساً وظل مصدر حيرة وإرباك للدولة البيزنطية، فالنضال ضد أكاسرة فارس يعتبر أهم ما واجه البيزنطيين من مشاكل حرية وسياسية^(١).

بدأت القوات البيزنطية والفارسية تتطلعان بعين ملؤها الشر، وتناوران من أجل الحصول على حليف في هذه الأقاليم وسعت كل منهما لتدعى لنفسها قراراً من السيادة على المناطق المتاخمة للولايات الرومانية، ورغم أن العلاقات بين الفرس والرومان على الجبهة الشرقية قد اتسمت بطابع التيقظ والحذر والنزاع المستمر، إلا أن الفرس كانوا يمثلون للرومان خصماً يختلف تماماً عن أولئك البرابرة الذين أغرقوا الإمبراطورية بسيل طوفانهم العرم، فقد كان الفرس أصحاب تقاليد مرعية وحضارة تقابل حضارة العالم اليوناني الروماني، حتى أنه كان في مقدور المؤرخ الروماني ثيوفيلاكس "القط الأفطس" أن يكتب في نهاية القرن السادس قائلاً: "منذ البدء قضت العناية الإلهية أن تزدان الدنيا بعينين مضاءتين، مملكة الرومان القوية القادرة، وصولجان الحكمة الفارسية"^(٢).

أصبحت منطقة الجزيرة الفراتية من مناطق النزاع ومطمعاً لهاتين القوتين العظميين، حيث دار الصراع طويلاً بينهما وكانت بلدان الجزيرة هي الغنيمة والريخ الذي تتحصل عليه القوة الغالبة.

ولقد كان للموارد الاقتصادية التي تتمتع بها مدن الجزيرة أن ساعدت على زيادة المطامع خاصة ثروتها الحيوانية، ومراعيها وأرضها الزراعية، وما اشتهرت به من صناعات إضافة إلى شبكة الطرق التجارية التي تتحكم فيها.

كانت ديار ربعة التي امتدت من شمال تكريت والموصل إلى نصيبين وسنجار وبازبدي تحت السيادة الفارسية أما ديار بكر وديار مضر، وجزء من ديار ربعة من ضمنها رأس العين فقد بقيت في أكثر الأوقات تحت السيادة البيزنطية^(٣).

ونود أن نوضح أن هذه السيادة لم تكن ثابتة طوال فترة البحث وإنما كانت تتغير

(١) Cam – Med – Hist, Vol., X11, p.109.

(٢) هسي، العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٢، ص ١٠٢.

(٣) محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ١٧٨.

وتتبدل حسب العمليات العسكرية والتي كانت تحدد المهزوم من المنتصر، وحسب اتفاقيات الصلح التي كانت ترسم الحدود فيما بينهما.

وسوف نتبع شكل الصراع الذي دار بين القوتين لنوضح أن الجزيرة الفراتية كانت هي الأرض التي اشتعلت فوقها نيران الحرب وكانت هي الغنيمة والربح الذي تحصل عليه القوة الغالبة.

ج- القبائل العربية المجاورة

نقصد بالقبائل العربية قبيلتا الغساسنة والمناذرة. فقد كان على حدود كلا الدولتين تعيش قبائل بدوية عربية، فعلى الحدود الرومانية كان بنو غسان الذين هاجروا من اليمن واستوطنوا أرض حوران حيث كان هناك قوم عرفوا بالضجاعة قد استقروا هناك ورضخوا لحكم الرومان ودانوا بالنصرانية قبل مجيء بنى غسان ثم اعترفت الدولة البيزنطية بهم ووضعتهم تحت حمايتها واتخذتهم أعواناً لها ضد المناذرة والفرس، وكان ذلك زمن الإمبراطور البيزنطي انستاسيوس أواخر القرن الخامس^(١).

ويذكر جيون أن اعتناقهم المسيحية يرجع لتأثير الديرين المسيحيين كسيمون العمودي والرهبان الذين عاشوا في الصحراء السورية، واستغلتهن بيزنطة لحماية طرق التجارة، والتصدى لغزوات الآخرين، كما وجدت فيهم أداة صالحة لحماية حدودها ضد توسع الفرس^(٢)، وأصبحوا دولة حاجزة Buffer State، كما أصبحوا يجمعون الضرائب من القبائل العربية الأخرى القريبة منهم ويقدمونها للروم^(٣). ومن أبرز ملوكهم الحارث بن جبلة ٥٢٨ - ٥٦٩م المعروف بالأعرج والذي عاصر من أباطرة بيزنطة الإمبراطور

(١) محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ط٣، ١٩٨٢م، ص ٥٦٤، أحمد فخرى، دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط٤، ١٩٨٤، ص ٢٣٧.

(٢) جيون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٦٩، ج٦، ص ٣٣.

(٣) مهران، المرجع السابق، ص ٥٦٢.

جستينيان ٥٢٧ - ٥٦٥ م^(١). ومن أكاسرة الفرس قباد ٤٤٨ - ٥٣١. وكسرى أنوشروان ٥٣١ - ٥٧٨ م، ومن أمراء الحيرة المناذرة المنذر الثالث ٥٢١ - ٥٥٤ م^(٢).

ولقد استخدم الفرس في المقابل قبيلة عربية أخرى وهم بنو لحم، أدت لهم نفس الوظيفة فاستقرت في الحيرة وكونت مملكة قوية في جنوب بابل تدين بالولاء لهم وهم المناذرة ولقد غمرت مملكة المناذرة بحكم موقعها الجغرافي هذا بالقرب من بابل القديمة، وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من الكوفة في نهاية طريق يمتاز شبه الجزيرة العربية، فأصبحت مركزاً مهماً للقوافل، لم يسع الساسانيون إهماله، ومن ثم فما تكاد تقيم فيه سلالة عربية حتى يضعوها تحت حمايتهم^(٣).

ولقد اشتبكت كلتا القبيلتين في صراع دائم لحساب فارس وبيزنطة ووصلت كلتاهما إلى أوج مجدها في نهاية القرن السادس، كما ذكرنا في عهد الحارث بن جبلة الغساني والمنذر بن ماء السماء في الحيرة.

وتعتبر هذه القوى المجاورة هي المحركة للأوضاع السياسية ولنوع السيادة على مناطق الجزيرة الفراتية وهي القوى التي استعرت الحروب على أراضيها.

الصراع البيزنطي الفارسي وأثره

على التبعية السياسية لبلدان

الجزيرة الفراتية

أولاً : على عهد أسرة الإمبراطور قسطنطين الكبير ٢٢٧ - ٢٧٨ م

عندما انتهى الإمبراطور قسطنطين الكبير من الحروب التي خاضها ضد خصومه السياسيين، قام بتوحيد الإمبراطورية تحت رايته، وبدأ يتحرك ناحية أعداء الدولة الخارجين، وكان أبرزهم الفرس الذين كانوا سبباً رئيسياً في اتجاه الأباطرة ناحية الشرق، وذلك لأنهم استولوا على كثير من ممتلكات الروم هناك خاصة في منطقة الجزيرة الفراتية

(١) نولدكه، تيودور، أمراء غسان من آل جفنة، ترجمة قسطنطين رزق، وبندلي خوري، بيروت، ١٩٣٣، ص ٩.

(٢) نولدكه، المرجع السابق، ص ١١.

(٣) مهران، المرجع السابق، ص ٥٧٩.

وأرمينيا، كما شاركه أبناؤه من بعده قسطنطين الثانى، وقسطنطنىوس.

فى هذه الفترة تولى عرش فارس كسرى سابور الثانى ٣٠٩ - ٣٧٩م، وهو من أقدر ملوكهم حيث استمر يحكم سبعين عاماً، ولقب بسابور العظيم^(١). واشتهر باسم سابور ذى الأكتاف لما حققه من انتصارات على القبائل العربية اليمنية^(٢). وترك لقسطنطيوس بوصفه حاكم الشرق أمر التصدى له خاصة أن قسطنطين الكبير كان قد أعد حملة لقتال الفرس قبل وفاته.

بدأ قسطنطين الثانى الحرب الفارسية فى عام ٣٣٧م بعد اجتماعه بشريكه حيث اتجه إلى نصيين الفراتية، وأعاد تنظيم جيشه بها، وأمد فرقه بزرد مدرعة وطالب الولايات بزيادة إمداداتها بقوات المقاتلة، وفى نفس الوقت عقد تحالفاً مع أرشاك الثانى ملك أرمينيا الذى كان قد فر إلى بلاده، ولجأ إلى الرومان بسبب الغزو الفارسى لبلاده وصحبه عدد من نبلائه، وعبر الإمبراطور نهر تجريز بثلاث جيوش، وتركهم الإمبراطور يمرون إلى أن أصبحوا قرب سنجار وأصبح بينهم، وبين الجيش الإمبراطورى مسافة قصيرة وبدأ القتال الحقيقى فى سنة ٣٤٤، وكانت أفضل الفرق الإمبراطورية غير موجودة لذلك أمر الإمبراطور جنوده بالانتظار خاصة وأن الفرس كانوا يسيطرون على منابع الماء، ولكن العطش دفع الجند لعدم الاستجابة لأمر الإمبراطور فهاجموا المعسكر الفارسى وحققوا انتصاراً سريعاً وفر سابور إلى تجريز، ولكن الفرس عند الماء استطاعوا جمع شتاتهم، واستعادة معسكرهم، فإن هزيمتهم الأولى اضطرتهم لالتزام الراحة والهدوء فترة ثم العودة للهجوم فهاجموا نصيين الفراتية أثناء ثورة ماجنتيوس وقاومهم أسقف المدينة

(١) محمد عبد القاهر، المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٤٥، الكرديزى، زين الأخبار، ترجمة عفاف زيدان، القاهرة، دار الطباعة المحمدية، ط ١، ١٩٨٢، ص ٣٨.

يذكر أنه عندما بلغ العرب خبر موت هرمز قدموا من بلاد عبد قيس والكاظمة والبحرين ومكنوا فى إيران شهراً وأطلقوا أيديهم للسرقة وقطع الطرق، وعندما بلغ شابور ذو الأكتاف السادسة عشرة من عمره جمع جيشاً وتوجه إلى ديار العرب وقتل الكثير منهم حتى كف أيديهم عن الناس ثم إستن سنة فأمر أى عبد عربى يؤتى به من أى مكان فليقبوا كتفه وليعلقوا فيها حلقة، ولهذا السبب كانوا يلقبونه بذى الأكتاف وباللغة الفارسية "هو به سنبان".

يعقوب واضطروهم للانسحاب^(١). تجدد الصراع مرة أخرى عام ٣٥١م رغم توقيع معاهدة الصلح سنة ٣٥٠م، وقدم الوالي الروماني للتفاوض مع الفرس، ولكن سابور كان قد بيت النية على مهاجمة الأراضي البيزنطية، ومهد لذلك بعقد اتفاقية، وطلب من الإمبراطور استعادة مناطق نهر العاص وأرمينيا وهدده في حالة رفضه القيام بعمل حربي ضده وكان القائد الروماني هذا يتصدى له فقد جاوز مرحلة الشباب، وازداد موقف الرومان سوءاً بفراق أحد القواد مع فرقته، وانضمامه إلى الفرس، فتقدم سابور إلى الأراضي الفراتية واستولى على آمد "ديار بكر" ونهب أراضيها، ثم استولى على سنجار، وجزيرة بن عمر، وصار للفرس اليد الطولى في الأراضي الفراتية^(٢).

قام الفرس بقتل أعداد غفيرة من سكان مدينة سنجار وأسروا جميع سكانها ومن بقى حياً من الفرق الرومانية أمر سابور بنفيهم إلى بلاد نائية^(٣).

ومن بين الأسرى الذين تم أسرهم عدد من النساء وكان من بينهم زوج المستشار جروجاسيوس وهي امرأة جميلة جداً وكانت ترتعد خشية أن يغتصبها المتصرفون، فأمر الملك بإحضارها عنده ثم وعدّها بأن ترى زوجها عن قريب، وبأن أحداً لا يستطيع أن يعتدى على عفافها، وكان يأمل من ذلك حث هذا المستشار على تسليم مدينة نصيين إلى الفرس^(٤).

وهكذا استخدم الفرس وسائل الحرب والحيلة والضغط النفسية على الرومان من أجل التخلي عن مدن الجزيرة الفراتية.

قرر قسطنطينيوس الخروج بنفسه للحرب، وأمر الفرق الموجودة في الغال بالانضمام إليه، لكن جوليان رفض فقرر الخروج ومحاسبتها وانتظر ليرى ما يقوم به سابور، لكن أنباء بلغته عن تراجع سابور وأنباء أخرى عن جوليان، فاضطر لسحب قواته من آسيا والتوجه إلى الغرب حيث وافته منيته^(٥).

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٤٦.

(٢) Ostrogorsky, op.cit, p.47.

(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٣٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) Ostrogorsky, op.cit, p. 45.

عندما تقلد جوليان العرش في ١١ ديسمبر سنة ٣٦٠م قرر خوض الحرب ضد سابور لاستيلائه على ممتلكات البيزنطيين في الجزيرة الفراتية، فوصل إلى انطاكية سنة ٣٦٣م ولكن أهلها أحرقوا معبد دافين، فأثاروا غضب الإمبراطور عليهم، واتجه بعد ذلك إلى هيرا بوليس عبر الفرات^(١).

خرج سابور على رأس جيشه لملاقاته، وكان جيش جوليان يبلغ خمس وستون ألف مقاتل، وانضم إليه الأسطول الذي يقوده القائد قسطنطيوس عند الفرات، وقرر جوليان مهاجمة العاصمة، وعدم مواجهة القلاع التي يستغرق فتحها وقتاً، ورغم قطع الفرس للأهوسة وتدمير بعض الفرق فإن الإمبراطور تقدم وهزم جيشاً فارسياً وأجبرهم على التراجع داخل أسوار المدينة، وعرضوا على الإمبراطور السلام لكنه رفض تشبهاً بالإسكندر المقدوني، فقام الفرس بإحراق الأقاليم أمامه.

قتل جوليان أثناء هذه الموقعة الفارسية دون أن يحقق نتيجة، وذلك سنة ٣٦٣م حيث لم يستمر في الحكم غير عامين^(٢).

كان لمقتل جوليان في المعركة وتولية جوفيان ٣٦٣ - ٣٦٤م أكبر الأثر على تحرك الفرس في ظل حكم كسرى سابور الثاني وذلك لمهاجمة الجيش الإمبراطوري، كما هاجم الجيش فرسان العرب الذي أبى جوليان أن يدفع لهم الجزية إذا انضموا إليه، وتحطمت أفضل الفياق الإمبراطورية، واستطاع البيزنطيون صد الهجوم، ولكن عاود الفرس الهجوم الذي استمر أربعة أيام عانى الجنود فيها من الجوع والعطش وأرسل سابور يعرض السلم، فوافق جوفيان، وبعد أربع أيام من المفاوضات عقد صلحاً لمدة ثلاثين عاماً يقضى باستعادة الفرس للولايات الواقعة وراء دجلة، وكذلك على مدينتي نصيبين وسنجار من مدن الجزيرة الفراتية وتعهد بعدم التدخل في شئون أرمينيا وتركها لفراس^(٣).

كانت هذه الشروط المهينة مثار غضب الجميع، حتى إن أحد الجنود صاح أنه يفضل

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٢) أسدرستم، الروم في سياساتهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم، بيروت، ١٩٥٥، ج١، ص ٧٦.
(٣) Ostrogosky, op.cit, p. 47, Cam - Med - hist, Vol. I, p.25.

أن يقاتل عشر مرات على أن يقبل هذه الشروط وكان دافع الإمبراطور لقبولها الاحتفاظ بقواته سليمة حتى يصل إلى العاصمة ويتمكن من مواجهة أى مغتصب قد يتصدى له، ولقد بكى أهل نصيبين وتضرعوا إلى الإمبراطور إلا يسلمهم للفرس، لكنهم أصروا على تمسكه بالمعاهدة، وقد رفض السناتو الرومانى قبول تلك الشروط المهينة^(١).

حرمت بيزنطة إزاء ذلك من أى تدخل، ولم يكن منتظراً أن ترضى بهذا الموقف، فلم تكف طوال تلك المدة عن إثارة الفتن، وكان ذلك على عهد الإمبراطور فالنثيان الذى حكم الجزء الغربى من الإمبراطورية عام ٣٦٤م وشاركه فى حكم الجزء الشرقى أخاه فالنز فى نفس العام.

كان لموقف بيزنطة من الفرس أن دارت بينهما موقعة بيفان Bayvan التى انتصر فيها فالنثيان، وتم عقد سلام بين الطرفين استمر حتى عهد ثيودسيوس الثانى ٤٠٨ - ٤٥٠م^(٢).

الصراع البيزنطى الفارسى وأثره

على مدن الجزيرة الفراتية

على عهد أسرة ثيودسيوس

اعتلى الإمبراطور ثيودسيوس الأول العرش البيزنطى سنة ٣٧٩م وذلك بعد موت سلفه فالنز فى موقعة أدرنه والتى كانت ضد القوط الغربيين سنة ٣٧٨م. وبموته انتهت أسرة قسطنطين، وبدأت أسرة جديدة أسسها ثيودسيوس الأول والذى حكم حتى عام ٣٩٥م. وفى عهده تم عقد معاهدة سلام مرضية مع فارس ضمنت له فترة غير قصيرة من الهدوء والسلم استمرت حتى عهد ثيودسيوس الثانى ٤٠٨ / ٤٥٠م^(٣).

أما بالنسبة للدولة الفارسية فقد استمر هذا السلام معمولاً به علماً بأن الملك الفارسى سابور الثانى توفى ٣٧٩ وخلفه مجموعة من الأكاسرة الضعاف وهم أردشير الثانى ٣٧٩ / ٣٨٣ وسابور الثالث ٣٨٣ / ٣٨٨ وبهرام الرابع ٣٨٨ / ٣٩٩ وأهم فترة فى حكم

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٥٩، أسدرستم، المرجع السابق، ج١، ص ٨٤-٨٥.

(٢) Vasiliev, A History of the Byzantine p. 67 empire, Vol., I, Madison, 1964.

(٣) جوزيف نسيم، تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص ٦٣.

هؤلاء هي الفترة التي حكم فيها بهرام الرابع والتي اقتسم فيها الفرس مع الرومان ملك أرمينيا، فدخل قسمها الشرقي وهو أكبرها تحت حماية فارس وقسمها الغربي تحت حماية الرومان^(١).

ولابد أن نوضح هنا مدى العداء الذي كان يكنه الفرس للنصارى سواء من الرومان أو غيرهم، وكانت الاضطهادات عنيفة عليهم منذ عام ٣٣٩م حتى وفاة سابور الثاني، فقد وقع الاضطهاد خاصة في ولايات الشمال الشرقي المتاخمة للإمبراطور ولابد أن نشير هنا أن المسيحية لم تكن قوية في معظم مناطق الجزيرة الفراتية، لكن بعضها مثل الرها كانت بها جاليات نصرانية كبيرة^(٢).

تولى يزيدجرد حكم فارس ٣٩٩/ ٤٢١م وقد اتسمت فترة حكمه الأولى بالتسامح مع النصارى ويؤكد على ذلك ابنه بهرام الثاني في حديث له عن والده الذي ستتغير سياسته مستقبلاً تجاه النصارى بقوله "إن أباه كان قد افتتح أمرهم باللين والمعدلة فجحدوا ذلك أو منهم من جحدته ولم يخضعوا له خضوع الخول والعبيد للملوك، فأثارة ذلك إلى الغلظة وضرب الأبخار وسفك الدماء"^(٣).

ومن الأمثلة التي تؤكد السياسة السمحة التي سار عليها يزيدجرد في بداية حكمه تجاه المسيحيين خاصة في مناطق الجزيرة الفراتية أنه أخذ ثيودسيوس الثاني وهو طفل قاصر تحت حمايته، وذلك علامة على المجاملة التي ليس لها في الواقع قيمة عملية، فأقر الملك الفارسي بضرورة وضع حد للنزاع بين الدولة ورعاياها النصارى ليعيشوا هادئين وأرسل وفداً برئاسة ماروتا أسقف ميفارقين الفراتية والمعين من قبل الإمبراطور البيزنطي إلى كسرى يزيدجرد بإعادة بناء الكنائس المخربة، وإطلاق سراح المسجونين بسبب عقيدتهم من النصارى، وبعد عدة سنوات من ذلك بعث يهب الله الخليفة الثاني لإسحق إلى القسطنطينية لإتمام الصلح بين الإمبراطوريتين^(٤).

(١) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٥٧.

ولعل سياسة يزدجرد المسالمة هذه مع نصارى المنطقة كانت تعكسها أسباب سياسية فإنه بتوطيد السلام مع الإمبراطورية الشرقية، كان يستطيع أن يجمع جهوده في تقوية السلطة الملكية.

تحطم السلام القائم بين الفرس والبيزنطيين في نهاية عهد يزدجرد نتيجة لتصرفات بيزنطة وأساقفتها، مما اضطره لاتخاذ موقف مضاد، ومنها أنهم عتوا وتحذوا الرأي العام حتى لم يكن هناك مفر من مقابلة الشر بمثله.

ويرجع السبب مباشرة إلى أن أرمينيا اتخذت في هذه الفترة طابعها المسيحي، وكتبت أبجديتها، وترجم الإنجيل إلى اللغة اللاتينية، وأخذت بيزنطة تعمق الشعور الديني لدى المسيحيين في شطرى أرمينيا سواء القسم الخاضع للفرس أو بيزنطة، فسعت إلى إقامة الكنائس المسيحية إلى جانب تدخلها لنصرة المسيحيين المضطهدين في أرمينيا، فأدى هذا إلى تجدد العداء، خاصة بعد أن هرب عدد من المسيحيين إلى الأراضى الرومانية، ورفض الإمبراطور تسليمهم^(١).

بعد وفاة كسرى يزدجرد سنة ٤٢١م بدأت سلسلة من المذابح تجاه المسيحيين قام بها ابنه بهرام الخامس فأرسلت بيزنطة قوات بقيادة أردابورس Ardaburus حيث التقت بالقائد الفارسي نارسيس في ارزنجان^(٢)، وفي سبتمبر سنة ٤٢١م تراجع نارسيس إلى نصيبين الفراتية. وتقدم أردابوروس إلى آمد "ديار بكر" ثم حاصر نصيبين وذهب بهرام بنفسه لرفع الحصار، وأرسل إلى الغرب المنذر ملك الحيزة لمهاجمة أراضى سوريا، وذلك للعلاقة الحميمة التي تربط بهرام بالمنذر بن النعمان^(٣).

غرق عدد من العرب في الفرات والباقيين حاقت بهم الهزيمة، وعند اقتراب بهرام تراجع القائد الرومانى، وعبر الحدود واستمر القتال لمدة شهر وشعر الإمبراطور

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٢) المرجع السابق.

Ostrogorsky, op-cit, p. 51, Vasiliev, op.cit, p.95.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب، ج١، عصر ما قبل الإسلام، الإسكندرية، ١٩٦٧.

ثيودسيوس أن الحرب لن تأتي بنتيجة حاسمة، ففضل التفاوض ولكن بهرام أراد نصراً أولاً ليحصل على شروط مجزية من الرومان، فأمر جيشه بالقتال، واحتفظ بالسفراء عنده إلى أن تنتهي الحرب، وكان لانتصار الرومان بعد ذلك أن اضطر بهرام لفتح باب المفاوضات من جديد، وقرر الطرفان وقف الاضطهاد وعقدوا صلحاً لمدة مائة عام في ٤٢٤م وكان مما تضمنته عدم استغلال العرب الخاضعين لكلا الطرفين في العدوان، ولعل هذا الشرط كان مستحيلاً لأن بهرام تربى على يد النعمان والد ملك الحيرة المنذر بن النعمان وهو الذي حمل كهنة الفرس على تنويجه^(١).

لم يدم السلم طويلاً إذ بنى الرومان في سنة ٤٣٨م قلاع ثيودوسيوس في أرمينيا، ولما تولى كسرى الجديد يزدجرد الثاني في نفس هذا العام قرر استغلال أوضاع هذه الإمبراطورية السيئة في الغرب فعبّر الحدود عند نصبيين وهاجم عدداً من المدن في سوريا وبذلك كانت مدن الجزيرة الفراتية الخاضعة للفرس تتخذ قواعد للهجوم العسكري على مناطق عديدة.

وقد اجتاحت قوات أخرى أرمينيا الرومانية سنة ٤٤١م ولم يكن لدى الرومان جيوش كافية لإيقافهم، فتم عقد صلح لمدة عام في مقابل مبلغ من المال والوعد بتسليم بعض المسيحيين الهاريين اللاجئين لبيزنطة^(٢).

وقد تعرضت مدن الجزيرة الفراتية خاصة جالياتها المسيحية في السنة العاشرة من حكم يزدجرد الثاني لحركة اضطهادات وبدأ رجال الدين بهذه البلاد الدعوة إلى جهاد الفرس وسادت هذه الموجة في أرمينيا أيضاً، ولكن تباعض الأسرات الكبيرة فيها حال دون تحقيق ذلك، فظلت أرمينيا مشتتة عدة سنوات^(٣).

(١) الكرديزي، زين الأخبار، ويذكر أن يزدجرد والد بهرام كان مشهوراً بالقسوة وبتعذيب الناس ولم يعدل في الرعية واستولى على أموالهم، ورزق بآباء فأساه بهرام وكان شديد الرشد والنجابة، وكان هو الابن الوحيد ليزدجرد، فكان يخشى عيه مغبة أن يفسده يوماً من سوء طبعه، فأعطاه إلى أمير العرب النعمان بن المنذر بن عمر بن ربيعة ابن مضر، فأخذه إلى أرض الحيرة ورباه ورعاه وشيد له قصرى الخورنق والسدير، انظر جـ ١، ص ٤٠.

يذكر كريستنسن ص ٢٦٠: أنه إن كان قصر الخورنق ينسب بناؤه إلى النعمان اللخمي، فإن تاريخه يعتبر بغير شك يرجع إلى تاريخ أبعد قدماً.

(٢) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ١٨٦، الكرديزي، المصدر السابق، ص ٤٤.

(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

الجزيرة الفراتية على عهد الأسرة

الليونية ٤٥٧ - ٥١٨ م

قامت الأسرة الليونية بعد انتهاء أسرة ثيوديسيوس وتولى التربيون العسكري لداكيا المدعو ليو، والذي وافق السناتو على توليه لعدم وجود إمبراطور من سلالة ثيوديسيوس وذلك عام ٤٥٧ م حيث استمر يحكم حتى عام ٤٧٤ م.

وقد توالى على حكم هذه الأسرة خمس أباطرة كان آخرهم الإمبراطور أنستاسيوس الذي حكم من عام ٤٩١ - ٥١٨ م وقد عاصر مؤسس هذه الأسرة وفاة يزدجرد الثاني كسرى فارس سنة ٤٥٧ م، حيث تولى بعد ابنه هرمز الثالث والذي دخل في صراع مع أخيه فيروز انتهى بقتله وتولية فيروز عرش الأكاسرة^(١).

وتؤكد المصادر أن عهد فيروز لم يصادف نجاحاً في الدفاع عن الممتلكات الفارسية من القوى البيزنطية أو غيرها حتى إنه قتل في إحدى المعارك العسكرية سنة ٤٨٤ م، وتولى بعده أخاه بلاش والذي عرف بمسالته للنصارى ولأهل البلاد الفراتية وغيرها الواقعة تحت حكم الفرس^(٢)، ومع ذلك فقد عزل وحل محله أخاه قباد سنة ٤٨٨ م وقد ساعده في الوصول إلى العرش قبيلة الهون.

وقد اعتاد الفرس شن الحرب على هذه القبيلة لذلك كان البيزنطيون يقدمون أحياناً عوناً مالياً للأكاسرة منذ عهد الإمبراطور زينون ٤٧٤/٤٩١ م لمساعدتهم ضد هؤلاء والذين يعتبروا عدواً مشتركاً للفرس والروم. وقد استمرت هذه المساعدات حتى وفاة فيروز كسرى فارس ٤٨٤ م حيث رفض الإمبراطور زينون تقديم هذه المساعدة لخليفته بلاش الذي أعلن تأييده للحركة الانفصالية في انطاكية فأرسل له زينون يذكره بأحقية الرومان في مدينة نصيبين قائلاً: "إن الضرائب التي تحصلون عليها من مدينة نصيبين تكفيكم، والتي كانت منذ سنوات عديدة يحصل عليها البيزنطيون"^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٢.

(٣) Bury, J.B. History of the later Roman empire, Vol. London, 1923, p.10.

كريستنسن، المرجع السابق، ص ٣٣٣.

ونتيجة لرفض البيزنطيين مساعدة الفرس لجأ كسرى قباذ إلى مهاجمة ميفارقين الفراتية، واستسلمت بدون قتال وتسلم من سكانها ضرائب عامين^(١).

اشتهر عن عصر قباذ إلى جانب ذلك أعمال وحشية قام بها ضد المدن الفراتية، فتذكر المذبحة التي وقعت على سكان آمد "ديار بكر" بعد استيلاء قباذ عليها^(٢). ويؤكد على ذلك المؤرخ المعاصر بروكيوس بقوله "إن الفرس حين دخلوا المدينة قاموا بمذبحة كبيرة فتقدم قسيس من قباذ وقال له: إنه ليس جديراً بملك مثلك أن تقتل الأسرى، فأجابه قباذ وكان لا يزال غاضباً: "لماذا أصررتم أنتم على قتالي فأجابه القسيس: قد أراد الله أن يضع آمد بين يديك لا بتدبير منا ولكن بفضل شجاعتك، فأمر الملك بوقف المذبحة، ولكن أباح نهب الأملاك واسترقاق جميع الأحياء من سكان المدينة وأن يختار له كل ذوى الكفايات فلما عاد إلى فارس مع الجيش وأسرى الحرب أثبت رأفته مرة أخرى وذلك بالسماح لجميع الأسرى بعد زمن قليل بالعودة إلى أوطانهم وقد ترك الملك القائد كلون مع فرقة صغيرة لاحتلال آمد، ولكن لا هذا القائد ولا قباذ أباحا لنفسيهما إتلافاً أو تخريباً لأية كنيسة في آمد "ديار بكر" أو خارجها^(٣).

حدثت مشاكل أخرى بين فارس وبيزنطة حول أرمينيا البيزنطية سنة ٥٠٢م عندما هاجم قباذ هذه المنطقة واستولى على ثيودوبوليس ودخل كونت أرمينية في خدمة الفرس، ولم تكن لبيزنطة حامية قوية إلا في منطقة قسطنطينياً، وأرسل الإمبراطور سفارة لقباز تعرض السلم والجلء عن أراضيها مقابل فدية مالية، ولكن قباذ رفض وقبض على الرسل، وتقدم الفرس إلى ملطية ثم آمد "ديار بكر" سنة ٥٠٣، وأرسل الإمبراطور عدداً من الفرق الإمبراطورية لم تحقق نجاحاً في البداية، لكن قباذ فشل في الاستيلاء على قسطنطينيا والرها فقرر الإمبراطور إرسال رئيس بلاطه سيلرز Celers الذي كان يتمتع بالمقدرة والشخصية القوية المحببة، حيث استطاع إعادة الوحدة للجيش وتحقيق انتصارات عديدة، وأعاد أرمينيا لبيزنطة، وأرسل قباذ قائده سباهبات Spahpat لعرض السلام على سيلرز، فرفض القائد البيزنطي في البداية، لكنه عاد وقبل بعد فشله في

(١) Bury, Ibid, p.11.

(٢) كريستنن، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٣) كريستنن، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

الاستيلاء على آمد، وانتهت المفاوضات بالتخلص من بعض القادة العرب في كلا الطرفين، ومنح انتاسيوس إعفاءات للمدن التي قاومت من الحصار^(١)، لكن عكر صفو السلم قيام انتاسيوس ببناء قلعة دفاعية في دارا وذلك عندما وضع ضعف الرومان ولتكون نقطة انطلاق للجيش الروماني والحماية المناطق العربية التابعة للإمبراطورية من هجمات الفرس والعرب المواليين لهم، كذلك جعلوا في داخل هذه القلعة في دارا كل المتطلبات التي تسمح لهم بالقيام بمهامهم ورغم أن هذا الإجراء يخالف المعاهدات المعقودة بين الطرفين بشأن عدم إقامة قواعد عسكرية على الحدود فإن أنتاسيوس بوليس استغل فرصة انشغال قباز في الحرب ضد الهون وسارع في إنجاز هذا العمل الضخم الذي استغرق أكثر من عامين، وسارع لتقوية قلعة ثيودورسيوبوليس "أرضورم" في أرمينيا الرومانية وحولها إلى قلعة حصينة وسماها انتاسيوس^(٢). ومع ذلك انتهى الأمر بعقد صلح بين الطرفين لمدة سبع سنوات، وافقت فيه بيزنطة على دفع تعويض بخصوص نقض العهد بالنسبة لتحصينات دارا^(٣).

الصراع البيزنطي الفارسي وأثره

على بلدان الجزيرة الفراتية

على عهد أسرة جستيانيان ٥١٨ - ٦١٠ م

يعتبر الإمبراطور جستين ٥١٨ - ٥٢٧ م هو مؤسس أسرة جستيانيان، وهو الذي استطاع أن يرتقى العرش بعد وفاة الإمبراطور انتاسيوس في التاسع من يوليو ٥١٨ م.

بدأ جستين عهده وفقاً للصلح المعقود بينه وبين الفرس والذي حقق سلاماً على المدن الفراتية التابعة لكلاهما. وقد عاصر جستين قيام قباز بمحاولة تمكين ابنه كسرى الصغير على ابنه الأكبر كاووس، ولكي يضمن ذلك عقد مع الإمبراطور جستين صلحاً نهائياً ثم طلب منه أن يتبنى ابنه كسرى وهو عمل يؤدي إلى التزام الإمبراطور التزاماً أدبياً بالدفاع

(١) زبيدة عطا، المرجع السابق، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

Cam - Med - His, Vol, I, p. 481.

(٢) محمد فتحى الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩، ص

٤٩.

(٣) Cam - Med - hist, Vol, P. 482.

عن قضية كسرى ضد من يطالبون بالعرش، فقبل جستين طلب قباذ لكنه اشترط أن يتم التبنى بالسلاح على الطريقة البربرية لا بوثيقة مسطورة، ولما لم يقبل قباذ هذا الشرط انقطعت المفاوضات التي أثار الفرس فيها طلبات لهم في إقليم لازيكا في القوقاز وظلت التسوية معلقة بين الدولتين^(١).

بدأ الصراع بين فارس وبيزنطة بسبب الاضطهاد الذي بدأ يقوم به قباذ ضد نصارى جورجيا.

اعتلى جستينيان ابن أخت جستين العرش سنة ٥٢٧م بعد وفاة خاله ووفقاً لتتصيه له إمبراطور مشاركاً في حياته، وقد كانت البلاد في هذه الآونة معرضة لأخطار الشعوب المجاورة في الشرق، ومنافسة الفرس للرومان في مناطق النفوذ في بلدان الجزيرة الفراتية وغيرها، فضلاً عن التحكم الفارسي في التجارة الدولية، خاصة وأن بلدانا كثيرة من بلدان الجزيرة كانت مراكز تجارية وطريقاً يستخدمه الفرس لإنعاش اقتصادهم، وكذلك الرومان، ومع ذلك انتهج جستينيان أسلوباً دبلوماسياً منه بذل الأموال الذي اعتبره الحل الأمثل لمثل هذه المشاكل^(٢). وإذا لم يجد هذا الأسلوب مع أعدائه لجأ إلى أسلوب الوقعة والدس والشقاق، وذلك بإثارة شعب ضد الآخر وإشعال نيران الغيرة والحسد والصراعات فيما بينها، كما اتخذ أسلوب التنصير بين سكان الجزيرة الفراتية وما يتبعها من مدن أرمينيا مما كان سبباً في خروج الفرس لوقف التيار المسيحي بين سكان هذه البلدان والذي كان سبباً كبيراً في تأجيج الصراع بين القوتين حول فرض نفوذهما على هذه البلاد.

لم يكن الصراع الفارسي الروماني في هذه الفترة حول مناطق الجزيرة الفراتية وحدها، ولكن تعداه إلى مناطق أخرى كثيرة تسببت في اندلاع الحرب بين الطرفين خاصة حول مناطق القوقاز والتي كان لها أكبر الأثر في قيام الفرس باتخاذ الإجراءات المضادة انتقاماً من الرومان، ولعل عرضنا لهذه الحرب ليس إلا لتوضيح حقيقة وهي أن الجيشين الروماني والفارسي اتخذوا من الأراضي الفراتية الخاضعة لهما مراكز عسكرية تجهز بها

(١) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٦٩.

(٢) Diel, C., *Byzantium, greatness and decline*, T. from French by Naomi Walford, New Jersey, 1957, p.55

الحملة الموجهة ضد المدن القوقازية، بل واستعانوا بأهلها في هذه الحملات، كما لا بد أن تؤكد أن اقتصاد البلاد الفراتية كان يتأثر كثيراً من هذه الحملات العسكرية التي دفعوا تكاليفها من خزائنها. ولقد انتقلت الجيوش الرومانية للعمل على الحدود الشرقية المجاورة للفرس، وعملت على تقوية الحصون والتحصينات هناك، ودخلت قوات بليزاريوس في معارك هجومية، غير أنها منيت بالفشل الأمر الذي جعلها تتخذ موقفاً دفاعياً في مدينة دارا الفراتية حتى سنة ٥٢٩م^(١).

رأى الإمبراطور جستينيان التفاوض مع كسرى فارس قباز، لكن هذه المفاوضات تعثرت من قبل الجانب الفارسي، مما دفع بليزاريوس إلى التحصن في دارا الفراتية والتي حولها إلى قلعة عسكرية قوية، لذلك كان على الفرس تأمين حدودهم بالدخول في معركة هجومية ضد بليزاريوس، غير أن نتيجة هذه المعركة كانت في صالح الرومان، ولم يتمكن الفرس من هزيمتهم واقتحام دارا بفضل مهارة بليزاريوس العسكرية والتي تجلت في هذه المعركة سنة ٥٣٠م^(٢).

وعلى الرغم من الانتصار العسكري الذي حققه جستينيان على الفرس فإنه كان تواقاً إلى إنهاء حالة الحرب معهم للإسراع في إرسال قواته لمحاربة قبيلة الوندال الجرمانية في شمال إفريقيا، غير أن الفرس كانوا في غاية الغضب، لذلك احتد قباز في محادثاته مع السفير الروماني الذي أرسله جستينيان، ووضع عدة شروط منها أن تكون مدينة دارا الفراتية منطقة منزوعة السلاح، ويبدو أن قباز قد بيت النية على محاربة الرومان لأنه طرد السفير الروماني دون التوصل إلى اتفاق^(٣).

على أية حال استطاع الفرس مسح عار الهزيمة، وخاضوا معركة ضد بليزاريوس قرب مدينة الرقة الفراتية في التاسع عشر من إبريل سنة ٥٣١م، حيث هزموا بليزاريوس على الرغم من فداحة الخسائر بين الطرفين^(٤).

(١) Procopius, of Caesarea, *history of wars*, T by H.B. Dewing, New York, 1914-1940, Vol. 55p. 103-107.

(٢) Ibid, pp. 105 - 127.

(٣) Procopius, *Ibid*, pp. 141 - 145.

(٤) Ibid, p. 169.

ولابد أن نوضح هنا أثر هذه المعارك على هذه المدينة الفراتية وهي مدينة الرقة التي شهدت دماراً خطيراً وحطمت معظم استحكاماتها والقرى التي حولها، وأصبحت أرضها مستقراً لعدد كبير من الجنود الرومان الذين صرعوا في المعركة.

كما نوضح نقطة أخرى مهمة وهي مشاركة قبيلة الغساسنة والذين تعاونوا مع الأباطرة الرومان بدءاً من عهد الإمبراطور أنستاسيوس، والذي خاض حروباً مع الفرس سبق الإشارة إليها من عام ٥٠٢ حتى عام ٥٠٥ م.

ولقد شارك في موقعة الرقة هذه قوات الحارث بن جبلة الذي عاصره الإمبراطور جستنيان^(١) فقد كان يثق في هذا القائد العربي ثقة كبيرة، حيث طلب منه مشاركته في هذه المعركة، لذلك وقف إلى جانبه وسانده^(٢).

على أن استئناف مفاوضات السلم بين الفرس والرومان حدث في وقت كان فيه الفرس يحاصرون مدينة ميفارقين الفراتية، وذلك بعد وفاة كسرى قباذ مباشرة وتولية ابنه كسرى أنوشروان "خسرو الروح الخالد" بناء على وصية أبيه رغم أنه ابنه الثالث وليس الأكبر، وذلك في الثامن من سبتمبر سنة ٥٣١ م^(٣).

استغرقت مفاوضات السلام عاماً إلى أن توصل الطرفان إلى وضع شروط المعاهدة الدائمة في سبتمبر سنة ٥٣٢ م، والتي أُملي فيها الطرف الفارسي شروطه، والتي نصت على أن تكون مدينة دارا الفراتية والتابعة للرومان منزوعة السلاح إلى جانب شروط أخرى خارجة عن نطاق منطقة الجزيرة الفراتية.

والواقع أن هذه المعاهدة مست السيادة الرومانية إذ إن اشتراط الفرس بأن تكون دارا منزوعة السلاح هو بمثابة انتقاص من سيادة الرومان على أراضيهم لاسيما وأن هذه المعاهدة لم يرد بها شيء عن وجود منطقة منزوعة السلاح على الجانب الفارسي، كما نصت

(١) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٥٦٩، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٧ - ١٩٧١، ج ٣، ص ٣٩٥.

(٢) Procopius, op.cit, p.171.

(٣) محمد فتحي الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٤.

المعاهدة على منح حرية العبادة لمسيحي فارس وجميع البلدان الواقعة تحت سيادتها ومنها مدن الجزيرة الفراتية^(١).

على أن معاهدة السلام الدائمة لم يكتب لها البقاء سوى سبع سنوات حقق خلالها جستنيان العديد من الإنجازات الضخمة شرقاً وغرباً، الأمر الذي جعل كسرى أنو شروان يرى ضرورة المبادرة بتوجيه ضربة موجعة لجستنيان، بعد أن أشارت كل الدلائل أن الإمبراطورية الفارسية ذاتها أصبحت معرضة للخطر إذا ما ظل الفرس يرقبون ما يجري على الساحة دون حراك.

ولقد حدثت ظروف غيرت من شكل السلام القائم بين القوتين وذلك بخصوص المعاهدة التي جعلت من دارا الفراتية منطقة منزوعة السلاح كما رأينا - وأن يتنقل منها دوق إقليم ما بين النهرين إلى القسطنطينية، فإن هذه المعاهدة لم يرد بها شيء عن إقامة التحصينات الدفاعية سواء في تلك المدينة أو في غيرها من الأماكن التي درج الفرس على مهاجمتها خاصة مدن الجزيرة التي تتبع مدنها إحدى القوتين، لذلك أصبح من حق جستنيان إقامة ما شاء من التحصينات في دارا نفسها المنزوعة السلاح أو في غيرها^(٢).

ولعل ذلك كان سبباً في اعتقاد كسرى بأن جستنيان يخطط لأعمال عدوانية ضد الفرس وإلا فما هو الدافع الذي جعل الفرس يضعون شرطاً في معاهدة السلام سنة ٥٦٢م ينص على الامتناع عن إقامة أو تقوية أسوار المدينة حتى لا تكون ذريعة لتجديد أي منازعات قد تطيح بمعاهدة السلام، والواقع أن تلك الأسباب كانت كافية لاتهام جستنيان بأنه خرق معاهدة السلام الدائم، لذا عقد كسرى العزم على فرض إرادته على جستنيان وضرب قواته في المدينة القريبة من الحدود الفارسية عن طريق فرض إرادته، وذلك بتحصيل فدية كبيرة من كل مدينة تحاصرها القوات الفارسية، على أن يتم تدمير المدينة التي تبدى أية مقاومة، ولم يكن هدفه هو مجرد السيطرة على مدينة محددة لاستخدامها كورقة رابحة وأداة للضغط وفرض الإرادة الفارسية كما فعل والده قباذ مع الإمبراطور

(١) المرجع السابق، ص ١٩٥.

محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ١٩١،

Procopius, op.cit, Vol. III, p. 83 – 89.

(٢) الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٧.

أنستاسيوس في مدينة آمد الفراتية ٥٠٢ - ٥٠٥م، فبالرغم من محاولات جستنيان المحافظة على معاهدة السلام الدائم إلا أن كسرى كان قد أعد القوة لتنفيذ خطته، ولم يتلطف مع السفير الروماني بل احتجزه عاماً كاملاً إلى أن يتم لكسرى الاستيلاء على كل الأموال الموجودة في مدينة سورا Sura الفراتية والمجاورة لمدينة الرقة، بعد أن خدع أسقفها الذي كان قد تعهد بدفع الفدية التي حددها كسرى^(١).

لم يكتف كسرى بذلك بل قتل العديد من أهالي مدينة سورا وأسر حوالي اثنا عشر ألفاً من سكانها، ثم أشعل النيران بها في ربيع سنة ٥٤٠م. وبعد أن حقق خطته طرد السفير الروماني وأمره بإبلاغ جستنيان بما شاهده، ولاشك أن كسرى كان يعنى بذلك أن الحرب قد بدأت بالفعل بين القوتين العظميين.

استدعى كسرى الأسقف كانديوس أسقف الرصافة التابعة للجزيرة والتي تبعد تسعة عشر ميلاً عن مدينة سورا وأمر بفدية الاثنى عشر ألف أسير من أهالي سورا خلال عام من تاريخه مع التهديد والوعيد في حالة عدم الدفع^(٢).

كان القائد البيزنطي بليزارىوس مشغولاً بالحرب في جبهة أخرى ضد القوط الشرقيين في انطاكية، لذلك وقع عبء القتال على القائد بوز Buzes الذي أقام في مدينة منبج الفراتية دون أن يحرك ساكناً عند احتلال كسرى لمدينة سورا Sura، وإذا كان هذا القائد قد أحجم عن ملاقاته كسرى لضعف قواته فإن هذا لا يعفيه من مسئولية التقاعس عن رد العدوان واتهامه بأنه أثر السلامة عن التصدي للأعداء لحماية البلاد في وقت الشدة^(٣).

لم يقم بوز القائد الروماني للشرق بالتصدي لكسرى عندما حاصر مدينة منبج الفراتية وإنما سبقه في الانسحاب منها تاركاً بها حامية صغيرة، كما أن هذا القائد الروماني لم ينفذ

(١) Procopius, op.cit., Vol. II, p. 249.

الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٩٩،

بيومي مهران المرجع السابق، ص ٥٨٨،

آرثر كريستنسن، المرجع السابق، ص ٣٥٨.

(٢) الشاعر، المرجع السابق، ص ١٩٩.

(٣) الشاعر، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

خطته التي سبق وأن أعلن عنها إبان وجوده في منبج من أنه سيقوم بتطويق العدو إذا ما حاول مهاجمة منبج وكذلك لن يسمح للقوات الفارسية بالحصول على الإمدادات، على أن كسرى اكتفى بفرض فدية على المدينة، ولم تتعرض للأذى^(١).

أقام بوز بعد ذلك في مدينة الرها في الوقت الذي قرر فيه كسرى فرض فدية على أهلها ليسلموه أسرى مدينة انطاكيا، وقد تم ذلك عندما كان كسرى يجول في الأقاليم الشرقية وقبل أن يعود إلى بلاده قام بهجوم على مدينة دارا التي تقيم فيها الحاميات البيزنطية^(٢).

يتضح لنا أحوال المدن الفراتية وما كانت تلاقيه في فترة هذا الصراع الطافح بين الفرس والروم وكيف تحملت جيوش القوتين ودفعت أموال الفدية والجزية للقوى الغالبة، ولم يكن الأمر هذا هو مصير المدن وإنما تحملت القرى الصغيرة مثل سورا وغيرها مغبة هذا القتال.

قام جستنيان باستدعاء قائده من الجبهة الانطاكية للمشاركة في صد العدوان الفارسي والوقوف في وجهه بعد فشل القيادة السابقة، لذلك انتهاز فرصة انشغال كسرى أنو شروان بالحرب في جبهة أخرى بالقوقاز للاستيلاء على لازيقا حتى يلتمس للفرس موضعاً على البحر الأسود يتيح لهم مهاجمة القسطنطينية ذاتها^(٣).

لذلك تحالف مع القائد العربي الحارث بن جبلة الغساني الذي شن غارة ناجحة على الأراضي الفارسية سنة ٥٤١م لتطهير المناطق الغربية من مدينة نصيبين الفراتية بعد أن عجز بليزاريوس عن احتلالها، بالرغم من محاصرته لها. وقد نجح الحارث في هذه المهمة وعاد سالماً محافظاً على سلامة القوات التي كانت تحت إمرته^(٤).

(١) الشاعر، المرجع السابق.

(٢) Procopius, *op.cit*, Vol. II, pp. 313 – 373.

يذكر الكرديزي: أن كسرى أنو شروان استولى على دارا والرها ومنبج وقنسرين وحلب وفامية وحصص وسلوكية وحاصر انطاكيا وتراقيا، انظر، زين الأخبار، ص ٤٨.

(٣) Procopius, *op.cit*, Vol. I, P. 171.

عن ذلك راجع كريستنسن، المرجع السابق، ص ٣٤١.

(٤) Vasiliev, A.A. *Justinian the First*, Combridge, 1950, pp. 258 - 259.

استعان بليزاريوس مرة أخرى بالحارث بن جبلة لحصار مدينة دارا، فقام الحارث بإمداده باثنى عشر ألف مقاتل، وبالفعل نجح الحارث في مهمته في غزو الأراضي الفارسية وإحداث الخسائر بها في الأرواح والممتلكات، وعاد بعد أن جمع الغنائم، على أن النصر الذي استطاع بليزاريوس تحقيقه بعد اجتيازه للأراضي الفارسية كان اقتحامه لقلعة فارسية وأسر من كان بها^(١).

استمر كسرى في محاولاته الدائمة لفرض نفوذه على مدن الجزيرة الفراتية، فكانت الرها المدينة التي حاول الاستيلاء عليها سنة ٥٤٠ لكنه فشل لقوة استحكاماتها لذلك عاود الهجوم عليها سنة ٥٤٤م رغباً في الاستيلاء عليها وتدميرها ونقل سكانها إلى بلاد الفرس^(٢) غير أن كل محاولاته العسكرية باءت بالفشل لقوة استحكام سور المدينة، وللمقاومة الصلبة التي أبدتها الأهالي بالمدينة الذين تعاونوا مع القوات التي كانت بداخلها، لذلك اضطر كسرى إلى فك الحصار عن المدينة بعد أن فرض عليها مبلغاً من المال دفعته رهبة من الفرس سنة ٥٤٤^(٣). وبذلك اتضح أن البيزنطيين الرومان لا قبل لهم بمحاربة الفرس، لذلك طالبوا بعقد الصلح والهدنة مقابل دفع ما يحدده الفرس المنتصرون، وكان مقر هذه الجهود الدبلوماسية مدينة دارا الفراتية سنة ٥٦٢م، وتم التوقيع على هدنة لمدة خمسين عاماً، وما يهمنها فيها أن دارا ظلت مدينة منزوعة السلاح، وهو الشرط الذي كان موجوداً في معاهدة سنة ٥٣٢^(٤).

وبذلك تنفست مدن الفرات الصعداء لتوقف الحرب بين القوتين حتى يستطيع أهل هذه البلاد ممارسة حياتهم الطبيعية طبقاً للسيادة الواقعة عليهم سواء كانت بيزنطية أم فارسية، ولكن أمد هذا السلام كان مؤقتاً وذلك لوفاة الإمبراطور جستنيان سنة ٥٦٥

(١) الشاعر، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(٢) Procopius, op.cit., Vol. II, p. 126 - 131.

(٣) Ibid.

(٤) Barker, Justinian and the Later Roman empire, London, 1966, pp. 112 - 124.

Vasiliev, A history of the Byzantine empire, Vol. I, pp. 138 - 139.

Ostrogorsky, op.cit., p. 66.

Bury, op.cit., Vol. II, pp. 120, 123.

وتولى ابنه جستين الثانى العرش ٥٦٥ - ٥٧٨ فوجدناه يقوم بنقض الصلح وإشعال الحرب بسبب رفض دفع ما هو مقرر عليه من الجزية للفرس^(١).

ولعل الذى دفع جستين إلى ذلك لم يكن حماقة أو حبا فى القتال، وإنما لأنه واجه مشاكل مالية واقتصادية شديدة نتيجة لأن والده جستينان أنفق أموالاً ضخمة فى سبيل تحقيق مشاريعه السياسية لإعادة البحر المتوسط بحيرة رومانية، فاستنفذت موارد الدولة وتركت خزائنها خاوية، وأفقرت الناس وأنهكت قواهم حتى أننا نلاحظ أنه فى أخريات عهده تبدأ الكوارث بالنزول على بعض مناطق الإمبراطورية^(٢). لذلك فلم يكن فى مقدور جستينين إزاء هذه الظروف السيئة دفع الأموال المقررة عليه للفرس، لذلك شاءت إرادة الله ألا تنعم الأراضى الفراتية بالهدوء لاشتعال الحرب مرة أخرى فقد زحف الفرس ناحية الأراضى البيزنطية رغبة منهم فى المحافظة على الشروط التى تضمنتها المعاهدة المشار إليها، وترتب على ذلك أن ألحقت الجيوش الفارسية بالقوات البيزنطية هزيمة شديدة فى مدينة الرها الفراتية وقام الجند بعمليات تخريب واسعة، فقد أحرقوا ودمروا المدينة والقرى المحيطة بها.

كانت هذه الهزيمة صدمة كبيرة للإمبراطور جستين الذى لم يدر بخلده إطلاقاً أن يحدث مثل هذا فى يوم من الأيام، كذلك لم يسع الجيوش البيزنطية التى كانت تحاصر مدينة نصيبين الفراتية على أمل الاستيلاء عليها إلا أن ترفع الحصار عن المدينة، ولعل أخطر من ذلك هو سقوط دارا البيزنطية والتى تعتبر من أهم المواقع الفراتية الحصينة على الحدود الفارسية البيزنطية فى أيدى الفرس بعد حصارهم لها ستة أشهر، فكان لسقوطها وقع شديد على الإمبراطور جستين حتى أصيب بالجنون، ولم تستطع زوجته الإمبراطورة صوفية الحصول على هدنة لمدة عام واحد سنة ٥٧٤ إلا بعد أن دفعت خمسا وأربعين قطعة ذهبية^(٣).

(١) Vasiliev, op.cit., p. 170.

(٢) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص ٨٣.

(٣) Bury, op.cit., Vol. II, PP. 95 - 101, Jones, A.H.M. the later Roman empire, Vol. I, Oxford, 1973, p. 305.

خلف جستين الإمبراطور تيبريوس الثاني ٥٧٨ - ٥٨٢ م والذي عاصر وفاة كسرى أنوشروان سنة ٥٧٩ م وتولية ابنه هرمز الرابع الذي حكم حتى عام سنة ٥٨٩ م. وكل ما قام به تيبريوس أنه أقنع الفرس بتجديد معاهدة السلام بنفس الشروط القديمة، لكن هرمز فضل أن تفصل أرمينيا وأصر على هدنة لمدة خمس سنوات في العراق، ووافق الإمبراطور على دفع ثلاثين ألف قطعة ذهبية إلى كسرى لمدة ثلاث سنوات ورغم ذلك ظلت العمليات الحربية دائرة في أرمينيا وبلدان الجزيرة الفراتية^(١).

لم يمتد العمر بالإمبراطور تيبريوس لتحقيق مشاريعه، وكانت الأمور كلها موكلة إلى خلفه الإمبراطور موريس ٥٨٢ - ٦٠٢ م لتحقيق المشاريع.

ولعل ما يهمننا من أعماله هو مصير الأراضي الفراتية في سلسلة الصراع البيزنطي الفارسي وكيف سيواجه المهانة التي لحقت بالبيزنطيين من ضياع أملاكهم في الفرات، ولكن شاءت الظروف أن تنتهي المشكلة نهاية مرضية بوفاة كسرى هرمز واختلاف أبناء البيت الساساني على الحكم، ومساعدة موريس لأحد المطالبين بالعرش وهو كسرى برويز المظفر "الثاني" حفيد كسرى أنوشروان، فبادر إلى إبرام معاهدة مع الدولة البيزنطية سنة ٥٩١ م لها أهمية كبيرة بالنسبة للسيادة على الأراضي الفراتية إذ تنازلت فارس بمقتضاها للبيزنطيين عن أرمينيا الفارسية والجزء الشرقي من الجزيرة الفراتية بما في ذلك مدينة دارا وميفارقين، ولم تنطو المعاهدة على شرط الجزية السنوية الذي كان مهيناً للدولة البيزنطية^(٢).

توطدت العلاقة بين الإمبراطور موريس وكسرى أبرويز وتصاهرا حيث زوجه موريس من ابنته ماريا وأمده بأموال كثيرة، وذلك لأن موريس ساعد كسرى مرة أخرى في استرداد عرشه من الخارجين عليه، حيث سمح له بالإقامة في مدينة منبج الفراتية حتى تم القضاء على الخصوم وعودته للحكم^(٣).

(١) Jones, Ibid, p. 308.

(٢) Ostrogorsky, op.cit, pp. 79 - 80.

(٣) Jones, op.cit, Vol. I, p. 311.

ولقد كان للحروب الطويلة التي خاضتها منطقة الجزيرة الفراتية في سلسلة الصراع الفارسي البيزنطي أن قلت مواردها كما اجتاحتها بعض الكوارث الطبيعية، مما دفع الإمبراطور موريس إلى تخفيض رواتب الجند إلى الربع مما تسبب في عصيان الجند والقيام بمظاهرات عداوية ضد بيزنطية وإمبراطورها أسفرت عن طرد القائد البيزنطي إلى القسطنطينية، ويذكر أن ذلك كان من الأسباب التي أدت إلى ثورة الجند على الإمبراطور موريس وعزله عن منصبه^(١).

تعرض الإمبراطور موريس لانقلاب عسكري أطاح به حيث تم إجباره على التنازل عن العرش، ومغادرة القصر الإمبراطوري، وتم تنصيب القائد العسكري فوقاس في ٢٣ نوفمبر سنة ٦٠٢ م بموافقة السناتو وشعب العاصمة^(٢). وما إن اعتلى فوقاس عرش الإمبراطورية حتى سعى للتخلص من الإمبراطور السابق موريس ومن أبنائه وتم قتله هو وخمسة منهم في ٢٧ نوفمبر سنة ٦٠٢، وقد نجح أحد أبنائه الناجين وهو ثيودسيوس في الفرار إلى كسرى فارس مستجيراً به وطالباً مساعدته، فأجاره ووعدته بالمساعدة على استرداد عرشه ليرد له جميل أبيه السابق^(٣).

استشار كسرى رجاله، فاختر لقيادة جيشه رجلاً شجاعاً يدعى روميزان، وحثه على مهاجمة البيزنطيين، وأطلق عليه شهر باراز.

وفي هذه المرحلة كانت مدن الجزيرة الفراتية هي مسرح العمليات العسكرية خاصة مدينة الرها والتي ناصب أهلها الإمبراطور فوقاس العداء، وتمرد بداخلها القائد الكسرى نارسيس الذي كان عليه قيادة منطقة بين النهرين حيث دخل بجيشه إلى الرها واستولى عليها وقتل مطران المالكين رجلاً بالحجارة، فأرسل إليه فوقاس جيشاً بقيادة جيرمان نجح في حصار المدينة، وأخرج نارسيس منها وأسرته وأرسله إلى القسطنطينية^(٤).

(١) Ostrogorsky, op.cit., p. 100.

(٢) Ibid.,

Jones, op.cit., p. 311 – 312.

(٣) ليلي عبد الجواد، الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل، القاهرة، دار النهضة العربية، سنة ١٩٨٥، ص ٤٤.

(٤) Gibbon, E. The Decline and Fall of the later Roman Empire, London, 1911, Vol. I, pp. 512 - 513.

تحرك الجيش الفارسي في هذه الفترة في اتجاه مدينة دارا الفراتية انتظاراً لوصول كسرى الذي وصل بعد أيام وقرر تقسيم جيشه إلى قسمين أبقي القسم الأول لحصار دارا وتوجه مع القسم الثاني إلى الرها لمهاجمة القائد البيزنطي جيرمان وجيشه، حيث تمكنوا من قتل عدد كبير من رجاله في حين فر الباقيون، وفتحت مدينة الرها أبوابها لكسرى ودخلت في طاعة الفرس، وتلتها مدينة دارا التي طال حصارها لأكثر من عام ونصف حيث سقطت وعادت مرة أخرى إلى طاعة الفرس^(١).

وعلى أن نألف بأحوال بلدان الجزيرة التي أضنتها الحروب وأفقدتها الحياة المستقرة، وتنوع السيادة عليها. وهاهي مدينة الرها قلعة المسيحية ومركز الكنيسة الشرقية تقع تحت السيادة الفارسية.

لم تكن دارا والرها هما المدينتان الوحيدتان اللتان سقطتا في يد الفرس وخرجتا من السيادة البيزنطية، وإنما لحقت بهما معظم مدن الجزيرة فقد وقعت معظم أرمينيا البيزنطية في أيديهم، ثم دخل القائد الفارسي شهر باراز ما بين النهرين وحاصر آمد "ديار بكر" وكذلك حران، وبذلك أصبحت كل مدن الجزيرة الفراتية تحت السيادة الفارسية^(٢).

حاول الإمبراطور فوقاس لم الشعث وجمع الشتات، لكنه لم يجن غير الهزائم المتلاحقة. ولا ننسى هنا أن نوضح أثر هذه العمليات العسكرية على مدن الجزيرة فقد ساد القلق والرعب بين سكانها بسبب سوء معاملة الجنود الفرس لهم، إضافة إلى عمليات السلب والنهب التي مارسوها في المدن الواقعة في أيديهم أثناء العمليات العسكرية^(٣)، ويصف المسعودي الظلم الذي أوقعه كسرى بالرعايا الخاضعين له بقوله: "واستوحش من شريعة العدل وواضحة الحق فعدل إلى الجور والعسف بخواص رعيته وعوامها وحملها على ما لم تكن تعهد وأوردهم إلى ما لم يكونوا يعرفونه من الظلم"^(٤).

(١) Ostrogorsky, op.cit, p. 93.

(٢) Ibid.

(٣) بيغوليفسكايا، ثقافة السريان، ص ٣٠٤ - ٣٠٥، سعاد العمرى، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

(٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين، ط٤، مصر، مطبعة السعادة سنة ١٩٦٤، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

الجزيرة الفراتية على عهد الإمبراطور

هرقل ٦١٠ - ٦٤١ م

كان للهزائم العسكرية التي منيت بها الجيوش البيزنطية على أيدي الفرس أثرها على أقول نجم الإمبراطور فوقاس، فقد استمر الفرس في انتصاراتهم العسكرية التي أوضحناها في بلدان الجزيرة الفراتية، والتي كانت مفتاحاً لغيرها من المناطق حيث نفذت الجيوش الفارسية إلى آسيا الصغرى واستولت على قيصرية وتوغلوا عبر كبادوكيا حتى وصلوا إلى أبواب خلقدونية، هذا بينما اكتسح السلاف ولايات تراقيا والليريا لأن الجيش الأوربي كان قد نقل ذلك الوقت عبر البسفور للوقوف ضد الفرس^(١).

توغل الجيش الفارسي حتى انطاكيا ثم دمشق وقيليقية فاستولى على حصن طرسوس، وطرده البيزنطيين من أرمينيا، وتوجه صوب الشام وبيت المقدس وشرع في غزو مصر، فسقطت الإسكندرية في أيديهم سنة ٦١٩ م ولم تلبث مصر بأسرها أن أصبحت تحت السيادة الفارسية^(٢).

وهكذا عم الخراب والدمار في الأراضي البيزنطية في الوقت الذي انتهى فيه حكم أسرة جستنيان، وبدأت أسرة جديدة عندما أبحر هرقل ابن حاكم ولاية إفريقية إلى القسطنطينية كمنقذ للبلاد من الكوارث التي نزلت بها وذلك عام ٦١٠ م^(٣).

لقد كان للاحتلال الفارسي لمناطق الجزيرة الفراتية، والتي كانت في أيدي البيزنطيين أكبر الأثر على السياسة التعسفية التي اتبعها الفرس في معاملة أهالي هذه البلاد في وقت اشتدت فيه نار العداوة والبغضاء بين القوتين، وكانت المواجهة حياة أو موتاً، فقد مارسوا شتى أنواع الضغط والعنف على أهالي تلك المدن وعملوا على فرض ضرائب باهظة عليهم، وأجبروهم على دفعها بالقوة، وساموا الناس سوء العذاب واغتصبوا أموالهم^(٤).

(١) جوزيف نسيم، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٢) Ostrogorsky, op.cit, p. 86.

Vasiliev, op.cit., p. 196.

(٣) Baynes, Moss, Byzantium, Oxford, 1953, p. 85.

(٤) Ostrogorsky, op.cit, p. 98.

ويبدو أن أهالي بعض مدن الجزيرة الفراتية عارضوا سياسة التسلط الفارسي بسبب القوة التي اتبعوها معهم مما دفع كسرى إلى تخليّة جماعية لأهلها، ونفيهم إلى فارس، ودخلها مع جيشه وجعلها قاعدة له استعداداً لمواجهة ردة فعل بيزنطة^(١).

ومن وسائل العنف التي اتبعها كسرى ضد البيزنطيين حركة الاضطهاد التي قام بها ضد المسيحيين فيذكر جويدي: "إن كسرى قد أقسم حين انتصر في الحرب ليأتين على جميع الكنائس في الدولة ولا يترك ناقوساً منها". ومهما يكن فقد اضطهد النصارى جميعاً نساطرة ويعاقبة^(٢).

كانت ردة الفعل البيزنطية قوية على يد الإمبراطور هرقل الذي توقف عن صد أعدائه وبدأ في الإصلاحات الداخلية حتى يتمكن من تجهيز جيش يستطيع مواجهة هذه الأزمة الطاحنة، وفعلاً حقق ذلك بالتعاون مع بطريك الكنيسة سرجيوس وبدأ يستعد للخروج لمواجهة أعدائه، ولا يعني من سلسلة حروبه إلا ما خاضه ضد أرض الجزيرة الفراتية جميعها فكانت خطته تهدف إلى استعادة الأراضي التي اغتصبها الفرس، وإجبارهم على قبول سلام عادل ومنصف^(٣)، ولكن نظراً لأنه من العسير الاتجاه نحو الشام وفلسطين ومصر لاستعادتها، لكن كان على هرقل أن يضرب الفرس أولاً في عقر دارهم وفي قلب فارس ذاتها أي أن الاتجاه الحربي سيكون ناحية الجزيرة الفراتية.

حقق هرقل انتصاراً عسكرياً في بداية حملاته ضد الفرس في المناطق التي احتلوها في آسيا الصغرى ٦٢٢ - ٦٢٣ م^(٤). وبعدها أرسل هرقل رسالة تحذير إلى كسرى إما أن يقبل الصلح والسلام وإلا فإنه سوف يهاجم بلاد فارس عما قريب، لكن كسرى لم يقبل عرض الصلح، ولم يعر تحذير هرقل أي اهتمام أو اعتبار لأنه لم يتصور أن البيزنطيين يمكنهم غزو فارس واعتقد أن هرقل لن يتوجه نحوها^(٥).

(١) Ibid.

(٢) كريستيس، المرجع السابق، ص ٤٧٣.

(٣) ليلى عبد الجواد، المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٤) Ostrogorsky, op.cit., 144.

(٥) ليلى عبد الجواد، المرجع السابق، ص ٢٤١.

نجح هرقل في غزو أرمينيا الفارسية وأذربيجان وجزءاً من فارس، وبعد ذلك أصبحت مناطق الجزيرة محطاً للجيش البيزنطي والتي عبرت جبال طوروس ووصلت إلى نهر دجلة بمشقة بالغة وعبرت النهر متجهة نحو ميافارقين ثم آمد "ديار بكر". وهناك توقفت للراحة في الوقت الذي كان القائد الفارسي شهرباراز يترصد للإمبراطور هرقل، ولهذا أرسل الإمبراطور نخبة من رجال الجيش لتأمين العديد من الممرات. أما هو فتقدم نحو الشرق مع بقية الجيش تاركاً ديار بكر وتابع سيره حتى تقابل مع شهرباراز عند الفرات وكان على هذا النهر جسر من الحبال والأغصان والصوف فقطعه شهرباراز وسحبه إلى الشاطئ الآخر، فلما وصل لم يجد الجسر، ولكن وجد مخاضة فعبر منها النهر نهاية مارس سنة ٦٢٥ م واحتل سميساط الفراتية^(١).

استكمل هرقل دوره في مواجهة القوات البيزنطية حتى إنه كان ينوى مهاجمة عاصمتهم المدائن "طسيفون" لذلك اتخذ طريقه ناحية مناطق الفرات فوصل إلى آشور ليتمكن من عبور جبال الأكراد الوعرة قبل حلول الشتاء الذي سيغلق الممرات بثلوجه، فبوصوله إلى آشور، ومهما كانت حالة الجو فإنه سوف يتمكن من الوصول إلى غايته في طسيفون بلا عقبات، وفعلاً استكمل مسيرته حتى وصل إلى نينوى حيث دارت بينه وبين الفرس موقعة حامية الوطيس أسفرت عن انتصار بيزنطي ضخم وهزيمة فارسية كبيرة أعقبها سقوط قصر دستاجرد، ورغم أن هرقل كان قد ركز القوة إذ كان هو المنتصر إلا أنه عرض الصلح على كسرى وعقد اتفاقية سلام، لكن كسرى رفض لأن هرقل طالب بعودة الحدود إلى ما كانت عليه سنة ٦٠٢ م مما أدى إلى نقمة شعبه عليه^(٢).

لذلك قامت ثورة ضد كسرى انتهت بعزله، لعل من أسبابها إلى جانب التدهور السياسي والاقتصادي والعسكري كان غضب المسيحيين في مناطق الجزيرة، فبعد أن كان يحسن معاملتهم رجع عن ذلك^(٣)، لذلك كان لكسرى أبناء كثيرون فتجاوز أكبرهم وهو شيرويه وهو ابنه من ماريا ابنة الإمبراطور موريس - وعزم على تنصيب مردانشاه وهو

(١) Ibid, pp. 208 - 209.

(٢) Stratos, Ibid, pp. 216 - 217.

(٣) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٤٧٥.

ابنه من شيرين، ولما علم شيرويه بنية أبيه في تتويج أخيه عزم على الدفاع عن حقوقه^(١). كما قام بمساعدة هرقل في إخراج الأسرى البيزنطيين من السجون الفارسية، ثم دبر مؤامرة للقبض على أبيه، حيث قتله وتوج شيرويه ملكاً على الفرس في ٢٥ فبراير سنة ٦٢٨، وبعدها نجح هرقل في استعادة جميع البلدان التي احتلها كسرى في مصر والشام والجزيرة الفراتية.

وخرجت جميع مدن الجزيرة الفراتية من التبعية الفارسية إلى التبعية البيزنطية حيث اعترف هرقل بشيرويه ملكاً على الفرس وأشار إليه على أنه ابنه ليشير بذلك إلى سمو مكانته، إذ أصبح هرقل الأب الروحي لملك الفرس. ولم يكن ذلك فقط، إذ أن شيرويه أعلن أثناء مرضه الذي مات فيه^(٢) بأن يكون الإمبراطور البيزنطي وصياً على ابنه كسرى الثاني رغم أنه أعلن ذات مرة في الماضي أن الإمبراطور البيزنطي ليس إلا عبداً له غير أن الزمن تغير وانعكس الوضع، وأعلن شيرويه أن ابنه ووريثه من الحكم عبد للإمبراطور البيزنطي^(٣).

توفي شيرويه بعد أن حكم حوالي ستة أشهر، فولوا على العرش ابنه أردشير الثالث وكان طفلاً فنصب عليه وصياً، لكن حدثت مشاكل من قبل القائد العسكري الفارسي شهرباراز الذي رفض قبول أردشير حاكماً، لذلك اتصل بالإمبراطور البيزنطي هرقل وزين له مساعدته في الإطاحة بأردشير رغم الاتفاق الذي كان بينه وبين أبيه شيرويه على تنصيبه. وفعلاً تحالفت قوات القائد الفارسي شهرباراز مع القوات البيزنطية وقاموا بقتل أردشير بعد أن حكم عاماً ونصف عام فقط^(٤).

وبعدها بدأ العد التنازلي للعرش الفارسي السلسلة من الأكاسرة وفوضى عارمة طوال

(١) راجع عن ذلك تفصيلاً، كريستنسن، من ٤٥٧، ٤٧٤ - ٤٧٧ وكذلك الكرديزي، زين الأخبار، ج١، ص ٥٧.

(٢) تجمع المصادر أنه مات بمرض الطاعون.

الكرديزي، المصدر السابق، ص ٥٧، كريستنسن، المرجع السابق، ص ٤٧٨، محمد عبد القادر، المرجع السابق، ص ٩٨، حيث تولى ابنه أردشير الثاني.

(٣) Ostrogorsky, op.cit., p. 98.

(٤) كريستنسن، المرجع السابق، ص ٤٧٨.

حياة الإمبراطور هرقل حتى قيل إنه في نهاية عهد هذه الأسرة وفي خلال أربع سنوات تولى عرش فارس عشرة ملوك على الأقل^(١).

ونريد أن نعرف الآن ما هو مصير بلدان الجزيرة الفراتية التي أصبحت الآن تحت السيادة البيزنطية الكاملة وخرجت من السيادة الفارسية، فقد أصبحت بلدانها مسرحاً للعمليات العسكرية، وأضررت الحروب بأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فلم تكن السياسة البيزنطية في مدن الجزيرة الفراتية أحسن حالاً من السياسة الفارسية، فقد كانوا يمارسون أساليب الظلم والابتزاز ضد الفلاحين حتى الأحرار منهم، وفرضت عليهم الإسهام في المشاريع العامة كشق الترع وبناء الجسور والمنشآت ونقل المحاصيل إلى مخازن الدولة وإطعام الجيوش المارة في مناطقهم^(٢). وقد أراد الله سبحانه وتعالى الخير السريع لهذه البلاد، وليكون بعد العسر يسراً، وذلك لأن البيزنطيين على عهد الإمبراطور هرقل لم يهنأوا بثمرة انتصاراتهم واستعادتهم لأرضهم ولاياتهم وللبلاد الخاضعة للنفوذ الفارسي، وذلك لأنه تزامن مع عهد هرقل ظهور قوة جديدة بالجزيرة العربية قوة عظمى هي قوة الإسلام الذي تكونت له دولة ثابتة الأركان بالمدينة المنورة، واستقرت الدعوة بعد فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة المكرمة ودخول القبائل العربية في الإسلام.

هذه القوة الجديدة قلبت ميزان القوى العالمى وضربت هاتين القوتين العظميين بقوة الإسلام، حيث بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة السلمية للقوى الدولية المعاصرة، ولما لم تستجب، صدع لأمر ربه بإذاعة الإسلام ونشره للناس كافة، فكانت حركة الفتوحات الإسلامية على عهد خلفائه الراشدين حيث سقطت دولة الأكاسرة تماماً وانحلت ودخلت جميع أملاكها في نطاق الدولة الإسلامية. أما الدولة البيزنطية فقد انحسرت في حدود ضيقة وضاعت منها ولاياتها، وأهمها بلدان الجزيرة الفراتية التي تحولت إلى بلدان تدين بالطاعة للدولة الإسلامية.

أولاً : المصادر العربية

ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبى، ت. ٣٨٠هـ،

(١) المرجع السابق، ص ٤٨٠.

(٢) ييغوليفسكي، العرب على حدود بيزنطة، ص ٢٦٧.

صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩ م.
 الإدريسي، أبو عبد الله محمد، ت. القرن السادس الهجري،
 نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، سنة ١٩٨٩ م.
 الكرديزي، أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك، ت. ٤٤٢ - ٤٤٣ هـ، زين الأخبار،
 ترجمة عفاف السيد زيدان، القاهرة، المطبعة المحمدية، ط ١، سنة ١٩٨٢ م.
 المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين بن على، ت. ٣٤٦ هـ، مروج الذهب ومعادن
 الجوهر، تحقيق محمود محيى الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، القاهرة، ١٩٦٤ م.
 ياقوت الحموى، أبو عبد الله، ت. ٦٢٦ هـ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت،
 ١٩٧٨ م.

ثانياً : قائمة المراجع العربية والعربية

أحمد فخرى، دراسات في تاريخ الشرق القديم، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٤،
 سنة ١٩٥٧ م.
 أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم، بيروت، ١٩٥٥ م.
 بيغوليفسكيا، نينا فيلوتورفنا، العرب على حدود بيزنطة وإيران، ترجمة صلاح الدين
 عثمان، الكويت، ١٩٦٤ م.
 جواد على، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٨.
 جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٨٨ م.
 جيون، إدوارد، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد عبد
 الهادى أبو ريده، القاهرة، ١٩٦٩ م.
 زبيدة عطا، الدولة البيزنطية من قسطنطين إلى أنستاسيوس، القاهرة، دار الفكر
 العربى، ط ١، ١٩٧٧ م.
 سعاد بنت أحمد العمرى، الجزيرة الفراتية من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر
 الأموى، دراسة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية
 الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، سنة ١٤١٦ هـ.
 السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام، ج ١،

الإسكندرية، ١٩٦٧م.

كريستنس "أرثر"، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، لجنة التأليف، ١٩٥٧م.

ليسترنج، كى، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرانيسيس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.

ليل عبد الجواد إسماعيل، الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م.

محمد بيومى مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط ٣، ١٩٨٢م.

محمد عبد القادر محمد، إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامى، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ط ١، ١٩٨٢.

محمد فتحي الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٩م.

نولدكه، تيودور، أمراء غسان من آل جفنة، ترجمة قسطنطين رزيق، وبندي خورى، بيروت، ١٩٣٣م.

هسى، ج.ع، العالم البيزنطي، ترجمة رافت عبد الحميد، القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٢م.

المصادر الأجنبية

Barker, G.P.,

Justinian and the later Roman Empire, London, 1966.

Baynes, and Moss,

Byzantium, Oxford, 1953.

Bury, J.B.

History of the later Roman Empire, London, 1923.

Cam. Med. Hist. Vol. XII.

Diel, C.

Buzantium, greatness and decline, T. from French, by Naomi Walford, New Jersey, 1957.

Gibon, E.

The decline and Fall of the Later Roman Empire, London, 1911.

Jones, A. H. M.

The later Roman Empire, Oxford, 1973.

Ostrogorsky, G.

History of the Byzantine State, Oxford, 1956.

Procopius of Caesarea,

History of Wars, T. H.B. Dewing, New Yor, 1914 – 1945.

Stratos, A. N.

Byzantium in the seven the century, Amster dam, 1968.

Vasiliev, A. A.

History of the Byzantine empire, Madison, 1964.

* * *

oboiikan.com

الجيش المصرى بين التمهيد والسيطرة البريطانية

من تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ إلى أزمة الجيش ١٧ يونيو ١٩٢٧

د. فطين أحمد فريد على

أستاذ التاريخ الحديث المساعد

جامعة قناة السويس

oboeikan.com

الجيش المصرى بين التمسير والسيطرة البريطانية من تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ إلى أزمة الجيش ١٧ يونيو ١٩٢٧

مقدمة

أخذ الساسة المصريون يتشاورون في مصير البلاد بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في ١١ نوفمبر ١٩١٨ . وكان كبار زعماء الحزب الوطنى منفيين أو معتقلين ، فتصدر الموقف المعتدلون ، ومعظمهم من رجال حزب الأمة وأعضاء الجمعية التشريعية ، ورأى هؤلاء أن الشعوب الصغيرة قد تأهبت لإرسال مندوبيها إلى مؤتمر الصلح ، خاصة وأن مصر لم تثر العراقيل في وجهه انجلترا أثناء الحرب ، بل عاونتها قدر طاقتها على إحراز النصر.^(١)

وأدى القبض على سعد زغلول وصنحه إلى اندلاع الثورة يوم ٩ مارس ١٩١٩.^(٢) ثم سافر الوفد إلى باريس ولكن بعد فوات الأوان حيث تمكنت بريطانيا من انتزاع اعتراف الدول الكبرى بحمايتها على مصر . ونتيجة لذلك قرر الوفد الاعتماد على النفس والاستمرار في حركة الكفاح الوطنى.^(٣)

وبعد استقالة حسين رشدى باشا وقبول السلطان فؤاد لها يوم ٢٢ أبريل ١٩١٩ تعاقت على البلاد أربع وزارات إدارية خلال الفترة من ٢٠ مايو ١٩١٩ وحتى ٢٤ ديسمبر ١٩٢١ ، هى وزارات: محمد سعيد ، يوسف وهبه ، محمد توفيق نسيم ، وعلى

(١) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية - البريطانية ١٨٨٢-١٩٣٦ ، ص ص ٢٨ - ٢٩

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى ، ص ص ١١١ - ١١٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٧ .

يكن - يصح أن تسمى " وزارات الموظفين " لاتجد تأييداً من الشعب .^(١) هذه الوزارات كان يعينها السلطان ويقلها أو يقبل استقالتها، ومن ورائه حاشيته التى أصبحت عينه وأذنه لا يرى ولا يسمع إلا عن طريقها .

مفاوضات ملنر

وأرسلت بريطانيا لجنة ملنر للتحقيق فى أسباب غضب المصريين حيث وصلت يوم ٧ ديسمبر ١٩١٩ إلى بورسعيد ثم انتقلت إلى العاصمة بقطار خاص وفشلت اللجنة .^(٢)

وفى أوائل يونيه ١٩٢٠ توجه الوفد إلى لندن حيث بدأت المفاوضات بينه وبين لجنة ملنر . وكان ملنر يعتقد أن المصريين يعترضون على اسم الحماية ولكنهم لا يعترضون على مؤداها ، على اعتبار أن الرجال الثلاثة الذين قابلوا رجنالد ونجت والذين طلبوا من انجلترا أن تعترف باستقلال مصر أبدوا استعدادهم - باسم مصر - لعقد محالفة بين البلدين تتعهد كل بمقتضاها أن تعاون فى الدفاع عن الأخرى إذا نشبت الحرب . وعلى هذا الأساس تقدم ملنر بمقترحاته التى واجهها الوفد بمقترحات أخرى ، ثم صدرت فى النهاية مذكرة مشتركة قال ملنر: إنها أقصى ما تستطيع إنجلترا التنازل عنه . هذه المذكرة لم تكن اتفاقاً بين البلدين ، بل لم تعد أن تكون قاعدة لتسوية المسألة المصرية بشكل مقبول ، وهى فى الواقع أساس لكل المفاوضات التى دارت بين البلدين حتى عام ١٩٣٦ حين أمكن توقيع المعاهدة المرجوة تحت ضغط الموقف الدولى .^(٣)

كان المظهر المؤثر على مباحثات المصريين مع لجنة ملنر فى ذلك الوقت هو حرصهم على "حالتهم القومية" ، فوجدوا فى سبيل تحويل بريطانيا من " دولة محتلة " إلى " دولة حليفة " أن لاغضاضه فى منحها قاعدة فى أراضيهم واستخدامها كل وسائل المواصلات

(١) وثائق مجلس الوزراء المصرى ، وزارة محمد سعيد باشا الثانية المرسوم السلطانى بتأليفها بتاريخ ٢٠ مايو ١٩١٩ ، مرسوم تشكيل وزارة يوسف وهبه باشا بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٩١٩ ، مرسوم تشكيل وزارة محمد توفيق نسيم باشا بتاريخ ٢١ مايو ، و مرسوم تشكيل وزارة عدلى يكن باشا بتاريخ ١٦ مارس ١٩٢١ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، الجزء الأول ، ص ص ١٢٦ - ١٢٧ ، انظر كذلك أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ص ١١٨ - ١١٩ .

(٣) Lloyd, George, Egypt since Cromer, 27 ols, P.20.

والسكك الحديدية لإدارة الأعمال الحربية ، كما لم يتشددوا في مسألة إبقاء " قوة عسكرية بريطانية " في مصر وقت السلم ، وكان كل همهم " صفة " هذه القوة دون الالتفات إلى عددها - فما دامت القوة ليست " جيش احتلال " أو " قوة لحفظ النظام " فلا حرج في بقائها في البلاد - والواقع أن هذا الفكر في الوقت الذي حدث فيه لا يعد شذوذاً ، حسب فهم المصريين في ذلك الوقت، إنما كان إلغاء الحماية التي فرضتها بريطانيا على مصر في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وأيدها مؤتمر الصلح في سنة ١٩١٩ ، والحصول على الاستقلال الذاتي - فإذا كان البريطانيون قد وافقوا على فكرة عقد معاهدة أو تسوية يتفق عليها الطرفان كما يتفق الند مع نده - فإن هذا في حد ذاته وفي ذلك الوقت كان نصراً عظيماً. ^(١)

ثم جاءت مفاوضات سعد - ملنر التي نتج عنها مشروع اتفاق أرسله سعد إلى الأمة حيث كان الاتجاه العام أميل إلى قبوله بعد تعديله على أساس " تحفظات " تحد من تدخل إنجلترا في شئون مصر بعد عقد المعاهدة ، ورفضت لجنة ملنر هذه التعديلات على اعتبار أنها فتح لباب المفاوضات من جديد . وتمسك الوفد بعدم الدخول في المفاوضات إلا على أساس التحفظات التي أبدتها الأمة . ووقفت المفاوضات عند هذا الحد . وعاد أعضاء الوفد إلى باريس حيث لم تلبث أن نشبت بينهم الخلافات التي تطورت إلى ما لا تحمد عقباه وتركت آثارها الباقية في الحياة السياسية المصرية . ^(٢)

مفاوضات عدلى - كيرزن (١٢ يوليو - ١٦ نوفمبر ١٩٢١)

ظلت صفة " القوة العسكرية البريطانية " وهى موضوع الحوار بين طرفي المفاوضات - وكان فكر المفاوض المصرى أنه وهو يطالب بالاستقلال ، فإن وجود قوة أجنبية معها كان اسمها ماس به - وقد ترتب على هذا المدخل أن شرح البريطانيون الغرض من وجود الجنود البريطانيين في مصر وهو : ^(٣)

(أ) حماية المواصلات الإمبراطورية في حالتى السلم والحرب .

(١) وثائق وزارة الخارجية المصرية ، القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ ، ص ٣٨ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٢٤ ، انظر كذلك عباس العقاد : سعد زغلول ، ص ٣١٣ .

(٣) وثائق الخارجية المصرية ، القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ ، ص ص ٩٦ - ١٠٢ .

(ب) الدفاع عن حدود مصر من أى اعتداء خارجى .

(ج) حماية المصالح الأجنبية .

(د) مساعدة الحكومة المصرية فى قمع الفتن الخطيرة، وحفظ النظام إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

وقد كانت هذه الأغراض التى استهدفت وجود القوات البريطانية بها منطلقا للحوار حول كفاءة الجيش المصرى وقدراته - فقد اتفق عدلى يكن باشا على الحكمة من وجود جيش " لغرض خارجى " ، ولكنه اعترض على وجوده " لغرض داخلى " ووصفه فى هذه الحالة بأنه " هادم للاستقلال " - وأن وجوده فى مصر قد حال دون تنظيم الجيش المصرى وتوزيعه بصورة كافية. وقد فرق عدلى باشا فى هذا الشأن بين حالتى السلم والحرب ، ورأى فى الحالة الأولى أن تضمن المعاهدة نصا تتعهد بريطانيا بمقتضاه بمساعدة مصر فى الدفاع عن سلامة أراضيها من أى اعتداء خارجى ، وأن هذا التعهد لا يقتضى وجود جنود فى مصر فى وقت السلم ، على أن تتعهد مصر فى حالة وجود انجلترا فى حالة حرب ، بأن تقدم لها كل التسهيلات من وسائل نقل وموانئ .. الخ ، ومع أن السلم يستلزم انتهاء الاحتلال العسكرى وهو ما كانت تنشده مصر فى مفاوضاتها هذه - إلا أن عدلى باشا سلم بوجوب وجود " قوة عسكرية " للمحافظة على المواصلات الإمبراطورية كدليل على حسن مقاصده ، وكان رأى مصر فى ذلك الصدد أن يكون موقع هذه القوة العسكرية هو منطقة القناة ^(١) .

كان هدف مصر فى هذه المفاوضات وضع اتفاقات عسكرية تحدد مقدما كيفية التعاون العسكرى فى زمن الحرب - لكن كيرزن ، ادعى بأنه لاينتظر أن يكون لمصر جيش كبير لأن ذلك كثير النفقات - وأوضح الهدف من " القوة العسكرية " بأنها ليس للحماية المواصلات وحدها بل لحماية النظام والأمن ، وأن لها أن ترابط فى أى مكان من مصر ولأى زمان ^(٢) .

(١) المصدر السابق ، ص ص ١١٠ - ١٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ص ١٢٩ - ١٨٩ .

وهكذا بينت انجلترا من تعدد الغايات من وجود القوة العسكرية وامتدادها إلى أهم مظاهر الحياة السياسية أن " القوة العسكرية " أصبحت نفسها غاية لا وسيلة .^(١) وهكذا تحطمت المفاوضات على صخرة القوة العسكرية .

وكان لابد من فشل مفاوضات عدلى - كيرزن في هذا الجو المليء بالمهاترات بين السعديين والعدليين .^(٢) ونظرا لتصاعد الحركة الوطنية ، وتزايد الكراهية ضد الانجليز ، ألقت السلطات البريطانية القبض على سعد زغلول وخمسة من أعضاء الوفد وقامت بنفيهم إلى عدن يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٢١ ، ثم نقلتهم إلى جبل طارق .^(٣)

ونتيجة لذلك ازداد هياج الشعب المصرى ، واستمرت الاضطرابات وقاطع المصريون البضائع الإنجليزية، وتردد رجال السلطان فؤاد في قبول منصب الوزارة في ظل الحماية البريطانية ، وأصر المصريون على إلغاء الحماية وعودة المنفيين . وإزاء هذا الموقف اضطرت الحكومة البريطانية إلى تهدئة الموقف والتفاوض مع المصريين مما نتج عنه تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢.^(٤)

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢

وفي ٢٨ فبراير ١٩٢٢ صدر التصريح في كل من لندن والقاهرة . وغضب معظم المصريين الواعين، لأن صدور التصريح قد تم بعد نفى الزعماء مما جعل منه اعتداءً جديداً على حقوق مصر - ثم لم يلبث سعد زغلول من منفاه أن أعلن أن التصريح نكبة وطنية كبرى . اعترفت انجلترا حقيقة بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وأنهت الحماية وعلقت إلغاء الأحكام العرفية على إصدار الحكومة المصرية قانونا للتضمينات نافذ المفعول على جميع ساكنى مصر، ولكنها احتفظت لنفسها بصورة مطلقة بأمور معينة حتى يحين وقت

(١) المصدر السابق . ص ١٨٩ - ١٩٣ .

(٢) يوسف نحاس : صفحة من تاريخ مصر السياسى الحديث - مفاوضات عدلى - كيرزن ، ص ص ٩ - ١٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١ ، انظر كذلك ، عبد المنعم الجميى : مصر فى التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ٢٤١ .

(٤) عبد المنعم الجميى : المرجع السابق ، ص ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

الاتفاق عليها طبقا لمفاوضات جديدة. هذه الأمور هي ما عرف باسم التحفظات الأربعة، وهي: (١)

أولاً: تأمين المواصلات الإمبراطورية في مصر .

ثانياً: الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالواسطة.

ثالثاً: حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات.

رابعاً: السودان .

وفي مذكرة ملحقة بالتصريح بعث بها اللبى إلى السلطان فؤاد ذكر أن " إنشاء برلمان يتمتع بحق الإشراف والرقابة على السياسة والإدارة في حكومة مسئولة على الطريقة الدستورية، الأمر فيه يرجع إلى عظمته وإلى الشعب المصرى " (٢).

وبصدور التصريح وإعلان السلطان فؤاد نفسه ملكاً في ١٥ مارس ١٩٢٢ وإعادة وزارة الخارجية المصرية في نفس اليوم تدخل مصر حقبة جديدة من تاريخها امتدت جيلاً كاملاً ، بدت في أثنائها للعام والخاص ألوان من المشكلات ترتبط بالوضع الخاص الذى ادعته انجلترا لنفسها ، بحيث أدرك الجميع ألا تقدم حقيقى للبلاد إلا بجلاء المحتل جلاء تاماً . في هذه الحقبة احتدم النضال من جديد بين قوى ثلاث : الشعب الذى لم يحن كل ما علقه على ثورة ١٩١٩ من آمال ، والملكية التى انتهزت فرصة تحقيق استقلال البلاد الذاتى لتحى أو توقيراطية محمد على باشا وإسماعيل باشا ، والمحتل الذى كان يلعب أحياناً من وراء ستار ، وأحياناً بشكل سافر ، لكى يقيم توازناً بين الشعب والملكية يجعله قطب الرحى في توجيه شئون البلاد طبقاً للأطماع الاستعمارية البريطانية . (٣)

تنبه أفراد الشعب المصرى لما ترمى إليه بريطانيا من وراء تصريح ٢٨ فبراير الذى لم ينه الحماية نتيجة للتحفظات الأربعة التى تضمنته . وقد عبر عن ذلك عباس العقاد بقوله إنه

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى ، ص ١٣٣ ، انظر كذلك ، راشد البراوى : مجموعة الوثائق السياسية ، الجزء الأول ، ص ١٢٨ .

(٢) Wavell, Lord ., Allenby in Egypt, PP. 55 – 56.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

التصريح المنسوب إلى هذا التاريخ (فبراير) لأن أحدا لم يستطع أن يسميه تصريح إلغاء الحماية أو تصريح الاستقلال أو ما إلى ذلك من الصفات ، لافرق في ذلك بين أنصاره المرحبين به ، وخصومه المعارضين عليه. ^(١)

في الحقيقة أن إصدار هذا التصريح على الرغم مما فيه من قيود كان خطوة في سبيل استقلال مصر ، خصوصا وأن المصريين لم يستطيعوا قبل ذلك استخلاص أى اعتراف من بريطانيا بإنهاء الحماية ، كما أنه أتاح لهم فرصة الحصول على قدر أكبر من إدارة حكم بلادهم بأنفسهم وتولى العديد من أمورهم ، فبعد إعلان التصريح قام عبد الخالق ثروت بتأليف وزارة جديدة ^(٢) شملت بين أجنحتها وزارة للخارجية التي كانت قد ألغيت في ظل الحماية ، وتولى إدارة شؤونها رئيس الوزراء نفسه. ^(٣) وبذلك تحقق لمصر إدارة شؤون كيانها الخارجى وتمثيلها السياسى والقنصلى، ومن نتائج التصريح كذلك تحول مصر من سلطنة إلى ملكية وإعلان السلطان فؤاد نفسه ملكا على مصر. ^(٤)

وفي ١٩ أبريل ١٩٢٣ أصدر الملك فؤاد أمراً ملكياً بإعلان الدستور الذى نص على أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وأقر نظامها الملكى الوراثى، كما جعل الدستور الأمة هى المصدر الأساسى لجميع السلطات ، كما أقر الدستور مبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات بين المصريين أمام القانون، وأعطاهم الحرية المطلقة فى الاعتقاد ، وحرية إبداء الرأى أمام الجميع . وتناول الدستور البرلمان الذى أصبح يتكون من مجلسين أحدهما للشيوخ والآخر للنواب ومدة العضوية فيها. ^(٥)

وبعد إعلان الدستور ألغيت الأحكام العرفية وأبيح للمصريين الذين كانوا مبعدين أن يعودوا إلى مصر ، وأفرج عن المعتقلين السياسيين أو من صدرت ضدهم أحكام ، سواء أكانوا من زعماء الوفد أم من غيرهم . وعاد سعد زغلول من منفاه بعد أن رأت بريطانيا أنه ليس من الحكمة إبقاء هذا الزعيم وصحبه فى المنفى فأصدرت قرارها

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٤١٧ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، الجزء الأول ، ص ٣٩ .

(٣) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، الجزء الأول ، ص ١٢٩ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٥) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، الجزء الثانى ، ص ١١٥ .

بالإفراج عنه في ٢٧ مارس ١٩٢٣ بحجة سوء أحواله الصحية .^(١) ونتيجة لذلك غادر سعد زغلول منفاه إلى أوروبا ثم عاد إلى مصر في سبتمبر ١٩٢٣ ، وقرر خوض المعركة الانتخابية وتجنب القيام بأى عمل من شأنه تأجيل إلغاء الأحكام العرفية وإجراء الانتخابات . ونزل إلى المعركة الانتخابية كذلك أعضاء الحزب الوطنى والأحرار الدستوريون الذين قصروا حياتهم السياسية على القاهرة . ولم يكثرثوا بأن ينشئوا تنظيمات فى الأقاليم ، وبذلك تركوا الفرصة سانحة للوفد لكى يتغلب عليهم - إذ كانت له فروع ولجان فى الأقاليم تحصل له الموارد وتقوم له بالدعاية النشطة ، وتمارس نشاطا سياسيا مستمرا .^(٢)

وأُسفرت الانتخابات التى أجريت فى ١٢ يناير سنة ١٩٢٤ عن انتصار ساحق للوفد لم يكن يتوقعه خصومه - فقد حصل الوفديون على ١٨٨ مقعدا ، ولم يفز الأحرار الدستوريون إلا بستة مقاعد ، ولم يتعد ما حصل عليه الحزب الوطنى أربعة مقاعد . وسعى الوفد إلى الحكم كحق من حقوق الشعب الأصيلة والوسيلة المباشرة لمعالجة علاقات مصر الخارجية، والعناية بمصالح البلاد عناية مصرية صميمة .^(٣)

أعلن سعد زغلول فور توليه الوزارة - فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ - عن استعداد حكومته للدخول فى مفاوضات مع الحكومة البريطانية . على أثر ذلك بدأت مفاوضات سعد زغلول رئيس الوزراء المصرى مع رمزى ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا العمالى ، حيث سافر سعد زغلول إلى لندن على رأس وفد مكون من مصطفى النحاس بك وزير المواصلات ، ومحمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى باريس وبعض النواب، وعلى الرغم من ارتياح سعد زغلول لتفاوضه مع ماكدونالد وسعاده لفوز حزب العمال فى بريطانيا، فقد كان هناك تباعد كبير بين أهدافهما، ففى حين كان سعد ينشد تحقيق الاستقلال الشامل لمصر ، كان ماكدونالد يسعى لتثبيت أقدام بريطانيا فى مصر .^(٤)

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ، ص ٤٢٧ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى ، ص ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٣) المرجع السابق : ص ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٤) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، الجزء الأول ، ص ١٤٩ ، انظر كذلك ، عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، الجزء الأول ، ١٧٦ .

وعلى كل حال فقد أجريت المفاوضات بين الجانبين لمدة ثلاثة أيام متصلة قدم سعد زغلول خلالها مطالب مصر الأساسية، والتي تتلخص في قيام بريطانيا بسحب جميع قواتها من الأراضي المصرية، كما تقوم بسحب المستشارين المالي والقضائي اللذان كانا موضع تدمير المصريين، وزوال أى سيطرة انجليزية على علاقات مصر الخارجية بالدول الأخرى، وتتخلى بريطانيا عن دعواها في أحقيتها لحماية الأجانب والأقليات في مصر، ودعواها في الاشتراك لحماية قناة السويس، وضرورة اعتراف بريطانيا بحق مصر في السودان وبأنه جزء متمم لمصر.^(١)

ونتيجة لتمسك سعد زغلول بمطالبه فشلت المفاوضات بين الجانبين وعاد إلى مصر في أكتوبر ١٩٢٤.^(٢) وكان سعد متفائلاً في إمكانه انتزاع شىء لمصر من وزارة العمال التي تولت الحكم في إنجلترا. حقيقة إن تولى حكومة يرأسها أحد أقطاب العمال كان حدثاً جديداً في السياسة الإنجليزية. إلا أن الزعماء المصريين كانوا يسرفون دائماً في التفاؤل حين تولى وزارات العمال الحكم في إنجلترا اعتقاداً منهم أنها أقل اتباعاً للسياسة الإمبراطورية من المحافظين، وذلك برغم ثبات السياسة الخارجية البريطانية في مبادئها العامة مهما كان من أمر التعديلات الوزارية. وهكذا كان السبب الرئيسى في فشل مفاوضات سعد-ماكدونالد هو تمسك بريطانيا بإبقاء "القوة العسكرية" في مصر.

مقتل السير لى ستاك

وعلى كل حال، فإن قيام حكومة دستورية في مصر، وقيام برلمان منتخب من قبل الشعب، لم يلبث أن أدى إلى النتيجة المنطقية، وهى محاولة تحقيق جوهر الاستقلال بعد الحصول على المظهر، وهكذا بدأت الصيحات في البرلمان من أجل تدعيم الجيش وتخليصه من الوصاية الإنجليزية، بل إن رئيس الوزراء سعد زغلول أعلن رسمياً بأن "وجود قيادة الجيش المصرى العامة في يد ضابط أجنبى، وإبقاء ضباط بريطانيين في هذا الجيش لا يتفق مع كرامة مصر المستقلة".^(٣)

(١) عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق، ص ١٧٩، انظر كذلك القضية المصرية، ص ٢١٧.

(٢) عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق، ص ١٨٠.

(٣) Marlowe, John., Anglo – Egyptian Relations 1800 – 1953, PP. 222 – 226.

ولكن مقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤^(١)، على يد جماعة سرية مصرية دبرت لاغتياله منح بريطانيا فرصة كبرى للتصدى لهذا الاتجاه المصرى الوطنى لتمسير قيادة الجيش المصرى وتدعيم هذا الجيش كماً وتسليحاً، ولم تتوان بريطانيا فى انتهاز هذه الفرصة واستغلالها لمصلحتها استغلالاً كاملاً.^(٢)

وفى ذلك الوقت كونت جماعة من الشباب المتحمس جمعية سرية أطلقت عليها اسم "جمعية الفدائيين"، ورأت أن استقلال مصر لا يمكن تحقيقه إلا بالأعمال العنيفة والاغتيالات السياسية. وبدأت هذه الجمعية أعمالها بقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى الذى توفى يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٢٤ متأثراً بجراحه الناتجة عن إطلاق الرصاص عليه.^(٣)

وأحس سعد زغلول رئيس الوزراء، بخطورة الموقف فأعلن عن أسفه وأسف حكومته لما حدث، وفعل الملك فؤاد نفس الشيء.^(٤)

وقد رأت بريطانيا أن تستغل هذه الحادثة لتنفيذ أدوارها المرسومة فى وادى النيل، فرأت أن تتخلص من الوجود المصرى فى السودان على أساس أن هذا الوجود هو الذى سبب المتاعب للبريطانيين فى السودان فى ذلك الوقت، فمند ٨ مايو ١٩٢٤ أرسل حاكم عام السودان إلى المندوب السامى فى مصر يخبره - بصراحة الدعاية المصرية فى السودان ضد الانجليز حتى إن العناصر الوطنية السودانية نفسها أصبحت تنادى بأن مصر والسودان وطن واحد.^(٥)

(١) كان السردار الإنجليزى منذ الاحتلال قائدا عاما للجيش المصرى، ثم أصبح بالإضافة إلى ذلك حاكماً عاماً للسودان منذ عام ١٨٩٩.

(٢) جاد طه: بريطانيا والجيش المصرى، ص ص ١٧ - ١٨.

(٣) أحمد شفيق: حوليات مصر السياسية - الحولية الثانية (١٩٢٥)، ص ٤١٢.

(٤) المصدر السابق، الحولية الأولى (١٩٢٤)، ص ٣٦٦.

(٥) محمد شفيق غربال، المرجع السابق، ص ص ١٥٦ - ١٥٧، القضية المصرية ص ص ٢١٧ - ٢١٨.

وفي يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ اتجه المندوب السامى البريطانى اللورد اللنبى فى مظاهرة عسكرية إلى دار رئاسة مجلس الوزراء ، وسلم سعد زغلول نسخة من الإنذار . وقد جاء فى المذكرة الأولى منه طلبات محددة هى :^(١)

- ١- أن تقدم الحكومة المصرية اعتذارا كافيا وافيا عن الجناية .
- ٢- أن تتابع بأعظم نشاط البحث عن الجناة ، وأن تنزل بالمجرمين أشد العقوبات.
- ٣- أن تمنع من الآن فصاعدا، وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية .
- ٤- أن تدفع فى الحال غرامة قدرها نصف مليون جنيه إلى الحكومة البريطانية.
- ٥- أن تصدر خلال ٢٤ ساعة الأوامر بإرجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصرى المتجه إلى السودان .
- ٦- أن تبلغ المصلحة المختصة أن حكومة السودان ستزيد مساحة الأطيان التى تزرع فى الجزيرة من ٣٠ ألف فدان إلى مقدار غير محدود تبعا لما تقتضيه الحاجة .
- ٧- أن تعدل عن كل معارضة لرغبات الحكومة البريطانية فى الشئون المتعلقة بحماية المصالح الأجنبية .

وجاء فى المذكرة الثانية التى قدمت فى نفس اليوم مزيد من الطلبات بتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى إلى قوة سودانية مسلحة تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وتحت القيادة العليا للحاكم العام، وبإعادة النظر فى القواعد والشروط الخاصة بخدمة الموظفين الأجانب الذين لا يزالون فى خدمة الحكومة المصرية طبقا لرغبات الحكومة البريطانية^(٢). واستند اللنبى فى تأكيد إنذاره إلى القوة المسلحة ، فاحتلت القوات الإنجليزية جهر ك الإسكندرية واستولت على إيراده ريثما يبت فى أمر الإنذار .^(٣)

(١) محمد شفيق غربال ، تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، الجزء الأول ، ص ١٥٦، انظر كذلك : إبراهيم الهلباوى ، مذكراته ، ص ٢٢٦ ، القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ ، ص ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، نفس المكان ، انظر كذلك القضية المصرية ص ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، تاريخ مصر السياسى ، ص ١٦٤ .

وقد أجاب سعد زغلول على مذكرتى المندوب السامى فى نفس اليوم بمذكرة وافقت فيها الحكومة المصرية على المطالب الأربعة الأولى ، ولكنها لم توافق على باقى المطالب ، فأجاب المندوب السامى على ذلك فى اليوم التالى (٢٣ نوفمبر) بمذكرة جديدة أبدى فيها تمسكه بكافة المطالب ، وأنه قد أرسل التعليمات إلى حكومة السودان لإخراج القوات المصرية من السودان ، ومنحها حرية زيادة الأراضى المروية فى الجزيرة .^(١)

وفى يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ تقدم سعد زغلول للملك فؤاد طلبا باستقالة الوزارة^(٢) ، ووافق الملك يوم ٢٤ نوفمبر على قبول استقالة سعد زغلول .^(٣)

وفى نفس اليوم - ٢٤ نوفمبر - أجابت الحكومة المصرية باحتجاج على تصرفات الحكومة البريطانية ، وأرفقت بالخطاب تحويلا بمبلغ الغرامة .^(٤) كما احتج البرلمان على التصرفات الإنجليزية المناهية لاستقلال البلاد المهددة لحياتها الزراعية والاقتصادية والتي ليست لها أية علاقة بالجريمة ولا نظير لها فى التاريخ، كما أعلن البرلمان تمسكه بالاستقلال التام لمصر والسودان اللذين يكونان وطنا واحدا لا يقبل التجزئة . وتقرر إبلاغ الاحتجاج إلى برلمانات العالم وإلى مجلس عصبة الأمم ، مع طلب التدخل لدفع الظلم عن أمة بريئة تتمسك بحقوقها المقدسة فى الحياة والحرية ولا تبغى عن استقلالها بديلا . إلا أن شكوى مصر فى مجلس العصبة لم تسفر عن شئ - إذ صدرت فتوى بأن العلاقات بين مصر وانجلترا ذات طابع دستورى وليست ذات صبغة دولية ، وأن مصر لا تستطيع أن تستخدم نصوص ميثاق العصبة لتتحرر من التحفظات على تصريح ٢٨ فبراير . وهكذا

(١) يونان ليب رزق - السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول (١٨٩٩-١٩٢٤) ، ص ص ٤٧٤ - ٤٧٥ ، انظر كذلك : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص ١٦٤ ، القضية المصرية ، ص ٢٢٠ - ٢٢٤ .

(٢) وثائق مجلس الوزراء المصرى ، كتاب الاستقالة المرفوع إلى جلالة الملك فؤاد من صاحب الدولة سعد زغلول يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

(٣) وثائق مجلس الوزراء المصرى ، أمر ملكى رقم ٧٦ لسنة ١٩٢٤ بقبول استقالة حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

(٤) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

استغلت انجلترا نفوذها في المجال الدولي لكي تحول دون أن تصبح المسألة المصرية خارجة عن نطاق العلاقات بين الدولتين.^(١)

طلب إخلاء الجيش للسودان

وصلت تعليمات إخلاء الجيش المصري للسودان إلى الخرطوم بإجلاء القوات المصرية من السودان مساء يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ ، فعقد على الفور اجتماعاً في مقر الحاكم العسكري ، لوضع خطة الإخلاء ، وأثناء ذلك وصلت برقية من المندوب السامي بالسماح بإجلاء القوات المصرية بسلاحها ولكن بدون ذخيرتها.^(٢)

ولكي تكون الصورة أكثر وضوحاً لابد أن نوضح وحدات الجيش المصري في مصر والسودان والوحدات المصرية المطلوب سحبها ، وتأثير هذا الانسحاب على زيادة حجم الجيش المصري في مصر نفسها .

وقد ذكر اللورد اللبني في تقرير إلى حكومته بتاريخ أغسطس ١٩٢٤ حجم وحدات الجيش المصري في مصر بالآتي :^(٣)

(أ) ٧ كتائب مشاة توزيعها كالاتي : ١-٣ كتائب في القاهرة قوة كل منها ٢٣ ضابطاً و ٦١٢ من رتب مختلفة وكل فرد معه ٢٠ طلقة ، وهذه الكتائب غير مدعمة بمدافع آلية .
(ب) البطارية الرابعة مدفعية وقوتها ٥ ضباط و ١٣٨ من رتب مختلفة ، وهي متمركزة في القاهرة ، وتسليحها مدفعية جبلية 6-10 pr. B-L. ومعها ١٤٤ دانة شراينل لكل مدفع .

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، تاريخ مصر السياسي ، ص ١٦٥ .

ثارت القوات السودانية تضامناً مع القوات المصرية التي قاومت سحبها مما أدى إلى الاصطدام بين القوات السودانية وبين الإنجليز . وقد اتهم المصريون بأنهم قد تخلوا عن السودانيين بانسحابهم ، علماً بأن انسحاب القوات المصرية إنما تم أمام الضغط ، ولأن مصر لم يكن لها قبل بمقاومة الإنجليز عسكرياً . وفي ١٧ يناير ١٩٢٥ تألفت قوة الدفاع السودانية ، وفي الوقت نفسه سحب معظم الموظفين المصريين .

(٢) يونان ليب رزق ، السودان في عهد الحكم الثنائي الأول (١٨٩٩ - ١٩٢٤) ، ص ٤٧٧ .

(٣) F.O.Public Record office 407- 200 (b) sirdarship of Egyptian Army and command of Sudan. Defence Force and British Troops in the Sudan., August 1924.

ومع البطارية الرابعة المدفعية ولحراستها السرية الثالثة حراسة مدفعية وقوتها ثلاثة ضباط و ٦٤ من رتب مختلفة، وهى متمركزة فى القاهرة أيضا .

(ج) أورطة خيالة قوتها ٦ ضباط و ١٤٨ من رتب أخرى ، وهى متمركزة فى القاهرة ومسلحة بالبنادق والسيوف . ومخصص لكل فرد ٢٠ طلقة .

(د) الحرس الملكى فى القاهرة :

١- عدد ٧ ضباط خياله و ١٥٠ من رتب أخرى، والخيالة مسلحون بالبنادق والسيوف وكمية الذخيرة غير معروفة .

٢- قوة من المشاة تتكون من ٢٢ ضابطا و ٦٠٧ من رتب أخرى، والمشاة مسلحون بالبنادق ويتدعيم من ٢ مدفع فيكرز و ٢ مدفع هوتشكيس Hotchkiss .
(هـ) القوات المعاونة .:

١- قسم الأشغال العسكرية ، وقوته ٦ ضباط و ٤٠ من رتب أخرى وأفراده غير مسلحين .

٢- إدارة الصيانة ، وقوتها ١٢ ضابطا و ١٣١ من رتب أخرى .

٣- القسم الطبى وقوته ١٣ ضابطا و ٩٩ من رتب أخرى .

٤- القسم البيطرى وقوته ضابط واحد و ٩ من رتب أخرى .

٥- إدارة التجنيد وقوتها ٤٤ ضابطا و ٥٨ من رتب أخرى .

(و) مصلحة الحدود :

١- مركز تدريب وسرية الجبال قوتها ٢ ضابط بريطانى و ١٠ ضابط مصرى و ٣٦٥ سودانيا و ١٠٩ مصرى من رتب أخرى .

٢- سرية السيارات الخفيفة وقوتها ضابط بريطانى و ٦ ضباط مصريين ، و ٤٨ مصرى و ١٧ سودانيا من رتب أخرى وتسليح قوات الحدود مدعم بثلاثة مدافع لويس آلية و ١٢,٠٠٠ طلقة لكل مدفع ، و ٣٠٠ طلقة بندقية لكل فرد ، و ٢٤ سيارة فورس .

ووضح اللورد اللنبى حجم الوحدات المصرية فى السودان بالآتى :^(١)

- (أ) ٢ كتيبة مشاة قوة كل منها ٢٣ ضابطا و ٦١٢ من رتب أخرى .
- (ب) ٣ بطاريات مدفعية قوة كل منها ٥ ضباط و ١٥٤ رتبا أخرى، وكل بطارية مسلحة بأربعة مدافع جبلية ٩٥، ٢، Q.F. ٧٦، شربل، ١٤ H.E مع ٦ صناديق ذخيرة لكل مدفع .
- (ج) سرية حراسة مدفعية قوتها ٥ ضباط و ١٠٣ رتب أخرى وهى مسلحة بأربعة مدافع فيكرز .
- (د) كتيبة سكك حديدية فى عطبرة، وقوتها ٢٤ ضابطا و ١٨٠٨ رتب أخرى.
- (هـ) القوات المعاونة :
- ١ - الأشغال العسكرية وقوتها ١٦ ضابطا و ٣٨٨ من رتب أخرى .
 - ٢ - الإمداد وقوتها ٢٠ ضابطا و ١٦٠ من رتب أخرى .
 - ٣ - القسم الطبى وقوته ٢٣ ضابطا و ١٢٤ من رتب أخرى .
- وخلص اللورد اللنبى فى تقريره إلى المجموع الكلى لوحداث الجيش المصرى فى مصر والسودان على الوجه التالى :^(١)
- (أ) ٩ كتائب مشاة قوتهم ٢٠٧ ضابطا و ٥٥٠٨ من رتب أخرى، مسلحون بعدد ٥٥٠٨ بندقية .
- (ب) ٤ بطارية مدفعية قوتها ٢٠ ضابطا و ٦١٦ من رتب أخرى، مسلحون بعدد ٦١٦ بندقية وعدد ١٨ مدفع جبلى .
- (ج) ٢ سرية حراسة مدفعية قوتها ٨ ضباط و ١٦٩ من رتب أخرى، وهى مسلحة بأربعة مدافع فيكرز .
- (د) سرية خيالة قوتها ٦ ضباط و ١٤٨ من رتب أخرى، مسلحون بعدد ١٤٨ بندقية ومخصص لكل فرد ٢٠ طلقة .
- (هـ) الحدود وقوتها ٢٢ ضابطا و ٥٠٧ من رتب أخرى، مسلحون بعدد ٥٠٧ بندقية و ٩ مدافع ثلاثة منها مدافع لويس آلية .

(و) الحرس الملكى :

(١) المشاة وقوته ٢٢ ضابطاً و ٦٠٧ رتب أخرى وعدد أربعة مدافع، اثنين مدفع فيكرز واثنين مدفع هوتشكيس .

(٢) الفرسان وقوته ٧ ضباط و ١٥٠ من رتب أخرى، مسلحون بعدد ١٥٠ بندقية .

(ز) القوات المعاونة: وتتكون من ١٤٥ ضابطاً و ١٠٢٩ من رتب أخرى .

وبذلك يصبح المجموع الكلى لحجم وحدات الجيش المصرى فى مصر والسودان عبارة عن ٤٣٧ ضابطاً و ٨٧٨٤ من رتب أخرى، مسلحون بعدد ٧٥٣٦ بندقية، والباقى مسلحون بالسيف وعدد ١٨ مدفعاً جبلياً و ١٧ مدفعاً فيكرز.^(١)

المقاومة المصرية ضد إخلاء السودان

يوضح الأميرالاي أحمد بك رفعت قائد الطوبجية (المدفعية) فى ذلك الوقت الخطة التى اتبعها الإنجليز فى إجلاء القوات المصرية عن السودان ، فيذكر أنهم تكتموا الأمر الصادر إليهم من اللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى فى مصر حتى يمكنهم السيطرة على الموقف بهدوء وبأقل خسائر ممكنة ، إلا أنه منذ يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ جاءت بعض الأنباء إلى الضباط المصريين بالخرطوم عن إرسال إنذار من الحكومة الانجليزية إلى الحكومة المصرية بمطالب قاسية . وفى مساء ذلك اليوم ظهر ملحق لجريدة الحضارة السودانية موضع به مواد الانذار.^(٢)

وقد اتبع الانجليز خطة مأكرة لإجلاء القوات المصرية عن السودان فأخذوا فى التقرب للمصريين حتى استولوا على مفاتيح مخازن الذخيرة ، ثم حاصروا الوحدات المصرية فى كل مديرية وأفرادها عزل من السلاح والذخيرة ، ثم أجبروهم على الانسحاب إلى مصر . وهكذا تم ترحيل معظم الوحدات المصرية فى السودان إلى مصر . ولكن الأمر

Ibid.

(١)

(٢) وثائق وزارة الدفاع المصرية - وثائق دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وحدة المذكرات والأوراق الشخصية - غير منشورة - ملف رقم ١٩ / ب، مذكرة الأميرالاي أحمد بك رفعت عن أعمال الجيش المصرى فى السودان ومأساة خروجه ، ص ص ٢٧-٢٨.

كان مختلفا بالنسبة لوحدات منطقة الخرطوم البحرية ، وكانت هذه الوحدات مؤلفة من ثلاث بطاريات مدفعية والكتيبة (الأورطة) الثالثة مشاه . فقد استطاع جنود المدفعية المصرية أن يستولوا على الذخيرة من منفذ خاص بعد أن استحوذ الانجليز على المفاتيح الأصلية لمخزن الذخيرة إلا أن القائد البريطاني " ثيروبورن بك " هدد الوحدات المصرية بحصارها من جميع الجهات والإجهاز عليها . وكان قد تم بالفعل ضرب هذا الحصار حول الوحدات المصرية حيث رأوا الجنود المصريين بأعينهم هذا الحصار المستخدم فيه مدافع الماكينة.^(١)

ويذكر الأميرالاي أحمد بك رفعت بأنه اصطحب القائد البريطاني إلى المكتب وهو مطمئن بوجود مفتاح الجبهه خانه (مخزن الذخيرة) في جيبه، وأثناء ذلك تم حصول الجنود المصريين على الذخيرة بأكملها من المخزن دون أن يشعر أحد بذلك من منفذ صغير لم يكن يعلم بمكانه القائد البريطاني ثيروبورن بك . وسرعان ما حصل الجنود والضباط على السلاح حيث تسلحت الوحدات المصرية بالبنادق والمدافع، وأصبح جنود القشلاق في منطقة الخرطوم البحرية جاهزين للقتال.^(٢)

ومن موقف القوة الناجم عن تسليح هذه الوحدات المصرية وحصولها على ذخيرتها - على قتلها - رفضت هذه الوحدات المصرية الانسحاب من السودان بأمر صادر من حكومة السودان ، وكان هدلستون باشا نائب السردار ونائب الحاكم العام في السودان قد أصدر أمرا كتابيا يوم ٢٤ نوفمبر إلى قادة وحدات الجيش المصرى برحيل الضباط والجنود بناء على طلب المندوب السامى بالرغم من اعتراض الحكومة المصرية.^(٣)

وفي هذه المرحلة العصية ، تتضح صورة من الصور المشرفة للعسكرية المصرية ، فعندما طلب نائب السردار الانجليزى من الأميرالاي أحمد بك رفعت تنفيذ الأمر الكتابى بالانسحاب ، أجاب الأخير : " لايمكننى أن أنفذ هذه الأوامر عليهم ، وخير لى

(١) المصدر السابق ، ص ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، فى أعقاب الثورة المصرية ، الجزء الأول ، ص ٢٠٣ .

أن تحاكمونى بمجلس عسكرى أو تكبلونى بالحديد من أن أنفذ هذا الأمر وأكون عنه مسئولاً". إلا أن هدلستون باشا طلب من قائد المقاومة المصرية فى السودان الأميرالاي أحمد بك رفعت عرض الأمر على الوحدات المصرية فى الخرطوم البحرية ، فقام قائد المقاومة بالمرور على هذه الوحدات ، فرفضت الكتيبة الثالثة مشاء تسليم ذخائرها والانسحاب من السودان مهما كانت النتائج . وكان موقف بطاريات المدفعية الثلاثة الرفض أيضا، إذ قال ضباط هذه الوحدات : " خير لنا أن ندافع حتى نموت ولا نترك السودان إلا بأمر من مليكنا وحكومتنا " . وتم إبلاغ هدلستون بهذا الموقف المصرى الصلب .^(١)

وبدأت القوات البريطانية فى تدعيم حصارها للوحدات المصرية ، وبدأت هذه الوحدات بالمقابل فى الاستعداد تحسبا لكل مفاجأة ، هذا رغم الفارق الهائل فى التسليح بين الجانبين . وفى ٢٥ نوفمبر وصل هدلستون إلى مواقع الدفاعات المصرية فى الخرطوم البحرية وكرر أوامره بانسحاب الوحدات المصرية ، إلا أن أحمد بك رفعت طالب بوصول مندوب مصرى من قبل الملك فؤاد ومعه تعليمات من جلالة بالمطلوب ، وأنه حتى مع وصول هذا الانسحاب سيكون بالأسلحة والذخائر وجميع المهمات وبالشرف العسكرى .^(٢)

وفى نفس الوقت أرسل الأميرالاي أحمد بك رفعت برقية إلى الملك فؤاد أوضح فيها أن القوات الانجليزية تحاصر القوات المصرية من جميع الجهات، وأن الذخائر المصرية لا تكفى لمجابهة القوات البريطانية ، ورغم ذلك فإن الضباط والصف ضباط والجنود مصممون على عدم ترك السودان بدون أمر جلالتهم يرسل لهم مع مندوب مصرى أو يموتون عن آخرهم فى قشلاقاتهم .^(٣)

وفى ٢٨ نوفمبر ١٩٢٤ وصل المندوب المصرى البكباشى أمين هيمى الذى انتقل إلى مقر الوحدات المصرية الصامدة فى السودان ، وأوضح الضباط حقيقة الموقف السياسى

(١) مذكرة الأميرالاي أحمد بك رفعت ، المصدر السابق ، ص ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ص ٥١ - ٥٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٥ .

في مصر ، وسلم الأميرالاي أحمد بك رفعت خطاب محمد صادق يحيى باشا وزير الحربية والبحرية المصري القاضى بانسحاب الوحدات المصرية من السودان .^(١)

وقد جاء في هذا الخطاب : " عهدنا فيكم الشجاعة والولاء ولا يداخلنا أى شك في أنكم مستعدون جميعا لإراقة آخر نقطة من دمائكم في خدمة جلاله الملك وفي سبيل الوطن، على أننا نأمركم بأن تكفوا عن مقاومة الإجراءات التى اتخذها نائب حاكم السودان العام لإخراجكم بالقوة من الأراضي السودانية . فإنه ليس من وراء هذه المقاومة سوى سفك الدماء بغير جدوى، وبما أن الحكومة المصرية قد احتجت صريحا على هذا العمل الذى نفذ بالقوة القاهرة، فعودتكم لا يترتب عليها أى مساس لا بحقوق الوطن ولا بشرفكم العسكرى" .^(٢)

وقد أنهى خطاب وزير الحربية والبحرية الموقف كله ، فقد جمع الأميرالاي أحمد بك رفعت ضباط المدفعية والمشاة وأخبرهم بوجوب إطاعة أمر الملك فؤاد بالانسحاب .^(٣)

وهكذا أذعن الضباط والجنود للأمر آسفين محزونين^(٤)، وقامت الوحدات المصرية بالسفر من الخرطوم في أيام ٢٩ ، ٣٠ نوفمبر والأول والثانى من ديسمبر ١٩٢٤ على خمسة قطارات خاصة^(٥)، حيث وصلت الشلال يوم ٥ ديسمبر ، وعلى هذا النحو تم إخلاء السودان من الجيش المصرى .^(٦)

والواقع فإن تنفيذ الإنذار البريطانى كان نصرا بريطانيا على الحركة الوطنية سواء في مصر أو في السودان ، ففى مصر سقطت وزارة سعد زغلول وخلفتها وزارة أحمد زيور

(١) المصدر السابق ، ص ٦٥ ، انظر كذلك أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص ١٦٨ .
(٢) وثائق المحفوظات المركز العسكرى - غير منشورة ، خطاب محمد صادق يحيى باشا وزير الحربية والبحرية إلى الأميرالاي أحمد بك رفعت .

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، في أعقاب الثورة المصرية ، الجزء الأول ، ص ٢٠٣ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

(٥) مذكرة الأميرالاي أحمد رفعت بك ، المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٦) عبد العظيم رمضان ، الجيش المصرى في السياسة (١٨٨٢-١٩٣٦) ، ص ١٨٧ .

باشا^(١) ، الذى لم يكن ليستطيع بماضيه السياسى غير الواضح أن يملأ الفراغ الذى أحدثته غيبة شيخ الساسة المصريين عن رئاسة الجهاز التنفيذى فى مصر.^(٢)

وقد شهد السودان تطورات كبيرة نتيجة لتنفيذ الإنذار البريطانى، فقد حدث ما يمكن أن نسميه بثورة عسكرية فى صفوف أفراد الجيش المصرى من السودانيين احتجاجاً على إبعاد الجيش المصرى من السودان ، ففى مدينة تالودى رفض الضباط السودانيين الانصراف من طابور أبعد عنه المصريون ووقعوا على تعهد بالنزول مع المصريين إلى القاهرة ، إلا أنه تم إلقاء القبض على هؤلاء الثائرين فى محطة كوستى.^(٣)

وفى يومى ٢٧ ، ٢٨ نوفمبر وقعت مواجهة خطيرة بين الكتيبة الحادية عشرة السودانية فى الخرطوم وبعض الوحدات البريطانية وصلت إلى حد الصدام المسلح ، مما أدى إلى مقتل عدد من الطرفين . إلا أنه نتيجة للفارق الكبير فى التسليح بين القوتين ، تمكنت القوات البريطانية من القضاء على تلك المقاومة السودانية ، وفتت من عضد هذه المقاومة انسحاب المصريين أنفسهم من السودان بعد وصول الأمر المصرى لهم بذلك.^(٤)

وفى ١٧ يناير ١٩٢٥ عمدت بريطانيا إلى محاولة سد الفراغ العسكرى الناجم عن إجلاء الجيش المصرى من السودان بإصدار قرار من الحاكم العام الجديد بإنشاء جيش دفاع السودان الذى يدين بالولاء لحاكم عام السودان ، وتقرر أن يخدم الضباط والجنود السودانيون فى الجيش المصرى فى هذا الجيش الجديد^(٥)

وعند إعداد الميزانية المصرية فى عام ١٩٢٥-١٩٢٦ قرر مجلس الوزراء أن " تبقى ميزانية وزارة الحربى للسنة المالية التالية كما كانت فى السنة الحالية ١٩٢٤-١٩٢٥ ، على أن يبين فى الميزانية تفصيلاً ما يخص الجيش المصرى فى مصر ، وما يبقى من المبلغ المدرج فى

(١) محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ، الجزء الأول ، ص ٢١٢ .

(٢) جاد طه ، بريطانيا والجيش المصرى ، ص ٣٥ .

(٣) محمد عبد الرحيم ، الصراع المسلح على الوحدة فى السودان ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٤) يونان ليب رزق ، السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول (١٨٩٩ - ١٩٢٤) ص ٤٨١ .

(٥) أحمد شفيق ، حوليات مصر السياسية - الحولية الثانية (١٩٢٥) ، ص ٥٤ ، انظر كذلك أحمد عبد

الرحيم مصطفى ، تاريخ مصر السياسى ، ص ١٦٨ .

الميزانية يخصص جملة واحدة للجيش الذى فى السودان" .^(١) وتبين أن الباقي هو مبلغ ٧٥٠ ألف جنيه تم تخصيصه سنويا لقوة الدفاع السودانية الجديدة .^(٢)

ولم تكتف بريطانيا بقوة الدفاع السودانية فقط فى السودان ، فلابد من الإبقاء على قوة بريطانية خالصة هناك على غرار جيش الاحتلال البريطانى فى مصر، وإن كانت أقل حجما وتسليحا ، وذلك حتى يمكن لهذه القوة البريطانية الخالصة أن تقوم بالردع المطلوب لأى حركة أو انتفاضة وطنية فى السودان. وبعد عدة دراسات رأى اللورد كافان Cavan فى بداية عام ١٩٢٦ أنه يكفى تخصيص كتية بريطانية خالصة فى السودان ، إلا أن الجنرال هدلستون رأى أنه من الأفضل تخصيص كتيبتين أو كتية ونصف كتية على الأقل حتى خريف ١٩٢٦ ، وأن النصف الباقي من الكتية الثانية إما أن يعود من مصر إلى السودان ، إذا ما حتمت الظروف ذلك ، وإما أن نصف الكتية الباقي فى السودان يتجه إلى القاهرة إذا ما سمحت الظروف بذلك . وبمعنى آخر فإن جناحى الكتية الثانية يجب أن يتحدا فى القاهرة أو فى الخرطوم فى صيف ١٩٢٦ ، وذلك طبقا للظروف القائمة . وقد وافقه الجنرال هوكنج قائد قوات الاحتلال فى مصر على هذه المقترحات.^(٣)

أما بالنسبة للوضعية السياسية للسودان فى هذه المرحلة ، فإن تشمبرلين أوضح عن فهمه بأنه يمكن معاملة السودان كالمستعمرات البريطانية مثل: هونج كونج، أى أن السلطة البريطانية فيه يجب أن تكون سلطة كاملة ، ورغم ذلك " فهو ليس فى الواقع مستعمرة بريطانية، لأنه من الناحية الرسمية هو تحت السيادة المصرية البريطانية ، وتحمل مصر وبريطانيا منذ خمسة وعشرين عاما أعباء التأمين الضرورى لحماية السودان، وإذا كنا ولأسباب تتعلق بمصالحنا فى السودان قد أبعدنا الجيش المصرى عن السودان ،

(١) يونان ليب رزق ، المرجع السابق ، ص ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(2) F.O.Pullic Record office 407-200 (d) Legal status of Army of occupation (J.478/32 / 16) No. 201 / Foreign office to Law officers of the Crown Meroyn Herbert. F.O.Febuary 27, 1925.

(3) F.O.P.R.O. 407-201 I bid ., (I. 2081/2/16) No. 124 sir G.F.Archer Governer - General of the Sudan to F.O. Sudan (١)Government, London office July 18,1925.

فإن هذا العمل لايعطينا حق معاملة السودان كمستعمرة بريطانية، وأن نتحمل النفقات المالية للحماية البريطانية^(١)

وهكذا ابتعد الجيش المصرى عن السودان ، وتكونت القوة العسكرية السودانية التى تكفلت بسد الفراغ الناتج عن انسحاب الجيش المصرى من السودان، والتى ظلت الحكومة المصرية تساهم بمبلغ ٧٥٠ ألف جنيه سنويا فى الإنفاق عليها.

وكان الانجليز يريدون أن يتخذوا من مقتل السردار ذريعة لفصل السودان عن مصر فصلاً تاماً - كانوا يريدون أن يتهادوا فى فصله عن مصر ، علاوة على ما فعلوه من طرد الجيش المصرى وقطع علاقات مصر العسكرية به والاستقلال بإدارة شئونه - فلم يبق لمصر من العلاقات مع السودان إلا تلك العلاقة المالية الخاصة بمبلغ العجز فى ميزانية السودان الذى تدفعه مصر سنويا- ومفروض أن ميزانية السودان شىء مقرر لمصلحة السودانيين ، فأراد الانجليز قطع هذه العلاقة أيضا حتى لاتصبح لمصر أية صلة به ولا حاجة لها للتدخل فى شئونه . وخاف إسماعيل صدقى - وزير الداخلية الذى دخل الوزارة يوم ٩ ديسمبر ١٩٢٤ والشخصية المحركة للانقلاب السياسى الذى تلا استقالة سعد زغلول - من عاقبة هذا العمل ، فعمل على بقاء هذا المبلغ الذى تدفعه مصر للسودان ، ونجح فى ذلك واعتبره فوزاً لمصر، كما أنه حصل من الحكومة الإنجليزية على تعهد بأنها لاتنوى مطلقا الافتتاحات على ما لمصر من حقوق تاريخية وطبيعية فى مياه النيل^(٢).

وعلى أثر استقالة سعد زغلول تألفت وزارة أحمد زيور باشا يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤^(٣)، وشعارها: "إنقاذ ما يمكن إنقاذه" . قبل زيور المطالب الإنجليزية فسلم بها

(1) F.O.P.R.O. 407-201 I bid., (J. 2081/2./16) Enclosure in No. 124 Memorandum by G.F.Arche (Governor-General (٢) of the Sudan , London July 9, 1925.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، تاريخ مصر السياسى ، ص ص ١٦٨ - ١٦٩ ، انظر كذلك : إسماعيل صدقى - مذكرات إسماعيل صدقى ، ص ص ٣٠ - ٣١ ، عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية الجزء الأول ، ص ١٥٩ .

(٣) وثائق مجلس الوزراء المصرى ، أمر ملكى رقم ٧٧ لسنة ١٩٢٤ صادر من الملك فؤاد إلى حضرة صاحب الدولة أحمد زيور باشا بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ .

يختص منها بنظام الموظفين الأجانب ، وسلطة المستشارين القضائية والمالية . واعتقلت السلطات العسكرية البريطانية جماعة من المصريين ، واتصل القسم الأوروبي بوزارة الداخلية مباشرة بالمديرين لإبلاغهم تعليمات المندوب السامي بشأن المحافظة على أرواح الأجانب.^(١)

وحل البرلمان في ٢٤ ديسمبر ١٩٢٤ وأوقف الدستور . ونكلت حكومة أحمد زيور باشا بخصوصها تنكيلا شديدا ، وتعرضت للحقوق والحريات بشكل لا يرضى الحق ولا العدالة ولا الضمير ، وأخذت تغرى الناس بالوعد والوعيد لكي تضم أكبر عدد إلى حزب الاتحاد الذي تألف برياسة يحيى باشا إبراهيم . وهكذا أعدت العدة للانتخابات الجديدة وللمعركة القادمة بين إسماعيل صدقي والوفد . ورغم ما كان سعد لا يزال يتمتع به من شعبية إلا أن أحداث الفترة المنصرمة قد نالت منه بعض الشيء - فإن حكومته قد استتارت حفيظة عدد لا بأس به من الموظفين بسبب محاباته لأنصاره . كما أن مواقفه الصلبة إزاء القصر قد استتارت حفيظة بعض أنصاره . ثم إن هيئته قد نالت منها الأحداث التالية لمقتل السردار : فاستقالته السريعة بدت للبعض على أنه تنصل من المسؤولية لا يصح أن يصدر عن زعيم . على أنه من الناحية المقابلة كان لا يزال يستند على شعبيته الأسطورية التي امتزجت فيها الحقيقة بالتمنى والخيال - وهى الشعبية التى عول إسماعيل صدقي على أن يوجه إليها ضرباته المباشرة .^(٢)

وفي مارس ١٩٢٥ جرت الانتخابات على درجتين بدلا مما أصر عليه الوفد من جعلها على درجة واحدة . وحين تمت الانتخابات أعلنت الوزارة أن الأحزاب غير الوفدية نالت الأغلبية وأنها قررت الاستمرار فى الحكم مع تعديل أعضائها . وبقي أحمد زيور فى الرياسة وخرج من الوزارة الوزيران الوفديان عثمان محرم وأحمد خشبة ، ودخلها وزراء من حزبى الأحرار الدستوريين والاتحاد إلى جانب بعض المستقلين . ولما أجريت الانتخابات لرياسة مجلس النواب نال سعد زغلول ١٢٣ صوتا ونال عبد الحالى ثروت

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص ١٦٨ ، انظر كذلك عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية - ثورة ١٩١٩ ، الجزء الأول - طبعة دار الشعب ١٩٦٩ ، ص ص ١٥٥ - ١٥٧ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر السياسى ، ص ١٦٩ .

٨٥ صوتا . فاستقال أحمد زيور ورفض الملك فؤاد قبول استقالته ووقع مرسوما بحل مجلس النواب - فكان عمره أقصر مدة انعقد فيها مجلس النواب في مصر ، وربما في تاريخ المجالس النيابية في العالم - إذ لم يزد عمره على ثمانى ساعات .^(١)

وتلا ذلك استقالة اللورد اللنبى في مايو سنة ١٩٢٥ ، وتعيين اللورد جورج لويد مندوبا ساميا ، وكان من غلاة الاستعماريين الانجليز واتجه إلى التشبه بكرومر - لدرجة أنه حاول محاولة مقصودة أن يجعل من كتابه " مصر منذ كرومر " تكملة لكتاب " مصر الحديثة " الذى وضعه كرومر .^(٢)

ولم تلبث وزارة أحمد زيور باشا أن تعرضت لهزة أطاحت بها جاءت من وراء كتاب "الإسلام وأصول الحكم " للشيخ على عبد الرازق . والكتاب بحث في الخلافة الإسلامية حاول مؤلفه أن يدلل فيه على أن الخلافة نظام ليس من صميم الإسلام . وفكرة كهذه - ظهرت في الوقت الذى كان فيه مصير الخلافة لايزال يشغل المسلمين - كان لابد أن تثير رأى العام المصرى ، وأن تحدث حدثا في السياسة المحلية ، خاصة وأن الملك فؤاد كان يطمح إلى الخلافة لنفسه ، وأن صاحب البحث من أسرة بارزة في حزب الأحرار الدستوريين . وأدت الأزمة المترتبة على الكتاب إلى إقالة عبد العزيز فهمى وزير الحقانية وأحد أقطاب حزب الأحرار الدستوريين يوم ٥ سبتمبر ١٩٢٥ ، ثم خروج الوزراء الدستوريين جميعا من وزارة أحمد زيور التى اقتضرت على الاتحاديين والمستقلين . ثم استصدرت الوزارة مرسوما ملكيا يجبر كل التنظيمات السياسية على الإفصاح عن تفاصيل برامجها وفروعها وعضويتها ، على أن تكون هذه التنظيمات تحت إشراف الحكومة وإلا تعرضت للحل .^(٣)

واحتج الوفديون والأحرار الدستوريون وأعضاء الحزب الوطنى على هذا الإجراء وأعلنوا رفضهم لشروطه . ثم دعوا البرلمان - طبقا للدستور - إلى اجتماع عقد في ٢١

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) Adam, C.F. Life of George Lloyd, PP.205-207.

(٢)

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٧٠ . وسوف نوضح الأسباب الحقيقية لإرسال لويد إلى القاهرة بدلا من اللورد اللنبى .

نوفمبر ١٩٢٥ في فندق الكونتنتال - إذ كان الجيش يحتل البرلمان . وهناك احتجوا على تصرفات الوزارة المخالفة للدستور ، وقرروا عدم الثقة بها واعتبار دور انعقاد البرلمان قائماً قانوناً . ولعله من الغريب أن يشترك الأحرار الدستوريون في الاحتجاج وهم الذين أيدوا وزارة أحمد زيور وصدر قرار حل مجلس النواب وهم في الحكم ، فلم يحتجوا على ذلك بأي شكل .^(١)

هناك أثر اللورد لويد أن يتدخل بعد أن لم يبق لوزارة زيور ما يرر وجودها بعد قبولها التنازل عن واحة جغبوب لإيطاليا في ٦ ديسمبر ١٩٢٥ . ففى أواخر عام ١٩٢٥ جرت بين وزارة زيور وبين الإيطاليين مفاوضات لإنهاء مسألة الحدود الغربية والبت في أمر واحة جغبوب . وكان هم الوزارة أن تحصل على خليج السلوم وعلى الهضبة التى تعلو السلوم والمنطقة التى حولها إلى بلدة بردية غرباً . وكان الإيطاليون قد احتلوا هذا المكان الذى يشرف على هذه المدينة المصرية ، وهو طريق الدخول إلى مصر من ناحية الغرب . أما الإيطاليون فكانوا يهتمون بالاحتفاظ بواحة جغبوب التى بها ضريح للسوسيين تنبعث منه حسب اعتقادهم تعاليم ضد سياستهم وحكمهم في طرابلس تخلق لهم المشكلات . وكان من حجة مصر في ملكيتها للواحة أن إنجلترا ذاتها اعترفت أثناء الحرب العالمية الأولى بملكيتها لمصر في معاهدة شاليوت التى عقدتها مع السوسيين . أما حجة الإيطاليين فهى أنهم ورثة الأتراك في ولاية طرابلس بها فيها واحة جغبوب ، وأنه بينما كان السوسيون يدينون بالولاء للدولة العثمانية كان الولاة الأتراك يعدونها واقعة في نطاق ولاية طرابلس - بل إن بعض الكتب الجغرافية المقررة في مدارس وزارة المعارف المصرية وضعت جغبوب في خريطة طرابلس . وبرر إسماعيل صدقى - الذى قام بالمفاوضات عن الجانب المصرى - تنازله عن جغبوب بأنها ذات أهمية من الوجهة العسكرية بمقارنتها بالمنطقة الشمالية المشرفة على السلوم .^(٢)

أما خصومه فقد ذهبوا إلى أن مصر لم تعوض عن خسارتها لجغبوب بشيء يذكر . وأبى البرلمان المصرى أن يبرم المعاهدة التى نفذت بالفعل . بل لم تنقطع القوات الإيطالية

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) إسماعيل صدقى ، مذكرات إسماعيل صدقى ، ص ٣١ - ٣٢ .

فى طرابلس عن الإغارة على الحدود المصرية واقتحامها من آن لآخر واحتلال أراضيها بحجة مطاردة الفارين من الثوار الطرابلسيين . وكانت إيطاليا تسعى إلى تسوية حدودها الطرابلسية على حساب مصر ، وإلى السيطرة على طرق القوافل الممتدة من مصر نحو الغرب ، ثم إلى شمال السودان الغربى تحقيقا لأغراض حربية وتجارية - وقد حققت بعض غاياتها بعقد المعاهدة مع مصر والاستيلاء على جغوب ، ثم لم تكف بذلك بل احتلت واحة الكفرة فى عام ١٩٣١ .^(١)

وقد أبدى جورج لويد أنه إنما يتدخل لمنصرة الحكم النيابى : فبدأ بالعمل على إقصاء حسن نشأت عن الديوان الملكى بحجة أنه يناصب الحكم النيابى العداء . ثم استقر رأى على إجراء الانتخابات العامة . واتفقت الأحزاب المعارضة للحكومة على تقسيم الدوائر فيما بينها - وفاز الوفدون بـ ١٦٥ مقعدا والدستوريون بـ ٢٩ مقعدا والحزب الوطنى بخمسة مقاعد .^(٢) واستقالت وزارة أحمد زيور باشا فى ٧ يونيه ١٩٢٦^(٣) ، وحال لويد دون ترأس سعد زغلول للوزارة الجديدة بحجة أنه مسئول عن مقتل السردار بسبب ما أثارته وزارته من تهيج للخواطر ضد الإنجليز .^(٤) وتم الاتفاق على أن يرأس سعد زغلول مجلس النواب ، وأن يكون عدلى يكن رئيسا للوزارة الائتلافية التى اشترك فيها الوفدون والأحرار الدستوريون . كما تم الاتفاق على أن يتولى عبد الخالق ثروت وزارة الخارجية .

ولم يجد البريطانيون فى ذلك الوقت غضاضة فى أن يروا أن التدريب الحربى والأسلحة المملوكة للجيش المصرى فى سنة ١٩٢٥ مناسبة للتعامل مع أى موقف داخلى - وأن نقص الأسلحة الحديثة فى الجيش المصرى يعد حسنة وليس نقيصة ، وأن التدريب على

(١) محمد حسين هيكل وآخرون ، السياسة المصرية والانقلاب الدستورى ، ص ص ١٠١ - ١٠٣ .

(٢) Lioyd, George, Egypt since Cromer, 2 vols, PP.158-159. (٢)

(٣) وثائق مجلس الوزراء المصرى ، كتاب الاستقالة المرفوع إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد من حضرة صاحب الدولة أحمد زيور باشا بتاريخ ٧ يونيه سنة ١٩٢٦ .

(٤) Lioyd, George., I bid . (٤)

الأسلحة التي في يد الجيش المصرى فى ذلك الوقت كاف لمواجهة الاضطرابات دون إراقة حمامات دم بين المتظاهرين . وقد انتهت الحكومة البريطانية إزاء كل هذه الاعتبارات الصادرة من جانبها إلى رفض السماح لمصر برفع كفاية جيشها .^(١)

وبالنسبة لأسلوب الإدارة فى الجيش المصرى فقد كان الفريق سبنكس باشا - مفتش عام الجيش - مسئول عن تدريب الجيش المصرى وتمرينه عسكريا ، ولهذا الغاية عليه التفتيش على جميع جنود الجيش الموجودة فى القطر المصرى وتقديم التقارير عن تمرينها وكفاءتها وأيضا الحصول على الأخبار الخاصة بها ، وهو واسطة المخابرة بين الجيش المصرى فى القطر المصرى والسردار بواسطة رئيس أركان حرب والادجوتانت جنرال فى جميع الشئون الخاصة بالتدريب والضبط والربط والتحركات ، وهو مسئول عن العلاقة بين الجنود الانجليز فى القطر المصرى وبين الجيش المصرى فى القطر المصرى . ووفقا للاختصاص المعقود لمفتش عام الجيش ، فإنه كان مالكا لزام أمور الجيش تماما .^(٢)

ولقد جرى العرف مدة طويلة فى تشكيل الوزارات المصرية على أن لايعين وزير خاص لوزارة الحربية ليخلو الجو فيها للسردار أو نائبه ، ومفتش عام الجيش من بعده - كما كان وزير الأشغال وزيرا للوزارتين " الحربية والأشغال " - ولم تكن للوزير من السلطة إلا ما نص عليه القانون المالى فى شئون الموظفين المدنيين فى الوزارة من تعيين أو تثبيت أو غير ذلك - بل إنه حتى فى هذا فإن سلطته لم تكن مطلقة بل كان منفذا لما يقرره السردار ومستشاروه فى شأن هؤلاء الموظفين .^(٣)

إنشاء مجلس الجيش ولجنة الضباط

وفضلا عن السلطات المخولة لمفتش عام الجيش وفقا لاختصاصاته - فقد خرج "محمد صادق يحيى باشا" وزير الحربية فى حكومة أحمد زيور باشا الأولى " ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ - ١٣ مارس ١٩٢٥ " بمرسوم بإنشاء مجلس الجيش ولجنة الضباط استهدف من

(١) F.O. 407/122, Quarterly report. No. I. On the Egyptian Army Date 4 April 26th 1937.

(٢) Ibid.

(٣) يونان ليب رزق ، تاريخ الوزارات المصرية ١٨٧٨ - ١٩٥٣ ، ص ٢٨٢ .

إنشائها في الظاهر نقل سلطة المفتش العام للجيش إليهما - وهو ما استبعد حدوثه في عهد " أحمد زيور باشا " الذي كانت تسيطر عليه فكرة ضرورة العمل على توجيه ضربة ساحقة إلى " سعد زغلول وأنصاره " إذا أريد للبلاذ إدارة كريمة ونظاما مستتباً وعلاقات ودية مع بريطانيا ^(١) - لكن تشكيل هذا المجلس واللجنة كان يبين أن أى قرارات لم تكن لتصدر دون مصادقة البريطانيين المهيمنين عليها .

ذلك أن مجلس الجيش تشكل من وزير الحربية رئيساً ، ومن وكيل الوزارة ، وسردار الجيش ، والمفتش العام للجيش ، والمدير العام لمصلحة أقسام الحدود أعضاء - ومن أربعة أعضاء يختارون من كبار ضباط الجيش المتقاعدين . واختص هذا المجلس بإبداء الرأى فى قوات الجيش وتشكيله ، ونظام هيئة رئاسة الجيش (أركان حرب) وتشكيلها ونظام الأسلحة المختلفة وتشكيلها ، وتقسيم البلاد إلى أقسام أو مناطق عسكرية ، ونظام هذه الأقسام أو المناطق وترتيب القيادة فيها ، التجنيد ، تسليح الجيش وإمداده بما يلزمه من المهات الحربية وبما يلزمه من الأغذية ، هيئة ما يلزم للجيش من الملابس ووسائل النقل ، الثكنات والأبنية الحربية الأخرى ، والتعليم العسكرى وعلى وجه الخصوص برامج المدارس الحربية ونظام البعثات المدرسية العسكرية فى البلاد الأجنبية ، وإنشاء الاستحكامات . وعلى العموم تنظيم الدفاع عن البلاد ، بالإضافة إلى ما عدا ذلك من المسائل التى يرى الوزير محلاً لعرضها على المجلس . ^(٢)

أما لجنة الضباط فقد تشكلت من وكيل وزارة الحربية والسردار والمفتش العام للجيش - واختصت بتعيين الضباط أيا كانت درجاتهم وترقياتهم وإحالتهم على الاستيداع والمعاش أو رقتهم ، ومنح الأوسمة والأنواط والميداليات الحربية والمكافآت الأخرى لمن يستحقها من الضباط ، واختيار أعضاء البعثات المدرسية العسكرية . ^(٣)

(١) وثائق دار المحفوظات العسكرية للقوات المسلحة ، مرسوم بإنشاء مجلس الجيش ولجنة الضباط ، ملف رقم ٥٧٠ / ٢٥ سرى جدا ، انظر كذلك السجل التاريخى لوزارة الدفاع ، ص ص ٦٨ - ٦٩ .

(٢) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، السجل التاريخى لوزارة الدفاع ، ص ٦٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٠ .

فإذا ما تناولنا مجلس الجيش من حيث التشكيل نجد أن السردار وهو بريطاني والمفتش العام للجيش وهو بريطاني والمدير العام لمصلحة الحدود وهو بريطاني - في مواجهة وزير ووكيل وزارة الحرية لاحول لهما ولاقوة بحكم وجود الاحتلال البريطاني والسيطرة البريطانية وخضوع الوزارات المصرية . ومحصلة ذلك أن أيا من الاختصاصات الممنوحة لمجلس الجيش لم يكن متيسرا إبداء رأى فيها إلا للإدارة البريطانية بالجيش . وبالنسبة للجنة الضباط - فيمكن القول أنها كانت بريطانية بحتة - ذلك أن المصرى الوحيد فيها كان وكيل وزارة الحرية - إلى جانب السردار والمفتش العام - ولم نسمع فى تاريخ السياسة المصرية عن وكيل وزارة فى العشرينيات أو الثلاثينيات عارض سياسة البريطانيين . بل إنه بالنسبة للسردار فى مجلس الجيش ، وفى لجنة الضباط - لم تقو حكومة ما على شغل مكانه بمصرى طوال الفترة من ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ وحتى عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ - واستمر المفتش العام للجيش شاغلا الوظيفتين دون معارض .

ونخلص من هذا أن إدارة الجيش وكل ما يتصل به كان حكرا على الضباط البريطانيين معززين بالاحتلال البريطانى - ولم يكن هناك والأمر كذلك - أى فرصة لهذا الجيش فى الحصول على سلاح أو زيادة عدده .

تدعيم الجيش المصرى وتسليحه

كانت حكومة سعد زغلول باشا قد طالبت بزيادة عدد الجيش وتدعيمه وتسليحه بأحدث الأسلحة والمعدات ، بل إن سعد زغلول طالب بتولى الضباط المصريين ، مسئولية قيادة الجيش بدلاً من الضباط البريطانيين . ومع بداية عام ١٩٢٥ ورحيل حكومة سعد زغلول أوضحت الحكومة المصرية عن رغبتها فى تطوير تسليح الجيش المصرى وزيادة عدد أفراد . وقد سمح فى ذلك الوقت للحكومة المصرية بعد موافقة المندوب السامى اللورد اللنبى بشراء ٦ قطع مدفعية آلية (رشاشات) من السلطات الحرية البريطانية . وبعد ذلك بوقت قصير سمح للحرس الملكى المصرى بأن يشتري على نفس المنوال قطع آلية لهذه القوة . وفى إبريل من السنة نفسها (سنة ١٩٢٥) تم اتصال آخر بالسلطات البريطانية فى مصر لشراء ٦ قطع آلية أخرى للحرس الملكى.^(١)

F.O.P.R.O. 407-200 (C.), No. 187.

(١)

انظر كذلك وثائق المحفوظات المركزية العسكرية للقوات المسلحة - وثائق لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وحدة التسجيلات مع القادة والزعماء والمسئولين - تسجيل مع فؤاد سراج الدين باشا بتاريخ ١٥ مايو ١٩٧٧ .

ونتيجة لمقتل السير لى ستاك وإخلاء الجيش المصرى للسودان ، فإنه تم إعادة كتيبتين مشاه ، وثلاثة بطاريات مدفعية إلى مصر ، ومعها عدد كبير من الضباط المصريين الذين كانوا يخدمون فى الكتائب السودانية . وخوفاً من أن يقوم هؤلاء الضباط بأعمال التمرد فى القاهرة ، فإنه تقرر امتصاصهم وذلك بزيادة الجيش المصرى بكتيبتين مشاه وكذلك ببطارية مدفعية أو أكثر.^(١) ويؤكد المندوب السامى أن الملك فؤاد هو الذى رغب فى زيادة الجيش المصرى من ناحية الأفراد ، وأن الفكرة جاءت منه شخصياً ، خصوصاً وأن إسماعيل صدقى باشا أبلغه أنه لاهو ولا رئيس الوزراء يوافقان على هذا الاقتراح.^(٢) وقد أوضح المستر تشمبرلن عن قلقه للمندوب السامى بالنسبة لهذه المسألة ، وأمره بإرسال أية معلومات خاصة بهذا الموضوع بصفة فورية إلى لندن وذلك حتى^(٣) تجد الحكومة البريطانية الوقت الكافى لاتخاذ الإجراءات المناسبة .^(٤) والواقع فإنه - فى هذه المرحلة - ونتيجة لعدم موافقة المندوب السامى على هذه الزيادة فى وحدات الجيش المصرى ، فإن المشروع لم يجد سوى تأييد ضعيف فى مجلس الوزراء المصرى .^(٥)

حجم الجيش المصرى عام ١٩٢٥

ذكر الجنرال سبنكس باشا المفتش العام للجيش المصرى فى ١٦ ابريل ١٩٢٥ ، حجم الجيش المصرى فى ذلك الوقت وتأثير عودة وحدات الجيش المصرى من السودان إلى مصر على الوجه التالى :^(٦)

- (1) F.O.P.R.O. 407-200 (C.) (1201/133/16) Enclosure 2 in No. 187 op, cit.
- (2) F.O.P.R.O. 407-200 (C.) (1201/133/16) No. 185 Field Marshal viscount Allenby to Mr. Austen Chamberlain, Cairo February 18, 1925).
- (3) F.O.P.R.O. 407-200 (C.) Mr. Austen Chamberlain to Field Marshall viscount Allenby. F.O. April 4, 1925.
- (4) F.O.P.R.O. 407-200 (C.) (J. 1458/133/16) Enclosure in No. 191 Memorandum on Increase in Numbers and Weapon Efficiency of Egyptian Army. Sir L. Worthington- Evans to Mr. Austen Chamberlain, War office, May 21, 1925.
- (5) F.O.P.R.O. 407-200 (C.) (J. 1458/133/16) No. 187 Field Marshal viscount Allenby to Mr. Austen chamberlain (No. 287) Cairo, April 18, 1925.
- (6) F.O.P.R.O. 407-200 (C.) (J. 1458/133/16) Enclosure 3 in No. 187, Note by Inspector- General of Egyptian Army. War office, Egyptian Army, Cairo, April 16, 1925.

١- حجم الجيش المصرى بدون الحرس الملكى :

أورطة خيالة	١٥٥	فردا من كل الرتب.
بطارية مدفعية	١٦٢	فردا من كل الرتب.
سرية حراسة مدفعية	١١٦	فردا من كل الرتب.
٧ كتائب مشاه	٤٤٤٥	فردا من كل الرتب.
المجموع	٤٨٧٨	فردا من كل الرتب.

٢- حجم الوحدات المصرية التى كانت فى السودان :

٣ بطارية مدفعية	٤٦٥	فردا من كل الرتب.
سرية حراسة مدفعية	١١٦	فردا من كل الرتب.
٢ كتيبة مشاه	١٢٧٠	فردا من كل الرتب.
المجموع	١٨٥١	فردا من كل الرتب.

٣- وبجلاء الوحدات المصرية من السودان زادت قوة الجيش فى مصر، وأصبحت على الوجه التالى :

كل رتب قوة الجيش المصرى الموجودة فى مصر ٤٨٧٨

كل رتب قوة الجيش المصرى التى كانت فى السودان ١٨٥١

وبذلك يكون حجم الجيش المصرى شامل الوحدات العائدة من السودان ٦٧٢٩ فردا.

٤- تم تخصيص الوحدات الآتية فى ميزانية عام ١٩٢٥ / ١٩٢٦ ، ك وحدات مضافة :

سرية خيال تشتمل على ١١٥ فردا من كل الرتب .

٢ كتيبة مشاة (تجهيز ممتاز) تشتمل على ١٦٩٤ فردا من كل الرتب.

وبذلك يكون حجم الوحدات المضافة فى ميزانية ١٩٢٥ / ١٩٢٦ هو ١٨٤٩ فردا.

كما خصصت ميزانية عام ١٩٢٥ / ١٩٢٦ ، إعادة تسليح بطارية مدفعية بأربعة مدافع هاوتزر ٧ ، ٣ بوصة بدلا من المدفعية الجبلية . 10Pr. المسلح بها الجيش المصرى فى ذلك

الوقت ، وهناك مدفعان هاوتزر ٣,٧ بوصة قد صدرت التعليمات من لندن بإرسالها بالفعل. وكذا تشكيل ١١ فصيلة مدافع فكيرز آلية بواقع مدفعين لكل كتيبة مشاة .

٥- حجم الحرس الملكى :

سرية خيالة	١٥٧	فردا من كل الرتب.
كتيبة مشاة	٦٢٩	فردا من كل الرتب.
المجموع	٧٨٦	فردا من كل الرتب.

إلا أن المشاة فى الحرس الملكى تمت زيادتها مؤخرا بإثني جندى ، وكذلك تم تدعيمها بمدفعين فيكرز، وكذلك بمدفعين هوتشكيس Hotchkiss، ويضاف إلى ذلك أن سلطات القصر كانت تفاوض فى ذلك الوقت لشراء ٦ مدافع آلية لويس من الجيش البريطانى .

٦- إدارات الجيش :

إدارة التجنيد	١٠٦	فردا من كل الرتب.
إدارة التنظيم والمناطق	١١٧	فردا من كل الرتب.
قسم الأشغال العسكرية	٦٦١	فردا من كل الرتب.
إدارة الإمداد والتموين	٢٢٤	فردا من كل الرتب.
إدارة الصيانة	٣٠٧	فردا من كل الرتب.
القسم الطبى	٥٥٤	فردا من كل الرتب.
القسم البيطرى	٨٧	فردا من كل الرتب.
المجموع	٢٠٥٦	فردا من كل الرتب غير مقاتلين

والخلاصة أنه بتشكيل الوحدات الجديدة فإن المجموع النهائى لأفراد الجيش المصرى سيصبح : ٢ سرية خيالة ، ٤ بطارية مدفعية ، ٢ كتيبة مشاة مسلحة بتسليح ممتاز ، ٩ كتائب مشاة مسلحة بتسليح تقليدى ، الحرس الملكى يبلغ ٩٦٨ فردا، وإدارات الجيش المختلفة تبلغ ٢٠٥٦ فردا ... ومجموع كل هذه الوحدات يبلغ ١١٦٢٠ فردا .

وفي مجال تقسيم هذه الأسلحة الآلية ، لا يجب أن نخضعها للمعايير الحالية في التسليح ، فالواقع أن (الرشاشات) كانت في ذلك الوقت بمثابة ثورة في تسليح الجيش المصري بالنسبة للتسليح الذي كان قائما .

وعلى أية حال ، وافق المندوب السامي - بعد تباحثه مع قائد قوات الاحتلال - على بيع هذه الأسلحة المتطورة - حينذاك - للحكومة المصرية ، بعد أن توصل إلى قرار بأنه من الأفضل للبريطانيين بيعها لها مع إمدادها بالذخيرة ٢ بدلا من أن تقوم الحكومة المصرية بالحصول عليها من إيطاليا أو فرنسا أو أية دولة أخرى ، وذلك في حالة استبعاد السلطات البريطانية من القيام بالتفتيش على القطار المباع أو كمية الذخيرة التي في حوزة الجيش المصري واللازمة لتشغيل هذه المدافع .^(١) كما أن اللورد اللنبي استبعد احتمال حدوث نزاع مسلح بين قوات جيش الاحتلال والجيش المصري في ذلك الوقت ، هذا بالإضافة إلى أن " الحكومة المصرية سوف تتعرض للهجوم في البرلمان وعددها ٢٢ مدفعا ، بينما المطالبة بأكثر من هذا العدد يمكن رفضها بسهولة لعدم تضمن الميزانية مخصصات لها " .^(٢)

ومن ناحية أخرى ، وطبقا لرأى قائد قوات الاحتلال في مصر ، فإن سعد زغلول لم يكن قد بدأ بعد بمجهوداته كي يستميل الضباط المصريين إلى جانب الحركة الوطنية . وهكذا استخلصت السلطات البريطانية في مصر بأنه ليس هناك من سبب يدعو للاعتقاد بأن الجيش المصري قد يتحول إلى عداء وشيك للقوات البريطانية .^(٣) هذا بالإضافة إلى أن السيرلى ستاك نفسه قد أشار في عام ١٩٢٤ وقبل مقتله إلى أن " المدافع التي في حوزة الجيش المصري الآن هي قديمة ، وأن هناك صعوبة كبرى في الحصول على ذخيرة لها " .

(1) F.O.P.R.O 407-200 (C) size and Armament of Egyptian Army. (J. 1201/133/16) Enclosure 2 in No. 187.

Memorandum on the Military situation in Egypt, R.Haking Lieutenant General, Commanding British Troops in Egypt. April 12, 1925.

(2) F.O.P.R.O 407-200 (C) (J. 1396/133/16) No. 190 Field Marchal viscount Allenby to Mr. Austen chamberlain.

(No. 327) Cairo, May 6.1925.

(3) F.O.P.R.O 407-200 (C) (J. 1201/ 133/ 16) Enclosure 2 in No. 187. op. Cit.

والسير لى ستاك هو الذى أوصى الحكومة المصرية باختيار المدفع الهاوتزر ٧, ٣ بوصة البريطانى عند إعادة تسليح المدفعية ، ومن وجهة النظر البريطانية ، فإنه من الصعوبة بمكان منع المصريين من اتباع مشورة السير لى ستاك . إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن هذه المدافع ستكون عديمة الفائدة حتى يتعلم أفراد المدفعية كيفية استعمالها وهذا لا يمكن أن يتم قبل إنشاء مدرسة المدفعية .^(١)

كان لابد - من وجهة النظر البريطانية - من التحرى عن الأسباب الحقيقية للمطالبة المصرية بزيادة قوة مصر العسكرية ، والتأكد من أن هذه الزيادة لن تستمر حتى تصبح خطرا إذا لم يكن بالضرورة مهددا للقوات البريطانية فى مصر ، فإنه من المؤكد أنه سوف يهدد الحكومة المصرية ذاتها ، وذلك فى حالة ما إذا استخدم الجيش المصرى كسلاح سياسى . وليس هناك من شك فى أن هذا التصور له ما يبرره " فهناك رغبة واضحة لدى الوطنيين المصريين لخلق جيش قوى بدرجة كافية حتى يمكن استخدامه فى تحقيق أغراض سياسية ، وكأسلوب للضغط به على الحكومة المصرية وعلى السلطات البريطانية ، والصحف المصرية مليئة بالمقالات التى تنادى بوجوب أن تكون لمصر قوات مسلحة مناسبة لها كدولة كبيرة وقادرة على الدفاع عن استقلالها وحقوقها " .^(٢)

وكانت الحكومة المصرية - بعد موافقة المندوب السامى - قد ضمنت فى ميزانية وزارة الحرية للعام ١٩٢٥/١٩٢٦ بندا يسمح بتشكيل ١١ فصيلة مدفعية آلية بواقع ٤ مدافع لكل فصيلة، وكذلك تشكيل بطارية مدافع هاوتزر ٧, ٣ بوصة^(٣)

ومفهوم أن كل فصيلة مدافع آلية سوف تدعم كتيبة مشاة . إلا أن السلطات البريطانية فى مصر رأت أن تشكل كل فصيلة مدافع آلية من مدفعين فقط وليس من أربعة مدافع كما تقضى بذلك التنظيمات التى كان يسير عليها الجيش البريطانى نفسه ، وذلك كمحاولة لتخفيض التسليح المصرى بهذه الأسلحة المتطورة.^(٤)

(1) F.O.P.R.O 407-200 (C) (J. 1458/133/16) No. 193 Mr. Austen Chamberlain to sir L. Worthington - Evans. F.O. May 27, 1925.

(٢) جاد طه ، بريطانيا والجيش المصرى ، ص ص ٥٠ - ٥١ .

(3) F.O.P.R.O 407-200 (C) (J. 1201/ 133/ 16) Enclosure 2 in No. 187. op. Cit.

(4) F.O.P.R.O 407-200 (C) No. 187, op. Cit.

وحاول سعد زغلول - أثناء تمتعه بالسلطة - استخدام الجيش سياسيا ، وذلك عندما أمر بطرد ضباط الجيش والشرطة الذين تصدوا للجماهير التى تظاهرت لصالحه قبل وصوله إلى السلطة. وبطبيعة الحال فإن أى سياسى أو رجل عسكرى يعلم أنه من الخطورة بمكان استخدام الجيش أو الشرطة لمساعدة حزب سياسى ضد حزب آخر اللهم إلا إذا وقعت ثورة .^(١)

ويعترف الجنرال هوكنج Hoking قائد قوات الاحتلال البريطانى فى مصر آنذاك بأن سعد زغلول " يحاول الآن أن يسيطر على الجيش ، وهو يستخدم بعض الضباط لهذا الغرض ، وإن كان من المشكوك فيه أن يجوز أى نجاح فى هذا الصدد " .^(٢) ويضيف الجنرال هوكنج : " إن بعض زعماء الأحزاب السياسية يحاولون التأثير على الجيش المصرى وجعله معاديا للبريطانيين . " ^(٣)

ويلج اللورد اللنبى - المندوب السامى البريطانى - على هذه النقطة موضحا " أن جزءا من برنامج أتباع سعد زغلول يوضح أهمية زيادة حجم وتسليح الجيش المصرى حتى يمكن بالاعتماد على هذه القوة المسلحة المصرية فرض المطالب المصرية على بريطانيا عند المفاوضات بين الدولتين. إلا أن زيادة حجم وتسليح الجيش المصرى لها احتمالات أخرى....فبينما هى تزيد من الشعور بالكرامة والعزة الوطنية عند المصريين ، فهى من ناحية أخرى مصدر للرضاء الملكى ، لأنها تمنح الملك قوة أكبر وحكما مطلقا مستتبا والملك فؤاد قد يكون على حق ، إلا أن السلاح له الحد الآخر والذى يحاول الزغوليون سنّه. وعلى أية حال فإن لنا مصالحنا الخاصة التى تدعونا للتفكير والدراسة المتأنية " .^(٤)

ويقترح اللنبى بعد ذلك على تشمبرلين أنه من الأفضل إيقاف أى زيادة فعالة فى حجم وكفاءة تسليح الجيش المصرى ، وإن كان يرى أنه من الممكن فى تلك المرحلة منح الحرس

(١) جاد طه ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(2) F.O.P.R.O 407-200 (C) Enclosure 2 in No. 187, oP. Cit.

(3) F.O.P.R.O 407-200 (C) (J. 1396/133/16) Enclosure in No. 190, Lieutenant-General sir R. Haking to Field- Marshal viscount Allenby Headquarters, British Troops in Egypt, Cairo, May 4, 1925.

(4) F.O.P.R.O 407-200 (C) (J. 1396/133/16) No. 187, op. Cit.

الملكى- إرضاء للملك فؤاد -٦ مدافع آلية إضافية ، وعدم تشجيع المصريين على الحصول على أكثر من ٢٢ مدفعا من نفس النوع ، والتي تمت الموافقة عليها بواقع مدفعين لكل كتيبة مشاة .^(١)

ويؤكد الجنرال هوكنج قائد القوات البريطانية في مصر في ذلك الوقت ، أن زيادة حجم الجيش المصرى من ناحية الأفراد وكذلك تدعيم وحداته بأسلحة آلية وبالمدفعية الثقيلة ، هى فى الأساس لتدعيم دولة مصر ضد بريطانيا وليست للقضاء على ثورة متوقعة أو للدفاع عن الدولة ضد عدوان خارجى متوقع . ويورد الجنرال هوكنج ملاحظة فيقول : " فى الفترة الحالية ، كل الدول الكبرى فى العالم تسعى لتخفيض أسلحتها تحت رعاية عصبة الأمم ، بينما مصر تحاول زيادة قواتها العسكرية من ناحية الأفراد والتسليح " .^(٢)

إن ما يقوله الجنرال هوكنج كان رأى قائد قوات الاحتلال البريطانى فى مصر الذى يحاول أن يجعل خصمه فى حالة ضعف مستمرة ليستطيع مواجهته . فالدول التى أخذت فى تخفيض تسليحها فى ذلك الوقت كانت دولا مستقلة كاملة الاستقلال ولاترابط فى أراضيها قوات احتلال تسليها جوهر استقلالها .. ولذلك كان ينظر إلى زيادة حجم الجيش المصرى والعمل على زيادة كفاءة تسليحه بأنها عملية موجهة فى الأساس ضد بريطانيا .

وهكذا كان الاتجاه البريطانى بصفة عامة هو عدم تشجيع تسليح الجيش المصرى بأكثر من ٢٢ مدفعا آليا، والتي وافق المندوب السامى اللورد اللنبى على تدعيم الجيش المصرى بها. إلا أنه كان من المتوقع أن يطلب موسى فؤاد باشا وزير الحربية والبحرية المصرى اعتماد زيادة فى الميزانية الخاصة بالجيش لشراء كميات أخرى من الأسلحة الآلية أكثر من الكمية المتفق عليها (٢٢ مدفعا) والمخصص لها بند فى الميزانية ، وهكذا قام المندوب السامى باستدعاء وزير الحربية المصرى فى أوائل مايو ١٩٢٥ ، وأبلغه بأن عليه أن لايزيد من مقترحاته بالنسبة لتدعيم الجيش المصرى بالأسلحة الآلية عما تم تخصيصه فى الميزانية .

(1) Ibid.

(2) F.O.P.R.O 407-200 (C) (J. 1201/133/16) No. 187, op. Cit..

وقد امتثل الوزير لهذا الطلب ، بل زاد على ذلك بأن أنكر بأن لديه أى اتجاه لطلب هذه الزيادة .

أما بالنسبة لزيادة عدد ضباط الجيش المصرى كنتيجة لعودة عدد كبير منهم من السودان بعد إخلائه ، فإن الحكومة المصرية أعدت مشروعا لتقاعدهم على نفس المنوال الذى كان يعامل به الموظفون الأجانب . وكان عدد هؤلاء الضباط الزائدين عن حاجة الجيش المصرى - طبقا لوجهة النظر البريطانية - نحو ٢٠٠ ضابط ، وكانوا غير راضين عن أحوالهم ، وبرزوا كدليل واضح للدعاية ضد الحكومة المصرية القائمة إلا أن إسماعيل صدقى باشا وزير الداخلية فى ذلك الوقت أعد مشروعا لتوظيف هؤلاء الضباط لكادر جديد كضباط للخبراء ، وذلك حتى يتلافى احتمال المصادمات بينهم وبين غيرهم من الضباط لأغراض الترقية سواء فى الجيش أو فى الشرطة .^(١)

وقد اعتبرت السلطات البريطانية أن هذه الفكرة فكرة حسنة ، رغم أن المشروع تعرض للنقد الشديد من جانب وزارتى الحربية والداخلية ، لأنه كان من المتوقع أن الضباط الذين سيعينون فى هذا الكادر الجديد لتدريب الخبراء لن يكونوا راضين عن تلك الوظائف الجديدة لخسائرهم المادية الناتجة عن فقدانهم للبدلات المالية المخصصة لضباط الجيش ، وكذلك لأنهم سيسببون غيرة ضباط الشرطة الذين يبذلون جهودا أكبر فى أعمالهم.^(٢) وعلى أية حال ، فقد تم تنفيذ هذا القرار ، واتجه الضباط الذين عينوا فى الوظائف الجديدة إلى الاعتراض ووصلوا إلى حد إرسال ممثلين عنهم إلى القصر الملكى للشكوى ، إلا أنهم بعد فترة انخرطوا فى أعمالهم الجديدة ، بل جاءت الأنباء بأنهم راضون أكثر مما كان متوقعا .^(٣)

سحب اللبى وتعيين لويد

قررت بريطانيا وسط هذا الجو المعقد سحب مندوبها السامى اللورد اللبى وتعيين اللورد لويد . فالمندوب السامى اللورد اللبى هو الذى وافق على بيع صفقة من

(١) جاد طه ، بريطانيا والجيش المصرى ، ص ٦٢ .

(2) F.O.P.R.O 407-200 (C.) (j. 1337133/16) No. 188, Field- marchall viscount Allenby to Mr. Austen Chamberlain- Cairo May 2, 1925.

(3) F.O.P.R.O 407-200 (C.) (j. 1337133/16) No 196, Allenby to Chamberlain. Cairo June 6, 1925.

الأسلحة الآلية بواقع ٢٢ مدفعا للحكومة المصرية . وقد أبرز اللبى : " أنه من غير المرغوب فيه الاعتراض فى هذه المرحلة على تسليح الجيش المصرى بالمدافع الآلية " . كما أوضح تشمبرلن - وزير خارجية بريطانيا - أنه لا يمكن التراجع عما فعله اللورد اللبى بالنسبة لصفقة المدافع الآلية ومدافع الهاوتزر . فالمندوب السامى لا يود التراجع عما سبق ووافق عليه للحكومة المصرية بالنسبة لصفقة الأسلحة . كما أن تشمبرلن أيضا لا يود أن يتراجع للورد اللبى عما سبق وسمح به للحكومة المصرية . ولكن يبدو أن تشمبرلن تلمس حلا آخر للمسألة ، فهو لا يطلب من المندوب السامى اللورد اللبى التراجع عن قراره تجاه الحكومة المصرية ، حفاظا على هبة منصبه ، ولكنه يستطيع بتغيير شخص المندوب السامى بآخر بسحب الموافقة بهدوء ودون ما إثارة أى مشكلات كبرى .^(١)

ورغم ذلك فقد فضلت الحكومة البريطانية الانتظار حتى يصل المندوب السامى الجديد السير لويدي إلى القاهرة، ويدرس المشكلة برمتها، ويرسل إليها آراءه فى هذا الصدد^(٢).

وصل جورج لويدي إلى القاهرة يوم ٢١ أكتوبر ١٩٢٥ ، وسارع على الفور إلى محاولة تفهم المسألة الخاصة بتدعيم الجيش المصرى بالمدافع الآلية والمدفعية الثقيلة، وبدأ مشاوراته بمقابلة مع أحمد زيور باشا - رئيس الوزراء - فى ديسمبر ١٩٢٥ والتلميح له بأنه " طالما أن دول العالم تناقش مسألة عدم التسليح ، فلا داعى لأن تسير مصر فى الاتجاه المعارض " . وفى نهاية هذه المقابلة استخلص لويدي وعدا من رئيس الوزراء بأنه " لن تكون هناك اعتمادات لشراء أسلحة آلية فى ميزانية العام القادم " .^(٣)

(1) F.O.P.R.O 407-200 (C) No. 193, OP. Cit.

(2) F.O.P.R.O 407-201 (J. 3733/133/16) . No. 128, Lord Lloyd to Chamberlain . Cairo, December 24, 1925.

(3) Ibid.

إلا أن لويد من ناحية أخرى وافق على رأى سبنكس الخاص بالسماح للجيش المصرى بالحصول على ٤ مدافع هاوتزر كل سنة ولمدة أربع سنوات، وبمعنى آخر أن يعاد تسليح بطاريات المدفعية الأربعة بواقع بطارية كل سنة . وذكر لويد : " ورغم أننى لا أوافق على أى تدعيم بالسلاح للقوات المصرية ، فإننى أعتقد - ويتفق معى قائد قوات الاحتلال - أنه يجب تزويد مدفعية الجيش المصرى بهذه الهاوتزرات ، على أنه يجب الإشراف الدقيق على ذخيرتها بواسطة مدير عام من الخدمات الخاصة ، وهى وظيفة يجب أن يحتلها انجليزى . والواقع أننى لا أود إعطاء المصريين فرصة قد تدفعهم إلى الحصول على أسلحة من أى مكان آخر " .^(١)

وقد وافقت وزارة الخارجية البريطانية على مقترحات لويد وطلبت من وزارة الحرب البريطانية تنفيذ المطلوب بالنسبة لتدعيم مدفعية الجيش المصرى بالهاوتزر ٣,٧ بوصة .^(٢)

موقف بريطانيا من المناصب العليا

وفى غضون ذلك الوقت ، برزت مشكلة أخرى خاصة بالمناصب العليا فى الجيش المصرى ، فقد قررت الحكومة المصرية - يوم ٢٢ يونيه ١٩٢٥ - تعيين ضابط مصرى كسردار للجيش المصرى، ورشحت لهذا المنصب شحاته كامل باشا ومحمود عزمى باشا.^(٣) وأنه إذا كان السردار مصرى فإنها لن تمنع فى تعيين مساعد انجليزى له ، كما أنه يمكن تعيين ضابط بريطانى آخر كمفتش عام للجيش^(٤) وقد اقترح صدقى باشا بالفعل

(١) وثائق وزارة الدفاع المصرية - السجل التاريخى لوزارة الدفاع ، ص ٥٤ ، انظر كذلك

F.O.P.R.O. 407-202, (j.114/114/16) . N. , 144. F.O. to W.O, John, Murray F.O. January 15, 1926.

(2) Ibid.

F.O.P.R.O 407-200 (C) (J 1779/133/16) No. 198, sir L.Worthington - Evans to Mr. Austen Chamberlain W.O. June 24, 1925.

(4) F.O.P.R.O 407-200 (C) No. 192, sir L . Worthington - Evans to Mr. Austen Chamberlain. W.O. May 22, 1925.

تعيين سينكس باشا مساعدا للقائد العام للجيش المصرى ^(١). وقد وافق المستر تشمبرلن بصفة مبدئية على اقتراح صدقى باشا فى هذا الخصوص. وتستحق آراء تشمبرلن بالنسبة لهذه المسألة وقفة ، فهو يوضح أهداف الاستعمار البريطانى فيقول: ^(٢) "بالنسبة للمستقبل فإن المسألة هى التأمين الحقيقى لنا مع عدم التدخل بقدر الإمكان فى استقلال الحكومة المصرية ، ولهذا السبب فأنا مع الاقتراح الخاص بأن يترك للمصريين مسألة اختيار سردار مصرى ، والتركيز على الحصول على الوظائف الأقل من الناحية الشكلية ، والأهم من الناحية الفعلية ، كالمصنيين اللذين يحتلها الآن كل من الكولونيل سينكس المفتش العام للجيش المصرى ، والميجور ويتفيلد مدير إدارة الصيانة . فمثل هذه الوظائف اذا ماتم شغلها بعناية فإنها ستحقق ظروفًا تسمح بالسيطرة والإشراف على التفتيش ، وهى فى نفس الوقت لا تثير حفيظة المصريين. إن هذه الطريقة هى طريقة اللورد كرومر الرامية إلى أن لا يحتل انجليزى منصب الوزير ، ولكنه يحتل منصب مستشار الوزير ، والحكومة المصرية الحالية سوف تستخدم خبراء انجليز أكثر ، إذا حاولنا الابتعاد عن أشياء قد تجرح الكرامة المصرية " ^(٣).

وقد تناول اللورد لويدي هذا الموضوع فى مذكرة مطولة ، أوضح فيها أن الدفاع عن وجهة النظر الرامية إلى تمسك بريطانيا بسردار بريطانى للجيش المصرى إنما يركز على تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى يعطى بريطانيا الحق الكامل فى الدفاع عن مصر ضد العدوان والتدخل الخارجى ، وبالتالي التدخل فى شئون الجيش المصرى . ^(٤)

(١) إسماعيل صدقى : مذكرات إسماعيل صدقى ، ص ص ٥٤ - ٥٧ ، انظر كذلك

F.O.P.R.O 407-200 (C) (J. 1736/133/16) No. 188, Field-Marshal viscount Allenby to Mr. Austen Chamberlain, Cairo may 2, 1925.

(2) Ibid, No. 198, Sir L. Worthington – Evans to Mr. Austen Chamberlain. W.O.June 24, 1925.

(3) Ibid, No. 193, Mr Austen Chamberlain to sir L. Worthing- Evans – F.O., May 27, 1925.

(4) F.O.P.R.O. 407-202, (j.933/114/16) . No. 145 Lord Lioyd to Chamberlain. Cairo , April 20, 1926.

ويذكر لويد : " ونحن إذا كنا قد تخلينا عن تمسكنا بالوضع الراهن بالنسبة لغالبية الضباط البريطانيين الذين كانوا يخدمون في الجيش المصرى فى سنة ١٩٢٢ ، فإننا يجب أن لا نتنازل عن منصب السردار البريطانى ، لأن خلق هذا المنصب كان نتيجة لمقتل السردار الأخير على يد المصريين " . وأضاف لويد موضحاً وجهة النظر الرامية إلى تمسك بريطانيا بسردار بريطانى للجيش المصرى إنما يركز كذلك على : " أن الصراع بين الملك وسعد زغلول محتمل فى أى وقت وأن هذا الصراع يمكن أن يصل إلى حد مطالبة سعد بإعلان الجمهورية ، وكذلك إلى حد المنافسة بينهما من أجل السيطرة على القوات المسلحة للدولة . وفى مثل هذا الموقف ، فإن سردار بريطانيا للجيش المصرى يمكن أن يساعد فى جعل الجيش بعيداً عن دائرة الصراع . كما أن الجيش المصرى يمكن أن يكون جيشاً له كفاءة كبرى تحت قيادة سردار بريطانى ، وبصفة خاصة من ناحية التدريب ، ويمكنه فى هذه الحالة التصدى لأى عدوان خارجى ، بالإضافة إلى أن سرداراً بريطانيا للجيش المصرى يعتبر هو فى حد ذاته نقطة من نقاط المساومات فى حالة مفاوضات تالية من أجل تسوية التحفظات الأربعة " .^(١)

لقد أبدى لويد فى مذكراته موافقته على تعيين سردار مصرى للجيش ، ولكنه تمسك بأن هذا التعيين لا يتم إلا بشروط تسمح لبريطانيا بالتدخل بقدر الإمكان فى شئون الجيش المصرى . وذلك يستلزم إجراء تعديلات جوهرية فى وظائف واختصاصات المفتش العام الانجليزى للجيش المصرى حيث يحتفظ بلبقه المالى ويصبح له طبيعة استشارية ، وأن يشرف على التوصيات الخاصة بالضباط فى لجنة الضباط على أن لا ترفع هذه التوصيات دون توقيع المصدق عليها ، وأن يكون له الحق فى التفتيش المستقل فى أى وقت على كل وحدات الجيش المصرى والاطلاع على كل المعلومات الحربية والبيانات الخاصة بالجيش المصرى وكذا الاطلاع على كافة التقارير السرية الخاصة بالضباط ، وأن يحتفظ المفتش العام بعضويته فى مجلس الجيش . ومن حقه الحصول على المشورة من وزارة الحربية ، بالإضافة إلى الاحتفاظ بضابط بريطانى كأركان حرب للمفتش العام .^(٢)

(1) Ibid.

(2) Ibid.

كما وضع لويد أن تخلى بريطانيا عن تعيين سردار بريطانى للجيش المصرى يستلزم كذلك إلحاق ضابط بريطانى للتدريب لكل من الخيالة والمدفعية وكذا لكل من ألوية المشاة الثلاثة ، والاحتفاظ بالضباط البريطانيين فى الإشراف التنفيذى على القسم الطبى والصيانة .^(١)

وأوضح لويد لحكومته أنه بتنفيذ هذه المقترحات ، فإن المفتش العام وبنفس لقبه ، سوف يحوز على سلطات واختصاصات واسعة جدا دون أن يرهق نفسه بمسئوليات تنفيذية ، كما أن الضباط البريطانيين الذين هم تحت قيادته يجب أن لا يتعرضوا للمعاملة السيئة من جانب الضباط المصريين الأقدم منهم رتبة . وبصفة عامة فإنه لا يخضع ضابط بريطانى لأوامر أى ضابط مصرى فى الجيش المصرى .^(٢)

وبذلك جعل اللورد لويد من المفتش العام البريطانى سيفاً مصلتاً على رقاب الضباط المصريين وذلك باطلاعه على التقارير السرية الخاصة بهم ، وكذلك بتصديقه على توصيات لجنة الضباط ورفع هذه التوصيات مباشرة إلى الملك متخطياً بذلك وزير الحربية ومبطلا دوره فى السيطرة على الجيش . كذلك فإن تعيين خبير بريطانى فى كل من الخيالة والمدفعية وألوية المشاة الثلاثة وكل هؤلاء تابعون للمفتش العام البريطانى ولا يخضعون لأوامر الضباط المصريين . وكذلك فإن طبيعة الاحتلال البريطانى لمصر ستجعل من هؤلاء الخبراء البريطانيين شبه قادة للأسلحة والوحدات المصرية مما يحكم السيطرة البريطانية الفعلية على وحدات الجيش المصرى .

كل ذلك لقاء مقابل ضئيل جدا وهو التنازل عن " لقب " السردار البريطانى للجيش المصرى وتعيين سردار مصرى له السلطة الاسمية فقط. تنازل يرضى الكرامة الوطنية المصرية - أو هكذا تصور اللورد لويد - ولكنه يحقق فى المقابل سيطرة بريطانية كاملة على مقدرات الجيش المصرى كله.

(1) Ibid.

(2) F.O.P.R.O 407-202 (C) (J. 939/114/16) No. 146, Lord Lioyd to Chamberlain .
Cario, April 20, 1926.

وفي ٦ مايو ١٩٢٦ أبلغت وزارة الخارجية البريطانية لويدي بموافقتها وموافقة وزارة الحرب على مقترحاته السابقة.^(١)

وبعد أن حصل لويدي على موافقة لندن على مقترحاته ، شرع في العمل بدون إبطاء ، فأرسل مذكرة في ٢٧ مايو ١٩٢٦ إلى كل من الملك فؤاد وإلى أحمد زيور باشا رئيس الوزراء أوضح فيها الظروف التي ستسمح فيها الحكومة البريطانية بتعيين سردار مصرى^(٢) . وتعتبر هذه المذكرة موجزا للمقترحات التي سبق للويدي إرسالها إلى وزارة الخارجية البريطانية . وبذلك أراد لويدي إعطاء قيادة الجيش المصرى الشكل المصرى بتعيين سردار مصرى لهذا الجيش ، ولكن السلطة الفعلية ستكون في يد المفتش العام الإنجليزى .

وافق الملك فؤاد على مذكرة اللورد لويدي . أما رئيس الوزراء فإنه أوضح بأنه سيكون مضطرا إلى استشارة مستشاره القانونى الأول عبد الحميد بدوى باشا بالنسبة لهذه المذكرة . وبعد دراسة بدوى باشا للمذكرة ، أبلغ أحمد زيور باشا لويدي بأن بدوى باشا قد جذب الانتباه إلى مخالفة دستورية بالنسبة للنقطة الخاصة برفع توصيات لجنة الضباط مباشرة إلى الملك عن طريق السردار بدلا من أن يتم ذلك عن طريق وزير الحربية . وقد أجاب لويدي على ذلك بأنه " لا يرغب فى الضغط بأى مطالب غير دستورية .. وأن هذه المخالفة ليست من النوع الذى لا يمكن تخطيه ، وأنها لا تؤدى إلى التردد بالنسبة للموافقة على المشروع ككل " .^(٣)

إلا أن وزارة أحمد زيور باشا كانت على وشك الاستقالة ، ولذلك لم توافق الوزارة على هذه المذكرة الخطيرة . وعلق لويدي على ذلك قائلا : " أرى أنه ليس هناك مبرر للضغط على حكومة زيور باشا بعنف بالنسبة لظروفها ، مع التعبير عن أسفى لأن هذه المسألة يجب تأجيلها حتى تسنح فرصة لمناقشتها مع الحكومة المصرية الجديدة " . وهكذا توقفت المسألة كلها فى هذه المرحلة .^(٤)

(1) F.O.P.R.O 407-202 (J. 1088/114/16), No. 151, Chamberlain to Lioyd, F.O.M Cairo, April 20, 1926.

(2) F.O.P.R.O 407-202 (J. 1346/114/16) No. 152, Lioyd to Chamberlain . Cairo, May 27, 1926.

(3) F.O.P.R.O 407-202 (J. 1499/114/16) No. 153, Lord Lioyd to Chamberlain . Cairo, May 28, 1926.

(٤) جاد طه ، بريطانيا والجيش المصرى ، ص ص ٨١ - ٨٢ .

عدلى يكن والجيش

وفى هذه الظروف الصعبة التى كانت تمر بها مصر جاءت وزارة عدلى يكن باشا يوم ٧ يونيه سنة ١٩٢٦. وكان أعضاؤها من حزبى الوفد والأحرار الدستوريين حيث مكثت فى الحكم حتى ٢١ ابريل ١٩٢٧. ^(١) وخلال هذه الفترة ألغت وزارة عدلى كل القوانين التى صدرت بمراسيم ملكية أثناء تعطيل الحياة النيابية ، واتخذت خطوات فعالة للإقلال من ميزانية الموظفين الأجانب . ولكنها ما لبثت أن اصطدمت بأزمة الجيش . فقد رأى وزير الحربية الوفدى أحمد محمد خشبة بك أن يدخل بعض الإصلاحات التى كان القصد منها تقوية الجيش ، وهى الإصلاحات التى أشار بها مفتش الجيش المصرى ، وكان انجليزيا . ولكن لويد رأى أن هدف هذه الإجراءات هو ضمان إشراف الحكومة المصرية على الجيش إشرافا تاما ، وأنها إذا ما نجحت استطاعت الوزارة أن تستخدم الجيش فى مهاجمة الملكية ، فتضطر انجلترا إلى التدخل لسند الملكية بالقوة ، ومن ثم تظهر بمظهر المعتدية على الدستور . ^(٢)

لهذا حصل لويد من وزير الخارجية الإنجليزية - أوستن تشامبرلن - على الموافقة على خطة تضمن حسم مسألة الإشراف على الجيش برمتها . وأرسلت انجلترا ثلاث سفن حربية إلى المياه المصرية ، وأبدت عدم استعدادها لتخفيف قبضتها على البلاد قبل عقد معاهدة . وأثرت هذه الأزمة فى عدلى يكن باشا الذى أدرك أن النهوض بشئون مصر الداخلية معرض للتعثر ما بقيت الأزمات السياسية بين مصر وانجلترا تعقده وتفسده - ومن ثم كان حرصه الشديد على أن يصل إلى اتفاق تتحدد به العلاقات بين البلدين بحيث يصبح تدخل انجلترا بعيد الاحتمال. ^(٣)

(١) وثائق مجلس الوزراء المصرى ، أمر ملكى رقم ٥٦ لسنة ١٩٢٦ صادر من الملك فؤاد إلى حضرة صاحب الدولة عدلى يكن باشا بتاريخ ٧ يونيه سنة ١٩٢٦ ، انظر كذلك جواب حضرة صاحب الدولة عدلى يكن باشا إلى جلالة الملك فؤاد بتاريخ ٧ يونيه سنة ١٩٢٦ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر السياسى ، ص ص ١٧٣-١٧٤ ، انظر كذلك : محمد شفيق غربال ، تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، الجزء الأول ، ص ١٧٩ .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق : ص ١٧٤ .

لكل هذا كانت بريطانيا تصر على الإقلال من فاعلية الجيش المصرى من ناحية والسيطرة عليه تماما من ناحية أخرى ، بالإضافة إلى التمسك البريطانى بأن يكون لقوات الاحتلال البريطانى فى مصر القدرح المعلى عند مقارنتها بقوات الجيش المصرى. أى أن تكون لهذه القوات البريطانية القدرة السريعة على تدمير الجيش المصرى عند أول بادرة تصدر من هذا الجيش ضد المصالح البريطانية فى مصر ، ولو أدى ذلك إلى تدمير هذا الجيش الوطنى بالطائرات المقاتلة التى لم تكن مصر تمتلك منها شيئا فى ذلك الوقت .^(١)

إن المقترحات المصرية انهالت من كل حذب وصوب ، وبصفة خاصة فى البرلمان لزيادة حجم وفاعلية الجيش المصرى ، مما أدى بالمندوب السامى جورج لويد إلى أن يعبر عن دهشته للملك فؤاد ولرئيس الوزراء عدلى يكن باشا، وللزعيم سعد زغلول من هذا الموقف فى أوائل ديسمبر سنة ١٩٢٦. كما عبر المندوب السامى عن رأيه فى أن هذا الاتجاه يتعارض مع سياسة عدم التسلح السائدة فى كل مكان ، وكذلك يتعارض مع تأكيدات الصداقة والثقة التى عبرت عنها الحكومة المصرية . كما أبلغ لويد حكومته بأن المقترحات المصرية لزيادة حجم وتطوير تسليح الجيش المصرى "هى بلا شك غير ضرورية لتأمين مصر من أى غزو أجنبى والذى تتكفل به الحكومة البريطانية باستمرار " .. وأضاف لويد: "أنه لايمكن تفهم هذه الاتجاهات المصرية إلا أنها موجهة ضد بريطانيا نفسها ، وأنه إذا كان ذلك هو الاتجاه الفعلى للحكومة المصرية . فإن الحكومة البريطانية قد تجد نفسها مضطرة فى وقت ما إلى إرسال إنذار خطير يضع تحديدات قاطعة بالنسبة لحجم وقوة الجيش المصرى " .^(٢)

ومع الشهور الأولى لعام ١٩٢٧ بدأ المندوب السامى البريطانى فى التحقق من أن أمورا هامة تحدث فى مسألة الجيش المصرى ، وأن هذه الأمور تتطلب من الحكومة البريطانية اتخاذ إجراءات سريعة ، وعلى حد قوله : "إن إمكاناتنا الآخذة فى التناقص منذ عام ١٩٢٢ أصبحت تسير بمعدل سريع ، مع مصاحبة ذلك باقتراحات لزيادات ضخمة

(١) جاد طه ، بريطانيا والجيش المصرى ، ص ص ٨٢ - ٨٣ .

(2) F.O.P.R.O 407-203 (e.) Egyptian Army (J. 3307/114/16) (C), No. 104, Lord Lloyd to sir Austen Chamberlain .Cairo, December 5, 1926).

فى الجيش المصرى عددا وعدة ، وعلى الرغم من إشاراتى الواضحة بأن حكومة جلالة الملك لن توافق على مثل هذه المقترحات فإن الحكومة المصرية تسير فى طريقها ، ونحن فى خطر المواجهة بعد فترة بأمر واقع . " (١)

وبوضح لويد المراحل الرئيسية لتقلص السيطرة البريطانية على الجيش المصرى ، والتسلسل فى المحاولات المصرية لتمصير الجيش المصرى على الوجه التالى :

١- عندما عين عزمى باشا وزيراً للحربية فى نوفمبر ١٩٢٢ ، فإنه أنشأ قسماً خاصاً فى وزارته وتحت إشرافه لإدارة بعض الأمور التى كان يشرف عليها السردار قبل ذلك (٢) . وهكذا اتخذ الوزير سياسة معادية للمصالح البريطانية (٣) ، وهذا التجاوز بدأ فى الزيادة حتى سبتمبر ١٩٢٢ ، عندما وصل إلى حد إصداره لأوامره وعلى مسؤوليته بطرد عدد من طلبة المدرسة الحربية لعدم كفاءتهم .. ولم يقم السردار البريطانى بالاعتراض على هذا الأمر استمراراً فى سياسته الرامية إلى التمصير التدريجى للجيش ، وبداناً فى استخدام الوزير كقناة فى اتصالاته مع الملك .

٢- وفى يناير ١٩٢٤ - وطبقاً لهذه السياسة - عين ضابط مصرى فى منصب قائد منطقة القاهرة ، مما أدى إلى ضرورة استحداث منصب المفتش العام وتقليده لضابط بريطانى ، إلا أنه فى نفس الوقت تم تعيين ضابطين مصريين لقيادة كتيبتين مصريتين كانتا تحت القيادة البريطانية.

٣- وفى مارس ١٩٢٤ ، أحيل شاهين بك إلى التقاعد - وهو أحد الذين هاجمهم الوفد لقيامه بكبح جماح الجماهير الثائرة أثناء ثورة ١٩١٩ - بأوامر من السردار ، وطبقاً

(1) P.R.O.F.O. No. 76 (407-204)b. **Egyptian Army Crisis**. No. 76 (J. 530/184/74) No

61. lord Lioyd to sir

Austen Chamberlain. Cairo, March 3, 1927.

(2) F.O.P.R.O 407-202 Chapter 4. **Egyptian Army, sirdarship and Armament** (J. 1499/144/16) No. 153, Lioyd to Chamberlain , Cairo, May 28, 1926.

(3) F.O.P.R.O (407-204) b. No. 78 (J. 599/184/116) No. 74, Lord Lioyd to sir Austen Chamberlain , Cairo, March 9, 1927.

لطلب من سعد زغلول باشا ، وذلك لرغبة بريطانيا في عدم إحداث أزمة في المفاوضات التي كانت دائرة بين الحكومتين المصرية والبريطانية في ذلك الوقت .
والمهم أن تأثير هذه العملية كان عميقا على الجيش المصرى .

٤- بعد مقتل السير لى ستاك ، اقترح وزير الحربية والبحرية المصرى حسن حسيب باشا أن يتحمل مسئولية تدبير أمر الضباط المصريين العائدين من السودان .

٥- فى يناير ١٩٢٥ تم تشكيل مجلس الجيش بناء على اقتراح من الملك فؤاد ، وكان تشكيله أساسا ليرث السلطات والاختصاصات التي كانت مخولة للسردار قبل ذلك.

٦- فى ابريل ١٩٢٥ تحولت تبعية إدارات ومصالح الحدود والتموين والتجنيد إلى الجيش المصرى ، وفى يونيو تبعته الإدارة المالية .^(١)

٧- عندما عين موسى فؤاد باشا وزيرا للحربية فى ١٣ مارس ١٩٢٥ ، فإنه بذل جهوداً مكثفة لتحويل ولاء الضباط المصريين إليه بدلا من تبعيتهم للقادة البريطانيين ، وعقد اجتماعات مستمرة فى منزله للعديد من الضباط المصريين لتحقيق هذا الغرض.^(٢)

ومن الأهمية بمكان - من وجهة النظر البريطانية - الإشارة إلى تعاطف أحمد محمد خشبة بك وزير الحربية والبحرية المصرى مع الحملة البرلمانية بعد مواجهته لاستجابات عنيفة فى البرلمان ، ووصل به الأمر إلى تبنى بعض موضوعات منها تخفيض الخدمة الإجبارية للمجندين من ٥ إلى ٣ سنوات بهدف زيادة أعداد الاحتياط المدرب ، وكذلك العمل على تدعيم ٩ كتائب مشاة حتى تحقق مستوى رفيعا ، وبناء ثكنات جديدة فى مناطق مختلفة ، ومنع أى قيود على تسليح الوحدات المصرية ، وتشكيل قوات جوية مصرية. ورغم تدخل المندوب السامى الصريح ضد هذه المطالب ، ورغم أن كل

(١) سوف نتناول مصلحة الحدود بالتفصيل فى الفصل الخاص بإدارات وأسلحة الجيش المصرى، فى مرجع خاص بالجيش تحت الطبع.

(2) P.R.D.F.D. (407-204) b. No. 76, OP. Cit.

المقترحات السابقة كانت تتطلب موافقات مالية ، فإنه قد تم تضمين كل هذه البنود في مشروع الميزانية الجديدة لتقديمها إلى البرلمان .^(١)

أما بالنسبة لمنصب المفتش العام الانجليزى ، فقد بذلت مجهودات مصرية متتالية وقوية لسلب كل اختصاصاته وسلطاته . وقد قام خشبة بك - وزير الحرية والبحرية في عام ١٩٢٦ - بمحاولات خطيرة في هذا الصدد ، وأول محاولة له مع المفتش العام سبنكس باشا وقعت في ربيع ١٩٢٦ ، عندما حاول إعادة عدد من الضباط السودانيين إلى الخدمة ، والذين كانوا قد أحيلوا إلى الاستيداع لاشتراكهم في الحركة الوطنية في السودان في نهاية عام ١٩٢٤^(٢) .

وبعد ذلك ، وفي أثناء غياب الجنرال سبنكس في إجازته الصيفية في نفس العام - ١٩٢٦ - حاول وزير الحرية المصرية قلب النظام الذى كان ساريا في المدرسة الحرية في القاهرة ، وبتعليمات منه وضع مجلس الجيش مشروع قانون لإخراج المدرسة الحرية عن التبعية للسردار . ولو لم يعد الجنرال سبنكس مبكرا من إجازته في ذلك الوقت ، لكان البرلمان المصرى قد وافق على هذا الاقتراح.^(٣)

هذا بالإضافة إلى أن أحمد محمد خشبة بك أمضى صيف ذلك العام (١٩٢٦) في لقاءات شخصية بالعديد من الضباط من كل الرتب مستمعا إلى شكاياتهم وواعدا إياهم حلولاً لمشكلاتهم . كما قام بالتفتيش على الوحدات العسكرية برفقة اثنين من العسكريين من أعضاء البرلمان ، وهما صالح بك حرب وعبد الرحمن بك عزام ، والأول كان قد انضم إلى السنوسى وتحت قيادته ٦٠ من جنود خفر السواحل ، وكلاهما حارب مع السنوسى .^(٤)

ولم يكتف أحمد محمد خشبة بك بهذه المحاولات ، بل حاول أيضا جعل وزارة الحرية هى المسيطرة على ترقية وتعيينات الضباط وعن طريقه هو شخصا . " وهكذا عدلت

(1) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 76, OP. Cit.

(2) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 87 (J. 844/184/16) No. 183 Lord Liloyd to sir Austen Chamberlain. Cairo, March 28. 1927, see also. No. 87.

(3) Ibid.

Ibid, see also., ص ٧٥ ، ص ٧٧ - السجل التاريخى لوزارة الدفاع المصرية ،

(٤)

لجنة الضباط ومجلس الجيش من توصياتهما بالنسبة للترقيات والتعيينات ، حتى لا تتعارض هذه التوصيات مع رغباته". ووصل الأمر بوزير الحربية خشية بك في بعض الحالات إلى رفض توصيات المفتش العام . ونتيجة لتدخل الوزير ، اقترح البرلمان المصري توسيع اختصاصات لجنة الضباط ومجلس الجيش على حساب السردارية والمفتشية العامة بهدف جعل وظيفة المفتش العام بلا فاعلية .^(١)

كما أنه تقرر - طبقا لمشروع الميزانية الجديدة - إدماج مصلحة الحدود مع خفر السواحل في إدارة واحدة ، وهذا القرار يبدو أنه إداري بحت ، ولكن الحقيقة هي أن وزير الحربية كان يرغب في إعفاء خمسة من الضباط البريطانيين السبعة العاملين في المصلحة ، وأن يحل محلهم في نفس الوقت ضباط مصريين فمن شاركوا في الحرب مع السنوسي ، أو من الذين أعيدوا من السودان بعد مقتل السردار ، كما أنه أصدر تعليمات كتابية بالفعل بالنسبة للعائدين من السودان . إلا أن المندوب السامي تدخل في الأمر ، مما أدى إلى استبقاء الضباط البريطانيين في مصلحة الحدود^(٢) ، وإن كان الوزير قد أوضح أنه قد وضع شروطا جديدة للتعاقد معهم في الميزانية القادمة وذلك لاستبعادهم^(٣) ، كما أنه خصص بندا في الميزانية للضباط العائدين من السودان لتخصيص وظائف لهم .^(٤)

وأكثر من ذلك ، اقترح أحمد محمد خشية وزير الحربية تحويل قوافل الجمال ودوريات السيارات - بالنسبة لمصلحة الحدود - إلى قوة بوليسية بدون سلطة مركزية ، كما أنه في نفس الوقت قامت الحكومة بدراسة مشروع لتطبيق القانون المدني والإدارة المدنية على القبائل النائية ، بدلا من سريان التقاليد القبلية.^(٥) وكان الغرض من هذه الخطوات هي بطبيعة الحال لفرض السيطرة المصرية على القبائل العربية التي تقطن مناطق الحدود ، وفي نفس الوقت إلغاء النفوذ البريطاني عليها .^(٦)

(1) I bid, see also., ٧٧ - ص

(2) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 76. OP. Cit .

(3) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 87. OP. Cit.

(4) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 76. OP. Cit.

(5) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 87. OP. Cit, see also., السجل التاريخي لوزارة الدفاع المصرية ، ص ص ٨٥ - ٨٦ .

(6) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 78. OP. Cit.

ويصور جورج لويد خطورة الموقف بالنسبة للمصالح البريطانية بقوله: " إن نائب المدير العام لمصلحة الحدود ، والمشهور ببغضه للإنجليز ، وهو يعمل في اتصال وثيق مع الوزير - خشبة بك - وقد قام بمحاولات عديدة للحد من مكانة وسلطة الضباط البريطانيين العاملين في المصلحة . ويمكن القول بإيجاز أن موقف حاكم عام سيناء - الانجليزى - بوجه خاص قد ازداد صعوبة . ولا ننسى أن مصلحة الحدود هي مصلحة كبيرة ، وأنها تلعب دورا هاما في خطة الدفاع عن مصر ، وأن نجاحها الحالى في التعامل مع البدو الذين لا يخضعون لأى قانون إنما يرجع إلى الضبط والربط وحسن الانتظام العسكرى والإدارة المركزية".^(١)

واعتبر جورج لويد أن من بين الأساليب العدائية أيضا قيام البرلمان المصرى بمناقشة اقتراح لبعض النواب فى مارس ١٩٢٧ لتغيير نظام الخفراء القائم وجعله يسير طبقا لقانون التجنيد الإجبارى ، وأن يقوم ضباط من الجيش بتدريب الخفراء ، وعلق لويد على ذلك بقوله: "إننا لا يمكننا إغفال مغزى هذا الاتجاه".^(٢)

خطة لويد لحل الأزمة

حلل لويد الموقف بأن أمامه أن يختار أسلوبا من ثلاثة أساليب مطروحة للتعامل مع المصريين : أولا : أن يترك الأمور تسير في طريقها بأمل أن الاعتبارات المالية سوف تمنع الحكومة المصرية من السير بعيدا في هذا المضمار، وثانيا: أن يقوم بعرقلة هذه الاتجاهات باستخدام الضغط الشخصى وغير الرسمى ، وثالثا : أن يقدم مطالب محددة للحكومة المصرية على شكل إنذار.^(٣)

وأوضح لويد أن السبيل الأول لا يمكن أن يكون فعالا ، لأن الحكومة المصرية قد صحت عزمها على إقامة الجيش المصرى القوى مهما كلفها الأمر . أما السبيل الثانى فإن نتائجه غير مضمونة ، وهكذا لم يتبق من سبيل لحل الأزمة سوى السبيل الثالث . وأردف لويد أنه من الواضح " أنه ليس لدينا خيار سوى إرسال المطالب البريطانية إلى الحكومة

(1) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 87. OP. Cit.

(2) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 76. OP. Cit.

(3) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 87. OP. Cit.

المصرية بدون تأخير وبشروط حاسمة وبصيغة ودية ، على أن تدعم مطالبنا بكل قوة ممكنة. وإذا ما فعلنا ذلك ، فإن هذا التدعيم سوف يحقق كل الظروف الممكنة لحل الأزمة دون عنف ، وذلك بالمقارنة بما قد نضطر إلى أن نفعله في وقت لاحق " .^(١)

وقد وافق تشمبرلن وزير خارجية إنجلترا على آراء لويد السابقة ، مع التأكيد على أن أى سياسة يتم اختيارها بالنسبة للعلاقة مع الحكومة المصرية ، يجب أن تكون معقولة وبناءة طبقا لما تسمح به الظروف .^(٢)

ويبدو أن لويد كان يحاول في هذه المرحلة وضع حل شامل للأزمة ، لأنه في ٩ مارس ١٩٢٧ أوضح أن مخططاته لا ترمى فقط إلى منع الارتباك القائم في السياسة البريطانية تجاه زيادة الجيش المصرى عددا وعدة ، بل أيضا لتقديم أسس تسوية نهائية ، عندما تكون هذه التسوية محتملة الوقوع .^(٣)

وبدأ لويد في إبراز خطته القادمة لحل الأزمة مركزا على أن أسس الحل الشامل إنما تستند على مبدأ " الأخذ والعطاء " . أما الأخذ البريطاني فإنه يركز على : المحافظة على سلطات ومكانة المفتش العام ، وتعيين ضابط بريطاني عظيم في القيادة المصرية ، ليحل محل المفتش العام أثناء غيابه . ويمكن أن يلقب هذا الضابط بمساعد المفتش العام ، لأنه لا يمكن عمليا الاعتماد على ضابط تنفيذى واحد . واستخلص لويد أن المفتش العام سيسعده بطبيعة الحال الاعتراف الرسمى بالسلطات المفوضة له من قبل هدلستون باشا ، وكذلك تعيين مساعد له ، وكذا وضع مصلحة الحدود التى سوف يتم إدماجها مع خفر السواحل - تحت السيطرة المباشرة للمفتش العام ، مع استمرار الوضع الراهن بالنسبة لهذه المصلحة . كما اعترض لويد على اقتراح تشمبرلن الخاص بفصل مصلحة الحدود عن وزارة الحربية لأن هذا الاقتراح - فى رأيه - إذا ما تم تنفيذه ، فإنه سيؤدى بالسلطات

(1) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 87. OP. Cit.

(2) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 80. (J. 601/184/16) No.67, sir austen Chamberlain to Lord Lioyd . F.O. March 11, 1927.

(3) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 82. (J. 720/184/16) No.82, Lord Lioyd to sir Austen Chamberlain Cairo. March 22, 1927.

البريطانية إلى أن تفقد رقابتها على الحدود المصرية ، وتحول هذه المصلحة إلى وضع جديد كلية .^(١)

وكان هذا - فى رأى لويد - هو "الأخذ" البريطانى الذى يركز على الأسس السابق ذكرها ، وأنه فى مقابل موافقة الحكومة المصرية على تلك الأسس ، أو بالأحرى على ذلك "الأخذ" البريطانى ، فإنها تستحق "العطاء" البريطانى أيضا ، وذلك على شكل حصولها على تدعيم بالأسلحة المتطورة لكثائب المشاة التسعة ، وتخفيض فترة التجنيد الإجبارى من ٥ إلى ٣ سنوات ، والبدء فى تشكيل قوة جوية مصرية .^(٢) إلا أن لويد - من ناحية أخرى - عبر عن اعتقاده فى أنه يجب عدم السماح للحكومة المصرية - فى تلك المرحلة - بالحصول على ٢٢ مدفعا آليا (رشاش) والتي كان قد وعد بها اللورد اللنبى ، لأن مثل هذه الزيادة فى تسليح الجيش المصرى - فى رأيه - ستؤدى ببريطانيا إلى ضرورة تدعيم جيش الاحتلال ، وعدم تركز أى قوات مصرية على طول قناة السويس ، أو على خط مواصلات القاهرة - الإسمايلية .^(٣)

إلا أن لويد - لاعتبارات كثيرة - عاد واقتنع بوجهة نظر تشمبرلن بخصوص بيع المدافع الآلية إلى الجيش المصرى ، فى مقابل تنفيذ المطالب البريطانية ، وإن كان قد وضع بعض الإجراءات الوقائية لتنفيذ هذه العملية . فهذه الأسلحة يمكن تقديمها فقط للجيش المصرى فى مقابل تعيين ٤ ضباط بريطانيين كخبراء ، وبواقع ضابط واحد لكل لواء من ألوية المشاة الأربعة ، وأن الحكومة المصرية ستجد نفسها مضطرة إلى قبول هذه الخبرة . وأضاف لويد أن المفتش العام بحصوله على السلطات الفعالة سيشعر بالثقة ، ويستطيع بذلك أن يسيطر على استخدام هذه المدافع الآلية ، والتقليل من خطورة استخدامها .^(٤)

(1) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 87. OP. Cit, see also : P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 79. (J. 601/184/16), No. 75, Lord Diod to sir Austen Chamberlain. Cairo, March, 9, 1927, P.R.O.F.O. (407-204) b. No. 82, OP. Cit .

(2) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 79. OP. Cit.

(3) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 82. OP. Cit.

(4) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 87. OP. Cit.

وقد وافق الجنرال هوكنج - قائد قوات الاحتلال - بالتالى على تدعيم الجيش المصرى بهذه المدافع الآلية ، بشرط أن توافق الحكومة المصرية على الترتيبات السابقة كإجراء وقائى بالنسبة لأمن قوات الاحتلال فى مصر. واتفق أيضا كل من لويد والمفتش العام وكذلك قائد قوات الاحتلال فى أن الطريق المؤكد لإبعاد الجيش المصرى عن السياسة فى تلك المرحلة من التطور، هو تحقيق السيطرة البريطانية على الترقيات والتعيينات والأوسمة على خطوط سليمة . أما العمل على استبعاد الضباط البريطانيين من الجيش المصرى - وهو المبدأ الذى كان يعتنقه السير لى ستاك - فأمامه اعتراضات قوية من وجهة النظر البريطانية تتركز فى أن الجيش المصرى سيتحول بسرعة إلى جهاز سياسى ، كما يجب أن تتعهد مصر بالضمانات التى تطالب بها بريطانيا، بالإضافة إلى أن بريطانيا ستفقد نفوذها على القبائل فى المناطق النائية بدون الحصول على أى تعويض فى مقابل ذلك .^(١)

وأكد لويد - فى هذا السياق - أن بريطانيا تتعامل مع حكومة رفضت السماح بشرعية التحفظات الأربعة ، وأنه يمكن التعامل مع أى حكومة مصرية تتمسك بالموافقة على هذه التحفظات .. إلا أنه مع وجود برلمان معها فإنه لا يمكن لأى حكومة مصرية اتخاذ سياسة إيجابية مع بريطانيا .^(٢)

وزارة عبد الخالق ثروت باشا

استمرت الأزمات السياسية بين مصر وانجلترا، واستقال عدلى يكن باشا^(٣) وعهد الملك فؤاد يوم ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٧ إلى عبد الخالق ثروت باشا بتأليف وزارة جديدة .^(٤) حيث شكلها يوم ٢٦ ابريل ١٩٢٧، ودخلها وزير حرية جديد هو جعفر والى باشا بدلاً من أحمد محمد خشبة بك .^(٥)

(1) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 87. OP. Cit.

(2) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 79. OP. Cit.

(3) وثائق مجلس الوزراء المصرى ، كتاب استقالة عدلى يكن باشا ، انظر الأمر الملكى رقم ٣٤ لسنة ١٩٢٧ .

(4) وثائق مجلس الوزراء المصرى ، أمر ملكى رقم ٣٦ لسنة ١٩٣٧ صادر من الملك فؤاد إلى عبد الخالق ثروت باشا بتاريخ ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٧ .

(5) وثائق مجلس الوزراء المصرى ، جواب عبد الخالق ثروت باشا إلى الملك فؤاد بتاريخ ٢٦ ابريل ١٩٢٧ .

وفى ٩ مايو ١٩٢٧ ، بدأ لويد اتصالاته المكثفة مع المسؤولين المصريين لإجهاض تلك الثورة الوطنية من أجل بناء الجيش المصرى القوى ، فهو بعد الدراسات التى أعدها ، والمراسلات العديدة التى تبادلها مع المسؤولين فى وزارة الخارجية البريطانية ، بدأ خطة العمل بهذه الاتصالات . فبدأ فى بداية مايو ١٩٢٧ بمقابلة مع الملك فؤاد ، وتطرق الحديث بينهما عن أزمة الجيش المصرى . وقد امتدح الملك التدخل الانجليزى فى شئون جيشه ، وأوضح أن هذا التدخل ليس فقط خطوة متعقبة بل إنها متأخرة أيضا . واعتبر لويد أن آراء الملك معقولة ومعتدلة. ثم سعى المندوب السامى بعد ذلك - وأثناء مقابلته مع الملك - فى تعميق الهوة بين الملك وحزب الوفد بإشارته إلى أن من أهداف الوفد الإطاحة بالأسرة المالكة . وفى النهاية استخلص لويد من الملك وعدا بأن يبذل جلالته كل مساعيه لضمان الموافقة على المطالب البريطانية ، كما أوضح بأن عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء سوف يسعى للموافقة عليها ، ولكنه شكك فى موقف سعد زغلول.^(١)

أما ثروت باشا فقد أوضح - أثناء مقابلة له مع المندوب السامى فى نفس اليوم - عن أمله فى أن يكون قادراً على تلبية الرغبات البريطانية ، إلا أنه طلب جعل هذه المسألة شخصية وغير رسمية حتى يجد الفرصة لمناقشتها مع الملك فؤاد وفى اجتماع مجلس الوزراء ، وقد وافق لويد على ذلك ، ولكنه علق بأنه سوف يؤكد بأن الحكومة البريطانية لن توافق على سياسة التسوية ، وأن موقف المفتش العام يجب أن يتحدد فى القريب العاجل .^(٢)

ويبدو أن ضغط أزمة الجيش كان كبيرا على الحكومة البريطانية ، حتى إنها قامت بعدة اتصالات دولية بخصوص هذه الأزمة ، وفى ١٠ مايو ١٩٢٧ استدعى المندوب السامى السفير الفرنسى فى القاهرة ، المسيو جيلارد Gaillard وأبلغه باتجاهات الحكومة البريطانية بالنسبة لأزمة الجيش المصرى ، وقد أبدى السفير الفرنسى موافقة حكومته الكاملة على السياسة البريطانية ، كما عبر عن وجهة نظره فى أن الحكومة المصرية قد تفضل

(1) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 90. (J. 1217/184/16) No. 172, Lord Lloyd to sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 9, 1927.

(2) Ibid.

الموافقة على المطالب البريطانية عن المخاطرة برفضها .^(١) كما أن السنيور موسولينى أرسل إلى سفيره في القاهرة في نفس الفترة ، يطلب إبلاغ المندوب السامى تعاطفه واستعداده لبذل أى مساعدة بالنسبة للصعوبات التى تواجه بريطانيا مع الحكومة المصرية بالنسبة لأزمة الجيش .^(٢)

واستمر لويدي فى اتصالاته المكثفة مع المسئولين المصريين ، فقابل ثروت باشا مرة أخرى يوم ١٢ مايو ١٩٢٧ وعرض عليه خطة للتعاون الودى فى الأمور الحربية بتعليقات من الحكومة البريطانية . إلا أن رئيس الوزراء أوضح بأن المطالب البريطانية غير معقولة ، وأبرز شكوكه بالنسبة لمساعدة سعد زغلول فى الموافقة على هذه المطالب . وأضاف رئيس الوزراء أنه سوف يزور سعدا فى مزرعته بالريف ويناقش معه تطورات الأزمة . كما تساءل ثروت باشا عما إذا كانت بريطانيا ستوافق على مقترحاته الخاصة بجعل الضباط الانجليز فى الجيش المصرى على شكل بعثة عسكرية ، فأجاب لويدي بأن الحكومة البريطانية مستعدة للموافقة على هذه المسألة الشكلية لمساعدته أمام البرلمان وأمام رأى العام المصرى ، ولكن مع ضمان السلطات والاختصاصات الضرورية للمفتش العام . ولم يستطع لويدي أن يستخلص شيئا من كلمات ثروت باشا ، ولكنه استنبط أن ثروت سوف يزور سعد زغلول فى منزله الريفى ومعه كل أعضاء مجلس الوزراء لمناقشة الأزمة .^(٣)

وبدا أن سعد زغلول هو حجر الزاوية فى الموافقة أو عدم الموافقة على المقترحات البريطانية . ولم يهدأ لويدي ، بل قابل الملك فؤاد مرة أخرى فى منتصف مايو ١٩٢٧ ،

(1) P.R.O.F.O. (407 – 204) b. No. 90. (J. 1217/184/16) No. 172, Lord Lioyd to sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 9, 1927.

(2) P.R.O.F.O. (407 – 204) b. No. 95. (J. 1346/8/16) No. 195, Lord Lioyd to sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 22, 1927.

(3) P.R.O.F.O. (407 – 204) b. No. 92. (J. 1268/184/16) No. 80, Lord Lioyd to sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 13, 1927. وفى الحقيقة أن ثروت باشا لم يقيم بزيارة سعد زغلول، لأنه لم يرد أن يفهم العامة بأن الزيارة تمت بناء على استدعاء سعد له . هذا بالإضافة إلى أن موقف ثروت باشا سيكون صعبا عند مناقشة أزمة الجيش وهو فى قبضة رجال حزب الوفد ويفضل اتخاذ قراره مستقلا .

وأوضح الملك فؤاد أنه يبذل قصارى جهده لإقناع رئيس وزرائه بالموافقة على المطالب البريطانية ، إلا أن لويد سجل بأنه قد تبين له مدى تقييد الدستور المصرى للملك . هذا بالإضافة إلى أنه لو قام الملك بتدعيم موقف البريطانيين فإنه سوف يتهم بالخيانة العظمى ، وقد يمنعه المتطرفون من السفر إلى لندن لكى لايزيد من هذه الخيانة ، هذا بالإضافة إلى أن الملك نفسه - طبقا لكلمات لويد - كان متمسكا بعدم إجراء أى عمل مناف للدستور.^(١)

وأكد عبد الخالق ثروت باشا خلال مقابله للويد مرة أخرى أهمية مقابلة سعد زغلول بوصفه رئيس الأغلبية فى البرلمان لأنه سوف تثار فى البرلمان مناقشات حامية ضد المقترحات البريطانية ، وكذلك ستثار مناقشات بالنسبة للعلاقة بين هذه المقترحات وتصريح ١٩٢٢ ، ونظرية المسئولية الوزارية . وأضاف ثروت باشا: أنه لا يستطيع إنكار أن مذكرة سوف تقدم إلى مجلس النواب توصى بإلغاء السردارية ، واستبعاد المفتش العام من مجلس الجيش ، وأن هذه المذكرة يظاها عدد كبير من أعضاء البرلمان الوفديين . وعبر ثروت باشا رئيس الوزراء عن قلقه الشديد أمام هذه الأزمة وأنه يتوق إلى حل سريع لها حتى يمكن تلافي أية مشكلات فى المستقبل ، لأن البرلمان مستعد تماما لمهاجمة أى عمل من جانب الحكومة يقحم " العمل الودى " كعمل ممكن تجاه بريطانيا . وأضاف ثروت باشا خلال لقاءه مع لويد بأنه سيبذل جهده كى يستميل أعضاء البرلمان إلى جانبه ، وأنه إذا استطاع أن يهزم سعد زغلول فإنه يكون قد كسب نصف المعركة . إلا أن لويد أبرز للملك فؤاد ولثروت باشا خطورة تأخر حل الأزمة .^(٢)

وفى يوم ١٩ مايو قابل لويد وزير الحربية جعفر والى باشا إلا أنه لم يدخل معه فى تفصيلات المطالب البريطانية بخصوص الجيش المصرى لأن ثروت باشا طلب منه ترك المسألة له ليحلها هو بطريقته الخاصة . وقد رحب الوزير بالسياسة البريطانية القائمة باعتبارها موجهة ضد حزب الوفد ، كما ألح فى وجوب الاعتماد عليه لضمان تحقيق حل للأزمة يتفق مع رغبات الحكومة البريطانية ، وأنه قد عقد علاقات حسنة مع المفتش العام.^(٣)

(١) جاد طه ، بريطانيا والجيش المصرى ، ص ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(3) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 94. (J. 1322/184/16)No.188, Lord Liloyd to sir Austen Chamberlain.Cairo,May,19, 1927.

وفي ٢١ مايو ١٩٢٧ قابل لويد المندوب السامي الملك فؤاد مرة أخرى ، وأوضح الملك أنه حث ثروت باشا رئيس الوزراء بقوة للموافقة على المطالب البريطانية الخاصة بالجيش المصري ، وأنه مع وجود صعوبة جانبية بالنسبة لاختصاصات السردارية ، فإن كل شيء يسير سيرا حسنا.^(١) وبعد مقابلة لويد للملك قابل ثروت باشا مرة أخرى ، وشعر أنه يباطل من أجل كسب الوقت ، فأرسل له مذكرة تلخص مطالب الحكومة البريطانية .^(٢) كما وضح له أن الحكومة البريطانية ترحب بفرصة وضع المطالب البريطانية في خطة أكبر للتعاون ، حيث يمكن للجيش المصري أن ينسق مع القوات البريطانية في مصر لوضع خطة شاملة للدفاع عن البلاد، وأنه يرحب بأي مقترحات مصرية في هذا الصدد .^(٣)

كما أورد لويد - أنه إذا ما رغب ثروت باشا - فإنه يمكنه مقابلة سعد زغلول والتباحث معه للتوصل إلى حل للأزمة ، ولكن ثروت باشا طلب منه إرجاء هذه المقابلة حتى يمكن له مقابلة سعد باشا أولا طبقا للكلمات لويد ، فإن موقف ثروت بدا يرثى له أمام تأثير سعد زغلول الساحق على نواب البرلمان.

ولم يلبث أن عاد ثروت وأبلغ المندوب السامي بأن سعد زغلول فضل تأجيل مقابله إلى ما بعد تسوية أزمة الجيش بطريقة مريحة . وفي وسط هذه الدوامه من المقابلات والاتصالات والمراسلات ، سجل لويد " أن الجو العام سيئ جدا، وأن المناخ السياسي ملء بالغيوم السوداء، وأن البلد يبدو هادئا ، إلا أن الحكومة البريطانية يجب أن لاتنسى أن أحداث ثورة ١٩١٩ قد وقعت وهي في غفلة عنها " .^(٤)

انظر كذلك وثائق دار المحفوظات العسكرية للقوات المسلحة ، ووثائق لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ملف رقم ٢٧/١٥ تحت عنوان: أزمة الجيش المصري عام ١٩٢٧ ، مذكرة موقعة باسم وزير الحربية جعفر والى باشا يوم ١٩ مايو ١٩٢٧ عن مقابله للمندوب السامي البريطاني .

(1) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 82, OP. Cit.

(2) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 96, OP. Cit.

(٣) جاد طه ، بريطانيا والجيش المصري ، ص ١٤٠ .

(٤) ووثائق دار المحفوظات العسكرية للقوات المسلحة ، ووثائق لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ملف رقم ٢٧/١٥ تحت عنوان: أزمة الجيش المصري عام ١٩٢٧ ، مذكرة موقعة باسم عبد الخالق ثروت رئيس وزراء مصر بتاريخ ٢٠ مايو ١٩٢٧ .

وعلى أية حال ، فقد عاد ثروت باشا مرة أخرى - يوم ٢٠ مايو ١٩٢٧ - وقدم اقتراحا مضادا وافق عليه سعد زغلول يقضى بأنه عند إلغاء السردارية ، فإنه يمكن استحداث وظيفة رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى على أن يحتلها ضابط بريطانى ، بالإضافة إلى المفتش العام البريطانى أيضا ، فطلب لويد من ثروت تقديم هذا الاقتراح كتابة ، إلا أن ثروت لم يقدم هذا الاقتراح مكتوبا ، ولكنه عاد مرة أخرى وقدم عرضا جديدا يقضى بأن يكون كل من رئيس هيئة أركان حرب الجيش والمفتش العام - وكلاهما انجليزى - فى رتبة واحدة . وأن يحل الأول محل السردار ، ويستحوذ على كل سلطاته - إلا أن لويد أثناء مناقشته هذا العرض ، أوضح أن العمل لايسير سيرا حسنا بين ضابطين بنفس الرتبة ، إلا أن رئيس الوزراء أجاب على ذلك بأن مستشاريه العسكريين ليس لديهم اعتراض على ذلك ، باعتبار أن الأقدم فى نفس الرتبة يعطى التعليقات للأحدث فى نفس الرتبة ، وبمعنى آخر أن يكون رئيس هيئة أركان حرب الجيش أقدم من المفتش العام رغم أنها فى رتبة واحدة .^(١)

وبعد ذلك بدأ ثروت باشا يكشف النقاب عن رأيه بصراحة ، وكذلك رأى الزعماء السياسيين ، فأوضح " أن هناك بعض المسائل القانونية قد تؤدى إلى بعض الصعوبات ، وأن بعض الزعماء قد أثار مسألة أن الجيش المصرى لايدخل فى إطار التحفظات الأربعة ، وأكثر من ذلك ، فإن المادة السابعة من قرار تشكيل مجلس الجيش تعطى لوزير الحربية الحق القانونى الواضح للتدخل فى كل التعيينات والترقيات والأوسمة ، وبتوصية من لجنة الضباط ، وأن الحكومة المصرية لا يمكنها أن تسلم فى هذا الحق " ، كما أضاف ثروت أنه ليس هناك أى أمل فى إقناع البرلمان بتعديل ذلك القانون ، كما أنه غير قادر على إقناع الوزراء بالموافقة على تغيير تبعية مصلحة الحدود وجعلها تحت الإشراف البريطانى . فأوضح لويد - المندوب السامى - لعبد الخالق ثروت باشا عن خيبة أمله ، وأنه حتى بالنسبة للاقتراح الخاص بتعيين رئيس لأركان حرب الجيش المصرى ، فإنه لا يوجد ضابط بريطانى يحترم نفسه يقبل هذا المنصب فى مثل هذه الظروف .^(٢) وعلق لويد فى مذكرته

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

لوزير خارجية إنجلترا المستر تشمبرلين على هذه المقابلة مع رئيس الوزراء بأن "علينا أن نتخذ خطوات أخرى لتأمين مصالحنا وأن عبد الخالق ثروت يهاطل" ^(١).

وفي يوم ٢٤ مايو تسلم لويد مذكرة خاصة من عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء، تمسكت فيها الحكومة المصرية رسمياً بأهداف قومية ووطنية واضحة، تتلخص في الآتي: ^(٢)

١- أن الجيش المصري لا يدخل ضمن أى من التحفظات الأربعة الواردة في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، وأن لمصر مطلق الحرية بالتالي للعمل في هذا القطاع.

٢- أن توصيات لجنة الضباط خاضعة لموافقة وزير الحربية.

٣- أن الاقتراح الذى قدمه رئيس الوزراء بتعيين رئيس لهيئة أركان حرب الجيش المصرى هو نابع أساساً من الرغبة في تلبية احتياجات الجيش وإبعاده عن أية أعمال لها طبيعة سياسية.

وفي يوم ٢٧ مايو ١٩٢٧ قدم مجلس الجيش المصرى توصياته القاضية بإلغاء السردارية لتعارضها من ناحية المبدأ مع المسئولية الوزارية، وأوصى المجلس كذلك بإعادة تشكيل مجلس الجيش مع استبعاد المفتش العام الانجليزى من عضويته، وكذلك إلغاء لجنة الضباط. ^(٣)

ووسط تصاعد الأزمة، طلب لويد يوم ٢٨ مايو ١٩٢٧ من تشمبرلين إرسال سفينتين حريتين إلى الإسكندرية وسفينة حربية إلى بورسعيد كنوع من الإرهاب عن طريق مظاهرة بحرية مسلحة، وأكد لويد أن هذا الإجراء سيكون له تأثير فعال، وأنه سيسمح بتأمين النفوذ البريطانى في الميناءين في حالة حدوث أى اضطرابات مفاجئة "تخطط لها الآن بلا شك قطاعات مختلفة من حزب الوفد". ^(٤)

(1) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 96, OP. Cit.

(٢) وثائق مجلس الوزراء المصرى، مذكرة الحكومة المصرية إلى المندوب السامى البريطانى بتاريخ ٢٤ مايو ١٩٢٧.

(٣) وثائق المتحف الحربى المصرى، ملف رقم ٢٤، توصيات مجلس الجيش المصرى خلال عام ١٩٢٧.

(4) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 112. (J. 1424/8/16) No. 216, Lord Lloyd to sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 28, 1927.

مذكرة الحكومة البريطانية

وفى يوم ٣٠ مايو ١٩٢٧ قام عبد الخالق ثروت باشا بزيارة المندوب السامى البريطانى اللورد لويدي فى مكتبه حيث سلمه الأخير مذكرة حكومة جلاله الملك بخصوص الجيش المصرى .^(١) وقد نصت تلك المذكرة الخطيرة على سلسلة من الإجراءات الخاصة بالجيش المصرى بهدف التوصل إلى تسوية ودية مع مصر بالنسبة للأمور المختلفة القائمة بين الدولتين . وأنه أيا كانت هذه التسوية ، فإن الحكومة البريطانية ترى أنه يجب على مصر أن تساعد بريطانيا على الدفاع عن مصر من العدوان الأجنبى ، وعلى حماية المواصلات الإمبراطورية ، كما نصت المذكرة أيضا على رغبة الحكومة البريطانية فى جعل الجيش المصرى قوة حديثة تتحلّى بالكفاءة ، وتشكل جزءا من خطة الدفاع عن البلاد ، وهى لذلك مستعدة لأن تقدم كل مساعدة ممكنة على إيجاد مثل هذه القوة ، بشرط أن تكون مدربة طبقا للقواعد البريطانية ، وبأقل عدد من الخبراء البريطانيين لأن هذه القوة ستدعى لتنسيق التعاون مع القوات البريطانية فى مصر .^(٢)

وأوضحت المذكرة البريطانية أنه قد لوحظ فى الأيام الأخيرة أن هناك اتجاها مقلقا يرمى إلى إقحام النفوذ السياسى فى الجيش المصرى ، وأن هذا الاتجاه برز بأشكال مختلفة ، وأنه قد تم جذب انتباه رئيس الوزراء المصرى إلى خطورة هذا الأمر عدة مرات ، كما سبق جذب انتباه سلفه . وأضافت المذكرة أن الاتصالات مع رئيس الحكومة المصرية فى هذه المسألة كانت غير رسمية ، إلا أنه نتيجة لقلق الحكومة البريطانية أمام تهديد مصالحها بطريقة مباشرة ، فإنها فضلت التدخل بأدنى درجة من درجات التدخل فى الشؤون المصرية.^(٣)

(1) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 114. (J. 1465/184/16) No. 220, Lord Lioyd to sir Austen Chamberlain. Cairo, May, 31, 1927, see also,

انظر كذلك : عبد الرحمن الرافعى - فى أعقاب الثورة المصرية ، الجزء الأول ، ص ٢٧٣ . حيث ذكر عبد الرحمن الرافعى أن لويدي سلم عبد الخالق ثروت مذكرة الحكومة البريطانية يوم ٢٩ مايو ١٩٢٧ وليس ٣٠ مايو ، عبد العظيم رمضان ، الجيش المصرى فى السياسة ، ص ٢٣٤ . حيث ذكر عبد العظيم رمضان أن المذكرة البريطانية سلمت للحكومة المصرية يوم ٣١ مايو ١٩٢٧ .

(2) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 100, OP. Cit.

(٣) جاد طه ، بريطانيا والجيش المصرى ، ص ١٥٠ .

كما أوضحت المذكرة أن الحكومة البريطانية مستعدة للموافقة على توصيتين : الأولى بخصوص تخفيض الخدمة العسكرية الإجبارية من ٥ إلى ٣ سنوات ، رغم أن هذه التوصية كانت هناك معارضة معلنة بالنسبة لها بخصوص زيادة الاحتياط المدرب ، وثانيا رفع كفاءة ٩ كتائب مشاة إلى تدعيم أفضل، وتحقيق زيادة سريعة في قوات المشاة (حملة البنادق) في الجيش المصرى بأكثر من ٦٠٠ جندي، والمساعدة من جانب الحكومة البريطانية لمصر من أجل تشكيل قوة جوية مصرية.^(١)

وقد طلبت الحكومة البريطانية طبقا لنص المذكرة تحقيق الآتى :^(٢)

١- وجوب تمكين المفتش العام للجيش المصرى من ممارسة الاختصاصات التى سبق أن فوضها له هدلستون باشا في يناير ١٩٢٥. إذ هى لم تلغ قط ، وأنه لهذا الغرض يجب أن يمنح رتبة الفريق وراتبه ومخصصاته ، وأن يوقع معه عقدا لمدة ثلاث سنوات على الأقل وبصفة فورية .

٢- إذا بقيت لجنة الضباط على شكلها الحاضر ، فيجب على وزير الحربية أن لا يتأخر عن أن يرفع إلى صاحب الجلالة ملك مصر توصيات هذه اللجنة فيما يتعلق بالتعيينات والترقيات والأوسمة ، والأمور الخاصة بالضبط والربط وحسن الانتظام العسكرى بصفة عامة .

٣- أن يعين ضابط بريطانى كبير برتبة لواء ليكون مساعدا للمفتش العام ينوب عنه في غيابه ، ويقوم بالأعمال التى يقوم بها المفتش العام نفسه . وهذا الضابط - مساعد المفتش العام - يحل محله في غيابه ، أو عندما يكون قائما بأعمال المفتش العام أقدم ضابط بريطانى يكون موجودا في ذلك الوقت .

٤- يجب أن تكون مصلحة الحدود ومصلحة خفر السواحل تحت إشراف المفتش العام البريطانى للجيش أو نائبه في غيابه . ويمكن بدلا من ذلك أن يكون المدير العام لهذه المصلحة ضابطا بريطانيا ، كما كان الحال حتى ابريل ١٩٢٥ .

(١) المرجع السابق ، نفس المكان ، انظر كذلك عبد الرحمن الرافعى ، في أعقاب الثورة المصرية الجزء الأول ، ص ٢١١ .

(2) P.R.O.F.O (407-204) b. No 100, OP. Cit , see also,

عبد الرحمن الرافعى : في أعقاب الثورة المصرية ، الجزء الأول ، ص ص ٢١١ - ٢١٢ .

٥- أن تظل المراكز التى يشغلها الآن ضباط أو موظفون بريطانيون فى المصالح التابعة لوزارة الحرية ، وكذلك فى مصلحة خفر السواحل إذا ما أدمجت فى مصلحة الحدود محفوظة فى أيد بريطانية ، ولا ينبغى أن تمس اختصاصاتهم سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

٦- فيما يتعلق بالاختصاص القضائى ، تظل الحالة الحاضرة على ماهى عليه فى الجهات الداخلة فى اختصاص مصلحة الحدود ، أى يبقى النظام العرفى فيها .

وانتهت المذكرة بالتأكيد على أن هذه المطالب هى الحد الأدنى الممكن لبريطانيا أن ترضى به ، كما أضافت أن الحكومة البريطانية تأمل فى أن ترسل لها الحكومة المصرية مقترحاتها من أجل تنسيق التعاون فى خطة الدفاع عن مصر .^(١)

ويتضح من المذكرة البريطانية أن الحكومة البريطانية كانت مقتنعة بأن الحل المناسب للأزمة - من وجهة نظرها - هو توقيع اتفاق بين بريطانيا ومصر ، " وأن الحكومة البريطانية مستعدة للدخول فوراً فى مباحثات من أجل تحقيق هذا الغرض ، وهى لا تستبعد احتمال إجراء بعض التعديلات فى مطالبها كجزء من التسوية . إلا أنه فى انتظار توقيع هذه التسوية ، فإنه ليس أمامها سوى أن تطلب من الحكومة المصرية تنفيذ الإجراءات الواردة فى المذكرة والسابق بيانها " .^(٢)

رد الحكومة المصرية على المذكرة البريطانية

وفى يوم ٣ يونيه ١٩٢٧ جاء الرد المصرى على المذكرة البريطانية ، وهو لا يقبل من المطالب البريطانية سوى المطلب الخاص بموافقة وزير الحرية على آراء لجنة الضباط ، وجاء الرد المصرى منمقا سيطر عليه الشكل أكثر من المضمون ، فهو لم يوافق على باقى المطالب البريطانية ولكنه لم يرفضها تماماً^(٣) .

(1) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 100, OP. Cit.

(2) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 174, OP. Cit.

(٣) عبد الرحمن الرافعى - فى أعقاب الثورة المصرية ، الجزء الأول ، ص ص ٢٧٤ - ٢٧٦ ، انظر كذلك: عبد العظيم رمضان - الجيش المصرى فى السياسة ، ص ص ٢٣٧ - ٢٣٩ .

وعلى أية حال نصت المذكرة المصرية على أن الحكومة المصرية تشاطر المندوب السامى وجهة نظره فى منع إقحام السياسة فى الجيش ، وأنها راغبة تماما فى إبعاد هذا الاتجاه عن الجيش المصرى ، ولم يكن ليفوتها إجراء التحقيق إذا قدمت لها حوادث معينة . أما فيما يتعلق بمسألة مد خدمة المفتش العام من سنتين إلى ثلاث سنوات ، فإن الحكومة المصرية ترى أن عقد المفتش العام لم يكد يبدأ مدته، ومن ثم فإن هذه المسألة الشخصية ليس لها أهمية حالية. ومثل هذا يقال عن اقتراح الإنعام عليه برتبة الفريق ورفع راتبه ، على أن الوزير سيبحث من جهة أخرى مسألة تعيين ضابط بريطانى عظيم ليكون مساعدا للمفتش العام على أداء أعباء منصبه أو ليحل محله عند غيابه .^(١)

وفىما يختص بمصلحة الحدود ، فإن هذه المصلحة التى تقوم بأعمال الإدارة الداخلية البحتة ومنع التهريب قد ألحقت بوزارة الحرية بمرسوم ٥ اكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وبمقتضى مرسوم سنة ١٩٢٥ الذى أنشأ مجلس الجيش ، فإن المدير العام لهذه المصلحة أصبح عضوا فى هذا المجلس بحكم وظيفته . هذا إلى أنه ما دامت المسائل المرتبطة بالدفاع عن البلاد داخلة فى اختصاص مجلس الجيش ، فإن هناك ما يدعو إلى الثقة بأن شئون مصلحة الحدود المتصلة بالمسائل العسكرية ستنجز بكل ما يرغب فيه من ضمان .^(٢)

وأعرب عبد الخالق ثروت باشا فى ختام رده عن رجائه فى أن الايضاحات والتأكيدات السابقة ، سوف تنهى كل سوء تفاهم بين الحكومتين بالنسبة لمسألة الجيش المصرى ، وعن رغبة الحكومة المصرية فى أن تقوى العلاقات بين البلدين يوما بعد يوم ، وأن يظل حسن التفاهم بينهما ، وأن تكلل بالنجاح مجهودات الطرفين فى الوصول إلى اتفاق يدعم روابط الصداقة التى تربط بين البلدين ويؤمن مصالحهما .^(٣)

تضارب الآراء بين لويد وتشمبرلن حول المذكرة المصرية

اختلفت آراء اللورد لويد المندوب السامى البريطانى مع آراء المستر اوستن تشمبرلن وزير خارجية بريطانيا حول المذكرة المصرية التى حللها كل منهما بطريقته وأسلوبه . فقد

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

وصف اللورد لويد الرد المصرى على المذكرة البريطانية بأنه " وثيقة شرفية تماما ، وأنها يمكن أن تتلاءم مع أى سياسة تقررها الحكومة المصرية فى وقت لاحق " . وفى نفس الوقت قرر لويد أن هذا الرد المصرى مرفوض تماما ، واقترح أنه فى حالة فشل المفاوضات النهائية إرسال إنذار إلى الحكومة المصرية لكى تستجيب للمطالب البريطانية فى مدى ٤٨ ساعة فقط . (١)

إلا أن المستر أوستن تشمبرلن وزير الخارجية و هيئة وزارته لم يستصوبون آراء المندوب السامى ، ورأوا أن المذكرة المصرية رغم أنها لم توافق إلا على مطلب واحد من المطالب البريطانية ، فهى فى نفس الوقت لم ترفض تماما كل المطالب ، كما أن لهجة المذكرة ودية فى مظهرها ، وإن بدت متمسكة بالوضع الراهن ، ولا يتضح من المذكرة اتجاه الحكومة المصرية إلى إصدار قرارات معادية لبريطانيا ، وأخيرا فإنها تبدو موافقة على مبدأ التفاوض بالنسبة لمبدأ التعاون العسكرى بين الجيشين المصرية والبريطانى ، والذي ركزت عليه المذكرة البريطانية ، والذي جاء فى تقرير المستر تشمبرلن فى مجلس العموم . (٢)

وأمام هذا التعارض الكبير بين وجهتى نظر المندوب السامى ووزارة الخارجية البريطانية ، أرسل نائب رئيس الوزراء البريطانى فى ٦ يونيو تعليماته المحددة إلى لويد فى كيفية التعامل مع الحكومة المصرية ، وأن عليه أن يرسل إلى عبد الخالق ثروت باشا مذكرة خاصة يتضح منها أن الحكومة البريطانية قد اهتمت كثيرا بالمذكرة المصرية ، وأنها ترحب بالتنازلات التى قدمتها الحكومة المصرية للتفاوض بهدف تنسيق التعاون بين الجيشين المصرية والبريطانى ، ومن ناحية أخرى فإن الحكومة البريطانية لا ترغب فى الانفراد بالحل النهائى لأمر مختلف ، والتى يمكن إرجاؤها للتسوية بالمفاوضات النهائية . وطبقا لهذا المفهوم ، أعدت الحكومة البريطانية مشروع اتفاق عسكرى مؤقت ، ويجب على الحكومة المصرية عدم التردد فى الموافقة على هذا المشروع طبقا لما جاء فى المذكرة المصرية . كما أوضحت مذكرة رئيس الوزراء البريطانى إلى لويد والمقترح إرسالها إلى الحكومة المصرية

(1) P.R.O.F.O. (407 – 204) b. No. 144 (J. 1553/8/16) No.250, lord Lioyd to sir Austen chamberlain. Cairo, June, 71927.

(2) P.R.O.F.O. (407 – 204) b. No. 174, OP. Cit.

أن الترتيبات التفصيلية الخاصة بمسائل الإدارة والخبرة والأفراد سوف تكون على شكل ملحق يرفق بالاتفاق ، وأن الحكومة البريطانية مستعدة فوراً لمناقشة هذه الترتيبات مع الحكومة المصرية ، وهي لا تستبعد احتمال إدخال بعض التعديلات في مطالبها السابقة بشرط أن تكون الحكومة المصرية مستعدة تماماً للموافقة وبدون تأخير على هذا العرض الجديد.^(١)

وأضاف رئيس الوزراء البريطاني في برقية إلى لويد أن أهم شيء في الموقف هو الحصول على موافقة الحكومة المصرية على الاتفاق ، وأنه إذا رفضت الحكومة المصرية ذلك ، فإن "علينا أن نبحث عن أعنف الإجراءات".^(٢)

ووسط ذلك التضارب في الآراء بين رئاسة الوزراء البريطانية ووزارة الخارجية من جانب والمندوب السامي من جانب آخر ، ووسط البرقيات والمذكرات المتعارضة بين الجانبين ، أبرق اللورد لويد في ١٢ يونيو إلى وزارته موضحاً أنه بعد جلسة طويلة وعاصفة لمجلس الوزراء المصري ، فإن ثروت باشا أعد مذكرة - وافق عليها سعد زغلول - لتسوية أزمة الجيش . وقد قام ثروت باشا بعرض مسودة المذكرة الجديدة على المندوب السامي بحضور الملك فؤاد ووزير الحربية لإدخال أى تعديلات عليها ، وأن خوف الحكومة المصرية كان الميزة الواضحة للمذكرة الأخيرة"^(٣). وكانت خلاصة هذه المذكرة الأخيرة أن الحكومة المصرية قد قررت وبتحديد كامل أن اختصاصات السردار كما فوضها الجنرال هدلستون باشا في سنة ١٩٢٥ ، قد أدت إلى سوء تفاهم بالنسبة للأمور

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(3) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 156, (J. 1584/8/16) Lord Lloyd to sir Austen Chamberlain. Cairo, June 12, 1927.

يؤكد اللورد لويد المندوب السامي البريطاني أن هذا التراجع المصري كان نتيجة للمباحثات التي بدأها المستر انتونيوس Antonius في ٨ يونيو مع محمد فتح الله بركات باشا وزير الزراعة المصري ، وأن هذه المباحثات كانت شخصية وغير رسمية ، ولكنها أدت تحت التوجيه السرى لها من جانب المندوب السامي إلى تلك النتائج المرضية من وجهة النظر البريطانية . .

انظر كذلك وثائق دار المحفوظات العسكرية للقوات المسلحة ، ووثائق لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ملف رقم ٢٧/١٥ تحت عنوان: أزمة الجيش المصري عام ١٩٢٧ ، مذكرة موقعة باسم عبد الخالق ثروت باشا رئيس وزراء مصر بتاريخ ١٢ يونيو ١٩٢٧.

القائمة ، وأن الحكومة المصرية مستعدة للحفاظ على هذه الاختصاصات دون مساس ، كما تم تفويضها للمفتش العام . كما أنه بالنسبة لمنصب نائب المفتش العام ، فإن الحكومة المصرية مقتنعة تماما بالحاجة إلى هذه الوظيفة ، التى يجب أن يعين فيها ضابط بريطانى فورا . أما بالنسبة لتوصيات لجنة الضباط ، فإنها ترفع فى الخلافات الاستثنائية جدا من وزير الحربية إلى ملك مصر كما كان الحال تماما . كما أن الحكومة المصرية سوف تبدى اهتماما سريعا بالنسبة للأمور المدنية والقضائية التى تتكفل بها مصلحة الحدود ، وكذلك الأمور التى تؤثر فى الدفاع عن البلد ، وأية موضوعات أخرى هامة .^(١)

كما أضافت المذكرة أن المفتش العام سيمنح رتبة الفريق وراتبه فى غضون أسبوع ، وأن مساعد المفتش العام سوف يصدر قرار تعيينه فى ظرف أسبوع من ترشيح اسمه ، وأن المنصب الثانى فى مصلحة الحدود سوف يحتله ضابط بريطانى - وهو مساعد مدير خفر السواحل - عند إدماج المصلحتين .^(٢)

وهكذا وافقت الحكومة المصرية على كل المطالب البريطانية الحيوية ، وأنهت أزمة الجيش بسرعة فائقة ولصالح الحكومة البريطانية تماما ، ووافقت أيضا على إجراء المفاوضات من أجل التوصل إلى اتفاق بين الحكومتين لتنسيق التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى للدفاع عن مصر وطبقا لما سبق أن طلبته الحكومة البريطانية ، وقد صيغت المذكرة المصرية الجديدة بمهارة وعلى خطوط جعلت رجوعها إلى مجلس النواب أمرا غير ضرورى . وهذه المذكرة مثل المذكرة الأولى ، لم تحدد شكل التعاون العسكرى بين الجيشين المصرى والبريطانى ، رغم أنها رحبت بمثل هذا التعاون .^(٣)

وأكد عبد الخالق ثروت باشا أهمية الموافقة الفورية على المذكرة المصرية الجديدة قبل أن يغير سعد من موقفه ويسحب موافقته عليها . وبطبيعة الحال أبلغه لويد شكر الحكومة البريطانية على مجهوداته فى تعديل وجهة نظر الحكومة المصرية والنحى بالسياسة المصرية

(١) وثائق دار المحفوظات العسكرية للقوات المسلحة - وثائق لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ملف رقم ٢٧/١٥ تحت عنوان: أزمة الجيش المصرى عام ١٩٢٧ ، مذكرة موقعة باسم عبد الخالق ثروت باشا رئيس وزراء مصر بتاريخ ١٢ يونيه ١٩٢٧ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

الوطنية بخصوص أزمة الجيش منحى جديدا مواليا للاحتلال . ومن ناحية أخرى طلب لويد برقيا من وزارة الخارجية البريطانية الموافقة الفورية على المذكرة المصرية الجديدة "حتى لا يحصل (المتطرفون) - هكذا جاء في الوثيقة - على أى فرصة للضغط على سعد زغلول حتى يتراجع عن موقفه ". وأضاف أنه سينتظر إجابة الحكومة البريطانية حتى الساعة الرابعة من مساء يوم ١٣ يونيو ، وأنه في حالة تأخر الرد " فإننى سأتحمل المسؤولية الكاملة في الموافقة على المذكرة المصرية بصفتى الشخصية ، وإن كنت أفضل وصول رد الحكومة البريطانية لكى أعفى نفسى من هذه المسؤولية " .^(١)

إلا أنه في نفس اليوم - ١٢ يونيو - صدرت التعليمات من لندن إلى اللورد لويد بالموافقة على المذكرة المصرية الجديدة ، وهكذا أرسل لويد مذكرة إلى عبد الخالق ثروت باشا يبلغه فيها أن الحكومة البريطانية قد أسعدها أن الحكومة المصرية تشاركها الأمل في الاستعداد لعقد اتفاق بالنسبة للمسائل المعلقة بين الدولتين ، والبدء في مفاوضات لدراسة أسس التعاون بين الجيشين المصرى والبريطانى .^(٢)

وفي ١٥ يونيو ١٩٢٧ ، قدم ثروت باشا بيانا بخصوص الأزمة ، أمام مجلس النواب ، حيث وافق المجلس على بيان رئيس الوزراء .. وفي النهاية أعلن سعد زغلول أنه ليس هناك خلاف بين أعضاء المجلس على بيان رئيس الوزراء ، وأن الموافقة شبه إجماعية . وهكذا تمت الموافقة على بيان ثروت باشا ، ولم تستمر المناقشة بخصوصه أكثر من أربعين دقيقة .^(٣)

وقد رفع عبد الخالق ثروت باشا هذه الموافقة بسرعة إلى مجلس الشيوخ حيث أعاد قراءة البيان ، وقد استقبل الأعضاء هذا البيان بالصمت الرهيب .^(٤)

وهكذا وافق البرلمان المصرى على ميزانية وزارة الحربية ، وتضمنت هذه الميزانية بنداً لشراء عدد من المدافع الآلية - وفي ١٧ يونيو وافق الملك فؤاد على منح المفتش العام للجيش المصرى رتبة الفريق .

(1) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 156, Ibid..

(2) P.R.O.F.O. (407 - 204) b. No. 174, OP. Cit.

(٣) وثائق مجلس النواب المصرى ، مضبطة جلسة يوم ١٥ يونيو ١٩٢٧ .

(٤) وثائق مجلس الشيوخ المصرى ، مضبطة جلسة يوم ١٦ يونيو ١٩٢٧ .

وجاءت التهانى من رئيس الوزراء البريطانى إلى اللورد لويد لنجاحه فى حل أزمة الجيش المصرى بما يحقق الحفاظ الكامل على المصالح البريطانية ، وذلك رغم تعارضهما فى الرأى بالنسبة لكيفية حل هذه الأزمة فى مرحلة سابقة.^(١)

وهكذا انتهت أزمة كبرى - خاصة ببناء الجيش المصرى الوطنى - كادت تؤدى إلى مواجهة شاملة بين مصر وبريطانيا.. انتهت لصالح بريطانيا لتقاعس السياسيين المصريين عن التمسك بالثوابت الوطنية التى كانت نبراسا لمصر أثناء ثورة ١٩١٩ ، وتمسكا بمقاعدهم سواء فى الوزارة أو فى البرلمان ، وخوفا منهم من إلغاء الدستور. والواقع أن مهارة المندوب السامى اللورد لويد ، وتفهمه الكامل لدقائق الحياة السياسية فى مصر فى تلك الفترة ، مكنته من اختيار الأسلوب المناسب لحل هذه الأزمة الخطيرة ، بما يحقق فى النهاية الحفاظ على المصالح البريطانية ، وعلى النقيض من ذلك ، كان تراجع السياسيين المصريين أساسا لتأخر بناء الجيش المصرى الوطنى إلى حين .

وانتهت الأزمة بأن قررت الحكومة مد مدة خدمة اسبنكس باشا المفتش العام للجيش، ومنحته رتبة فريق ، وقبلت تعيين وكيل انجليزى له وهو اللواء بالمر باشا ، وعينت ضباطا انجليز جددا بالجيش .

واستبان من ملابسات هذه الأزمة أن انجلترا لا تريد أن يكون لمصر جيش قوى يعول عليه فى الدفاع عنها ، وقد أفصح المحرر الحربى لجريدة الديلى تلغراف عن هذه النية بقوله: " إذا ما قبلت زيادة عدد الجيش المصرى وجبت زيادة جيش الاحتلال . وإذا ما قبلت زيادة سلاح الجيش المصرى وجبت زيادة سلاح الجيش المحتل " .

وأرادت انجلترا من ناحية أخرى الضغط على الحكومة المصرية وإكراهها على الدخول فى مفاوضات لعقد المعاهدة التى تربط مصر بانجلترا، وإنذارها بأنها ما لم تقبل المعاهدة فستظل انجلترا على سياستها فى إحراجها وإثارة الأزمات فى وجهها والتدخل فى شئونها الداخلية .

(١) وثائق المحفوظات العسكرية ، ملف رقم ٢٧ / ١٥ سبق ذكره ، أمر ملكى بمنح المفتش العام رتبة الفريق .

المصادر

أولا : الوثائق

(أ) الوثائق غير المنشورة

١- العربية :

* وثائق مجلس الوزراء المصري :

- ملف رقم ١٥٠ / ٣ / ٢٢٣ بعنوان: "البعثة العسكرية البريطانية" إدارة المحفوظات.
- ملف رقم ٦٨ ، مذكرة إسماعيل باشا وزير الأشغال ووزير الحربية والبحرية إلى حسين رشدي باشا رئيس الوزراء بتاريخ ٢٠ يناير ١٩١٦.
- ملف رقم ١٨ ، قرار وزارى أصدرته الحكومة المصرية يوم ٢٠ يناير ١٩١٦ بطلب أفراد الرديف .
- الأوامر الملكية الصادرة بتكليف رؤساء الوزراء بتشكيل الحكومات المصرية خلال الفترة من عام ١٩١٤ وحتى عام ١٩٤٨ .
- الأوامر الملكية الصادرة بقبول استقالات الوزارات أو إقالة الوزارات خلال الفترة من عام ١٩١٤ وحتى عام ١٩٤٨ .
- الأوامر الملكية الصادرة بقبول استقالات الوزارات أو إقالة الوزارات خلال الفترة من عام ١٩١٤ وحتى عام ١٩٤٨ .
- مراسيم تشكيل الحكومات المصرية خلال الفترة من عام ١٩١٤ وحتى عام ١٩٤٨ .
- دوسيه ١٦ - ٣ / ٨٦ - جزء أول - وزارة المالية - اللجنة المالية رقم ١ / ٥٠١ حربية - ميزانية ٤٥ - ٣٧ / ٢ (٣) مذكرة مكرم عبيد في ٧ مارس ١٩٣٧ .
- مذكرة اللجنة المالية إلى مجلس الوزراء في ٢٧ ديسمبر ١٩٣٦ .

وثائق دار المحفوظات المركزية العسكرية للقوات المسلحة المصرية

- وثائق وزارة الحربية المصرية ، ملف رقم (١٠٥٥) الحملة التركية الأولى على القناة .
- وثائق وزارة الحربية المصرية ، ملف رقم (١٠٠٤) مجهود مصر الحربى ، تقرير الجنرال السير أرشيبالد مورى إلى حكومته عن خدمات الجيش المصرى حتى أواخر عام ١٩١٦ .
- وثائق وزارة الحربية والبحرية ملف رقم (١٢٥٠) ، تقرير الجنرال السير أرشيبالد مورى عن أسلوب الدفاع عن القناة.
- وثائق وزارة الحربية والبحرية ، ملف رقم (١٢٦٠) تقرير اللورد كتشنر عن تفقده لجهة قناة السويس وسيناء .
- وثائق وزارة الحربية والبحرية ، ملف رقم (١٢٦١) تقرير الجنرال هورن عن انتخابه أصليح خط دفاع عن قناة السويس.
- وثائق وزارة الحربية والبحرية ، ملف رقم (١١٨٨) مسألة وثائق القيادة ، مجموعة تقارير .
- وثائق وزارة الحربية والبحرية ، ملف رقم (١١٩٨) مسألة وثائق القيادة ، مجموعة تقارير .
- وثائق وزارة الحربية والبحرية ، ملف رقم (١٢٥٨) خسائر القوات التركية فى معركة الرمانه يوم ٤ أغسطس ١٩١٦ .
- وثائق وزارة الحربية والبحرية ، ملف رقم (١٩٥٠) تقرير عن حملة الصحراء الغربية ، كتبه أركان حرب العمليات الحربية المصرية بأمر حضرة صاحب السعادة رئيس أركان حرب الجيش المصرى بتاريخ ١/٦/١٩٣٨ .
- وثائق وزارة الحربية والبحرية ، ملف رقم (١٩٥٣) خسائر المعارك فى الجبهة الغربية المصرية خلال الفترة من عام ١٩١٥ وحتى عام ١٩١٦ .
- وثائق وزارة الحربية والبحرية ، ملف رقم (١٩٥٨) نتائج المعارك فى الجبهة الغربية المصرية .
- وثائق وزارة الحربية والبحرية ، ملف رقم (٤٨) الرديف المصرى .
- وثائق وزارة الحربية والبحرية ، ملف رقم (٨٥) فيلق العمال المصريين .

- وثائق وزارة الحربية والبحرية ، ملف رقم (١٨) المساعدات التي قدمتها مصر لبريطانيا خلال الحرب العظمى الأولى .
- أوراق الأمير عمر طوسون ، رسالة على بن دينار إلى السير ريجنالد ونجت بتاريخ ١٩١٦/٢/٣ .
- وثائق وزارة الحربية المصرية ، قانون القرعة العسكرية الصادر في نوفمبر ١٩٠٤ والتعليقات الصادرة من وزارة الحربية - القاهرة سنة ١٩٠٤ .
- وثائق وزارة الحربية المصرية ، ملفات خاصة بالجيش المصرى خلال أعوام ١٩١٤ وحتى عام ١٩٤٨ .
- وثائق وزارة الدفاع الوطنى المصرية ، ملف رقم ٢١٩٥/ ج ، ملف البعثة العسكرية البريطانية .
- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، وثائق لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ملف خاص بتقارير عن الجيش المصرى .
- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، وثائق لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وحدة الأوراق الخاصة (تم ذكر أصحاب هذه الأوراق فى هوامش الدراسة) .
- وثائق وزارة الدفاع المصرية ، وثائق لجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ملف خاص بمنشورات الضباط الأحرار خلال الفترة من ١٩٤٥ إلى ٢٢ يوليو ١٩٥٢ (تم إرفاق صورة من هذه المنشورات فى ملاحق الدراسة) .
- وثائق وزارة الحربية ، الوضع السياسى والاستراتيجى لقناة السويس وأثره على العلاقات المصرية ، كود ٢٤/١٧ .

وثائق المتحف الحربى المصرى

- ملف رقم ١٦٠٧ سلاح الطيران الملكى المصرى .
- تقرير عن مناورات الجيش سنة ١٩٣٥ بمعرفة الفريق ش . و . سبنكس باشا المفتش العام ، تحريرها بالقاهرة فى ٢٢ ابريل ١٩٣٥ .
- ملف رقم ١٦٢٦ بعنوان: " دراسة مقارنة بين حالة الجيش قبل البدء فى اعادة تنظيمه وحالته الحاضرة لغاية ٣١ مايو ١٩٣٨ " بقلم الصاغ مساعد أذجوتانت جنرال قسم أول ١٩٣٨/٦/٢٣ .

- ملف رقم ١٦٠٨ بعنوان: " تعليمات عامة لتدريب الجيش المصرى عام ١٩٣٤ " ، إدارة العمليات الحربية - وزارة الدفاع الوطنى .
- منشور تعليم رقم ٨٠ " مشروعات بيانات عملية قام بها مركز التدريب النيوزيلندى سنة ١٩٤١ " .
- منشور تعليم رقم ٨٧ - ملاحظات عن التدريب المشترك بلواء التدريب عام ١٩٤٣ .
- ملف رقم ١٦٥٢ ، السجل التاريخى للكتيبة التاسعة بنادق مشاة .
- تعليمات تدريب الجيش المصرى عام ١٩٤٤ - تنظيم التدريب .
- سلاح المدفعية الملكى " تقرير التفتيش السنوى عام ١٩٤٦ " - الماظة فى ١٥ ديسمبر ١٩٤٦ - من اللواء محمود جاهين قائد عام سلاح المدفعية إلى حضرة صاحب السعادة رئيس هيئة أركان حرب الجيش .
- ملف رقم ١٦١٤ - التقرير الطبى السنوى ١٩٤١ - ١٩٤٢ بتاريخ ١٥ مايو ١٩٤٣ .
- رئاسة إدارة الجيش - التقرير السنوى عام ١٩٤٩ .
- تقرير عن كلية أركان الحرب الملكية ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ .
- الأوامر العسكرية ٣٤٠ فى ١ / ١٠ / ١٩٤٠ ، تعديلات لقوانين القبول فى كلية أركان الحرب الملكية .
- نشرة الأوامر العسكرية خلال الفترة من ١ / ٣ / ١٩١٦ وحتى ٣ / ١٢ / ١٩١٩ .
- ملف ٧٦ " فرقة الضباط العظام " الدورة ١٢ لسنة ١٩٤٧ - كتيبة البنادق المشاة الحديثة فى الجيش المصرى .
- مذكرات عن الاستخدام التكتيكى لأورطة بنادق سنة ١٩٣٨ .
- ملف ٥٠٧١ " موجز عن نصيب مصر من عمليات الحرب العالمية الثانية وما اقترن به من الأحداث السياسية المتصلة بها " - لواء حامد أحمد صالح .
- تقرير حضرة صاحب السعادة الفريق إبراهيم عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى عن زيارة البعثة العسكرية المصرية للولايات المتحدة الأمريكية .
- سلاح المدفعية الملكى " تقرير التفتيش السنوى عام ١٩٤٦ - الماظة فى ١٥ ديسمبر ١٩٤٦ - تقرير اللواء محمود جاهين قائد عام سلاح المدفعية إلى حضرة صاحب السعادة رئيس هيئة أركان حرب الجيش .

وثائق دار الوثائق القومية

- وارد إفرنجدى رقم ١٧٤٣ فى ١٢ نوفمبر ١٩١٦.
- محفظة الحربية أرقام ٩، ٧.
- محفظة الجيش أرقام ٥، ٣.
- دفتر صادر ووارد، ج ١، عملية أورطة رديف الجيش المصرى من ١٩١٧ - ١٩١٨.
- محفظة إدارة سيادية بدون رقم، ١٩٣٧ - ١٩٤٤.
- مكتب المشير عبد الحكيم عامر - دولاب ١٠ - محفظة ٣، ٦، ١، ١٤٧.
- مكتب المشير عبد الحكيم عامر - دولاب ١١ - محفظة ١٤٩.
- وثائق وزارة الخارجية المصرية : تم ذكر هذه الوثائق فى هوامش الدراسة.
- وثائق القصر الجمهورى المصرى : تم ذكر هذه الوثائق فى هوامش الدراسة.
- وثائق مجلس الشيوخ المصرى : مضابط الجلسات خلال الفترة من ١٩٢٧ وحتى عام ١٩٤٨.
- مضابط جلسات مجلس النواب المصرى خلال الفترة من ١٩٢٦ - ١٩٤٨.

٢- الأجنبية

- Public Record office, 438.
- Public Record office, 407 - 200 (b) 1924.
- Public Record office, 407 - 200 (d) 1924.
- P. R. O. 407 - 201 - 1925.
- P. R. O. 407 - 200 (C) - 1925.
- P. R. O. 407 - 201 - 1926.
- P. R. O. 407 - 203 (e) - 1926.
- P. R. O. 407 - 204 (b) - 1927.
- Foreign office, 371 - 23337.
- F. O. 371 - 41313.
- F. O. 548, 487, 443.

البرقيات المتبادلة بين السفير البريطانى مايلز لامبسون ووزارة الخارجية البريطانية أرقام

٥٤٨، ٤٨٧، ٤٤٣

- F. O. 371 - 41314,.
- F. O. 371 - 45940, .
- F. O. 371 - 45948, .
- F. O. 371 - 53268, .
- F. O. 371 - 63074.
- F. O. 371 - 45945.
- F. O. 371 - 63076.
- F. O. 371 - 63077.
- F. O. 141 - 1201.
- F. O. 32 - 4167.

(ب) الوثائق المنشورة

١- العربية

- وزارة الخارجية المصرية ، الكتاب الأبيض - القضية المصرية : ١٨٨٢ - ١٩٥٤ ، المطابع الأميرية ، القاهرة ١٩٥٥ .
- الكتاب الأخضر المصرى عن " السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير ١٩٥٣ " ، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٥٣ .
- الحكومة المصرية ، مجموعة القوانين والمراسيم والأوامر الملكية ، المجلد الأول سنة ١٩٢٥ ، المطبعة الأميرية ١٩٢٥ .
- وزارة الخارجية المصرية ، نصوص معاهدة سنة ١٩٣٦ .
- وثائق مجلس الوزراء المصرى - الأمانة العامة ، " العيد المئوى لمجلس الوزراء ١٨٧٨ - ١٩٧٨ " ، طبعة خاصة .
- وثائق مجلس الوزراء ، " النظارات والوزارات المصرية ١٨٧٨ - ١٩٥٣ " ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٩ .
- وثائق وزارة الدفاع المصرية - الأمانة العامة ، السجل التاريخى لوزارة الدفاع ، طبعة إدارة المساحة العسكرية ١٩٨٢ .
- وزارة الحربية والبحرية ، الجيش المصرى ، مجهود مصر الحربى ، وضع القائم مقام أركان حرب محمد إبراهيم ، المطبعة الأميرية ١٩٥٢ .

- وزارة الحربية ، الوضع السياسى والاستراتيجى لقناة السويس ، سرى جدا، ص كود ١٧-٢٤.
- وزارة الحربية والبحرية ، الجيش المصرى ، الحملات الحربية بفلسطين ، المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٨.
- الوقائع المصرية - عدد رقم ١٥٤٣ ، ١٧ يناير سنة ١٨٨٣.
- الوقائع المصرية - عدد غير اعتيادى ، ٢ نوفمبر ١٩١٤ .
- راشد البراوى ، مجموعة الوثائق السياسية ، المركز الدولى لمصر والسودان وقناة السويس ، الجزء الأول ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٥٢ .
- وزارة الدفاع الوطنى : الحدود المصرية ورجالها ، عبد الرحمن زكى ، دار المستقبل القاهرة ١٩٤٧ .

٢. الأجنبية

- Foreign office (F . O) : No. 401.
- Blue Books . No. 1914, 1915, 1916.
- Great Britain and Egypt : 1914 – 1951,
- Information papers, No. 19, R. 1. I. A, London 1952
- J. C. Hureulitz. Middle East politics : The military Dimension- published for the council on foreign Relations by ptaeger publishers 1970.
- Parliamentary papers Egypt No. 2. 1883.
- Parliamentary papers Egypt No 1. 1885, No. 1. 1886, No 1. 1897, No. 1. 1907.

ثانيا : المذكرات الشخصية والأوراق الخاصة

(أ) غير المنشورة

١- العربية

- جلال علوبة ، الأوراق الشخصية . وجلال علوبة كان أميراً للبحر وقائدا لليخوت الملكية فى عهد الملك فاروق .
- حسين محمد أحمد حمودة ، الأوراق الشخصية.

- سيد جاد ، الأوراق الشخصية .
- صلاح شادى ، الأوراق الشخصية .
- عبد العزيز على ، الأوراق الشخصية .
- عبد اللطيف البغدادى ، الأوراق الشخصية .
- عبد المنعم عبد الرؤوف ، الأوراق الشخصية .
- عبد المنعم عبد الرؤوف ، الأوراق الشخصية .
- فتحى رضوان : الأوراق الشخصية .
- كمال الدين حسين ، الأوراق الشخصية .
- كمال الدين رفعت ، الأوراق الشخصية .
- محسن عبد الخالق ، الأوراق الشخصية .
- مصطفى عبد المجيد نصير ، الأوراق الشخصية .
- يحيى أحمد فؤاد ، الأوراق الشخصية للواء أركان الحرب يحيى أحمد فؤاد .

(ب) المنشورة

١- العربية

- أحمد أبو الفتح : جمال عبد الناصر ، المكتب المصرى الحديث ، القاهرة ١٩٩١ .
- أحمد طعيمة : شاهد حق ، صراع السلطة : نجيب - عبد الناصر - عامر - السادات ، مطابع الأهرام ١٩٩٩ .
- أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، الحولية الأولى (١٩٢٤) ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٥ .
- أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ، الحولية الثانية (١٩٢٥) ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٣٦ .
- أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٤ .
- أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٣٦ .
- أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الثالث .
- أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الرابع .

- أحمد عرابي : مذكرات أحمد عرابي ، الجزء الأول .
- أحمد لطفى السيد : قصة حياتي ، القاهرة ١٩٦٢ .
- أحمد لطفى السيد : صفحات مطوية من تاريخ المعركة الاستقلالية في مصر - جمعها إسماعيل مظهر ، القاهرة ١٩٤٦ .
- أحمد لطفى السيد : المنتجات - جمعها إسماعيل مظهر نقلا عن " الجريدة " ، جزءان ، القاهرة ١٩٣٧ ، ١٩٥٥ .
- إسماعيل صدقي : مذكراتي ، القاهرة ١٩٥٠ .
- أنور السادات : قصة الثورة كاملة ، كتاب الهلال ، العدد ٧٥ يونيه ١٩٥٧ .
- أنور السادات : أسرار الثورة المصرية ، مطابع معتوق ، بدون تاريخ ، بيروت .
- أنور السادات : البحث عن الذات ، المكتب المصرى الحديث ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
- ثروت عكاشة : مذكراتي في السياسة والثقافة ، الجزء الأول ، مكتبة مدبولي ، القاهرة طبعة ١٩٨٧ .
- ثروت عكاشة : مذكراتي في الثقافة والسياسة ، الجزء الثاني ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٨٧ .
- جلال علوية : مذكرات أمير البحر - الملك وأمير البحر ، القاهرة ١٩٩٨ .
- جمال باشا : مذكرات سياسى تركى ، ترجمة وزارة الحربية المصرية ، محفوظات القوات المسلحة ، عام ١٩٢٢ .
- جمال منصور : في الثورة والدبلوماسية ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٨٩ .
- حسن قنديل : فتح دار فور ١٩١٦ - نبذة من تاريخ سلطاتها على دينا ، الإسكندرية ١٩٣٧ .
- حسين محمد أحمد حمودة : أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمين ، الزهراء للإعلام العربى ، الطبعة الرابعة ١٩٩٤ .
- حسين حسنى قاسم : سنوات مع الملك فاروق - شهادة السكرتير الخاص للملك فاروق ، الطبعة الأولى ، دار الشروق - القاهرة ٢٠٠١ م .

- خالد محبى الدين : والآن أتكلم ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ .
- سعد زغلول : مذكرات سعد زغلول ، دار الوثائق القومية .
- سيد جاد : الحرس الحديدى ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٩٣
- صليب سامى : ذكريات ١٨٩١ - ١٩٥٢ ، مطبعة أمين عبد الرحمن بمصر ١٩٥٣ .
- صلاح شادى : صفحات من التاريخ - حصاد العمر ، سلسلة الحركة الإسلامية رقم (٣) ، شركة الشعاع للنشر ، الكويت ١٩٨١ .
- صلاح الشاهد : ذكريات فى عهدين ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧٦ .
- صلاح نصر : مذكراته - ثورة ٢٣ يوليو بين المسير والمصير ، الجزء الأول ، مطبوعات مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ .
- عباس حلمى الثانى : مذكراته - جريدة المصرى ، مارس - يوليه ١٩٥١ .
- عباس حلمى الثانى : عهدى - مذكرات عباس حلمى الثانى خديو مصر الأخير ١٨٩٢ - ١٩١٤ ، ترجمة دكتور جلال محبى ، الطبعة الأولى - دار الشروق ١٩٩٣ .
- عبد اللطيف البغدادى : مذكراته ، الجزء الأول ، المكتب المصرى الحديث - القاهرة ١٩٧٧ .
- عبد اللطيف البغدادى : مذكراته ، الجزء الثانى ، المكتب المصرى الحديث - القاهرة ١٩٧٧ .
- عبد المنعم عبد الرؤوف : مذكراته - أرغمت فاروق على التنازل عن العرش ، الزهراء للإعلام العربى - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٨٨ .
- علية توفيق : يوسف صديق وجمال عبد الناصر وأنا ، مطابع الأهرام ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م .
- فتحى رضوان : ٧٢ شهراً مع عبد الناصر ، كتاب الحرية ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ ، دار الحرية للصحافة العامة والطباعة والنشر .
- فكرى أباطة : الضاحك الباكي ، القاهرة ١٩٥٨ .

- كريم ثابت : مذكرات كريم ثابت - نهاية الملكية ، عشر سنوات مع فاروق ١٩٤٢-١٩٥٢ ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م - دار الشروق .
- كريم ثابت : مذكرات كريم ثابت - ملك النهاية - فاروق كما عرفته ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م - دار الشروق .
- كمال الدين رفعت : حرب التحرير الوطنية بين إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وتوقيع اتفاقية ١٩٥٤ ، القاهرة ١٩٨٦ .
- محمد بهي الدين بركات : صفحات من التاريخ ، القاهرة ١٩٦٠ .
- محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية ، الجزء الأول - القاهرة ١٩٥١ .
- محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية ، الجزء الثاني - القاهرة ١٩٥٣ .
- محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية ، الجزء الثالث - القاهرة ١٩٧٧ .
- محمد عبد الفتاح أبو الفضل : تأملات في ثورات مصر - ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الأول الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٤ .
- محمد عبد الفتاح أبو الفضل : تأملات في ثورات مصر - ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الجزء الثاني الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٥ .
- محمد عبد الفتاح أبو الفضل : مصر والسودان بين الوثام والخصام ، كتاب الحرية رقم ٣٧ ، الطبعة الأولى ١٩٩٥ .
- محمد عبد الفتاح أبو الفضل : كنت نائباً لرئيس المخابرات ، كتاب الحرية رقم ٣٥ ، الطبعة الأولى ١٩٩٤ .
- محمد نجيب : كلمتي للتاريخ ، دار الكتاب النموذجي ، القاهرة ١٩٧٥ .
- محمد نجيب : مذكراته - كنت رئيساً لمصر ، المكتب المصري الحديث ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ .
- محمود أبو الفتوح : المسألة المصرية والوفد ، بدون تاريخ .
- محمود أبو الفتوح : مع الوفد المصري ، بدون تاريخ .

- مصطفى عبد الحميد نصير ، عبد الحميد كفافى ، سعد عبد الحفيظ ، جمال منصور : ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٠١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٧ .
- وجيه أبابطة : صفحات من النضال الوطنى ، الطبعة الأولى ١٩٩٥ - القاهرة .
- يوسف منصور صديق : أوراق يوسف صديق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، تاريخ المصريين (١٣٦) ، القاهرة ١٩٩٩ .

٢- الأجنبية

- Abbas Hilmi II, A few Words on the Anglo - Egyptian settlement, London- George Allen - unwin Ltd Museum street First published in 1929 .

ثالثا : الدوريات

١- العربية

- جريدة الأهرام ، عدد ٧ أغسطس ١٩١٤ ، عدد ٤ فبراير ١٩١٥ ، عدد ١٤ مارس ١٩١٥ ، وعدد ١٢ أبريل ١٩١٧ ، عام ١٩٣٩ .
- الوقائع المصرية ، عدد غير اعتيادى بتاريخ ١١/٢/١٩١٤ .
- الوقائع المصرية ، عدد غير اعتيادى بتاريخ ١٩/١٢/١٩١٤ .
- جريدة المقطم خلال الفترة من سنة ١٩١٤ - ١٩١٥ .
- جريدة الأهرام : ١٩٤٩ - ١٩٤٨ .
- البلاغ : ١٩٤٥ - ١٩٤٨ .
- المصرى : ١٩٣٨ - ١٩٤٨ .
- المجلة التاريخية : أعداد متفرقة من عام ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٧٧ .
- مجلة الجيش : الأعداد من عام ١٩٣٨ وحتى ١٩٦٨ .
- مجلة المدفعية : الأعداد من عام ١٩٤٨ - ١٩٧٠ .
- مجلة روز اليوسف : العدد ١٢٠٠ ، الصادر فى ١٢ يونيو ١٩٥١ .
- المقتطف عام ١٩٤١ .
- الكتلة ١٩٤٦ .
- الإخوان المسلمون ١٩٤٦ .

١. الأجنبية

- New York Times : 1947 – 1953.
- Mid East Mirror. Prepared weekly by the Arab News Agency, Cairo 14 June 1952 – 1954, August 1956.
- To,es 1938 – 1942.

رابعاً : المقابلات الشخصية

- أمين هويدى . وزير الحربية ورئيس المخابرات العامة سابقاً .
- أنور القاضي (فريق) رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة سابقاً.
- إبراهيم المجدوب (لواء) مساعد قائد قوات الدفاع الجوى سابقاً.
- أحمد فتحى عبد الغنى (لواء) قائد القوات العربية باليمن ورئيس مكتب مشتروات الأسلحة بموسكو وقائد قوات الدفاع الشعبى سابقاً.
- السيد حمدى حسن حمدى (فريق) قائد قوات الدفاع الجوى سابقاً .
- جورج ماضى عبده (لواء) رئيس أركان قوات الدفاع الجوى سابقاً.
- حسن إبراهيم . عضو مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الجمهورية سابقاً.
- حسين الشافعى . عضو مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الجمهورية سابقاً.
- حسن كامل (لواء) قائد الدفاع الجوى سابقاً .
- حسن غنيم (لواء) رئيس هيئة البحوث العسكرية ورئيس اللجنة العسكرية لتسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ سابقاً.
- حسن البدرى (لواء) مدير أكاديمية ناصر العسكرية العليا ورئيس هيئة البحوث العسكرية سابقاً والمؤرخ العسكرى .
- حسين محمد أحمد حمودة . من الضباط الأحرار - إخوان مسلمين .
- خالد محبى الدين . عضو مجلس قيادة الثورة .
- خضر خضر الدهراوى . قائد فرقة الدفاع الجوى سابقاً ورئيس شعبة عمليات الدفاع الجوى سابقاً.
- زكريا محبى الدين . عضو مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الجمهورية سابقاً.
- صلاح الموجى (لواء) رئيس أركان الجبهة المصرية خلال العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦.

- عبد اللطيف البغدادي . عضو مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الجمهورية سابقاً .
- على بليغ صبرى . نائب رئيس الجمهورية سابقاً .
- على خليل (فريق) قائد قوات الدفاع الجوى سابقاً .
- فتحى رضوان . وزير الاعلام - خلال حكم عبد الناصر - سابقاً .
- فريد عبد القادر (لواء - سفير) قائد فرقة دفاع جوى وسفير سابقاً .
- كمال الدين حسين . عضو مجلس قيادة الثورة - نائب رئيس الجمهورية سابقاً .
- كمال الدين رفعت . من الضباط الأحرار وقائد للفدائيين قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .
- محمد صلاح الدين . وزير خارجية مصر فى آخر حكومة وفدية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ .
- محمد فوزى (فريق أول) وزير الحربية السابق .
- محمد نجيب (لواء) أول رئيس لجمهورية مصر .
- محمود رياض . وزير خارجية مصر وأمين عام جامعة الدول العربية سابقاً .
- محمود عيسى (أستاذ) مؤسس مجلة الجيش مع اللواء محمد نجيب عام ١٩٣٨ .
- هدى جمال عبد الناصر (دكتورة فى السياسة والاقتصاد) ابنة جمال عبد الناصر .
- يحيى أحمد فؤاد (لواء) قائد المدفعية المضادة للطائرات عام ١٩٦٧ .
- مقابلات مع عدد كبير من قادة الجيش والقادة السياسيين ذكر بعضها فى هوامش الدراسة .

خامساً : المؤلفات والبحوث والدراسات العلمية

(أ) العربية

- إبراهيم صقر وآخرون : ثورة ٢٣ يوليو قضايا الحاضر وتحديات المستقبل ، دار المستقبل العربى ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ .
- إبراهيم عامر : ثورة مصر القومية ، القاهرة ١٩٥٧ .
- إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضة الفكرية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٤٥ .
- أبو بكر عثمان : الثورة ومستقبل السودان ، القاهرة ١٩٥٢ .

- أحمد بهاء الدين : فاروق .. ملكاً ، روز اليوسف ١٩٥٣ .
- أحمد بهاء الدين : أيام لها تاريخ ، القاهرة ١٩٥٨ .
- أحمد بيلي : صفحة من تاريخ الزعامة بمصر - عدلى باشا ، القاهرة ١٩٢٢ .
- أحمد حمروش : قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجزء الثانى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، القاهرة ١٩٧٨ .
- أحمد حمروش : قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجزء الثالث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، القاهرة ١٩٧٦ .
- أحمد حمروش : قصة ثورة ٢٣ يوليو ، الجزء الرابع ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، القاهرة ١٩٧٧ .
- أحمد خاكى : قاسم أمين ، القاهرة ١٩٤٤ .
- أحمد رشاد : مصطفى كامل ، القاهرة ١٩٥٨ .
- أحمد شوقي عبد الرحمن : ثورات التحرير الكبرى ، مطابع جريدة المصرى ١٩٥٢ .
- أحمد عبد الرحيم مصطفى : مشكلة قناة السويس ١٨٥٤ - ١٩٥٨ ، القاهرة ١٩٦٧ .
- أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ إلى ١٨٨٢ ، القاهرة ١٩٦٦ .
- أحمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى من الاحتلال إلى المعاهدة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ .
- أحمد عطية الله : ليلة ٢٣ يولية ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة الأولى ١٩٨٢ .
- أحمد عطية الله : قاموس الثورة المصرية ١٩٥٤ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٥٤ .
- أحمد فريد على : العلاقات المصرية الإنجليزية وأثرها فى تطور الحركة الوطنية فى مصر ، رسالة دكتوراه غير منشورة - جامعة القاهرة ، كلية الآداب - قسم التاريخ ١٩٦١ .
- إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الأول ، الجزء الثانى ، المطبعة الأميرية ببولاق ، الطبعة الأولى ١٨٩٤ .

- الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل باشا ١٨٦٣ - ١٨٧٩ ، المجلد الثانى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٣ .
- أمين الرفاعى : مفاوضات الإنجليز بشأن المسألة المصرية ، بدون تاريخ .
- أمين سعيد : الثورة ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٩ .
- أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ، بيروت ١٩٥٩ .
- بعيرى اليعازر : ضباط الجيش فى السياسة والمجتمع العربى ، ترجمة بدر الرفاعى ، سيناء للنشر ، مسلسل رقم (١) ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ .
- تمام هماد تمام : السياسة المصرية تجاه السودان ١٩٣٦ - ١٩٥٣ ، تاريخ المصريين (١٦٢) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ .
- جاد طه : بريطانيا والجيش المصرى ١٩٢٢ - ١٩٢٧ ، العالمية للطبع والنشر ١٩٨٠ .
- جمال زكريا قاسم : موقف مصر من الحرب الطرابلسية ١٩١١ - ١٩١٤ ، المجلة التاريخية المصرية ، مجلة العدد ١٣ سنة ١٩٦٧ .
- جسم يوسف : القصر ودوره فى السياسة المصرية ١٩٢٢ - ١٩٥٢ ، مركز الدراسات السياسية بالأهرام ، القاهرة ١٩٨٢ .
- حسن عشاوى : الإخوان والثورة ، الجزء الأول ، المكتب المصرى الحديث ١٩٧٧ .
- خمسون عاما على ثورة ١٩١٩ .
- رؤوف عباس حامد : تاريخ الحركة العمالية فى مصر من ١٨٩٩ إلى ١٩٥٢ .
- رود شتين ، تيودور : المسألة المصرية من ١٨٧٥ إلى ١٩١٠ ، ترجمة عبد الحميد العبادى بدران ، القاهرة ١٩٣٦ .
- زكريا سليمان : الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ١٩٠٧ - ١٩٥٣ ، القاهرة ١٩٨٤ .
- ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، بيروت ١٩٥٩ .
- سنيه قراعة : نمر السياسة المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ .
- سيد مرعى : أوراق سياسية ، الجزء الأول ، المكتب المصرى الحديث ١٩٧٧ .
- شاكرا الدبس : الدول العربية فى منظمة الأمم المتحدة ، مطبعة الإنشاء ، دمشق ١٩٤٨ .

- شهادى عطية الشافعى : تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٦ ، القاهرة ١٩٥٧ .
- صبحى وحيد : فى أصول المسألة المصرية ، القاهرة ١٩٥٠ .
- طارق البشرى : الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢ .
- عباس محمود العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ، دار الشروق ، بيروت وكذا طبعة القاهرة ١٩٣٦ .
- عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ، مكتبة مدبولى ، القاهرة .
- عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ، القاهرة ١٩٣٩ .
- عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية ، النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٤٨ - القاهرة .
- عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٢ .
- عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ ، جزءان ، القاهرة ١٩٤٦ .
- عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية - ثورة ١٩١٩ ، الجزء الأول ، النهضة المصرية - الطبعة الأولى ١٩٤٦ ، القاهرة .
- عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة - دار المعارف بمصر ١٩٨٨ .
- عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ، الجزء الثالث ، الطبعة الثانية ١٩٨٩ - دار المعارف بمصر .
- عبد الرحمن زكى : قادة الجيش المصرى الحديث ، القاهرة ١٩٤٦ .
- عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى الحديث ، مطبعة النيل - القاهرة ١٩٤٥ .
- عبد العظيم رمضان : الجيش المصرى فى السياسة ١٨٨٢ - ١٩٣٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ .
- عبد العظيم إبراهيم : تطور الحركة الوطنية فى مصر من ١٩١٨ إلى ١٩٣٦ ، رسالة ماجستير غير منشورة .

- ٢٠٨ _____ الجيش المصرى بين التمصر والسيطرة البريطانية
- عبد الوهاب بكر : الوجود البريطانى فى الجيش المصرى ، دار المعارف ، القاهرة .
 - فشر ، هـ . أ . ل : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ، الطبعة السادسة ، دار المعارف - القاهرة ١٩٧٦ .
 - فولر ، ج . ف : الحرب الميكانيكية .
 - كولومب ، مارسيل : تطور مصر ١٩٢٤ - ١٩٥٠ ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٨٢ .
 - كيرزى ، ليفتانت كولونيل : العمليات الحربية فى مصر وفلسطين من أغسطس ١٩١٤ - يونيه ١٨١٧ ، ترجمة يوزباشى محمد على فتحى وأحمد الأورفى ، القاهرة ١٩٤٩ .
 - ليدل هارت ، ج . ل : الاستراتيجية وتاريخها فى العالم ، ترجمة الهيثم الأيوبى ، دار الطليعة - بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ .
 - مانيفولد ، بومان : موجز للحملة المصرية والفلسطينية ، ترجمة أحمد حمودة ، المطبعة الأميرية ١٩٣٢ .
 - محسن محمد : التاريخ السرى لمصر ، دار المعارف - القاهرة ١٩٧٩ .
 - محمد إبراهيم الجزيرى : عهد وزارة الشعب ، القاهرة ١٩٢٧ .
 - محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية ، القاهرة ١٩٥٤ .
 - محمد حسين هيكل وعبد الله عنان وإبراهيم عبد القادر المازنى : السياسة المصرية والانقلاب الدستورى ، القاهرة ١٩٣١ .
 - محمد زكى عبد القادر : محنة الدستور ، القاهرة ١٩٥٥ .
 - محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ١٨٨٢ - ١٩٣٦ ، الجزء الأول ، النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٢ .
 - محمد عبد الرحمن برج : قناة السويس ، أهميتها السياسية والاستراتيجية وتأثيرها على العلاقات المصرية البريطانية ، القاهرة - دار الكاتب العربى ١٣٨٨ هـ .
 - محمد فؤاد شكرى ، عبد المقصود العنانى ، وسيد محمد خليل : بناء دولة مصر محمد على ، دار الفكر العربى - الطبعة الأولى ١٩٤٨ .
 - محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ، دار الفكر العربى ١٩٤٧ .

- محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ، دار الفكر العربى ١٩٤٨ .
- محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الآداب المعاصر - جزءان ، القاهرة ١٩٥٤ .
- محمد مصطفى صفوت : الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه ، دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٥٢ .
- محمد مصطفى صفوت : مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، التطور السياسى ١٨٨٢ - ١٩٥٨ ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٥٩ .
- محمود سليمان غنام : المعاهدة المصرية الانجليزية ودراستها من الناحية العملية ، القاهرة ١٩٣٦ .
- مصطفى النحاس : سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية ، الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٥ .
- مكى شبكة : السودان عبر القرون ، دار الثقافة - بيروت ١٩٦٥ .
- نجلاء عز الدين : العالم العربى ، ترجمة محمد عوض إبراهيم وآخرين ، دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٢ .
- نعيم شعير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته - القاهرة ١٩٠٣ .
- وزارة الحربية : الجيش المصرى ومجهود مصر الحربى وضع القائم مقام أركان حرب محمد إبراهيم ، المطبعة الأميرية ١٩٥٢ .
- وزارة الحربية : معركة مصر فى الحرب العالمية الثانية وضع لواء حامد صالح ، المطبوعات والنشر للقوات المسلحة - ١٩٦٥ .
- وزارة الدفاع الوطنى : الحدود المصرية ورجالها ، عبد الرحمن زكى - دار المستقبل ، القاهرة ١٩٤٧ .
- وزارة الحربية - الجيش المصرى : الحملات الاستعمارية على مصر فى القرن التاسع عشر .
- وليمز (م. ف) ، سيتون : بريطانيا والدول العربية ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى - القاهرة ١٩٥٢ .
- يونان لبيب رزق : السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول .

- يونان لبيب رزق : الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ، الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٠ .

(ب) الأجنبية

- Adanm C.F., **Life of George Lioyd**, London, 1948.
- Adams, Charles C., **Islam and Modernism in Egypt**, London, 1933.
- Ahmed, J.M., **The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism**, Oxford university press, 1960.
- Allenby, Edmund., **A Brief Record of the Advance of the Egyptian Expectionary Force**, Cairo 1919.
- Antonius George., **The Arab Awakening**, London 1932.
- Chirol, Valentine., **The Egyptian Question**, London 1920.
- Chirol, Valentive., **The Egyptian Problem**, London 1920.
- Colombe Marcel, L' **Evolution de l' Egypte**, 1924- 1950, Paris, 1951.
- Cromer, **The Earl of Modern Egypt-Zvolo**, London 1908.
- Cromer, **Abbas II**, London, 1915.
- Douin, George., **L' A ttaque du Canal de Suez**, Paris, 1921.
- Elgood, Lieut. Col., **Egypt and the Army**, London 1924.
- Freycinet, C. de, **La Question d' Egypte**, Paris, 1904.
- Hallberg, **The Suez Canal History and Diplomatic Relations**, London 1939.
- Hosking, H.L., **British Routes to India**, New York, 1928.
- Hourani, Aiber., **Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939**, London, 1962.
- Landau, Jacob., **Parliaments and Parties in Egypt**, New York, 1954.
- Lioyd, George., **Egypt since Cromer**, 2 vols, London, 1933. 34.
- Khadouri, Elia., **Memories of King Abdullah**, London 1952.

الخلع في الأندلس
(دراسة وتطبيق)
الخلع في الدولة الإسلامية

إعداد

دكتورة / نريمان عبد الكريم أحمد

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

كلية الآداب - جامعة المنوفية

oboeikan.com

الخلع فى الأندلس (دراسة وتطبيق) الخلع فى الدولة الإسلامية

شرع الإسلام حقوقاً للمرأة لم تأت بها حضارات سابقة ولا دين سابق، وارتقى بها إلى مكانة سامية بعد أن حررها من كل الموروثات المتعسفة، ومنحها حرية ممارسة حقوقها بشكل مستقل؛ وأكسبها منزلة متميزة في المجتمع. ويتضح اهتمام الإسلام بالمرأة بما حواه القرآن الكريم من تشريعات خاصة بها في عشر سور^(١)، عرضت وعالجت أحوالها في مختلف مراحلها، وحرصت على حمايتها وبيان حقوقها على الرجل وحقوق الرجل عليها بكثير من التفصيلات والدقائق. كما حظيت المرأة في السنة النبوية باهتمام ملحوظ، فلم تترك شؤون المرأة دون أن تبين اهتمامها بما يخصها في كثير من الأحاديث الصحيحة، التي تشرح وتفصل لكثير من شؤونها، وحسبنا إشارة الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبته المشهورة التي عرفت بخطبة الوداع بشأن النساء، إذ أجمل العناية بهن بقوله: (واستوصوا بالنساء خيراً).

ومن الحقوق التي قررها الإسلام للمرأة المساواة مع الرجل في أمور كثيرة، منها أنها هي والرجل سواء أمام الشرع، فتخاطب المرأة مع الرجل في القرآن على قدم المساواة، وأيضاً ما ورد فيه من ذكر عشر صفات للرجل والمرأة على السواء^(٢). كما نجد صدى

(١) منها سورتان، عرفت إحداهما بسورة النساء الكبرى، وعرفت الأخرى بسورة النساء الصغرى. وهما سورتا النساء والطلاق؛ إلى جانب سورة البقرة والمائدة والنور والأحزاب والمجادلة والممتحنة والتحريم.

(٢) النسائي، عشرة النساء، القاهرة ١٩٨٨، حديث رقم ٢٨٧.

لهذه المساواة في السنة النبوية قال رسول الله ﷺ: (النساء شقائق الرجال)^(١)، وهذا معناه أن المرأة شريكة الرجل في أمور كثيرة •

كما أعطيت المرأة حق الميراث بعد أن كانت تورث كأنها جزء من تركة المتوفى، فضلا عن حق التملك وحق التصرف في البيع والشراء دون موافقة الزوج؛ لأنها منحت ذمة مالية منفصلة، إلى جانب ما تمتعت به من حرية الاعتقاد والتفكير • وأصبحت بذلك كيانا مستقلا بعد أن كانت شيئا تابعا للرجل •

كذلك أولى القرآن الكريم عناية كبيرة للزواج من خلال عرضه لطبيعة تلك العلاقة بين الزوجين، ومدى قدسيتهما قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(٢) يضاف إلى ذلك أن المرأة أعطيت حق اختيار الزوج من غير وصاية عليها؛ لأنه فرض على وليها ألا يزوجه بغير رضاها فقال رسول الله ﷺ: (لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن)^(٣) كما جعل العصمة بيد المرأة؛ إذا اشترطت ذلك الشرط في عقد الزواج وقبله الزوج، وتلجأ إلى القضاء، وتقيم الدعوى؛ إذا اعتدى على حقوقها لتطلب الطلاق للضرر • كذلك في حالة الطلاق نجد الإسلام يرمي مشاعرها فيعطيهام متعة من كسوة بما يليق بأمثالها أو مقدارا من المال قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٤) •

وبذلك حظيت المرأة في الإسلام بكثير من الامتيازات، بيد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى معالجة دواعي الخلاف بين الزوجين • وعبر الإسلام من خلالها عن أرق وأدق علاقة، وهى مشاعر الحب والكراهة بين الزوجين، فيما عرف بالنشوز • فوردت الآيات القرآنية الدالة على ذلك تفصيلا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ﴾^(٥)، وأيضا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾^(٦)؛ فبينت الآيتان بذلك أن النشوز يأتي من قبل المرأة والرجل على السواء.

(١) سنن أبي داود، مكة المكرمة، بدون تاريخ، ج١، ص ٦١، رقم ٢٣٦ •

(٢) سورة النساء، آية ٢١ •

(٣) البخارى، الجامع الصحيح، القاهرة ٢٠٠٠، ج ٨، ص ١٥٧ •

(٤) سورة البقرة، آية ٢٤١ •

(٥) سورة النساء، آية ٣٤ •

(٦) سورة النساء، آية ١٢٨ •

وجاءت المعالجة القرآنية لنشوز الاثنين حتى لا تنفصم عروة النكاح. فعالجت نشوز المرأة بشكل مرحلي، فأمرت الرجل بوعظها ثم هجرها، وأخيراً ضربها، وإذا لم يستطع، فيكون إصلاح الشقاق بينهما من خلال الأقارب أو القضاء. أما عندما يكره الرجل زوجته في الوقت الذي ترغب فيه المرأة في البقاء معه، فلم تمنع الشريعة الإسلامية الزوجين من الاستمرار رعاية أيضاً لمشاعرها، على أن يكون الرجل غير مسئول عن الواجبات المتعلقة بالزواج تجاه الزوجة من نفقة وكسوة وقسم^(١).

ولحرص الإسلام على مكانة المرأة وحمايتها من كل سوء جعل أمرها بيدها إذا كرهت زوجها، فإذا كان الرجل قد أعطى حق التطليق، فمنحت هي حق الاختلاع. ولا تتضح فقط المساواة في إعطاء المرأة هذا الحق، لكن أيضاً العدل. فيرفض الإسلام أن تعيش المرأة قسراً مع زوجها تكرهه، ويحفظ للرجل حقه من خلال تعويضه عن فراق زوجته. ومع ذلك فهذا الحق مقيد في الشريعة الإسلامية، لأنه حق يكرهه الإسلام كما كره الطلاق، لكنه حق من حقوق الحرج لا يسكت عنه^(٢)، لأنه يرتبط بالأسرة المؤثرة في المجتمع. وبذلك يمثل الخلع قمة الحقوق التي منحت للمرأة.

ونظراً لما حظى به التاريخ الاجتماعي من اهتمام كثير من الباحثين، بسبب كثرة ما أُلِف في التاريخ السياسي، ولمعرفة التاريخ الحقيقي للشعوب، لذا عولت كثير من الدراسات على هذه الناحية، وأفردت بحوثاً أخرى لتفسير أحداث التاريخ من منظور اجتماعي، كما خصصت بحوثاً عن المرأة في فترات مختلفة.

لذلك فكان لا بد من التعويل على بحث موضوعات وثيقة الصلة بهذا الجانب، خصوصاً فيما يتعلق بالمرأة. وقصدت بهذه الدراسة أن أقدم بحثاً يرتبط بقضية مهمة في المجتمع آنئذ، وأقيم علاقة بينها وبين الفترة الإسلامية في الأندلس، وكذلك لتبصير المرأة بحقوقها التي أتاحها لها الشريعة الإسلامية لتقف على أحكام الخلع وضوابطه هي والرجل على السواء، وعلى ما طبق في الفترة السابقة.

(١) سحنون، المدونة الكبرى، بيروت ١٩٩٤، ج٢، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٢) أحمد زكي تفاحه، المرأة في الإسلام، بيروت ١٩٥٥، ص ١١٥.

كما أنها محاولة لإلقاء الضوء على وضعية المرأة في مجتمع العصور الوسطى ، وقدرتها في الحصول على حقوقها، خلال فترة سيطر عليها الرجل، أو بالأحرى كان مجتمع الرجل في المقام الأول، وإلى أى حد كان مهيباً لقبول حقها الشرعى.

وبسبب أن موضوع الخلع وثيق الصلة بالشرعية الإسلامية من ناحية ؛ ولأن شيوع المعرفة به من خارج إطار المهتمين لم يظهر إلا في الآونة الأخيرة من ناحية أخرى . فهو لذلك يعتبر محاولة لإيجاد ارتباط رحي بين الفقه والتاريخ .

وبرغم طول الفترة التى تمتد من الفتح إلى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧ هـ / ٧١٠ - ١٤٩٢ م؛ فإنه مع أهميته يعد من الموضوعات الدقيقة التى تحتاج إلى دراسة مجهرية للنصوص، والاستفادة مما ألف من دراسات تخص الجانب الاجتماعى .

ولقد عنى الباحثون بدراسة التاريخ الأندلسى خلال فتراته التاريخية المختلفة، بدراسات اشتملت على كافة المحاور، منها الدراسات المعنية بالأحوال الاجتماعية والمرأة فى بحوث متأنية^(١)، ومع اهتمامها بخواص المجتمع الأندلسى، فإنها أغفلت بعض الجوانب، منها الخلع، برغم أنه وثيق الصلة بالطلاق الذى حوته هذه الدراسات عند الحديث عن الأسرة والزواج. ولعل ذلك يرجع إلى أن الاهتمام بهذا الموضوع وشيوع معرفته ظهر مؤخراً بسبب مناقشة قضايا المرأة فى الفترة الحالية .

ونظراً لأن الأندلس تمثل وحدة سياسة متكاملة فى أغلب فترات التاريخ، ولسيادة المذهب المالكى فى أنحائها، فضلاً عن ارتباطها بهذا التراث الفقهى المتمثل فى كتب

(١) انظر ، عصمت دندش، أضواء جديدة على المرابطين، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامى ١٩٩١؛ إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس فى عصر المرابطين - المجتمع - الذهنيات - الأولياء ، بيروت ١٩٩٣؛ سعيد أبو زيد، الحياة الاجتماعية فى الأندلس - عصر دولتى المرابطين والموحدين، قويسنا ١٩٩٦؛ راوية عبد الحميد حسانين شافع، دور المرأة فى المجتمع الأندلسى - من الفتح العربى للأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية ٩٢-٤٢٢ هـ / ٧١١-١٠٣١ م . رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، ١٩٩٦ .

النوازل^(١)، التي تشاركها فيه بلاد المغرب أيضاً، لذا اقتصرَت الدراسة عليها في هذا الموضوع، خصوصاً أن الدراسات التاريخية بدأت حديثاً في دراسة هذا التراث^(٢) الفقهي السابق الذكر.

وتهدف الدراسة من خلال تقديم حالات الخلع إلى معرفة مدى التزام فقهاء الأندلس بفقهاء مالِك، والوقوف على طبيعة الشرائح الاجتماعية التي كثرت فيها حالاته بما حوته من دلالات اقتصادية لهذا المجتمع عبر تاريخه الطويل، فضلاً عن دور القضاء، ومدى تدخله في حسم مثل هذه القضايا.

واستقينا المادة المتعلقة بهذا الموضوع من بعض المصادر مثل الوثائق والمصادر الكتابية التاريخية المتمثلة في كتب النوازل والقضاة، والمصادر الفقهية والمراجع الحديثة المرتبطة به.

ولدينا عدد قليل من الوثائق ترجع إلى فترات تاريخية مختلفة تضمنتها بعض المصادر التي حوت وثائق فترة معينة، أو اشتملتها النوازل في صورة عقد ورد بصيغ مختلفة تبعاً لما يحتويه، وإن كان محكوماً بضوابط محددة، مثل: ما يتم بمقتضاه الخلع، أو رفع دعوى للحفاظ للضرر أو شكوى لطلبه.

كما تمثل كتب النوازل أهمية بالغة، خصوصاً في الأندلس، حيث إن هذا التراث الضخم الذي تركه الفقهاء يدل على عنايتهم بالفقه، ويعكس نزعة عملية وسمّة واقعية^(٣). وترجع تلك الخصوصية التي بزها الغرب الإسلامي عن المشرق، وتميز بها عنه إلى سيادة مذهب مالِك من ناحية، والاعتماد على علم الفروع^(٤) من ناحية أخرى.

(١) وتعرف النوازل على أنها القضايا والوقائع التي يفصل فيها القضاة طبقاً للفقه الإسلامي، انظر، عبد الواحد ذنون طه، كتب الفتاوى مصدراً للتاريخ الأندلسي، المجلة العربية الثقافية - جامعة الدول العربية، العدد ٢٧ سبتمبر ١٩٩٤، ص ٩٤.

(٢) عرفت الدراسات الأندلسية في الفترة الأخيرة صحوة علمية رائدة، أسهم فيها طائفة من العلماء عرب ومستعربين. انظر، أحمد اليوسفي شعيب، أهمية الفتوى في كشف وقائع التجربة الأندلسية، ابن الحاج نموذجاً، تطوان - المغرب ١٩٩٣، صفحات ٢-٥.

(٣) محمد بنشريق، مقدمة كتاب نوازل غرناطية لابن عاصم الابن، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية عدد خاص بالتراث الحضاري المشترك بين أسبانيا والمغرب، غرناطة ١٩٩٢، ص ٢١٥.

(٤) وهي الفرائض والموارث وكتب الشروط والحسبة والنوازل. انظر، نفس المصدر.

واستمر الأندلسيون يؤلفون في هذا الفرع إلى سقوط غرناطة، ومن هنا كان لكل عصر نوازل التي تعتبر مرآة له^(١). وتعد نوازل ابن سهل^(٢) من أشهر النوازل التي ألفت في عصر ملوك الطوائف ٤٢٢ - ٤٤٨ هـ / ١٠٣١ - ١٠٥٦ م، وتبعتها نوازل كثيرة، شملت هذا العصر أيضاً وعصر المرابطين ٤٤٨ - ٥٤١ هـ / ١٠٥٦ - ١٠٤٧ م، ومن أهمها كتب ابن رشد (الجد)^(٣)، فيعرض في كتابه "البيان والتحصيل"^(٤) لنوازل مبكرة للعتبي^(٥)، والأصبع بن سهل^(٦). أما كتابه المعروف بـ "فتاوى ابن رشد"^(٧) فيمثل أهمية خاصة، لما يقدمه من حالات الخلع المختلفة. وهناك أيضاً نوازل القاضي عياض^(٨)، وهي أصغر حجماً، لكنها لا تقل فائدة وقيمة عن سابقتها، فبرغم أنها نوازل مغربية، فإن جل الفتاوى الموجودة بها لابن رشد، ولابن الحاج^(٩)، التي ليست بين أيدينا، خصوصاً أنه تميز باجتهاده الفقهي وميوله إلى الواقعية والمرونة^(١٠).

ومن كتب النوازل المتأخرة، كتاب "المعيار" للونشريسي^(١١). وهو أكثر شمولاً وإحاطة بالنوازل الخاصة بالأندلس، وغطى الفترة الطويلة حتى سقوط غرناطة، وكذلك

(١) المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٢) هو الأصبع عيسى بن سهل بن عبد الله الأزدى ت ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م. تولى الكتابة متنقلاً بين مدن الأندلس، مما جعله قادراً على الاطلاع على أحوال المجتمع وقضاياه. انظر، عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص ٩٥.

(٣) هو أبو الوليد محمد بن أحمد ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٥ م.

(٤) تحقيق محمد حجي، بيروت ١٩٨٧، اعتمد في هذا الكتاب على المسائل المستخرجة، وضمنه من الأسمعة المعروفة بالعتبية.

(٥) محمد العتبي القرطبي ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م.

(٦) ابن القاسم القرطبي ت ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ م.

(٧) حققها محمد الحبيب التجكاني، بيروت ١٩٧٨ في جزئين، ثم حققها المختار بن الطاهر التليلي ١٩٨٧ في ثلاثة أجزاء.

(٨) هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي ت ٥٤٤ هـ / ١١٥٠ م، وكتابه "مذاهب الحكام في نوازل الأحكام"، تحقيق محمد بن شريفة، بيروت ١٩٩٠.

(٩) ت ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م.

(١٠) أحمد اليوسفي شعيب، أهمية الفتاوى الفقهية، ص ٨.

(١١) هو أحمد بن يحيى ت ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م، وكتابه "المعيار المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، بيروت ١٩٩٠، الأجزاء ٣-٥.

كتاب "النوازل الجديدة الكبرى" ^(١) للوزانى. وتبدو أهميتها فيما حوياه من نوازل مبكرة لابن زرب ^(٢)، وابن عتاب ^(٣)، وابن القطان ^(٤)، وكذلك لابن الحاج، بالإضافة إلى نوازل متأخرة لابن لب وابن سراج ^(٥) وغيرهم.

وتحفل هذه الكتب السابقة بجزء لا بأس به من المسائل المتعلقة بالخلع، عرضت كثيراً لمشمولات العوض الذى اختلعت به المرأة مثل الصداق ومؤخره ونفقة الحمل والرضاع وكفالة الولد. ومعلوم أنه يتم عرض حالات الخلع على الفقهاء، حين يحدث الخلاف عند التطبيق، أو للتأكد من اتساق ما جاء فى العقد مع الشرع، ومن هنا كثرت مثل هذه المسائل.

كما وجدت بعض حالات الخلع فى الكتب الخاصة بتراجم القضاة، نئين منها لجوء المرأة هى وزوجها إلى القاضى، إذا ما فشل فى الوصول إلى حل، ودور القاضى فى حسم هذا الأمر.

ولدراسة أحكام الخلع الفقهية اعتمدنا على كتب الفقه المالكى، وبعضاً من كتب المذاهب الأخرى، إلى جانب المراجع الحديثة التى اهتمت بهذا الموضوع بشكل مباشر أو من خلال دراسات عن الزواج.

ويأتى موطأ مالك ^(٦) فى المقدمة، وبرغم أنه لا يحتوى على مسائل، ولا يتضمن مذهبه كاملاً عن الخلع، فإنه من أوائل الكتب التى دونت فى الحديث، ومن الأولى أن نعى بصاحب المذهب الذى ساد الأندلس.

(١) هو ابن عيسى المهدى ت ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م، صححه عمر بن عباد، المغرب ١٩٩٧، الجزء الرابع.

(٢) وهو أبو بكر محمد بن يبقى القرطبى ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م.

(٣) محمد القرطبى ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م.

(٤) وهو أحمد بن محمد القرطبى، ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م.

(٥) وهم من المفتين فى عصر غرناطة.

(٦) صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الجليل القاهرة، بدون تاريخ الجزء الثانى.

أما المدونة الكبرى لسحنون بن سعيد^(١)، فهي المعتمد عليها فيما نقل عن مالك من سماع من تلاميذه، وتأتي في الغالب في صورة حوار بين سحنون وابن القاسم حول المسائل المشتبه فيها، وعما حفز مالك لرأى معين، وهي بذلك تعطي صورة عامة بما يرتبط بالخلع من أحكام وضوابط.

وكذلك كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد"^(٢) لابن رشد (الحفيد) الذي حشد فيه كثيراً من المذاهب، ولم يقتصر على المذاهب المشهورة، فكان يجتهد، ويرجح على أسس عقلية، غير متصير لمذهب معين بما في ذلك مذهب مالك^(٣). ويتضح ذلك في حديثه عن الخلع وجواز وقوعه وشروطه ونوعه، وما يلحق به من أحكام، ولكنه لم يأت بمسائل تعرض لرأيه المباشر فيما جرى في مجتمعه من قضايا الخلع، خصوصاً أنه من رواد أنصار المرأة.

إضافة إلى ذلك، فهناك كتاب "جامع الأحكام الفقهية" للقرطبي^(٤). ويعرض لمسائل عامة حوتها كتب الفقهاء في كثير من المذاهب، أو ينقل عن بعض الفقهاء المصريين وغيرهم. هذا إلى جانب ما قدمته الدراسات الحديثة المعنية بالفقه^(٥)، والتي أسهمت في عرض المذاهب المختلفة.

ونظراً لارتباط الخلع بالفقه، لذا يتحتم دراسته من حيث معناه ومشروعيته وأحكامه وشروطه، ليتسنى لنا فهم وتحليل مضامين النصوص المتاحة في ضوء ما تقدمه من ضوابط.

(١) هو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م، بيروت ١٩٩٤ الجزء الثاني.

(٢) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م القاهرة ١٩٧٠.

(٣) حمادي العبيدي، ابن رشد وعلوم الشريعة الإسلامية، بيروت ١٩٩١، ص ٥٩.

(٤) جمع وتصنيف زيد عبد العزيز الجندى، بيروت ١٩٩٤، الجزء الثاني.

(٥) عبلة محمد الكحلاوي، الخلع دواء مالا دواء له، دراسة فقهية مقارنة، مستلة من مجلة الزهراء، العدد العاشر ١٤١٢هـ - ١٩٩٢؛ حسن السيد خطاب، أحكام الخلع في الشريعة الإسلامية، دراسة فقهية، ٢٠٠٠.

ويعنى الخلع النزع والإزالة، وهو مأخوذ من خلع الثوب والرداء^(١). قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾^(٢)، وبذلك تتخلع المرأة من زوجها كردائه. فالخلع يزيل العلاقة المعنوية بين الزوجين، وهو فراق الزوجة على مال أو غيره منها، أو من غيرها. وسمى أيضاً الافتداء، لأنها تفتدى نفسها منه بما تبذله له.

أما معناه اصطلاحاً عند المالكية^(٣)، هو الطلاق بعوض، كما جاء بكلمات أخرى تؤدي نفس المعنى مثل: المبارأة والصلح والفدية، وربطوا بين الألفاظ التي استخدموها في الخلع وقيمة العوض، فالصلح ببعض ما أعطاه، والفدية بأكثره، والمبارأة بإسقاطها من حقها عليه، واسم الخلع ببذلها جميع ما أعطاه.

وتأكدت مشروعية الخلع في القرآن والسنة وإجماع الصحابة والفقهاء على أنه من الأمور الواجبة في الإسلام. قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا نَاجِيَ لَكُمَا فِيهَا إِلَّا أَنْ تَفْتَدِيَا بِهِ﴾^(٤). فأوضحت الآية الكريمة أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ من زوجته شيئاً مما أعطاه، إلا في حالة واحدة، وهي عدم القدرة على استقامة الحياة الزوجية واستمرارها بينهما وفق ما شرعه الله، فاللزوجة أن تفتدى نفسها بما تدفعه لزوجها مقابل فراقه، وبذلك تكون اختلعت منه.

كذلك ثبت الخلع مما رواه البخاري^(٥) وغيره من حديث رسول الله ﷺ عن رواية ابن عباس قال: "إن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت إلى رسول الله ﷺ، وقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعيب عليه خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، قال رسول الله ﷺ: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: اقبل الحديقة

(١) خلع امرأته وخالعه إذا افتدت منه بإلها فطلقها وأبأنها من نفسه وسمى ذلك الفراق خُلعا، انظر، ابن منظور، لسان العرب، بيروت ١٩٥٦، المجلد الثامن، ص ٧٦.

(٢) سورة البقرة، آية ١٨٧.

(٣) ابن رشد، بداية المجتهد، ج ٢، ص ٧٨.

(٤) سورة البقرة، آية ٢٢٩.

(٥) صحيحه، ج ٨، صفحات ٢١٩ - ٢٢٠.

وطلقها تطليقة". وكان هذا أول خلع في الإسلام. كما أجمع الصحابة على مشروعية الخلع، فقال به عمر وعثمان وعلى وغيرهم، ولم يعرف لهم مخالف في عصرهم^(١).

وتبدو حكمة الشرع في إيجاد هذا النوع من التفريق بين الزوجين، لأن الزوجة المبغضة لزوجها لا تستطيع إثبات هذا الضرر للتطليق، ففتح الشرع لها باباً تنفذ منه، لكن بشرط تعذر دوام الحياة الزوجية، وعدم القدرة على إقامة حدود الله بصيانة الحقوق المتبادلة.

والحالات التي يباح فيها طلب الخلع، منها حالة النشوز والكراهة في الشقاق والوفاق، وتفصل السنة ذلك من خلال الروايات المختلفة لهذا الحديث^(٢) في كلمات وعبارات تدل عليها مثل: "لا أطيقه"، "ولولا مخافة الله لبصقت في وجهه إذا دخل على". ومعنى ذلك أن مجرد الكراهية كافياً في جواز طلب الخلع. وهو ما عبر عنه في السنة أيضاً بعبارة: "أكره الكفر في الإسلام". وكذلك عندما تأتي الزوجة ﴿بِفَحْشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾^(٣)، وحملوا الفاحشة في الآية على الزنا فقط^(٤)، وإن أولت على أنها كل فاحشة من بذاءة لسان وسوء العشرة قولاً وفعلاً، بالإضافة إلى الزنا^(٥).

وتلك المراعاة الدقيقة من الشرع لمشاعر المرأة، تحرم عليها بالتبعية أن تتخلع زوجها بدون سبب^(٦)، لذا فإن امتنعت الأسباب السابقة يكون من الخلع المحرم، لأنه إضرار بها وبزوجها.

(١) القرطبي، جامع الأحكام الفقهية، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٢) وفي رواية للربيع بنت معوذ قالت: اختلعت من زوجي، فدفعت إليه كل شيء حتى غلقت الباب بيني وبينه. انظر، القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري القاهرة ١٣٠٥هـ، ج ٨، صفحات ١٤٩-١٥٠.

(٣) سورة النساء، آية ١٩.

(٤) ابن رشد، بداية المجتهد، ج ٢، ص ٨٠.

(٥) القرطبي، المصدر السابق، صفحات ٣١٢-٣١٣.

(٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المتزعات والمختلعات هن المنافقات" كذلك قال: "أبها امرأة سألت زوجها الطلاق فحرام عليها رائحة الجنة". انظر، الشوكاني، نيل الأوطار، القاهرة ١٢٩٧هـ، ج ٥، ص ٢٥١.

أما إذا أكرهت المرأة على اختلاع نفسها من خلال إقدام الزوج على إيذاها، أو منع حقوقها، ففي هذه الحالة لا يحل العوض لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾^(١).

وفيما يرتبط بالخلع من أحكام، فهو طلاق بائن، ولا رجعة فيه، إلا بعد عقد ومهر جديدين. كما أطلق سبحانه وتعالى الخلع، ولم يقيد وقوعه بزمان، فمتى اختلعت المرأة وخلع الرجل وقع الخلع. فهو يجوز في الطهر والحيض^(٢)، وعدة المختلعة عند المالكية ثلاثة قروء^(٣). كما أنه لا متعة لمختلعة ولا لمبارثة، ولا نفقة لها، إلا أن تكون حاملاً^(٤)، فالخلع يسقط حقوق الزوجية الثابتة بين الزوجين وقت الخلع.

ويقوم الخلع على عمد منها ملتزم العوض، والزوج ثم العوض، وهو ما يبذل للزوج مقابل الخلع. وهذه الأركان لا يتحقق بدونها الخلع.

وملتزم العوض، المقصود به الشخص الذي يقدمه سواء كانت الزوجة أو وليها أو الأجنبي. والرشيده تخالع عن نفسها^(٥). أما خلع الصغيرة والسفيرة والمجنونة، يشترط الأب^(٦)، فيخالع عنها، ويضمن الصداق كله للزوج، كما يسمح ببذل مالها. أما الخلع مع الأجنبي فصحيح، ويلتزم بالمال، ولا يلزم المرأة من ذلك الخلع غير انقطاع الزوجية.

وما يشترط في الزوجة أو ملتزم العوض، يشترط أيضاً في الزوج، فيجب أن يكون أهلاً للطلاق، فلا يصح خلع الصبي والمجنون، فيخالع الأب عنه، لكن المال الذي يخالع به، لا يسلم له، وليس لأب السفية أن يخالع عنه^(٧).

(١) سورة النساء، آية ١٩.

(٢) عيلة محمد الكحلأوى، الخلع، ص ١٠٧. ففي حديث امرأة ثابت بن قيس، أطلق الرسول ﷺ الحكم في الخلع من غير بحث ولا استفسال عن حال الزوجة.

(٣) سحنون، المدونة، ج ٢، ص ٢٤٦.

(٤) نفس المصدر، صفحات ٢٣٨، ٢٤٣، لأن المرأة المختلعة لم يطلقها الزوج، إلا على أن أعطته شيئاً أو أبرأته، فكأنها اشترت منه الطلاق، ولأنها تعطيه، فكيف ترجع وتأخذ منه؟

(٥) ابن رشد، بداية المجتهد، ج ٢، ص ٨٠.

(٦) سحنون، المصدر السابق، ص ٢٥٣.

(٧) نفس المصدر.

ويمثل العوض أحد أركان الخلع المهمة، لأنه يفرق بين الخلع والطلاق. واعتماداً على السنة في حديث امرأة ثابت بن قيس: "أقبل الحديقة وطلقها تطليقة" دل على جواز افتداء الزوجة نفسها من زوجها مقابل صداقها. أما مقداره، فأجاز مالك^(١)، أن تحتلع المرأة بأقل من صداقها وبمثله وبأكثره. وسبب هذا يرجع إلى آية الخلع: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيهَا أَفْتَدَتْ بِهِ﴾^(٢)، فجاءت مطلقة، وشملت القليل والكثير. وكذلك اختلاف الروايات في حديث الخلع، ومنها: "أن يأخذ منها ولا يزداد" أو "يأخذ منها أكثر مما أعطى" كما أجاز عثمان بن عفان الخلع حتى عقاص رأسها وما دون ذلك، فجاءت هذه الروايات تحجيز الزيادة على الصداق أو تنهى عنه. وبرغم أن مالكا أجاز الزيادة، فإنه يرى أن أخذها ليس من مكارم الأخلاق^(٣).

أما عن صفة العوض، فيصح على معلوم القدر والصفة، مثل المال سواء كان نقداً أو عيناً، بمعنى أن يكون الخلع على المنفعة التي تقوم بالمال مثل نفقة الحمل والرضاع وكفالة الولد، كذلك يصح على الدين الذي يكون لأحد الزوجين على الآخر، فلا يسقط، ويجوز الخلع والدين لأجله^(٤)، وأجاز مالك^(٥) الخلع على المجهول أو المعدوم. أما الخلع على المحرم مثل الخمر ولحم الخنزير، فيقع الخلع، لكن لا يستحق الزوج منه شيئاً^(٦)، كما يجيز الخلع بدون عوض، لأنه يتساوى مع الخلع على محرم^(٧). ومما تقدم يتضح لنا أن الخلع تبادل منافع وإسقاط حقوق من جانب المرأة^(٨).

ويحتاج الخلع إلى قالب توضح فيه الأمور السابقة، أو صيغة تشتمل على الإيجاب والقبول، واشترطت المالكية^(٩). ثلاثة شروط، وهي أن يكون القبول لفظاً، بأن ينطق الزوج بكلمة دالة على الطلاق، والثاني أن يكون القول في المجلس، إلا إذا علقه الزوج

(١) ابن رشد، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٩.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٢٩.

(٣) الموطأ، ج ٢، ص ٥٦٥؛ الشوكاني، نيل الأوطار، ج ٥، ص ٢٥١. والعقاص، جمع العقيصه وهي الضفيرة، انظر، ابن منظور، لسان العرب، ج ٢٨، ص ٥٦.

(٤) سحنون، المدونة، ج ٢، صفحات ٢٤٣، ٢٤٩.

(٥) القرطبي، جامع الأحكام الفقهية، ج ٢، ص ٣٠٩.

(٦) سحنون، المصدر السابق، ص ٢٤٨.

(٧) القرطبي، المصدر السابق، ص ٣١١.

(٨) انظر، Schacht, J, An introduction to Islamic law, Oxford . 1964 . P. 164.

(٩) الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة بيروت ١٩٩٠، ج ٤، ص ٣٧٢.

بالأداء، والثالث أن يكون بين الإيجاب والقبول توافق في المال . كما أن مالكا^(١) لا يجوز الخلع عند السلطان .

وتأسيساً على ما أسلفناه في دراستنا عن أحكام الخلع، نستطيع أن ننقله إلى الواقع العملي من خلال حالات الخلع التي وقعت في الأندلس، لتبين منها مدى اتساق القلب النظري مع الواقع المعاش من ناحية، ومدى ارتباط فقهاء المالكية بأراء الإمام مالك من ناحية أخرى، سواء كانت هذه الحالات متقاربة أو متباعدة .

ويمثل نشوز المرأة حجر الزاوية في طلب المرأة للخلع، لكن ليس هناك في الغالب ما يشير إليه مباشرة، وإن كان حدوث الخلع في حد ذاته أو طلبه أحياناً يؤكد. وثمة دلالات وردت تبين ذلك، وتوضحه بعض العبارات المستخدمة في النصوص، مثل : "طلبت مخالعتها"^(٢)، "وتفاقت أمورهما واختلفت أهواؤهما"^(٣) وفيما قالته امرأة للقاضي، عندما طلب منها أن تسير مع زوجها فلصقت بالأرض وقالت: "أن لا تمشي معه في الأرض شبراً ..، ولئن صرفتني إليه لأقتلن نفسي، وتكون المسئول عن دمي"^(٤)، وأيضاً في شكوى امرأة أخرى قالت: "حتى اختلفت منه بكثير من مالى ورضيت العدم ثمناً لرشاء بالي"^(٥). وكذلك في نصرانية أسلمت ثم افتدت من زوجها على ألا يسلم^(٦) كما أن العوض الذي قدمته المرأة لزوجها يؤكد في بعض الأحيان تلك الكراهية، حين تعتمد إلى أن تعطيه ما يشاء في مقابل خلاصها منه^(٧). ويتضح ذلك في نوازل ابن الحاج^(٨)، الذي أفتى؛ في مثل هذه الحالات بإخلاء سبيل الزوجة إذا وقعت الكراهية بينها وبين زوجها .

(١) سحنون، المصدر السابق، ص ٢٤٧ .

(٢) الوزاني، النوازل الكبرى، ج ٤، ص ٢٥٥ .

(٣) فتاوى ابن رشد، ج ٢، ص ٩٥٣، رقم ٢٧١ .

(٤) الخشني، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٣٩ .

(٥) رسائل موحدية، مجموعة جديدة، القسم الأول، تحقيق ودراسة أحمد عزاوي، القنيطرة ١٩٩٥، شكاية رقم ٤، ص ٥٢٦ .

(٦) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج ٥، ص ٢٧١ .

(٧) وثائق عربية غرناطية، من منشورات معهد الدراسات الإسلامية بمadrid، حققه وقدم له وذيله مع ترجمة إلى الإسبانية لويس سيكوري لوينا، مدريد ١٩٦١، ص ٦٠ .

(٨) الوزاني، النوازل الكبرى، ج ٤، ص ١٣٥ .

أما التراضي على الخلع بين الزوجين، فوردت في النصوص بعض العبارات تدل بل وتفيد عن عدم إكراه أحدهما للآخر، مثل: "وعملت ذلك كله طائعة متبرعة من غير إكراه ولا ضرر لحقها"^(١)، أو "أن تقوم بجميع مؤنثته إلى البلوغ طائعة متبرعة من غير ضرر". وكذلك "طائعة" بذلك كله"^(٢). بيد أنها ترفع بعد ذلك دعوى تفيد بأنه ضيق عليها لتفتدي^(٣). وهذا ربما يقودنا إلى أن تلك العبارات التي سجلت في عقد الخلع أو المباشرة، كانت مجرد صيغة لا بد منها عند كتابة العقد، ولم تكن معبرة أحياناً عن الواقع، أو أن الزوجة اضطرت إليها.

بيد أن هناك إشارات عن إجبار الزوجة على الخلع، رغبة من الزوج في الحصول على العوض، فإذا طلبت المرأة الطلاق من زوجها بشكل ودي، فيخيرها في الخلع إذا أرادت تعجيل ذلك^(٤). أو أن يقول لها: "إن أعطيتني مالى عليك فارتكتك"^(٥) معنى ذلك أن الرجل أحياناً كان يستفيد من رغبة المرأة في الفقرة. وربما يريد بذلك استنزاف ما تملكه، إذا كانت ثرية، أو انتقاماً من المرأة الكارهة له. ولذلك يأبى أن يتخلى عنها، إلا إذا تركت جميع ما لها قبله^(٦)، وأحياناً يرفض قبول الخلع بعد حصوله على العوض^(٧).

ولم يقتصر الأمر على إجبار المرأة لتفتدي، بل وصل في بعض الحالات إلى الإضرار بها وتعتمد إيداعها. واتضح ذلك في دعوى رفعتها امرأة بعد الخلع تؤكد هذا الضرر الذي لحق بها، مستعينة بالشهود، الذين أثبتوا معرفتهم للزوج واسمه، وذكروا أنهم سمعوا كثيراً من بعض الناس والخدم والجيران بأنه يضر بزوجه، ويضيق عليها لتفتدي^(٨). لكن

(١) نفس المصدر.

(٢) فتاوى ابن رشد، ج ١، ص ٢٩٧، ورقم ٥٩؛ ج ٢، ص ١١١٧، رقم ٣٤٦.

(٣) نفس المصدر.

(٤) فتاوى ابن رشد، ج ٣، ص ١٥٥٢، رقم ٥٦٥.

(٥) الونشريسي، المعيار، ج ٣، ص ٩٣.

(٦) فتاوى ابن رشد، ج ١، ص ١٨٥، رقم ١٩.

(٧) رسائل موحدية، ص ٥٢٦.

(٨) المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٥٤، رقم ٢٧١.

من الواضح أن إثبات هذا الضرر جاء سابقاً لعقد المبرأة^(١)، برغم أن الوثيقة تشير إلى أن أباهما كان ققيهاً، وهذا معناه، أنه يعرف جيداً أنه متى رفع ما يفيد الضرر بابطته يثبت حقها في الخلاص منه، لكن على ما يبدو أن الخلع حدث اضطراراً بسبب سطوة الزوج، لذا كان اللجوء إلى التحايل لفسخ العقد بعد ذلك. ويتضح أيضاً إصرار الرجل على الإضرار بزوجته فيما ذكرته امرأة أخرى: "وقد اضطرني بها سامني من الخسف، وركبني به من العنف والعسف حتى اختلعت منه"^(٢). لكن من اللافت للنظر أن ترفع الشكوى لإثبات الضرر من قبل الزوج الثاني بعد وفاة الزوجة بسبب رغبته في الحصول على نصف ما وقع به الخلع^(٣).

وهناك وسائل أخرى لجأت إليها المرأة، أو غيرها لإثبات الضرر، من خلال ما يعرف بـ "الاسترعاء" وهو التحفظ بعد الخلع، لتعديل شروط العقد بعد إثبات الضرر^(٤)، وفي هذه الحالة لابد أن يزيد شهود الاسترعاء بالضرر في شهادتهم على استمرار الزوج في الإضرار بزوجته حتى مفارقتها لها^(٥).

كما أن هناك حالات أخرى اختلعت فيها المرأة، وليس لها علاقة بما أوردناه، لكنها تمت لأسباب مختلفة، منها امرأة تريد التخلي عن زوجها لما يلحقها من الضرر، والمقصود بالضرر هنا، هو ما يرغب فيه النساء من أزواجهن^(٦)، أو أن تفتدى من زوجها بعد أن ظهر به جذام^(٧). وبرغم أن الحاليتين كان من الأولى أن ينتهيا بالطلاق للضرر، فإن المرأتين

(١) يرجع إثبات الضرر إلى عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م. بينما عقد المبرأة يرجع إلى عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م، وبرغم أن محقق الكتاب يشير في هامش (ب) ص ٩٥٤ أن تاريخ عقد المبرأة به خطأ، وهو يرجع إلى عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م. لكن من الثابت في النسخة الأخرى المحققة لفتاوى ابن رشد، بعنوان: "مسائل ابن رشد" للحبيب التجكاني، يذكر نفس التواريخ بدون أي ملاحظات. انظر، صفحات ٨٤٣-٨٤٦، ونفس المسألة عند الونشريسي، المعيار، ج٤، ص ٧.

(٢) رسائل موحدية، ص ٥٢٦.

(٣) الونشريسي، نفس المصدر، ج٤، ص ١٣٩.

(٤) فتاوى ابن رشد، ج٢، ص ٩٥٥، رقم ٢٧١.

(٥) الونشريسي، المعيار، ج٤، ص ٧.

(٦) المصدر السابق، ج١، ص ١٨٥، رقم ١٩.

(٧) الونشريسي، المصدر السابق، ج٣، ص ٩٣.

اختلعتا . كذلك تم الخلع بسبب منازعة بين والد الزوجة وصهره ^(١) . وربما هذا يبين أن الخلع كان أيسر من الطلاق في حالة الرغبة في الخلاص من الزوج .

وأحياناً تقطع دعوى الخلع المرفوعة بين الزوجين، ويرد ما حصل عليه الزوج من عوض مقابل الخلع أو ما سمي فيه، وبرغم أن هذه الحالة تكررت، فإنها تبدو قليلة ^(٢) . أو أن تعود المرأة إلى زوجها بعد الخلع بنكاح جديد بعد فترة تراوحت بين شهر وثمانية أشهر ^(٣) . ولا نستطيع أن نتيين سبب الرجعة . كما أن هذه الحالات قليلة، إذا ما قورنت بغيرها من حالات الخلع .

وإذا انتقلنا إلى ملتزم العوض، نجد أن المرأة كثيراً ما التزمت بدفع العوض، وهذا يتضح من النصوص الواردة لدينا مثل: "أسقطت جميع ما كان أمهره لها"، أو "حطت عنه جميع كالي صداقها" ^(٤)، أو "وضعت عنه جميع كالئها" ^(٥) . وكذلك "خالع امرأته على أن تحملت نفقه ابنه" ^(٦) مما يبين أن المرأة كانت تقوم بدور ملتزم العوض في المقام الأول. وأحياناً كان والدها يشارك في العوض، ويلتزم بجزء منه ^(٧)، أو أن تقوم المرأة بدفع العوض، ويوافق عليه والدها ^(٨)، أو أن يكون ضامناً هو وزوجته لما قامت به الابنة، وتقر على نفسها به في العقد، أو يقوم الوالد بالالتزام عن ابنته في تقديم العوض من ماله، وعند وفاته تقوم والدتها بهذا الأمر مما تركته ^(٩) كما توكل المرأة من ينوب عنها في الخلع وتقديم العوض ^(١٠) . وإذا ثبت

(١) فتاوى ابن رشد، ج٣، ص ١٥٥٢، رقم ٥٦٥ .

(٢) الوزاني، النوازل الكبرى، ج٤، ص ٣٢٩ .

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص ١١١٦، رقم ٣٤٦ .

(٤) الكالي: هو مؤخر الصداق . انظر، مسائل ابن رشد، ج١، ص ٤٠٨، هامش ٦؛ وهو أن تشتري أو تبيع ديناً لك على رجل بدين له على آخر. انظر، لسان العرب، مجلد ١١، ص ٥ .

(٥) فتاوى ابن رشد، ج٢، ص ١١٨٧، رقم ٣٨١ .

(٦) نفس المصدر، ج١، ص ١٨٥، رقم ١٩ .

(٧) وثائق عربية غرناطية، ص ٦٠ .

(٨) فتاوى ابن رشد، ج٢، ص ٩٥٣، رقم ٢٧١ .

(٩) نفس المصدر، ج٢، ص ١١٨٧، رقم ٣٨١ .

(١٠) الونشريسي، المعيار، ج٣، ص ٩٣، ج٤، ص ٩ .

عدمها ، وجدنا القاضى يقوم بدفع العوض للزوج بدلاً من المرأة، وهى حالة نادرة^(١)، إلا أنها تتوافق مع ما أشرنا إليه من خلع الأجنبى الذى ليس له أى صلة بالمرأة ويتعهد بدفع المال .

أما العوض المقدم، فيتنوع بين المال والمنفعة، ويتمثل فى الصداق كله أو الكالء فقط. فإن كان مقبوضاً لزمها أن تردده للزوج، وإن لم تقبضه سقط عن الزوج. وعلى الرغم مما حوته النصوص عن افتداء المرأة بصداقها ومؤخره، فإنها لم تذكر قيمته، وإن ذكرت، لا تفرق بينهما، مثل التى اختلعت على ستة مثاقيل وأخرى على عشرة دنائير^(٢) .

ولدينا إشارات أيضاً عن احتواء الصداق على أصول ثابتة، مثل الدور والجنان وعدد من القرى، ومما يرتفع من إيراد العقار^(٣). واشتمل ما افتدت به أخرى على جنات وأرض زراعية ودار عوضته عنها بخمسة وعشرين مثقالاً مرابطية^(٤). أو تقتصر قيمة الصداق على نصف حديقة^(٥)، أو ما ساقته إليه كان أملاً كغير معلومة^(٦) .

ولم يقتصر الأمر فقط على ما تقدمه المرأة من عوض متمثلاً فى صداقها كله، لكن كان مضافاً إليه أيضاً ما أسقطه والدها عنه مقابل سكنه فى الدار التى يملكها إسقاطاً تاماً. وأخرى اختلعت بنقد لم تذكر قيمته أو الصداق المتمثل فى خادم ونصف دار وحديقة ومؤخر صداقها وزيادة^(٧) أو أن تختلع بأقل مما يجب لها عنده، أو حتى بـعدة دراهم^(٨)، أو أن يصل بإحداهن الحال إلى الاضطرار إلى بيع متاعها وحليها^(٩) .

(١) الخشنى، قضاة قرطبة، ص ١٣٩ .

(٢) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج ٥، ص ٣١٧؛ الوزانى، الفتاوى الكبرى، ج ٤، ص ٣٠٩ .

(٣) فتاوى ابن رشد، ج ٢، ص ٩٥٣، رقم ٢٧١ .

(٤) نفس المصدر، ص ١١٨٨، رقم ٣٨١ .

(٥) الونشريسي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٩٨ .

(٦) فتاوى ابن رشد، ج ٣، ص ١٥٥٢، رقم ٥٦٥ .

(٧) وثائق عربية غرناطية، ص ٦٠؛ الونشريسي، المعيار، ج ٤، صفحات ١٣٩، ١٤١ .

(٨) الوزانى، النوازل الكبرى، ج ٤، ص ٣٠٩ .

(٩) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج ٥، ص ١٦٧ .

كذلك وجدنا حالات للعوض على نفقة الحمل إن ظهر بها، أو على ما يحتاج إليه الولد إلى فطامه^(١). أو أن تختلع به إلى وضع الحمل^(٢). كما كانت كفالة الولد محددة بسنة أو عدة سنوات بعد الفطام، أو أن تتحمل نفقة الولد إلى أن يبلغ الحلم^(٣). كما تم الجمع في عوض الخلع بين الصداق ونفقة الحمل والرضاع، وربما خيرت في أن تقوم بجميع مؤونة الولد إلى البلوغ أو أن تصرفه إلى والده^(٤). لكن أحياناً يجمع في العوض كل ما سبق، مضافاً إليه حضانة ابنتها وكفالتها إلى سقوط النفقة عن والدها شرعاً^(٥) أو أن تقتصر على النفقة فقط، أو حتى جزءاً منها ويكون على الوالد الباقي^(٦). بيد أن إحدى الوثائق^(٧) تشير إلى اختلاص الزوجة على نفقة عدتها منه إلى تمامها، وهذا أمر غير مقبول إلا في حالة واحدة مشروطة بالحمل، والوثيقة التي بين أيدينا لا تؤكد ذلك وإن أشارت إلى "إن ظهر حمل منه" وهذا الأمر يشي بجهل الموثق والعائد.

لكن من اللافت للنظر أن تختلع المرأة على إسقاط حضانة الابنة، التي كانت صغيرة جداً، ويتضح من هذه الحالة الغريبة، أن هذه المرأة كانت معدمة، أو أنها ربما دفعت إلى ذلك بسبب شدة الكراهية لزوجها. ويبدو أنها لم تكن الحالة الوحيدة، فهناك امرأة أخرى اختلعت من زوجها وتركت ابنها عنده لمدة سنة، بيد أنه لم يذكر أن العوض كان على إسقاط حضانة الابن^(٨)، فإن هذه الحالة السالفة تعد استثناءً. برغم أنها مقررة، لكن وجه الغرابة فيها هو التخلي عن صغيرتها في هذه السن المبكرة.

ويتضح مما سبق زيادة العوض على الصداق، بل واشتماله على أشياء أخرى كما بينا، ويرتبط به ما تضيفه إحدى الوثائق^(٩). بعد ذكر العوض: "وعلى ذلك كله وبسببه أوقع عليها الزوج طلاقاً واحدة". كما لو أن السبب في موافقته على الخلع هو ما حصل عليه، أو

(١) فتاوى ابن رشد، ج ١، ص ٢٩٧، رقم ٥٩.

(٢) وثائق عربية غرناطية، ص ٦٠.

(٣) الونشريسي، المعيار، ج ٤، ص ١١-١٢.

(٤) فتاوى ابن رشد، ج ١، ص ٢٩٧، رقم ٥٩.

(٥) وثائق عربية غرناطية، ص ٦٠.

(٦) الوزاني، النوازل الكبرى، ج ٤، ص ٣٠٨.

(٧) المصدر السابق، ص ٦٠.

(٨) الوزاني، المصدر السابق، صفحات ٣٠٩، ٦٠٨.

(٩) وثائق غرناطية، ص ٦٠.

ربما بسبب ارتباط دفع العوض بالخلع، أو كما يذكر في نص آخر: "حتى اختلعت منه بكثير من مالى"^(١). وتأكيداً لما أسلفناه، نجد أن بعض الأزواج حاولوا الحصول على أكبر قدر ممكن من العوض، عندما تكون المرأة ثرية. أما في حالة فقرها، فهناك أيضاً ما يدل على ذلك، فطالعنا المصادر^(٢)، بأن القاضى عندما عرض على الزوج أن يخالع زوجته مقابل ما تبقى مما ارتفع من ضيعته، قال: "لو كان الطعام بقرطبة"، وكأنه يشترط على القاضى توفر العوض قريباً منه، أو أن يدعى الزوج بعد إتمام الخلع حقاً له على الزوجة أخذته منه، برغم أن ما سجل عند الخلع: "أبرأ كلا منهما الآخر في جميع ما يطلق عليه اسم مال"^(٣)، أو أن يدفع الزوج من المحيطين به على الاستفادة من طلب الزوجة للخلع^(٤).

فضلاً عن ذلك، فهناك العوض على إسقاط الديون، إما أن يكون الزوج مديناً لغيرها، أو إسقاط دين للزوجة قبل الزوج^(٥)، أو أن يخرج على هذا كله ويخلعها من قرطها، لو كانت عديمة، أو على طعام تسعة أشهر وشقة صوف^(٦)، وعندما تشتت المرأة على نفسها دفع العوض، ثم تثبت أنها عديمة، يلزم الزوج به^(٧).

وإتمام الخلع يحتاج في الغالب إلى صيغته مكتوبة، تشتمل على ضوابط معينة، لأنه يبدو أن هناك بعض الحالات تبين منها أن الاتفاق على الخلع لم يسجل كتابة، فلم يجد ما يستند إليه عند اختلافهما^(٨). ونستطيع أن نقف على شكل العقد اعتماداً على ما بين أيدينا من وثائق، سواء التي وجدت مستقلة، أو التي اشتملتها كتب النوازل، حيث كانت تقدم نسخة العقد أحياناً في صورة مسألة، أو يلحق السؤال بعد عرض عقد الخلع أو المباراة

(١) رسائل موحدة، ص ٥٢٦.

(٢) الخشنى، قضاة قرطبة، ص ١٣٩.

(٣) الوزانى، النوازل الكبرى، ج ٤، ص ٣٠٨.

(٤) نفس المصدر، ص ٥٥.

(٥) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج ٥، ص ٢٠٨.

(٦) الخشنى، المصدر السابق.

(٧) فتاوى ابن رشد، ج ١، ص ٢٩٧، رقم ٥٩.

(٨) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج ٥، ص ٣٠٤؛ الوزانى، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٠٧.

ليطلع عليه القاضي، خصوصاً أن العقد كان يكتب من نسختين^(١)، وجاء لنا العقد بصيغ مختلفة ارتبطت بمحتواها اللفظي، فإذا عنون بـ: "هذه نسخة رسم اختلاع" بدأت بـ "اختلعت"^(٢)، وإذا كان العنوان: "نسخة عقد المبرأة، تبدأ بـ "بارأ فلان..."^(٣)، ثم يذكر اسم الزوج والزوجة حسب النص، ويتبع ذلك في بعض الأحيان إثبات الدخول بها، ويذكر العوض المتفق عليه، وأنها قدمته طائفة متبرعة، فضلاً عن تأكيد إسقاط الحقوق بينهما، وإجابة الزوج، وأنه طلقها طليقة واحدة ملكت بها أمرها. ثم يوقع الشهود بصحة عقلها وبدنها، ويؤرخ العقد في بعض الأحيان، ويذكر اسم المدينة^(٤).

وما يهمننا ضرورة اشتغال العقد على الإيجاب والقبول والمحل، وعلم كل عاقد بما صدر من الآخر، واتصال القبول بالإيجاب في مجلس واحد^(٥)، وعقد الخلع يختلف عن عقد الزواج، فيكون الإيجاب من الزوجة، والقبول من جهة الزوج. ولعل ارتباط هذا العقد بهذه الضوابط يرجع إلى وجود المختصين، الذين يقومون بكتابته، ويتضح ذلك من خلال عقود الزواج في عصرى المرابطين والموحدين^(٦). ويتأكد لنا من أمثال العامة في حالة تعذر الوفاق بين الزوجين، حتى يصبح الطلاق هو الحل، فيقولون: "إن وفق وفق وإلا حانوت الوثائق"^(٧). فلا بد أن الخلع كان يتم أيضاً بهذه الطريقة. كما تشتمل كتب الحسبة على ضوابط عند كتابة الوثائق^(٨)، وتأمّر الموثقين بالآل يعقدوا مراجعة رجل طلق امرأته طلاق خلع^(٩).

(١) فتاوى ابن رشد، ج ٢، ص ٩٥٣، رقم ٢٧١؛ المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة ١٩٩٧. ص ٣٩٨.

(٢) وثائق عربية غرناطية، ص ص ٥٩-٦٠.

(٣) فتاوى ابن رشد، ج ٢، ص ٩٥٢، رقم ٢٧١، ص ١١٨٧، رقم ٣٨١.

(٤) المصدر السابق.

(٥) عبد الكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٢٨٨.

(٦) ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٥٢.

(٧) إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص ٤١، نقلاً عن الزجالى رى الأوام، ج ٢، ٥٨.

(٨) ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحاسب، رسالة ابن عبدون، تحقيق بروفنسال، القاهرة ١٩٥٥، ص ١٣.

(٩) نفس المصدر، رسالة ابن عبد الرؤوف في آداب الحسبة والمحاسب، ص ٨٢.

بيد أن هناك بنوداً زائدة نستخلصها من المسائل المقدمة للفتوى، منها أن تقر المرأة في العقد على نفسها بالوفر واتساع الحال^(١)، أو أن يشترط عليها "بألا تتزوج إلا بعد عام، وإن تزوجت تغرم مائة مثقال مرابطة^(٢)، أو حتى تغطم ابنها^(٣)، أو تشترط على زوجها أنه لاحق له في جميع الثياب المقبوضة منه المكتوبة في كتاب صداقها، ولا قبل أبيها في شيء من الأشياء من تجارة أو غيره^(٤)".

ومع ذلك، كانت تحدث الاختلافات بعد إتمام الخلع، وتعارض مع ما جاء في العقد، فربما لأن العقد كان يكتب بصيغة تعارف عليها حال الخلع لا تعبر عن الواقع، أو أن المرأة الكارهة تقبل أى شروط في سبيل خلاصها، أو يحاول الرجل أن يستفيد من المرأة حتى بعد إجراء الخلع، وتذكر المصادر أمثلة عديدة لذلك، أو لأن الموثقين يقعون في بعض الأخطاء بسبب جهل بعضهم^(٥).

وارتباطاً بما أسلفناه عن موقف مالك بعدم جواز رفع أمر الخلع إلى القاضي. فهل تأكد ذلك بالتجربة العملية، أم أن الواقع أدى إلى ضرورة تجاوزه؟ معلوم أن هذه الجزئية اختلف فيها الأقدمون والمحدثون، حتى إن أحد الدارسين^(٦) يرفضها تماماً، ويرى في إدخال سلطة القاضي في مسألة الخلع سلب لقوامة الزوج على زوجته الثابتة بالقرآن.

بداية لا بد أن نناقش نقطة مهمة، وهى أن ما كان يرفع في الأغلب الأعم "للفقهاء للإفتاء فيه، لم يكن مرتبطاً بتوقيع الخلع من قبلهم، لكن بعد إتمام الخلع وحدث اختلاف في تطبيق ما اتفق عليه بين الطرفين" كما بينا. فكان لا بد من رفعه لحل الخلاف بالفتوى.

(١) فتاوى ابن رشد، جـ ١، ص ٢٩٨، رقم ٥٩.

(٢) نفس المصدر، جـ ٣، ص ١٥٦٠، رقم ٥٦٩.

(٣) ابن رشد، البيان والتحصيل، جـ ٥، ص ٤٨.

(٤) فتاوى ابن رشد، جـ ٢، ص ٩٥٣، رقم ٢٧١.

(٥) تذكر إحدى النوازل في العصر الغرناطى هذا الأمر جلياً: "والذى يظهر ببادى الرأى وشاهد الحال أن كاتب وثيقة التفاضل ظن بهجهه ورعوته أن ذلك العيب يوجب رد الزوجة على أهلها بغير طلاق، لأنه كتب بعد ذكر التفاضل وانفصلت الزوجة بسبب العيب المذكور على السنة". انظر،

ابن شريفة، نوازل غرناطية لابن عاصم الابن، ص ٢٣١.

(٦) حسن السيد خطاب، أحكام الخلع في الشريعة الإسلامية، ص ٦٢.

ولأن من كان يقوم بالإفتاء آنذاك كانوا غالباً هم القضاة^(١). فهناك بعض الإشارات التي تبين حرية المرأة في اللجوء إلى القضاء، أو على الأقل لم تمنع من ذلك. وطلبت من زوجها أن تحتلع دون أن ترفع أمرها إلى القاضي^(٢). وأحياناً تحال مسألة الخلع بعد إتمامها إلى القاضي، بسبب خطأ في الإجراءات^(٣).

ومع ذلك وجدنا امرأة تتقدم هي وزوجها إلى القاضي سعيد بن سليمان الغافقي الذي تم الخلع على يديه^(٤). ويتضح من النص أن المرأة اختلفت مع زوجها، فلجأت إلى القاضي الذي لم يجبر الزوج على الخلع، بل طرحه عليه كحل بسبب تهديد المرأة للقاضي، إذا ما أجبرها على العودة إلى الزوج، فأيقن القاضي أنها كارهة للزوج. وهذا يبين أن تدخل القاضي كان يحدث حين الشقاق وعدم القدرة على الوصول إلى حل يرضى الطرفين.

وهناك بعض النقاط الأخرى لا بد من مناقشتها في إطار التطبيق، أو هي من ملحقاته، منها ارتباط الخلع بحالات خارجه عنه، مثل الحالات بين الخلع والتطليق للضرر، وبين عوض الخلع وإسقاط حق الشفعة^(٥)، وكذلك التنازع في توكيل وبيع وخلع، وارتباط تمام إقامة الخلع والبيع في وقت واحد أم لا^(٦). وهذا أمر طبيعي، خصوصاً أن الخلع يتعلق بأداء الحقوق المالية.

(١) منهم أبي الأصبع بن سهل قاضي غرناطة، وابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة. انظر المالكى، تاريخ قضاة الأندلس، بيروت ١٩٦٧، ص ١٠٢، ٩٦؛ فضلاً عن ابن رشد (الجد). انظر، ابن يشكوال، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، القاهرة ١٩٩٤، جـ ٢، ص ٥٤٦ وما بعدها، وابن عاصم الابن ٧٣٠ - ٨٢٩هـ / ١٣٥٨ - ١٤٢٦ م، تولى قضاء الجماعة في غرناطة عام ٨٣٨هـ / ١٤٣٤ م. انظر، المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، بيروت ١٩٨٨، جـ ٦، ص ١٤٨.

(٢) الوئشريسى، المعيار، جـ ٣، ص ٩٣.

(٣) الوزانى، النوازل الكبرى، جـ ٤، ص ٢٥٥.

(٤) الخشنى، قضاة قرطبة، ص ١٣٩.

(٥) فتاوى ابن رشد، جـ ١، ص ١٨٥، رقم ١٩.

(٦) ابن سهل، ديوان الأحكام الكبرى، تحقيق رشيد النعيمى، الطبعة الأولى السعودية ١٩٩٧، جـ ١، ص ٦٢٢ وما بعدها.

كما ترتب على الخلع بعض المشكلات، أو على الأقل أن تلك الحالات التي رفعت للقضاء، كانت بسبب بعض التجاوزات منها اختلاع امرأة بجنان من زوجها، وبعد خمس سنوات، رفعت والددة المختلة ما يفيد بأن ابنتها صيرت لها هذا الجنان في إنفاق كان لها على ابنتها.^(١) معنى هذا أن الأمر يعرض لمسألتين، الأولى صحة العقد الذى بمقتضاه انتقلت الملكية إلى الأم، والثانية جواز الخلع لو ثبت عسر الزوجة، وأنها عديمة بلا مال. لكن يتضح لنا أنه نوع من التحايل في قيام الأم بالدعوى ضد الزوج لاسترجاع العوض بهذه الطريقة. أولاً: لأن المسألة تذكر أن هذا العوض كان زوجها أصدقها نصفه، واشترت الزوجة النصف الآخر. معنى ذلك أنها امرأة ثرية. ثانياً: أن الزوج كان يتصرف فيه لمدة سبع سنوات تصرف المالك في أملاكه بعلم والدتها. وثالثاً: أن الأم تقدمت بعد خمس سنوات من الخلع لتثبت ما أسلفناه، فهل لم تعرف بحدوث الخلع وقيمة العوض إلا مؤخراً؟ كما أن هذا العقد الذى يفيد ملكيتها، لا يثبت سوى قبول ابنتها، ولا يشتمل على دفع المبلغ ولا حيازة الخديقة. كذلك طول المدة في حد ذاته يؤكد هذا التحايل، لذلك نجد فتوى ابن الحاج فيها، لا تنصرف إلا إلى جواز الخلع، سواء كانت والددة الزوجة حاضرة للخلع، ولم تنكر، أو لم تحضر وسكتت بعد العلم به.

وفى بعض الأحيان، يرفع للفتوى، بسبب تنازع المختلة مع زوجها بخصوص العوض الذى تنازلت عنه للزوج، المشتمل على العقار والأرض، مما كان ساقه إليها زوجها ومنها شرب الماء لهذه الأرض، هل تدخل في العوض أم لا^(٢)؟

ومع ذلك كان الخلع أحياناً هو العلاج الناجح للمشاكل الزوجية. وهذا ثابت من خلال إقدام امرأة على الخلع ثم الرجعة إلى الزوج، لكنها لم تستمر معه، فإما أن تطلب الطلاق^(٣) أو تطلب الخلع مرة أخرى^(٤). أو يحدث الخلع بعد الرجعة بعد فترة

(١) الونشريسي، المعيار، ج٥، ص ٩٨.

(٢) فتاوى ابن رشد، ج ٢، صفحات ١١٨٧-١١٨٨، رقم ٣٨١.

(٣) نفس المصدر، ج ٣، ص ١٢٧٧، رقم ٤٢٨.

(٤) الونشريسي، المعيار، ج ٤، ص ٧.

قصيرة^(١) كما لم تكن الفترة التي عاشتها المرأة مع زوجها طالت أم قصرت تقف حائلاً دون طلب الخلع، فهناك امرأة عاشت مع زوجها سبعة أعوام، وأخرى سبعة أشهر^(٢)، وثالثة ظلت مع زوجها سنوات ولديها منه أولاد^(٣). كذلك تؤكد النصوص أحياناً أن الخلع كان في صالح المرأة. فتذكر إحدى الوثائق: "وأمضى ذلك كله من فعلها والدها فيه إذ رآه نظراً لها وغبطة ومصلحة ورشاداً"^(٤).

ومن الأمور المهمة أيضاً التي يجب مناقشتها هي مدى توافق آراء الفقهاء في المسائل التي عرضت عليهم، وأفتوا فيها مع رأى الأمام مالك. من المفيد أن نشير إلى أن فتاوى الفقهاء المتعلقة بالخلع جاءت في أحيان كثيرة متوافقة لأرائه، وبما جاء بمدونة سحنون، لكن هذا لا يمنع من وجود بعض الاستثناءات في أحكام الفقهاء في المسائل المعروضة عليهم.

فرفع لابن رشد (الجد) مسألة^(٥)، يتبين منها من خلال شهادة الشهود الإضرار بالمرأة حتى تفتدى من قبل الزوج، فأجاب: "لو ثبت في عقد الاسترعاء بالضرر على السماع بشهادة شاهدين عدلين، وجب للمرأة على زوجها الرجوع بما صرفته إليه، لأنها لم تبارهِ إلا لتخلص من أضراره". وهو هنا لا يقول إن الخلع باطل كما يقول مالك، فهل معنى ذلك، لأنه جاء في الوثيقة الأولى المقدمة إليه: "أنها طائعة بذلك كله"، وأنه أجاز الخلع مع رد العوض، أم اعتبره طلاقاً؟ في حين أن السؤال الوارد إليه عن مدى صحة عقد المبرأة.

وهناك إشارة أخرى في بعض المسائل المتفق عليها في مذهب مالك، لا يأخذ بها فقهاء الأندلس، وإن لم يصل إلينا منها حالة معينة، لكن يتضح ذلك مما عرضه القاضي عياض في مسألة فيمن خالع على أن أخرته بكالتها بعد حلول سته أشهر، وهذه المسألة ظاهرة في

(١) ابن رشد، البيان والتحصيل، ج٥، ص ٢٥١.

(٢) الونشريسي، المصدر السابق، ج٣، ص ٩٣، ج٥، ص ٩٨.

(٣) نفسه، ج٣، ص ٩٣.

(٤) فتاوى ابن رشد، ج٢، ص ٩٥٣، رقم ٢٧١.

(٥) نفس المصدر، ص ٩٥٤.

المدونة^(١) بأن الخلع جائز، لكن جاء جواب ابن رشد: "هذا اختلاف لا أعرفه ولا يصح عندي"^(٢).

كذلك أفتى ابن رشد في مسألة رجل طلق امرأته، وأسقطت عنه حضانة ابنه لعوض أخذته منه، وأجراه مجرى الخلع^(٣). والمسألة ليست جواز الحضانة كعوض في الخلع، لأن هذا الأمر مقرر، وليس فيه اختلاف، إنما ما يلاحظ فيها تلك الازدواجية فكيف يقوم الاثنان بتقديم العوض؟ بداية من المعلوم أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً من المرأة على طلاقها، وأن الرجل يعطى امرأته مالا، إذا كان النشوز من قبله، فيصالحها بما ترضى به وتقر عنده^(٤). فنجد ابن رشد يترك كل ذلك، ويناقش مسألة جواز الحضانة، وقيسها على ترك حقها فيه، واعتبر الحضانة والمال تتساوى مع هذا الحق من خلال اعتماده على مالك، فإذا كان هذا الصلح مشروط بأن تقرر عنده، فالخلع فراق، فكيف يتحقق ذلك؟

وفي فتوى أخرى لابن الحاج^(٥) في امرأة ظهر بزوجهها جذام من بعد ما ولدت معه أولاد، وأقامت معه سنين، وأرادت الآن فراقه، فاختلعت منه، فأجاب أن الخلع ماض، ولا خلاف فيه، ولا ترجع عليه بشيء، لأنها كانت قادرة على الصبر معه. وهذا الأمر يخالف ما جاء في المدونة^(٦)، وهى إذا اختلعت المرأة، ثم انكشف أن بزوجهها عيباً مثل الجذام أو الجنون، فإنها ترجع عليه بما أخذه منها، لأنها أملك لفراقه، وابن الحاج يشير إلى ذلك في إجابته، لكن يفرق بين ما قاله والمسألة التى بين يديه.

وربما جاءت هذه الاستثناءات، لأن المسائل التى عرضت على الفقهاء تكاد تتشابه إلى حد ما، أو تختلف مع ما قاله مالك ونقل عنه. وهذا الأمر يضعنا أمام قضية مهمة، وهى

(١) سحنون، ص ٢٤٨.

(٢) مذاهب الأحكام فى نوازل الأحكام، ص ٢٩٩.

(٣) فتاوى ابن رشد، ج ٣، صفحات ١٥٤٦ - ١٥٤٩، رقم ٥٦٣.

(٤) سحنون، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤١.

(٥) الوئشريسى، المعيار، ج ٣، ص ٩٣.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٥٠.

وضعية المالكية في الأندلس من خلال مقولة لأحد الدارسين ^(١) "بأن المذهب المالكي في رحلته إلى الغرب الإسلامي تطور إلى حد أخرجه في النهاية عن أصوله المحافظة، بحيث وجدت في الأندلس مالكية جديدة"، وإذا كان هذا الموضوع ليس مجالنا، لكنه يخصصنا إلى حد ما، وسنحاول مناقشته .

ليس هناك شك في اعتماد مذهب مالك في الأندلس على الفروع دون الأصول، حتى أصبح التخريج والتفريع والترجيح قصارى ما يبلغه الفقيه، وكانت آراء الفقهاء السابقين أدلة للشرع ^(٢). لذلك كان ظهور ابن حزم ^(٣) رد فعل طبعي لسيادة علم الفروع حتى إنه عاب على المالكية ترك مالك الحقيقي، والتشبث بكتب المسائل، والوقوف عند المدونة أو المستخرجة دون تجاوزهما ^(٤). ولعل استمرار هذه الظاهرة التي سادت عصر التقليد نتينها جلياً في كتاب البيان والتحصيل لابن رشد، فيما عرض للخلع من خلال مسائل وأسمعة للفقهاء القدامى ^(٥)، معقباً برأيه بعد كل مسألة .

ويبدو أن ابن رشد في كتابه "الفتاوى"، الذي شمل أحكاماً لنوازل عصره كان مختلفاً إلى حد ما، وهذا يتضح من إحدى المسائل التي عرضت عليه في شأن الفتوى والمفتى. ^(٦) فيذكر أنه لا بد من معرفة الصحيح والسقيم في أقوال مالك وأصحابه، ومن يصح له الفتوى هو من يقوم بالاجتهاد والقياس على الأصول بالمعنى الجامع بينها وبين النازلة. فربما كانت هذه الاستثناءات السالفة في الخروج عما قاله مالك، معبرة عن اجتهاد الفقهاء، خصوصاً أن هذه الفترة الممتدة من القرن ٤ - ٧هـ / ١٠ - ١٣م اتسمت بالاجتهاد داخل المذهب ^(٧).

(١) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، الدار البيضاء ١٩٨٠، ج١، ص ١٦٧.

(٢) حمادى العبيدى، ابن رشد وعلوم الشريعة الإسلامية، ص ١٥٩.

(٣) هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤م.

(٤) سالم يفوت، ابن حزم والفكر الفلسفى بالمغرب والأندلس، الدار البيضاء، ١٩٨٦، ص ١٠٩.

(٥) أمثال ابن القاسم وأسد بن الفرات وعبد الله بن وهب وأصبغ وغيرهم.

(٦) انظر، ج٣، ص ١٥٠٢، رقم ٥٤٩.

(٧) محمد حجى، نظرات في النوازل الفقهية، المغرب ١٩٩٩، ص ٢٩.

ومما يبين الميل إلى الاجتهاد، ما حدث من اختلاف بين الفقهاء في بعض المسائل التي ليس لها سند عند مالك، مثلما حدث في الحكم بين ابن عتاب وابن القطان في أجرة المحضون لأمه^(١). والاختلاف بين فقيهي قرطبة ابن رشد وابن الحاج في مسألة إنهاء دعوى الخلع، فأفتى ابن رشد، بأن يرجع إلى جميع ما يتعلق بالذمة، ما سمي وما لم يسم، بينما أفتى ابن الحاج، بأن العقد قاصر على أحكام الخلع خاصة^(٢). ثم ثار ابن رشد (الحفيد) بعد ذلك على ظاهرة التقليد. فسعى من طرف خفي إلى الاجتهاد، فسمى كتابه "بداية المجتهد"^(٣).

وما يهمننا أن آراء هؤلاء الفقهاء، التي تجاوزت مذهب مالك، ارتبطت بطبيعة المجتمع الأندلسي، وما طرأ عليه من تغيرات اقتصادية، جعلت الفقهاء يميلون إلى المذاهب الأخرى التي تعول على الرأي^(٤). لكن بعد عصر الموحدين، احتجب علم الفروع، وجاء عصر غرناطة، فنشطت الدراسات الفقهية من جديد، ووصل الفقه إلى درجة دقيقة من التقعيد^(٥).

ولا يفوتنا بعد عرض نوازل الخلع من التعرف على وضعية المرأة الاجتماعية. وليس هناك شك في أن قيمة العوض تدل عليها. ويتبين لنا هذا من خلال الحالات المقدمة، أن المختلعات في الغالب كن من الطبقة العليا في المجتمع سواء بما افتدين به من صداق، أو أضفن إليه أشياء أخرى تدل على ثرائهن، وهذا لا يمنع من وجود نساء من الطبقة الوسطى، كما وجدت أيضاً نساء من الطبقة الدنيا، لكن بحالات قليلة، فربما ثراء المرأة ووضعيتها الاجتماعية شجعها أحياناً على الحصول على حقها الشرعي.

أما المطالبة بهذا الحق، ومدى قدرة المرأة في الحصول عليه، تمثل في قيامها بطلب الخلع أو وجود الوكيل أو الأجنبي. فمن الملاحظ في غالبية النوازل المرفوعة للفتوى أنها تبدأ بكلمة "سئل"، فلا نتبين منها مقدم النازلة، ومع ذلك لا تخلو الوثائق من دلالة على

(١) الوزاني، النوازل الكبرى، ج٤، ص ٣٦١.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٢٨.

(٣) حمادي العبيدي، ابن رشد، ص ١٦٢.

(٤) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا، ج١، ص ١٦٧.

(٥) محمد بن شريفة، نوازل غرناطية لابن عاصم الابن، ص ٢١٧.

وجود المرأة، تتضح في بعض العبارات، ومنها: "وأمضى ذلك كله من فعلها والدها"^(١). وأحياناً تبدأ الوثيقة بكلمة "اختلعت"، ثم تأتي عبارة: "بمحضر والدها وأمها" أو أن يقوم أبوها بهذا الأمر، وهذا يتضح في خلع المحجور عليها أيضاً^(٢)، أو أن توكل من يخالعهام بشيء معلوم^(٣).

لكن وصل الأمر إلى دفاع المرأة عن حقها في الخلاص من الزوج في فترتين مختلفتين، الأولى في عصر الإمارة، ١٣٨-٣١٦ هـ / ٧٥٦-٩٢٩ م عندما تشبثت امرأة برأيها، ورفضت العودة مع زوجها، وهددت القاضي، وأعلنت رغبتها في الخلاص^(٤)، والثانية في عصر الموحدين، عندما رفعت امرأة شكواها إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨-٥٨٠ هـ / ١١٦٢-١١٨٤ م، بعد أن أضرها الزوج حتى اختلعت منه^(٥)، ثم أنكره والفارق بين الحالتين يتضح في الفترة الزمنية، كما اختلفت الوضعية الاجتماعية، إذ إن المرأة الأولى كانت عديمة، بينما المرأة الثانية يبدو من عوض الخلع أنها كانت ثرية، وإذا كانت المرأة الأولى تحركها كراهيتها الشديدة لهذا الرجل، فالثانية ربما كانت مدفوعة إلى ذلك بالظلم الواقع عليها من قبل زوجها.

بيد أن هناك سبباً آخر لا بد من التعويل عليه، ألا وهو وجود الحالة الأخيرة في الفترة التي عاش فيها ابن رشد (الحفيد). وهذا يقودنا في عجالة إلى إبراز وضعية المرأة في عصره، لتقف على إسهاماته في هذا المجال. ومن المعلوم أنه برغم ما حصلت عليه المرأة من حقوق في الإسلام، فإن دورها ظل متوارياً ومهمشاً، وإن كانت هناك إشارات في الفترة الأندلسية تبين حصول المرأة على وضعية متميزة. أشار إليها بعض الدارسين^(٦).

(١) فتاوى ابن رشد، ج٢، ص ٩٥٣، رقم ٢٧١.

(٢) نفس المصدر، ج١، ص ١٨٥، رقم ١٩؛ الونشريسي، المعيار، ج٤، ص ١٣٩.

(٣) الونشريسي، نفس المصدر، ج٣، ص ٩٣.

(٤) الخشنى، قضاة قرطبة، ص ١٣٩.

(٥) رسائل موحدية، ص ٥٢٦.

(٦) عصمت دندش، أعضاء جديدة على المرابطين، صفحات ١٦٣-١٦٥؛ إبراهيم القادري بوتشيش،

المغرب والأندلس في عصر المرابطين، صفحات ٤٣-٥٥.

فيما حصلت عليه خواص النساء خلال عصر المرابطين، في حين عندما يتحدثون عن عوام النساء من وجهة نظر الفقهاء. نجد اختلافاً كبيراً. فبقدر ما حصلت عليه المرأة في القصر المرابطي من سطوة، كانت المرأة من العامة ضعيفة غير قادرة على تحمل المسؤولية. فيصف ابن عبدون النساء بالجهل والغباوة^(١) أما في عصر الموحدين، فبرغم أنه كان لا يسمح باختلاط الرجال بالنساء في الأسواق والأعياد^(٢)، فإن المرأة نالت قسطاً من التعليم، خصوصاً أن عبد المؤمن بن علي ٥٢٥-٥٥٨ هـ / ١١٣٠-١١٦٣ م، جعل التعليم الابتدائي إجبارياً لكل مكلف من الرجال والنساء^(٣).

وليس معنى هذا أن وضع المرأة كان متميزاً في المجتمع الموحدى، فيشير ابن رشد^(٤) إلى مظاهر التردى التي وصلت إليها المرأة في عصره بسبب النظرة الرجعية للمرأة في رأيه، والتي حصرت مؤهلاتها في الإنجاب وتربية الصغار فقط. وانطلاقاً من تحليله لهذه الوضعية، دافع ابن رشد عن المرأة وكفل لها المساواة مع الرجل في أمور كثيرة، مما جعله نصير المرأة، وأحد دعاة الدفاع عن حقوقها وحريتها. وإذا كنا نفتقر إلى فتاوى بين أيدينا خاصة به في موضوع الخلع، لكن رأيه يتضح بما يتناسب وما أوردناه عن المساواة في عدة أمور^(٥)، كما تأكدت في عبارة خاصة بالخلع: "فإنه لما جعل الطلاق بيد الرجل، إذا ما فرك المرأة، جعل الخلع بيد المرأة، إذا فركت الرجل"^(٦).

(١) رسالة ابن عبدون، ص ٤٦.

(٢) البيهقي، أخبار المهدي بن تومرت وأبدا دولة الموحدين، نشرة، بروفنسال، باريس ١٩٢٨، ص ٥١.

(٣) بروفنسال، مجموع رسائل موحدية، الرباط ١٩٤١، صفحات ١٣١ - ١٣٧. وكان الدافع من وراء ذلك، أن يلم الناس بعقيدة ابن تومرت ومبادئه. انظر، عبد الله على علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، القاهرة، ١٩٧١، ص ٢٤٤.

(٤) منى أحمد أبو زيد، المدينة الفاضلة عند ابن رشد، الإسكندرية ٢٠٠٠، ص ١٣.

(٥) فذكر أنها يمكن أن تصل إلى مرتبة الفلاسفة والحكام وقيادة الجيش. انظر، أحمد عبد الحليم عطية، دراسات أخلاقية، القاهرة ٢٠٠١، ص ٢٨٩.

(٦) ساوى بين المرأة والرجل في العقوبة على قتل المرأة، فتكون نفس عقوبة قتل الرجل، وكذلك في حصولها على حق من الغنائم في الحرب تعادل حصة الرجل، وجواز الإمامة في الصلاة. وحققها في أن تعقد زواجها بنفسها. انظر، بداية المجتهد ج٢، ص ٤٣٤، ج١، ص ٥٥١، ص ١٧٦، ج٢، ص ١١.

معنى ذلك أن آراء ابن رشد، ربما كان لها أصداء في هذا المجتمع، وتأثرت بها هذه المرأة أو غيرها من قريب أو بعيد. لكن تعوزنا الحالات المماثلة التي نستطيع من خلالها أن نوضح مدى فاعلية آرائه .

وارتباطاً بما أسلفناه عن قدرة المرأة في الحصول على حريتها، فهناك سؤال آخر يطرح نفسه، وهو هل أحكام الفقهاء والقضاة كانت منصفة للمرأة أم لا ؟ معلوم أن الفقهاء يحكمون تبعاً للمذهب المالكي، وإن حدثت بعض الاستثناءات المرتبطة بتطور المالكية، وتأثرها بطبيعة التحول في المجتمع. وكذلك ما قيل عن نظرة الفقهاء المتدنية للمرأة في العصر المرابطي والموحدي. ومع ذلك وجدنا بعض الفقهاء تمسكوا بالنص المنقول عن مالك الذي ينصف المرأة، بينما تركوه في مواضع أخرى، وتمثل ذلك فيما أفتى به ابن عتاب الذي عاش في عصر ملوك الطوائف فيما طرح عليه من نوازل، وقع فيها الاختلاف بين المرأة والرجل بعد الخلع، فيقول: "القول قول المرأة" أو يفتى بأن المرأة المختلعة على نفقة الولد، إذا عمل أو تكسب، سواء الابن أو الابنة ، يكون الأجر للأمر لتستعين بها في النفقة^(١)، في حين أن أحد معاصريه أفتى بأن يؤول الأجر إلى الأب^(٢) .

كما أفتى ابن رشد في مسألة اختلف فيها أيضاً بعد الخلع فقال: "إن ادعى الزوج أنها صالحته على الجميع، فالقول قولها مع يمينها أنها صالحته على العقار دون شرب الماء"^(٣)، وهذا يتوافق مع قول مالك^(٤): وهو "لا يكون للزوج، إلا ما أقرت به المرأة". ويبدو أن الفقهاء حرصوا على عدم احتضام حقوقها، إذا ما حيف بها في بعض النوازل. ويتجلى ذلك في مسائل مشابهة مثل نوازل الحضانة^(٥). كما كان بعض القضاة يرأفون بالمرأة، ويرون أن النساء ضعاف، وأن الأغلب من الرجال قوياً. ولا بد أن هذا الرأي كان ينسحب على الأحكام الخاصة بالنساء^(٦). كذلك وجدنا بعض الفقهاء المتأخرين أمثال

(١) الوزاني، النوازل الكبرى، ج٤، صفحات ٣٦١-٣٦٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) فتاوى ابن رشد، ج٢، ص ١١٨٨، رقم ٣٨١.

(٤) سحنون، المدونة، ج٢، ص ٢٥١.

(٥) محمد بن شريفة، مقدمة كتاب مذاهب الحكام للقاضي عياض، ص ١٦.

(٦) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة ١٩٠١، ج٢، ص ٥٢.

ابن لب أشهر المفتين في العصر الغرناطي، وابن سراج، يكتفيان بشهادة السماع لإثبات الضرر، في حالة إضرار الرجل بزوجه حتى تفتدى^(١).

كذلك هل القيود الاجتماعية منعت المرأة من المطالبة بهذا الحق؟ أشرنا فيما سبق إلى أن سنوات الزواج ووجود الأولاد، لم يمنعا المرأة من طلب الخلع أحياناً، لكن أقصد نظرة المجتمع للمرأة المختلفة. حقيقة لم نقف من خلال النصوص على ذلك مباشرة. بينما نتبين لنا من تردد المرأة أحياناً في طلبه، فتذكر المصادر^(٢): "وأقامت معه سنين، ولم ترفع أمرها إلى الحاكم، وأرادت الآن ذلك، وطلبتة ... من غير أن ترفع أمرها إلى القاضي"، وعلى ما يبدو أن شيوع هذا الحق ومعرفته في المجتمع أبعد المرأة إلى حد ما عن الشعور بالخرج في طلب الخلع.

ولذا يبدو أن هذه المعرفة ساعدتها في الحصول على حريتها من الرجل بشكل عام، بل وساعدت الرجل على تقبل هذا الحق أيضاً مما قدمناه، لكنها مع ذلك تظل حالات فردية تؤكد سعياً من قبل المرأة للحصول على ما أرادت.

وفي ضوء ما عرضناه نستطيع أن نقف على أكثر الفترات التي وقعت فيها حالات الخلع، فنجد أنه من المتعذر وجود حالات بعد الفتح الإسلامي للأندلس. لكن بعد فترة طويلة نسبياً، لأن التعريب استغرق وقتاً، ولم يستطع أهل البلاد أن يقفوا على حقوقهم في الإسلام. كما أن العرب الذين دخلوها مع الفتح، إذا وقعت بينهم حالات للخلع، فليس من السهل الحصول عليها، لأن الفقه كان يخطو خطواته الأولى خلال هذه الفترة البكرة، كما لم توجد المصنفات المعنية بمثل هذه المسائل وغيرها بعد.

لذلك كانت أولى الحالات التي صادفتنا فيما اطلعنا عليه، ترجع إلى عصر الإمارة. خلال عصر الأمير عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦-٢٣٨ هـ / ٨٢٢-٨٥٢ م. اعتماداً على كتب القضاة. ثم في عصر الخلافة ٣١٦-٤٢٢ هـ / ٩٢٩-١٠٣١ م، من خلال ما حوته كتب النوازل المتأخرة لفقهاء تلك الفترة كما بينا. لكن أكثر الفترات التي وقعت فيها

(١) الونشريسي، المعيار، ج٤، ص ١٤١.

(٢) الونشريسي، المعيار، ج٣، ٩٣.

حالات الخلع ترجع إلى عصر المرابطين . وهذا يرجع في المقام الأول إلى ما شهدته هذه الفترة من وجود عدة كتب للنوازل في زمن متقارب وعصر واحد، مثل : نوازل ابن سهل وابن رشد وابن الحاج والقاضي عياض . مما يدل على حركة الفقه ورواجه ^(١)، فضلاً عن عصر غرناطة الذي حوى كثيراً من النوازل إلى جانب الوثائق وبرغم خلو النوازل نفسها بشكل عام أحياناً من التواريخ، فإن مجرد ذكر الفقهاء أو القضاة، يحدد الفترة الزمنية .

وفىما يخص المدن الأندلسية التي ذكرت في حالات الخلع . فهذا الأمر ليس سهلاً أيضاً، لأن غالبية النوازل التي وردت لم يذكر فيها اسم المدينة، وأحياناً يذكر فيها من بعض مدن الأندلس ^(٢) . ومعلوم أن كثيراً من القضاة المرتبطين بهذه النوازل كانوا ينتمون إلى العاصمة . أو عملوا بالقضاء في قرطبة . وكان من المنتظر أن تأتي لهم المسائل من قرطبة ومن أنحاء المدن الأندلسية . وهناك إشارات قليلة لبعض المدن، مثل : لشبونة، ومرسية ^(٣)، واشبيلية ^(٤)، وقرطبة ^(٥)، وغرناطة ^(٦) .

كذلك أمكننا الوقوف على بعض المصطلحات المستخدمة في وثائق الخلع أو المباشرة، ومنها كلمة "السياقة" التي وردت كثيراً في النصوص، وهى من المصطلحات الأندلسية الخاصة " ظاهرة أو عرفاً ملزماً فيها" . وتعنى السياقة، ما يقدمه الزوج لزوجته هدية في عقد الزواج، تكون غالباً من العقار، وفي مقابلها يقوم الأب بتجهيز ابنته بما يساوى قيمة السياقة أو يفوقها ^(٧) .

وأخيراً لئلا نقرر، أن الدراسة أسفرت عن مشروعية الخلع، وأنه حد من حدود الله، قائم بذاته، غير معتمد على تأويل، جائز مع الشقاق والوفاق، ويقع مع الكراهة من

(١) محمد بن شريفة، مقدمة كتاب مذاهب الحكام، ص ١٣ .

(٢) فتاوى ابن رشد، ج٣، ص ١٥٥١، رقم ٥٦٥ .

(٣) نفس المصدر، ج٢، ص ٩٥٢، رقم ٢٧١، ص ١١٨٨، رقم ٣٨١ .

(٤) الونشريسي، المعيار، ج٤، ص ٧ .

(٥) الخشنى، قضاء قرطبة، صفحات ١٣٨-١٣٩ .

(٦) وثائق عربية غرناطية، ص ٦٠ .

(٧) محمد الحبيب التيجكاني، مقدمة مسائل أبى الوليد بن رشد، ج١، صفحات ١٢-١٤ .

الزوجة في خلق أو خلق الزوج، وإذا كان من قبل الرجل لا يتم، لأن الخلع لا يجوز إلا من ناشز. كما أن الخلع طلاق بائن، وأن الزوجة تملك نفسها به، ولا رجعة للزوج في العدة أو بعدها إلا بعقد ومهر جديدين. وعدة المختلعة ثلاثة أشهر أو إلى وضع الحمل، وأنه يجوز في كل وقت. كما أنه يسقط بالخلع كل الحقوق الثابتة لكل واحد من الزوجين تجاه الآخر.

وانتهينا إلى أن المرأة التي تقدمت لطلب الخلع في المجتمع الأندلسي كانت في الغالب مدفوعة بالكراهية، وأحياناً بإضرار زوجها لها. ومع ذلك حاولت المرأة الحصول على هذا الحق من خلال التعبير عن رأيها، وإثبات رغبتها في وقوع الخلع، أو رفع دعوى لإثبات الضرر بعد وقوعه. كما نتبين أن الرجل كان عارفاً بهذا الحق إلى حد جعله لم يتخرج في دفع المرأة إليه. وبرغم ما أثبتناه من حالات لبغض النساء لأزواجهن، أو التثبت بالرأى لإنفاذ الخلع، وحرص الفقهاء أحياناً على إنصاف المرأة، فإنها مع ذلك كانت حالات قليلة. وكانت المرأة عموماً محكومة برواسب مجتمعتها وبسطوة الرجل عليها.

بيد أن شيوع هذا الحق في المجتمع آنذاك وحدوثه بشكل غير رسمي بين الطرفين لم ينقل كل الحالات التي تمت بالفعل، لأنه لم يحفظ إلا الحالات التي رفعت للفتوى والبقية ضاعت في معظمها. لكن من خلال ما بين أيدينا، نقف على ضبابية المعرفة لأحكام الخلع وضوابطه، سواء بالنسبة للمرأة والرجل، أو المحيطين بهم من الأقارب أو حتى الشهود، لأن مجرد الاختلاف في التطبيق عما جاء فيما اتفق عليه، ورفع للفتوى يدل على ارتباطه بعدة أمور: منها، الاشتباه في مدى صحته والاختلاف عليه، كذلك وجود حالات الخلع المختلفة والكثيرة المرفوعة للفقهاء، فضلاً عن أن هذه الحالات كانت معبرة عن عوام النساء.

وربما يرجع ذلك إلى القائمين بكتابة مثل هذه العقود، فعلى ما يبدو أنهم كانوا غير ملمين بما يرتبط بالخلع من أحكام، أو لعل الرغبة في الخلاص من الرجل، دفعت المرأة إلى قبول ما يرضاه. أو كل هذه الأسباب جميعها، كانت من وراء وضعها بين يدي المفتى، بسبب ما يترتب على الخلع من مشاكل.

كما كانت هناك محاولات لاسترجاع العوض عن طريق التحايل، وكان الرجل يحاول أيضاً في بعض الأحيان أن يحصل على أكبر قدر ممكن من العوض قبل وبعد الخلع.

ولعل العثور على وثائق جديدة، والوقوف على أمور أخرى تحويها حالات الخلع، يكشف النقاب عن ممارسة المرأة لأحد حقوقها الشرعية بصورة توضح طبيعة هذه المجتمعات وتفهمها لبعض حقوق المرأة، وتقبلها للخلع في فترة العصور الإسلامية.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

القرآن الكريم.

البخارى : الجامع الصحيح ، القاهرة ٢٠٠٠ .

ابن بشكوال : الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، القاهرة ١٩٩٤ .

البيذق : أخبار المهدي بن تومرت وابتداء الدولة الموحدية ، نشرة بروفنسال ، باريس

١٩٢٨ .

ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحاسب ، تحقيق بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥

الخشني : قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ، بيروت ١٩٨٢ .

ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، القاهرة ١٩٠١ .

كناسة الدكان بعد انتقال السكان ، القاهرة ١٩٦٦ .

رسائل موحدية : مجموعة جديدة ، القسم الأول ، تحقيق ودراسة أحمد عزاوي ،

القنيطرة ١٩٩٥ .

ابن رشد (الجد) : البيان والتحصيل ، تحقيق محمد حجي ، بيروت ١٩٨٧ . مسائل

ابن رشد حققها الحبيب التجكاني بيروت ١٩٧٨ . جزءان ، وحققها المختار بن الطاهر

التليلى ، بعنوان : "فتاوى ابن رشد" بيروت ١٩٨٧ . في ثلاثة أجزاء .

ابن رشد (الحفيد) : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، القاهرة ١٩٧٠ ، ١٩٧٤ جزءان .

سحنون بن سعيد : المدونة الكبرى ، بيروت ١٩٩٤ . الجزء الثاني .

سنن أبي داود : مكة المكرمة ، بدون تاريخ ، الجزء الأول .

ابن سهل : ديوان الأحكام الكبرى ، تحقيق رشيد النعيمي ، السعودية ١٩٩٧ .

الشوكاني : نيل الأوطار؛ القاهرة ١٢٩٧ هـ .

القاضي عياض : مذاهب الحكام في نوازل الأحكام ، تحقيق محمد بن شريفة ،
بيروت ١٩٩٠ .

القرطبي : جامع الأحكام الفقهية ، جمع وتصنيف زيد عبد العزيز الجندى بيروت
١٩٩٤ .

القسطلاني : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، القاهرة ١٣٠٥ هـ .
المالقي : تاريخ قضاة الأندلس ، بيروت ١٩٦٧ .

مالك : الموطأ ، صححه وخرج أحاديثه محمد فؤاد عبد الجليل ، القاهرة بدون تاريخ .

المراكشي : وثائق المرابطين والموحدين ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٩٧ .

المقرئ : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، بيروت ١٩٨٨ .

ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ١٩٥٦ .

النسائي : عشرة النساء ، القاهرة ١٩٨٨ .

وثائق عربية غرناطية من منشورات معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، حققه
وقدم له وذيله مع ترجمه بالأسبانية سيكوري لوثينا ، مدريد ١٩٦١ .

الوزاني : النوازل الكبرى الجديدة ، المغرب ١٩٩٧ .

الونشريسي : المعيار المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، بيروت
١٩٩٠ .

ثانياً: المراجع العربية

إبراهيم القادري بوتشيش : المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، بيروت ١٩٩٣ .

أحمد زكي تفاحة : المرأة في الإسلام ، بيروت ١٩٥٥ .

أحمد عبد الحليم عطية : دراسات أخلاقية ، القاهرة ٢٠٠١ .

أحمد اليوسفي شعيب : أهمية الفتوى في كشف وقائع التجربة الأندلسية ، ابن الحاج
نموذجاً ، المغرب - تطوان ١٩٩٣ .

بروفنسال : مجموع رسائل موحدة الرباط ، ١٩٤١ .

الجزيري : الفقه على المذاهب الأربعة ، بيروت ١٩٩٠ .

- حسن السيد خطاب: أحكام الخلع في الشريعة الإسلامية، دراسة فقهية ٢٠٠٠.
- همادي العبيدي: ابن رشد وعلوم الشريعة الإسلامية، بيروت ١٩٩١.
- راوية عبد الحميد حسانين شافع: دور المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح العربي للأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية، ٩٢ - ٤٢٢ هـ / ٧١١ - ١٠٣١ م رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١٩٩٦.
- سالم يفوت: ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، الدار البيضاء ١٩٨٦.
- سعيد أبو زيد: الحياة الاجتماعية في الأندلس - دولتي المرابطين والموحدين، قويسنا ١٩٩٦.
- عبد الكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، الإسكندرية ١٩٦٩.
- عبد الله على علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، القاهرة ١٩٧١.
- عبد الواحد ذنون طه: كتب الفتاوى مصدراً للتاريخ الأندلسي، المجلة العربية الثقافية، جامعة الدول العربية، العدد ٢٧، سبتمبر ١٩٩٤.
- عبله محمد الكحلاوي: الخلع دواء ما لا دواء له، دراسة فقهية مقارنة مستلة من مجلة الزهراء، العدد العاشر ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.
- عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين، الطبعة الأولى، دار المغرب الإسلامي ١٩٩١.
- محمد بن شريفة: نوازل غرناطية لابن عاصم الابن، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، عدد خاص بالتراث بين أسبانيا والمغرب، غرناطة ١٩٩٢.
- محمد حجى: نظرات في النوازل الفقهية، المغرب ١٩٩٩.
- محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، الدار البيضاء ١٩٨٠.
- منى أحمد أبو زيد: المدينة الفاضلة عند ابن رشد، الإسكندرية ٢٠٠٠.
- المراجع الأجنبية:

ملحق رقم (١)

ورق: ٢١٥ × ١٤٦ مليمترا

المكتوب: ١٦٠ × ١١٦ مليمترا

المضمون: وثيقة طلاق

٢ ربيع الأول ٨٧٩ / ١٧ يولية ١٤٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

هذه نسخة رسم اختلاع قيد من أسطر صدق محمد بن أحمد الأشكر وعائشة بنت أبي عثمان سعد بن أحمد المؤذن نصه: الحمد لله اختلعت الزوجة المذكورة في هذا الصداق لزوجها المذكور معها فيه بخراج عدتها منه إلى تمامها وإن كان طالت وبكل حق لها قبله في هذا الصداق وما غيره من كاليء وسواه وإن ظهر بها حمل منه فإنها تختلع به إلى وضعه ومن بعد الوضع إلى بلوغ الذكر الحلم ودخول الزوج بالأنثى وعلى أن يكون بنتها فاطمة في حضانتها وكفالتها وتحت تماونها وإنفاقها على أى حال كانت من تزويج وغيره ومن غير أن ينوب والدها شئ إلى سقوط النفقة عنه شرعاً وبمحضر والدها وأمها فاطمة بنت أحمد الشرقي وموافقتها على ما ذكر وضمنا مرجع دركها في ذلك كله ضمناً تاماً متى لحق وبأى وجه لحق وأسقطوا الضعف والعدم الإسقاط التام فان قاموا به فسلموا الحمد أن كان والعتب لوالدها وأسقطوا (عنها) فيهما الحضانة وعملت ذلك كله طائعة متبرعة من غير إكراه ولا ضرر لحقها بوجه وأسقط والدها عن الزوج الرجل ما وجب له قبله بسبب سكانه بداره بباب البنود بداخل غر ناطة مدة سكانه بها الإسقاط التام وعلى ذلك كله وبسببه أوقع عليها الزوج الرجل طليقة واحدة أولى بملكه ملكها بها أمر نفسها وعرفوا قدره وأشهدوا به من عرفها بحال صحة وجواز في الثامن لربيع الأول عام تسعة وسبعين وثمانى مائة (١٧ يولية ١٤٧٤) .

(توقيعات غير مقروءة) (١)

ملحق رقم (٢)

الشكاية الرابعة :

حضرة الإمام الأعدل ، (الملك) الأكرم الأفضل، أبو يعقوب ابن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أقام الله منار الحق والعدل ببقائه، واهب علينا روح الانتصار والانتصار من تلقائه، مملوكة إنعامه، الرغبة إلى الله في اتصال أمره العزيز ودوامه فلانة، سلام على الحضرة العلية، والسدة القدسية ورحمة الله وبركاته .

وبعد حمد الله الذى يكف بالإمام المقسط ويزع، حمداً يقتضى حسن الفعال وكرم المصنع، والصلاة على محمد المصطفى المبتعث بالسنى الأنور والضياء الأسطع، ونرضى عن الإمام المهدي رضى يجد كرامته في اليوم الأحفل والمشهد الأجمع، وندعو لسيدنا أمير المؤمنين في نصر عزيز يرد الكافرين والمارقين ويقمع، ولسيدنا الإمام الأعدل، المالك الأفضل، أبو يعقوب في صعود جمة تفنن ضروبها الجملة و(تتن) فإن أمتكم رميت من زوجها فلان بداهية الدهر، ومنيت من (---) حسن العشرة مجالها، وحشد أوصافها المقطوعة وأوجالها ، وصبر أخوف من (سمة الضرغام "مجالها") لج في إصراره على إضراره، وعزم على إبايته ترك إذايته، وقد اظطرنى بما سامنى من الخسف، وركبنى به من العنف والعسف، حتى اختلعت منه بكثير من مالي، ورضيت العدم ثمناً لرخاء بالي، فيما أجباني إلى مطلوبى، ولا أسعفنى في مرغوبى، وعدلكم - أدام الله تأييدكم - يفكنى من إساره، ويحل عنقى من ربة اقتساره، والشيخ أبو فلان وغيره من شيوخ بنى فلان* وفقهم الله - يعلمون أمرنا ويخبرون سرنا، والله لا يعدم الملهوفة المضطهدة من نظركم المؤيد بالسداد ورأيكم الراحم لكافة العباد، ما يكشف بأساءها. وهو جل وعز يعمر بالفتوحات النيرة صباح حضرتمكم السامية ومساءها، ويحقق امتداد أيامكم السعيدة ونساءها والسلام^(١).

(١) رسائل موحدية، ص ٥٢٦ .

ملحق رقم (٣)

في قيام المرأة طالبة بما اختلعت به للضرر وخوطب من مدينة، الاشبونة، قاصية غرب الأندلس، يسأل عن مسألة/ طلاق وقع (٢٠٢) بسبب ضرر اتصل، وسمع ، فطلق الزوج على أن أسقطت الزوجة جميع ما كان لها عليه، وإن ردت ما كان تصير من أملاكه لها إليه .

ونص جميع ذلك :

" بارأ عبيد الله بن محمد بن أحمد بن أكامن الأزدي زوجته رؤى بنت الفقيه أبي الوليد يونس بن عبد الرازق بعد بنائه بها، إذ تفاقت أمورهما، واختلفت أهواؤهما، على أن أسقطته جميع ما كان أمهره لها من كالي، بعد معرفتها بعدده، وعلى أن صرفت إليه جميع ما كان أمهره لها في كتاب صداقها معه من دور بالربض الغربي من قسبة الاشبونة، المشهورة لولد المبارى المذكور، وجنات بنواحي الجهة المذكورة، وأرضين بقرب مدينة الاشبونة، من جميع جهاتها، وخرج العدة إلى انقضائها، وما وجب لها من غلات، مما كان أمهره لها، من عقار بالجهة المذكورة ، طائعة بذلك كله .

وأضى ذلك كله من فعلها والدها الفقيه أبو الوليد المذكور، إذ رآه نظراً لها، وغبطة، ومصلحة، ورشاداً .

وعلى هذا الإسقاط المذكور، والإمضاء الموصوف، ملكها عبيد الله المذكور أمر نفسها، ولم يبق بين رؤى المذكور وعبيد الله المذكور شيء من الأشياء من جميع الدعاوى والتبعات، وانفردت رؤى المذكورة بجميع الثياب المقبوضة/ منه. المكتوبة، كانت عليه في كتاب صداقها معه. ولا حق لعبيد الله في جميع الثياب المقبوضة منه، وكذلك لا حق لعبيد الله المذكور قبل رؤى المذكورة، ولا قبل أبيها الفقيه (يونس) ، (في) شيء من الأشياء من صداق أو تجارة، ولا من شيء من الأشياء .

شهد على إشهد عبيد الله بن محمد بن أحمد، والفقيه يونس بن عبد الرازق على أنفسهما بجميع ما في هذا الكتاب عنهما من سمعه منهما ، وعرفهما، وهما بحال الصحة والجواز، لأربع بقين من شهر (الله) شعبان من سنة ثنتي عشرة وخمس مائة .

ممن أشهدته رؤى المذكورة على ما فيه عنها من سمع ذلك كله منها، وعرفها، وذلك في التاريخ .

ممن أشهده عبيد الله بن محمد : أنه لا حق له قبل البند بنت سعيد، ولا قبل محمد بن يونس، ولا دعوة حجة من شيء من الأشياء، وذلك في التاريخ " .

" يشهد من يكتب اسمه بعد هذا من الشهداء: أنهم يعرفون عبيد الله ابن محمد (رخصولة) بعينه واسمه، وأنهم سمعوا عنه، سماعاً فاشياً، مستفيضاً، من لفيق النساء والخدم والجيران: أنه يضر بزوجه رؤى بنت يونس بن عبد الرازق الكلاعي، في نفسها ضرراً لا صبر عليه للمسلم، وأنه يضيق عليها، لتفتدى منه، وأنه قد تكرر ذلك منه عليها المرة بعد المرة، لم يقلع عن ذلك، في علم من شهد بذلك، على السماع المذكور إلى حين شهادتهم هذه .

شهد على ذلك كله من علم الأمر حسبما فسر ونص. وعقد شهادتهم بذلك في ذى الحجة من سنة إحدى عشرة وخمس مائة " . تأمل رضى الله عنك، إن كان عقد المبرأة صحيحاً أم لا ؟ . وهل إن صح عقد المبرأة، هل يعمل فيه عقد شهادة الاسترعاء على الضرر أم لا ؟^(١)



oboeikan.com

الرعاية الاجتماعية
في القدس في العصر المملوكي
"٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م"

تأليف

د . محمد سالم بكر باعامر

أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى

بقسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بجدة - جامعة الملك عبد العزيز

oboiikan.com

الرعاية الاجتماعية في القدس في العصر المملوكي

"١٥١٧-١٢٥٠هـ / ١٩٢٣-٦٤٨م"

مقدمة

حظيت مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك - كما حظيت غيرها من المدن التي خضعت لحكمهم - بكثير من أوجه الرعاية الاجتماعية ، كتعبير عن السياسة العامة التي سار عليها حكام هذه الدولة لترسيخ قيمة دولتهم كقوة مدافعة عن الإسلام والمسلمين في مواجهة الأخطار التي تعرضت لها البلاد ؛ وفي نفس الوقت للحصول على تأييد المعاصرين لهم ، وتغيير نظرتهم إليهم ، عن طريق تحقيق التكافل الاجتماعي ونجدة الملهوف ، ومساعدة المحتاج ، وترسيخ القيم الإنسانية وتحويلها من عادات يحكمها العرف إلى عمل منتظم تحكمه قواعد وترعاه مؤسسات شرعية بما يتفق مع الشريعة الإسلامية ، وهو ما عُرف لدى الفقهاء باسم المصالح المرسلة التي تتحقق من جلب منفعة للخلق ودفع مضرة في الدنيا والدين^(١) .

وسنركز حديثنا على تسعة مجالات هي

رعاية الأيتام القصر وإدارة أموالهم - تعليم الأيتام الفقراء - بيوت الصوفية والرعاية الاجتماعية - الرباع والرعاية الاجتماعية - الخانات والرعاية الاجتماعية - توفير الماء العذب - الرعاية الصحية - الحمامات - سداد دين المدينين .

(١) الإمام محمد أبو زهرة : ابن تيمية ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٤٩٥ .

رعاية الأيتام القصر وإدارة أموالهم

فمن الأضواء الجديدة التي تلقىها مجموعة وثائق الحرم القدسي الشريف • والتي تم الكشف عنها فيما بين سنتي ١٩٧٤ و ١٩٧٦ في المتحف الإسلامي بالقدس ، أن الرعاية الاجتماعية امتدت لتشمل أموال اليتامى القصر بوجه عام • واليتامى بلا وصى بوجه خاص • وكذلك اليتامى الذين هم بلا مورد مالى • فبعد وفاة عائلهم ، وخاصة الذين ليس لهم أوصياء من أقاربهم ، كانت توضع ثرواتهم أو ما يؤول إليهم من إرث تحت نظر القاضي الشافعى فى القدس لعدة أغراض منها الإنفاق عليهم ، وتوفير سبل الحياة الكريمة لهم ، وتعليمهم ، وكسوتهم وإطعامهم ، والتوسعة عليهم فى المواسم المختلفة ، وإلى غير ذلك من الأمور المعيشية ، والأهم من ذلك هو استثمار هذه الأموال وفق الشرع ، إلى حين أن يصلوا سن الرشد فيقوم بتسليمهم مستحقاتهم ، كذلك كان هذا القاضي يقوم بالإشراف على أوقاف الأيتام التى يوقفها بعض الآباء على ذريتهم من بعدهم ، ويجعل النظر عليهم لهم ، أو يحدد لهم نصيباً منها ، إذ تتحدث الوثائق رقم ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٨ ، ١٤٩ عن وجود بيت المال المعمور فى القدس برئاسة ناظر أو مشرف أو وكيل أو شاد ، وتبين الوثيقة رقم ٣٧٦ الإجراءات التى تتبع فى ديوان بيت المال • كما تشير الوثيقة رقم ٥٣٥ إلى وجود ديوان تابع لبيت المال "يسمى ديوان الموارث الحشرية" يتولى حصر تركات من يموت بلا وارث وتكون تركته بذلك من نصيب الدولة ، أو من يموت ويترك ورثة لا يستحقون الإرث كله ، فيدخل بيت المال ضمن الورثة سواء كانوا من المسلمين أم من أهل الذمة ، كما كان لبيت المال مندوبون يمثلونه لدى حصر تركات الأشخاص المتوفين ، أو من هم فى مرض الموت^(١) .

وتنبغى الإشارة إلى أن السلطان الظاهر بيبرس ، أصدر تعليماته فى سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م ، إلى القضاة ونوابهم بأن لا ينفرد أحدٌ من الأوصياء على اليتامى بوصية

(١) المقرئى "تقى الدين أحمد بن على" : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ، ١٩٤٢-١٩٧١م ، ج ١ ، قسم ٣ ، ص ٨٦٤ ؛ د • العسلى "كامل جميل" وثائق مقدسية تاريخية ، عمان ١٩٨٣م ، ج ١ ، ص ٤٩ •

خوفاً من أن "يكبر اليتيم فلا يجد شيئاً ولا تقوم له حجة على موجوده ، أو يموت الوصى فيذهب مال اليتيم في ماله" ، وأن يكون هناك مجلس هو أشبه بالمجلس الحسبي الموجود في بعض البلاد في عصرنا الحديث ، تسجل فيه أموال اليتامى ، ويتكون من نواب القاضى الذين "يحققون على المصروف" واستمر الحال منذ ذلك التاريخ على هذا المنوال وحتى نهاية العصر المملوكى ^(١) .

والحقيقة أن كتب الحسبة المعاصرة أبدت حرصاً شديداً على أموال اليتامى هؤلاء ، وحثت المحتسب أن يعمل كل ما في وسعه للمحافظة عليها وعدم التلاعب بها ، وطالبت بضرورة التشديد على دلالى العقارات بالألا يبيعوا شيئاً لصبى أو يتيم إلا بإذن وصيه ، ومن يخالف هذا يحذف من جملة الدلائل ^(٢) . كما شددت على التجار فى التعامل مع اليتامى القصر ، وأنه ينبغى للتاجر ألا "يعامل فى البيع أربعة : الصبى والمجنون والعبد والأعمى ، لأن الصبى غير مكلف وكذا المجنون وبيعها باطل فلا يصح بيع للصبى" ^(٣) .

ولما كانت عملية استثمار أموال اليتيم مستحبة فقد وجب الحرص فيها أيضاً ، حيث أوصى بعض الفقهاء المعاصرين من له الوصاية على اليتيم بقوله : "إن ولى اليتيم لا تجب عليه المبالغة فى الاستثناء ، وإنما الواجب أن يستنمى قدر ما لا تأكل النفقة والمؤن المال . ولكن الزيادة من شكر النعمة" ^(٤) .

وأول ما نلاحظه على وثائق الحرم القدسى الشريف الخاصة برعاية الأيتام هو أنه فى حالة عدم وجود وصى على هؤلاء الأيتام ، فإن أم الأيتام كان لها الأولوية فى الوصاية على أولادها القصر ، لأنها أشفق عليهم وأرفق ولديها من الغيرة عليهم والعناية بأمرهم مما لا يتوافر على الوجه الأكمل عند غيرها من ذوى الأرحام ما دامت أهل للوصاية . وهذا ما

(١) المقرئى : نفسه ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٥١٢ .

(٢) ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، القاهرة ، ١٩٦٢ م ، ص ٥٢ .

(٣) السبكى "تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب" : معيد النعم ومبيد النقم ، القاهرة ، ١٩٤٨ م ، ص ٦٤ .

(٤) ابن الضياء القرشى "أبو البقاء محمد بن أحمد" سنة ٨٠٤ هـ : تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية برقم ١٢٨ تاريخ ، ورقة ١٠٨ ب ؛ تقى الدين الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام بيروت ١٩٨٥ م ، ج ١ ، ص ٣٤٧ ؛ ابن فهد "النجم عمر" : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، الرياض ، ١٩٨٠ م ، ج ٤ ، ص ٥٢٧-٥٢٨ .

تؤكد الوثيقة رقم ٦١٣ والمؤرخة في ١٩ ذى القعدة سنة ٧٩٦هـ، والتي تم فيها إسناد الوصية لأُم بحضور أحد أعوان نائب السلطنة بالقدس الشريف وتم إبرامها بإذن من القاضي، وبذلك تكتسب القوة القانونية، وعلى الوصية توقيع ثلاثة شهود^(١) وفي حالة الشك في أهليتها فإنه كان لدى قاضي القضاة الشافعي موظف يدعى "أمين الحكم" هو المسئول عن رعاية أمثال هؤلاء الأيتام وغيرهم، يقوم بالإنفاق عليهم من تركة والدهم، فقد جاء في الوثيقة رقم ١٩٢ المؤرخة في ٥ محرم سنة ٧٩٠هـ أن أمين الحكم هذا قام بتسليم أم طفلين يتيمين "فرض ولديها محمد وعلى اللذين في حضانتها عن مدة أربعة شهور كوامل آخرهم شهر صفر من سنة تاريخه مائة درهم وسبعين درهما نصفها خمسة وثمانون درهما"؛ كما أن الوثيقة رقم ١٨٣ المؤرخة في ٤ رمضان سنة ٧٩٠هـ تفيد أن هذه المرأة نفسها قبضت من "أمين الحكم" مبلغا وقدره ١٢٠ درهما، وذلك فرض ولديها محمد وعلى عن مدة شهرين كاملين آخرهما سلخ رمضان المعظم". وبذلك يتضح لنا أن ما كان يخص كل طفل في الوثيقة الأولى كل شهر كان ٢١٢٥ درهما بينما زاد هذا المبلغ إلى ٣٠ درهما في كل من شهرى شعبان ورمضان، بما يفيد أن "أمين الحكم" قام بالتوسعة على هؤلاء اليتامى بزيادة الحصص المخصصة لهم في الشهور التي تتطلب التوسعة ومنها شهرى شعبان ورمضان^(٢).

وتلقى الوثيقة رقم ٦٤٩ والمؤرخة في ذى القعدة سنة ٧٩٣هـ / ١٠ أكتوبر ١٣٩١م ضوئا جديدا على مدى حرص السلطة المملوكية بتجنيب اليتامى القصر كل ما من شأنه الإضرار بمصلحتهم، فقد قام أحد الأوصياء على أيتام المرحوم البدر بن مزهر الذي كان كاتباً للسر بالشام، والمقيمين بالقدس بتقديم "قصة" أى عرض حال إلى القاضي الشافعي يطلب بيع "الجوار الأربعة والمملوك بلبان والبغلة الشقرا المخلف ذلك عن والد الأيتام المذكورين". لما في ذلك من رفع الكلفة وخوف الهلاك والفساد ولاستغنا الأيتام عن استبقائهم^{١٠} "فطلب القاضي من الوصى إثبات صحة ذلك، فأحضر الشهود الذين شهدوا بين يدي القاضي "أن المصلحة للأيتام المذكورين يومئذ في بيع الرقيق والحيوان

(١) د. العسلي: وثائق مقدسية، ج٢، ص ١٢٥؛ Von Donald, p. Little "The Significance of the Haram Documents for the Study of Medieval Islamic History" Der Islam, Band

57 Heft I, 1980, pp. 202-205.

(٢) د. العسلي: نفسه، ج٢، ص ١٠٥-١٠٧.

المذكورين أعلاه، وأن الأيتام مستغنين عن استبقاء ذلك لهم وأن عدم بيعهم فيه ضرر على الأيتام المذكورين وفيه كلفة عليهم". فأذن القاضي بالبيع شريطة أن يتم عمل مزادة، وألا يباعوا إلا بسعر المثل على الأقل^(١).

وفي هذا المجال أيضا قامت الأوقاف بدور هام في رعاية الأيتام وبخاصة ممن ليس لهم أى مورد مالى، فقد جاء فى الوثيقة رقم ١٨٤ والمؤرخة فى ٢ رمضان سنة ٧٨٩هـ أن إحدى الأرامل قد قبضت من "أمين الحكم العزيز" والجابى على وقف المدرسة الصلاحية بالقدس الشريف من الدراهم الفضة معاملة الشام المحروس ثلاث مائة درهم وخمسة وسبعين درهما، وذلك "ما هو فرض أولادها ٠٠ وهم عمر وأبى بكر وسلمى وسارة عن شهر رجب"^(٢). ومن الطبيعى أن تختلف النفقة على مثل هؤلاء الأيتام باختلاف ريع الأوقاف المخصصة للإنفاق على اليتامى ممن هم بلا تركة أو مورد مالى آخر. فمن ضمن مجموعة الوثائق هناك ١٧ قصة "هى بمثابة عرض حال"، وعليها تأشيرة موافقة قاضى القضاة الشافعى على الظهر أو على أحد أطراف الوثيقة، وهى توضح بما لا يدع مجالا للشك كيف أن هذا المجتمع كان قادرا على تحقيق مطالب الفقراء من أعضائه، كما أنها توضح كيف أن مؤسسة الوقف كانت مسئولة عن أفراد ذلك المجتمع^(٣).

تعليم الأيتام الفقراء

أما عن تعليم الأيتام، فقد حظى جميع الأيتام بجميع طوائفهم الدينية فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر بكل الرعاية التى تمثلت فى تعليمهم منذ الصغر، وتوفير الأماكن المخصصة لتعليمهم فى "المكاتب" أو "الكتاتيب"، والتى قامت بما تقوم به مدارس المرحلة الابتدائية فى عصرنا من تعليم الأطفال، هذه المكاتب أنشئت بهدف تعليم الأيتام والفقراء علاوة على صرف "المعاليم" النقدية والعينية لهم ولعلمهم من الأموال الموقوفة عليهم • وجدير بالملاحظة أن تعليم هؤلاء الأطفال وبخاصة الصبية المسلمين كان كثيرا

(١) Donald p. Little : "The Fourteenth – Century Court Records from Jerusalem Concerning The Diposition of Slaves By Minors", Arabica vol. 29, 1982, pp. 17-20.

(٢) د العسلى : نفسه، ج٢، ص ١٠٩ •

(٣) Donald p. Little "The Significance of the Haram." p. 202 .

ما يتم داخل أحد الأماكن الملحقة بإحدى المدارس ، مثل : المدرسة الطازية ، أو المدرسة الجوهريّة ، أو داخل الزوايا والتي كان في معظمها أماكن لتعليم أيتام المسلمين في العصر المملوكي ، حيث يقصدها هؤلاء الصغار للتعليم على أيدي المؤدّين بها . أو داخل المساجد وبخاصّة المسجد الأقصى في مكان خصّص لهم بالمكان المجاور لجامع المغاربة من جهة القبلة ^(١) . أو في المكاتب الملحقة بأحد الأسبلة ، وعرفت لذلك بمكاتب السبيل ، مثل : المكتب الذي بناه الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام في عصر الناصر محمد بن قلاوون ضمن مجموعته المعماريّة التي كانت تضم مدرسة وخانقاه وسيلا إلى جوار الرباط المنصوري قلاوون بالقدس ^(٢) ، أو في المكاتب المنفصلة عن الأسبلة وعرفت بمكاتب الأيتام مثل : "مكتب باب الناظر" الذي سمى بذلك لوقوعه بجوار باب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى ^(٣) . والمكتب الذي أنشأه الأمير سيف الدين أقطمر ، والذي جاء ذكره في الوثيقة رقم ٣ من وثائق الحرم القدسي الشريف المؤرخة في ١٥ ربيع الآخر سنة ٧٨١هـ ، ورسم أن يستقر فيه الشيخ برهان الدين الناصري على "الجامكية" أي المرتب على قراءة الأيتام وهي في كل شهر ثلاثون درهما ، يأخذها من ريع الأوقاف التي تم وقفها على هؤلاء الأيتام ^(٤) . أو المكتب الذي نشر فإن برشام نص وقفته التي جاء فيها : "بسملة . . . رحم الله من ترحم على الفقير الذي بنا هذه البقعة المباركة وجعلها مكتبا على أولاد المسلمين عامة لتعليم القرآن فيها . وقف عليها الدار المعروفة بدار أبي نعامة تحت القبو مقابل باب المسجد الأقصى عمره الله تعالى ويكون أجرته تصرف به إلى المعلم والدار في يده لأجرة تعليم الأيتام والمساكين وما فضل من عمارة المكتب والدار وإشعال القنديل تحت القبو والماء للصبيان لغسل الألواح والشرب بشرط أن يكون المعلم من أهل الدين ، والصلاحي وهذا وقفا مؤبدا مخلدا لا يغير ولا يبدل" ^(٥) .

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٣٧٦ ، ج٣ ، ورقة ١٨٠ ؛ مجمر الدين الحنبلي : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، القاهرة ، ١٢٨٣هـ ، ج٢ ص ٥٣٤-٦٠٣ .

(٢) ابن فضل الله العمري : نفسه ، ج٥ ورقة ٩٣ .

(٣) مجمر الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٥٧٤ .

(٤) د العسلي : وثائق مقدسية ، ج١ ، ص ١٩٥-١٩٦ .

(٥) Van Berchem (Max) : *Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum* ,

Syrie Du sud, Jerusalem ville, vol. 25, 1922, p. 214 .

أما عن المكاتب الخاصة بالمسيحيين فالحقيقة أن المصادر والمراجع التي تحدثت عن بيت المقدس لم تشر إلى ذلك ، ولكن من المرجح أنها لم تختلف عن غيرها في البلدان الأخرى ، حيث كانت لهم مكاتبهم الخاصة لتعليم أبنائهم ، ويتم الإنفاق عليها من قبل أبناء الطوائف المسيحية المختلفة بالقدس^(١) .

وعن مكاتب اليهود فقد كان يلتحق بها الأطفال من سن الخامسة أو السابعة وحتى سن الثانية عشرة والثالثة عشرة . وكانت جماعة اليهود كلها تشارك في دفع تكاليف تعليمهم ، وكانت ملحقة بالكنيس الخاص بهم . أما عن اللغة المستعملة فيها فقد كانت هي اللغة العربية ، وأحيانا يكتبونها بحروف عبرية^(٢) . ومن المرجح أيضا أنه كان للأكاديمية اليهودية - التي ظهرت منذ أيام الدولة الأيوبية في القدس - دور في الإنفاق على أيتام اليهود ، لما توافر لها من الموارد المالية التي كانت تأتيها من المغرب العربي والبلدان الأوربية على أيدي بعض الربائين الجوالين بها يكفل لها الاستمرار في أداء هذه الرسالة^(٣) .

ولم يكن التعليم قاصرا على تعليم اللغة العربية ، وآداب الأديان وقواعدها ، بل شمل تعليمهم كثيرا من الآداب العامة ، كذلك كان لهذه المكاتب دور هام في الرعاية الصحية للأطفال الذين يترددون عليها ، ورعايتهم داخل المكتب وخارجه وبخاصة عند غدوهم ورواحهم^(٤) .

بيوت الصوفية والرعاية الاجتماعية

كما تظهر الرعاية الاجتماعية في القدس طوال العصر المملوكي في أشد صورها فيما نالته المؤسسات الصوفية من عناية فائقة ، وحبس الأوقاف الضخمة عليها ، حتى صارت

(١) Alexander Max : *Studies in Jewish History and Booklore*, New York 1944, p. 29
; Ben Sason, *Jewish Society through the Ages*, New York, 1973, pp. 148, 150-160.

(٢) د. علي السيد علي : القدس في العصر المملوكي ، القاهرة ، ١٩٨٦م ، ص ١٦٨ .

(٣) محمد الحبيب بن خوجة : يهود المغرب العربي ، نشر جامعة الدول العربية ، تونس ١٩٧٣ ، ص ٣٣ .

(٤) د. علي السيد علي : نفسه ، ص ١٥٦-١٦١ ، حيث هناك العديد من أوجه الرعاية والعناية التي تمتع بها الأطفال في هذه "المكاتب" بما يفوق ما نراه حاليا في كثير من أرقى مدارس العصر الحديث مع الفارق في الإمكانيات والتقدم التكنولوجي .

ميزة من مميزات دولة سلاطين المماليك^(١) . هذه المؤسسات اتخذت لها عدة أسماء ، مثل : الخانقاوات ، والربط ، والزوايا وبعضها عرف بالمدارس . فمن أمثلة الخانقاوات الشهيرة في القدس : "الخانقاه الصلاحية" التي أسسها السلطان صلاح الدين الأيوبي وجعلها دارا للصوفية ، وتاريخ الوقفية هو ٥ رمضان سنة ٥٨٥هـ ، والنص الذي بين أيدينا هو المثبت في السجل رقم ٩٥ من سجلات المحكمة الشرعية في القدس في الصفحات من ٤٢٤ إلى ٤٢٨ ، والذي يبدأ بذكر العقارات الموقوفة ويصفها ويبين حدودها ومشمولاتها . وتحدد الوقفية بعد ذلك الأشخاص المستفيدين من الوقفية وهم السادة "المشايع الصوفية الشيوخ والكهول والشبان المتأهلين والمجردين من العرب والعجم" . ثم تذكر الوقفية شروط السكن والإقامة ، وتبين الواجبات التي ينبغى عليهم القيام بها^(٢) .

والخانقاه الدوادارية أو دار الصالحين ، أوقفها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر الدويدار الصالحى سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م ، وجعلها للعرب والعجم من المتصوفة . ولقد نشر فان برشام نص حجة الوقف الخاصة بها على النحو التالى : "بسملة . . أمر بإنشاء هذه الخانقاه المباركة المسماة بدار الصالحين العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن عبد ربه ابن عبد البارى سنجر الدوادارى الصالحى ووقفها ابتغاء وجه الله تعالى على ثلاثين نفرا من الطائفة الصوفية من العرب والعجم منهم عشرون نفرا عزابا وعشرة مزوجون مقيمون بها لا يظعنون عنها صيفا ولا شتاء ولا ربيعا ولا خريفا إلا لحاجة وعلى ضيافة من يرد إليها من الصوفية مدة عشرة أيام ووقف عليها قرية نير (هكذا) نبالا من القدس الشريف وقرية حجلا من أريحا وفرن وطاحون وعلوها بالقدس ومصبنة وست حوانيت ووراقة بنابلس وثلاث بساتين وثلاث حوانيت وأربع طواحين بيسان ووقف ذلك على هذه الخانقاه"^(٣) .

(١) د. علي بن حسين السليمان : علاقة مصر بالحجاز زمن سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٥٦ .

(٢) د. العسلى : وثائق مقدسية ، ج ١ ص ٨١-٩٤ .

Jerusalem Ville, vol. 25, p. 214 .

(٣)

ومن الربط نسمع عن الرباط المنصوري الذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م وأوقفه على الصوفية في بيت المقدس بوجه خاص ، وباقي زوار المدينة من فقراء المسلمين بوجه عام . وكذلك رباط علاء الدين البصير (ت ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م) ناظر الحرمين ، أي الحرم القدسي الشريف وحرم الخليل ، والرباط الكردي الذي أوقفه الأمير سيف الدين كرد أحد كبار أمراء المماليك سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م^(١) .

ومن أمثلة المدارس المدرسة التي تنسب إلى السلطان قايتباي ، والتي قام أستاذنا الدكتور عبد اللطيف إبراهيم بنشر الوثيقة الخاصة بها وهي برقم ٨٨٧ والمحفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة ، والمؤرخة في الحادي والعشرين من شهر شوال سنة ٨٨١ هـ ، والذي يهمننا من هذه الوثيقة أنها بعد أن حددت الأوقاف المنتشرة في أنحاء فلسطين ، فقد نصت الوثيقة على أن يقيم بالمدرسة "ستون صوفيا يصرف لهم تسعمائة درهم شهريا ، لكل منهم خمسة عشر درهماً" . ثم تذكر الوثيقة ما كان يجب أن يتم من توسعة على النازلين في شهور رجب وشعبان ورمضان من كل عام ، حيث خصص لهذه التوسعة ألفي درهم^(٢) ، فضلا عن أن المبالغ التي تم تخصيصها من ريع الوقف كانت كفيلا بأن توفر لكل صوفي وصوفية مستوى معقولا من المعيشة ، بالإضافة إلى ما كان يصرف لهم من الخبز واللحم يوميا والكسوة في المناسبات المختلفة .

هذا بالإضافة إلى أن الخدمات التي قامت بها بيوت الصوفية لم تكن قاصرة على النازلين بها فحسب . فقد جاء في وثيقة وقف الأمير تنكز نائب السلطنة ببلاد الشام أن يتم الصرف "إلى كل واحد من الصوفية الواردين على الصوفية المقدم ذكرهم في مدة عشرة أيام من حين وروده عليهم في كل يوم منها نصف درهم ونصف رطل من الخبز ويزود عند سفره بخمسة دراهم ويقتصر في كل شهر على عشرة من الواردين.." . وكذلك كان الحال بالنسبة للنساء الصوفيات القادمات إلى القدس ، فقد جاء النص في نفس الوثيقة على أن يقوم ناظر الوقف بالصرف "إلى كل واحدة من الفقيرات الوارديات إلى الرباط المذكور مدة عشرة أيام من حين ورودها في كل يوم منها ربع درهم فضة وثلاث

(١) د. علي السيد علي : نفسه ، ص ١٥٦ .

(٢) لمزيد من المعلومات عن هذه الوثيقة راجع : د. عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة السلطان قايتباي ، دراسة وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة ، القاهرة ١٩٦١ ؛ د. علي السيد علي : نفسه ، ص

رطل من الخبز ويقتصر في ذلك على عشر من الواردات إلى الرباط المذكور من غير زيادة عددهن ويقدم الفقيرات الغربيات على الفقيرات من أهل القدس ٠٠" (١) .

كذلك كفلت بعض بيوت الصوفية هذه المأكل والمأوى للمحتاجين من الصوفية من أهل القدس وغير النازلين بهذه المؤسسات ، من ذلك ما جاء في الوثيقة رقم ١٣ والمؤرخة في مستهل شهر صفر سنة ٧٧٧هـ من مجموعة وثائق الحرم القدسي ، وفيها يطلب أحد الصوفية من قاضي القدس باعتباره مسئولاً عن الأوقاف أن يصرف له ولأسرته من الرباط المنصوري صدقة عبارة عن رطل خبز كل يوم ، وعلى الهامش الأيمن للوثيقة جاءت موافقة القاضي والذي قرر له ولأسرته في كل يوم أربعة أرغفة في سابع صفر سنة سبع وسبعين وسبعماية" (٢) . كما جاء في الوثيقة رقم ١٠ من مجموعة الحرم القدسي وهي بلا تاريخ ، وفيها يطلب أحد المشتغلين بالعلم من القاضي الشافعي أن يوفر له مسكناً لأنه "من حملة كتاب الله تعالى ومن أهل العلم الشريف وسؤال المملوك من صدقات مولانا القاضي أيده الله تعالى بعز الطاعة أن يكون للمملوك منزلاً بمدرسة مولانا القاضي أعزه الله تعالى من جملة السادة الفقهاء أسوة من نزل منهم بها ويعتتم مولانا القاضي الدعاء من المملوك ومن عايلته في الأماكن المشرفة بالقدس الشريف والله تعالى أن يؤيده بمنه وكرمه ٠٠" وقد جاء رد القاضي على ظهر الوثيقة بتاريخ "عشرين بقين من شهر صفر سنة سبعين وسبعماية" بقوله : "إن لم يكن قد استكمل بالرباط المبنى لسكانيه بالقدس الشريف عشرون فقيهاً فيستقر بالرباط المذكور وإن كان قد استكمل فيها شرط الواقف فمن توفي منهم أو توجه لسكن بغير القدس الشريف فيستقر عوضه ويعين له سكن بالرباط المذكور ٠٠" (٣) .

وقد تمت بعض بيوت الصوفية الرعاية اللازمة للنساء اللاتي طلقن أو هجرن حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن ، صيانة لهن ، ولنضرب على ذلك مثالا بالرباط الذي

(١) د العسلي : وثائق مقدسية ، ج١ ، ص ١١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢١٠-٢١١ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ج١ ، ص ٢١٢-٢١٤ .

أنشأه الأمير سيف الدين تنكز ، والذي جاء ذكره ضمن الوثيقة المثبتة في السجل رقم ١٩٢ المؤرخ سنة ١٠٢٠هـ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس حيث جاء فيها : "وأما الرباط المجاور للمدرسة المشار إليها بأعاليه فقد وقفه الواقف المسمى قبلها الله منه على اثنتي عشرة امرأة مسلمات دينات خيرات صالحات عجائز خاليات عن الأزواج فقيرات مقيمات في الرباط المذكور تكون إحداهن شيخة لهن وأخرى قيمة للرباط المذكور وبوابة وعلى الفقيرات الواردات إلى هذا الرباط وعلى الشيخة المشار إليها أن تأم (هكذا) بهن في الصلوات الخمس وفي صلوات التراويح في ليالي شهر رمضان المعظم من كل سنة ٠٠" (١) .

وينبغي أن نشير إلى أن بيوت الصوفية قد استقبلت المهاجرين إلى القدس من شتى الأنحاء بسبب الظروف السياسية التي ألمت بالعالم الإسلامي مشرقه ومغربه ، ليقضوا فيها ما تبقى من أعمارهم بدافع من روح التقوى والرغبة الخالصة في الزهد في الدنيا ، والحقيقة أن من يطالع كتب التراجم الخاصة بعصر سلاطين المماليك سيقف على حشد هائل لمن هاجروا إلى القدس ، والبلدان التي هاجروا منها ، ولقد وجد الواقفون كل الظروف مهيأة للإقامة في القدس من مأوى وكساء وطعام ورواتب نقدية من ريع الأوقاف الضخمة التي حبسها سلاطين وأمراء المماليك وغيرهم من أهل الخير واليسار ، بالإضافة إلى الرواتب الضخمة التي خصصها سلاطين المماليك لكل من يتولى وظيفة لتدعيم المذهب السني من قضاء وإمامة وخطابة وغيرها (٢) .

كما تجب الإشارة إلى أن بيوت الصوفية هذه كمنشآت لم يكن دورها قاصرا على ما قدمته للنازلين بها من مأوى وغذاء وكساء ، وبعض المساعدات الاجتماعية الأخرى التي تمت الإشارة إليها ، بل إنها أتاحت كثيرا من فرص العمل سواء للنازلين بها أو القائمين عليها ، نذكر من ذلك على سبيل المثال ما جاء في وقفية السلطان الأشرف قايتباي من أنه خصص لقارئ الحديث ثلاثون درهما شهريا ، وكذلك مفرق الربعة الشريفة وخازن

(١) المصدر السابق نفسه ج١ ، ص ١١٦ .

(٢) السخاوي "شمس الدين محمد بن عبد الرحمن" : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، القاهرة

١٩٥٧ ، ج٣ ، ص ٧١٥-٧١٦ .

الكتب الذى خصص له عشرة دراهم شهريا ، ثم البواب والمزملاتى والفراش والوقاد ولكل منهم ستون درهما شهريا ، ثم كاتب غيبة الصوفية وله عشرة دراهم ، والمباشر وله أربعون درهما شهريا ، ثم الشاد والجابى ولكل منهما مائة درهم شهريا ، هذا إلى جانب ما تذكره هذه الوثيقة من نصيب كل منهم من الخبز فى كل يوم^(١) ، وكذلك الذين قاموا بتشبيدها . كما لم يهمل الواقفون لهذه المنشآت الرعاية الصحية الشاملة للنازلين بها والقائمين عليها ومن معهم من أصحاب الوظائف ، على أن هذه الرعاية لم تشمل بالطبع كل هذه المنشآت بل شملت الكبير منها فقط ، حيث كان يخصص ناظر الوقف رجلين: أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان ، والثانى عارف بصناعة الكحل "طب العيون" .. على أن يحضر كل منهما كل يوم لمباشرة المرضى^(٢) .

كذلك تنبغى الإشارة إلى أن أبناء أهل الذمة من يهود ومسيحيين قد وجدوا فى معابدهم وأديرتهم وكنائسهم الكثير من أوجه الرعاية الاجتماعية التى لقيها المسلمون فى منشآتهم بالمدينة المقدسة ، وكانت تجمع لها التبرعات والهبات وتوقف عليها الأوقاف من أبناء الطوائف المختلفة ، وكما سبقت الإشارة بذلك .

الرباع والرعاية الاجتماعية

وتأتى الرباع كواحدة من المنشآت المعمارية الضخمة التى لعبت دورا فى مجال الرعاية الاجتماعية فى بيت المقدس فى العصر المملوكى . فإذا كان سلاطين وأمراء المماليك وأهل الخير واليسار قد حبسوا الكثير من الأوقاف على المؤسسات الصوفية ، التى نزل بها الصوفية رجالا ونساء ، وأجريت عليهم الرواتب النقدية ، والعينية باعتبارهم يمثلون شريحة كبيرة نوعا ما من سكان مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر ، فإن هناك الكثير من الجهود التى بذلت لبناء العديد من "الرباع" وهى ما يمكن أن نسميها فى عصرنا الحالى بالمجمعات السكنية الضخمة أو المساكن الشعبية زهيدة الأجر . وهى التى انتشرت فى القدس فى ذلك العصر ، وكانت تخدم غرضين معاً ، أولهما توفير السكنى الرخيصة

(١) د عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة السلطان قايتباى ، ص ٤١١-٤١٢ .

(٢) د على السيد على : القدس وما به من مصادر ، ص ١٦٦ .

لشريحة ضخمة من سكان المدينة وبخاصة من أرباب الحرف والصناعات المختلفة ، والمعروف أن هذه الطبقة تمثل الطبقة الدنيا في المجتمع ، وفي نفس الوقت تمثل أغلبية السكان . أما الغرض الثانى من إنشاء تلك "الرباع" فهو وقفها على المؤسسات العامة مثل: "الربط" و"المكاتب" و"المدارس" ، و"المياضى" أو المطاهر" وغيرها من جهات البر المختلفة^(١) .

كما تبرز أوجه الرعاية في تصميم تلك الرباع ، فأهم خاصية تميزت بها الرباع في ذلك العصر هى الحرص كل الحرص على ضرورة وجود صحن أو فناء مكشوف يتوسط كتلة المبنى ، وتلتف حوله بقية الوحدات المعمارية ، الرئيسية منها والثانوية ، كى تستمد منه معظم حاجتها من الإنارة والتهوية ، ثم تستمد القليل الباقي من الطرق والشوارع الخارجية . والملاحظ أن ذلك الصحن أو الفناء كان هو الوحدة الهامة أو بالأحرى كان هو نواة تصميم مساقط جميع العماير على اختلاف أنواعها^(٢) . وكان ذلك الصحن أو الفناء يؤدى للربيع ولغيره من العماير عدة وظائف بالغة الأهمية منها : تلطيف حدة الضوء الذى يشهد كثيرا في الأقطار العربية ومنها مصر ؛ ومنها أنه كان بمثابة مرشح للهواء الذى كثيرا ما يحمل الغبار والأتربة في كثير من أوقات السنة ، كذلك كان هذا الفناء يساعد كثيرا على تخفيف ضوضاء الشوارع والطرق . كما أنه كان يخترن الدفء في الشتاء إذا أغلقت أبواب الربيع والفتحات الخارجية لتمنع مرور تيارات الهواء . وكان يحدث عكس ذلك في الصيف فيساعد على تلطيف شدة القيقظ ، ويزيد من نفعه لهذا الغرض إذا ما زرعت فيه بعض الأشجار أو توسطته نافورة أو حوض ماء ، وهو ما تميزت به الرباع في بلاد الشام بوجه عام والقدس بوجه خاص في ذلك العصر^(٣) .

وبالإضافة إلى الفناء أو الصحن الذى كان يتوسط الربيع ، فإن الطابق الأرضى منه كان عبارة عن عدة حوانيت ووكالات للتجار ، ولكل ربيع باب يتصل مباشرة بسلم داخل

(١) د. على السيد على : "الرعاية الاجتماعية في مكة المكرمة" ، مجلة التاريخ والمستقبل ، كلية الآداب بجامعة المنيا ، يناير ١٩٩٦ م ، ص ٢٤٥ .

(٢) د. فريد شافعى : العمارة العربية في عصر الولاة ، القاهرة ١٩٧٢ ، القسم الأول ، ص ٢٩ .

(٣) د. سعيد عاشور : العصر المملوكى في مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٣ م ، ص ٤٤ .

واجهته البناء المشرفة على الطريق العام ، بواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربع التي تؤجر لهم بأجور شهرية زهيدة ، ولقد تعددت هذه الرباع بشكل كبير في مدينة بيت المقدس ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الربع الذي أوقفه السلطان صلاح الدين الأيوبي على الخانقاه الصلاحية وكان مجاورا لدار البطريرك بالقدس^(١) . كما أن الربع باعتباره مجمعا سكنيا كان مزودا بطاحون لطحن الغلال ، وفرن لإعداد الخبز اللازم للقاطنين ، وإسطنبول لإيواء الدواب الخاصة بهم نظير رسم يتم تحصيله وأحيانا يزود بحمام ، أو بعبارة أخرى فإن الربع بمشتملاته كان عبارة عن مبنى يكفى معظم احتياجات سكانه^(٢) .

الخانات والرعاية الاجتماعية

ومن المنشآت التي كان لها دورها في مجال الرعاية الاجتماعية "الخان" ، وهي كلمة فارسية الأصل معناها "مخزن" ، ثم أصبحت تعني النزل في داخل المدينة أو خارجها على خطوط المواصلات . وسواء كان الخان داخل المدينة أم خارجها فهو المكان الذي يقدم خدماته للمسافرين للراحة ، وللتجار لقضاء بعض الأعمال . وفي خارج المدينة عادة ما كانت الخانات تبنى على هيئة قلاع ذات أبراج لحماية النازلين بها من مسافرين وتجار من قطاع الطرق ، وكانت مربعة الشكل ذات أبواب ضخمة ، وتحتوى على غرف للمسافرين ومخازن للبضائع ودكاكين وإسطبلات للحيوانات ، ومن أمثلة الخانات خارج مدينة القدس : الخان الأحمر بين القدس وأريحا ، وخان اللبن بين القدس ونابلس ، وخان المنية على بحيرة طبرية ، عمره الأمير تنكز ، وكان المسافرون من دمشق ينزلون فيه في طريقهم إلى بيت المقدس^(٣) .

وقد بلغ عدد ما أمكننا التعرف عليه من خانات القدس في ذلك العصر ستة عشر خانا ، من هذه الخانات ثلاثة وقفها ثلاثة من سلاطين المماليك وهم : الظاهر بيبرس ،

(١) د العسلى : وثائق مقدسية ، جـ ١ ، ص ٩١-٩٢ .

(٢) المصدر السابق : نفسه ، جـ ١ ، ص ٩١-٩٣ .

(٣) أحمد سامح الخالدي : المعاهد المصرية في بيت المقدس ، القدس ، ١٩٤٦ ، ص ٩ ؛ د العسلى : من آثارنا في بيت المقدس ، عمان ١٩٨٢ ، ص ٢٩-٤٠ .

وبرقوق ، والمؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال ، وواحد وقفه الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام ، وآخر وقفه الأمير ناصر الدين بن دالغادر من أمراء سلاجقة الروم .
أما الخان الذى أنشأه السلطان الظاهر بيبرس عندما زار مدينة القدس سنة ٦٦٨هـ ، وعرف بخان الظاهر ، فقد أوقف عليه بعض القرى فى فلسطين وفى دمشق، وجعل به فرنا وطاحونا ، وشرط فيه أشياء من فعل الخير من تفرقة الخبز على بابه وإصلاح نعال النازلين به ^(١) .

أما الخان الذى أنشأه السلطان برقوق ويعرف بخان السلطان، فقد كان قيسارية فعمرها وحولها إلى خان ، وقد قام فان برشام بنشر وثيقة وقفه المسجلة على لوحة من الرخام على بابه فى أربعة سطور بخط النسخ جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذه القيسارية المباركة وقف حرم القدس .

الشرىف مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق خلد الله ملكه .

بنيابة مولانا ملك الأمراء بيدمر كافل الممالك بالشام عز الله أنصاره .

إنشاء الفقير إلى الله تعالى السيفى أصنبغا بن بلاط ناظر الحرمين الشريفيين فى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ^(٢) .

وهذا الخان هو الذى ذكره مجير الدين الحنبلى وسماه "خان الوكالة" فقال : "خان الوكالة وهو خان عظيم وقف على مصالح المسجد الأقصى ، يؤجر فى السنة بأربعمائة دينار ويبيع فيه أصناف البضائع" ^(٣) .

وكانت الخانات فى العصر المملوكى تمثل استثمارات جيدة ، ولذلك فإن العديد من الأمراء ورجال الأعمال أنشأوا الخانات فى القدس ثم وقفوها على كثير من المؤسسات الدينية أو الخيرية ، أو على الفقراء عامة ، ابتغاء وجه الله تعالى ، ومنهم من وقف على الخانات أوقافا عديدة من عقارات وأراض زراعية أو منشآت أخرى ، ينفق ريعها على

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٧٢م ، ج٧ ، ص ١٢١ ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ، ج٢ ص ٤٣٤ .

(٢) Van Berchem : Jerusalem Ville, p. 300 .

(٣) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ، ج٢ ، ص ٥٢ .

تعمير الخان والإنفاق عليه • أضيف إلى ذلك أن هذه الخانات كانت بها طواحين لطحن الغلال للنازلين بالخان وربما لأهل المنطقة المجاورة ، وبعضها كان به بعض الورش الصغيرة في الدكاكين الممتدة بطول واجهة الخان للغزل والصباغة أو لصنع الزجاج ، وبعضها كان به معاصر لعصر الزيتون ، ومصابن لصناعة الصابون ، وتزويد النازلين بالخان وسكان المنطقة المجاورة باحتياجاتهم منها • وكما كان الكثير منها موقوفا على مصالح الحرمين في القدس والخليل فإن البعض منها كان موقوفا على الحرمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة . ووجد على بعض أبواب هذه الخانات عدد من الأسبلة تقدم الماء بل والطعام لعابري السبيل مجانا ، وخصوصا تلك الأسبلة التي تقع على الطرق التي تربط بين القدس وغيرها من البلدان ، مثل: خان بنى سعد على الطريق المتجهة إلى نابلس^(١) .

توفير الماء العذب

كانت مدينة بيت المقدس تشكو باستمرار من قلة الماء لعدم وجود أنهار بها ، حتى أن أهلها كانوا يشربون من خزانات "صهاريج" أعدت خصيصا لحزن ماء المطر ، ذلك لأن المدينة قائمة على تلال مرتفعة ذات طبيعة صخرية صلبة ، وكان جل اعتمادها على مياه الأمطار ، وعلى الينابيع الضئيلة الواقعة في سلوان وهي قرية واقعة إلى الجنوب الشرقي من القدس ، وبعض البرك المحيطة بها مثل: بركة ما ملا غربى المدينة ، وبركة السلطان بين الخليل وبيت لحم ، وبركة حزقيا شمال شرقى المدينة ، وتسمى أيضا بركة البطرك أو بركة النصارى ، إلى جانب بركة إسرائيل وتعرف ببركة الضأن أو بركة الغنم^(٢) .

وكان لدخول بيت المقدس تحت حكم سلاطين المماليك أثره الواضح في ازدياد عدد السكان بها ، نظرا لما تمتعت به المدينة من أمن واستقرار ، فضلا عما أحاط بالعالم الإسلامى آنذاك من ظروف سياسية ساعدت على الهجرة إلى المدينة ، إلى جانب الظروف الاقتصادية وما كان لها من شأن ملحوظ في التطور السكانى بها^(٣) .

(١) د. العسلى : من آثارنا في بيت المقدس ، ص ٦٩-٩٦ .

(٢) عارف باشا العارف : تاريخ القدس ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥١ م ، ص ١٧٦-١٧٧ ؛ د. على السيد على : القدس في العصر المملوكى ، ص ٧٠ .

(٣) د. على السيد على : نفسه ، ص ٦٥-٧٠ .

لذا كان لابد من البحث عن مصادر جديدة للمياه لمواجهة زيادة السكان ، وتركزت هذه السياسة في شقين ، الشق الأول وهو ضرورة الاستفادة من المياه الجوفية . أما الشق الثاني فهو البحث عن مصادر جديدة للمياه خارج القدس • وفيما يتعلق بالمياه الجوفية ، فقد ركز سلاطين وأمراء المماليك جهودهم في حفر كثير من الآبار في شتى أنحاء المدينة ، وتركيب أعداد كبيرة من السواقي التي تجرها الجمال لرفع هذه المياه من باطن الأرض ، كغيرها من المدن التي ليست بها أنهار في السلطنة^(١) • وتسهيل هذه المياه ليستفيد بها سكان المدينة وزوارها في كثير من المنشآت الاجتماعية من أسبله ، وحمامات ، وأحواض ، وسقايات ، ومظاهر أو مياضي •

أما عن البحث عن مصادر جديدة للمياه خارج القدس في الأودية المحيطة بها والقريبة منها ، وتجميع هذه المياه وتوصيلها إلى المدينة المقدسة عن طريق عدة قنوات أهمها: قناة السيل أو قناة العروب التي كانت تأتي بالماء إلى القدس من عين العروب وبرك سليمان الواقعة في وادي العروب بين الخليل والقدس ، وعلى بعد ٢٢ كيلوا مترا من القدس ، حيث ينبع الماء من سبعة عيون هي : فريديس ، وعد المزركة ، والفوار ، وعين البص ، وعين البرادة ، وعين الدلبة ، وعين قوزيا • ومن وادي البيار عند الكيلو ١٨ على طريق الخليل وفيه خمسة ينابيع هي : رجم السبيط ، ورأس العد ، وعين فاغور، وخربة القط ، وعين العصافير • والمياه التي تنفجر من هذه العيون تصب في برك سليمان الثلاث ، ثم يسير الماء منها إلى قناة السيل التي تقوم بتوصيله إلى القدس^(٢) • وقد ذكر المقرئى هذا الإنجاز الكبير في حديثه عن سنة ٧٣٨هـ / ١٣٢٧م بقوله : " وفيها كملت العين التي أجراها الأمير تنكز بالقدس بعدما أقام الصنّاع فيها مدة سنة •• وركب في الجبل مجارى نقب لها في الحجر حتى دخل الماء إلى القدس ، فكان لها يوم مشهود "^(٣) • وقد استمرت رعاية سلاطين وأمراء المماليك لهذا المصدر حتى نهاية العصر المملوكى^(٤) •

(١) د. على السيد على : "الرعاية الاجتماعية في مكة المكرمة" ص ٢٠٠-٢١٦ ؛ راشد القحطاني :

أوقاف الأشرف شعبان بن حسين على الحرمين الشريفين ، الرياض ١٤١٦هـ ، ص ١٥٦-١٩٥ •

(٢) عارف باشا العارف : نفسه ، ص ١٧٩ ؛ د. العسلى : وثائق مقدسية ، ج ١ ، ص ١٠٥ •

(٣) السلوك في معرفة دول الملوك ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ ؛ د. رشاد الإمام : مدينة القدس في العصر

الوسيط ، تونس ١٩٧٦م ، ص ١٨٣ •

(٤) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ •

ولقد وفرت هذه المصادر الجديدة الكثير من المياه حتى داخل المؤسسات الدينية والخيرية والثقافية ، من ذلك أن المدرسة التنكرية التي أنشأها الأمير تنكز بجوار الحرم القدسي الشريف عند الباب المعروف بباب السلسلة ، كان في وسطها بركة مثمرة يجري لها الماء من قناة العروب بحق واجب معلوم ، ولهذه المدرسة طهارة تشمل على خمسة بيوت أحدها مستحم ، وفي كل بيت منها جرن يجري إليه الماء من قناة العروب المذكورة^(١) . كما أنشأ الأمير نفسه بركة ماء عظيمة تقع داخل الحرم ما بين الصخرة والمسجد الأقصى ، وهي كبيرة وملبسة بالرخام^(٢) بل لا نغالي إذا قلنا إن القدس ظلت تستقي الماء عن طريق برك سليمان هذه وعين العروب حتى سنة ١٩٢٦ م ، عندما حلت محلها مياه عين فارة التي تبعد ١٤ كيلو مترا إلى الشمال الشرقي من القدس ، وبعدها حلت محلها مياه رأس العين في سنة ١٩٣٥ م والتي تبعد حوالى ستين كيلو مترا إلى الشمال الغربي من القدس^(٣) .

الرعاية الصحية

أول ما يلفت النظر في مجال الخدمات الصحية في مدينة المقدس هو الاهتمام الفائت بوسائل الصرف الصحي أو المجارى ، والحقيقة أن نظام الصرف الصحي كان معروفا منذ العهد الرومانى ، ولقد ظهر من الحجارة المتنوعة التي استخدمت في ترميم شبكة الصرف الصحي وإصلاحها شدة عناية سلاطين وأمراء المماليك بها ، وأنها رمت عدة مرات في ذلك العصر ، حتى يتيسر لسكان المدينة التخلص من الأقدار وتصريفها ، وأن نظام المجارى هذا ما زال يسير على أحسن وجه حتى القرن العشرين ، مما ساعد على حفظ المدينة من كثير من الأمراض^(٤) .

كذلك كان بالقدس عدد من البيمارستانات التي أدت الكثير من الخدمات الصحية ، إذ يرجع وجود البيمارستان في القدس إلى أيام الفاطميين ، حيث يذكر الرحالة ناصر خسرو الذى زار المدينة سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥ قوله : " وفي بيت المقدس مستشفى عظيم

(١) د العسلى : وثائق مقدسية ، ج١ ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة ١٩٣٩ م ، ج١٤ ، ص ١٣٣ ، د رشاد الإمام : نفسه ، ص ١٨٤ .

(٣) عارف باشا العارف : نفسه ، ص ١٨٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ . Murray : Syria and Palestine, London 1858, Vol. I, p. 136 .

عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديد من العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف ، وهذا المستشفى ومسجد الجمعة على حافة وادى جهنم" (١) . وفي العصر الأيوبي كان هناك "البيمارستان الصلاحي" الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، واستمر يؤدي وظيفته طوال العصر المملوكي (٢) . ولقى الكثير من العناية من سلاطين وأمراء الممالك ، بل وأهل الخير . فالوثيقة رقم ٢٠ من وثائق الحرم القدسي الشريف والمؤرخة في ٥ صفر سنة ٧٦٨ هـ تخبرنا أن أحد تجار بيت المقدس أوقف دارا على مصالح البيمارستان الصلاحي على أن ينفق من ريع هذه الدار لشراء أدوية للمرضى ، وأغذيتهم ، وأغذية المجانين وأدويتهم ، وسائر ما يحتاجون إليه . وإذا كان صلاح الدين قد حرص على تشييد هذا البيمارستان لكي يستفيد من خدماته أهل القدس ، فإن هذا التاجر قد شارك بدور فعال في المحافظة على ذلك البيمارستان وعلى أن يستمر في أداء رسالته بعد صلاح الدين بأكثر من مائة وسبعين سنة (٣) .

كما أن الوثيقة رقم ٣١١ والمؤرخة في ٢٥ صفر سنة ٧٤٥ هـ تذكر أن أحد أمراء الممالك ويدعى بكتمر الجوكندار قد أوقف قرية مجدل فضيل من عمل مدينة الخليل على مرضى المسلمين الفقراء والمساكين الذين يترددون على هذا البيمارستان ، وتوزع عليهم الأدوية والعقاقير بلا مقابل ، كما كان يتردد عليه الجرحى من الجنود (٤) . وتلقى الوثيقة رقم ٣٦ المؤرخة في ١٧ محرم سنة ٧٩٧ هـ الضوء على إحدى المنشآت الاجتماعية وهي التربة التي أنشأها الأمير بدر الدين بن حسام الدين بركة خان ، وأوقف عليها قرية دير الغصون في طولكرم ، ومن ريع هذه القرية كان ينفق على التربة وما تقوم به من أعمال الخير من مداواة المرضى وتجهيز الموتى بالقدس الشريف ، وبهذا لم تقتصر هذه التربة على كونها مدفنا لهذا الأمير وذريته من بعده ، بل غدت واحدة من المنشآت الاجتماعية الهامة

(١) ناصر خسرو على : سفر نامه ، نقله للعربية وقدم له د. يحيى الخشاب ، طبعة أولى ، القاهرة ١٩٤٥م ، ص ٢١ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبع مطبعة الآداب بمصر ١٣١٧هـ ، ص ٢٤١ ؛ مجير الدين الخبلي : الأئس الجليل ، ج ١ ، ص ٣٤٥ ؛ ج ٢ ، ص ٥٨٩ - ٥٩٠ .

(٣) د. العسلي : وثائق مقدسية ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ؛ د. محمد عيسى صالحية : وثائق الحرم القدسي الحولية الخامسة لكلية آداب الكويت ، ١٩٨٥م .

(٤) د. العسلي : نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٣ - ١٨٦ ؛ أحمد سامح الخالدي ، المعاهد المصرية ، ص ٦ .

بما قدمت من خدمات ، وما حوته من أحواض للدواب ، وحوانيت ، هذه التربة أصبحت منذ سنة ١٩٠٠م المكتبة الخالدية ^(١) .

أما فيما يتعلق بأهل الذمة فإنه من الواضح أن كثيرا من أبناء الطوائف المسيحية كانوا يترددون على تلك المنشآت الصحية ، كما كانت لهم مستشفياتهم الخاصة ، والملحقة بالكنائس والأديرة ، سواء من الطوائف المحلية ، أو من أبناء الغرب الأوربي مثل : طائفة الفرنسيين والذين كان لها في الدير الخاص بها في جبل صهيون مستشفى يستقبلون فيه المرضى من زوار المدينة وسكانها ^(٢) .

كذلك تجل دور المثقفين وبخاصة المشتغلين منهم بالطب في الاهتمام بالمستوى الصحي لأهل القدس ، وكيفية معالجة كثير من الأمراض التي كانت شائعة آنذاك مثل "الإسهال" و "السعال" و "أمراض الكلى" وغيرها ، عن طريق كثير من الوصفات الطبية التي اعتمدت على الثوم ، وصفار البيض ، والتين ، وزيت الزيتون ، والصمغ العربي ، والمسك ، والكمون ، وبعض الأعشاب الطبية ، والطين الأرمني . فالوثيقة رقم ١٨٢ من مجموعة وثائق الحرم القدسي عامرة بكثير من الأمور المتعلقة بهذه النواحي ^(٣) .

الحمامات والرعاية الاجتماعية

الحمام منشأة حضارية هامة عرفتها مدينة بيت المقدس في تاريخها الإسلامي منذ القرن الأول للهجرة ، ولقد كان اهتمام أهل القدس ببناء الحمامات راجعا إلى أسباب صحية ودينية ، لأنها كانت ضرورية لطهارة الجسم وصحته . وازداد عدد حمامات القدس في العصر المملوكي زيادة تتناسب مع زيادة عدد السكان ، ولقد تم إحصاء ١٣ حماما في أواخر العصر المملوكي . غير أن المصادر الأدبية والآثار لم تسعفنا لمعرفة العدد الحقيقي للحمامات التي كانت بلا شك أكثر من ذلك في بدايات العصر المملوكي .

كان الحمام مركزا من مراكز الحياة الاجتماعية ، فكثير من المناسبات الهامة في حياة الناس كانت مرتبطة به . فالعروس تذهب للحمام لتستحم وتزين نفسها ، ثم لتعرض

(١) د. العسلي : نفسه ، ج ١ ص ٢٣٩ .

(٢) د. علي السيد علي : القدس في العصر المملوكي ، ص ٢٥٠ .

(٣) د. العسلي : نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

ملابسها ومصوغاتها أمام الصديقات ، وكانت النساء يستعملن الحمام كصالون للتجميل ، والمرأة الحامل كانت تذهب إليه كثيرا لتسهيل عملية الولادة ، ثم تأتى إليه في اليوم الأربعين بعد الولادة . وكان العريس يذهب إلى الحمام قبل الزواج ، والولد يرسل إليه قبل الطهور . كما كانت الحمامات تستعمل كمنشآت صحية للعلاج من بعض الأمراض المختلفة ، مثل : "حمام الشفا" والذي كان يقع داخل سوق القطنين بالقرب من الحرم الشريف ، وتستخدم فيه المياه المعدنية^(١) وفي مثل هذه الحمامات موظفون مختصون بالمعالجة . ومن جهة أخرى كان الرجال والنساء يعقدون المجالس في الحمامات للحديث والتسلية والغناء ، وكانت هناك أوقات مختلفة لكل من الرجال والنساء في الحمامات ، في حين أن بعض الحمامات كانت تخصص للرجال دون النساء وبالعكس^(٢) .

كما كان يرتبط بالحمام في بيت المقدس قصص وأساطير شعبية كثيرة ، خصوصا ما يتعلق بامتزاج مياه الحمامات بمياه زمزم يوم عاشوراء ، ويكون الحمامات من الأماكن المسكونة بالجن أو بقدرة بعض الحمامات على شفاء العواقر من النساء ، أو شفاء أمراض أخرى . كما كانت هذه الحمامات تدر دخلا جيدا ، فقد عرفنا من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس أن أجرة الحمام في أواسط القرن العاشر الهجرى / السادس عشر للميلاد عن كل رجل درهم^(٣) . كذلك جاء في الوثيقة رقم ٤٦ من وثائق الحرم القدسي المؤرخة في ١٩ محرم سنة ٧٤٧هـ والخاصة بحمام البطرك الذي كان جاريا في أوقاف الخانقاه الصلاحية بالقدس ، أنه تم تأجير هذا الحمام لمدة سنة على أن يدفع المستأجر الإيجار يوميا من الدراهم النقرة الجياد الوازنة معاملة يوميذ عن كل يوم يمضى من تاريخه ثلاثة عشر درهما يدفع منها عند غروب شمس كل يوم من يوم تاريخه عشرة دراهم ، بينما الثلاثة دراهم الأخرى تخص نظير دخول الصوفية واغتسالهم في الحمام المذكور ، كما دفع المستأجر مبلغ ثلاثمائة درهم قسط شهر كامل من يوم تاريخه ، وتعهد المستأجر بنقل الماء إلى الحمام من بركة كبيرة مجاورة للحمام في حارة النصارى بالقدس وهى بركة البطرك ،

(١) مؤلف مجهول : رحلة إلى فلسطين والقدس ونابلس وما في بلاد الشام ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٥٤ جغرافية ، ورقة ٦٦ ؛ د. على السيد على : القدس ، ص ٢٤٥ .

(٢) د. العسلى : من آثارنا في بيت المقدس ، ص ١٦٣-١٦٧ .

(٣) عن ذلك انظر السجل رقم ٧ ، ص ٢١١ ؛ د. العسلى : من آثارنا في بيت المقدس ، ص ١٧١ .

وكذلك التخلص من الرماد الخاص بالمستوقد والفرن على نفقته الخاصة ، بينما يقوم الناظر على الوقف بكل الإصلاحات والعمارة اللازمة للحمام^(١) . ولهذا السبب كانت الحمامات على جانب كبير من الأهمية في وقفها على كثير من المنشآت مثل : المسجد الأقصى والصخرة والمدارس والخوانق وغيرها ، ومن ريعها قامت هذه المنشآت بدورها في مختلف مجالات حياة سكان القدس وزوارها سواء في حياة من أوقفوا هذه الحمامات أو بعد مماتهم إلى أن وقعت المنطقة كلها تحت سيطرة العثمانيين وسطا أكلة الأوقاف عليها ، فلم تجد معظم تلك المنشآت ما يكفل لها البقاء والاستمرار وتعطل كثير منها عما كان وقف عليه^(٢) .

سداد دين المدينين

وأخيراً نأتى إلى جانب هام من جوانب الرعاية الاجتماعية وهو سداد دين المدينين ، فالوثيقة رقم ٢٣٢ من وثائق الحرم القدسي ، تذكر أن أحد سكان بيت المقدس من الفقراء ويدعى يعقوب ، أرسل إلى قاضي القدس الشافعي باعتباره ناظراً على الأوقاف ، يطلب منه صدقة لأنه فقير وفي عائلة كبيرة ، وأنه أصبح في دين ، وليس لديه ما يرهنه أو يبيعه لكي يسدد ديونه أو ينفق على أسرته ، ويطلب من القاضي أن يعينه بصدقة من أي جهة كانت ليسدد ما عليه من ديون وينفق على أولاده . ومن المرجح أنه كانت هناك حالات كثيرة مثل تلك الحالة التي وردت إلى ذلك القاضي ، واستجاب لها وخصص لها ما يراه حسب اجتهاده^(٣) .



(١) د العسلي : وثائق مقدسية ، ج١ ، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

(٢) كرد على : خطط الشام دمشق ، ١٩٢٥ ، ج٦ ، ص ١١٧ ؛ د سعيد عاشور : " بعض أضواء جديدة على مدينة بيت المقدس " . بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، أبريل ١٩٨٠م ، ص ٢٣ .

(٣) د العسلي : وثائق مقدسية ، ج١ ، ص ٢١٥-٢١٦ .

**العقوبات وطرق تنفيذها
من خلال صور المخطوطات الإسلامية
من القرن السابع حتى القرن الحادى عشر الهجرى (١٣-١٧م)**

د . منى محمد بدر

أ.م. بكلية الآثار - جامعة القاهرة / فرع الفيوم

oboiikan.com

العقوبات وطرق تنفيذها من خلال صور المخطوطات الإسلامية من القرن السابع حتى القرن الحادى عشر الهجرى (١٢-١٧م)

أهمية الموضوع :

تعرف العقوبة فى القانون الوضعى الحالى بأنها : جزاء ينطوى على إيلاء - يقرره القانون - ويوقعه القاضى باسم المجتمع على من تثبت مسئوليته عن الجريمة ويتناسب معها^(١) للردع العام . أما دراسة العقوبات الإسلامية فى الدول الإسلامية - موضوع البحث - هى دراسة لا تخرج كثيراً عن التعريف السابق، ولكنها ترجع فى المقام الأول إلى قوانين الشريعة الإسلامية، ومن ثم دُرس جانب كبير منها فى المصادر الإسلامية^(٢)، كما درست جوانب أخرى منها فى المراجع العربية القانونية^(٣) والحضارية^(٤).

- (١) شريف سيد كامل : علم العقاب، الطبعة الأولى دار النهضة العربية سنة ١٩٩٥، ص ٣٨ .
- (٢) الماوردى " أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادي " ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م - الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الطبعة الثالثة ١٩٧٣، مطبعة مصطفى البابي الحلبي .
- (٣) الإمام محمد أبوزهرة : الجريمة والعقوبة فى الفقه الإسلامى . دار الفكر العربى - بدون تاريخ .
- عبد القادر عودة: التشريع الجنائى مقارناً بالقانون الوضعى - الجزء الأول القسم العام نادى القضاة، سنة ١٩٨٤ .
- (٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . دار النهضة العربية الطبعة الأولى ١٩٦٢ م، ص ٩٧ : ١٠٠ .
- نظير حسان سعداوى : صور ومظالم من عصر المماليك، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٦، ص ٤٧ - ٥٣ .
- عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، مكتبة الأنجلوسنة ١٩٦٧، جزء ١ ص ٣٣ .

والإلمام بهذا الموضوع يتطلب الرجوع لكل الكتب السابقة جميعاً، ليتمكن الإستعانة بها في توضيح ما جاء عن هذه العقوبات مرسوماً من خلال صور المخطوطات الإسلامية، كمحاولة لإبراز فكرة هذا الموضوع ذى الطابع القانونى، في صورة تكاد تكون متكاملة تعرض من خلال تسلسل فكرى يبدأ بتوضيح أنواع العقوبات في الشريعة الإسلامية، والإشارة إلى السلطة المعنية بإصدار أمر أو مرسوم العقوبة وتنفيذها وأنواع هذه العقوبات ومدى تدرجها وجسامتها حسب جسامه الجريمة، وأماكن تنفيذها - مع توضيح لطريقة تنفيذ العقوبة والأدوات المستخدمة فيها .

ويختص البحث بدراسة العقوبات في حد ذاتها زمن السلم على المدنيين والعسكريين من الرجال والنساء مع شرح الأمثلة بالتطبيق على شرائح مختلفة من طبقات مجتمع الدول الإسلامية.

وفي الختام نحاول تقديم تفسير لأسباب انتشار هذه العقوبات، في المجتمع الإسلامى في العصور الوسطى، وهل كان الغرض منها الإصلاح أو التنكيل، وهل هى مكافئة دائماً لحجم الجريمة !!...

ودراسة الموضوع بهذه الكيفية آثار صعوبات منهجية، تمثلت في استحالة الإلمام بشتات هذا الموضوع وتوضيحه من خلال مدرسة تصويرية واحدة، أو من خلال تصاوير بلد معينة في فترة زمنية محصورة، إلا أنه قد أمكن الحد من هذه الصعوبة المنهجية إلى حد ما، عن طريق إمكانية دراسة العقوبات المختلفة من خلال صور المخطوطات الإسلامية التى رسمت في البلاد الإسلامية الخاضعة للحكم الإسلامى في الفترة الزمنية من القرن السابع حتى القرن الحادى عشر الهجرى (١٣-١٧ م) . وهى الفترة التى اتسمت بازدهار وتعدد طرق الاتصال^(١) الحضارى بين البلاد الإسلامية، الأمر الذى أدى إلى وجود تشابه في الإطار الحضارى العام لهذه الدول في تلك الحقبة الزمنية، والذي يؤكد لنا ذلك وجود العقوبات مصورة من خلال تصاوير مخطوطات إسلامية أدبية أو تاريخية، ومن مدارس

(١) منى محمد بدر : أثر الفن السلجوقى على الحضارة والفن في العصرين الأيوبي والمملوكى في مصر . رسالة دكتوراه - غير منشورة - مقدمة لكلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٩١م، ص ٥٤ : ٣١٩، ٧٩، ٢٨٧ .

تصويرية مختلفة قد يكون موضوعها قاصداً إبراز هذه العقوبة، أو يكون موضوعها موضوعاً أدبياً، وعن طريق عقاب إحدى شخصيات الرواية الأدبية تنفذ فيه عقوبة من العقوبات المعاصرة لزمن المصور، فالشاهنامة^(١) - على سبيل المثال - شعر ملحمة يؤرخ للملوك وأبطال إيران منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى كتبها الفردوسى بأمر من السلطان محمود الغزنوى حوالى سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م، فهى تصور حكايات ما قبل الإسلام برؤية من المصور فى الزمن الذى أنجز فيه المخطوط، والمصور متأثر تلقائياً بالروح الحضارية السائدة فى عصره. ولذلك، فالإشارة إلى أى موضوع يتعلق بالعقوبة مستقى من المخطوطات الأدبية كالشاهنامة، يجب أن يأخذ فى اعتباره هذا العامل الشخصى للمصور، كما يأخذ الدارس للمخطوطات الإسلامية هذا العامل الشخصى فى اعتباره عند دراسة الزى أو الأسلحة أو سحن الأشخاص أو أغطية الرؤوس أو مناظر الطرب من خلال التصاوير .

أنواع العقوبات فى الشريعة الإسلامية :

لما كانت الجرائم محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحد^(٢) أو قصاص^(٣) أو تعزير^(٤)، لذا كانت العقوبات زواجر، منها الحدود والقصاص التى وضعها الله تعالى

(١) راجع سمية حسن إبراهيم : شاهنامة الفردوس بمكتبة كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن مجلة دراسات آثارية إسلامية المجلس الأعلى للآثار سنة ١٩٩٥، ص ١٨٩ : ٢١٣ .

(٢) الحد : هى الجرائم المعاقب عليها بحد، والحد هو العقوبة المقررة حقاً لله تعالى، وليس لها حد أدنى ولا حد أعلى، ومعنى أنها حق لله أنها لا تقبل الإسقاط لا من الأفراد ولا من الجماعة، وجرائم الحدود معينة ومحددة العدد وهى سبع : الزنا والقذف والشرب والسرقة والحراة والردة والبلغى . وتعاقب الشريعة الإسلامية الزانى المحصن بالرجم وغير المحصن بالجلد، وعدم قبول الشهادة من القاذف وجلده، وقطع اليد للسارق والسارقة، والجلد عقوبة تعاطى الخمر، بخلاف الحراة والبلغى . راجع : الماوردى : الأحكام السلطانية، ص ٢١٩ / الإمام أبوزهرة : الجريمة والعقوبة، ص ٧ / عبد القادر عودة : التشريع الجنائى الإسلامى، القسم العام، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٣) القصاص : (والدية) هى عقوبة تلحق بجرائم الأذى الجسدى مثل : القتل أو الجرح أو قطع أحد أجزاء الجسم، ولذا فهى عقوبة مقدرة حقاً للأفراد وأنها ذات حد واحد ليس لها حد أعلى أو أدنى، وبما أنها حق للأفراد، فمن حقهم أيضاً العفو عن الجانى . والقصاص والدية خمس جرائم هى : القتل العمد، القتل شبه العمد، القتل الخطأ، الجناية على ما دون النفس عمداً، الجناية على ما دون النفس خطأ، أى الاعتداء الذى لا يؤدى إلى الموت كالجرح والضرب .

راجع : عبد القادر عودة فى التشريع الجنائى الإسلامى، القسم العام، ص ٧٩ .

(٤) التعزير : هى الجرائم التى يعاقب عليها بعقوبة أو أكثر من عقوبات التعزير، ومعنى التعزير أى التأديب وجرائم التعزير غير محددة، ولولى الأمر حق تقدير العقوبة وحق العفو عن الجريمة

للردع عن ارتكاب ما حظر، ومنها التعزير للجرائم التي لا يوجد فيها نص من قرآن أو سنة . وفي ألم العقوبة ونكال الفضيحة ردع للمجرم وعظة للآخرين وتنفيذ للأوامر المفروضة، فتكون المصلحة أعم والتكليف قائم .

ومن الملاحظ أن الحدود والقصاص والتعزير هو تقسيم للجرائم مبنى على مدى جسامته العقوبة، ولذا ينبغي عند تقدير العقوبة في جرائم التعزير اعتبار ثلاثة أمور هي : أولها : مقدار الأذى الذى ينزل بالمجنى عليه، ثانيها : مقدار الترويع والإفزاع العام الذى تحدثه الجريمة، ثالثها : مقدار ما فيه من هتك لحمى الفضيلة الإسلامية^(١) .

فهل اتبع أولوالأمر فى العصور الوسطى تقدير هذه الأمور الثلاثة عند تقدير الجريمة والعقوبة، أم أن العقوبة كانت تفوق حجم الجريمة فى بعض الأحيان !!..

السلطة المعنية بإصدار أمر أو مرسوم العقوبة

بعد ثبوت الجريمة على مرتكبها، كان الأمر بالعقوبة يصدر من خلال مرسوم أو أمر مكتوب عن الخليفة أو السلطان (الحاكم)^(٢) أو القاضي^(٣) أو المحتسب^(٤) . وكان على الوالى

والعقوبة، ومن أمثلتها الغش والتزوير والتلاعب بالميزان، وأكل حقوق الناس بالباطل، والتأمر ضد الحاكم، ومروجى البدع ودعاة التشكيك فى الحقائق الإسلامية والجهر بالمعاصى والربا وشهادة الزور وتحريض النساء والغلمان على الفسق وغش وإفساد الأطعمة وبائعى الخمر . راجع : الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ٢٣٦ / الإمام أبو زهرة : الجريمة والعقوبة، ص ٧٢ .

(١) الإمام أبو زهرة : الجريمة والعقوبة، ص ٨ - ٩ .
(٢) السلطان (أو الحاكم) كان له سلطة واسعة فى إصدار العقوبة وخاصة على كبار رجال الدولة وأصحاب الوظائف الهامة كالوزراء والقضاة ورجال الدين، وخاصة إذا قاموا بإضرابات أو محاولة الخيانة ضد الحكم القائم، أو خروج القضاة عن مقتضيات اللائق لمباشرة مهام وظائفهم كقبول الرشاوى، أو خروج رجال الدين براء متطرفة .

(٣) القاضي : له أيضا سلطة واسعة فى إصدار جميع الأحكام فى الجرائم الكبيرة والصغيرة سواء كانت حدودا أو تعزيرات، وكان للقاضى حق التصرف فى القانون وفق اجتهاده ويطبق فى المعاملات الجارية أحكام العرف والعادة، بل إن العرف العام كان مقدما على القياس وبه ثبت الحكم العام . راجع :

شفيق شحاته : تاريخ حركة التجديد فى النظم القانونية فى مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) - عيسى البابى الحلبي سنة ١٩٦١، ص ٩٤ .
ناصر الأنصارى : المجلد فى تاريخ القانون المصرى . الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨، ص ١٧٦ .

(٤) المحتسب : له سلطة تنفيذية كسلطة القاضي، ولكن العقوبات التى كان يصدرها كانت من قبيل التعزيرات فقط، وكان يعاونه فى تنفيذها الأعوان أو والى الشرطة . راجع :

أومن ينوب عنه من معاونيه قراءة المرسوم أو الأمر بالعقوبة^(١) على الجانى ليطمئن قلبه عند تنفيذ الحكم عليه وحتى لا يخطئ القائم بتنفيذ العقوبة فينزها بشخص آخر غير المكتوب اسمه فى المرسوم، فى حالة وجود أكثر من جانى .

ولقد وصلتنا بالفعل وثيقة حكم صادرة من محكمة أبريم بأن يدفع أحمد بن بهرام لأحمد خليل خمسمائة دينار دية لتسببه فى فقد بعض أصابعه مؤرخة سنة ١١٠٠ هـ/ ١٦٨٨م محفوظة فى متحف الشرطة بالقاهرة^(٢) . وفيها أسماء للشهود الذين حضروا الواقعة، وتحديد للأصابع التى قطعت، مع إمضاء الشهود . أى أن وثيقة الحكم تحمل معها محضر تحقيق الواقعة مع إثبات شرعى - حالياً تقرير الطب الشرعى - موثق بالشهود عن موضع الإصابة على وجه التحديد . (لوحه ١)

وكان يعهد بالحكم الصادر بالعقوبة إلى أميرجاندار^(٣) أووالى الشرطة لينفذه (أداة تنفيذ)، وكان والى الشرطة يعاونه فى تنفيذ العقوبات الأعوان والخفراء والعسس

عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين، ج ١ ص ١٢٨ .
سهام مصطفى أبوزيد : الحسبة فى مصر الإسلامية . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

(١) راجع: أمثلة قراءة مرسوم بالقتل على الجانى :
ابن تغرى بردى : " جمال الدين بن المحاسن يوسف " (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) .
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ٨٤- ١٩٨٦ (صدر منه ٧ أجزاء) ج ٣ ص ٢٨٤ .
(٢) سجل رقم ٢٣٩٧٤ .

(٣) أميرجاندار: لقب وظيفى مكون من مقطعين هما : جان الفارسية والتركية وتعنى : "الروح" و"دار" فارسية تعنى ممسك . أى ممسك الروح، ووظيفته أن يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل معهم إلى الديوان، وهوالمكلف من قبل السلطان يعتقل من يأمر بقتله من الأمراء، وهوالمستلم أيضاً للزردخانة أرفع السجون قدراً ومن يقتل فيه يقتل أوينخل سبيله دون أن تطول مدته به . راجع :

المقريزى : تقى الدين أبى العباسى أحمد بن على "ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م" .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (جزءان) طبعة مؤسسة الحلبي مصورة عن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٤م ج ٢ ص ٢٢٢ .
حسن الباشا: الفنون والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة بالقاهرة ٦٥- ١٩٦٦ م (٣ أجزاء)، ج ١ ص ١٩٦ .

والسجانون والمشايعية^(١). وكان على وإلى الشرطة أن يقف على الحوادث التي تقع في ولايته كالقتل والسرقة والحريق وغير ذلك^(٢). وقد يضطر صاحب الشرطة أحياناً للمحافظة على الأمن والنظام إلى اعتقال المشايخين أو تنفيذ عقوبة الموت بهم دون أن يأخذ في ذلك إذناً من الخليفة أو السلطان^(٣).

وقد وصلتنا صورة من المدرسة المغولية الهندية من أوراق متفرقة من مخطوط سعدي (جلستان) وهي مخطوطة أدبية تم إعدادها فيما بين سنتي ١٠١٤ - ١٠١٥ هـ / ١٦٠٥ - ١٦٠٦ م (لوحة ٢) كانت في مجموعة روتشيلد، وحالياً هي محفوظة في متحف راث بجنيف^(٤)، وهي تصور مجلس القضاء الذي انعقد في داخل مصطبة ترتفع عن الأرض تم فرشها بالسجاد ولها أعمدة خشبية تحمل سقفاً من القماش - غالباً - لوجود أجزاء منه مطوية في أعلى الصورة، والمصطبة مقامة في حديقة أحد الأبنية التي يظهر فيها أجزاء من جدار يتخلله ضلفة باب وخورنقات بها بعض الآنية وأسوار شيدت بالأجر، وفي نفس هذا الفناء توجد شجرة مورقة، ويجلس بداخل المصطبة شيخان طاعنان في السن لهما لحي بيضاء، وكلاهما يرتدي عمامة كبيرة وعباءة، وبينما يمسك أحدهما كتاباً في يده، فالثاني يضع أمامه على الأرض كتاباً آخر وفي إحدى يديه مسبحة، والشيخان لا يجلسان في مستوى واحد تقريباً، ويجلس شخص ثالث في مستوى أقل منهما وهوشاب له لحية سوداء، وأمامه يوجد دفتر مفتوح وهو على الأرجح دفتر الحكم الذي يسجل فيه الأحكام

(١) المشايعية : هم حملة المشاغل في المراكب وغيرها، واعتبرت هذه الفئة في مصر من الطبقة الوضيعة، فيشتغلون بالأعمال الحقيرة مثل كنس الطرقات وكسح الأفنية، وتنفيذ الإعدام في المحكوم عليهم، وفي نفس الوقت قاموا ببعض أعمال الشرطة، وقد صار المشايعي علماً على الجلاد الذي ينفذ حكم الإعدام . راجع:

سعيد عاشور : المجتمع المصري، ص ٣٨ .

(٢) عبد المنعم ماجد : سلاطين الماليك، ج ١ ص ١٢٨ .

(٣) فاضل الخالدي : الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق خلال القرن الخامس الهجري . بغداد ١٩٦٩، ص ٢٦٧ .

(٤) حصّة الصباح (وآخرون) : كنوز الفن الإسلامي في متحف راث - جنيف الكويت ١٩٨٥، لوحة ١٣٨، ص ١٦٢ .

ويمسك في إحدى يديه ما يشبه القلم، بينما يجلس أمامهم شيخ طاعن في السن ومعه امرأة صغيرة تنزى برداء أبيض يغطي رأسها وهما (المتقاضيان) - بينما يقف خارج المنصة أربعة أشخاص، أولهم على مقربة من المنصة رجل له شارب أسود ويحمل في يده عصا وفي وسطه سيف وفيما يبدو أنه الوالى أو أحد أعوانه ينتظر استلام مرسوم الحكم ليقوم بتنفيذه، ويقف خلفه شخصين آخرين - متقدمين في السن - يحملان أيضاً عصي، ويحمل أحدهما في وسطه خنجرًا، وقد شبكا أطراف ملابسهما بالمشد الذى يمتدق وسطيهما - ربما يكونا من الجلاويز أو الجلاويزة^(١)، أى الأشخاص التى تشرف على النظام فى مجلس القاضى، والمفروض أنها يحملان سوطًا، ولكن فى الصورة يحملان العصي والخنجر، ويقف خلفهما شخص رابع هو الوحيد الذى له سحنة سوداء ويشير بإحدى يديه إلى الخارج، ولربما يكون أحد أتباع الوالى أو أعوانه المكلفين بتنفيذ العقوبة كالمشاعلى أو السجان . لأننا سوف نرى صورة أخرى للسجان وقد تم رسم سحته أيضاً باللون الأسود كناية عن أنه زنجى أسود، أو كتعبير عن قبح شخصية السجان .

ولم يكن بالضرورة على الشخص المكلف بتنفيذ مرسوم العقوبة أن يقوم بتنفيذها، ومن أمثلة ذلك : أنه على الرغم من وصول مرسوم منطاش إلى الكرك بقتل الظاهر برقوق على يد الشهاب البريدى، فلم يلتفت الأمير حسام الدين الحلبي البانقوسى الكجكى الحسن بن على بن أحمد نائب الكرك ت (٨٠١هـ / ١٣٩٨م)، وأطلق برقوق وصار من أمره ما صار^(٢) - أى أصبح سلطاناً فيما بعد (حكم ٧٨٤ - ٨٠١هـ / ١٣٨٢ - ١٣٩٨م) - وكان مرسوم العقوبة يصدر فى أحيان كثيرة بعد التحقيق والتأكد من ثبوت التهمة أو بالاعتراف من المذنب نفسه، ولذا كثيراً ما استخدم التعذيب فى جبر المتهم على

(١) راجع : عبد المنعم ماجد : سلاطين المماليك، ج ١ ص ١٠٣ .

(٢) راجع :

المقريزى : نقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) .

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ - ٢ (٦ أقسام) تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٨

/ ج ٣ - ٤ (٦ أقسام)، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ٧٠ - ١٩٧٢ ج ٣ ص ٩٧٣ .

السخاوى : " أبو الحسن نور الدين على بن محمود " (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) - الضوء اللامع فى أعيان

القرن التاسع (١٢ جزء) - مصر ١٣٥٢ - ١٣٥٥هـ / ج ٣ ص ٤٢٣ .

الاعتراف أو لاستخراج دليل إدانة، أو لمعرفة مكان اختفاء المذنب^(١) أو أمواله. وكان هذا التعذيب يصل في بعض الأحيان إلى حد الموت.

أقسام العقوبات في الدول الإسلامية في العصور الوسطى :

أشرنا فيما سبق أن الشريعة الإسلامية حددت جرائم معينة ولها عقوبات محددة سلفاً مثل جرائم الحدود والقصاص والدية، وتركت لأولى الأمر الاجتهاد في تحديد الجرائم غير المنصوص عنها، والتي تطرأ على المجتمع الإسلامى في مراحل تطوره، وتقدير عقوبتها وهو ما عرف باسم " التعزير "^(٢)، وقد تبين لنا أن هذه العقوبات التعزيرية كانت متدرجة في عمومها، وأمكننا تقسيمها^(٣) إلى الآتى :

أولاً : عقوبات أصلية

وهي العقوبات الجسيمة التى تنفذ فى جرائم - الجنايات الخطيرة

١ - عقوبة القتل : والمفروض أنها تنفذ كعقوبة عن جرائم إزهاق الروح أو محاولة قلب نظام الحكم واغتيال السلطان الحاكم، والفتن والثورات والخروج عن نظام الدولة، ومراسلة الدول المناهضة لنظام الحكم القائم بالدولة، والجرائم المتعلقة بالأديان والفتاوى الدينية المتطرفة إلا أنها استخدمت أيضاً فى جرائم المحرمات وارتكاب الفواحش .

(١) راجع ابن إياس: " أبو البركات محمد بن أحمد " (٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - الهيئة المصرية العامة للكتاب (الطبعة الثانية ١٩٨٢ مصورة عن الطبعة الأولى عن بولاق ١٣١٢هـ) (٥ أجزاء) ج ٤ ص ٢٠٥ : ٢٠٦ .

(٢) راجع عن الفرق بين عقوبة التعزير وغيرها من العقوبات : عبد القادر عودة : التشريع الجنائى، ص ٦٨٦ - ٦٨٧ .

(٣) حاولنا الاستئناس بتقسيم العقوبات فى الدول الإسلامية بأحدث تعديلات قانون العقوبات الحالى وهو قانون وضعى - اشتقت بعض أحكامه من أحكام الشريعة الإسلامية والقوانين الأوروبية الوضعية، راجع:

صابر عمار : قانون العقوبات والإجراءات الجنائية وفقاً لآخر التعديلات - يوليه ١٩٩٩م - نقابة المحامين، وتتفق أغلب الدول العربية والإسلامية فى هذا التقسيم حالياً للعقوبات .

وقد انقسمت العقوبة فى هذه الجرائم إلى قسمين هما :-

أ- إعدام بسيط : وفيها يتم إزهاق الروح فقط بأى وسيلة من الوسائل المتعددة التى عرفت فى الدول الإسلامية فى العصور الوسطى. وسوف نتحدث عنها فيما بعد .

ب- إعدام مصحوب بتعذيب سابق أو لاحق مع الاقتران بعقوبات تبعية أخرى : مثل حمل المتهم مشهوراً على جمل أو دابة إلى السجن، مع استخدام وسائل تعذيبية أخرى، بالإضافة إلى استخدام عقوبات تبعية مثل: العزل من الوظيفة أو الغرامة أو المصادرة، ثم الإعدام بعد التمثيل بالجلّة^(١) .

١- عقوبتى السجن^(٢) مع الشغل والحبس أو الترسيم .

٢- عقوبات تعذيبية جسمانياً ونفسياً فى الجرائم البسيطة - الجنح والمخالفات- التى يرجع تقديرها للسلطة حسب الظروف والملابسات، وهى سلطة تقديرية، كعدم الامتثال للأوامر، وفى الأسواق حيث يستخدمها المحتسب بصفة خاصة مع أرباب السوق والباعة وكثيراً ما استخدمت فى الجرائم المالية وفى عدم دفع الضرائب، وشهادة الزور والكذب، ومن أمثلة هذه العقوبات: التشهير، والضرب، وقطع أحد أعضاء الجسم. وسوف نتحدث عنها تفصيلاً فيما بعد .

ثانياً : عقوبات تبعية، مالية وإدارية

١- المصادرة .

٢- الغرامة.

٣- العزل من الوظيفة .

(١) يوجد فى القانون الوضعى الحالى تعدد العقوبات، ولكن مقابل تعدد الجرائم، وفى الشريعة الإسلامية عقوبة الردة لها عقوبتان عقوبة أصلية وهى القتل، وعقوبة تبعية وهى المصادرة .

(٢) السجن : كعقوبة وردت فى آيات القرآن الكريم فى سورة يوسف آيات ٢٥، ٣٥، ٣٢، ٣٣، ٤٢، ١٠١، وسورة الشعراء آية ٢٩ .

ثالثاً: تدابير^(١) احترازية

كالنفي^(٢) في أحد الأقاليم البعيدة داخل البلد أو النفي خارج البلد، والقصد من هذه العقوبة تقويم إرادة الجاني الآثمة عن طريق وقاية المجتمع بعلاجه وتخليص الجماعة من هذه الفئة، وفي نفس الوقت يسمح للمحكوم عليه أن يستعيد مركزه في الهيئة الجديدة التي ينضم إليها.

ولنتحدث تفصيلاً عن كل عقوبة من العقوبات السابقة :

أولاً: العقوبات الأصلية

١- عقوبة القتل

أى عقوبة إزهاق الروح وقد عرفت العصور الوسطى الإسلامية عدة طرق لتنفيذ هذه العقوبة، أول هذه الطرق طريقتا الشنق والصلب^(٣) المؤدى إلى الموت فهناك صلب لا يؤدي إلى الموت، وكان يتم تنفيذ هذه العقوبة علانية^(٤) أمام أكبر حشد من جمهور الناس لتحقيق الغرض من العقوبة وهو الردع العام والعظة، لذلك كانت تنفذ هذه العقوبة في

(١) تدابير احترازية : مصطلح قانوني حديث يعنى " الوقائية" بوجه عام، ومن أمثلتها في القانون المصرى: مصادرة الأشياء التى تعد جريمة والإيداع فى إحدى مؤسسات العمل، أو تحديد الإقامة، أو منع الإقامة فى جهة معينة أو الحرمان من ممارسة مهنة معينة، والوضع تحت مراقبة البوليس...راجع :

رؤوف عبيد : أصول علمى الإجرام والعقاب . دار الفكر العربى، الطبعة الخامسة سنة ١٩٨١، ص ٥٦٧، ٥٦٨ .

(٢) النفى : وردت هذه العقوبة فى آيات القرآن الكريم سورة المائدة الآية ٣٣، وتجب هذه العقوبة أصلاً على قاطع الطريق الذى يخيف الناس، ويكون النفى من بلد إلى بلد داخل دار الإسلام ويحبس الجاني فى البلد المنفى إليها، وهى تقابل عقوبة الإرسال إلى الإصلاحية فى القوانين الوضعية. راجع: عبد القادر عودة: التشريع الجنائى ص ٢٥٩: ٢٦١ .

(٣) الشنق: شنقه شنقاً علنه : والرجل قتله مشنوقاً معلقاً بحبل حول رقبته، مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط . دار المعارف سنة ١٩٨٠ (جزءان) ج ١ ص ٤٩٦ .

الصلب : الشديد القوى، والخالص النسب، يقال هو عربى صليب، وكل ما كان على شكل خطين متقاطعين من خشب أو معدن وما يصلب عليه . المعجم الوسيط، ج ١ ص ٥١٩ .

(٤) علانية التنفيذ : أشار القرآن الكريم إلى علانية التنفيذ فى الزنا لقوله تعالى : ﴿وليشهد عذابها طائفة من المؤمنين﴾: قرآن كريم سورة النور (آية ٢) .

أغلب الأحيان على أحد أبواب المدن الشهيرة مثل باب زويلة بالقاهرة^(١)، أوفى الميادين الواسعة كمدن دمشق وحلب، أو في ساحات القلاع أو حتى على باب المقتول أى المذنب^(٢). ومن أمثلة ذلك أنه في شهر جمادى الآخر سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م أن شخصاً من أمراء العشرات يقال له مغلباى المقترع قتله عبده تحت الليل، فلما بلغ السلطان الغورى (حكم ٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥١٦م) ذلك، شق العبد على باب سيده في مكان قتله^(٣).

وكانت المشاعيلين تتسلم المحكوم عليه وتقوم بحراسته وهو مقيد اليدين ونصف جسده العلوى عار من الثياب، ثم يتم لف أحد طرفي حبل المشنقة حول رقبة المذنب، والحبل نفسه يدور حول بكرة - مثبتة في العارضة أو في منتصف فتحة الباب المراد إتمام العقوبة عليه. أما الطرف الثانى لهذا الحبل فيمر حول البكرة ويتدلى إلى أسفل، حيث يقوم المشاعيلية عند تنفيذ حكم الإعدام بشد طرف الخيط المدلى جهتهم فيدور حول البكرة، ليرتفع الجانى من الجهة الأخرى، وفي نفس الوقت تضيق الحلقة الملفوفة حول رقبته حتى يتم إزهاق روحه بأن يكون كامل جسمه قد ارتفع من خلال الحبل المشدود حول رقبته. وحتى النساء كان يتم تنفيذ هذه العقوبة فيهن^(٤).

وفىما يبدو أن لفظى الشنق والصلب استعملوا أحياناً بمعنى واحد، إشارة إلى إزهاق الروح عن طريق إحكام شد الحبل حول رقبة المذنب، فقد جاء فى التنزيل العزيز: ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمُ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾^(٥)، فقد وصلتنا تصاوير مخطوطات نجد فيها المذنب

(١) باب زويلة: أحد أبواب أسوار القاهرة الفاطمية. راجع :

المقريزى : الخطط، ج ١ ص ٣٨٠-٣٨١.

ويعد باب زويلة من أشهر الأبواب الذى نفذت عليه عقوبة الشنق، نظراً لوجود مقر الوالى على مقربة منه، حيث يقوم الحراس بحراسته، وفي نفس الوقت ينفذوا أوامر الوالى بتنفيذ عقوبة الإعدام على البوابة. لذا عرف باسم "بوابة المتولى".

ليل عبد اللطيف : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى . دار الكتاب الجامعى القاهرة ١٩٨٧، ص ٩٩ : ١٠٠.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤ ص ٣٩٤.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٤ ص ٨٥.

(٤) راجع أمثلة : ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٤٩، ٤٢، ٤٦، ٥٥.

(٥) قرآن كريم - سورة طه (آية ٧١).

وقد التف الحبل بإحكام حول رقبته التى علق منها على جذع نخلة كما فى الصورة (لوحة ٣) من المدرسة الصفوية، من الشاهنامه للفردوسى، من عمل رضا عباسى من تبريز، تنسب إلى القرن العاشر الهجرى (١٦م)، محفوظة فى متحف طهران^(١) وعلى الصورة كتابات فارسية بخط نسخى تتداخل مع عناصر التكوين الفنى للتصويرة، فيظهر على الجانب الأيمن من الصورة بناء معمارى قد يكون منزل له مدخلان معقودان، يعلوهما نافذتان مفتوحتان تنظر من خلالهما سيدتين، فى حالة دهشة من المنظر المأساوى خارج المنزل وكدليل على أن العقوبة تنفذ علانية، إذ يوجد رجل عار تماماً إلا من لباس يستر عورته وقد تم شنقه بحبل يدور حول رقبته وقد التف الطرف الآخر من الحبل حول جذع النخلة من أعلى، ويبدو أنه قد توفى لأن يداه ورجلاه قد رسمتا بطريقة مترنحة تدل على انسحاب الروح منها . وخلف هذه النخلة توجد نخلة ثانية يقف تحتها شخص قد يكون المشاعلى وقد أمسك بعصا يضرب بها شخصاً آخر ممدد على الأرض وهو عار تماماً. وفى الخلف يوجد فارسان، وشخص ثالث يقف بجوارهما، ويرتدون أغطية رؤوس تتميز بعمامة يخرج منها طرطور أحمر، ربما يمثلون الوالى وأعوانه لأن أحدهم يشير بإحدى يديه التى تقبض على عصا صغيرة، يوجه تعليقات للمشاعلى الذى يقوم بالضرب، ويلاحظ أن القسوة والبلادة تبدو على وجوههم .

وقد شق على باب زويلة آخر سلاطين المماليك فى مصر، وهو السلطان طومانباى ٩٢٢-٩٢٣هـ / ١٥١٦-١٥١٧م، وقد وصف ابن زنبيل الرمال^(٢) كيفية تنفيذ هذه العقوبة فى طومانباى فذكر أنه كان يلبس مثل عرب الهوارة زمط^(٣) وعليه شاس جوج أحمر، وملوطة^(٤) بيضاء بأحكام كبار وهو فى الحديد، فلما وصل باب زويلة أنزلوه من على

(١) سيد عبد المجيد شريف زاده: نامورنامه ایران، ١٣٧٠ (ش.ف)، لوحه ٢٧٤ / راجع : المرجع نفسه منظر آخر للشنق، لوحه ٧٥ .

(٢) أحمد بن زنبيل الرمال : آخر المماليك . تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨، ص ٣٤ .

(٣) زمط : قلنسوة حمراء. راجع : ماير (ل.ا) : الملابس المملوكية . ترجمة صالح الشيتى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص ٥٨-٦٠ .

(٤) ملوطة : عباءة أورداء " فوقانى " له ياقة . ماير : الملابس المملوكية، ص ٤٥ .

الفرس وأرخوا له الحبل ووقفت حوله العثمانية بالسيوف، ووضعوا الحية في رقبته، ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة، وقيل انقطع الحبل مرتين وهويق على الأرض، وشنقوه، وظلت جثة طومانباي معلقة على باب زويلة لمدة ثلاثة أيام حتى جافت رائحته^(١).

وقد وصلتنا تصويرة (لوحة ٤) عن مخطوطة تركية محفوظة في المكتبة الأهلية ببائيس مؤرخة (١١ ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ / ٢٣ أبريل ١٥١٧م)^(٢) مرسوم فيها شنق والسلطان طومانباي على باب زويلة، وقد ركز المصور فيها على عملية شنقه فنجد البكرة وحولها ارتفع الخيط الملفوف حول رقبة طومانباي، وعلى عكس ما وصف ابن زنبيل رسم طومانباي ونصفه العلوي بدون ملابس، ولكن يرتدى فقط سروال حوله مشد وحافي القدمين مكشوف الرأس وقيدت ذراعيه خلف ظهره، وقد تمت عملية الشنق حيث ارتفع جثثانه إلى أعلى وتدلّت قدماه، وقد رُسم أسفل التصويرة خمسة حراس بسيوفهم، ثلاثة منهم على الجانب الأيمن من الباب واثنان على الجانب الأيسر، وقد عبر الفنان عن باب زويلة بفتحة باب مستطيلة، وقد رسم وجه طومانباي وله شارب ولحية طويلة وحواجب كثيفة، ولم يظهر على قسمات وجهه تعبير عن الألم أو الحزن، وإنما رضى وطمأنينة بما آل إليه مصيره .

كما وصلتنا تصويرة أخرى تمثل إزهاق الروح بطريقة المشنقة، وهى من المدرسة المغولية الهندية مؤرخة من القرن العاشر الهجرى / ١٦٠٢م تمثل استشهاد الصوفى حسين ابن منصور الحلّاج^(٣) (قتل ٣٠٩هـ / ٩٢٢م) ببغداد، من تصوير مير عبد الله " صاحب

(١) ابن زنبيل :آخرة الممالك، ص ٣٢-٣٤ .

(٢) صلاح عيسى : رجال مرج دابق، دار الغد العربى، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣، ص ١١٢ .
(٣) الحسين بن منصور الحلّاج : "أبومغيث" وهو من أهل فارس، ونشأ بواسط في العراق وصحب الجنيد وأبا الحسين النورى وغيرهم، أشيع عنه أنه ادعى الألوهية، وأدخل في سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م، مشهوراً على جمل إلى بغداد فصلب حياً ونودى عليه : هذا أحد دعاة القرامطة، فعرفوه ثم حبس ثم قتل سنة ٣٠٩هـ (٩٢٢م). راجع :

السلمى : "أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي" (ت ٤١٢هـ / ١٠٢١م).

الطبقات الصوفية، تحقيق : أحمد الشرباصي، دار الشعب سنة ١٩٩٨، ص ١٠٢ : ١٠٥ .

السبوطى : "جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر" (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م).

تاريخ الخلفاء تحقيق : محمد محمى الدين عبد الحميد- بيروت ١٩٨٧، ص ٣٨٠ .

القلم المسك" ومحفوفة في متحف والترز جاليري بواشنطن^(١)، (لوحة ٥). وفي هذه اللوحة تتضح تماماً طريقة تنفيذ عملية الشنق، حيث يتم شنق الحلاج خارج القصر الملكي - أوقصر الخلافة - في بغداد، في الخلاء، ونرى في التصويرية مجرى مائي، ربما أحد نهري دجلة والفرات، وقد تم تنصيب المشنقة، المكونة من ثلاث عوارض خشبية متصلة ببعض في شكل مستطيل ناقص أحد أضلاعه السفلية، ويتدلى من وسط هذه العارضة الخشبية بكرة يدور حولها حبل ولها طرفان، أحد طرفيه تم لفه حول رقبة الحلاج، والطرف الآخر يمسك به اثنان من الحراس، بينما يوجد حارس يمسك بالقائم الخشبي الأيسر، ويشير بإصبعه كمن يعطى تعليمات، ويلاحظ في هذه المشنقة وجود طبليّة خشبية يحملها حارسان، يقف عليها الحلاج، وفيما يبدو أنه عند إتمام عملية الشنق وشد الحبل يتم نزع هذه الطبليّة من تحت أقدام الحلاج، ويلاحظ أن الحلاج هنا - عكس طومانباي - يرتدى كامل ملابسه وإن كانت رأسه عارية، وأقدامه أيضاً حافية، مع نجاح المصور في أن ينقل لنا مدى استسلام الحلاج لهذه اللحظة المصيرية، من خلال رسم وجهه في وضعة ثلاثية الأرباع وهو يرمي بوجهه إلى أسفل وقد أغمض عينيه مستسلماً لنهايته، ويبدو على ملامح وجهه علامات اليأس والحزن .

كما يلاحظ أنه تم تقييد يديه إلى الأمام وليس إلى الخلف كما حدث في تصويرية طومانباي، بل نجح المصور أيضاً في التعبير عن مأساة الحلاج بإرهاق حسي مفعم بعاطفة جياشة ظهرت من خلال ملامح الحزن والأسى في قسّمات وجوه أتباع الحلاج المحيطين بالمشنقة، فمنهم من يمزق ثوبه الأزرق وآخر يرفع يديه مولولاً بالصراخ، ومنهم من ينبطح أرضاً بينما يحاول شخص آخر أن يخفف عنه، وظهرت اللامبالاة والرتابة والقسوة على وجوه الحراس القائمين بعملية الشنق - ربما نظراً لاعتيادهم هذا العمل - وهي إزهاق الأرواح .

(١) ثروت عكاشه : التصوير الإسلامي المغولي في الهند - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥، ص ١٠٩، لوحة ٦٠ .

وقد وصلتنا تصويرة أخرى عن شنق الحلاج أيضاً على مشنقة مماثلة للمشنقة السابقة ولكن من تصاوير المدرسة التركية العثمانية من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى)^(١).

والملاحظ على تنفيذ عقوبتى الشنق فى المثالين السابقين أن حجم الجريمة لم يكن جسيماً حتى تصل عقوبتها إلى الإعدام، ولم تكن هناك أدلة مادية تؤيد وتؤكد التهم المنسوبة إليهما . وهناك أمثلة أخرى يتم الشنق والإعدام لأشخاص لم تكن جرائمهم تتفق مع هذه العقوبة البشعة، ومن أمثلة ذلك أنه فى محرم سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨ م رسم السلطان الغورى بشنق ثلاثة أنفار كانوا قد سرقوا السبائك الذهب من قاعة الذهب^(٢)، رغم أن هذه الجريمة من جرائم الحدود فى الإسلام وحدها قطع يد السارق^(٣).

ويعتبر الحسن بن محمد الوزان^(٤) أحد شهود العيان الذى رأى بنفسه فى مصر أن عقوبة السارق أصبحت فى عصر الماليك هى الشنق، ولقد انتقد ذلك بقوله :

(١) راجع : Metin And : *Turkish minitature painting , the ottoman period* . Istanbul , 1987 , fig.68.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٣٠

قاعة الذهب ربما هى إحدى القاعات التى ذكرها المقرئى بعنوان : " السبع قاعات " . الخطط ج ٢، ص ٢١٢ . وهى القاعات السبع التى عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها سراريه . وقد نسر البعض رقم "سبعة" التى أطلقت على هذه القاعات على سبيل التفاؤل بالنجوم، لذا سميت بأسماء المعادن المقابلة لأسماء الكواكب السبعة السيارة وهى الذهب والفضة والحديد والزئبق والقصدير والنحاس والرصاص . بول كازانوف : تاريخ ووصف قلعة القاهرة . ترجمة وتقديم أحمد دراج، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤، ص ١٤٣ .

وقد يشوب رأى السابق شىء من عدم الدقة لأن القاعات السبع كانت مخصصة بالفعل لحفظ سبائك من نوع المعدن الذى أطلق اسمه على القاعة، مثل قاعة الذهب التى سرق منها اللصوص سبائك الذهب .

(٣) هذه السرقة الواقعة على أموال الحكومة هى جنابة أمن دولة عليها، عقوبتها تتراوح بين الأشغال الشاقة المؤبدية أو المؤقتة أو السجن . صابر عمار : قانون العقوبات (م ٨٩)، ص ٥٦-٥٧ .

(٤) الحسن بن محمد الوزان الفاس المعروف " بليون الإفريقى " : (٨٨٨-٩٥٧هـ / ١٤٨٣-١٥٥٠م) - وصف إفريقيا (جزء١) ترجمة محمد حجر، محمد الأخضر، دار الغد الإسلامى - الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٣، ج ٢، ص ٢٢٠ .

"العقوبات المفروضة على الجناة شديدة قاسية خصوصاً ما يصدر منها في بلاط الملك فيشنق السارق".

يلاحظ على بعض الأمثلة السابقة، أن سلاطين الممالك غلظوا العقوبة في بعض جرائم الحدود كالزنا والسرقة، وحادوا عن تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية المنصوص عليها في القرآن الكريم . والراجح أن الذي دفعهم إلى هذه الأحكام تأثرهم من أحكام "الياسة المغولية"^(١) التي عرفت باسم السياسة، والتي هي بمثابة القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال، دون الالتجاء إلى أحكام الشرع . والمقصود أن تطبق أصلاً على شئون الطبقة العسكرية وحدها، والظاهر أن بعض سلاطين الممالك توسعوا في استخدامها بحيث أصبحت تتداخل مع أمور الشرع وأحكامه، وتلغيها أحياناً، وتأخذ مكانها.

فمن أمثلة أحكام الياسة أن عقوبة جريمة الزنا - دون فرق بين المحصن وغير المحصن - هي القتل، وأيضاً عقوبة السارق القتل^(٢) .

وفما يبدو أن مثل هذه الأحكام، كانت من الأعراف المتبعة في كثير من دول شرق آسيا الوثنية، لأن الصين كانت تطبق أيضاً هذه العقوبات في الجرائم المشار إليها^(٣) .

(١) "الياسة أويغز أويست" المغولية، وضعها جانتكيزخان ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م بعد توليه السلطة المطلقة على جميع القبائل المغولية، ونقشها في صفائح فولاذ وجعلها شريعة لقومه، وظلت حكماً باتاً بقي في أعقابها لا يخرجون عن شيء من حكمه .

المقريزي : الخطط، ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) معظم أحكام الياسة عنيفة قاسية، فأغلب الجرائم - كما يمكن تصنيفها حسب القانون الوضعي الحديث جنايات أوجنح أو مخالفات - عقوبتها القتل . راجع :

المقريزي : الخطط، ج ٢ ص ٢٢٠-٢٢١ .

السباعي محمد السباعي : عطا ملك الجويني وكتابه جهان كشا . دار الزهراء للنشر سنة ١٩٩١، ص ١٤٥ : ١٤٦، ص ٢٢٨ : ٢٣٧ .

(٣) يبدو أن بلاد شرق آسيا تشابهت أحكامها الوثنية، لأن من سنن أهل الصين أن المحصن والمحصنة إذا زنيا قتلا وكذلك اللص والقاتل . راجع :

سليمان التاجر، أبو زيد حسن السيرافي : (القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) - أخبار الصين . يوسف الشاروني، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠م، ص ٦٦ .

ولما كان الترك والمغول من جنس واحد ويسكنون حدوداً جغرافية متقاربة، وأن الدولة المغولية الكبرى عاصرت دولة المماليك في مصر، وعلى أساس أنهم طبقة عسكرية متعسفة، لذلك تأثروا ببعض أحكام الياسة في الأحكام التي أصدروها بأنفسهم، ولم نسمع أن القضاة استخدموا مثل تلك الأحكام، بل حرص القضاة الشرعيين في مصر على تطبيق أحكام الشرع وخاصة في جرائم الحدود ولو أدى ذلك إلى عزلهم من وظائفهم .

وكانت تتم عملية القتل بطرق أخرى مثل التوسيط بالسيف أو القتل بالسيف حيث يقوم السيف بضرب منطقة الوسط في جسم الإنسان بقوة - بالسيف - فينشط نصفين أسفل السرة، وأحياناً يربط الشخص إلى خشبتين بشكل صليب وي طرح على ظهر جمل ثم يأتي السيف فيضرب المحكوم عليه بقوه^(١). وقد شاهد الحسن بن الوزان^(٢) بنفسه، تنفيذ عقوبة التوسيط بالسيف فيصفها قائلاً : إن أحد أعوان الجلاد يقوم بمسك المذنب من رجليه وآخر من رأسه، ويتناول الجلاد سيفاً ذا قبضتين يقطع به الجسد شطرين، ويوضع الشطر الأعلى على كومة جير حام، وقد يستمر حياً هكذا عشرين دقيقة وهو يتكلم، وهذا شيء فظيع يفجع الناظر والسامع . أو يستخدم السيف في الإطاحة برأس المذنب، وكثيراً ما أخطأ المشاعلى عنق المحكوم عليه في أول ضربة، فيضرب بالسيف ثانية وثالثة حتى يصيب عنقه، فإذا لم ينفصل الرأس عن الجسد، لجأ المشاعلى إلى حزام الرقبة عدة مرات حتى ينجز مهمته^(٣)، وعرفت السيوف المستخدمة في القتل باسم "سيوف الدم"^(٤).

وكان يتم التوسيط بالسيف أو القتل بالسيف في أى مكان خارج الأبواب (أبواب المدن) أو في الساحات الفضاء أو الميادين، وهناك أمثلة^(٥) للتوسيط تمت خارج الباب

(١) صلاح عيسى : رجال مرج دابق، فهرس المصطلحات

(٢) الحسن بن الوزان : وصف إفريقيا، ج ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى : ص ٩٨ .

(٤) محمد قنديل البقرى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤، ص ١٩٠ .

(٥) ابن تغرى بردى : " جمال الدين بن المحاسن يوسف ٨٤٧هـ / ١٤٦٩م النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

قدمه وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين . بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢، (١٦ جزءاً) ج ١١، ص ١٩٤ .

المحروق من القاهرة^(١)، كما وسط السلطان المؤيد شيخ المحمودى (حكم : ٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١) يوم السبت رابع صفر سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م خمسة عشر رجلاً خارج باب النصر^(٢).

وكانت عقوبة التوسيط تستخدم أحياناً في إزهاق أرواح أبرياء لأسباب غالباً خارجة عن إرادتهم - أى استخدمت بطريقة تعسفية، ومن أمثلتها عندما لم ينجح الطبيب خضر الحكيم^(٣) ورئيس الأطباء^(٤) في تمريض السلطان الملك الأشرف برسباى (حكم : ٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٧ م)، أمر عمر الشوبكى والى القاهرة بتوسيطهم^(٥)، فأرسلهما إلى المشاعلى جهة الساقية من باب الحوش ووسطهما سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م^(٦).

واستخدمت سيوف من نوع آخر برسم ضرب الأعناق، كان يحملها جماعة الركابية، وبصفة خاصة لحماية موكب السلطان في الاحتفال بأول العام، حيث يمشى خلفه عشرة يحملون سيوفاً في خرائط ديباج أحمر وأصفر أطلق عليها اسم "سيوف الدم"^(٧)، وهى من أكثر طرق القتل التى استخدمت في ميادين القتال.

واستخدمت طريق التفریق^(٨) في البحر أوالنهر كوسيلة من وسائل الإعدام، فكان الحراس يأخذون المحكوم عليه وهو مقيد على ظهر مركب حتى يتعدوا عن الشاطئ، ثم

(١) الباب المحروق : راجع المقرئى : الخطط - ج ١، ص ٣٨٣.

(٢) راجع : ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١٣ ص ٢١٤.

(٣) راجع : خضر الحكيم : "خضر بن زين الاسرائيلى الزولى الحكيم" / ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١٥ ص ١٥٠ / المقرئى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠٤١ / السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ١٨٠ / ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٥.

(٤) رئيس الأطباء هو : العفيف الأسلمى : "عبد اللطيف بن عبد الوهاب بن عفيف بن هبة" . راجع : السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ٣٣٠.

(٥) العمل الطبى مشروع ولو ساءت حالة المريض، ولكن إذا اقترن هذا العمل بخطأ سؤال الطبيب عن مسئوليته غير العمدية (م ٢٤٤) وهى جنحة لا تزيد مدة العقوبة فيها عن سنة حبس، إلا إذا توافر ظرف آخر مشدد، فنصل عقوبتها إلى الحبس مدة لا تزيد عن خمس سنوات مع الغرامة والتعويض من المحكمة المدنية . صابر عمار : قانون العقوبات ص ١٤٠، ١٤١.

(٦) ابن تغرى بردى : المنهل، ج ٥ ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٧) محمد قنديل البقرى : التعريف بمصطلحات صبحى الأعشى، ص ١٩٠.

(٨) التفریق : من العقوبات التى أشارت إليها بعض آيات القرآن الكريم كعقوبة للكافرين وآل فرعون وقوم نوح مثل : سورة البقرة آية ٢، الأعراف آية ٧ . راجع : محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - دار الشعب ١٩٤٥، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

يقومون بوضع المذنب في المياه والضغط على رأسه حتى يتأكدوا من موته، وقد حكم الأشرف خليل في مستهل سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م بالموت غرقاً على عدد من الأمراء^(١)، وقد عوقب الأمير جانبك الدوادار الخاصكى بتغريقه في النيل لأن السلطان خشققدم اتهمه بالتآمر على قتله^(٢).

كما رسم السلطان الغورى في سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م بالقبض على امرأة سيئة السمعة وتغريقها^(٣)، رغم أن العقوبة لا تتلاءم مع الجريمة، فلا بد من وجود واقعة محددة تعد جريمة لتطبق عليها العقوبة^(٤).

والراجح أن عقوبة الإعدام غرقاً عرفت في أغلب دول الإسلام في العصور الوسطى، بدليل أنه قد وصلتنا تصويرة محفوظة في المتحف القومى بنيودلهى ترجع إلى القرن العاشر الهجرى (١٦٠٠ م) من المدرسة المغولية الهندية من مخطوطة أكبرنامة^(٥)، تصور الإمبراطور أكبر يأمر بإغراق أحد النبلاء المتمردين في مياه النهر لخروجه على أمره (لوحة ٦ أ، ب)، فنجد في هذه التصويرة مياه النهر محصورة بين ضفتين، على كل ضفة منهما مجموعة من العماير، ويظهر من العماير المرسومة أعلى التصويرة أنها تمثل أبراج قلعة، في حين أن بقايا العماير في الضفة التى في مقدمة التصويرة تمثل منشآت معمارية ربما تابعة للقصر، وفي وسط النهر تماماً قارب كبير يجلس في وسطه الإمبراطور أكبر وخلفه أربعة من أتباعه وأحد ملاحى القارب، كما يجلس أمامه أحد أتباعه وهو يقرأ في ورقة يحملها بين يديه - غالباً يقرأ مرسوم العقوبة بإغراق النبيل - ثم نجد اثنين من ملاحى القارب، وفي

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ج ٨ ص ١٢ .

(٢) نظير حسان سعداوى : صور ومظالم، ص ٥٠ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٤، ص ١٦١ .

(٤) فإذا كان المقصود بامرأة سيئة السمعة أنها تحرص على الفسق، فهى في القانون الوضعى الحالى جنحة " مادة ٢٦٩ " عقوبتها الحبس مدة لا تزيد على شهر عن الأفعال المحرصة على الفسق . صابر عمار قانون العقوبات ص ١٤٨ .

(٥) مخطوطة أكبرنامة : بعد أن أسس أكبر مكتبة للوثائق ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م، دعا إلى تدوين الأحداث على مر الأيام في عهده، وكان يعمل في هذا المكتب أربعة عشر موظفاً، الأمر الذى ساعد أبا الفضل أن يستخلص من هذه الوثائق تاريخ الإمبراطور أكبر فكتب له مخطوط أكبرنامة أى سيرة للإمبراطور أكبر على لسان صديقه ووزيره ومؤرخه أبى الفضل، وتتضمن هذه المخطوطة أيضاً التاريخ الباكر للإمبراطورية المغولية .

مقدمة التصويرية مجموعة من المباني لها أسقف جهالونية وقباب، ثم نجد قارباً آخر صغيراً يجلس فيه أربعة أشخاص أحدهم الملاح، وثلاثة أشخاص يمسكون بأحد ذراعي المحكوم عليه وشعره، وأحدهم يهيم بالضغظ بإحدى يديه بقوة على رأس المذنب لتغريقه، بينما قد ارتسم على وجه المذنب الذعر والفرع من الموت، الذي يحاول أن يهرب منه عن طريق التشبث بالقارب الذي يمسكه بإحدى يديه، وهو يكامل ملابسه، ولا يرتدى على رأسه أى غطاء، والحراس الذين يقومون بتغريقه يؤدون مهمتهم بقسوة، وبطريقة تدل على اعتيادهم القيام بمثل هذا العمل .

ومن الأساليب التي استخدمت في القتل في العصور الوسطى، القتل بالتمجاة^(١)، والتمجاة هي خنجر مقوس شبه السيف الصغير المعقوف أو خنجر كبير، وهي من أدوات السلطان وعلامات السلطنة. ومن أمثلة استخداماتها في عملية إزهاق الروح أنها استخدمت في قتل ابن عرام كما استخدمت أيضاً في قتل النساء^(٢)، ونراها مثلة في صورة من المدرسة التيمورية (لوحة ٧) من مخطوطة الشاهنامه المؤرخة سنة ٩٠٣-٩١٠هـ / ١٤٩٧-١٥٠٤م، محفوظة في مجموعة والترشولتز في لينز^(٣) يصور فيها كيخسرو يقتل أحد أعدائه، فنجد في بداية الصورة من جهة اليمين ثلاثة جنود بزيم الحربى وأسلحتهم يمتطون صهوة جيادهم يحيطون بكيخسرو وهو يهيم بقتل العدو الذي يجثو على ركبتيه عارى الجسد يرتدى سروالاً فقط وملامح وجهه تنطق بالفرع، ويديه مقيدتين خلف ظهره ويمسك كيخسرو بشعر رأسه ويضع التمجاة حول رقبته استعداداً لإتمام عملية القتل، بينما يقف أمامه شخص آخر يرفع يديه إلى أعلى ربما مستسلماً وأمامه شكل يشبه

(١) التمجاة : نمجا ونمجة ونمشا ونمشاة ونمشة، الأصل الفارسي : " نيمجة " وهولفظ مركب من " نيم " بمعنى " نصف " و " جة " هي علامة تصغير، ويكون المعنى الحرفي : النصف، وهولفظ فارسي يطلق على السيوف والبنادق الصغيرة ولكن استعمله العرب بمعنى السيف فقط، وفيما يبدو أنها كانت من آلات السلطان الشخصية أو نواب السلطنة . راجع : ابن تغرى بردى : النجوم، ج ٩ هامش ١ ص ٤ / محمد قنديل البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٥٢ .

(٢) راجع : ابن تغرى بردى : النجوم، ج ٨ ص ٨٣، ج ١١ ص ٢٣٣، ج ١٣ ص ٩٠، ج ١٣ هامش ١ ص ٩٠ .

(٣) Walter Schultz: Die Perisch- Islamische miniaturmalerei . Leipzig - 1914 , Tafel (٣)

الدابة وبجواره جزء من بناء معمارى، ومن الملاحظ خروج بعض الأزهار فى الأرض وخروج أجزاء من رؤوس الجنود الممتطين صهوة جيادهم خارج إطار التصوير كما يتدلى من أعلى التصويرة زخرفة نباتية محورة .

ونرى طريقة القتل بالتمجاة أيضاً فى تصويرة أخرى (لوحة ٨) من المدرسة الصفوية مؤرخة ١٠٥٣هـ / ١٦٢٥م من مخطوطة أدبية هى الشاهنامه من عمل رضا عباسى، محفوظة فى متحف طهران وعليها كتابات فارسية بخط نستعليق^(١). وفيها نرى الملك يجلس على العرش فى استراحة مكشوفة لها درابزين أحمر وأرضية مصنوعة فيما يبدو من الخزف الملون ذى الزخارف وخلف هذه الاستراحة المكشوفة أعلى التصويرة نجد صخوراً وأشجاراً ملونة، وعلى مقربة منه يجلس شخص آخر على كرسى، فيما يبدو أنه نائب السلطنة، ويوجد أربعة من الأتباع، وفى مقدمة التصويرة نجد شخصين يجثوان على ركبتيهما أحدهما يقوم بذبح الآخر من رقبته بالتمجاة، ويوجد تحت الرقبة صحن كبير ليسقط فيه الدم أثناء عملية الذبح، وبالفعل يسقط الدم، بينما يحاول المذبوح رفع يد الحارس عن رقبته، كما يحاول إبعاد إحدى ركبتيه التى ارتكز بها بكل قوته على وسط المذبوح حتى لا يتمكن من الهرب، وبالنظر إلى أن القتل قد تم فى حضرة السلطان، لذا فقد استخدم الحارس التمجاة السلطانية فى تنفيذ مهمته^(٢).

ومن الملاحظ أن هذه الساحة المكشوفة ربما هى ساحة الحكم وتنفيذ الأحكام، التى عرفنا مثيلاً لها استناداً إلى ما أشار إليه ابن إياس^(٣) من أن السلطان الغورى رسم فى ذى القعدة سنة ٩١٦هـ / ١٥١١م بشيل الدكة^(٤) بالحوش - من القلعة- والتى كان يجلس فوقها السلاطين للمحاكمات .

(١) سيد عبد المجيد شريف زادة : نامورنامه، لوحة ص ٢١٣ .

(٢) راجع نماذج أخرى للقتل بالتمجاة فى تصاوير أدبية :

حسن الباشا : التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى بدار النهضة العربية ١٩٩٢، شكل ١٢٩ .

(٣) بدائع الزهور: ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٤) وقد جلس فوق هذه الدكة جماعة كثيرة من الملوك نفذوا عليها الأحكام السلطانية، وكانت عوضاً عن كرسى المملكة، ثم بنى مكانها مصطبة بالحجر الفص وزخرفها بالرخام الملون الفاخر ونقش بروزها وألبسها بالذهب، وجعل لها إفريزاً عليه اسمه، وصنع فوقها وزرة من الرخام الملون، ولم يعمل مثلها قط ولا سبقه أحد من الملوك إلى ذلك .

وكان يتم القتل أيضاً بطريقة " الخنق " حيث قتل بهذه الطريقة والى القاهرة الحسين بن على بن الكوراني^(١)، الأمير حسام الدين سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م^(٢)، بسبب الأذى الذى ألحقه بالملك الظاهر برقوق أثناء حبسه فى الكرك - العقوبة هنا لا تتلاءم مع حجم الذنب المرتكب^(٣). وقد توفى الملك الأشرف شعبان بن حسين (تولى ٧٦٤-٧٧٨هـ / ١٣٦٢-١٣٧٧م) مخنوقاً، ثم وضعوه قى قفة وخيطوا عليه ورموه فى البئر أياماً حتى ظهرت رائحته سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٧م^(٤).

الخوزقة

وهى من العقوبات التعزيرية البالغة القسوة فى إزهاق الروح، وبمقتضاها كان المكلف بالتعذيب يعلق المذنب فى حبل مشدود ببكرة أعلى صارى ثم يشد الحبل، فيرتفع المذنب ثم يرخى الحبل فيقع المذنب على أحد الخوازيق التى دقت فى الأرض . والخازوق عصا من الحديد المدبب تدخل فى شرح المتهم، لذا كانت الخوزقة ممكن تنفيذها بطريقة أخرى عن طريق دق الخازوق فى شرح المتهم ببطء حتى تنفذ من الفم، وكان بقاء المتهم حياً حتى يظهر رأس الخازوق من الناحية الأخرى دليلاً على قيام المشاعلى بوظيفته على خير قيام^(٥).

(١) راجع عن الكوراني : المقرئى : السلوك ج٣ ق٢ ص ٧٥٦ سنة ٧٩٣هـ .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل . ج ٥ ص ١٩٣، راجع أمثلة أخرى :

ابن تغرى بردى : النجوم . ج ٨، ص ٢١٩، ج ٩ ص ٢٢١ .

(٣) إذا لم يكن الضرب أو الجرح جسيماً ولم يؤد إلى الموت أو إلى عاهة مستديمة، يعاقب فاعله بالحبس (م

٢٤٢) مدة لا تزيد على سنة أو بغرامة لا تقل عن عشرة جنيهات، ولا تتجاوز مائتى جنيه مصرى .

صابر عمار : قانون العقوبات ص ١٣٩ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١١ ص ٦١ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ٨ ص ١٦٣ .

لىلى عبد اللطيف : المجتمع المصرى، ص ١٠١ / صلاح عيسى : رجال مرج دابق ص ١٣٤ .

البيومى إسماعيل : مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك)، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ١٩٩٧، (جزءان) ج ١ ص ٥٠ .

واستخدمت هذه الطريقة - بصفة خاصة- في إعدام أهل الفساد، وأشهر من استخدم هذه الوسيلة في القتل الأمير يوسف الدين أيدمر القشاش والى كشف الغريبة والشرقية (٧٠٢هـ / ١٣٠٢م)^(١).

وللأسف لم أتمكن من العثور - حتى كتابة البحث- على تصاوير توضح طريقة تنفيذ هذه العقوبة .

النشر بمنشار

ويتم نشر المذنب من رأسه، وقد استخدمها الأمير طومان باى فى عصر السلطان الغورى قى سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م مع جماعة من العربان، أحدثوا بعض الفتن والاضطرابات^(٢)، ولم تصلنا تصاوير توضح طريقة تنفيذ هذه العقوبة .

السلق والحرق والسلخ

من وسائل القتل فى العصور الوسطى الإسلامية التى استخدمت فى إزهاق أرواح المذنبين السلق والحرق والسلخ ومن أمثلتها: السلطان كيكائوس - الأمير عز الدين صاحب الروم (ت ٦١٥هـ / ١٢١٨م)، فقد قام بسلق بعض المقصرين، وجعل جماعة أخرى فى بيت وحرقتهم^(٣) .

ويمكننا أن نأخذ فكرة عن طريقة تنفيذ عقوبة السلق، من خلال تصويرة وصلتنا من المدرسة التيمورية من مخطوط الشاهنامه مؤرخة ٩٠٣-٩١٠هـ / ١٤٩٧-١٥٠٤م، محفوظة فى مجموعة والترشولتز فى ليبزج^(٤) (لوحة ٩)، وفى هذه التصويرة يأمر كسرى بقتل مزدك والتابعين له حيث يقف كسرى وأحد أتباعه وهما يشاهدان مزدك وقد تم تعليقه من رجليه المقيدتين، ورأسه إلى أسفل وقيدتا يديه خلف ظهره وهو عارى الجسد فيما عدا سروال، ونجد بابا معقودا تعلوه شرافات، أمامه شخصان تم سلقهما فى قدور بحيث اختفى رأساهما والنصف العلوى من جسدهما فى ماء السلق ونصفاهما السفليين

(١) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ٨ ص ١٦٣ .

(٢) ابن إياس بدائع الزهور، ج ٤ ص ٥٢ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ٦ ص ١٩٧ .

(٤) Walter schulz : Islamische Miniatur , Tafet. 15 . (٤)

يرتفعان إلى أعلى، وتناثرت في الخلفية أفرع نباتية مزهرة تشير مع الباب المعقود إلى أن العقوبة تنفذ في العراء أى علانية .

أما عقوبة السلخ حتى الموت فهي من العقوبات التى لم يصلنا عنها تصاوير إسلامية، ولكن وصفها لنا شاهد عيان هو الحسن بن الوزان^(١) : وذكر أنها عقوبة خاصة بالقتلة والثوار، فتسلخ جلودهم وهم أحياء، ثم تحشى بالنخالة وتخطأ بحيث تشبه الناس في المظهر، ويضعونها على بعير يطوفون بها المدينة كلها، وهم يعلنون عن الجريمة التى ارتكبها الممثل به، وهذا أقصى عقاب قضائى رأيت في العالم، لأن المحكوم عليه يقاسى كثيراً من الآلام ويظل حياً إلى أن تصل سكين السالخ إلى الصرة فيموت حيناً، ولا يقع هذا إلا بأمر من السلطة العليا، وطريقة السلخ من أساليب القتل التى شاعت في العصر العثمانى في مصر^(٢) وتركيا، والتى كانت تنتهى بإلقاء الجثث في البحر.

ومن الأساليب التى شاعت أيضاً في قتل المذنبين، كحل العينين^(٣)، أى يحمى المروء على النار ويمر بين جفنى الشخص المعاقب فيذهب بصره، وتفنن بعض الولاة في ابتكار أساليب القتل مثل والى القاهرة علاء الدين بن حسن المروانى (ت ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م) وكان ظالماً غشوماً سفاكاً للدماء كما يذكر ابن تغرى بردى^(٤) - فمن عقوباته المهولة أنه كان ينعل الرجل في رجله بالحديد كما تنعل الخيل وتعليق الرجل بيديه، مع تعليق مقابرات^(٥) العلاج في رجله فتتخلع أعضاؤه فيموت .

واقترنت كثير من العقوبات في عصر المماليك بعقوبات سابقة أو لاحقة على إزهاق الروح . فمن أمثلة العقوبات السابقة على القتل :

(١) وصف إفريقيا الجزء الثانى ص ٢٢٠ .

(٢) راجع : عبد الرحمن بن حسن الجبرتى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، دار الكتب المصرية، ١٩٨٩، (أربعة أجزاء)، ج ١، ص ٢١٦ .

(٣) راجع أمثلة ذلك : ابن تغرى بردى، النجوم، ج ١٣ ص ١٢٩ .

(٤) النجوم ج ٩، ص ٢٣٨ .

(٥) مقابرات : ربما يقصد وضع يد أورجل المذنب في القار المغلى، أوروبها المقور جمع مقورة وهى المستخدمة في تقوير الخضر والفاكهة، فيتم دفع أطرافها بين اللحم والأظافر فتتخلع أعضاؤه أو تستخدم آلة لشد الأعضاء بطريقة السحب فتتخلع مفاصله أى تزول من غير بينونة . ابن تغرى بردى، النجوم ج ٩، هامش ١ ص ٢٣٨ .

أنه بعد القبض على المتآمرين ضد الأمير بشتاك بن عبد الله الناصري^(١) (ت ٧٤٢هـ/ ١٣٤٠م)، أودعهم معتقلاً بقلعة دمشق، وضربوا بالمقارع^(٢) ضرباً عظيماً إلى الغاية فى الليل والنهار، مع عقوبة المصادرة لأموالهم، ثم تم قتلهم بالتوسيط^(٣) فى سوق الخيل^(٤).

ومن الأمثلة أيضاً، قام الأمير صرغتمش (ت ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م) بالقبض على الأمير الوزير علم الدين بن زمبور وصادر أمواله ثم سجنه فى موقع مظلم من داره^(٥) - صرغتمش - ثم أخرجه من السجن وفى عنقه باشا^(٦) وجنزير، وضرب عرباناً أمام قاعة صاحب من القلعة، ثم أعيد إلى موضعه وعصر وسقى الماء والملح، ثم سلم إلى شادى الدواوين وأمر بقتله فنوع عليه العذاب حتى توفى (سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م)^(٧).

ورغم القبض على الأمير الوزير صلاح الدين بن عرام^(٨) نائب الإسكندرية (ت: ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م) - لقتله أحد الأمراء^(٩) - فقد ضرب بالمقارع وسمر تسمير هلاك، ثم أنزلوه سوق الخيل وضربوه بالسيوف وقطعوه إرباً وأكل المماليك قطع من لحمه بعد شيه، ثم علقوا رأسه على باب زويلة، وبقيت قطع من لحمه مرمية فى سوق الخيل^(١٠).

-
- (١) راجع ترجمته : بن تغرى بردى : المنهل، ج ٣، ص ٣٦٧ .
 (٢) المقارع : جمع مقرعة، والمقرعة خشبة يضرب بها وكل ما قرعت به وجريدة معقوفة الرأس وأكثرها ما تكون فى كتاب الصبيان . المعجم الوسيط ج ٢، ص ٧٢٩ .
 (٣) ابن تغرى بردى : المنهل ج ٥، ص ٢٢ .
 (٤) سوق الخيل : كان يقع فى منطقة الرملة تحت ساحة القلعة، راجع : ابن تغرى بردى، المنهل ج ٥، هامش ٥ ص ٢٢ .
 (٥) راجع عن دار صرغتمش : سعاد ماهر مساجد مصر وأولياؤها الصالحون . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (٥ أجزاء)، ج ٣، ص ٢٦٩ : ٢٧٠ .
 (٦) باشا : حلقة ذات عروة وذو وكانت الحلقة توضع حول رقبة الواقع تحت العقوبة يربط فيها جنزير : ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١٠، هامش ٣ ص ٢٢١ .
 (٧) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١٠، ص ٢٢١ .
 (٨) راجع ترجمة ابن عرام : ابن تغرى بردى، النجوم، ج ١١، ص ١٨٣ : ١٨٧ . / المقريزى : الخطط، ج ٢، ص ٣٩٣-٣٩٤ .
 (٩) فقد قتل ابن عرام، الأمير زين الدين بركة الجويانى اليلبغاوى بسجن الإسكندرية ودفن دون علم السلطان بقوق، فأمر بمعاقبته . ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١١، ص ١٥٠ .
 (١٠) ابن تغرى بردى : المنهل، ج ٥، ص ٢٦٥ : ٢٦٦ / النجوم : ج ١١، ص ١٥٠ .

وفي عصر الغورى سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣م تم ضبط رجل وامرأة متلبسين بجريمة الزنا^(١)، فطلب الغورى من القضاة الأربعة الحكم بشنقهما، فرفضوا، لأن هذه الجريمة من جرائم الحدود، والمحددة عقوبتها سلفاً في آيات القرآن الكريم، فعزلهم، وأمر بضرب الرجل والمرأة ضرباً مبرحاً، وتشهيرهما بالقاهرة، ومصادرة أموالهما، وفرض غرامة مالية عليهما، ثم أمر بشنقهما، بل أمر الغورى أن يشنقا في جبل واحد، ويجعل وجه الرجل في وجه المرأة، وجاء الناس يتفرجون من كل فج عميق . وانتقد ابن إياس^(٢) هذا الواقعة في أشعاره قائلاً :

لقد صلب^(٣) السلطان من كان زانياً وأظهر في أحكامه مسلماً صعباً
فقلت لأرباب الفسوق تأدباً فحد الزنا قد صار في عصرنا صلباً

أما العقوبات اللاحقة على القتل

فقد اتسمت بالعنف الشديد وروح التشفى والتنكيل والتمثيل بالجثة بطرق غير مشار إليها على الإطلاق في الشريعة الإسلامية، إنها هي - غالباً - وريثة العصبية القبلية والروح المغولية .

وكان يتبع كثير من عمليات القتل بالتمجاة أو السيف، التمثيل بالجثة والرأس المقتولة، وخاصة فيمن أرادوا المبالغة في عقوبته، حيث تأخذ المشاعيلية رأسه وتعلقها على الصارى أو رأس الرمح، وترمى جثته في البحر، أو تلقى جثته في إحدى الطرقات حتى تنهشها الكلاب، أو تطوف المشاعيلية بالرأس على البيوت حتى تتيح للناس فرصة التشفى في صاحب الرأس، أو يعلقون الرأس على باب صاحبها إمعاناً في التشفى فيه .

(١) جريمة الزنا في القانون الوضعى الحالى، جنحة عقوبتها حبس لمدة لا تزيد عن سنتين وبشرط تقديم شكوى من الزوج ليتم القبض على مرتكب الجريمة في حالة تلبس بالفعل أو بالاعتراف أو وجود مكاتبات تثبت ذلك : راجع المواد من ٢٧٣ : ٢٧٧ صابر عمار : قانون العقوبات ص ١٤٨ : ١٤٩ .

(٢) بدائع الزهور، ج ٤، ص ٣٤٨ : ٣٤٩ .

(٣) لفظ الصلب هنا يشير إلى القتل شنقاً .

وقد وصلتنا تصويرة من المدرسة المغولية من مخطوط البيروني " الآثار الباقية "، محفوظ في مكتبة جامعة أدنبرج^(١) بألمانيا مؤرخ سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧-١٣٠٨م، (لوحة ١٠) رسم في خلفيتها بقايا بناء معماري عليه باب معقود مغلق، ينتهي من أعلى بشرافات مدببة، وقد علق فيها رأس آدمية من شعرها، ويمتد البناء فيظهر في أعلاه نافذة مفتوحة وأسفلها يقف رجلان، وقد ارتسمت الدهشة والمفاجأة على وجهيهما، وفي مقدمة التصويرة نجد بقايا الجثة الآدمية ملقاة على الأرض بدون رأس، وبدون ملابس فيها عدا سروال قصير، وخلفها يقف رجلان آخران وقد ارتسمت الدهشة على وجهيهما. والنص العربي التابع للمخطوط يشير إلى وصف المنظر كالآتي: " .. ووعد شفاءه فلم يقدر عليه فجعلت القيود في رجله والجوامع في يديه حتى مات في الحبس فنصبت رأسه على باب السرادق وطرحت جثته في المدرجة تنكيلاً وتمثيلاً."

وعقب مقتل الأمير سنجر بن عبد الله الشجاعى^(٢) المنصور الأمير الكبير علم الدين - وزير الديار المصرية - (ت: ٦٩٣هـ / ١٢٩٣: ١٢٩٤م) ومشد دواوينها ثم نائب سلطنة دمشق، طاف المشاعيلية برأسه على بيوت الناس قاطبة فبلغ اللطمة على وجهه بالمداس نصفاً والبولة عليه بدرهماً. وهذه الوحشية في التمثيل بالجثة دفعت ابن تغرى بردى^(٣) أن ينتقدها بقوله: " هذا غلط فاحش قاتلهم الله ". وقد خالف بذلك المشاعيلية الآداب التي ينبغي أن يكونوا عليها كما أشار إليها السبكي^(٤). ووصل التمثيل

(١) Arnold (S.T.W) and Grohman (A.): The Islamic Book, London , 1929 .Pl 38 .

(٢) راجع ترجمة الشجاعى : ابن حبيب : تذكرة النبى، ج٢، ص ١٧٢ / ابن تغرى بردى : النجوم، ج٨، ص ٥١ / المنهل : ج٦، ص ٨٠ .

(٣) المنهل، ج٦، ص ٨٢ .

(٤) من الآداب التي ينبغي أن يكون عليها المشاعيلية : إذا أمروا بشئ أحد أو تسميره أو النداء عليه، تولوا ذلك، ومن حق الله عليهم، إذا أرادوا قتل أحد أن يحسنوا القتل، وأن يمكنوه من صلاة ركعتين قبل القتل فهي سنة، ومتى أمر ولى الأمر مشاعلياً بقتل إنسان بغير حق، ويعلم إنه مظلوم ولو أكره على ذلك، فالقصاص عليهم جميعاً - عند الشافعى رحمه الله .

السبكي: " أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين " ت ٧٧١هـ / ١٣٠٩م .

- معيد النعم ومبيد النقم . مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٩٨٦، ١٠٩: ١١٠ .

بالجثة حداً أنها كانت تنقل من قطر لآخر للتشهير بها وتعليقها على باب زويلة^(١)، ويمكن بعد قتل المذنب سلخه وحشوه تبناً والتشهير به في هذه الهئية المزرية في البلاد والقرى^(٢).

عقوبتى السجن مع الشغل والحبس أو الترسيم

السجن :

يعرّف المقريزى^(٣) هذه العقوبة بأنها الاعتقال في مكان حرج ضيق .

وهذه العقوبة تعتبر من أكثر العقوبات انتشاراً في العصور الوسطى، وفي كثير من الأحيان كانت تجتمع مع عقوبة أخرى كالتعذيب وإزهاق الروح، أو النفى أو المصادرة أو الغرامة . وكثيراً ما استخدمت هذه العقوبة في الجرائم المالية كعدم دفع الضرائب المطلوبة، لذا كان يرمى الشخص المتقاعس عن دفعها في " طرفة عين داخل السجن "^(٤)، أو يسجن الشخص لعدم تسديد أموال لآخرين، أو لعدم دفع الغرامة المالية المطلوبة، وهو ما وصفه المقريزى " بالحبس على ضمان "^(٥).

وكان يصدر بعقوبة السجن مرسوماً^(٦)، وكل من كان يسجن ولوللحظة واحدة عليه أن يدفع رسماً معيناً، قدّره أبوالمحاسن ببائة درهم، وقدّره المقريزى بستة دراهم سوى كلف أخرى، وظل هذا المكس سارياً حتى أبطله في مصر - لفترة - السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م^(٧).

وكان يتم الإفراج عن المساجين في الجرائم المالية، إذا تم الوفاء بالدين، أو دفعه آخرون، وفي هذه الحالة لم تكن هذه العقوبة عائقاً أمام الشخص في العودة إلى وظيفته التي كانت بيده قبل سجنه، فعندما أفرج الغورى في ربيع الأول - جمادى الآخرة سنة ٨٠٩

(١) راجع : ابن تغرى بردى : النجوم، ج١٣، ص ٢٧١ .

(٢) راجع أمثلة : نظير حسان سعداوى، ص ٥٠ / لى عبد اللطيف : المجتمع المصرى، ص ١٠٠ .

(٣) الخطط، ج ١ ص ٢٤ .

(٤) كمينوفا (ل. ا) : صلاح الدين والماليك . ترجمة حسن بيومى المجلس الأعلى للثقافة سنة ١٩٩٨، ص ٨٥ .

(٥) المقريزى : الخطط، ج ٢ ص ١٨٧ .

(٦) راجع : ابن تغرى بردى : المنهل، ج ٥ ص ٣١١ .

(٧) سعيد عاشور : المجتمع المصرى، ص ٩٧ .

هـ/ ١٥٠٢م عن فخر الدين كاتب الممالك حتى أوفى ما عليه من مال، خرج واستمر في وظيفته^(١).

أما إذا لم يستطع المسجون دفع ما عليه من مال أو كان مسجوناً لسبب آخر، فكان يمكن الإفراج عنه بالشفاعة أو بالفدية، أوفى بعض المواسم والأعياد حيث كان السلاطين والحكام يفرجون عن بعض المساجين ذوى الجرائم البسيطة ظناً منهم أنها وسيلة من وسائل القربى إلى الله تعالى.

ومن أمثلة ذلك أن أرزمك التركى المسجون، قتل في رمضان سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م السجنان وهرب، ولكن بعد أيام من هروبه أرسل يطلب الأمان من السلطان، وقد شفع فيه الأتابكى قرقماس فعفى عنه السلطان من القتل ورسم بنفيه^(٢).

كما كان بعض أصحاب الوقف يخصصون جزءاً منه يدفع نظير خلاص المسجونين وافتدائهم^(٣).

وأحياناً يكون الإفراج بدون سبب حتى لا تمتلئ السجون بالمحاييس، وفي هذه الحالة كان المفرج عنهم يوجه إليهم تهديداً بالتوسيط، إذا ما عادوا مرة أخرى لارتكاب الجرائم، الأمر الذى فعله والى القاهرة دولات حُجا بن عبد الله الظاهرى سيف الدين (ت ٨٤١ هـ/ ١٤٣٧م)، فقد نفذ تهديده ووسط جماعة سبق أن أفرج عنهم، لأنهم عادوا لارتكاب الجرائم^(٤).

أما مدة العقوبة فى السجن : لم تكن المدة محددة بحجم الجريمة، وغالباً لم تكن مكافئة لحجم الجريمة، بل عادة ما تفوقها حتى وصلت هذه العقوبة أن أصبح السجن مدى

(١) ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٤ ص ٤٢ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٤ ص ٧٢ .

(٣) راجع : وثيقة وقف باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون مؤرخة فى ١٠ جمادى الآخرة ٧٢٤هـ، فى سطرى ١٠١/١٠٠ يشير النص إلى تخصيص نصف سهم لخلاص المسجونين . منشورة فى : ابن حبيب : " الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر " (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) - تذكرة النبيه فى أخبار المنصور وبنيه . نشر وتحقيق محمد محمد أمين (٣ أجزاء) . طبعة دار الكتب ٧٦ : ١٩٨٦، ج ٢ ص ٣٨١ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل، ج ٢ ص ٣٣٠ .

الحياة . فإذا لم يجد المسجون من يشفع له أو يدفع له دية، ربما يترك منسياً في السجن طيلة حياته حتى وفاته^(١). فقد ظل الأمير بيبرس الحاجب مسجوناً في عصر الناصر محمد لمدة خمس وعشرين سنة حتى أفرج عنه في رجب سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٥م، كما أفرج عن الأمير طغلق التتارى أحد الأمراء الأشرفية الذى ظل مسجوناً لمدة ثلاث وعشرين سنة، وتوفى بعد الإفراج عنه بأسبوع، ربما من شدة الفرح - كما يعتقد ابن تغرى بردى^(٢) - وظل الشيخ ابن تيمية^(٣) محبوساً في قلعة دمشق - بسبب فتاويه - حتى توفى في السجن سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م^(٤).

ولذلك ظل المحاييس يترقبون الفرص السانحة للهروب، وخاصة أثناء نشوب الثورات والاضطرابات التى كانت تمر بها مصر - أحياناً - فى العصور الوسطى، ففى القاهرة هرب المحاييس خلال الغوغاء التى حدثت سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨-١٣٨٩م ضد السلطان برقوق فى أواخر سلطنته الأولى، حيث قطع المحاييس قيودهم وكسروا أبواب الحبس وخرجوا جملة واحدة ولم يردهم أحد " فى حبس الديلم والرحبة وخزانه شهابيل"^(٥).

(١) الحبس غير محدد المدة تطبيقاً لنظرية العقوبة غير محددة المدة التى عرفتها القوانين الوضعية فى أواخر القرن التاسع عشر، فكان الحكام المسلمين فى العصور الوسطى سبقوا القوانين الوضعية لهذه النظرية بثلاثة عشر قرناً تقريباً، فهى لها وظيفتان الاستئصال والإصلاح، فمن كان قابلاً من المجرمين للإصلاح، كانت عقوبته مؤقتة ومن كان غير قابل للإصلاح تؤبد عقوبته.

عبد القادر عودة : التشريع الجنائى، ص ٦٩٧ .

(٢) النجوم، ج ٩ ص ٨٧ .

(٣) ابن تيمية : راجع ؛ بدر الدين العيني : " محمود بن أحمد بن موسى " (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) .

- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان . تحقيق محمد محمد أمين، صدر منه (٤ أجزاء) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ٨٧ : ١٩٩٠، ج ٢ ص ١٦٠ .

- ابن حجر، ج ١ ص ١٠٢ ترجمة ٤٠٩ .

(٤) ابن حبيب : تذكرة النبىء، ج ٢ ص ١٦٠ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١١ ص ٢٣٢ .

الحبس^(١) أو الترسيم

لذا اختلف الحبس أو الترسيم عن السجن في مدة العقوبة التي يجب أن يمضيها المذنب فيها، فالترسيم - كما يذكر المقرئى^(٢) - هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه - مثل الحبس الاحتياطي أو الحجز حالياً - ولذا لم يكن له وقت محدد، فقد يكون قصير الأجل كساعة أو يوم، أو طويل الأجل كشهر أو سنة أو مضاعفاتها. ففي خلال فترة الترسيم يتم تحديد مصيره، هل يفرج عنه أو يقتل، واختلف أيضاً الترسيم عن السجن في المكان المنفذ فيه العقوبة، فقد كان الترسيم يتم في أماكن أفضل كثيراً من السجون. فقد تم ترسيم ابن السلعوس في المدرسة الصحابية سنة ٦٩٣هـ / ١٤٧٢م، وكان الترسيم يتم أيضاً في المدارس الأخرى كالصالحية والحجازية والشريفية أو قاعة الصاحب أو دار الوزارة أو قاعة الذهب أو قاعة الخزندار بدار السعادة والغداوية والنجبية الجوانية^(٣).

حياة المساجين داخل السجون :

كان من المفروض أن تكون حياة المساجين حياة لا ثقة فيها قدر من احترام آدمية الإنسان من قبل السجنان، وهو افتراض نابع من الآداب التي أشار إليها السبكي^(٤) والتي يجب توافرها في مهنة السجنان، " فعليهم الرفق بالمحبوسين ولا يمنعهم الجمعة إلا إذا منعهم القاضي من ذلك - وقد أفتى بذلك الغزالي - ولا يمنع المحبوسين من شم الرياحين إن كان مريضاً، ويمنع من استمتاعه بزوجه دون دخولها لحاجة له، وإذا علم السجنان أن المحبوس حبس بظلم كان عليه تمكينه بقدر استطاعته، وألا يكون شريكاً لمن حبسه في الظلم. "

(١) الحبس في القوانين الوضعية الحالية : هي عقوبة للجرائم التي تعد جنح، فيوضع المذنب في أحد السجون العمومية المدة المحكوم بها عليه ولا يجوز أن تنقص هذه المدة عن أربعة وعشرين ساعة ولا أن تزيد على ثلاث سنين . راجع: صابر عمار : قانون العقوبات، ص ١٠ .

(٢) الخطط : ج ١ ص ١٨٧ .

(٣) راجع : ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٤ ص ١٤٦، ١٤٩، ١٨٤، ١٤٧، ٢٠٢، ٣١٧ .

البيومي إسماعيل : مصادرة الأملاك، ج ١ ص ١٦٥ : ١٦٧ .

(٤) السبكي : معيد النعم، ص ١٠٩ .

ولكن الصورة التي نقلها لنا المقریزی^(١) عن الحياة داخل السجون تختلف تماماً عما أشار إليه السبكي، فيذكر المقریزی أن المساجين كانوا يجمعون في موضع ضيق عليهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة يرون عورات بعضهم البعض، وعليهم أن يقوموا ببعض الأشغال حسب رضى السجان، ومن لم يرض عنه بالغ في عقوبته واستعمله في الأعمال الشاقة في الحفر وبناء العماثر وغيرها، وهم في الأصفاد، حتى إذا ما انتهى عملهم رودوا إلى السجن .

ورغم الأعمال الشاقة التي كان يؤديها المساجين، إلا أن الطعام لم يكن متوفراً بالنسبة لهم، بل عانى الكثير منهم الجوع إلى الحد أن الجوع كان سبباً في موت الكثير منهم، مثل الأمير سلالر بن عبد الله المنصوري الأمير سيف الدين نائب السلطنة بالديار المصرية، فبعد أن صادر الملك الناصر محمد بن قلاوون أمواله، اعتقله بالقلعة حتى مات جوعاً فيها^(٢) .

لذا كثيراً ما استغل السجان جوع المساجين ليخرج بهم إلى الطرقات - وهم في الحديد - يصرخون حتى يتصدق عليهم الناس بالطعام والأموال، فيترك لهم ما يسدون به رمقهم، ويستبقى الباقي له ولأعوان الوالى^(٣) . وكان الجوع يبلغ حداً بالمساجين إلى الصراخ والشكوى، بل وصل إلى الحد أنهم كانوا يقتلون سجانهم ويهربون من السجن عن آخرهم^(٤) .

وكان السلاطين يتصدقون عليهم بالطعام والخبز، أو يتم إطعامهم من الأطعمة التي تمت مصادرتها من بضائع مغشوشة^(٥) .

(١) الخطط، ج ٢ ص ١٨٧ / على إبراهيم حسن : تاريخ الممالك البحرية، ص ٤٠٣ .

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج ١ ص ٢١٤ .

(٣) قد شاهد الحسن بن الوزان استخدام المساجين في أغلالهم لسؤال الناس الصدقات، وخاصة مع المذنين من أجل الدين، فكان قائد السجن يدفع الدين عنهم ويحتفظ بهم في السجن ليشحذ بهم .

راجع : وصف إفريقيّا، ج ٢ ص ٢٢١ .

(٤) المقریزی : الخطط، ج ٢ ص ١٠٢ / عبد المنعم ماجد : سلاطين الممالك، ج ١ ص ١٣٥ .

(٥) عبد المنعم ماجد : سلاطين الممالك، ج ١ ص ١٣٥ .

كما سبق يتضح لنا أن السجناء في العصور الوسطى - يغلب عليهم الفظاظة والقسوة والعنف واللامبالاة وعدم تقدير آدمية الإنسان . ولذلك فقد نجح إلى حد كبير المصور المسلم في التعبير عن شخصية السجناء القميمة من خلال بعض تصاوير المخطوطات التي وصلتنا من المدرسة المغولية الهندية في هيئة توحى بهذا المعنى، فقد وصلتنا تصويرة من مخطوطة حمزة نامة، والراجح تأريخها فيما بين ٩٧٠-٩٨٥هـ / ١٥٢٦ - ١٥٧٧م (لوحة ١١) محفوظة في متحف الفريز جاليري بواشنطن^(١)، تصور أحد الأشخاص يحمل الخاتم إلى السجناء الذي يجلس في صحن السجن وحوله مجموعة من المناظر لبعض الأتباع والمساجين، وفي أحد هذه المناظر يقوم الأتباع بتقييد بعض المساجين من أرجلهم وأيديهم بالقيود، ويبدو على هذا السجن أنه مكان طيب نسيماً، والمساجين في حالة جيدة وهم يرتدون كامل ملابسهم، ويلاحظ في هذه التصويرة أن السجناء هو الشخص الوحيد الضخم الجثة - في حين أن باقي الرجال حوله صغار الحجم - وذو بشرة سوداء اللون، ويبدو على وجهه القسوة والعنف والجبروت - وقد سبق أن رأينا السجناء ذا البشرة السوداء في (لوحة ٢) - وصورت قاعات السجن في هذه التصويرة بمنظور أشبه بالمنظور العلوى للعمارة، ويلاحظ الحركة الشديدة من خلال المناظر المتعددة والأشخاص الكثيرين بحركاتهم المختلفة .

ملابس المساجين :

من خلال ما أشار إليه المقرئى^(٢) : كان المساجين يقيدون بالسلاسل الحديد ويعانون العرى والقمل والملابس الرثة القليلة التي تستر عوراتهم كما يتبين لنا ذلك من تصاوير بعض المخطوطات التي وصلتنا منها : تصويرة (لوحة ١٢) من المدرسة المغولية من شيراز مؤرخة ٨١٣هـ / ١٤١٠م من الشاهنامه، محفوظة في مجموعة جيلبيكيان (بالمتحف البريطانى بلندن)^(٣)، تصور مجموعة من المساجين يقفون أمام خسرو، فنجد في هذه التصويرة خمسة مساجين، اثنان يقفان في مقدمة التصويرة مكشوفاً الرأس، حفاة، بدون

(١) ثروت عكاشة : التصوير المغولى، لوحة ٤٨ .

(٢) الخطط، ج ٢ ص ١٠٢ .

(٣) Basil Gray : La peinture persan . Geneva , 1977, pl.77 .

ملابس سوى جزء من ثياب يستر من بعد السرة حتى قبل الرقبة، وقد تم تقييدهما من خلال طوق حديدي غالباً يدور حول الرقبة، ويخرج منه سلسلة يتم بها تقييد اليدين، كما يوجد طوق غالباً حديدي يقيّد رجلى كلاً منهما، وهما مطأطئى الرأس إلى أسفل، ويقف فى محاذاتهم خسرو وقد استندت يده اليمنى على مقبض سيف - غالباً - وملقى على أرضية مقدمة التصويرة سجين آخر عارى الجسد وقد تم فصل جسده عن رأسه ومازالت آثار دمائه واضحة - وخلف السجينين، يوجد ثلاثة مساجين آخرين بنفس الهيئة، ولكن بدون قيود، ويلاحظ على جميع المساجين، أن أجسامهم هزيلة وملاصحتهم كسيرة، والمنظر يدور فى الخلاء فى أرض حجرية تتناثر فيها أوراق الشجر والزهور، ولها خلفية تعبر عن امتداد السماء التى يتوسطها شجرة. ويحيط المساجين وخسرو ومجموعة من الأتباع وهم يتناقشون ويتجادلون وينظرون فى ترقب لهذا الموقف الدموى. ورسم المنظر فى الخلاء -ربما- إشارة إلى علانية تنفيذ العقوبة.

وفى بعض الأحيان كان المساجين يتخذون من قيودهم سلاحاً يضربون به سجانهم وحراسهم . وعندما يراد زيادة تعذيب أحد المساجين يتركونه ينام على البلاط فى عز البرد من غير فرش^(١) . نستنتج من ذلك أن المساجين يعانون قلة الملابس وعدم الاهتمام بنظافتها وأونظافة أجسامهم مع الجوع وسوء المعاملة .

وكان السجن إما جماعياً أو انفرادياً، والأخير يعد من أقسى أنواع السجون على نفس المسجون، حتى إنها كانت تؤدى إلى هلاكه، وليس أدل على ذلك من أن الشيخ خضر بن أبى بكر محمد بن موسى المهرانى^(٢)، صاحب الزاوية بزقاق الكحل، اعتقله السلطان بيبرس وأمر بحبسه انفرادياً، ومنع دخول أى شخص إليه، إلا من يثق فيه الظاهر غاية الوثوق وصار يرسل إليه الأطعمة الفاخرة والفواكه والملابس، ومع ذلك توفى فى الحبس سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م^(٣) .

(١) راجع : ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١١ ص ٢٣٢، ج ١١ ص ١٥١ .

(٢) الشيخ خضر المهرانى : راجع ترجمته : ابن تغرى بردى : النجوم ج ٧ ص ٢٧٦ / المقرئى : السلوك، ج ١ ق ٢ ص ٧٠٨، الخطط، ج ٢ ص ٤٢٩، ٤٣٠ / ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج ١ ص ٣٣٩ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل، ج ٥ ص ٢١٨ : ٢٢٠ .

أنواع وأماكن وعمارة السجون

عرفت العصور الوسطى نوعين من السجون هما :

١- سجون كبار رجال الدولة والأمراء :

ومن أمثلتها في مصر خزانة البنود^(١)، وسجون أبراج القلاع، ففي جميع بلاد العصور الوسطى الإسلامية كانت السجون توجد في القلاع وأبراجها بصفة خاصة، مثل سجن الجب^(٢) في قلعة الجبل، وفي البرج الأحمر من القلعة حيث سجن شجرة الدر^(٣) قبل مقتلها، وسجن قلعة الإسكندرية^(٤)، وسجن قلعة دمشق^(٥)، وقلعة الصبيبة، وقلعة بانياس بالجولان وحبس الأكراد في قلعة المرقب من طرابلس^(٦)، مع تخصيص أماكن أخرى داخل القلاع كسجون مثل سجن العرقانة^(٧) في الحوش السلطاني من القلعة، كما خصصت إحدى قاعات القصر الكبير في قلعة الجبل كسجن، كما وجدت سجون في بيوت كبار الأمراء مثل سجن دار صرغتمش^(٨)، والزردهان، وسجن برجي طويقابوسراي باستانبول، وسجن تتر الحجازية، فقد تم تحويل هذه الدار في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق سجناً لأرباب الدولة المغضوب عليهم^(٩). كما وجدت سجون في الأقاليم مثل: سجن دمياط، وسجن الفيوم^(١٠).

(١) راجع المقرئى : الخطط، ج ١ ص ٤٢٣: ٤٢٥ .

(٢) المقرئى الخطط، ج ٢ ص ٢١٣ / على إبراهيم حسن : الممالك البحرية، ص ٤٢ .

(٣) البرج الأحمر : بناء الملك الكامل بن العادل أبى بكر بن أيوب ويعرف حالياً باسم "برج المقطم"،

ابن تغرى بردى : النجوم، ج ٦ هامش ١ ص ٣٣٦ .

(٤) راجع : ابن تغرى بردى : المنهل، ج ٤ ص ٢٢٤: ٢٢٥ .

ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٤ ص ٢١ .

(٥) راجع ابن تغرى بردى : المنهل ن ج ٣ ص ٣٦٧ .

(٦) راجع : ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٢ ص ٢٣٢ .

(٧) راجع : ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٤ ص ٦٣، ٧٥ .

(٨) راجع : ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١٢ ص ٧١ .

(٩) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٧١ .

(١٠) راجع : ابن تغرى بردى : النجوم ج ١١ ص ٣١٠ / ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٤ ص ٧٢ .

٢- سجون العامة وأرباب الجرائم والسراق :

ومن أمثلتها: حبس المعونة بمصر، وحبس المعونة بالقاهرة، وحبس الصيار، وخزانة البنود، وسجن المقشرة، وحبس الديلم والرحبة^(١).

ومن الملاحظ أن أغلب هذه السجون هي قاعات أو مخازن بداخل أبنية، أو داخل قصور، أو منازل، ومن ثم فمن الراجح أن مثل هذه الأماكن لابد أن تكون مسقوفة، وغالباً لها نوافذ قليلة ضيقة عليها مصبغات معدنية تفتح في أعلى الجدران حتى لا تتمكن المسجون من الهرب، ومساحتها ربما تكون ضيقة بالنسبة لأنه كان يوضع فيها عدد كبير من المساجين معاً. فقد وصف المقریزی^(٢) سجن المقشرة بأنه من أشنع هذه السجون وأضيقها.

وقد وصلتنا تصويرة من المدرسة التركية متزوعة من مخطوطة محفوظة في متحف طوبقابوسراي باستانبول من القرن ١٠ هـ/ ١٦م^(٣) تحتوي على صورة لإحدى الشخصيات الهامة في الدولة العثمانية (لوحة ١٣)، وهو مسجون يجلس بملابسه العثمانية الطراز من حيث العمامة الضخمة، في وضع جانبي خلف نافذة عليها مصبغات معدنية، ويظهر من الرسم أن السجن له سقف جملوني وقد بنى بالأحجار والأجر وأن حجرة السجن تقع في الطابق العلوي، لأن الطابق السفلي رسم له نافذتان، كما يوجد خلف باب السجن حجرة أو بناء مسدود كله بالأسلاك أو الحديد المتشابك.

في حين أن القليل من السجون الذي يقع أسفل الأرض يطلق عليه "الجب"^(٤)، وبالتالي هو كالبئر العميق، ليس له سقف، وينزل فيه المسجون عن طريق الحبال مثل

(١) راجع: المقریزی: الخطط ج ١ ص ٤٢٥، ج ٢ ص ١٨٨ / عبد المنعم ماجد: سلاطين المماليك، ج ١ ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) الخطط، ج ٢ ص ١٨٨.

(٣) Metin And: **Turkish minitature painting** (The Ottoman period), Istanbul 1987, (٣) fig.50.

(٤) الجبّ: البئر الواسعة (ج) أجاب وجباب وجبة. المعجم الوسيط ج ١ ص ١٠٤ / ورد ذكر الجب في آيات القرآن الكريم سورة يوسف آية ١٠، ١٥.

سجن الحب بقلعة الجبل، فقد وصفه المقرئى^(١) بأن الدخول إليه كان عن طريق النزول بطريق التلى - أى يدلى بالأحبال ثم يرفع بها أيضاً - ومثل هذه السجون تكون مهولة وشنيعة وحالكة الظلام وذات روائح كريهة، نظراً لعدم وجود سقف لها، لذا يتأذى المساجين فيها من حر الصيف وبرد الشتاء، بالإضافة لامتلائها بالوطاويط، وقد وصلنا نموذج مشابه تماماً لمثل هذه السجون فى صورة من الشاهنامة للفردوسى مؤرخة فى ٩٠٢ - ٩١٠ هـ / ١٤٩٧ - ١٥٠٤ م محفوظة فى مجموعة والتر شولتز فى ليزج^(٢) وعليها كتابات فارسية بخط نستعليق من المدرسة المغولية (لوحة ١٤)، ورغم أنها تصور مشهد من مشاهد القصة الأدبية الفارسية، لكن المصور الذى رسمها فى القرن العاشر الهجرى غالباً كان متأثراً بالمظاهر الحضارية السائدة فى عصره، من خلال رسم السجن الحب الذى يعد من أقدم السجون المعروفة قبل الإسلام، وفى الصورة يقوم بيزن - الذى يرتدى غطاء رأس له وجه فهد - بإسقاط سجين فى الحب . وقد رسم هذا السجن وله فتحة فى مستوى سطح الأرض ضيقة غالباً، فيكاد ينزل من خلالها شخص واحد، إلى ما يشبه البئر فى باطن الأرض، ونرى بيزن وهو يمسك بإحدى طرفى حبل، بينما الطرف الثانى من الحبل نجده ملفوفاً على معصم السجين وجسده عار تماماً إلا من سرواله، وهو يجلس بداخل الحب، الذى رسم على هيئة بئر جاء تخطيطه على شكل مستطيل غير منتظم الأضلاع، ونجد آلة تلتف حول رقبة سجين الحب - ربما هى شكل من أشكال المعصرة - وهذه الآلة طرف سفلى يلتف حول معصم السجين، ويقف حول بيزن اثنين من الجنود أو الحراس، وأمامه امرأة فيما يبدو تبكى لأنها تمسح بطرف عباها دموعها، وبجوارها ثلاثة جنود آخرين، ظهرت عليهم علامات اللامبالاة وهم يتناقشون .

٣- عقوبات تعذيبية جسمانية ونفسية :

وقد تعددت أنواع وأشكال هذه العقوبات، ومنها :

(١) الخطط، ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) . ١٤ . Walter Schulz : Islamische miniatur, tafel.

عقوبة التشهير والتجريس^(١)

عقوبة تعزيرية استخدمت بصفة خاصة في مواجهة ظاهرة انتشار الكذب وشهادة الزور، وفي الجرائم المالية كالرشوة والاختلاس وغش الأطعمة، وكثيراً ما كان المحتسب يوقع هذه العقوبة على البائعين المخالفين في الأسواق، ومع ذلك كثيراً ما استخدمت في الجرائم الأخرى، فبعد صدور أمر الترسيم أو السجن أو العقوبة أياً كانت، بعدها ينقل المذنب محمولاً ومقيداً - مشهوراً - إلى مكان السجن أو الترسيم أو مكان تنفيذ العقوبة، ويحاط بالأعوان لكي لا يهرب، وغالباً ما يصاحب هذا السير عقوبة الضرب أو أى وسيلة عقابية أخرى .

ويتم التشهير في الطرقات والشوارع بين العامة عن طريق إجلال المذنب على دابة، حمار أو ثور أو جمل، أو سائراً على أقدامه، ووجهه للخلف، بعد حلق لحيته زيادة في إهانته، ويضرب الجرس على رأسه كي يجتمع الناس حوله، ويضرب بالسياط، أو يمد المذنب على لوح من الخشب تسمر فيه رجلاه وذراعاها ويربط اللوح على ظهر الدابة ويعلق في عنقه ماشة وهون أو جرة خمر، وأحياناً تزفه المغاني والمشاغيلة تنادي، فإذا كان المذنب قاضياً : نودى عليه : " هذا جزاء من يزور المحاضر "، أو " هذا جزاء من يتهرب من الشرع "، أو يلصق في ظهر المذنب وثيقة زواج مزورة .

ويعد هذا النوع من العقوبات من أقسى العقوبات التي عرفت في العصور الوسطى ولم يستخدمها المحتسب مع أرباب السوق فحسب، فقد استخدمت مع جميع شخصيات المجتمع في العصور الوسطى، وليس أدل على ذلك من أن السلطان الأشرف خليل (حكم ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩١ - ١٢٩٣ م) أمر بأن القاضي تقى الدين عبد الرحمن الشافعي بن بنت الأعز يركب حمار ويشهر^(٢) .

وقد وصلتنا صورة من المدرسة الصفوية من تبريز من ألبوم سراي تصور لنا هذه العقوبة أو ضح تصوير، وهذه الصورة محفوظة في متحف طوبقابوسراي

(١) التجريس : من جرس أى جرس بالقوم : سمع بهم وندد والجرسة : التسميع والتنديد بمن اقترف ما ينافي المروءة . المعجم الوسيط، ج ١ ص ١١٧ .

(٢) البيومي إسماعيل : المصادرات، ج ١ ص ٥١ .

باستنبول^(١)، ترجع إلى النصف الثاني من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى (لوحة ١٥)، تصور ثلاثة أشخاص يتم التشهير بهم، وهم عراة لا يستر جسداهم سوى سراويل، وحفاة الأقدام، بدون لحية ومقيدى الأيدي، وكل واحد منهم مربوط حول رقبته وشاح يشده شخص آخر غالباً المشاعلى، بينما يوجد مشاعلى مع كل مذنب يقوم بضربه بالسوط، واثنان من المشهر بهم مترجلين، بينما أحدهم يركب حماراً ووجهه عكس وجه الحمار وهو يرتدى على رأسه طرطور أحر طويل مركب فيه أجراس صغيرة، بينما المترجلين يلبسون طواقى حمراء، وقد ارتسم الحزن والأسى على وجوههم، وخلف هذا المركب يمتطى شيخ طاعن فى السن حصاناً وخلفه تابعه، وفيما يبدو أنه أحد أتباع الوالى حيث يراقب صحة تنفيذ العقوبة، فقد ارتسم على وجهه علامات الاهتمام والمتابعة لما يدور حوله، ومن الملاحظ أنه يوجد بين المشاعيلية القائمين بالتنفيذ، غلام يمسك فى يده شئ أشبه بالصاجات لإحداث جلبة وصوت يجذب المارة والناس للفرجة، وبالفعل نجد فى خلف التصوير مجموعة من العمائر والمنازل السكنية قد شيدت بجوار بعضها البعض، إشارة إلى علانية العقوبة، وأنها منفذة وسط منطقة عامرة بالسكان ليشهد أكبر قدر ممكن من الناس على تنفيذ العقوبة، ونجد مجموعة من الرجال والنساء قد خرجوا من هذه البيوت للفرجة، وبعضهم يقف فوق أسطح العمائر، وبعضهم يحاول قذف أشياء فى أيديهم على المذنبين، كنوع من المشاركة فى التشفى والانتقام من أصحاب الجرائم، وبعض النسوة ينظرن من خلف الأبواب المفتوحة، وأشخاص أخرى تنظر من خلف الجدران، وأحدهم ينظر من النافذة، بينما أكثرهم يتفرج من فوق أسطح العمائر^(٢). ويلاحظ على وجوه المتفرجين مشاعر الفرح والشجاعة وعدم التصديق لما يحدث، والألوان الزاهية فى رسوم هذه التصويرة يعطى إيماء بأن المشهد يدور فى وضوح النهار .

(١) Dasbild Imislam : "Ein Verot und Seine Folgen Istanbul museum lur kischen", (١) islamischer kunst , Britian , 1980, tafel. 83 .

(٢) نلاحظ فى هذه التصويرة أن هذه العمائر " الإيرانية " بعضها ينتهى بأسطح مكشوفة، والبعض الآخر يحتوى أعلاه على منور، وعدد كبير منهم ينتهى بقباب تنوعت زخارفها، وأغلب الجدران الخارجية لهذه العمائر شيدت بالآجر، فى حين أن البعض الآخر قد كسى من الخارج فيما يبدو بطلاط خزفية ملونة، وقد استخدمت أيضاً فى زخرفة أحد قباب هذه العمائر فهى تعطينا فكرة عن أشكال المنازل الإيرانية فى العصر الصفوى .

كما وصلتنا تصويرة أخرى تصور التشهير والتجريس وخاصة في الأسواق من قبل المحتسب، تصويرة (لوحة ١٦) من مخطوطة " مجالس العشاق " صورت لحسين بايقرا سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م بأسلوب المدرسة الصفوية في شیراز^(١). وهى محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس، وهى تصور بناءً معماريًا له سطح ويتخلله ثلاثة حوانيت تعلو عن سطح الأرض، ويظهر في أول هذه الحوانيت - جهة اليمين - شخصان يقومان بطباعة المنسوجات وفي الحانوت الثانى تتم عملية شراء للمنسوجات بين تاجر وبائع، وفي الحانوت الثالث يظهر شخص يجلس، وخارج الحوانيت في السوق، نرى مجموعة من الأشخاص، من بينهم على يسار التصويرة من أسفل نجد أحد المذنبين حيث يتم تجريسه وهو حافى القدمين ويرتدى غطاء رأس كالطرطور تخرج منه زوائد - أجراس -، وتم تقييد يديه في لوح خشبى، ويدور حول رقبته حبل يتدلى طرفاه حيث يمسك بها أحد أتباع المحتسب، وخلف المذنب رجل يمسك سوط في إحدى يديه ويقوم بضرب المذنب الذى يتقدمه غلام يمسك بين يديه بأحد الطبول ويضرب عليها لجذب أنظار الناس للتأكيد على علانية العقوبة، بينما الشخصان اللذان خلف هذا الموكب، والثلاثة أشخاص الذين يقفون فوق سطح البناء يشاهدون العقوبة في حالة من الدهشة والاستغراب، بينما يمارس باقى الأشخاص حياتهم داخل السوق في حالة من اللامبالاة، بسبب تركيزهم في الأعمال التى يقومون بها، فهناك شخص يحمل في يده شئ كالحقية كمن ينادى على بضاعته، وسقاء يقوم بصب الماء لآخر في إناء، ويعلوا التصويرة سطران من الكتابة الفارسية بخط نستعليق يتضمن معناها وصف عقوبة التشهير .

وأحياناً كان يتجمع التسمير مع التشهير في وقت واحد، ففي محرم سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م قبض السلطان الظاهر برقوق على جماعة من المماليك، وضربهم بالمقارع لأنهم اتفقوا على الفتك به، وسمرهم، وأركب كل مملوك على جمل ظهر أحدهم إلى ظهر الآخر، ثم بعد التشهير وسطوا جميعاً^(٢) .

(١) Patricia L. Baker : Islamic textiles , British museum , 1995, pl p 22 .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١١ ص ١٩٩، راجع نماذج أخرى : نفس المصدر، ج ١١ ص ١٩٣ - ١٩٤ .

ولم تسلم النساء المذنبات من تنفيذ هذه العقوبة عليهن مع تلطيخ وجوههن بالسواد، وخاصة في الجرائم الخلقية^(١).

وكانت تعتبر هذه العقوبة متنفساً للناس عن روح التشفى والغل المكبوت في الصدور فضلاً عن الفكاهة والتسلية.

التسمير

التسمير عقوبة من العقوبات التعزيرية والتي اقترنت، في أغلب الأحيان، بعقوبات أخرى، مثل: التسمير مع التوسيط، أو التسمير مع التشهير، أو مع قطع اللسان^(٢)، أو الضرب بالمقارع.

وتنفذ هذه العقوبة - غالباً - بعد نزع ثياب المذنب، فيما عدا ما يستر عورته، ثم يربط على خشبتين على هيئة صليب - أى يصلب - ثم تدق في أعضائه مسامير غليظة تربطه بالخشب، وأحياناً يعلق على باب حانوت، إذا كان من أصحاب الحرف، وفي هذه الحالة كان المحتسب هو الذى يوقع العقوبة^(٣).

وكان التسمير نوعان، النوع الأول هو: تسمير عطب أو تسمير هلاك^(٤)، أى يسمر المذنب تسميراً يؤدي إلى موته. أما النوع الثاني فهو: تسمير عصر أو سلامة، أى لا يؤدي إلى الموت، ومن أمثلته ما حدث سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠١م عندما أثار بعض المماليك الفتنة في دمياط، أمر السلطان فرج بن برقوق بتسميرهم تسمير سلامة، ثم عاد وأطلقهم، وحبسهم في خزانة شميل^(٥). وفي هذا النوع من عقوبة التسمير، يمكن أن تحدث شفاعة من آخرين للمذنب، فينزعو عنه المسامير ويفرج عنه، أما إذا لم تحدث الشفاعة، يتم

(١) ليلي عبد اللطيف: المجتمع المصرى، راجع أمثلة:

ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤ ص ٣٤٢، ٤٦٦.

(٢) راجع أمثلتها: ابن تغرى بردى: المنهل، ج ٢ ص ٣٢١.

(٣) ليلي عبد اللطيف: المجتمع المصرى ص ١٠١ / البيومى إسماعيل: مصادرة الأملاك، ج ١ ص ٥٤.

(٤) راجع أمثلتها: ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١١ ص ١٥٠.

(٥) ابن تغرى بردى: المنهل، ج ٦ ص ٣٩.

توسيطه، أو تنفذ عقوبة أخرى عليه، وقد استخدمت هذه العقوبة مع النساء كذلك^(١)، ولم تصلنا تصاوير إسلامية عن طريقة تنفيذ هذه العقوبة.

الضرب أو الجلد

عقوبة الضرب أو الجلد من العقوبات التي استخدمت في جرائم الحدود وجرائم التعزير بصفة خاصة، كما استخدمت في كثير من الأحيان مع عقوبات أخرى مثل التسمير، بالإضافة إلى استخدامها كوسيلة لجبر المذنبين على الاعتراف بالجرائم. وكثير استخدامها في الجرائم المالية والمصادرات لجبر المتهم أو أحد أفراد أسرته على الإقرار بمكان الأموال، وكعقوبة لشهادة الزور والقذف. وليس في الشريعة الإسلامية ما يمنع أن يكون الجلد عقوبة لأية جريمة من جرائم التعزير، وتنفذ هذه العقوبة بعد تعرية المذنب من ملابسه - غالباً - فيتم الضرب على أى جزء من أجزاء الجسم سواء الجسد أو الرأس أو أسفل القدمين، وأحياناً ينطح المذنب على الأرض ثم يضرب ظهره، وقد يكون الضرب عنيفاً حتى إنه يدمى في الحال ويترك آثاراً ظاهرة على الجسم، ويكون الضرب باستخدام الأيدي أو العصا الخشبية أو بالقرعة، أو الضفيرة الخوص أو السوط^(٢)، أو المساق الشوم^(٣) وكان يستخدمها أغا الإنكشارية في العصر العثماني أثناء مروره في الأسواق، أو الضرب بالنبابت حتى الموت^(٤)، وتختلف عدد الضربات^(٥) باختلاف نوع الجريمة المرتكبة، وهل هي بأمر السلطان أو القاضي أو المحتسب، فإذا كانت من القاضي أو المحتسب تصبح عدد الضربات ملائماً لحجم الجريمة فلا تتعدى المائة ضربة. أما إذا كانت بأمر من السلطان ضد أحد من مماليكه المتأمرين، فتكون عادة

(١) أمثلة، راجع: ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١١ ص ١٤١.

(٢) السوط: ما يضرب به من جلد، أو ما يعرف برخوالكرباج، المعجم الوسيط، ج ١ ص ٤٦٣.

(٣) الشوم: خشب صلد يستعمل في صنع مقابض أيدي العدد والآلات، المعجم الوسيط، ج ١ ص ٥٠١.

(٤) ليلي عبد اللطيف: المجتمع المصري، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٥) اختلف الفقهاء في الحد الأدنى والأقصى في استخدام عقوبة الجلد في جرائم التعزير، وانتهوا إلى أنه يجب ألا تصل عقوبة الجلد في التعزير إلى أقصى من عقوبة الجلد في جريمة الزنا وهي مائة جلدة، راجع: عبد القادر عودة: التشريع الجنائي، ص ٦٩٢: ٦٩٣.

مصحوبة بالانتقام وروح الشففى، فقتجاوز عدد الضربات الحد المعقول، حتى تصل إلى آلاف الضربات .

وكان السلطان بيبرس الجاشنكير يستخدم عقوبة الضرب بالمقارع مع بعض العوام الذين كانوا يكرهونه، ويكاتبون السلطان الناصر محمد إلى العودة إلى الحكم، وعندما قبض على السلطان الأشرف شعبان بن حسين ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، وقام الأمراء المتآمرين - منهم الأمير أئبىك البدرى - بضربه تحت رجله نحواً من سبعين ضربة بالعصى^(١)، ثم خنقوه، وضرب الوزير صاحب شمس الدين موسى بن أبى إسحق عبد الوهاب بن عبد الكريم القبطى المصرى ستة عشر ألف شيب^(٢)، وبلغ من حدة الضربات، أن وقع من ظهره قطعة لحم بقدر الرغيف (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م)^(٣)، واستخدمت عقوبة الضرب مع الحبس والعصر حتى الموت مع قاضى القضاة فى دمشق / أبو العباس القرش (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م)^(٤).

واستخدمت هذه العقوبة فى تأديب النساء أيضاً، وخاصة الجوارى، فكان الملك المنصور حاجى شعبان (ت ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م) إذا ضرب أحداً من جواريه يتجاوز ضربه لهن الخمسمائة عصاة، فكان الملك الظاهر برقوق عندما يسمع صياحهن يشفع لهن، فيقبل شفاعته ويتركهن، ولما تكرر منه ذلك، صار إذا أراد ضرب أحدهن - وحتى لا يعلوصياحها - يأمر معاونيه أن يزفوا بالدفوف والغناء، فلا يمكن أحد من الشفع لهن^(٥).

ورغم أن عقوبة الضرب من أشهر العقوبات انتشاراً واستعمالاً فى مختلف الجرائم، إلا أن بعض السلاطين حاولوا إبطالها وأصدروا المراسيم العديدة لذلك، وخاصة

(١) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١١ ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) الشيب : سير فى رأس السوط أو الكرياج . راجع ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١١ هامش ٢ ص ٨٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١١ ص ٨٨ - ٨٩ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل، ج ٢ ص ٤٥ .

راجع أمثلة أخرى : ابن تغرى بردى : المنهل، ج ٢ ص ٨٨، ٤٨٥ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١١ ص ٣١٦، ٣١٧ .

ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٢ ص ١٧٣ .

فى عصر الملك الناصر محمد سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥ - ١٣٢٦م، لكن لم ينفذ هذا الأمر^(١).

وهى أيضاً من أكثر العقوبات التى وصلتنا تصاوير عنها، فقد استخدمت فى اللوحات (٣، ٤، ١٥، ١٦)، كما وصلتنا تصويرة من المدرسة العربية من مخطوط كلية ودمنة لابن المقفع مؤرخة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م، محفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس^(٢)، (لوحة ١٧) تصور إحدى الحكايات التى يضرب بها المثل عن تجريم الشهادة الزور وعقوبتها الضرب، فنشاهد خط الأرض وقد رقد عليه شخص بكامل ملابسه - بدون سروال - ويقوم شخص آخر بضربه بعصا يرفعها بإحدى يديه ويمسك بالأخرى يد المذنب حتى يتمكن من ضربه على أى جزء من جسمه وخلفه رجل يجلس محاولاً لمسك أحد أقدام المذنب كي يثبتته على الأرض لإتمام العقوبة، بينما يشير بيده الأخرى كمن يؤنب المضروب على ذنبه، وخلفه تقف سيدة ترتدى طرحة وتشير بإصبعها معاتبه - أيضاً- المذنب عما اقترفه من ذنب، بينما نشاهد طائر الباز ينقض وينقر عين المذنب، كنوع آخر من العقوبة الرمزية، لأن المذنب كان بازيار .

كما وصلتنا تصويرة أخرى من المدرسة الصفوية فى إيران من مخطوطة الشاهنامه من عمل المنصور رضا عباس ترجع إلى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى، عليها كتابات فارسية بخط نستعليق محفوظة فى متحف طهران^(٣)، (لوحة ١٨)، ورغم أن هذه التصويرة تصور مشاهد أدبية، إلا أنه من خلالها يتم ضرب أحد الأتباع المذنبين عن طريق الضرب بالأيدى على الوجه، إذ يجثو المذنب على ركبتيه وقد ارتسم على وجهه مشاعر الخوف والهلع، وقد جلس شخص آخر من الخلف عليه، ليتمكن من تثبيت وجه المذنب عن طريق لف إحدى ذراعيه حول جبهة المذنب - الذى وقعت قبعته على الأرض - وبيده الثانية يمسك صدره، وبينما الشخص الواقف أمام المذنب، يرفع إحدى يديه

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى، ص ١٠٠ .

(٢) E. Blochet : Les Enlumiures des manuscrits orientaux, Paris - planche. IX.

تاريخ .

(٣) نامورنامه، لوحة ٢٠١ / راجع نماذج أخرى من تصاوير مخطوطات إسلامية يظهر فيها عقوبة الضرب : نامورنامه : لوحة ٢٣ .

ليهم بالضرب على وجهه بعنف، فقد انعقدت قبضة يده اليمنى أمام صدره، ورفع أطراف ثيابه وثبتها في المشد حول وسطه، حتى لا تعوقه طول الثياب عن إنجاز مهمته، وارتسم على وجهه ملامح الغضب والتشفي، ويوجد ثلاثة رجال يشاهدون تنفيذ العقوبة وهم يضعون إحدى أصابعهم في فمهم علامة على الدهشة والمفاجأة لما يرونه، والمنظر يدور أمام خيمة في مكان خلوى حيث الصخور التى تتناثر فيها الزهور والنباتات كما تتخلل التصويرة سطور من اللغة الفارسية بخط نستعليق .

كما وصلتنا تصويرة من المدرسة الصفوية للمصور الإيراني محمد قاسم سنة ١٠١٤ هـ/ ١٦٠٥م، محفوظة في المتحف المتروبوليتان بنيويورك^(١)، تصور الضرب بالفلكة علانية، فالمنظر يدور في الخلاء حيث الطبيعة الخلابة والأشجار الباسقة، والأرض الزهرة، والصخور في الخلفية. وفي وسط التصويرة، نجد شخصاً تم طرحه أرضاً وهو يرتدى كامل ملابسه، رفعت رجليه الحافيتين المربوطتين إلى أعلى على عصا، حيث يجلس أمامه شيخ له لحية سوداء كثيفة يقوم بضربه بالعصا .

عقوبة العصر

من العقوبات التعزيرية التى عرفت فى العصور الوسطى هى عقوبة العصر بالمعصرة، وهذه الآلة مكونة من خشبتين مربوطتين ببعض البعض يوضع بينهما الجزء المراد عصره من جسم المذنب، ثم تشد الخشبتين شداً وثيقاً فيؤدى ذلك إلى أضرار بالغة بالجلد والعظام المعصورة بينهما^(٢). واستخدمت هذه العقوبة مع عقوبات أخرى فى كثير من الأحيان، كما استخدمت كوسيلة من وسائل إجبار المتهمين والشهود على الاعتراف، إضافة إلى أنها استخدمت أيضاً فى بعض الأحيان فى تأديب المختلين عقلياً . وقد سبق الإشارة إلى أمثلة^(٣) استخدمت فيها هذه العقوبة مع عقوبات أخرى، وقد نفذت هذه

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام، القاهرة، ١٩٤٨، شكل ١٤٢ .

(٢) المقرئى : السلوك، ج ١ ق ٣ ص ٧٤٠ / ماجد: نظم سلاطين الممالك، ج ١ ص ١٣٣ .

(٣) فقد وصلتنا تصويرة استخدمت فيها المعصرة لتأديب بعض المجانين من المدرسة التركية العثمانية من ألبوم أحمد الأول المحفوظ فى متحف طوبقابسراى باستانبول من القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى .

راجع : Metin And : Turkish minitature , fig. 79 .

العقوبة مع النساء أيضاً، إذ قام الأمير صرغتمش في مستهل ذي القعدة سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م بمصادرة أملاك الوزير علم الدين بن أحمد بن زنبور والقبض عليه، وضرب ابنه عرياناً أمام زوجته حتى تعترف على مكان النقود، إلا أنها أسمعته كلاماً جافياً فأمر بها فعصرت^(١).

أساليب عقابية أخرى

وقد تفنن حكام العصور الوسطى في ابتكار أساليب للعقاب عنيفة وبالغة القسوة مثل الجلوس على دست معدنى محمى بالنار، أو لباس المذنب طاسة محمية بالنار، وقطع أيدي وأرجل المذنب وتعليقها في عنقه وصلبه على جمل والتشهير به على هذا الوضع، الأمر الذى فعله الملك الناصر محمد بن قلاوون في أتباع بيدرا، قتلة أخيه الأشرف خليل سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣ - ١٢٩٤م^(٢)، بحيث ظلوا على هذه الحالة حتى توفاهم الله.

ومن الأساليب العقابية المعروفة في العصور الوسطى، قلع أضرار المذنب، وتكجيل العين بالنار، والتعليق من اليدين ووضع الأثقال في الرجلين حتى تنخلع الأعضاء، ووضع الأصابع في الزيت المغلى والتسقيط، أى إسقاء المذنب ماء بالجير والملح والخل من أنفه، ونعل الرجل في رجله كما تنعل الخيل^(٣). الشد والتعليق، حيث يعلق المذنب على خشبة منكساً رجلاه إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل^(٤)، كما في (لوحة ٩).

ورغم قسوة هذه العقوبات المبالغ فيها، والتى لا تتكافئ في كثير من الأحيان مع حجم الجريمة المرتكبة، وهواستتاج سجله شعراء نفس العصر في أشعارهم كما يلي :-

وما تعلقت بالسرياق منتكساً لجرمة أوجبت تعذيب ناسوتى^(٥)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١٠ ص ٢١٩.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ٨ ص ١٩.

(٣) راجع : ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٢ ص ٢٢ / نظير حسان : صور ومظالم ص ٤٨ - ٤٩.

البيومى إسماعيل : المصادر، ج ١ ص ٥٢، ٥٥.

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١٢ هامش ١ ص ١٠١.

(٥) هذه الأبيات الشعرية قالها الأديب الوزير فخر الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرازق بن إبراهيم القبطى وزير دمشق وناظر الدولة بالديار المصرية والشاعر المشهور فى ٥ ذى الحجة سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م فى عصر الظاهر بربوق.

ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١٢ ص ١٠٠.

إلا أن المذنبين في بعض الأحيان كانوا يعاودون الكرة مرة أخرى في ارتكاب الجريمة، مثل: ابن الوارث الذي قبض عليه سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م، وقطع لسانه وكحلت عينيه بالنار، ومع هذا لم يرجع عن الحرام والسرقة، إذ قبض عليه مرة ثانية^(١).

الصلب

عرف الصلب كعقوبة تعنى القتل وقد سبق الحديث عنها، كما يعنى الصلب عقوبة أخرى تعذيبية، باعتبارها حداً يعاقب به على جريمة الحراية، أى قطع الطريق، لذا فهي عقوبة تعزيرية، ويتم صلب الإنسان حياً ولا يمنع عنه طعامه ولا شرابه ولا يمنع من الوضوء والصلاة، ولكنه يصلى إلهاء، ويجب ألا يزيد مدته على ثلاثة أيام، فهي عقوبة بدنية يقصد منها التأديب والتشهير، وهى أشبه ما تكون بعقوبة التلاميذ حين يؤمرون بالوقوف وأيديهم مرفوعة إلى أعلى زمناً ما^(٢).

ولم يصلنا تصاوير توضح طريقة تنفيذ هذه العقوبة، لكن يمكننا أن نتعرف على هذه الطريقة العقابية من خلال أحد صور الشاهنامة (لوحة ١٩) من المدرسة الصفوية من تبريز مؤرخة سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م، من عمل سلطان محمد، ومير سيد على، تمثل التصويرة موت الضحاك، وهى محفوظة فى متحف راث بجنيف^(٣)، والمنظر مرسوم وسط مجموعة جبلية ذات صخور ملونة ومتدرجة إلى أعلى حيث فجوة فى قلب الجبل يتم فيها صلب الضحاك - الذى تقلست ثعابينه فى تلك اللحظة وصارت أشبه بالديدان - فقد تم ربط كتفيه بالحبال وتعليقه منها إلى أعلى، ولف حبال حول معصميه لشدها فى استقامة وربطها بصخور الجبل، وتم تقييد رجله بحبال تربط فى نهايتها بصخور الجبل، فصار مصلوباً فى شكل يشبه عقوبة التلاميذ - أى التذويب، ونرى فوق قمة الجبل السجان يثبت الميزان فوق قمة جبل دماوند، ونجد البطل أفريدون مشرباً بأصابع الاتهام، وفى أسفل الجبل نجد مجموعة الأتباع، وخيولهم مع حامل الباز، وعازف القيثارة، ومجموعة أخرى من الأتباع أو الأشباح تحتل النظر من بين الصخور، ويحف بالجبال عدد من الأشجار، بينما يعلوها مجموعة من السحب الكثينة المتشابكة.

(١) ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٢ ص ٣٣ .

(٢) راجع : عبد القادر عودة : التشريع الجنائى، ص ٧٠١ .

(٣) حصّة الصباح وآخرون : كنوز الفن، لوحة ٤٥ .

ثانياً : عقوبات تبعية مالية وإدارية

تشمل العقوبات المالية نوعان هما :

١) **المصادرات المالية** : وقد توسع حكام العصور الوسطى الإسلامية في استخدام هذه العقوبة المالية، بحيث أصبحت تشمل المصادرات كل شيء من الممتلكات العقارية أو العينية من ملابس ومقتنيات أو مال أو بضائع أو حتى إقطاعات ووظائف أو حوانيت أو مصانع أو دواب أو أوقاف وشملت أيضاً العبيد والنساء^(١).

٢) غرامات مالية وتقدر حسب حجم الجريمة

ومثل هذه العقوبات هي نوع من التعزيرات كان يوقعها السلطان أو القاضي أو المحتسب، وهي عقوبة مقررة واجبة النفاذ هدفها المال . وكان يقصد بهذه العقوبة إيلام الجاني عن طريق نقص مال جناه بطريق التحايل أو الغش أو بأى أسلوب غير مشروع، ورغم أن مثل هذه العقوبة تنال من أفراد أسرته، الذين قد لا يكون لهم ذنب في الحرمان من مورد إعالتهم، ويمكن اعتبار هذه الجريمة نوع من أنواع التدابير الاحترازية لمنع وقوع مثل هذه الجرائم والتهادى فيها، وفي نفس الوقت تعتبر تعويض للدولة للأشخاص الذين لحقهم ضرر ما .

وتعد عقوبة المصادرة نوع من العقوبات التبعية المقترنة بعقوبات أخرى كالإعدام أو التعذيب الجسدى أو النفى أو تحديد الإقامة أو السجن . ففى سلطنة الناصر محمد الثالث أمر بمصادرة الوزير كريم الدين، بسبب موقفه من الفتنة بين النصارى والمسلمين، فصادر أمواله ودوره، وأمره أن يلزم داره بالقرافة، ثم نفاه إلى بيت المقدس، وأعادته إلى القاهرة، ثم أرسله إلى أسوان حيث قتل^(٢) . وحسب المرسوم السلطانى سنة ٧٥١هـ / ١٣٥٠م تم عزل واعتقال ومصادرة المولى زين الدين عمر بن شرف الدين يسوف الجلى^(٣).

(١) راجع : البيومى إسماعيل : المصادرات المالية، ج ١ ص ٢٢ : ٢٧، ١٢٨، ١٩٥ .

(٢) على إبراهيم حسن : تاريخ الممالك، ص ٤٦٠ .

(٣) ابن حبيب : تذكرة النبى، ج ٣ ص ١٤٥ .

وكان الجمع بين عقوبتي المصادرة والغرامة أمر بالغ الصعوبة وخاصة في التنفيذ، فبعد مصادرة الأموال، من أين تدفع الغرامة ١١؟، وهو الأمر الذى حَيَّرَ بعض المذنبين وسبَّب لهم أضراراً بالغة، ومن أمثلة ذلك عندما صادر الغورى في ١٩ رمضان سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م القاضى أبى البقاء ناظر الأسطبل فسجنه وقيد به بالحديد وأقعد على البلاط بدون فرش، بسبب وشاية ضده تقول إنه يلبس أثواب وعمامة السلطان في غيابه، بل لم يكتفِ بذلك فصادر دواليب القصب التى كانت له في دمياط وقرر عليه مالاً فحصل له الضرر الشامل^(١).

٣) العقوبات التبعية الإدارية

تعتبر العقوبات الإدارية نوعاً من العقوبات التعزيرية التى تطبق بصفة خاصة على الوظائف، فيتم عزل المذنب من وظيفته، وكان السلاطين أول من يستعمل هذه العقوبة مع كل من يحاول التآمر ضدهم أو الاشتراك مع المتآمرين أو مجرد التحريض على ذلك، واستعملوها أيضاً ضد مخالفين في الرأى، مهما كانت مكائتهم الاجتماعية، بحيث وصل الأمر إلى التعسف في استعمال السلطة، أن السلطان الغورى سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م عزل القضاة الأربعة، لأنهم رفضوا أن يحرفوا شريعة الله تنفيذاً لأوامره في إعدام الزانى المحصن بدلاً من رحمه^(٢)، وهى تعد عقوبة تبعية تستخدم مع عقوبات أخرى أصلية في كثير من الأحيان.

ثانياً: التدابير الاحترازية

يقصد بها عقوبة النفي، وهذه العقوبة من العقوبات التى وردت في القرآن الكريم^(٣)، كعقوبة مكملة لعقوبة الجلد للزانى غير المحصن ومحددة بمدة سنة، وهى من جرائم الحدود، كما كانت إحدى عقوبات جريمة الحراية، على أن يكون النفي داخل

(١) ابن إياس : بدائع الزهور، ج ٤ ص ٢٤٥ .

(٢) راجع أمثلة أخرى :

منى بدر : أثر الفن السلجوقي، ص ١١٧، ١٢١، ٣٧٥ : ٣٧٨ .

(٣) كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ المائدة آية ٣٣٠ .

حدود دار الإسلام، في بلد تبعد عن بلد المذنب مسيرة يوم واحد، وعلى أن يجلس في البلد المنفى إليها حتى تظهر توبته وصلاحه، وهنا يطلق سراحه^(١).

النفى في العصور الإسلامية كان يتم داخل الإقليم في مكان بعيد، أو يتم النفي خارج الإقليم ولكن داخل حدود بلاد الإسلام . وقد يكون النفي لمدة محددة يقررها الحاكم بنفسه أو يتم العفو عن المذنب المنفى إذا تمت له شفاعاة، وقد ينسى المنفى منفيًا حتى وفاته في بلد المنفى، وعقوبة النفي باعتبارها عقوبة تبعية كانت تتم مع عقوبات أخرى أصلية سبق وأشرنا إليها .

وكان يتم نقل المنفى على ظهر حمار إلى موضع تسفيره، ويحاط بالحراس مثلما حدث مع الوزير تاج الدين الملكى سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م^(٢).

الخاتمة

عن طريق الاستئناس بالمنهج القانونى الوضعى الحديث، تبين لنا أن العقوبات في مجتمع العصور الوسطى الإسلامية كانت متدرجة في عمومها، وتبين لنا أنها تنقسم إلى :

(١) عقوبات أصلية : كالقتل والسجن والحبس والتعذيب .

(٢) عقوبات تبعية : مالية كالمصادرة والغرامة، وإدارية كالعزل من الوظائف.

(٣) تدابير احترازية : كالنفى .

- كما تبين لنا أنه رغم تدرج هذه العقوبات إلا أنها اتسمت بالقسوة والشطط في تطبيق أكثر من عقوبة عن الجريمة الواحدة، وخاصة في جرائم التعزير .

- كما أظهر البحث أن العنف في تنفيذ العقوبات وصل حدًا أن بعض سلاطين المماليك، مثل: السلطان الغورى، غلظوا العقوبات حتى في جرائم الحدود، كالقتل

(١) عقوبة النفي بهذا المعنى تقابلها في القوانين الوضعية عقوبة الإرسال إلى الإصلاحية أو المؤسسة العقابية، أى حبس المحكوم عليه في مكان خاص مدة غير محددة، وهى من أحدث نظريات العقاب في القوانين الوضعية التى عرفت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أى أن الشريعة الإسلامية عرفت هذه النظرية وطبقته من ثلاثة عشر قرنًا .

عبد القادر عودة : التشريع الجنائى، ص ٦٦٠ - ٦٦١ .

(٢) ابن حبيب : تذكرة النبیه، ج ١ هامش ٤ ص ١٢ .

كعقوبة لجريمتى الزنا والسرقه، رغم التزام القضاة بأحكام الشريعة الإسلامية في تنفيذها حتى ولو أدى ذلك إلى التنكيل بهم شخصياً .

- وقد استنتجنا أن خروج بعض سلاطين الدول الإسلامية عن أحكام الشريعة الإسلامية في بعض جرائم الحدود قد يكون سببه : إما تمسكاً مع عاداتهم القبلية التي خرجوا بها من مسقط رأسهم في وسط آسيا، أو تأثراً من أحكام الياقة المغولية، التي اتفقت أحكامها مع بعض أحكام دول وسط وشرق آسيا كالصين، الذين يجعلون القتل عقوبة لأغلب الجرائم مثل: الزنا والسرقه. ولما كانت العادات تعتبر من المصادر الهامة في صياغة القوانين الوضعية المعاصرة، بما يشير إلى سبق حكم الدول الإسلامية البدء في العمل بالقوانين الوضعية .

- تبين لنا أيضاً أن فظاظة العقوبات في الدول الإسلامية لم تكن من نوع التنكيل والثأر المعروف في الطبقة العسكرية فحسب، فقد تعدى تنفيذها جميع شرائع المجتمع، حيث حرص البحث على اختيار نماذج مختلفة توضح ذلك .

- كما تبين لنا أن المصادر المملوكية تحدثت في ثناياها بشكل واضح عن طرق تنفيذ العقوبات الإسلامية في العصور الوسطى، ولكننا للأسف لم نتمكن من العثور على تصاوير من العصر المملوكي توضح طرق التنفيذ، وهى الثغرة التى وجدنا ما يرتقها في تصاوير المدارس التصويرية الإسلامية الأخرى المعاصرة، سواء وردت من خلال مخطوطات أدبية أو تاريخية، لأن المصور كان يصور أحداث المخطوط بثقافة عصره، وهى محصلة بديهية لأى فنان فى أى عصر من العصور، أنه يستلهم فى صوره أشكال البيئة الطبيعية التى خلعت صورتها على العقل البشرى. وبالتالي فقد أدى منهج البحث السابق إلى نتيجة هامة، وهى تشابه طرق تنفيذ العقوبات فى دول العالم الإسلامى فى العصور الوسطى. والدليل على ذلك أن الحلاج المقتول سنة ٣٠٩هـ / ٩٢٢م ذكرت المصادر أنه قتل صلباً، ومع ذلك فقد تم تصويره من خلال تصويرتين، إحداها من المدرسة المغولية الهندية، والأخرى من المدرسة التركية وهو يقتل فى كليهما شتقاً .

- بعض العقوبات لم تصلنا تصاوير إسلامية توضح طريقة تنفيذها مثل: طريقتى الخوزقة والسليخ التى وصفت من خلال المصادر فحسب، والبعض الآخر وصلنا وصفها

من خلال شهود عيان، كطريقة التوسيط بالسيف والسلخ التي وصفها لنا الحسن بن الوزان في كتابه وصف إفريقيا .

- كان القتل يتم بعدة طرق، هي: الشنق والقتل بالسيف، أو النمجة، أو التغريق، أو الخنق، أو التوسيط، أو الخوزقة .

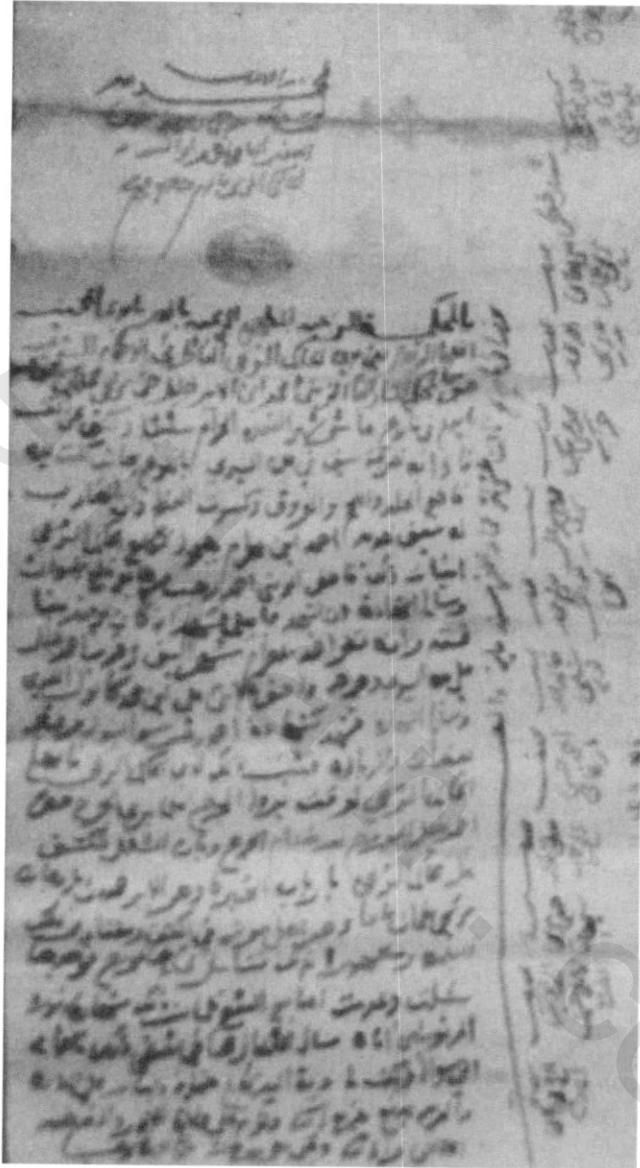
- كان يسبق ويلحق كثير من عمليات القتل عقوبات تبعية أخرى كان أشدها قسوة هي العقوبات التبعية اللاحقة على القتل، والمتمثلة في صورة التمثيل بالجثة .

- لم تكن عقوبة التشهير والتجريس قاصرة على جرائم أرباب السوق والمنفعة من قبل المحتسب فحسب، فقد استخدمت في كثير من الأحيان كعقوبة تبعية يتم من خلالها الإعلان عن الجريمة والعقوبة قبل تنفيذها، من خلال التشهير بالمجرم في أثناء اقتياده إلى حيث يتم تنفيذ العقوبة الأصلية فيه سواء كانت القتل أو السجن أو الحبس .

- أهم ما امتازت به هذه العقوبات أنها كانت تتم علانية بدءاً بعقوبة الإعدام، وانتهاءً بعقوبة الضرب. وفي هذا تحقيق للغرض من العقوبة، وهو الردع العام والعظة .

- من النتائج الهامة - أيضاً - التي توصلنا إليها من خلال الاطلاع العلمى خلف ثنايا البحث أنه على الرغم من قسوة العقوبات في الدول الإسلامية، إلا أنها كانت لا تقارن بالعقوبات المهولة التي كانت متبعة في نفس الفترة الزمنية في دول أوروبا في العصور الوسطى .

- تم الاستعانة بتوضيح متن هذا البحث بعدد (١٩ لوحة) سبق عرضها، ولكن تنشر لأول مرة كموضوع جديد منهجياً وموضوعياً - فيما أعتمد .



(لوحة ١)

وثيقة حكم صادرة من محكمة إبريم مؤرخة
سنة ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م محفوظة في متحف
الشرطة بالقاهرة سجل رقم ٢٣٧٩٤



(لوحة ٢)

تصويرة من مخطوط "جلستان" سعدى من المدرسة المغولية الهندية مؤرخة بين سنتي ١٠١٤-١٠١٥هـ / ١٦٠٥-١٦٠٦م محفوظة في متحف راث بجنيف

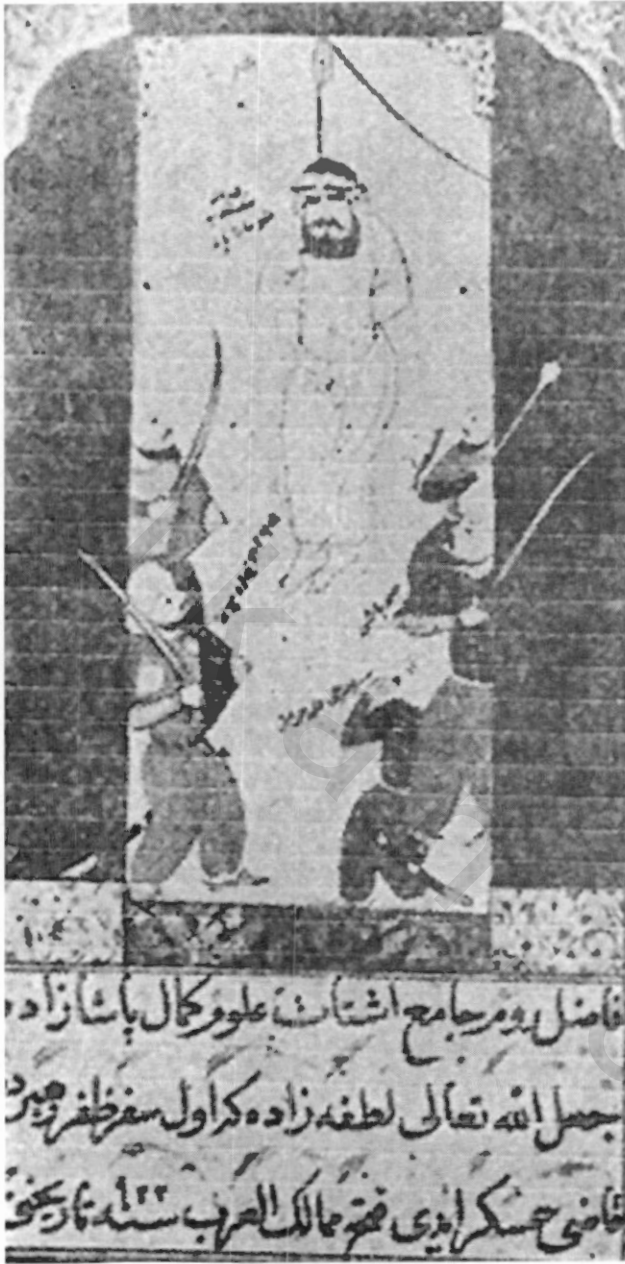
تصور مجلس القضاء

(عن حصة الصباح - كنوز الفن)



(لوحة ٣)

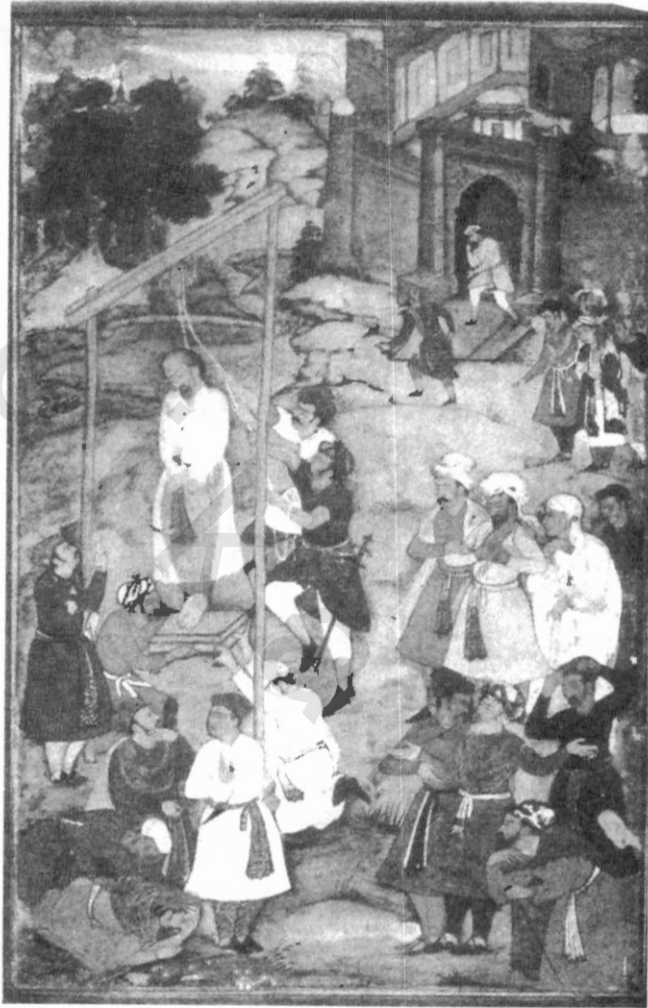
تصويرة من مخطوط "الشاهنامه للفردوسي" من المدرسة الصفوية تنسب إلى القرن ١٠ هـ /
 ١٦م، محفوظة في متحف طهران تصور الشنق على جذوع النخل (عن سيد عبد المجيد زادة :
 نامورنامه)



(لوحة ٤)

تصويرة من مخطوطة تركية محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس مؤرخة في ١١ ربيع الأول ٩٢٣
هـ/ ٢٣ أبريل ١٥١٧م، تصور شلق السلطان طومانباي على باب زويلة.

(عن صلاح عيسى: رجال مرج دابق)



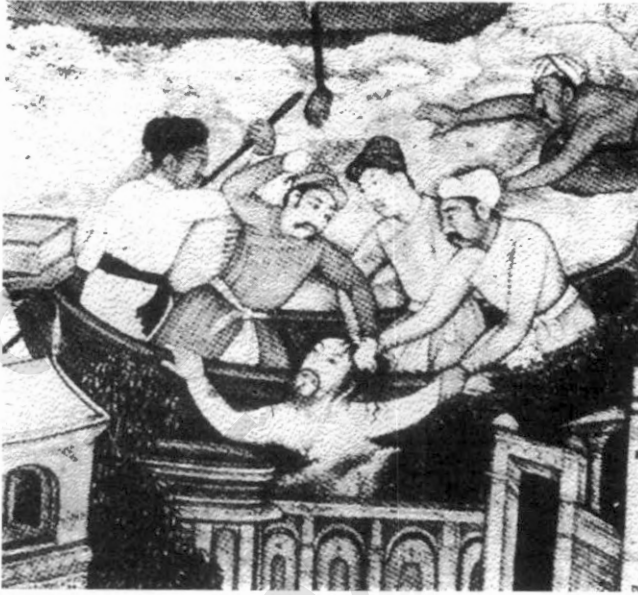
(لوحة ٥)

تصويرة من المدرسة المغولية الهندية ترجع إلى القرن ١٠ هـ / ١٦ م، محفوظة في متحف والترز
جاليري بواشنطن، تصور شقيق الصوفي حسين بن منصور الحلاج
(عن ثروت عكاشة : التصوير المغولي)



(لوحة ١٦)

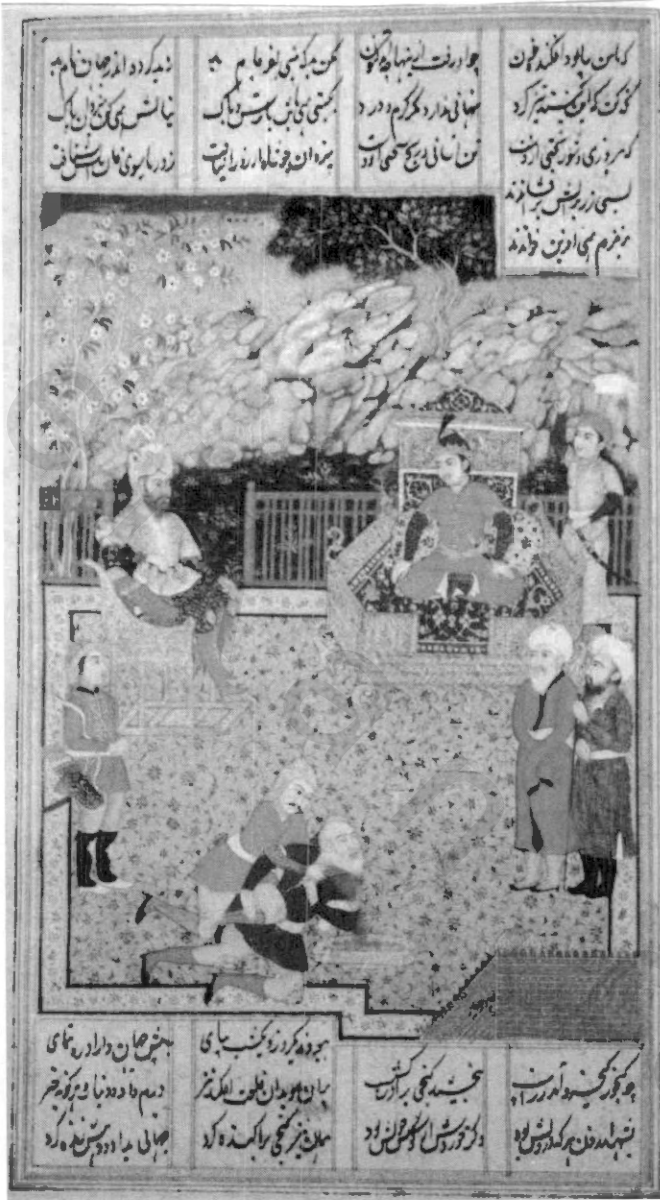
تصويرة من المدرسة المغولية الهندية ترجع إلى القرن ١٠هـ / ١٦م، محفوظة في المتحف القومي بنيودلهي، تصور الإمبراطور أكبر يأمر بإغراق أحد النبلاء المتمردين في مياه النهر .
(عن ثروت عكاشة : التصوير المغولي)



(لوحة ٦ ب)
جزء توضيحي من اللوحة السابقة

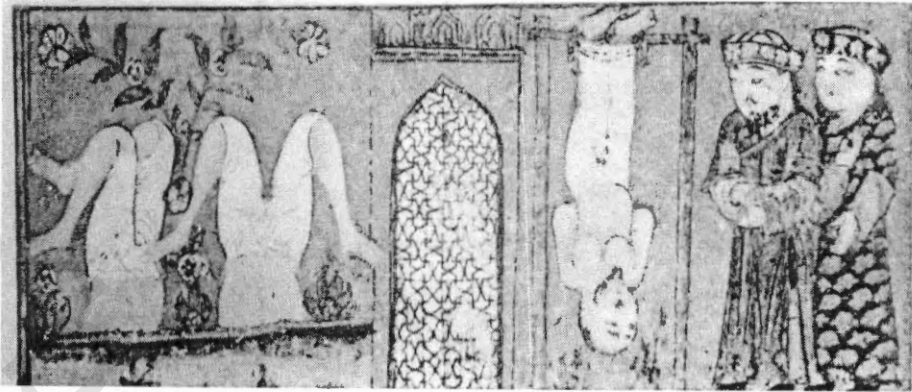


(لوحة ٧)
تصويرة من مخطوط "الشاهنامه للفردوسي" من المدرسة المغولية مؤرخة فيما بين
- ٩٠٣ - ٩١٠ هـ / ١٤٩٧ - ١٥٠٤ م، محفوظة في مجموعة والتر شولتز في ليبزج
بألمانيا - تصور القتل بالتمجاة (كيخسرو يقتل جوري)
(عن : Walter Schlz)



(لوحة ٨)

تصويرة من مخطوط "الشاهنامه للفردوسي"
 من المدرسة الصفوية، مؤرخة ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م محفوظة في متحف طهران، تصور القتل بالسمجة
 (عن: سيد عبد المجيد: نامورنامه)



(لوحة ٩)

تصويرة من مخطوط " الشاهنامه للفردوسي"، مؤرخة ٩٠٣-٩١٠هـ/ ١٤٩٧-١٥٠٤م من المدرسة المغولية، محفوظة في مجموعة والتر شولتز في ليبزج بالمانيا، تصور عقوبتي السلق والتعليق. (كسرى يأمر بقتل مزدك والتابعين له) (عن : Walter Schulz)



(لوحة ١٠)

تصويرة من مخطوط " الآثار الباقية " للبيروني، مؤرخة سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧-١٣٠٨م، محفوظة في مكتبة جامعة أدنبرج بالمانيا، تصور التمثيل بالجثة. (عن : Arnold and Grohman : The Islamic book)



(لوحة ١١١)

تصويرة من مخطوطة " حمزة نامة " المؤرخة فيما بين ٩٧٠-٩٨٥ هـ / ١٥٢٦-١٥٧٧ م، محفوظة في متحف الفريير جاليري بواشنطن من المدرسة المغولية الهندية، تصور السجن والسجان والمساجين (عن ثروت عكاشة : التصوير المغولي)



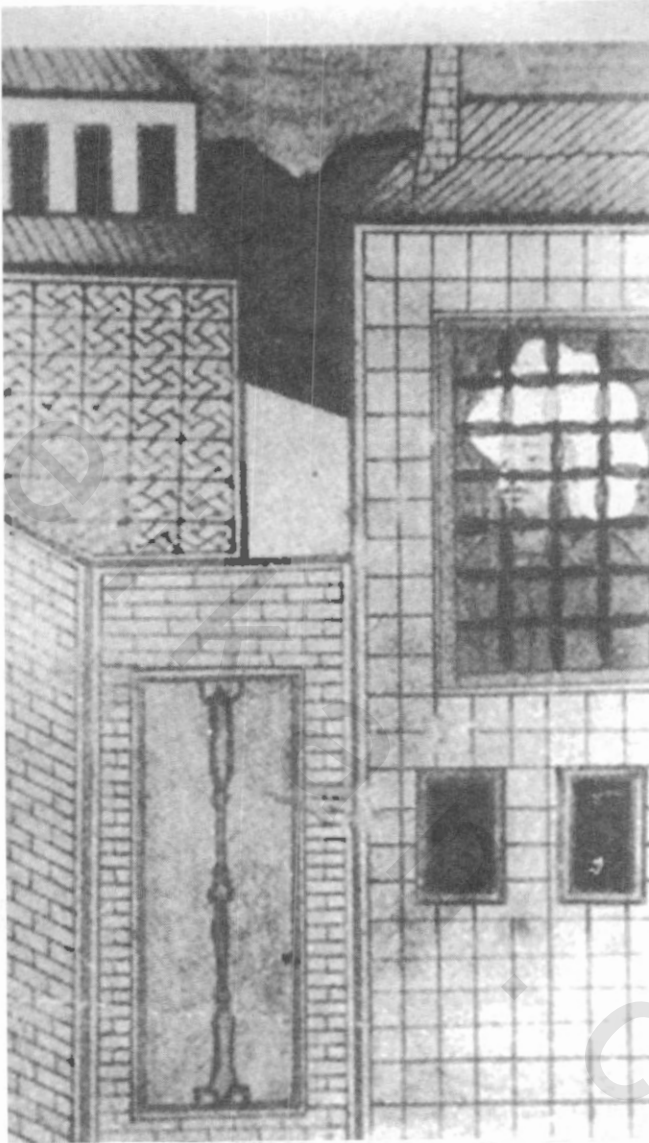
(لوحة ١١ ب) جزء توضيحي من اللوحة السابقة



(لوحة ١٢)

تصويرة من مخطوط "الشاهنامه للفردوسي" مؤرخة ٨١٣هـ / ١٤١٠م، محفوظة في المتحف
البريطاني بلندن، من المدرسة المغولية في شيراز، تصور مجموعة
من المساجين يقفون أمام خسرو

(عن: Basil Gray : La peinture person)



(لوحة ١٣)

تصويرة منزوعة من مخطوط تركي، ترجع إلى القرن ١٠هـ / ١٦م، محفوظة في متحف طوبقابوسراي بإستانبول من المدرسة التركية العثمانية، تصور إحدى الشخصيات التركية الهامة مسجوناً

(عن: Metin And : Turkish minitature)



(لوحة ١٤)

تصويرة من مخطوط "الشاهنامه للفردوسي"، مؤرخة ٩٠٢-٩١٠هـ/
 ١٤٩٧-١٥٠٤م، محفوظة في مجموعة والتر شولتز في ليبزج بألمانيا -
 من المدرسة المغولية، تصور سجن الجب. (عن : Walter Schulz)



(لوحة ١٥)

تصويرة من البوم سراي، ترجع إلى النصف الثاني من القرن ١٥ هـ / ١٥ م، محفوظة في متحف طوبقابوسراي باستانبول، من المدرسة الصفوية، تصور عقوبة التشهير والتجريس .

(عن : Dasbild İmislam)



(لوحة ١٧)

تصويرة من مخطوطة كليلة ودمنة لابن المقفع مؤرخة سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م، من المدرسة العربية محفوظة في المكتبة الأهلية ببراريس، تصور عقوبة الضرب عن الشهادة الزور. (عن : E. Blochet)



(لوحة ١٨)

تصويرة من مخطوط "الشاهنامه للفردوسي" يرجع إلى القرن ١٠هـ / ١٦م، محفوظة في
متحف طهران، تصور عقوبة الضرب
(عن : نامورنامه)



(لوحة ١٩)

تصويرة من مخطوطة الشاهنامه للفردوسي مؤرخة سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م، من المدرسة الصفوية، محفوظة في متحف راث بجنيف، تصور عقوبة الصلب (موت الضحاك)
(عن : حصّة الصباح)

الوليد بن عقبة بن أبي معيط
(حياته - ولايته الكوفة)
(ما قبل ٨ هـ - ٦١ هـ / ٦٢٩ م - ٦٨٢ م)

إعداد الدكتور
أحمد عبد اللطيف حنفي محمد

مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
 بكلية الآداب - جامعة حلوان

oboeikan.com

الوليد بن عقبة بن أبي مَعِيْط (حياته - ولايته الكوفة)

تمهيد:-

نحن بصدد معالجة أحداث ذات وضعية خاصة نبعت من ظروف العصر المعنى بالدراسة، عصر الخلافة الراشدة (١١-٤١هـ / ٦٣٢-٦٦١م). ذلك العصر الذي هو امتداد طبيعي لعصر النبوة المطهرة، حيث الذروة في فهم وتطبيق قضايا الدين فهماً مثالياً اقتداءً برسول الله ﷺ. ويكفي مثلاً أن نعرف أن غالبية أفراد المجتمع الإسلامي - حكاماً ومحكومين - كانوا يجتهدون حينذاك في أخذ مندوبيات الإسلام ومستحباته (وهي أمور يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها) على أنها فروض واجب اتباعها والعمل بها في كافة شئون حياتهم، وإلا سيأثمون.

وقد أفرزت هذه النظرة حساسية شديدة فيما يتعلق بالعلاقة بين الحاكم والرعية، أو ما يمكن تسميته بتليساكوب حاد الانعكاس كان مسلطاً على تصرفات الحاكم لمعرفة مدى تطابقها مع مرادات الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ. وليس أدل على ذلك من قول أول الخلفاء الراشدين أبي بكر الصديق ﷺ (ربيع أول ١١هـ - جماد آخر ١٣هـ / يونية ٦٣٢م - أغسطس ٦٣٤م) فور توليته: "يا أيها الناس، إنما أنا مثلكم ... وإنما أنا متبع ولست بمبتدع. فإن استقممت فتابعوني، وإن زغت فقوموني"^(١). كما أن سياسته في الحكم، وأعمال خلفه الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ (جماد آخر ١٣هـ - ذى الحجة ٢٣هـ /

(١) ابن هشام:- السيرة النبوية، تحقيق د. محمد فهمي السرجاني، مطبوعات المكتبة التجارية بالقاهرة ج ٤، ص ١٧٧؛ الطبري:- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب (عدد ٣٠) مطبوعات دار المعارف بمصر، ط ٤، ج ٣، ص ٢٢٤.

أغسطس ٦٣٤م - نوفمبر ٦٤٤م) قد عدت تجسيدا لهذا المفهوم، بحيث أصبح الاقتداء بأعمالهما من الشروط الملزمة لمن جاء بعدهما في الحكم، وذلك إلى جانب العمل بالكتاب والسنة^(١).

وبالنسبة للخليفة الراشد الثالث ذى النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه (أول المحرم ٢٤هـ - ذى الحجة ٣٥هـ / نوفمبر ٦٤٤م - يونية ٦٥٦م) فإن قاعدة الحساب بين الحاكم والرعية قد تأثرت كثيراً باختلاف طريقته في الحكم من حيث انتهاجه نهجاً ليناً في التعامل مع الرعية بعكس تشدد سلفه عمر بن الخطاب، فضلاً عن اتساع دائرة الإسلام لتشمل أناساً جدد لم يكونوا بعد قد قبلوا الدين عن فهم وعمق. فأدى ذلك إلى أن أموراً طبيعية عدت أخطاء جسيمة وكانت الشغل الشاغل لطائفة معينة من أفراد المجتمع الإسلامى، بحيث نجحوا من خلالها في الطعن في كفاءة الخليفة عثمان بن عفان، وانتهى الأمر بمقتله شهيداً على أيديهم، فيما عرف ببدايات الفتنة الكبرى^(٢).

ويليق بنا قبل الخوض في ذكر نماذج التهم (خاصة ما يتعلق منها بموضوع البحث) أن نُعرِّف بهوية من لاكت ألسنتهم بها، والذين ذكرت كتب التاريخ أن أعدادهم قد قاربت الألف وثمانمائة رجل^(٣). كما وضح من استعراض أسماء قادتهم أن العنصر اليمنى كان

(١) الطبرى: - تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٢٣٣. ولاحظ الشرط الذى اشترطه عبد الرحمن بن عوف متولى كبر مجلس الشورى عشية مصرع الخليفة عمر بن الخطاب، على كل من عثمان بن عفان وعلى ابن أبى طالب، كى يتولى أيهما الحكم.

(٢) انظر فى ذلك: - د. طه حسين: - الفتنة الكبرى، عثمان (الكتاب الرابع من إسلاميات طه حسين)، مطبوعات دار العلم للملايين ببيروت، لبنان، ط ٤ سنة ١٩٨٤، ص ٦٦٢ حيث يقول ما نصه: "وأن غير عثمان لو ولى خلافة المسلمين فى تلك الظروف التى ولى فيها عثمان لتعرض لمثل ما تعرض له من ضروب المحن والفتن، ومن اختصام الناس حوله واقتتالهم بعد ذلك فيه".

(٣) يلاحظ قدمهم المدينة المنورة على هيئة وفود ثلاث من مصر والبصرة والكوفة. وقد اعتمدنا رقم (٦٠٠) فرد لكل إقليم، كمتوسط عام تكرر عند إحصاء عدد أفراد كل وفد. انظر: - ابن شبة: - تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهم محمد شلتوت، مطبوعات مكة المكرمة، سنة ١٩٧٩، ج ٣، ص ١١١٦ و ١١٤٠-١١٤١ البلاذرى: - أنساب الأشراف، ج ٥ تحقيق س. د. ف. جوايتين، مطبوعات الجامعة العبرية سنة ١٩٣٦، ص ٣٩ و ٤٣ و ٥٩ و ٧٢؛ الطبرى: - تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٣٤٨-٣٤٩؛ ابن الأثير: - الكامل فى التاريخ، تحقيق أبى الفداء عبد الله القاضى، منشورات دار الكتب العلمية ببيروت، لبنان، ط ١ سنة ١٩٨٧، ج ٣، ص ٥٠-٥١؛ ابن كثير: - البداية والنهاية، حققه محمد عبد العزيز النجار، منشورات دار الغد العربى، القاهرة ط ١، سنة ١٩٩١، م ٤ ج ٧،

غالباً على توجهاتهم^(١). مما يجعلنا نتفق مع التحديد المقترح عنهم من جانب محقق كتاب "العواصم من القواصم"، بأن كان "فيهم الذين غلب عليهم الغلو في الدين فأكبروا الهنات وارتكبوا في إنكارها الموبقات. وفيهم الذين ينزعون إلى عصبية يمنية على شيوخ الصحابة من قريش ... وفيهم الموتورون من حدود شرعية أقيمت على بعض ذويهم ... وفيهم الحمقى ... وفيهم من كفر معروف عثمان عندما طمع منه بما لا يستحقه من الرئاسة ... وفيهم من أصابهم من عثمان شيء من التعزير لبوادر بدرت منهم تخالف أدب الإسلام ... وفيهم المتعجلون بالرياسة قبل أن يتأهلوا لها"^(٢). بمعنى أنهم كانوا هيئات سبعة تشكل من مجموعها هذا العدد السابق الذكر، إلى جانب إجماع الروايات على إثبات دور الهيئة الثامنة الأكثر خطورة والمتمثلة في عبد الله بن سبأ اليهودي من أهل صنعاء الذي أسلم في عهد عثمان ويعد القاتل الحقيقي له بما روجه من أفكار مغالية غير مسبوقة في الدين ومدعومة بمنهجه الملتوى القائم على التأويل الفاسد لآيات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ويكفي مثلاً الاستدلال بقوله عن مبدأ الرجعة استناداً

ص ٢٢٤ و ٢٢٨-٢٢٩. ولاحظ أن يعقوبى (تاريخ يعقوبى، طبعة دار صادر بيروت، ج ٢، ص ١٧٤-١٧٦) لم يحدد أعدادهم. بينما ذكرهم صاحب كتاب الإمامة والسياسة (تحقيق د. طه محمد الزينى، منشورات مؤسسة الحلبي، ج ١، ص ٣٩-٤٠) بطريقة مضطربة؛ فهو مثلاً يذكر أن وفد أهل مصر كانوا سبعمائة (ص ٣٩) ثم عاد وذكر (ص ٤٠) أنهم كانوا أربعمائة. وحدد المسعودى (مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد، مطبوعات المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة، ط ٤ سنة ١٩٦٤، ج ٢، ص ٣٥٢) أن عددهم كان تسعمائة بواقع ٢٠٠ من الكوفة و ١٠٠ من البصرة و ٦٠٠ من مصر.

(١) لاحظ مثلاً أن العنصر اليمنى كان غالباً على قيادات وفد مصر، ثم وفد الكوفة، وأقلهم كان في وفد البصرة. مما أثر في فعالية أفراد الوفد المصرى الذين كانوا أنشط المتأمرين ضد الخليفة عثمان، تلاهم وفد الكوفة. انظر القائمة بأبائهم وعناصرهم في المصادر السابقة والصفحات. وقارن ملاحظة أخرى مهمة عن طريقة أصحاب هذه المصادر في التدوين لهذا الحدث ومدلولات ذلك، عند: د. عدنان محمد ملحم: - المؤرخون العرب والفتنة الكبرى (القرن الأول - القرن الرابع الهجرى) دراسة تاريخية منهجية، مطبوعات دار الطليعة بيروت، لبنان، ط ٢ سنة ٢٠٠١م، ص ١٥٠.

(٢) أبو بكر بن العربى: - العواصم من القواصم (في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم) حققه وعلق على حواشيه محب الدين الخطيب، مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض، (رقم ٤٠) المملكة العربية السعودية، سنة ١٩٨٤م، هامش تحقيق رقم ١، ص ٥٨.

لتأويله الفاسد لآية رقم ٨٥ من سورة القصص، وكذا قوله بمبدأ الوصاية استناداً لتأويله الفاسد كذلك لحادثة غدير خُم^(١).

أما التهم الموجهة للخليفة عثمان^(٢)، فسنتصر في الحديث على تهمة اصطفائه أقاربه من بنى أمية بالوظائف والأموال والنفوذ والسلطان، ليس فقط لصلتها المباشرة بموضوع البحث، بل لأنها "تمس حقوق الناس ومصالحهم وحرياتهم. فكان هذا مصدراً لشر عظيم" حسب تعبير د. طه حسين الذى أوجز ما قيل في هذا الشأن بتلك العبارة: - "وقد نقم المسلمون من عثمان سياسته في الإدارة وسيرته في التولية والعزل، فقالوا إنه ولي أمور المسلمين جماعة من الأحداث لا يصلحون لها ولا يقدرّون عليها ولا ينصحون للدين ولا يخلصون لله ورسوله. وعزل أصحاب النبي عن الأمصار. ولم يسمع لوصية عمر، فحمل

(١) أورد سيف بن عمر (الفتنة ووقعة الجمل، تحقيق أحمد راتب حرموش، مطبوعات دار النفائس بيروت، ط ١ سنة ١٣٩١هـ، ص ٤٨-٤٩) ترجمة مختصرة عن ابن سبأ وأصله، ثم أسهب في شرح مخططة التنفّيز في الطعن على الخليفة عثمان بن عفان وولاته. وعنه أخذ الطبري (تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٣٤٠-٣٤١)، ومن تلاه، مثل: ابن الأثير: - الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٤٦. ولاحظ النقاش الدائر حول نفى أو إثبات دور ابن سبأ، والذي أنهاه الدكتور عدنان ملحم (المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص ٢٣٠-٢٤٤) قائلاً: - "إن اسم عبد الله بن سبأ ولفظة السبئية حقيقتان أكدت عليهما مختلف المصادر بأشكال شتى". وانظر كذلك: - د. أكرم ضياء العمرى: - عصر الخلافة الراشدة (محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين) مطبوعات مكتبة العبيكان بالرياض، ط ٣، سنة ٢٠٠١م، ص ٦٢-٦٣ حيث يقول ما نصه: - "وقد دار جدل طويل حول شخصية ابن سبأ التاريخية، ولكن تنوع مصادر الأخبار من سنية وشيعية يجعل من الصعب القبول بنفى الوجود التاريخي له".

(٢) اختلف المؤرخون في طريقة تناولهم لهذه التهم: - فقد حصرها أبو بكر بن العربي (العواصم من القواصم، ص ٦١-١١٠) في ثماني عشرة تهمة وراح يفندّها بعد ذلك كل على حدة. بينما اقتصر البلاذري (أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٢٥ وما بعدها) على أهمّها في نظره، والتي منها إيداع عثمان لكبار الصحابة وتعيينه أقاربه، بل استغرق الصفحات الطوال في عرض التهمة الواحدة مثل وجود الوليد بن عقبة بالكوفة (ص ٢٩-٣٦). ومر صاحب الإمامة والسياسة (ج ١، ص ٣٥) سريعاً على هذه التهم دونما تضخيم. وحاول الدكتور طه حسين (الفتنة الكبرى، عثمان، ص ٧٩٠-٨٠٩) تقسيم التهم إلى دينية يمكن مغفرتها للخليفة عثمان، وأخرى ذات طابع سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى لا يمكن مغفرتها وخاصة تعيينه أقاربه. بينما حرص د. عدنان ملحم (المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص ٩٧-١٢٢) على دراسة وجهة نظر أصحاب الروايات التاريخية القديمة في عرض التهم وهوية كل واحد منهم.

بنى أبي مُعَيْطُ وبنى أمية على رقاب الناس. وقد عوتب في ذلك فلم يُعْتَب، حتى ظهر فسق عماله وانحرفهم عن الجادة، فلم يعزل أحداً منهم إلا مضطراً^(١).

ورغبةً في مناقشة هذه المقولة بشكل موضوعي حتى يتضح صدقها أم مجانبتها للصواب، نعرض مباشرةً لموضوع البحث، باعتبار أن الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْطُ بولايته الكوفة للخليفة عثمان بدلاً من الصحابي المشهور سعد بن أبي وقاص هو المعنى بأن الخليفة عثمان قد حمل بنى أبي معيط على رقاب الناس:

تعريف به ونبدأ بالتعريف به، حيث هو الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْطُ أبان ابن أبي عمرو ذكوان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي. وهو أخو عثمان بن عفان لأمه، أمهما أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وأمها البيضاء أم حكيم ابنة عبد المطلب عمه رسول الله ﷺ. يكنى أبا وهب. أسلم وأخواه عمارة وخالد عند فتح مكة (رمضان ٨هـ / يناير ٦٣٠م) فهم من الطلقاء^(٢).

-
- (١) الفتنة الكبرى (عثمان)، ص ٨٠٠. وانظر مثلاً آخراً لذلك ما قاله يوليوس فلهوزن:- (الدولة العربية، تاريخها من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٥٧، ص ٤٤) في هذا الأمر:- "إن عثمان جرى على اختيار الأمراء والعمال من آل بيته، وبدا كأنها قد تحولت الدولة من كل الوجوه، مأكلة لطائفة ممتازة لها أن تنجني خيرات الأمصار".
- (٢) ابن السائب الكلبي:- جهرة النسب، تحقيق د. ناجي حسن، مطبوعات عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية بيروت، ط ١ سنة ١٩٨٦، ص ٥٢؛ ابن سعد:- الطبقات الكبرى، منشورات دار التحرير بالقاهرة سنة ١٩٦٨، ج ٦، ص ١٥؛ خليفة بن خياط:- كتاب الطبقات حققه وقدم له د. أكرم ضياء العمرى، مطبوعات جامعة بغداد، ط ١ سنة ١٩٦٧، ص ١١؛ ابن قتيبة الدينوري:- المعارف، تحقيق د. ثروت عكاشة، طبعة دار المعارف بمصر (سلسلة ذخائر العرب، رقم ٤٤) القاهرة ١٩٨١، ص ٣١٨-٣٢٠؛ ابن عبد البر:- الاستيعاب في معرفة الأصحاب (على هامش كتاب الإصابة لابن حجر) وفق نصوص الكتابين وحقق أصولها عبد الرؤوف سعد، مطبوعات دار الغد العربي بالقاهرة ١٩٩٩م، م ٦، ص ٣٢٦-٣٢٧، ترجمة رقم ٢٧٤٦؛ ابن حزم:- جهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، مطبوعات دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦٢، ص ١١٤-١١٥؛ ابن عساکر:- تاريخ مدينة دمشق، اختصره ابن منظور الإفريقي، ج ٢٦ تحقيق أحمد راتب حمروش ومحمد ناجي العمر، منشورات دار الفكر بدمشق، ط ١ سنة ١٩٨٩، ص ٣٣٥ (عن نسخة الكتاب الخطية لابن عساکر، ج ١٧ قام على نشرها الشيخ محمد الزرهوني، مطبوعات دار البشير للنشر والتوزيع، ص ٨٦٧)؛ ابن واصل:- تجريد الأغاني للأصفهاني، تحقيق د. طه حسين وإبراهيم الإبياري، مطبوعات دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٥، ق ١ ج ٢، ص ٦٣٩؛ الحافظ المزني:- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج ٣١ حققه وضبط نصه وعلق عليه د. بشار عواد معروف، مطبوعات مؤسسة الرسالة ببيروت، ط ١ سنة ١٩٩٢، ص ٥٣-٥٤؛ الذهبي:- سير

ولا نعلم سيرته قبل إسلامه ولا سنة مولده، غير أن أباه عقبة بن أبي مُعَيْط اشتهر بعدائه الشديد للإسلام ولشخص الرسول ﷺ، بحيث لما أسر في غزوة بدر أمر الرسول بضرب عنقه كمجرم حرب وليس كأسير، هو والنضر بن الحارث^(١). ويبدو أن الوليد تأثر كثيراً من جراء شدة عداؤه أبيه للإسلام وللرسول؛ إذ تعرضت سيرته للإساءة والتشويه في أكثر من موقف (كان بعضها موجهاً في حقيقته لأبيه، وبعضها الآخر للعصر الذي عاشه "عصر الخليفة عثمان بن عفان")، وأصبحت جملة "بنى أبي مُعَيْط" تذكر للدلالة على هذا الماضي البغيض. رغم أن العكس هو الصحيح: - استناداً للقاعدة الشرعية أن الإسلام يُجِبُّ ما قبله، وكذا لحسن إسلام غير واحد من أفراد هذا البيت، كما سنرى.

وأول إشارة عنه تفيد حضوره إلى المدينة المنورة بعد غزوة بدر للمشاركة في فداء ابن عم أبيه الحارث بن أبي وجزة تميم بن أبي عمرو ذكوان بن أمية "فاقتداه بأربعة آلاف (درهم)"^(٢). كذلك يذكر عن الوليد ذهابه منفرداً^(٣)، وفي باقي الروايات مع أخيه عمارة^(٤)، إلى المدينة المنورة مطلع سنة ٧هـ (مايو ٦٢٨م) لإرجاع أخته أم كلثوم بنت عقبة التي أسلمت وهاجرت من مكة إلى المدينة عشية صلح الحديبية (ذى القعدة ٦هـ/ مارس

أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مطبوعات مؤسسة الرسالة بيروت، ط ٣ سنة ١٩٨٥، ج ٣، ص ٤١٢-٤١٣؛ الفاسي المكي: - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، مطبوعات مؤسسة الرسالة بيروت، سنة ١٩٨٦، ج ٧، ص ٣٩٨؛ ابن حجر العسقلاني: - الإصابة في تمييز الصحابة، مطبوعات دار الغد العربي (وبهامشه كتاب الاستيعاب لابن عبد البر) م ٦، ص ٧١٧، ترجمة رقم ٩١٦٧؛ ولنفس المؤلف: - تهذيب التهذيب، مطبوعات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١ سنة ١٩٨٤، ج ١١، ص ١٢٥-١٢٦، ترجمة رقم ٢٤٠؛ وتقريب التهذيب، قابله بأصل مؤلفه محمد عوامة، منشورات دار الرشيد بحلب، سوريا، ط ٤ سنة ١٤٠٩هـ، ص ٥٨٣، ترجمة رقم ٧٤٤٢.

(١) ابن هشام: - السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٥٠-١٥١؛ البلاذري: - أنساب الأشراف، ج ١ تحقيق د. محمد حميد الله، مطبوعات معهد المخطوطات العربية ودار المعارف بمصر، ص ١٤٧-١٤٨. وراجع: - ابن حجر: - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، وثق نصوصه وحقق أصوله طه عبد الرؤوف سعد، منشورات دار الغد العربي، القاهرة ١٩٩٤، م ١١، حديث رقم ٣٨٥٤ و ٣٨٥٦، ص ١٨٥ و ١٨٧.

(٢) ابن هشام: - السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٩٢؛ ابن السائب: - جبهة النسب ص ٥١؛ ابن حزم: - جبهة أنساب العرب، ص ١١٤؛ ابن حجر: - الإصابة، م ٦، ص ٧١٨.

(٣) ابن شبة: - تاريخ المدينة المنورة، ج ٢، ص ٤٩٢ (خلال حديث أم كلثوم بنت عقبة عن نفسها).

(٤) عن عمارة بن عقبة انظر: - ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ٥، ص ١٣٢-١٣٣ ترجمة رقم ١٨٩٦؛ وابن حجر: - الإصابة، م ٤، ص ٧٣٣-٧٣٥ ترجمة رقم ٥٧٤٣.

٦٢٨م)، وذلك بموجب بند الصلح الذي يقضى بإلزام الرسول ﷺ أن يرد من جاءه من قريش مسلماً دون إذن وليه. ولكن الرسول ﷺ رفض إعادتها (وغيرها ممن أسلمن وهاجرن إلى المدينة) تنفيذاً لآية قرآنية كريمة نزلت في هذا الشأن^(١). وعاشت أم كلثوم بنت عقبة بعد ذلك في المدينة وحسن إسلامها وروت أحاديثاً نبوية عن الرسول ﷺ، وتزوجت زيداً بن حارثة قبل استشهاده في غزوة مؤتة، ثم الزبير بن العوام وأنجبت له بنتاً هي زينب قبل طلاقها منه، فتزوجها عبد الرحمن بن عوف الذي توفي عنها بعد أن أنجب منها ولدين إبراهيم وهيداً، وأخيراً تزوجت عمرو بن العاص وتوفيت عنده. وقد حفظ لها الخليفة عمر بن الخطاب أن كانت من أوائل المسلمات المهاجرات من مكة إلى المدينة، فجعل عطاءها في بيت المال ألفي درهم. وحسب ملاحظة اليعقوبي كانت أم كلثوم تحصل على الحد الأقصى للعطاء الممنوح للنساء المهاجرات^(٢).

الوليد بعد إسلامه والتهمة الثلاث

أما الصورة عن الوليد بن عقبة بعد إسلامه فهي قائمة، وتحوى اتهامه ثلاث مرات بأمور خطيرة. إذ اتهم مرتين بأنه فاسق بشهادة القرآن الكريم في سورة الحجرات وفي سورة السجدة، والثالثة أنه عاص لتعليمات الرسول ﷺ بالإحسان إلى زوجته مما استوجب دعاء الرسول عليه:-

«وبالنسبة للتهمة الأولى، فقد تواتر في كتب التفسير أن الوليد بن عقبة عشيء إسلامه، انتدبه الرسول ﷺ لمهمة جمع صدقات عرب بنى المصطلق الخزاعيين. غير أنه عاد سريعاً دون إتمام المهمة، وأخبر أنهم ارتدوا وأنه خشى على نفسه أن يقتلوه لعداوة قديمة بينه وبينهم كما صرحت بعض الروايات. فما كان من الرسول ﷺ إلا أن بعث أحداً غيره للثبث من الأمر، فوجد الأمر عكس ما وصف أولاً، فنزلت الآية الكريمة من سورة

(١) ابن هشام:- السيرة، ج ٣، ص ١٧٦-١٧٧؛ الطبري:- تاريخ الرسل، ج ٢، ص ٦٤٠؛ ابن عبد البر:- الاستيعاب، م ٧، ص ٤٣٨-٤٤٠ ترجمة رقم ٣٦٢٧؛ ابن حجر:- الإصابة، م ٨، ص ٨٤٨-٨٤٩، ترجمة رقم ١٢٢٢٧؛ وأشار ابن حجر (في تقريب التهذيب، ص ٧٥٨ ترجمة ٨٧٦٠) إلى أن أم كلثوم ماتت في خلافة علي بن أبي طالب. والآية الكريمة المشار إليها في المتن هي رقم (١١) من سورة الممتحنة.

(٢) المصادر السابقة والصفحات. وانظر:- اليعقوبي:- تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٣. ولاحظ أن ابن حزم (جمهرة أنساب العرب، ص ١١٥) لا يذكر زواج أم كلثوم من عمرو بن العاص، بل يؤكد أنها لم تتزوج بعد عبد الرحمن بن عوف.

الحجرات: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبٍّ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِيبُوهَا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَتِيدِينَ﴾^(١).

بيد أننا نلاحظ من ناحية أخرى خمسة أدلة تنفى عن الوليد بن عقبة أن يكون هو الفاسق المعنى في الآية الكريمة. أولها، ما ذكره ابن هشام بشأن التحديد الزمني لحادثة انتداب الوليد لمهمة جمع صدقات بنى المصطلق، وأن ذلك كان بعد غزوة بنى المصطلق أو المريسيع مباشرة، والتي حدثت في شهر شعبان سنة ٥هـ أو سنة ٦هـ (يناير ٦٢٧م أو يناير ٦٢٨م) على أكثر تقدير. ولم يكن الوليد بن عقبة قد أسلم بعد؟! ومن العجيب أن نجد اسم الوليد قد أقحم في هذه الرواية دونما تبين عن حقيقة إسلامه حينذاك^(٢). فهل كان ذلك خطأ من أحد النساخ، أو تعبيراً عن الاتجاه العباسى - وهو وقت تدوين السيرة النبوية - لإدانة رموز البيت الأموى بصفة عامة. إذ من المعروف أن ابن هشام (المتوفى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م) قد نسخ هذه السيرة عن أصلها الذى ألفه محمد بن إسحاق (ت ١٥٠هـ/٧٦٧م) بناء على طلب الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور.

(١) الطبرى: - جامع البيان فى تفسير القرآن، طبعة دار الحديث بالقاهرة ١٩٨٧، م ١١ ج ٢٦، ص ٧٨-٧٩، ونظام الدين الحسن النيسابورى: - تفسير غريب القرآن وרגائب الفرقان (على هامش تفسير الطبرى)، م ١١ ج ٢٦، ص ٧٨-٧٩؛ القرطبى: - الجامع لأحكام القرآن الكريم، طبعة دار الريان للتراث، م ٩، ص ٦١٣١ (ولاحظ أنه صرح بوجود عداوة بين الوليد وبنى المصطلق)؛ ابن كثير: - تفسير القرآن العظيم، منشورات مكتبة دار التراث بالقاهرة، م ٤، ص ٢٠٨-٢١٠ (والذى أبدى تشككه فى الأمر بعد أن سرد مرويات كثيرة عن أنه الوليد بن عقبة، فقال: - "والله أعلم"). الشيخ إبراهيم الجبالى: - تفسير سورة الحجرات، بمجلة الأزهر عدد شهر صفر سنة ١٤٢٥هـ، ص ٤٩-٥٠. وراجع كذلك: البلاذرى: - أنساب، ج ٥، ص ٣٥؛ ابن قتيبة: - المعارف، ص ٣١٩، ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ٦، ص ٣٢٨-٣٢٩؛ ابن الجوزى: - المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا وآخرين، مطبوعات دار الكتب العلمية ببيروت، ط ١ سنة ١٩٩٢، ج ٦، ص ٤-٥؛ ابن عساکر: - تاريخ دمشق اختصره ابن منظور، ج ٢٦، ص ٣٣٨-٣٣٩؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٢-٦٤٣؛ الذهبى: - سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٣.

(٢) ابن هشام: - السيرة النبوية، ج ٣، ص ١٥٧-١٥٨؛ ابن سعد: - الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٤٥؛ ابن عساکر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٣٧-٣٣٨. وانظر ترجمة الحارث بن أبى ضرار زعيم بنى المصطلق عند: - ابن حجر: - الإصابة، م ٢، ص ٣٢-٣٣ ترجمة رقم ١٤٣٠.

ثاني هذه الأدلة، ما ذكره المفسر والمؤرخ ابن جرير الطبري (عند تفسيره للآية الكريمة) من حديث أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: - "بعث رسول الله ﷺ رجلاً في صدقات بنى المصطلق، بعد الوقعة ... " ونلاحظ هنا تأكيداً ثانياً أن الحادثة وقعت بعد غزوة بنى المصطلق مباشرة، كما صرح ابن هشام عن ابن إسحاق، بيد أن الشاهد في الحديث كلمة (رجلاً) بمعنى أنه لم يرد صراحة اسم الوليد^(١).

ثالثها، تلك الدراسة التي قام بها أحد الباحثين في مجال التفسير وخلص منها إلى "أن الآية تُحمل على العموم؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب... غاية ما في الباب أن الآية نزلت في هذا الوقت في غير الوليد بن عقبة ﷺ، وبقي حكمها عاماً بعد ذلك يتناول كل فاسق". وذلك بعد نقاش طويل أثبت الباحث من خلاله ضعف معظم أسانيد ومتون المرويات الحديثية (٩ روايات) التي ذكرها المفسرون بشأن الآية الكريمة من سورة الحجرات^(٢). ويتفق هذا مع ملاحظة العلامة الحافظ ابن حجر عن ضعف السند الخاص بتفسير هذه الآية على هذا النحو؛ إذ أنه بعد أن استعرض الرواية كاملة ورجال السند قال: - "وفي السند من لا يُعرف"^(٣).

رابعها، ما ذكره الفقيه أبو بكر بن العربي - عن الإمام أحمد بن حنبل في مسنده - من أن الوليد بن عقبة كان صبيّاً عند فتح مكة، وأنه التف مع بعض الصبية حول الرسول ﷺ الذي مسح على رؤوسهم إلا هو. وأن الوليد ذكر بعد ذلك أن رأسه كان معطراً بدهن

(١) الطبري: - جامع البيان في تفسير القرآن، م ١١ ج ٢٦، ص ٧٨.
(٢) منصور حسن أحمد حسن: - الدخيل في تفسير زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي (من أول سورة الشورى إلى آخر سورة الحديد) رسالة ماجستير من قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بأسبوط، جامعة الأزهر، سنة ٢٠٠١م، ص ١٦٤-١٨٠ و ١٩٤-١٩٥. وقد فند الباحث تسع مرويات حديثية. وراجع كذلك: - د. علي محمد محمد الصلابي: - عثمان بن عفان رضي الله عنه (شخصيته وعصره) طبعة مكتبة الصحابة بالإمارات ومكتبة التابعين بعين شمس، القاهرة، ط ١ سنة ٢٠٠٢م، صفحات ٢٩٨-٢٩٩ من الفصل الخاص بالوليد بن عقبة.
(٣) ابن حجر: - الإصابة، م ٦، ص ٧١٨.

الخلق، بحيث امتنع الرسول ﷺ من مسه. وتساءل ابن العربي قائلاً: "فمن يكون في مثل هذه السن، يرسل مُصَدِّقاً؟!!" (١).

خامسها، أن الاحتجاج بصغر سن الوليد عند فتح مكة كوسيلة لإسقاط تهمة الفسق عنه، قد لا يصمد أمام تأكيد بعض المُحدِّثين والمؤرخين أن الوليد عند الفتح "كان قد ناهز الاحتلام" (٢). وفي رواية أخرى "كان الوليد في زمن النبي ﷺ رجلاً" (٣). بل أكدوا أنه من جملة أصحاب النبي ﷺ، وذكر بعضهم روايته لأحاديث نبوية شريفة (٤). ولهذا ذكروا انتدابه لجمع صدقات بني المصطلق دون تكملة قصة كذبه وفسقه المزعومة (٥). بمعنى

(١) أبو بكر بن العربي: - العواصم من القواصم، ص ٩٠-٩٢ وهامش تحقيق رقم (١). ص ٩٢-٩٣. وانظر رواية أخرى لهذا الحديث عند: - الحافظ الطبراني: - المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة التوعية الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٩٨٣، ج ٢٢، حديث رقم ٤٠٦، ص ١٥٠-١٥١. وعن معنى الخلق انظر: - المعجم الوسيط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط ٢ سنة ١٩٧٢ (مادة خلاق وخلق) ص ٢٥٢.

(٢) ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ٦، ص ٣٢٧؛ الفاسي المكي: - العقد الثمين، ج ٧، ص ٣٩٩. (٣) الطبراني: - المعجم الكبير، ج ٢٢، ص ١٥٠؛ الفاسي المكي: - العقد الثمين، ج ٧، ص ٤٠٠ (عن ابن البرقي).

(٤) ابن سعد: - الطبقات الكبرى، ج ٦، ص ١٥ (باب تسمية من نزل الكوفة من أصحاب رسول الله. واسم الوليد مسلسل رقم ٣٧)؛ خليفة بن خياط: - كتاب الطبقات، ص ١٢٦ (وقد فعل هو الآخر نفس الشيء فأدرج اسم الوليد ضمن صحابة الرسول الذين نزلوا الكوفة)؛ ابن أبي حاتم: - كتاب الجرح والتعديل، طبعة حيدر آباد بالدكن، الهند، ط ١ سنة ١٣٧١هـ، ج ٩، ص ٨ ترجمة رقم ٣١؛ الطبراني: - المصدر والجزء، حديث رقم ٤٠٥، ص ١٥٠؛ ابن عساكر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٣٦؛ الذهبي: - سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٣؛ الحافظ المزني: - تهذيب الكمال، ج ٣١، ص ٥٣-٥٤؛ ابن حجر: - تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ١٢٦؛ وتقريب التهذيب، ص ٥٨٣. وانظر تجريح الحديث المروي عن الوليد بن عقبة لضعف الرواة الذين أخذوه عنه، وذلك عند: - الحافظ الهيثمي: - بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، طبعة دار الفكر بدمشق سنة ١٩٩٢، ج ١، ص ٤٤١ - ٤٤٢ حديث رقم ٨٧٥ من كتاب العلم، وهامش تحقيق ذات الحديث ص ٤٤١. ويقول في هذا الشأن ابن عبد البر (الاستيعاب، م ٦، ص ٣٣٤) إن الوليد "لم يرو سنة يُحتاج فيها إليه". وقد نقلها عنه الفاسي المكي: - العقد الثمين، ج ٧، ص ٤٠٣.

(٥) الطبراني: - المصدر والجزء، حديث رقم ٤٠٤، ص ١٥٠؛ ابن عساكر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٣٦-٣٣٧؛ الحافظ المزني: - تهذيب الكمال، ج ٣١، ص ٥٤. ولاحظ كذلك ورود هذا الخبر (عن ابن سعد في طبقاته) عند كل من: - الفاسي المكي: - العقد الثمين، ج ٧، ص ٣٩٩؛ ابن حجر: - تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ١٢٦.

أنهم يؤكدون أن يكون الرسول ﷺ انتدب الوليد بن عقبة بعد إسلامه (سنة فتح مكة) وهو رجل، لجمع صدقات بنى المصطلق خلال الفترة التي عاشها ﷺ بعد ذلك (يعنى في إحدى سنوات ٨هـ أو ٩هـ أو ١٠هـ) باعتبار الصدقات تؤدي كل سنة. وأن الوليد قد أدى مهمته فعلاً على أكمل وجه، متعظاً هو وغيره من المسلمين بإخبار القرآن الكريم لهم ولغيرهم عن حادثة الفسق الأليمة التي فعلها قبله أحد المسلمين مع بنى المصطلق عشية الغزوة. ولهذا ليس غريباً أن نجد كلاً من أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأخيراً عثمان بن عفان يختارون الوليد بن عقبة لتولى وظائف ذات شأن في الدولة، كما سنرى.

※ أما عن التهمة الثانية، فقد قيل في سبب نزول الآية الكريمة رقم ١٨ من سورة السجدة: - ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾، إن الوليد بن عقبة وعلى بن أبى طالب ﷺ قد تشاحنا. فقال الوليد: - أنا أحدُ منك سناناً، وأسلط منك لساناً، وأملاً للكتيبة منك. فقال له على: - اسكت فإنما أنت فاسق. فغضب الوليد من ذلك وشكى إلى النبي ﷺ بذلك. فنزلت فيه هذه الآية^(١).

ونلاحظ كذلك مغالطة في نسبة الفسق في الآية الكريمة من سورة السجدة إلى الوليد ابن عقبة لأربعة أسباب، يتمثل الأول فيما سوف نلاحظه عن اعتماد أبى بكر وعمر ثم عثمان عليه، كدليل على تبرئة ساحته أن يكون المعنى بالفسق في الآيتين الكريميتين إذ من المحال على هذه الكوكبة من كبار صحابة رسول الله ﷺ، وهم الأكثر دراية بالقرآن الكريم وأحكامه وأسباب نزول كل آية فيه، أن يعتمدوا على الوليد بن عقبة دون التأكد من أنه ليس المعنى بتلك التهمة الخطيرة.

(١) الطبرى: - جامع البيان في تفسير القرآن، م ١٠ ج ٢١، ص ٦٨؛ النيسابورى: - تفسير غرائب القرآن (بهاشم تفسير الطبرى) م ١٠ ج ٢١، ص ٧٢؛ القرطبي: - الجامع لأحكام القرآن، م ٨، ص ٥١٨٧؛ الواحدى النيسابورى: - أسباب النزول، طبعة مكتبة المتنبي بالقاهرة وعالم الكتب ببيروت، ص ٢٦٣. وانظر: - ابن قتيبة: - المعارف، ص ٣١٩، وابن أعثم الكوفى: - كتاب الفتوح، طبعة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، حيدر آباد بالدكن، ط ١ سنة ١٩٦٨-١٩٧٥، ج ٢، ص ٣٥٤-٣٥٥؛ ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ٦، ص ٣٢٩؛ ابن عساكر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٤٠. ولاحظ أن أبى بكر بن العربى (العواصم، ص ٩٠) قد ذكر هذه الحادثة سريعاً داخل سياق حديثه عن آية سورة الحجرات، ولم يذكر شيئاً عن آية سورة السجدة مما جعل محقق الكتاب لا يلتفت إلى المقصود منها.

أما السبب الثاني، فإن إقحام اسم الوليد كطرف في هذه الملاحاة مع علي بن أبي طالب ﷺ، يعني أن هذه الآية الكريمة من سورة السجدة قد نزلت في المدينة المنورة^(١)، استناداً إلى ملازمة علي بن أبي طالب ﷺ للرسول ﷺ والذي لم يؤثر عنه سكنى مكة بعد فتحها. بينما لا نعلم عن مسلمة الفتح أو الطلقاء - ومنهم الوليد بن عقبة - أنهم سكنوا المدينة بعد فتح مكة، لانتفاء المفهوم المكاني للهجرة حسب القاعدة الشرعية: - "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية". وإذا كان الوليد قد سكن المدينة المنورة وعاش في كنف أخيه عثمان بن عفان، كما صرح بذلك بعض الروايات^(٢)، فإننا نرجح أنه حدث أثناء الفترات التي تخللت توليه الوظائف لكل من أبي بكر ثم عمر بن الخطاب.

وعن السبب الثالث، فإن بعض المفسرين يذكرون صراحة أن سورة السجدة نزلت كلها في المرحلة المكية، حيث كان الوليد ما يزال صغيراً، ويصرحون كذلك بأن الآية المعنية نزلت في أبيه عقبة ابن أبي مُعَيْط المعروف بشدة عداوته للإسلام والمسلمين^(٣). كما أن هناك بعض الإشارات عن ضعف الروايات التي صرحت باسم الوليد سنداً ومتناً^(٤).

ولعلنا أخيراً لا نكون مباغين في استشعار هوية شيعية على بعض من أقحموا اسم الوليد بدلاً من أبيه في هذه التهمة. وها هو ابن أعثم الكوفي يجعل ذلك حلقة أولى في مسلسل معاداة الوليد لعل ابن أبي طالب، والذي سوف تتجدد حلقاته (في زعم ابن أعثم) عند حادثة إقامة الحد على الوليد لشربه الخمر، وأثناء الصراع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان كما سنرى. بل نراه يحرص على تزكية إصااق تهمة الفسق بالوليد

(١) المصادر السابقة والصفحات.

- (٢) ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ٦، ص ٣٣٤؛ ابن حجر: - الإصابة، م ٦، ص ٧١٩.
(٣) القرطبي: - الجامع لأحكام القرآن، م ٨، ص ٥١٨٧ (رواية الزّجاج والنّحاس وابن عطية)؛ ابن كثير: - تفسير القرآن العظيم، م ٣، ص ٤٥٦ (حيث التصريح بأن السورة كلها مكية)، وص ٤٦٢ (حيث التأكيد أن المعنى بلفظة الفاسق هو عقبة بن أبي معيط وليس ابنه الوليد). وانظر كذلك: - ابن عساکر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٤٠ (عبارة: - "وقيل إنها نزلت في أبيه")؛ الذهبي: - سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٥ (الذي أكد براءة الوليد رغم قوة الإسناد قائلاً: - "قلت: - إسناده قوى، ولكن سياق الآية يدل على أنها في أهل النار". ثم استأنف قائلاً: - "وقيل: - بل كان السبب بين علي وبين عقبة نفسه").

- (٤) الواحدي: - أسباب النزول، ص ٢٦٣. وراجع: - د. أبو عمر نادی بن محمود حسن: - الدخيل من أسباب التنزيل، مطبعة الأمانة بمصر، سنة ١٩٩٩م، ص ٢٦٠-٢٦١.

وشهادة القرآن الكريم على ذلك بترديد أبيات شعرية ذكر أنها من تأليف الشاعر المشهور حسان بن ثابت، بينما هي ليست في الديوان المطبوع للشاعر حسان، حسبنا لاحظ ناشر كتاب الفتوح لابن أعثم. كما أنها أبيات رديئة من حيث الصنعة الشعرية ويغلب عليها سذاجة ليست معروفة في شعر حسان بن ثابت بل هي امتداد للطابع العام لكل الأشعار التي استشهد بها ابن أعثم في كتابه. ثم نراه يختم حديثه عن هذه الواقعة قائلاً: "وكان (كذا بالنص) هذه قصة الوليد مع علي بن أبي طالب عليه السلام. فلم يزل حاقداً عليه إلى ذلك اليوم" ^(١).

* أما التهمة الثالثة، فقد روى الأصفهاني - ونقل عنه ابن عساكر - أن علي بن أبي طالب شهد حضور امرأة الوليد بن عقبة إلى الرسول ﷺ تشتكي من سوء معاملة زوجها لها، وأكد أن الرسول طلب منها أن تعلم الوليد أنه ﷺ قد أجارها. ولكن الأمر تكرر، مما جعل رسول الله يعطيها شيئاً من متعلقاته كدليل مادي على شفاعته في أمرها. "فلم تلبث إلا يسيراً حتى رجعت فقالت: - ما زادني إلى ضرباً. فرفع ﷺ يده وقال: - اللهم عليك بالوليد، أثم بي مرتين". وفي رواية: - "اللهم عليك بالوليد مرتين أو ثلاثاً" ^(٢).

وأول ما نلاحظه على هذه الرواية، الإقحام ذو المردود الشيعة لاسم علي بن أبي طالب كشاهد وحيد على ظلم الوليد لنفسه ولزوجه وجحوده مكانة الرسول وشفاعته ﷺ. كما أن الجو العام للحادثة يدل على أن الوليد قد سكن المدينة المنورة، الأمر الذي سبق التأكيد أنه غير صحيح وخاصة في حياة رسول الله ﷺ. وأخيراً، لم يكن الوليد بن عقبة بهذه الصورة الكريهة مع نسائه؛ إذ كان معه زوجتان بقصر الإمارة بالكوفة (إحداهما تدعى بنت الربيع بن ذى الخمار، والأخرى بنت أبي عقيل)، وقد حزننا لما أصابه في الليلة

(١) ابن أعثم: - كتاب الفتوح، ج ٢، ص ٣٥٤-٣٥٥. والأبيات هي: -

أنزل الله والكتاب عزيز	في علي وفي الوليد قرآنا
فتبوا الوليد من ذاك فسقا	وعلياً (صوابها: - وعلي) ميوأ إيانا
ليس من كان مؤمناً عرف الله	ه كمن كان فاسقاً خوانا
سوف يجزى الوليد خزيًا وناراً	وعلي لا شك يجزى جنانا
فعلى يجزى هناك جنانا	وليد يجزى هناك هوانا

(٢) ابن عساكر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٣٩-٣٤٠؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني، ج ١، ص ٦٤٣.

المشئومة عندما سُرق خاتم الإمارة من مخدعه أثناء نومه. "فاستيقظ الوليد وامرأته عند رأسه، فلم ير خاتمه فساءلها عنه". وراحت كل واحدة منهما تصف ما شهدته من وراء السر، بحيث عرف منهما حقيقة ضيوفه وما يضمرونه من شر^(١). مما سيتضح في حينه.

لا شك أن رسول الله ﷺ بسياسته التربوية الحكيمة وقاعدته الشرعية التي أرساها "أن الإسلام يجِبُ ما قبله" قد وفر للدولة الإسلامية الجديدة رجالاً ذوى نفع، قطعوا ما بينهم وبين أصولهم الشريكة القديمة وعاشوا أصحاباً في كنف الإسلام. وها هو الوليد قد أزال الغبار الذي كان عالقاً به كونه ابناً لعقبة بن أبي مُعَيْط ووارثاً لعدائه الشديد للإسلام والمسلمين، وذلك بحسن أدائه لمهمة جمع صدقات بنى المصطلق وكان عند ظن رسول الله ﷺ.

وبالنسبة لدور الوليد بن عقبة في عهد الخليفين الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب فقد تنوعت جهوده ما بين جمع الصدقات امتداداً لدوره في العهد النبوي، وبين المشاركة في حركة الفتوح الإسلامية على جبهتي العراق والشام. ويبدو أن الصفة الأولى قد غلبت عليه في بدايات اعتماد الخليفة الصديق عليه، بحيث أدى ذلك إلى اختفاء دوره أثناء قتال المرتدين؛ إذ من المعروف أن دور جامعي الصدقات يأتي دائماً بعد تمام العمليات العسكرية ونجاحها.

ثم نراه - في أول إشارة عملية عنه في عهد الصديق أبي بكر - يقدم إلى المدينة المنورة بعد معركة المذار بجنوب العراق (صفر ١٢هـ/ أبريل ٦٣٣م) مصطحباً خمس الغنائم وحاملاً رسالة من القائد خالد بن الوليد بأخبار انتصاراته على الفرس وحلفائهم عرب العراق^(٢). ثم إن الخليفة الصديق بعد اطلاعه على تطور عمليات القتال الدائر على جبهة العراق، قرر أن ينتدب الوليد لجبهة الشام. يقول ابن كثير عن ذلك: - "ولما قدم الوليد بن عقبة على الصديق بالخمس رده الصديق إلى عياض بن غنم، مدداً له وهو محاصر دومة الجندل"^(٣). ويبدو أن ذلك كان على هامش مسير الوليد لتولى صدقات عرب قضاة

(١) ابن عساکر: - المصدر السابق والجزء، ص ٣٤٤-٣٤٥.

(٢) الطبري: - تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٥١؛ ابن كثير: - البداية والنهاية، م ٣ ج ٦، ص ٨٩٨. ويلاحظ أن ابن الأثير (الكامل، ج ٢، حوادث سنة ١٢هـ) لم يذكر أي دور للوليد في حوادث هذه السنة، رغم أن كتابه في الأصل يعد اختصاراً شديداً لكتاب الطبري.

(٣) الطبري: - تاريخ الرسل، ج ٣، ص ٣٧٧؛ ابن كثير: - المصدر والجزء، ص ٩٠٥-٩٠٦.

بذات الإقليم؛ إذ لم نجد له دوراً قتالياً في مساندة القائد عياض الذى تخرج موقفه وقواته إثر تعرضهم لكمين نصبه لهم عرب الغساسنة حلفاء الروم على مقربة من دومة الجندل. فقط اكتفى الوليد بتقديم النصيح للقائد عياض بضرورة مكاتبة خالد بن الوليد الموجود في جبهة العراق وطلب المدد منه، باعتبار أن "الرأى في بعض الحالات خير من جند كثيف" حسب قول الوليد نفسه^(١). والدليل على أن الوليد إنما كان متجهاً أصلاً للإشراف على صدقات عرب قضاة المقيمين على مشارف الشام، أن الخليفة أبا بكر الصديق قد جعله شريكاً للصحابي الشهير عمرو بن العاص في تولى ذات المهمة، "وأوصى كل واحد منهما بوصية واحدة"^(٢).

وقد استمر عمرو بن العاص والوليد بن عقبة في عملهما الجديد بقية سنة ١٢هـ ومطلع التالية (٦٣٣-٦٣٤م)، حتى قرر الخليفة الصديق إسناد مهام قتالية لعمال الصدقات، وإرسالهم مع بقية الجنود مدداً لأصحاب الألوية الأربعة المتجهة للشام، رداً على ازدياد الكثافة العددية لجنود الروم واشتغالهم بتنظيماتهم الحربية العتيدة دفاعاً عن ممتلكاتهم بالشام. وسمى هذا الجيش الجديد "بجيش البُدال"^(٣). وبالنسبة لعمرو بن العاص والوليد بن عقبة فقد كتب إليهما الخليفة أبو بكر أن: "استخلفا على أعمالكما واندبا من يليكما. فولى عمرو على عليا [علياء] قضاة: - عمرو بن فلان العذرى. وولى

(١) المصدران السابقان والصفحات.

(٢) الطبرى: - المصدر والجزء، ص ٣٨٩؛ ابن كثير: - المصدر السابق، م ٤ ج ٧، ص ٥. وانظر: - ابن الأثير: - الكامل، ج ٢، ص ٢٥٣ (حيث يذكر الوليد بن عقبة لأول مرة، ويجعل ذلك في حوادث سنة ١٣هـ) ولاحظ تأكيد د. أكرم العمرى (عصر الخلافة الراشدة، ص ١٥١) أن الوليد بن عقبة كان من عمال الصدقة على عرب قضاة في عهد أبي بكر الصديق.

(٣) الطبرى: - ج ٣، ص ٣٨٩؛ ابن الأثير: - ج ٢، ص ٢٥٣. ولاحظ أن الدكتور على محمد محمد الصلابي (سيرة أبي بكر الصديق، مطبوعات دار الفجر للتراث بالقاهرة، ط ١ سنة ٢٠٠٣م ص ٣٠١ هامش رقم ٢) قال عن جيش البدال إنه = الجيش الذى تم تجهيزه من جديد تحت إمرة القائد عكرمة بن أبى جهل للمسير إلى الشام نجدة لخالد بن سعيد ابن العاص بدلاً من الجيش السابق الذى كان عكرمة قد سرحه فور عودته إلى المدينة من قتال المرتدين باليمن. مخالفاً بذلك الطبرى وابن الأثير اللذين أكداً أنه الجيش الذى تكون من عمال الصدقات بعد أن أبدلهم الخليفة الصديق مهام قتالية لحرب الروم، وكان منهم عمرو بن العاص والوليد بن عقبة. ومثل هذا الشيء حدث لسعد بن أبى وقاص على جبهة الفرس.

الوليد على ضاحية قضاء مما يلي دومة [يعنى أسفل دومة الجندل]: - امرأ القيس. وندبا الناس، فتتألم إليهما بشر كثير، وانتظرا أمر أبي بكر^(١).

وشهدت الأيام الأولى لمسير الألوية الأربعة إلى الشام (مطلع سنة ١٣ هـ/ مارس ٦٣٤م) مفاجأة سارة في بدايتها، وهى أن الوليد بن عقبة قد جعله الخليفة الصديق أميراً على لواء الأردن وذلك إلى جانب عمرو بن العاص صاحب لواء فلسطين ويزيد بن أبي سفيان صاحب لواء دمشق وأبى عبيدة ابن الجراح صاحب لواء حمص ومركز القيادة العامة في الجابية^(٢). ولكن الموازين اختلت عند تطور عمليات القتال في جبهة الأردن، إثر تعرض القوة الإسلامية لكمين بيزنطى عند مرج الصُفَر بين الواقصة ودمشق، وتعجل خالد بن سعيد بن العاص - أحد القادة الفرعيين للقوة هناك - مبادأة الجنود البيزنطيين بالهجوم دون استيعاب للموقف أو التنسيق مع قائده الوليد، مما أدى إلى نجاح البيزنطيين في اختراق الصفوف وإجبار المقاتلين المسلمين على الفرار. وفعلاً فر الوليد وخالد بن سعيد بن العاص بعد مقتل ابنه^(٣).

وقد أدت هذه الأحداث المؤسفة بالخليفة أبى بكر الصديق إلى إصدار قراره بإحلال الصحابى الجليل شريحيل بن حسنة في قيادة لواء الأردن بدلاً من الوليد بن عقبة الذى صدر القرار كذلك بمنعه وخالد بن سعيد بن العاص من دخول المدينة المنورة أو المثول أمامه تعزيراً لهما وحتى لا يرسخ في الأذهان كونهما فارسين من المعارك. واستمر مقيمين بظواهر المدينة حوالى شهراً توفى خلاله الخليفة الصديق. ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة (جماد آخر ١٣ هـ/ أغسطس ٦٣٤م) أذن لهما بالحضور إليه، ربما للتعرف منهما على حقيقة فرارهما أمام البيزنطيين، ثم ردهما إلى الشام وأمرهما بملازمة الجهاد كآحاد الجنود وإثبات مقدرتهما العسكرية تكفيراً عما سبق، قائلاً: "فانضموا إلى أى أمرائنا أحببنا. فلحقا بالناس فأبليا وأغنيا"^(٤).

(١) الطبرى: - ج ٣، ص ٣٩٠؛ ابن الأثير: - المصدر والصفحة؛ ابن كثير: - البداية والنهاية، م ٤ ج ٧، ص ٥.

(٢) الطبرى: - المصدر والصفحة؛ ابن الأثير: - المصدر والصفحة.

(٣) الطبرى: - ج ٣، ص ٣٩١؛ ابن الأثير: - ج ٢، ص ٢٥٤-٢٥٥. وراجع بتفاصيل مختلفة عند: د. الصلابي: - سيرة أبى بكر الصديق، ص ٣٦١-٣٦٢.

(٤) الطبرى: - ج ٣، ص ٤٣٥-٤٣٦؛ ابن الأثير: - ج ٢، ص ٢٥٥. وانظر ترجمة خالد بن سعيد بن العاص الذى اختتم حياته شهيداً في فتوح الشام بعد ذلك مباشرة، عند: ابن كثير: - البداية والنهاية، م ٤ ج ٧، ص ٤٥.

ولا شك أنها كانت تجربة قاسية جعلت الوليد وصاحبه يتفانيان في القتال خلال المعارك الشهيرة التى أدت إلى فتح الشام وفلسطين كأجنادين واليرموك وغيرها، خلال الفترة من ١٣هـ إلى ١٥هـ (٦٣٤-٦٣٦م)، مما جعل الصورة تختلف إلى الأحسن. بحيث أكدت الروايات أنه أصبح من قادة فتح شمال الشام أخريات سنة ١٥هـ ومطلع التالية (٦٣٦-٦٣٧م)، وظهر دور الوليد حينئذ كمسئول عن تأمين الخطوط الخلفية لزملائه قادة فتح منطقة الدروب بجنال طوروس الفاصلة بين شمال الشام وآسيا الصغرى أو ما سيعرف بمنطقة الثغور. يقول الطبرى: "طلع من قبل الكوفة عمر بن مالك من قبل قرقيسيا، وعبد الله بن المعتّم من قبل الموصل، والوليد بن عقبة من بلاد بنى تغلب وعرب الجزيرة. وطووا مدائن الجزيرة من نحو هرقل .. إلا أنهم خَلَفُوا في الجزيرة الوليد لثلا يُؤْتُوا من خلفهم. فأدرب خالد (بن الوليد) وعياض (بن غنم) مما يلي الشام، وأدرب عمر وعبد الله مما يلي الجزيرة، ولم يكونوا أدربوا قبله، ثم رجعوا. فهى أول مُدْرِبة كانت في الإسلام سنة ست عشرة (٦٣٧م)"^(١).

وقد توجت جهود الوليد بتعيينه فقط على صدقات عرب الجزيرة، وليس والياً على الإقليم، وذلك حينما أصدر الخليفة عمر بن الخطاب لأبى عبيدة بن الجراح القائد العام للجهة الشام أن "سرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ"، بينما تقرر تعيين قائد آخر هو حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها^(٢). فانبرى الوليد لأداء مهمته مستنفراً همم العشائر العربية من تغلب الربيعية وإياد لسداد الالتزامات المقررة عليهم والمساعدة في تأمين الفتوح الإسلامية "فنهض معه مسلمهم وكافرهم". ولكن عرب إياد عصوا وانسحبوا إلى داخل حدود الروم، فكتب الوليد بذلك إلى الخليفة عمر

(١) الطبرى: - ج ٣، ص ٦٠١-٦٠٢. ويلاحظ أن البلاذرى والواقدى في كتابيهما عن فتوح البلدان والشام لم يذكر اسم الوليد بن عقبة ضمن قادة فتح الشام أو منطقة الدروب. وانظر: - الشيخ محمد الحضرى: - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، مطبوعات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٢١٨ (حيث جعل الوليد بن عقبة ثالث ثلاثة شاركوا في فتح إقليم الجزيرة).

(٢) ابن قتيبة: - المعارف، ص ٣١٩؛ الطبرى: - ج ٤، ص ٥١ و ٥٥؛ ابن الأثير: - ج ٢، ص ٣٧٦-٣٧٨. وقارن: - ابن عساكر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٣٧؛ ابن الجوزى: - المنتظم، ج ٦، ص ٥؛ الذهبي: - سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٤؛ ابن حجر: - تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ١٢٦. ويلاحظ أن: - د. أكرم العمرى (عصر الخلافة الراشدة، ص ١٣٢) قد أكد أن الوليد كان من ولادة عمر بن الخطاب على إقليم الجزيرة.

الذي كتب بدوره كتاباً إلى الإمبراطور البيزنطي هرقل بعدم إيواء أولئك الفارين وإعادة تم إلى موضع سكنهم وإلا سيقوم بترحيل أهل الذمة من نصارى الشام إليه. فردهم هرقل وكانوا أربعة آلاف رجل مع ذويهم^(١).

ويمكن القول إن هذا التصرف من جانب عرب إياد جعل الوليد يتشدد في معاملة نصارى المنطقة بصفة عامة، الأمر الذي رفضه الخليفة عمر وأقره على أخذ الجزية منهم فقط. ولكن نصارى تغلب رفضوا ذلك استناداً لما عندهم من "عز وامتناع". مما كان يعنى توتر العلاقة بينهم وبين الوليد الذى أصر على إخضاعهم لنفوذ الدولة وشرع فى اتخاذ إجراءات أكثر صرامة، كان من الممكن أن تهدد الوجود الإسلامى فى المنطقة. ولهذا جاء قرار الخليفة عمر بعزل الوليد عن منصبه ليحل محله اثنان من القادة هما فرات بن حيان وهند بن عمرو الجملى^(٢). وقد انصاع الوليد لقرار العزل وخرج من منطقة الجزيرة عائداً إلى المدينة المنورة، بعد أن ترك مائة من الإبل وديعة عند أحد مسلمى تغلب ويدعى حريث بن النعمان الذى خان الأمانة وضمها إلى حوزته^(٣).

وثمة إشارة تدل على نجاح الوليد بن عقبة فى تعامله مع عرب الجزيرة رغم تشدده مع مخالفيهم. فقد اشتكى إليه أحد نصارى المنطقة، وكان شاعراً مجيداً يدعى أبا زبيد الطائى، اضطهاد أخواله له فى إحدى القضايا، "فأخذ له الوليد بحقه. فشكرها له أبو زبيد وانقطع إليه، وغشيه بالمدينة"^(٤). بمعنى أن زيارة أبى زبيد للوليد استمرت بعد صرفه عن منصبه بالجزيرة وفترة إقامته بالمدينة المنورة، ثم إلى ما بعد ذلك كما سرى.

يتضح لنا مما سبق أن الوليد إثر صرفه عن منصبه كجامع لصدقات عرب الجزيرة قد عاد إلى المدينة المنورة حيث أقام فى كنف أخيه لأمه عثمان بن عفان، ومجاوراً لأخته أم كلثوم بنت عقبة وزوجها حينذاك عبد الرحمن بن عوف^(٥). ويتعارض هذا مع رواية أخرى مفادها أن الوليد بن عقبة لم يعزل عن منصبه بإقليم الجزيرة، بل استمر إلى آخر خلافة عمر بن الخطاب وصدر من خلافة عثمان بن عفان وأنه انتقل مباشرة إلى ولاية

(١) الطبرى: - ج ٤، ص ٥٥؛ ابن الأثير: - ج ٢، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٢) الطبرى: - ج ٤، ص ٥٥ - ٥٦؛ ابن الأثير: - ج ٢، ص ٣٧٨.

(٣) الطبرى: - ج ٤، ص ٥٦.

(٤) ابن عساکر: - المصدر السابق والجزء، ص ٣٤٢.

(٥) انظر ما سبق (ص ٥ هامش رقم ٤).

الكوفة^(١). إلا أننا نميل لترجيح رواية عزله وعودته إلى المدينة المنورة حيث أوى إلى الظل قرابة ثمانى سنوات قبل أن يستعمله الخليفة عثمان على الكوفة خلال سنة ٢٥هـ، وذلك تفسيراً لانحسار الضوء عنه خلال هذه الفترة.

أقدم الخليفة عثمان خلال سنة ٢٥هـ (٦٤٦م) - على تعيين الوليد بن عقبة والياً على الكوفة بدلاً من الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص الذى كان قد استدان مبلغاً مالياً من بيت مال الكوفة وعجز عن السداد فى الموعد المحدد. فتشدد عامل خراج الإقليم حينذاك عبد الله بن مسعود، وهو أيضاً صحابي جليل، فى تحصيل الدين ولم يمهل الوالى سعد مدة جديدة، واستعان كل طرف بأناس ينصرونه على الطرف الآخر "فافترقوا بعضهم يلوم بعضاً". فلما بلغ الخبر الخليفة عثمان، قرر عزل سعد بن أبي وقاص عن الولاية وأبقى على ابن مسعود عاملاً على الخراج، وأرسل الوليد بن عقبة والياً على الإقليم^(٢).

ورغم بساطة هذا الاختلاف، لاعتراف سعد بقيمة القرض وطلبه فقط نظرة إلى ميسرة، فإننا نعتقد أن الخليفة عثمان رأى فيه فرصة لمعاودة أهل الكوفة شغبتهم على الولاة، الأمر الذى حدث قبل ذلك ضد سعد بن أبي وقاص نفسه وكذا الصحابي الجليل عمار بن ياسر أثناء خلافة عمر بن الخطاب^(٣). مما سيؤثر سلباً على دور الكوفة فى متابعة وتأمين فتوح أرمينية وأذربيجان، مقابل اختصاص البصرة بمتابعة فتوح فارس

(١) الطبرى: - ج ٤، ص ٢٤٨؛ ابن الأثير: - ج ٢، ص ٤٧٧. وانظر: - ابن حجر: - فتح البارى بشرح صحيح البخارى، م ١٠، ص ٦٠٢، فى تعليقه على حديث رقم ٣٦٩٦ من باب مناقب عثمان بن عفان، حيث قال ما نصه عن عثمان: - "وعزل سعداً واستحضر الوليد وكان عاملاً بالجزيرة على عسرهما، فولاه الكوفة".

(٢) ابن سعد: - الطبقات الكبرى، ج ٦، ص ١٥؛ خليفة: - تاريخ خليفة، تحقيق د. أكرم العمرى، مطبوعات دار القلم ومؤسسة الرسالة بدمشق وبيروت، ط ٢ سنة ١٣٩٧ هـ، ص ١٥٧؛ البلاذرى: - أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٢٩؛ اليعقوبى: - تاريخ اليعقوبى، ج ٢، ص ١٦٥؛ ابن عساکر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٣٥؛ ابن الجوزى: - المنتظم، ج ٤، ص ٣٦٠-٣٦١؛ و ج ٦، ص ٥؛ ابن الأثير: - الكامل، ج ٢، ص ٤٧٦-٤٧٧؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني ق ١ ج ٢، ص ٦٣٩-٦٤٠؛ الذهبى: - سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٤؛ الفاسى المكي: - العقد الثمين، ج ٧، ص ٤٠١ و ٤١٠-٤١١.

(٣) اليعقوبى: - تاريخ، ج ٢، ص ١٥٥؛ الطبرى: - ج ٤، ص ١٤٤ و ١٦٣؛ ابن الأثير: - ج ٢، ص ٤٣٣.

وخراسان^(١). ولهذا جاء اختيار الخليفة عثمان للوليد بن عقبة أميراً على الكوفة، لأنه كان يعلم عنه خبرة عسكرية وحزماً إدارياً أثناء توليه صدقات عرب الجزيرة حتى إن تشدده مع المخالفين من نصارى المنطقة كان السبب في جعل عمر بن الخطاب يعزله؛ إذ "خاف أن يخرجوه (أى الوليد) وأن يضعف صبره فيسطو عليهم، فعزله"^(٢). بمعنى أن الموضوعية والحرص على الصالح العام كانا السبب في جعل الخليفة عثمان يختار الوليد على الكوفة، وليس لاعتبارات أخرى.

ورغم ذلك فإنه يحلو لبعض قدامى المؤرخين ومُحدثيهم التشكيك في هذا القرار، زاعمين أن الخليفة عثمان قد راعى في الوليد كونه أخاه لأمه، وأنه خالف بذلك وصية سلفه عمر بن الخطاب ألا يحمل بنى أبي مُعَيْط وبنى أمية على رقاب الناس، وهى المخالفة التى زعموا كذلك أنها أتت بحدث صغير على حساب صحابى كبير، وأن ذلك كان سبباً في إلحاق الأذى بعامّة أهل الكوفة وخاصتهم، فضلاً عن القول بفسق الوليد وشهادة القرآن الكريم على ذلك^(٣).

❖ ولا شك أننا في غنية عن تكرار القول بشأن فرية الفسق وكيف ثبتت لنا براءة الوليد منها ومن غيرها. كما سبلى الحديث حالاً عن سياسة الوليد في إدارة شئون الكوفة وهل كانت فاتحة خير لأهلها أم غير ذلك؛ إذ إنه بيت القصيد بالنسبة لهذه الدراسة.

(١) راجع قرار الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٢هـ بالفصل بين اختصاصات الإقليمين عند:- الطبرى:- ج ٤، ص ١٦٠-١٦١؛ ابن الأثير:- ج ٢، ص ٤٣٢. وسبلى الحديث حالاً عن شغب أهل أذربيجان وأرمينية على الحكم الإسلامى منتهزين وفاة عمر بن الخطاب.

(٢) الطبرى:- ج ٤، ص ٥٦.

(٣) لمجهول:- الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٣٥؛ البلاذرى:- أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٢٩ - ٣٠؛ البعقوبى:- تاريخ، ج ٢، ص ١٥٨؛ وانفرد المسعودى (مروج الذهب ج ٢، ص ٣٤٣-٣٤٤) بالتصريح بأن عثمان بن عفان قد عين الوليد بن عقبة على الكوفة "وهو ممن أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه من أهل النار"؛ ابن واصل:- تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٣٩ (حيث يذكر سبباً ساذجاً عجيباً لتولية الوليد على الكوفة). وراجع:- يوليوس فلهوزن:- الدولة العربية، ص ٣٩-٤٤ د. طه حسين:- الفتنة الكبرى، عثمان ص ٧٣١ و ٨٠٠ د. محمد جمال الدين سرور:- الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، طبعة دار الفكر العربى، ص ٥٧-٥٩ د. حامد جامع:- على بن أبى طالب رضى الله عنه (حاكماً وفتياً)، منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عن وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة سنة ٢٠٠٣ م، ج ١، ص ١٤١-١٤٣.

*** أما القول بأن تعيين الوليد بن عقبة إنما كان على حساب الصحابي الكبير سعد بن أبي وقاص فقد لوحظ أن ذلك كان سياسة عامة شملت أيضاً مصر التي استقر في ولايتها سنة ٢٥هـ (٦٤٦م) عبد الله بن سعد بن أبي سرح بدلاً من الصحابي الشهير عمرو بن العاص، والبصرة التي أسندت ولايتها في سنة ٢٩هـ (٤٩/٦٥٠م) إلى عبد الله بن عامر بن كريز بدلاً من الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري^(١). وقد دافع الخليفة عثمان بن عفان عن وجهة نظره في إفساح المجال أمام الشباب بأنه كان مقتدياً برسول الله ﷺ الذي عين أسامة بن زيد بن حارثة ذي العشرين ربيعاً في قيادة جيش الشام مع وجود كبار القادة من شيوخ الصحابة^(٢). ويقتضي السياق كذلك تذكر الملف الإداري للوليد بن عقبة نفسه وما تخلله من مهام أسندتها إليه الخليفان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وظهر خلالها قسماً لكبار الصحابة مما سبق الحديث عنه. وأخيراً ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب عندما صرف سعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة لشكاية أهلها ضده خلال سنة ٢١هـ (٦٤٢م)، وعين بدله عبد الله بن عبد الله بن عتبان، ثم استبدله بزياد بن حنظلة قبل أن يأتي أخيراً بعمار بن ياسر في تلك الولاية^(٣). مما يدل على أن الدفع بقيادات شابة في وظائف الدولة كان شيئاً عادياً ومعروفاً أنه لتحقيق الصالح العام. ولعل هذا ما جعل الدكتور أكرم العمري يصرح بأن الخليفة عثمان حرص على اختيار ولاية الأمصار من أهل الكفاءة الإدارية والدربة العسكرية^(٤).

*** وعن القول بأن قرار عثمان تولية الوليد كان مخالفاً وصية عمر بن الخطاب ألا يحمل بني أبي مُعَيْط وبني أمية على رقاب الناس، فإننا لا نقر بهذه الوصية أصلاً،

(١) الكندي:- ولاية مصر، تحقيق د. حسين نصار، مطبوعات دار صادر بيروت ١٩٥٩، ص ٣٤؛ الطبري:- ج ٤، ص ٢٥١ و ٢٦٤؛ ابن الأثير:- ج ٢، ص ٤٩١.

(٢) انظر دفاع عثمان عن وجهة نظره أمام منتقديه عند:- الطبري:- ج ٤، ص ٣٤٦-٣٤٨. وعن ظروف تولية أسامة ابن زيد قيادة جيش الشام وما أثاره ذلك من دهشة، انظر:- ابن هشام:- السيرة النبوية، ج ٤، ص ١٤٢ و ١٧٠. وراجع:- د. محمد حسين هيكل:- حياة محمد، منشورات مكتبة الأسرة عن الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط ٣ سنة ١٩٩٦، ص ٣٩١-٣٩٢.

(٣) الطبري:- ج ٤، ص ١٢٢ و ١٣٨.

(٤) د. أكرم العمري:- عصر الخلافة الراشدة، ص ١٣٣-١٣٥. وقد تتبع سيادته ولاية عثمان على الأقاليم وأثنى على إيجابياتهم بصفة عامة بما فيهم الوليد بن عقبة، كما سيلي تفصيله.

لسبيين:- أنها تعنى اتهام الخليفة عمر بالتناقض؛ إذ إنه يحذر غيره من الميل لأشخاص قد استعملهم هو نفسه في وظائف الدولة. كما أنه "هو الذى اختار أعضاء مجلس الشورى، لكونهم من أبرز الشخصيات العامة. الأمر الذى يثير التساؤل بشأن ما نسب إليه من انتقادات وجهها إليهم". وذلك حسب تعبير د. عدنان ملحم الذى قام على دراسة هذه الوصية مفنداً أقدم الروايات التى أوردتها، وهى تحديدًا:- مرويات البلاذرى فى أنسابه واليعقوبى فى تاريخه وصاحب كتاب الإمامة والسياسة والطبرى. وخلص سيادته إلى نفيها بعد أن لاحظ تضاربها فيما بينها ووضح الأهواء الشيعية والعباسية عليها، قائلاً:- "ومن الصعب الأخذ بهذه الروايات لأن عمر نفسه هو الذى اختار ... ولأنها أشارت إلى مقدرة عمر على توقع الغيب، وهو أمر لا يمكن الأخذ به. والمرجح أن هذه الروايات أضيفت عقب انتهاء أحداث الفتنة لأهداف شيعية وعباسية واضحة"^(١). ونعجب لأن كتب الصحيح من سنة رسول الله ﷺ قد حفظت وصية عمر بن الخطاب إثر طعنه لمن يأتى بعده من الستة الذين اختارهم دون تحديد لأيهم، وكانت عبارة عن نصائح عامة فى الحكم ولم تحو أية إشارة عن مراعاة الأقارب. وما هو البخارى يذكرها فى صحيحه على النحو التالى:- "أوصى الخليفة من بعدى:- بالمهاجرين الأولين ... وأوصيه بالأنصار خيراً... وأوصيه بأهل الأمصار خيراً... وأوصيه بالأعراب خيراً... وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن ..."^(٢).

❖ أما القول بأن الخليفة عثمان قد راعى فى الوليد كونه أخاه لأمه، فإننا نختصر المسافة بتوضيح مفهوم القربى لدى أفراد هذا الجيل من المسلمين الأوائل، مؤكدين أنها كانت قرابة لا تؤثر على الحق أو العدل، الأمر الذى أكدته الخليفة عثمان فى دفاعه عن نفسه مفنداً قول من قال إنه يجب أهل بيته ويعطيهم:- "فأما حبنى فإنه لم يَمَلْ معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم. وأما إعطاؤهم فإنى أعطيتهم من مالى، ولا أستحل أموال

(١) د. عدنان ملحم:- المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص ٨٤-٨٦.

(٢) ابن حجر:- فتح البارى، م ١١، كتاب فضائل أصحاب النبى، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان، حديث رقم ٣٧٠٠، ص ١٥-١٧. وانظر تعليقات ابن حجر على متن الحديث وبداية زيادات الرواة والإخباريين على النص.

المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس"^(١). وكذا فعل على بن أبى طالب فى رده الحاسم على عبد الرحمن بن عوف متولى كبر مجلس الشورى قبل انتخاب عثمان:- "إن على الاجتهاد لأمة محمد، حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها، كان فى بنى هاشم أو غيرهم"^(٢). ولا ننسى أن أول اتهام بسوء التقدير والميل لمحابة الأقارب قد وجه لرسول الله ﷺ أثناء توزيع غنائم يوم حنين فى موضع الجعرانة. ذلك أن الأنصار من أهل المدينة حزنوا لحصول فريق من مسلمة فتح مكة أو الطلقاء وغيرهم من حديثى العهد بالإسلام على نصيب أكبر من الغنائم، وقال قائلهم:- "لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه". الأمر الذى نفاه بشدة رسول الله ﷺ مؤكداً قاعدة شرعية توجب تأليف قلوب أولئك المسلمين الجدد ببعض الأشياء المادية، وهو ما أكدته كذلك القرآن الكريم^(٣). بمعنى أنهم لم يُعامَلوا على هذا النحو لاعتبار القربى، وإنما لكونهم مسلمين يرجى لهم أن يمس الإيمان شغاف قلوبهم بتلك الوسائل المادية، عكس المخلصين من قدامى المؤمنين، مما يعود أخيراً بالنفع على دولة الإسلام حيث ينعكس فهمهم العميق لقضايا الدين على أدائهم الجيد لوظائف الدولة؛ إذ الارتباط آنذاك كان وثيقاً بين الدين والدنيا.

وعليه، فإن الموضوعية تقضى أن يكون الحكم على صحة أو خطأ قرار التولية وهل كان يحوى شبهة مجاملة لقراءة أو ... أو ... أم وضعاً للشخص المناسب فى المكان المناسب (يكون) من خلال استعراض سياسة الوليد بن عقبة فى إدارة شئون الكوفة، وهل نجح فى السير بدفة الأمور نحو شاطئ الأمان أم لا؟

تنوعت سياسة الوليد فى إدارة شئون الكوفة، فظهرت بصماته فى الجانب الإدارى والاجتماعى وتفقد شئون الأمن الداخلى، بيد أن الطابع الجهادى كان الشغل الشاغل له، حرصاً على النهوض بمسئولية إقليم الكوفة تجاه متابعة وتأمين الفتوح الإسلامية فى أرمينية وأذربيجان. خاصة وأن أهل أذربيجان قد انتهزوا وفاة الخليفة عمر بن الخطاب

(١) الطبرى:- ج ٤، ص ٣٤٧. ولاحظ الإحصاء الذى أجراه د. أكرم العمرى (عصر الخلافة الراشدة، ص ١٣٧-١٣٩) عن ولاية عثمان طوال خلافته وعددهم ٣٤ والياً، وأن أقاربه كانوا سبعة فقط.

(٢) لمجهول:- الإمامة والسياسة، ص ٣٠.

(٣) ابن هشام:- السيرة النبوية، ج ٤، ص ٧٢-٧٣. والآية الكريمة رقم ٦٠ من سورة التوبة من سور القرآن الكريم. وقد أسمت أولئك المسلمين حديثاً بالمؤلفة قلوبهم وجعلتهم فى المرتبة الرابعة من مراتب مستحقى العطاء فى الدولة.

فنفقوا صلحهم مع الإدارة الإسلامية "فلما ولي عثمان، وولى الوليد بن عقبة الكوفة سار حتى وطئهم بالجيش". وذلك حسب تعبير الطبرى الذى أورد الخبر فى حوادث سنة ٢٤هـ (٦٤٥م) مخالفاً السياق العام للأحداث والذى يقضى بولاية الوليد للكوفة ابتداء من سنة ٢٥هـ (٦٤٦م)^(١). ويلاحظ أن بعض المؤرخين يجعلون تواريخاً مختلفة لهذه الغزوة، كما اختلفوا كذلك فى ذكر تفاصيل العمليات العسكرية^(٢)، مما يجعلنا نرجح حدوثها على أكثر من مرحلة:-

ففى البداية، انتهز أهل أذربيجان وفاة الخليفة عمر بن الخطاب، فنقضوا صلحهم مع الإدارة الإسلامية مطلع خلافة عثمان بن عفان^(٣). وقد وضع عجز عامل المنطقة عتبة بن فرقد عن إخماد التمرد، فأقدم الوليد بن عقبة فور توليه الكوفة على عزله مما أدى إلى تفاقم الخطر فى نواحي أرمينية كذلك، ربما لخلو المنطقة من الجنود الذين لا ريب عادوا مع واليهم المعزول^(٤). فقرر الوليد الخروج بنفسه على رأس الجيش معتمداً على مرابطة

(١) الطبرى:- ج٤، ص ٢٤٦-٢٤٧. حيث يؤكد عن أحد رواته، وهو أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي، تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٢٤هـ. وعاد سريعاً ليؤكد أن رواية آخرين غير أبى مخنف جعلوها فى سنة ٢٦هـ. بيد أن الطبرى لم يذكرها هناك، فقط ذكر خبر تولى الوليد للكوفة.

(٢) اتفق كل من خليفة بن خياط (تاريخ خليفة، ص ١٥٧-١٥٨ و ١٦٠) والذهبي (العبر فى خبر من غير، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، مطبوعات حكومة الكويت، ط ٢ سنة ١٩٤٨، ج ١، ص ٢٨-٢٩) فى أن الوليد بن عقبة سار فى سنة ٢٥هـ تجريدة عسكرية إلى ناحية بردعة من نواحي أذربيجان، ثم كانت حملته الكبرى على الإقليم فى سنة ٢٨هـ. وانفرد ابن الأثير (الكامل، ج ٢، ص ٤٧٧-٤٧٨) بذكر سبب غريب لتمرد أهل أذربيجان وأنه كان فى أعقاب عزل عامل الإقليم عتبة بن فرقد من جانب الوليد بن عقبة، كنوع من رد الفعل لحادثة العزل. وذلك رغم تأكيد ابن الأثير على حدوث التمرد فى سنة ٢٥هـ، ورغم انفراده بذكر تفاصيل متكاملة لتحركات الوليد العسكرية فى المنطقة.

- وعلى حين ذكرها ابن الجوزى (المنتظم، ج ٤، ص ٣٤٥) تماماً مثل ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٥هـ دونها التباس زمنى، نجد ابن كثير (البداية والنهاية، م ٤ ج ٧، ص ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩) يجعلها فى سنة ٢٤هـ تماماً مثل الطبرى، رغم ذكره ولاية الوليد للكوفة فى حوادث سنة ٢٥هـ، ثم عاد وكرر الأمر فى حوادث سنة ٢٦هـ.

- ومال الأستاذ فتحى عثمان (الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى، ٣ أجزاء مطبوعات دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ج ٢، ص ٢٦٤) إلى جعل الغزوة فى سنة ٢٦هـ.

(٣) الطبرى:- ج ٤، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٤) ابن الأثير:- ج ٢، ص ٤٧٧.

أربعين ألف جندي بشكل دائم في الكوفة لزوم فتح وتأمين أقاليم أرمينية وأذربيجان وكذا الرى الذى كان من المفروض أن يكون فتحه وتأمينه من اختصاص إقليم البصرة. وكان هؤلاء المرباطون يخرجون من الكوفة مناوبة، بواقع عشرة آلاف جندي كل عام ثم يعودون ليخرج مثلهم في العام القادم، وهكذا، "فكان الرجل يصيبه في كل أربع سنين غزوة"^(١). ومن الواضح أن الوليد بن عقبة لم يلتزم هذه المرة برقم عشرة آلاف جندي، بل زاد كثيراً على هذا العدد عند تعبئة الجيش، مما مكنه من التعامل على ثلاث جبهات في آن واحد داخل أراضي أرمينية وأذربيجان:-

فقد سار فريق من الجيش تعداد أفراده أربعة آلاف جندي يقودهم عبد الله بن شبيب الأحمسي قائد طلائع الجيش تجاه الموقان والبيلقان (تقرأ خطأ:- الطيلسان) والبرز شرقى أذربيجان وأرمينية مما يلي بحر قزوين غرباً. واتجه قسم آخر تعداداه اثنا عشر ألف جندي بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي إلى الشمال من أراضي القسم السابق حيث برذعة التي كانت قصبة إقليم الران (من أراضي أرمينية). وأقام الوليد بن عقبة على رأس بقية الجيش داخل إقليم أذربيجان لإخضاع بقية مدنه وتأمين الخطوط الخلفية لقائديه.

وسرعان ما آتت التحركات العسكرية لجنود الحملة ثمراتها تبعاً، فحضر فريق عبد الله الأحمسي "وقد سلم وغنم". وتبعه فريق سلمان الباهلي "وقد ملأ يديه حتى أتى الوليد". أما أهالي أذربيجان عامة "فلما أيقنوا بالهلكة، صالحهم على ما كانوا صالحوا عليه حذيفة بن اليمان (سنة ٢٢هـ) ثمانمائة ألف درهم في كل سنة. فقبض (الوليد) منهم جزية سنة، ثم رجع سالماً غانماً إلى الكوفة"^(٢).

(١) الطبرى:- ج ٤، ص ٢٤٦.

(٢) نفسه والجزء، ص ٢٤٦-٢٤٧؛ ابن الأثير:- ج ٢، ص ٤٧٧-٤٧٨؛ ابن الجوزي:- المنتظم، ج ٤، ص ٣٤٥. وقد أورد ابن كثير (البداية والنهاية، م ٤ ج ٧، ص ١٩٧) ذكر الغزوة مختصراً على نحو جيد.

- وعن التعريف برذعة وموقان والبيلقان وموقعها إلى الغرب من بحر قزوين وأهمية كل منها بالنسبة للإدارة الإسلامية، مثل برذعة التي أصبحت مقراً لبيت مال إقليم الران (أو أران) من أقاليم أرمينية خلال العصر الأموي، انظر:- ياقوت الحموي:- معجم البلدان، ٥ أجزاء، طبعة دار الفكر بيروت (د. ت)، ج ١، ص ٣٣ (البيلقان) التي أصبحت تعد في أقاليم أرمينية الكبرى؛ و ص ٣٧٩-٣٨٠ (برذعة) والتأكيد على وقوعها أقصى شمال شرق أذربيجان؛ ج ٥، ص ٢٢٥ (موقان). ولاحظ أن ياقوت ذكر التحركات العسكرية لسلمان الباهلي دونها تحديد زمنى أو إمرة الوليد بن عقبة. وراجع:- كى لسترنج:- بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد، منشورات مؤسسة الرسالة، سوريا، ط ٢ سنة ١٩٨٥، ص ٢٠٩-٢١٢ وخريطة رقم (٣) أمام ص ١١٧.

وفي طريق العودة، وعند وصوله إلى الموصل، وصله خطاب من الخليفة عثمان يطلب منه تسير جزء من جيشه إلى الشام نجدة لأهلها ضد تحركات الروم التي هددت الوجود الإسلامي هناك. وحدد الخليفة في خطابه إلى الوليد بن عقبة العدد المطلوب تسيره إلى الشام من ثمانية آلاف إلى عشرة آلاف جندي. ومعلوم أن هذه المهمة كانت تمثل عبئاً إضافياً على أولئك الجنود الذين لم ينالوا بعد راحتهم من غزوتهم السابقة. ولهذا بذل الوليد جهداً كبيراً في إقناعهم بالمشاركة في هذه الغزوة الجديدة "فانتدب في ثلاثة أيام ثمانية آلاف. وأمر سلمان بن ربيعة على الناس الذين يخرجون إلى الشام". وقد نجح أفراد هذه الحملة الجديدة بالتنسيق مع قائد جبهة الشام حبيب بن مسلمة الفهري في وقف غارات الروم، وحققوا انتصارات متتالية وعادوا إلى الكوفة أخيراً محملين بالغنائم^(١).

ويبدو أن الوليد بن عقبة قد سار في إثر هذه التجربة إلى مشارف الحدود الشمالية للشام كي يحمي الخطوط الخلفية للقائد سلمان بن ربيعة، وأنه حدثت اشتباكات جانبية مع قوات الروم. يدلنا على ذلك رواية ابن عساكر عن أحد معاصري الوليد، ويدعى علقمة، والذي عمل تحت إمرة الوليد أثناء قتال الروم، قائلاً: "كنا بالروم وعلينا الوليد ... في إشارة منه لبعض الإجراءات الخاصة التي اتخذها المجاهدون حينذاك قبيل الاشتباك مع العدو، ووضح منها أن الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان كان موجوداً كذلك^(٢).

ولا شك أن هذه الحملة العسكرية الموفقة كانت بداية لسياسة جهادية مكثفة مارسها الوليد بن عقبة كي يقضي على فرص تجدد الاضطرابات في تلك المناطق، حتى إنه "كان ليغزو فينتهي إلى كذا وكذا. ما قصر ولا انتفض عليه أحد، حتى عزل عن عمله". بل جرى حصر عام لجميع غزواته وطريقته في الغزو، ف قيل عن ذلك: - "كان يغزو في كل

(١) الطبري: - ج٤، ص ٢٤٧-٢٤٨؛ ابن الأثير: - ج٢، ص ٤٧٨؛ ابن الجوزي: - المنتظم، ج٤، ص ٣٤٥؛ ابن كثير: - م٤ ج٧، ص ١٩٧. ولاحظ ما قيل عن أن سعيد بن العاص (الذي خلف الوليد في حكم الكوفة) هو الذي سير سلمان بن ربيعة الباهلي نجدة لأهل الشام. الأمر الذي تشكك فيه الطبري وابن كثير اللذان أوردوا الخبر تحت عنوان "وزعم الواقدي أن ..."

(٢) ابن عساكر: - تاريخ دمشق، ج٢٦، ص ٣٤١؛ الذهبي: - سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ٤١٤.

عام ثغر الكوفة الأيسر [شمالاً بغرب] ويغزو حذيفة [بن اليمان] ثغرها الأيمن [يعنى شمالاً بشرق]. ينتهى هذا إلى الباب [أو باب الأبواب، وكانت تعرف بالدربند]، وهذا إلى الرى. غزا خمس غزوات". وقرنه بعض معاصريه بالقائد الأموى الشهير مسلمة بن عبد الملك الذى سيلمع نجمه ابتداء من خلافة أبيه عبد الملك بن مروان^(١).

وقد ظهرت آثار إيجابية حسنة لهذه السياسة الجهادية، وذلك من خلال مغنم الفتوح التى كان الوليد بن عقبة ورجاله يحصلونها من شعوب تلك المنطقة، وجرى العرف أن توزع فى معظمها على أهل الكوفة بمعرفة الخلافة. ولهذا قيل: - "وكان مما زاد عثمان بن عفان الناس على يده [أى الوليد] أن رد على كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلاثة فى كل شهر. يتسعون بها من غير أن ينقص مواليتهم من أرزاقهم"^(٢).

سياسة الباب المفتوح: والحق إن هذه السياسة الجهادية كانت أحد المحاور التى استند إليها الوليد فى احتواء أهل الكوفة وتوجيه طاقاتهم للصالح البناء. كما أنه استهل أعماله الإدارية داخل إقليم الكوفة بفتح قصر الإمارة للجميع يدخلون ويخرجون لعرض أمورهم الخاصة متى شاءوا واستمر على ذلك "فلم يتخذ لداره باباً حتى خرج من الكوفة"^(٣). وقد يتبادر إلى الذهن أن ذلك الإجراء كان اتعاضاً بما حدث أثناء ولاية سعد بن أبى وقاص الأولى على الكوفة (١٧-٢١هـ/ ٦٣٨-٦٤٢م) عندما اتخذ باباً لقصر الإمارة، ونهاه الخليفة عمر بن الخطاب عن ذلك وأرسل من أشرف على هدمه^(٤). إلا أننا نعتقد أن الوليد بن عقبة كان متخذاً سياسة الباب المفتوح بينه وبين أهالى الكوفة لاسترضائهم كي لا يستمروا على شغبهم المعتاد ضد ولايتهم. إذ من الثابت أنهم قد ظلموا والى سعد بن أبى وقاص وادّعوا زوراً أنه اتخذ الباب كي يحتجب عنهم داخل قصره

(١) الطبرى: - ج ٤، ص ٢٧٤؛ محمد بن يحيى بن أبى بكر المالى: - التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان، تحقيق د. محمد يوسف زايد، منشورات دار الثقافة بالدوحة، قطر، ط ١ سنة ١٤٠٥هـ، ص ٥٣. وقد وصفه الذهبي (سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٥) بأنه كان "شجاعاً قائماً بأمر الجهاد". وعن موقع الباب أو باب الأبواب من موانئ أرمينية الكبرى على الساحل الغربى لبحر قزوين، ويليها شمالاً بغرب إقليم القفقاس أو القوقاز حالياً، انظر: - كى ليسترنيج: - بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢١٤-٢١٥، وخريطة رقم ٣ أمام ص ١١٧.

(٢) الطبرى: - ج ٤، ص ٢٧٤؛ المالى: - التمهيد والبيان، ص ٥٣.

(٣) الطبرى: - ج ٤، ص ٥٢؛ ابن الجوزى: - المنتظم، ج ٤، ص ٣٦١.

(٤) الطبرى: - ج ٤، ص ٤٧؛ ابن الأثير: - ج ٢، ص ٣٤٧.

"وبلغ عمر ذلك وأن الناس يسمونه قصر سعد". بينما ثبت أنه فعل ذلك ضمن إجراءات عديدة اتخذها عشية تعرض بيت مال الكوفة للسرقة بعد إنشاء المدينة مباشرة. ولما كان بيت المال ملاصقاً لقصر الإمارة وكذا المسجد الأول، فإن الوالى سعد أعاد بناء المؤسسات الثلاثة في موضع جديد أصبح فيما بعد أقرب للسوق "فكانت غوغاؤهم تمنع سعداً الحديث". فكان اتخاذ الباب حينذاك لمنع وصول الضوضاء إلى داخل مجلس الحكم، وكذا منع اللصوص من التعرض بأذى لهذه المؤسسات الحكومية^(١).

الكوفة ولاية مشاغبة: ويلاحظ أنها لم تكن المرة الوحيدة التى شغب فيها أهل الكوفة على أحد ولاتهم، فقد تكرر الأمر ثانية ضد الوالى سعد بن أبى وقاص نفسه مما جعل الخليفة عمر بن الخطاب يعزله رغم اقتناعه بصحة موقفه. وكذا شغبوا على غيره من الولاة حتى أصبحت سمة مميزة لإقليم الكوفة^(٢). وقد اهتم الدكتور يوسف خليف برصد هذه الظاهرة ونتائجها على الحياة الأدبية والعقلية لأهل الكوفة، وأرجع أسبابها إلى شعورهم بالتعالى على الدولة لدورهم الجهادى فى الفتوح الإسلامية ونجدتهم جيرانهم من أهل الشام وغيرهم أثناء الأزمات الحربية، وكذلك إلى تأجج الروح القبلية لديهم حيث برز خلالها ما للعصبية اليمنية من ثقل سواء من حيث ارتفاع الكثافة العددية لمقاتليهم أو سكناهم أجود أراضي الكوفة المجاورة لنهر الفرات^(٣).

(١) البلاذرى:- فتوح البلدان، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان، مطبوعات دار الكتب العلمية بيروت، سنة ١٩٨٣، ج ١، ص ٢٧٧؛ اليعقوبى:- تاريخ، ج ٢، ص ١٥٥؛ الطبرى:- ج ٤، ص ٤٦-٤٧؛ ابن كثير:- البداية، م ٤، ج ٧، ص ١٠١. ولزيد من التفصيل:- انظر:- د. هشام جعيط:- الكوفة (نشأة المدينة العربية الإسلامية) مطبوعات الكويت، ط ١ سنة ١٩٨٦، ص ١٢١ و ١٣٦-١٣٧ و ١٤٠-١٤١.

(٢) انظر مقولة الخليفة عمر بن الخطاب حزناً من شغب أهل الكوفة الدائم على الولاة:- "من عذرى من أهل الكوفة، إن استعملت عليهم القوى فجزوه، وإن وليت عليهم الضعيف حقروه". وذلك عند:- البلاذرى:- فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٧٨. وراجع:- خليفة:- تاريخ خليفة، ص ١٤٩؛ الطبرى:- ج ٤، ص ١٦٥؛ ابن عبد ربه:- العقد الفريد:- تحقيق أحمد أمين وآخرين، سلسلة الذخائر (عدد ١١٦) مطبوعات الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، مارس ٢٠٠٤م، ج ٦، ص ٢٤٩.

(٣) د. يوسف خليف:- حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة (سلسلة المكتبة العربية عن وزارة الثقافة المصرية) الناشر دار الكاتب العربى بالقاهرة، سنة ١٩٦٨م، ص ١١٩-١٢٢ و ص ١٤٠-١٤١ و ص ١٧٩-١٨٢؛ د. هشام جعيط:- الكوفة، ص ٩٩ و ١٠٤-١٠٥ و ص ١١٨.

استهلال سيئ ويكفي أن نعرف تعليق بعضهم على خبر تولية الوليد بدلاً من الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص بأنه "بئسما ابتدلتنا به عثمان. عزل أبا إسحاق الهين اللين الحبر صاحب رسول الله ﷺ، وولى أخاه الفاسق الفاجر الأحق الماخن"^(١). فكأنهم الآن فقط يتباكون على ولاية سعد بن أبي وقاص الذي أوسعوه نقداً وتبرماً. ومع ذلك فإن الوليد لم يعتد بهذا القول واعتبره تنفيساً عن مكنون صدور بعض الخاصة من زعماء العشائر اليمنية الذين أحفظهم استئثار أهل السابقة من قريش بمنصب الولاية على الكوفة. وجعل نصب عينيه تذويب هذه النعرة القبلية معتمداً في ذلك على التنسيق الكامل مع الخليفة عثمان ابن عفان، والاستفادة بجهود أصحاب الخبرة في إدارة شئون الكوفة قبله وأبرزهم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود عامل خراج الكوفة.

اتجاه نحو المركزية: وآية ذلك ما حدث بصدد تنافس زعماء العشائر على من له حق ضيافة الغرباء والطارئين على إقليم الكوفة. وظهر منهم أبو سمال الأسدي الذي صار يستخدم منادين يجوبون شوارع الكوفة بأن "من كان هاهنا من كلب [إحدى قبائل اليمن] أو من بني فلان - ليس لقومهم بها منزل - فمنزله على أبي سمال". وكان عبد الله ابن مسعود قد سبق بتخصيص داره التي بين عشائر قبيلته هذيل بضواحي الكوفة لاستقبال ضيوف المنطقة الذين أصبحوا "ينزلون داره في هذيل إذا ضاق عليهم ما حول المسجد". فأقدم الوليد بعد استشارة الخليفة عثمان على شراء عدة مواضع بالكوفة وتخصيصها لإيواء أولئك الغرباء، مثل دار ابن هبار بمؤخرة المسجد الجامع، ودار عقيل بن أبي طالب التي أصبحت المقر الرئيسي للضيافة وسميت دار الضيفان^(٢). وذلك بهدف جعل هذا الحق موكولاً للدولة وحدها وليس للأفراد. وليس أدل على أهمية هذا

وراجع:- د. أكرم العمري:- عصر الخلافة الراشدة، ص ١٢٧-١٢٨ و ص ١٣٦؛ و د. عدنان ملحم:- المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص ١٣١. وقد أكد البلاذري (فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٧٥-٢٧٦) ما للعصبة اليمنية من ثقل منذ الأيام الأولى لإنشاء الكوفة، حينما تحدث عن سكنهم أجود أراضي الكوفة المجاورة للضفة اليسرى لنهر الفرات بينما سكن عرب نزار أو الشمالين ما يلي ذلك غرباً. وذلك وفقاً للاقتراح الذي أجراه بينهما والي سعد بن أبي وقاص، وأن عدد اليمنية كان ١٢ ألفاً بينما النزارية ٨ آلاف.

(١) الطبري:- ج ٤، ص ٢٧٣؛ الماقي:- التمهيد والبيان، ص ٤٦.

(٢) د. عدنان ملحم:- المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص ١٣٣.

الإجراء من ذكر الملاحظة الذكية للدكتور عدنان ملحَم في تعليقه على ذلك:- "وهي خطوة شكلت تحدياً لغرور الكوفيين، وخسارة اقتصادية كبيرة، حيث ترتبط الضيافة بالميّار. وهم الذين يأتون الكوفة ليشتروا الطعام - الميرة - ويبيعون ويربحون مما يعنى أن موضوع الضيافة كان يحمل في طياته جانب كسب مادي لمن يستقبلهم".

شهية حول إجراءاته الإدارية: ومن العجيب أن يعد هذا الإجراء من جملة أخطاء الوليد بن عقبة، وذلك عندما فسر الدكتور طه حسين الأمر أنه تعبير عن اعتداد الوليد بقريشيته وبمكانته من الخليفة عثمان، ورغبته في منافسة زعماء العشائر اليمنية الفخر والعز^(١). بينما وقف الدكتور يوسف خليف موقفاً وسطاً عندما زكى هذا الإجراء من جانب الخليفة عثمان وواليه الوليد، واعتبره رداً حاسماً على نزعات التنافس والتفاخر لدى زعماء العشائر بالكوفة. ثم نراه ثانية وفي ذات الموضوع يؤكد أن الوليد كان يحمل في طياته عصبية القبيلة وأرستقراطية الفاتح المنتصر "بل الحاكم المغرور". رغم أن سيادته لم يستدل بهذا الإجراء على صحة وجهة نظره، ولكن أحال القارئ إلى مرويّات الأصفهاني في أغانيه التي هي في معظمها ذات مردود شيعي^(٢). وهو تفسير لا نعتد به، لأنه يعنى اتهام الوليد - ومن ورائه الخليفة عثمان - بالتناقض؛ إذ كيف يعول على العصبية اليمنية ذات الشوكة في عمليات الجهاد العسكري التي استغرقت فترة ولايته كلها، ثم هو يستفز زعماءهم على هذا النحو؟؟!

جريمة القتل : أما الحدث الذي أثر كثيراً على علاقة الوليد بزعماء العشائر بالكوفة، فهو جريمة قتل ارتكبها ثلاثة من أبنائهم، وهم:- زهير بن جندب بن زهير الأزدي، ومورع بن أبي مورع الأسدي، وشييل بن أبي زينب زهير (وقيل ابن أبي) بن عوف الأزدي، وذلك عندما أقدموا على قتل جار لهم يدعى ابن الحيسمان الخزاعي بدافع السرقة مستغلين ظلام الليل. وقد أدت مقاومة الضحية لهم وصيحات استغاثته إلى لفت انتباه الجيران الذين أحاطوا بالفتية الثلاثة وأمسكوكهم. وكان منهم أبو شريح الخزاعي، وهو أحد صحابة رسول الله ﷺ من قدم الكوفة للمشاركة في الفتوح، والذي أكد في شهادته

(١) د. طه حسين:- الإسلاميات (الفتنة الكبرى، عثمان) ص ٧٣٥.
(٢) د. يوسف خليف:- حياة الشعر في الكوفة، ص ١٨٤ وهامش رقم ٥.

أمام الوليد بن عقبة أنه حاول وابنه عبر سطح منزله المجاور لمنزل القتييل منع الجناة من اتمام جريمتهم، لكنهم رفضوا الانصياع لتحذيراتهما. فأمر الوليد بالتحفظ على الجناة الثلاثة، وأرسل إلى الخليفة عثمان يستفتيه في خبرهم. ولما جاء الجواب بإقامة الحد عليهم قصاصاً، أمر بقتلهم علانية في الرحبة المواجهة للمسجد وقصر الإمارة [وقد جاء في الروايات خطأ أنه أمام باب القصر، بينما من المعروف أنه لم يكن يوجد باب للقصر]^(١). وقد استحوذ تصرف الإدارة في معالجة القضية على إعجاب الحاضرين، فقال قائلهم، وهو عمرو بن عاصم التميمي^(٢):-

لا تأكلوا أبداً جيرانكم سرفاً أهل الزعارة في ملك ابن عفان
إن ابن عفان الذي جربتم فطم للصوص بمحكم الفرقان
ما زال يعمل بالكتاب مهيمناً فى كل عنق منهم وبنان

بيد أن العلاقة تأزمت بين الوليد وآباء الجناة الذين أقسموا على الانتقام من الوليد بشتى الوسائل، وصاروا يتحينون الفرص "ويضعون له العيون" التماساً لثغرة ينفذون منها إليه^(٣).

سياسة اجتماعية ناجحة

وعلى العموم، فإن حزم الوليد تجاه المخالفين من أهل الكوفة لم يمنع من إقالته عشرة معوزيهم، حتى في غير حالات الضرورة الشخصية. مثلما حدث مع لبيد بن ربيعة الشاعر الذى أخذ على نفسه عهداً أن يطعم المعوزين أثناء الأزمات الطبيعية وموجات الجفاف التى كانت تشهدها المنطقة مثل كارثة هبوب ريح الصبا المؤذية في أوقات معلومة من العام. ونجح في ذلك سنوات، حتى أعجزه الأمر خلال حكم الوليد بن عقبة الذى استحث سراة القوم على إعانته وخطبهم من على المنبر أن "أعينوا أخاكم"، وبعث إليه

(١) الطبرى:- ج٤، ص ٢٧١-٢٧٢؛ ابن الأثير:- ج٣، ص ٣؛ المالكى:- ص ٥٠-٥١. وقد أرخ د. عدنان ملحم (المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص ١٣٢) هذه الحادثة في سنة ٣٠هـ، استناداً إلى أن الطبرى ذكرها في هذه السنة. بينما نرى أنها حدثت قبل ذلك بكثير، لأن الطبرى أورد في سنة ٣٠هـ كل الأحداث المتعلقة بالوليد والكوفة إجمالاً تحت عنوان: "ذكر السبب في عزل عثمان الوليد عن الكوفة". وبالتالي فمن المحال أن تحدث كل هذه الحوادث مثل جريمة القتل وتوابعها ثم حادثة الساحر وغيرها، في هذه السنة فقط.

(٢) الطبرى:- ج٤، ص ٢٧٢؛ المالكى:- ص ٥١.

(٣) ابن شبة:- تاريخ المدينة المنورة، ج٣، ص ٩٧٢؛ الطبرى:- ج٤، ص ٢٧٣-٢٧٤.

بثلاثين من الإبل محملة بما يلزم لإطعام قاصديه. وقد شكر الشاعر لبيد للأمير الوليد هذا الموقف، وأمر ابنته أن تصوغ أبياتاً شعرية في مدحه، لأنه امتنع عن نظم الشعر منذ اعتناقه الإسلام، فقالت [من بحر الوافر]^(١):-

إذا هبت رياح أبى عقيل	ذكرنا عند هبتها الوليد
أبا وهب جزاك الله خيرا	نحمرنا وأطعمنا الثريد
طويل للباع أبيض عبشمي	أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركبا	عليها من بنى حام قعودا
فعد إن الكريم له معاد	وظنى يا ابن أروى أن تعودا

وهناك أمثلة كثيرة لهذه الأعطيات التي كان الوليد يأمر بها لأصحاب الحاجات، واختص بها الولائد والإماء والموالي^(٢). مما جعل فريق من المؤرخين يثنون على سياسته في الحكم قائلين:- "وكان أحب الناس في الناس وأرفقهم بهم. فكان كذلك خمس سنين"^(٣). بل إن البلاذري - ذا الميول الشيعة يذكر ما نصه:- "قالوا:- ولم يكن بسيرة الوليد في عمله بأس..."^(٤). ويرتبط بهذا البعد الاجتماعي في سياسة الوليد، ما كان يحدث في دار الضيافة أو الضيقات من استضافات للغرباء الطائرين على الإقليم وأشهرهم الشاعر أبو زبيد حرمله بن المنذر الطائي الذي احترم للأمير الوليد بن عقبة انتصاره له ضد أخواله من عرب تغلب بأرض الجزيرة أثناء تولى الوليد صدقات عرب الجزيرة للخليفة عمر بن الخطاب، "فشكرها له أبو زبيد وانقطع إليه وغشيه بالمدينة. فلما ولى الوليد الكوفة أتاه مُسَلِّماً ومعظماً على مثل ما كان يأتيه بالجزيرة والمدينة". وقد أسفرت هذه المعاملة الكريمة عن اعتناق أبي زبيد للإسلام بعد أن كان نصرانياً^(٥).

(١) ابن عساکر:- تاريخ دمشق:- ج ٢٦، ص ٣٤٠-٣٤١؛ الفاسي:- العقد الثمين، ج ٧، ص ٤٠٦-٤٠٧.

(٢) الطبری:- ج ٤، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٣) الطبری:- ج ٤، ص ٢٥٢؛ ابن واصل:- تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٥؛ المالقي:- التمهيد والبيان، ص ٥٠؛ ابن كثير:- البداية، م ٤ ج ٧، ص ١٩٩. وراجع:- د. طه حسين:- الفتنة الكبرى (عثمان)، ص ٧٣٢ (في أول حديثه عن الوليد).

(٤) البلاذري:- أنساب، ج ٥، ص ٣٣.

(٥) ابن عساکر:- تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٤٢.

شبهات حول سياسته الاجتماعية

وعلى أية حال، فإن هذه السياسة الاجتماعية للوليد قد فسرت على نحو آخر؛ إذ أعطياته للعوام اعتبرت ميلاً منه تجاههم بهدف اتحاذهم سلاحاً للدولة المعتدة دائماً بأرستقراطيتها القريشية، كي تستخدمه في الوقت المناسب ضد طبقة الخاصة من زعماء العشائر الأخرى، وبخاصة اليمنية^(١). كما أن احتباءه الشاعر أبي زيد الطائي ما هو إلا بسبب رقة دين الاثنين، بحيث قيل إن اجتماعهما كان دائماً على سكر ومجون^(٢). وزاد البلاذري والأصفهاني أن الوليد "كان يُدخل أبا زيد المسجد وهو نصراني ويُجري عليه وظيفة (أى عطاء) من خمر وخنازير تقام له في كل شهر. فقيل له: - قد عظم إنكار الناس لما تجرى على أبي زيد. فقوم ما كان وظف له دراهماً، وضمها إلى رزق كان يجريه عليه؟"^(٣). وتساءل د. طه حسين عما يمكن أن تسفر عنه هذه العلاقة بين الاثنين، قائلاً: - "ومن يدرى، لعل هذا الشاعر عاد مرة أو غير مرة إلى مثواه (أى موضع مبيته بالكوفة) وقد أخذت منه الخمر. فلم يحسن أن يمسك لسانه. فنبههم ذلك إلى التجسس على الوليد"^(٤). بمعنى أن سيادته قد التمس العذر للذين تولوا كبر اتهام الوليد من المحرضين والمتجسسين فيما فعلوه بعد ذلك، رغم الاتفاق على أنهم كانوا من خصوم الوليد كأبناء الجناة الثلاثة في جريمة القتل ممن هو "موتور في نفسه"، و"نفر ممن قد عزل الوليد عن الأعمال"^(٥).

(١) د. طه حسين: - المرجع السابق، ص ٧٣٥. ويقول د. حامد جامع (على بن أبي طالب، حاكماً وفتياً ج ١، ص ١٤٣). ما نصه: - "ولم تكن سيرة الوليد في الكوفة خيراً من سيرته فيما مضى من عمره". وإن عثمان عزله مقيماً عليه حد شرب الخمر "ولكن بعد أن أسخط القراء وأهل الصلاح والتقوى والدين والفقه وخاصة أهل الكوفة، على عثمان، وبذر في تلك المدينة بذور التمرد على عثمان". ورغم خطورة هذا الحكم، فإن سيادته أورده دوناً حادثة واحدة تفصيلية ودونها مصدر أو مرجع يدعم وجهة نظره.

(٢) ابن عساکر: - ج ٢، ص ٣٤٢؛ الفاسي: - العقد، ج ٧، ص ٤٠٣. وراجع: - د. طه حسين: - الفتنة الكبرى (عثمان) ص ٧٣٢ و ٧٣٥.

(٣) أنساب، ج ٥، ص ٣١؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٢. وجعله المسعودي (مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٤٤) يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح.

(٤) د. طه حسين: - ص ٧٣٥.

(٥) ابن عساکر: - ج ٢٦، ص ٣٤٤ و ٣٤٥.

وهكذا مضت الأحداث ما بين خصوم يتربصون بالوليد، وروايات تاريخية يتلمس أصحابها - قدامى ومُحدثون - المعاذير لهم. ولهذا لم يكن غريباً أن نرصد مواقف حادة أخذت في التصاعد حتى بلغت ذروتها بنجاحهم في عزله عن ولاية الكوفة على نحو مهين.

أسباب أخرى لازدياد المعارضة

بيد أننا نعرض لحادثين مهمين نتعرف من خلالها على استمرار جهود الوليد في تتبع المخالفين، وتحول هؤلاء إلى جماعات المعارضة. أولهما: - ما حدث مع كعب بن ذى الحبة النهدي - من أهل الكوفة - الذى كان يمارس السحر بحجة أنه يقرأ الطالع للناس، أو ما كان يسمى "يعالج نيرنجا". فاستطلع الوليد رأى الخليفة عثمان فى شأنه، فأرسل إليه أن أقره على ما يفعل، بمعنى استتابته عن جرمه، "فإن أقر به فأوجعه". ففعل الوليد ذلك، ولكن كعباً أصر على أن ما يفعله "إنما هو رفق وأمر يعجب منه". فأمر الوليد به فعززه تأديباً له، وأعلن ذلك بين أهل الكوفة، وقرأ عليهم كتاباً وصل من الخليفة يأمرهم بالجد والابتعاد عن الكذبة والمهرجين. ولكن ابن ذى الحبة لم يرتدع بهذا العقاب وازداد عناداً وأصبح من المعارضين "فنفر فى الذين نفروا، فضرب معهم". فأمر الوليد بسجنه حتى يأتى فيه رأى الخليفة عثمان الذى أمر هذه المرة بنفيه، وآخر ممن على شاكلته يدعى مالك بن عبد الله "وكان دينه كدينه"، إلى موضع دُنباوند (أو جبل دماوند أو جبل الدخان المشرف على الرى وطهران من جهة الشمال) "لأنها أرض سحرة". وقال ابن ذى الحبة وهو فى منفاه شعراً يهجو فيه الخليفة عثمان والوليد معاً، منه^(١):-

لعمري لئن طردتنى ما إلى التى	طمعت بها من سقطتى لسبيل
رجوت رجوعى يا ابن أروى ورجعتى	إلى الحق دهرأ غال ذلك غول
وإن اغترابى فى البلاد وجفوتى	وشتمى فى ذات الإله قليل
وإن دعائى فى كل يوم و ليلة	عليك بدنباوندكم لطويل

(١) الطبرى:- ج٤، ص ٤٠١-٤٠٢. وعن موقع دنباوند، انظر:- كى لسترنج:- بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤١١-٤١٢ وخريطة رقم ٥ أمام ص ٢٢٤.

ويذكر الطبري أن ابن ذي الحبة استمر مخلصاً لإدارة الخليفة عثمان، رغم أن الوالي سعيد بن العاص - الذي ولي الكوفة بعد الوليد - قد شفع لدى الخليفة في إعادته إلى الكوفة "وأحسن إليه واستصلحه... فلم يزد إلا فساداً"^(١).

أما الحادث الثاني، فكشف لنا عن ازدياد حركة المعارضة ضد الوليد يوماً بعد يوم، وذلك عندما سرق ضابئ بن الحارث البرجمي من جيرانه، وكانوا قوماً من الأنصار، كلب صيد من فصيلة نادرة يسمونه "قرحان" وحبسه عنهم. فاستعانوا عليه بعشيرته التي ردت الكلب لأصحابه، مما أغاظ ضابئ فشتم الأنصار جيرانه بأبيات شعرية مريرة استوجبت من الوليد بن عقبة أن يعززه بالسجن "كما كان يصنع بالمسلمين". وقد استمر ضابئ في السجن حتى توفي "فلذلك صار عمير بن ضابئ سبياً". وهي جملة كشف لنا الطبري بها عن السر في كون عمير بن ضابئ وابن ذي الحبة كذلك من قيادات السبئية التي خرجت ضمن الوفد الكوفي لخلع عثمان بن عفان مما أدى إلى قتله^(٢).

إصرار وترصص

وابتداءً، نراهم يبالغون في إثبات صحة اتهامهم للوليد وأبى زبيد، فيقتحمون عليه داره بعد أن أنبأهم جاسوس لهم أن مجلس الخمر منعقد في دار الوليد. ولكنهم لم يعثروا على شيء، فقط وجدوا طبقاً يحوى بقايا عنب. وأكدت الروايات - ربما بمبالغة مضادة - أن الوليد أدخله تحت سريره حياءً "أن يروا طبقه وليس عليه إلا تفاريق"، وذلك رغم اقتحامهم المفاجئ لداره. مما جعلهم يخرجون سريعاً بعد شعورهم بالخرج، وصاروا موضع غضب من عرف بذلك من أهل الكوفة. ومع هذا فإن الوليد "ستر عنهم ذلك وطواه عن عثمان، ولم يدخل بين الناس في ذلك شيء، وكره أن يفسد بينهم، وسكت عن ذلك وصبر"^(٣).

حقيقة مجالس السم

ونفهم من هدوء الوليد بن عقبة وتراخيه عن الحزم مع أمثال هؤلاء الذين اقتحموا عليه مجلسه، أنه ليس إثارةً للسلم بقدر ما هو اعتراف ضمنى منه أنه كان على خطأ ما؛ إذ

(١) الطبري: - ج ٤، ص ٤٠٢.

(٢) المصدر نفسه والجزء، ص ٤٠٢-٤٠٣.

(٣) ابن عساکر: - ج ٢٦، ص ٣٤٤ و ٣٤٥.

محال علينا أن ندعى العصمة له أو لغيره. بيد أن الأمر ربما كان تعبيراً عن إسرافه على نفسه إذا ما خلا بها أو بأحد من بطانته الخاصة كأبي زيد الذي كان الوليد يشاركه في نظم الشعر، وقد وردت عنه قصائد عديدة صاغها في مناسبات مختلفة^(١). كل ما هنالك أننا نرفض المبالغة في وصف هذا الخطأ، وهو أمر وضح في طريقة المعالجة سواء من ناحية خصوم الوليد ومعاصريه أو من قدامى المؤرخين ومُحدثيهم. ودليلنا على ذلك، أننا حتى الآن لم نجد للوليد أنه أصدر قراراً ما وهو تحت تأثير الشراب، كما أنه ربما كان يشرب نوعاً من النبيذ عبارة عن نقيع التمر أو الزبيب أو الشعير شاع استخدامه في بعض الأوساط حينذاك كمسهل للهضم وليس بخمر. وهو ما عبر عنه الشاعر أبو زيد الطائي صديق الوليد بعد عزله عن الكوفة وإقامة حد الخمر عليه، وذلك من قصيدة قال فيها^(٢):

قولهم شربك الحرام وقد كان شراب دون (وقيل سوى) الحرام حلال

من هم الفعلة وعلى أية حال ، فإننا نلاحظ اختلاف الروايات حول تحديد أشخاص المحرضين؛ إذ هم آباء الجناة الثلاثة في جريمة القتل الشهيرة: - أبو زينب زهير بن عوف الأزدي وأبو مورع الأسدي وجندب بن زهير الأزدي والجاسوس مجهول. بينما في رواية أخرى هم: - النعمان بن أوس المزني وجريز بن عبد الله البجلي ومعهما رجل من جلسائهما والجاسوس يدعى بكير بن حمران^(٣). ويدلنا هذا الاختلاف على أن الأمر

(١) ابن شبة: - تاريخ المدينة المنورة، ج ١، ص ٢٩٩؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٥ و ٦٤٦.

(٢) ابن شبة: - المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٧٤؛ ابن واصل: - المصدر السابق، ص ٦٤٢. وانظر: - على سبيل المثال ما قيل في النبيذ عند فقهاء الأحناف عند: - السرخسي: - كتاب المبسوط في الفقه الحنفي، مطبوعات دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ج ٢٤، ص ١٣. وراجع: - أحمد فتحي بهنسي: - الخمر والمخدرات في الإسلام، مؤسسة الخليج العربي، ط ١، القاهرة ١٩٨٩، ص ٦٢ وكتب الفقه الإسلامي التي اعتمد عليها في هامش هذه الصفحة.

(٣) الطبري: - ج ٤، ص ٢٧٤؛ ابن عساكر: - ج ٢٦، ص ٣٤٢-٣٤٣؛ الفاسي المكي: - ج ٧، ص ٤٠٣-٤٠٤. وانظر: - ترجمة جندب بن زهير الأزدي عند: - ابن حجر: - الإصابة في تمييز الصحابة، م ١، ص ٧١٨-٧١٩ حيث لا توجد إشارة عن ابنة ولا عن دوره في أحداث الكوفة ضد الوليد بن عقبة.

تكرر حدوثه؛ إذ جميع هذه الأسماء سوف تظهر في أحداث الفتنة الكبرى سواء ضمن المتمردين ضد الخليفة عثمان أو في صفوف علي بن أبي طالب ضد معاوية بن أبي سفيان، وذلك وفق المخطط السبئي.

مع الصحابي حذيفة

ونلاحظ كذلك اختلاف الروايات في تحديد شخص الشاهد العدل الذي انتوى المحرضون الإحتكام إليه. فهو حذيفة بن اليمان في رواية، وفي أخرى عبد الله بن مسعود^(١). وإن كان يلاحظ أنهما من كبار صحابة رسول الله ﷺ بمعنى أن هناك إصراراً على توريط الوليد وتثبيت التهمة عليه. ولا نكون مباغين في القول بأن كلا الصحابين الجليلين قد أدرك أن الشكوى كيدية، وذلك بحكم إقامتهما بالكوفة وتعاملهما المباشر مع الوليد بن عقبة كوالٍ على الإقليم. وبالنسبة للصحابي حذيفة بن اليمان، فقد طلب منهم التأكد بأنفسهم بعيداً عنه "ادخلا عليه، فانظرا إن أحببتا!!"^(٢). وفي موقف مماثل، ادّعوا كذلك على الوليد شربه الخمر أثناء قيادته إحدى الغزوات بأرض أرمينية ضد الروم. وقد رد حذيفة الذي كان حاضراً حينذاك، بعدم الخوض في هذا الأمر حتى لا يفت في عضد الجنود ويكون سبباً في الهزيمة، وضرورة تأجيل فتح هذا الملف إلى ما بعد المعركة. وقد انتهت الحادثة بالصمت، ولم تفصح الروايات عما دار بعد ذلك، دلالة على أنها كانت مكيدة جديدة ضد الوليد، وإلا لم يكن ليُسكت عنها أحد روايتها وهو الحافظ الذهبي صاحب المؤلفات الغزيرة في تتبع سير الرجال وإثبات الحكم الشرعي عليهم^(٣).

مع الصحابي ابن مسعود

أما الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، فقد أکثرت الروايات من إقحام اسمه في العديد من المواقف التصادية بين الوليد بن عقبة وبينه بصفته عامل خراج الكوفة ومعلم أهلها الحلال والحرام في أمور الدين. وكانت هذه المواقف التصادية تنتهي دائماً -

(١) المصادر السابقة والصفحات.

(٢) الفاسي: ج ٧، ص ٤٠٤.

(٣) البلاذري: - أنساب، ج ٥، ص ٣١؛ ابن عساکر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٤١؛ الذهبي: - سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٤.

في زعم أصحاب هذه الروايات - بتعالى الوليد بن عقبة في معاملة ابن مسعود الذي لم ينتفع بشكواه إلى الخليفة عثمان لأنه كان ينصر أخاه الوليد على عادة الجاهلية ظالماً أو مظلوماً.

مثلما حكوا في رواية استدانة الوليد من بيت مال الكوفة، وكرهيته إصرار ابن مسعود على تحصيل القرض، بحيث شكاه إلى الخليفة عثمان الذي كتب إلى ابن مسعود: "إنها أنت خازن لنا. فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال؟!". وطبيعي أن يكون رد ابن مسعود - وفق هذا التصوير الدرامي - قيامه بإلقاء مفاتيح بيت مال الكوفة في وجه الوليد، وعزل نفسه عن الوظيفة قائلاً: "كنت أظن أني خازن للمسلمين. فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك" ^(١). وهي رواية أقل ما توصف بأنها مُحْتَلَقَة، كما أنها استهلكت من كثرة استخدامها قبل ذلك، في حق سعد بن أبي وقاص كما رأينا، ثم في حق الخليفة عثمان نفسه الذي نسبوا إليه اقتراضه من بيت مال العاصمة في المدينة المنورة وأنه زجر عامل الخراج لديه بمثل هذه الكلمات وأن هذا العامل ألقى المفاتيح واعتزل الوظيفة ^(٢). ويكفي أن د. طه حسين قد رفضها عند استخدامها أول مرة في حق سعد بن أبي وقاص ^(٣). وإذا كان هذا النقد يندرج تحت مسمى رفض الرواية شكلاً، فإننا نرفضها كذلك من حيث المضمون لفساد طريقة المؤرخين في إثباتها. فالبلادري - مثلاً - يؤكد حدوثها في أوائل ولاية الوليد على الكوفة ^(٤)، مما يلقي بظلال من الشك حول موقف عبد الله بن مسعود وكيفية إقامته بالكوفة بعد عزله عن خراج الإقليم حيث من الطبيعي أن يكون حجر عثرة ضد الوليد وطريقته في الحكم. كما أن هذا التأريخ المبكر للحادثة يرسخ اتهام الخليفة عثمان بالتناقض الشديد؛ إذ كيف يصدر قرارين متضادين في سنة واحدة وقضية واحدة هي مسألة الحفاظ على المال العام؟ فمرة ينتصر لعبد الله بن مسعود بصفته

(١) ابن شبة: - تاريخ المدينة المنورة، ج ٣، ص ١٠٤٩؛ البلادري: - أنساب، ج ٥، ص ٣٠-٣١ و ٣٦. وقد ذكر د. عدنان ملح (المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص ١٢٨-١٢٩) هذه الحادثة

دونها تعليق رغم اشتهاؤه بنقد طريقة البلادري وغيره في كتاباتهم.

(٢) اليعقوبي: - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٦٨-١٦٩.

(٣) د. طه حسين: - الإسلاميات (الفتنة الكبرى، عثمان)، ص ٧٢٩.

(٤) أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٣٠-٣١.

عامل خراج الكوفة ضد الوالى السابق سعد بن أبى وقاص، وأخرى يخذل عامل الخراج نفسه لصالح الوالى الحالى الوليد بن عقبة.

ثم نجد البلاذرى يعود لذكر حادثة استدانة الوليد مرة ثانية، مؤكداً أنها كانت سبباً فى استدعاء ابن مسعود إلى المدينة المنورة على نحو مهين، وذلك بعد أن صار يندد بسياسة الخليفة عثمان والوليد بن عقبة ومعرضاً بعزل سعد بن أبى وقاص عن ولاية الكوفة واستبدال الوليد به "أعزل مثل سعد بن أبى وقاص ويولى الوليد؟" ^(١). وهو كلام يحوى تناقضاً غريباً؛ إذ كيف يصدر عن ابن مسعود الذى كان عزّل سعيد بمثابة انتصار له؟ ثم إن مناسبته أول تعيين الوليد (سنة ٢٥هـ/ ٦٤٦م)، بينما استدعاء ابن مسعود إلى المدينة المنورة حدث أخريات ولاية الوليد، وبالتحديد فى سنة ٢٩هـ (٦٥٠م). لأن ابن مسعود استمر مقيماً بالمدينة - على نحو مهين كما زعمت الرواية ذاتها - ثلاث سنوات حتى وفاته بها خلال سنة ٣٢هـ (٥٢/ ٦٥٣م).

وهكذا فى باقى المواقف التصادية التى زعموا حدوثها بين الوليد بن عقبة وعبد الله بن مسعود؛ كقولهم إن الوليد عمد إلى تأخير الصلاة عن أول وقتها، فبادر ابن مسعود للصلاة بالناس محذراً من خطورة الابتداع فى تأخيرها ^(٢). وهو أمر لم نقرأ عنه إلا فى العصر الأموى ^(٣). كما نعلم عن مروان بن الحكم أنه أول من أقر إقامة صلاة العيدين إلى ما بعد خطبة العيد ^(٤). ومحال أن يحدث هذا من الوليد بن عقبة الذى تأكدت صحبته للنبي محمد ﷺ. ويكفى أننا لم نجد هذه الحادثة عند أحد من المؤرخين غير ابن عساکر الذى أوردها دون سند.

(١) المصدر نفسه والجزء، ص ٣٦-٣٧.

(٢) ابن عساکر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٤١-٣٤٢.

(٣) قيل عن مناقب الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/ ٧١٥-٧١٧م) إنه افتتح خلافته بخير، وذلك بإجابة الصلاة لمواقيتها. انظر: - الذهبى: - سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ١١٢. وراجع: محمود شاكر: - التاريخ الإسلامى، ج ٤ (العهد الأموى)، مطبوعات المكتب الإسلامى ببيروت ودمشق، ط ٢، سنة ١٩٨٥، ص ٢٣١.

(٤) عن ذلك انظر: - الإمام مسلم: - صحيح مسلم بشرح النووى، طبعة الحلبي بالقاهرة (د.ت). كتاب الإتيان، باب كون نهى المنكر من الإتيان، ج ٢، ص ٢١.

وقولهم إن ابن مسعود صار يردد الحديث النبوي الشريف: "إن أصدق القول كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار". معرضاً بالوليد بن عقبة وبالخليفة عثمان كذلك. وإن الوليد أرسل إليه "أن اسكت عن هؤلاء الكلمات". وقيل إن الخليفة عثمان هو الذي بعث إلى ابن مسعود: - "إما أن تدع هؤلاء الكلمات وإما أن تخرج. فخرج عبد الله (يعنى من الكوفة)" (١). وهو أمر سنرى حالاً أنه كان له علاقة بالخلاف الفقهي بين عبد الله بن مسعود والخليفة عثمان حول قضية نسخ المصحف الكريم، ولم يكن للوليد وسياسته في إدارة شئون الكوفة أية علاقة بذلك.

وأخيراً تم الزج باسم ابن مسعود كشاهد عيان على صلاة الوليد بن عقبة بالناس وهو ثمل يترنح من السكر، وأنه رد ساخراً هازئاً على سؤال الوليد أن يزيد في الصلاة عن الركعات المفروضة، قائلاً: - "ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم" (٢). مما يعد مخالفة لما سنراه حالاً من أن اتهام الوليد بشرب الخمر وهل صلى على حاله تلك أم لا، قد حدث في ختام ولايته حيث تلى ذلك مباشرة عزل الوليد واستدعاؤه لمحاكمته في المدينة المنورة، يعنى في سنة ٣٠هـ (٦٥١م)، بينما كان ابن مسعود قد غادر الكوفة قبل ذلك بسنة على وجه التحديد.

حقيقة ما بين الوليد وابن مسعود

وفي محاولة لفهم حقيقة ما بين الرجلين، نعرض لرد ابن مسعود على جندب بن زهير الأزدى والذين معه عندما "جاءوا إلى ابن مسعود فقالوا الوليد يعكف على الخمر.

(١) ابن شبة: - تاريخ المدينة المنورة، ج ٣، ص ١٠٤٩؛ البلاذري: - أنساب، ج ٥، ص ٣٦ (حيث يؤكد أن ابن مسعود كان يقولها بإصرار وباستمرار من على منبر المسجد كل جمعة؛ الذهبي: - سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٥-٤١٦) (ويلاحظ صمت الذهبي عن التعليق على الرواية).

(٢) ابن عبد البر: - الاستيعاب، ج ٦، ص ٣٣٠ (ولاحظ الإفراط في اقحام اسم ابن مسعود على أنه أعد استقبلاً سيئاً للوليد أول قدومه الكوفة)؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٠؛ الفاسي: - العقد الثمين، ج ٧، ص ٤٠١-٤٠٢. ويلاحظ أن البلاذري (أنساب، ج ٥، ص ٣٤) لم يصرح باسم ابن مسعود في هذه الحادثة، بل ذكر أن الذين أجابوا الوليد على سؤالهم هم جماعة من الرجال، واستخدم لفظة: - "فقالوا: - لا".

وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس". فقال لهم:- "من استتر منا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره". وتضيف الرواية أن الوليد بن عقبة غضب عند سماعه قول ابن مسعود واستدعاه حيث عاتبه قائلاً:- "يرضى من مثلك بأن تحجب أقواماً موتورين، على أى شيء أستتر به؟ إنما يقال هذا للمريب (وفي رواية:-) للملجلج. أى المختلط لاجوجاج فيه أو تردد)". وتختتم الرواية الحديث بالإشارة إلى أن الحوار بينهما ازداد سخونة، "فتلاحيا. وافترقا على تغاضب. ولم يكن بينهما أكثر من ذلك"^(١).

ونعتقد أن هذه الحادثة تعد نموذجاً صادقاً لتصوير حقيقة العلاقة بين الرجلين؛ إذ هي تقدم مثلاً لاختلاف الرأى بينهما حيث راح كل منهما يعرض وجهة نظره دونما مجاملة للآخر. ولكنه اختلاف حميد لم يتم تصعيده أو استثاره على نحو سيئ، وبتعبير آخر خلاف لم يفسد للشرع قضية. فابن مسعود يعلم إصرار المخالفين من خصوم الوليد ومبالغتهم في إثبات التهمة عليه بتتبع عوراته والتجسس عليه، فأراد علاج الأمر في نطاقه الشرعى واللجوء للمنافذ الشرعية وليس بطريق المبالغة والغيبة والنميمة التى هى أصلاً تعد قدحاً في ذات المدعى عليه وخطأ يوجب العقاب. خاصة وأن الوليد يستر نفسه ولم يجاهر علانية ولم يؤثر عنه أنه كان متأثراً بسكر أثناء مباشرته مهام الحكم. أما الوليد بن عقبة فيدرى أن خصومه بلغوا درجة محمومة في التعرض له، وأن كلاماً عاماً من شخصية كبيرة كابن مسعود سوف يعطيهم الفرصة، ولهذا استدعاه ولفت نظره إلى خطئه في عدم حسم الكلام معهم؛ إذ لم يكن الموقف يسمح بالتردد أو التلجلج، لأنه (أى الوليد) ليس بالملجلج أى المعوج كما يدعون. ومؤكد أن ابن مسعود دافع عن مقولته لهم بأنه قصد توجيههم للطريقة الشرعية في التعبير عن معتقدتهم كحق لهم طالما أنهم مصررون على فعل شيء ما، وأن الخطأ يعود أصلاً إلى الوليد في عدم حسم القضية معهم منذ البداية. وهو ما يعد تفسيراً للملاحاة التى حدثت بينهما وأدت لافتراقهما على غضب. أما جملة "ولم يكن بينهما أكثر من ذلك" فتدلنا على استمرار العلاقة بين الاثنين على طبيعتها، وسنجد الوليد يستمر في الاعتماد على استشارة ابن مسعود كصحابي جليل له ثقله الشرعى فيما أشكل

(١) الطبرى:- ج ٤، ص ٢٧٤-٢٧٥؛ ابن عساکر:- ج ٢٦، ص ٣٤٣؛ المالكى:- التمهيد والبيان ص ٥٣. وعن معنى الملجلج، انظر:- المعجم الوسيط، ص ٨١٦.

من أمور. وبالتالي فإنه من الخطأ تماماً التعويل على تفسيرات المؤرخين - القدامى والمُحدثين - بأن ابن مسعود كان حبر عثرة ضد الوليد بن عقبة لأخطائه في إدارة شئون الكوفة، وأن الخليفة عثمان كان متسترأ على أخطاءه واليه.

لماذا ابن مسعود؟ والحق إن الإكثار من إقحام اسم ابن مسعود على النحو السابق كان يسير وفق المخطط السبئي الذي اخترع أصحابه هذه المواقف التصادية بين ابن مسعود كصحابي جليل والوليد بن عقبة، وجعلها وسيلة لتصادمه كذلك مع الخليفة عثمان المتهم بتستره على واليه، حتى تصبح واحدة من كبريات أخطاء الخليفة عثمان الموجبة لعزله أو قتله. ومثل هذا الشيء قيل عن أبي ذر الغفاري وأبي الدرداء من كبار الصحابة مع معاوية بن أبي سفيان وإلى الشام^(١). أما لماذا ابن مسعود تحديداً وليس مثلاً الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان المقيم أيضاً بالكوفة وصاحب الصلوات والجولات الجهادية انطلاقاً من أرضها إلى أرمينية وأذربيجان ومن قبلها إلى إقليم الري، فلأن ابن مسعود قد اختلف بشكل حاسم مع الخليفة عثمان في قضية فقهية بحثة تعرف بحادثة نسخ المصحف الشريف. وهى الحادثة التى تعود بدايتها إلى سنة ٢٩هـ (٦٥٠م) عندما نما إلى علم الخليفة عثمان اختلاف الأقاليم المفتوحة حديثاً في قراءة القرآن الكريم وتعصب مسلمي كل إقليم للقراءة التى تعلموها؛ إذ كان القرآن الكريم حينذاك غير منقوط ولا مشكول. فاستدعى نسخة المصحف الكريم المكتوبة في عهد أبي بكر الصديق والتي كانت محفوظة في بيت أم المؤمنين السيدة حفصة رضى الله عنها، وأمر بتشكيل لجنة علمية لنسخها في عدة نسخ ترسل للأقاليم. وكانت هذه اللجنة تتكون من عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص^(٢) وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وبرئاسة الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري الذى تولى كتابة المصحف أول مرة بتكليف من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، ثم

(١) لاحظ أن أبا بكر بن العربى (العواصم، ص ٦١-٦٢) قد جعل تهمة اضطهاد ابن مسعود رقم ٢، واضطهاد أبي ذر رقم ٥، واضطهاد أبي الدرداء رقم ٦ من مجموع التهم التى وجهها السبئية للخليفة عثمان.

(٢) سعيد بن العاص هذا هو الذى سيخلف الوليد في إمارة الكوفة سنة ٣٠هـ. ولهذا رجحنا سنة ٢٩هـ كتوقيت لبداية حادثة نسخ المصحف الكريم، مما كان سبباً في استدعاء ابن مسعود من الكوفة إلى المدينة المنورة، وبالتالي لم يكن شاهداً على ما قيل بشأن صلاة الوليد وهو سكران. ومن قال ببداية حادثة نسخ المصحف في سنة ٣٠هـ:- المالكى:- التمهيد والبيان، ص ٦٢.

لأنه هو الذى حفظ العرضة الأخيرة لكتاب الله على رسوله ﷺ قبيل وفاته حيث تم إعادة ترتيب آيات القرآن وفق السور الكاملة الموجودة الآن، وليس وفق ترتيب النزول. ثم أمر الخليفة عثمان باستدعاء النسخ الأخرى المخالفة لهذه النسخة، حيث قام بمحوها بنفسه، ومنها نسخة مصحف ابن مسعود رغم كونها صحيحة تماماً، لأن آياتها كانت وفق ترتيب النزول كما كانت بلهجة هذيل قبيلة ابن مسعود مما يجعلها مختلفة في بعض ألفاظها عن النسخة الرسمية التى هى بلهجة قريش التى نزل بها القرآن من عند الله سبحانه وتعالى^(١). ولكن عبد الله بن مسعود رفض تسليم نسخته اعتزازاً بجهوده الصادقة في تدوينها، وتزكية رسول الله ﷺ له، كما أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب لم يطلبها منه، فلم يطلبها الآن الخليفة عثمان؟ ولكى يمحوها سواء بحرق المکتوب على سعف النخيل أو غسل المکتوب على ألواح!!!. ومن المؤكد أنه صار يردد من فوق المنبر بمساجد الكوفة أن ذلك من المحدثات في الدين وأنها بدعة تؤدي إلى ضلالة ثم إلى النار، الأمر الذى جعل الخليفة عثمان يتعجل استدعاءه إلى المدينة المنورة مؤكداً على الوليد بن عقبة واليه التدخل لمنع انتشار رأيه بين الناس حتى تتم المناظرة الفقهية بينهما في المدينة. ونرجح أن الوليد حاول بسرعة حسم هذا الموقف حتى لا يزيد في مغالاة المغالين، فأرسل إلى ابن مسعود يمنعه من الاستمرار في مسلكه هذا، الأمر الذى تم تفسيره على نحو خاطئ قبل ذلك^(٢).

قضية الساحر وعلى أية حال، فمن المؤكد أن الوليد بن عقبة قرر منذ الآن عدم التردد في معاملة خصومه بشدة، إلا إنهم كانوا أسبق في انتهاز الفرصة التى لاحت لهم كي يظهروا الوليد بمظهر العاجز والمتخاذل عن تنفيذ حكم الله تعالى في واحدة من أكثر القضايا إثارة، والتى أظهرت كذلك ميل الوليد للتنسيق الكامل مع ابن مسعود فيما

(١) أبو بكر بن العربي: - العواصم، ص ٦٦-٧١ وهامش تحقيق رقم ٢ ص ٧١-٧٢؛ الملقى: - التمهيد والبيان، ص ٦٢-٦٤.

(٢) أبو بكر بن العربي: - المصدر والصفحة. (وانظر ما سبق، ص ٢٧ هامش رقم ٥).. ولاحظ أن د. أكرم العمرى (عصر الخلافة الراشدة، ص ١٣٥) يذكر أن خلافاً حدث بين الوليد وابن مسعود، وأنه كان سبباً في عزل ابن مسعود والإبقاء على الوليد. ولم يذكر سيادته نوع هذا الخلاف ولا سببه، بل قرنه بخلاف ابن مسعود مع سعد بن أبي وقاص، الأمر الذى رفضناه وأكدنا على فساد طريقة المؤرخين في إثباته.

أشكل من أمور، وهى المعروفة بقضية الساحر^(١). وتبدأ أحداثها بحضور أناس من أهل الكوفة إلى الوليد مصطحبين أحد السحرة، جعله المسعودى يهودياً يدعى بطرونى (أو مطروى) من سكان إحدى قرى الكوفة مما يلى جسر بابل^(٢)، وقد شهدوا عليه بممارسة السحر، فسارع الوليد بإخبار عبد الله بن مسعود بالأمر. ومن المؤكد أن طريقة ابن مسعود فى معالجة هذه القضية جعلت الوليد لا يرسل إلى الخليفة عثمان يستفتيه؛ إذ لا تذكر جميع الروايات اسم الخليفة عثمان فى بداية الحادثة. ذلك أن ابن مسعود حرص على التأكد إن كان الوليد قد استجوب الساحر بنفسه أم لا، ولما وضح أنه اعتمد على شهادة الحضور، تولى ابن مسعود بنفسه إقرار الساحر على نفسه كنوع من الاستتابة عن جرمه حتى تيقن إصراره واستهانتته بخطورة ما يفعل، فأفتى للوليد بإعدامه. وكعادته أمر الوليد بإذاعة فعل الساحر بين الناس وأنه يرفض محاولات استتابة، وسوف يعلن عن موعد إعدامه^(٣).

(١) البلاذرى: - أنساب، ج ٥، ص ٣١-٣٢؛ الطبرى: - ج ٤، ص ٢٧٥؛ المسعودى: - مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٤٨؛ ابن عساكر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٤٣-٣٤٤؛ ابن الأثير: - الكامل ج ٣، ص ٤؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٣-٦٤٤؛ المالكى: - التمهيد والبيان، ص ٥٣-٥٤؛ الفاسى: - العقد الثمين، ج ٧، ص ٤٠٤-٤٠٦. ولاحظ أن اليعقوبى (تاريخ، ج ٢، ص ١٦٥) قد جعل حادثة الساحر من آخر أخطاء الوليد والتي كانت سبباً مباشراً فى عزله عن الكوفة.

(٢) المسعودى: - مروج، ج ٢، ص ٣٤٨. وانظر قراءة أخرى لاسم الساحر عند: - البلاذرى: - ج ٥، ص ٣١؛ اليعقوبى: - ج ٢، ص ١٦٥.

(٣) الطبرى: - ج ٤، ص ٢٧٥؛ ابن عساكر: - ج ٢٦، ص ٣٤٣-٣٤٤؛ ابن الأثير: - ج ٣، ص ٤؛ المالكى: - ص ٥٣-٥٤. ويبدو أن إقرار ابن مسعود للساحر على نفسه كان على مشهد من الناس بحيث ذكرت المصادر السابقة أن الساحر عرض مهاراته أمامهم كنوع من الإصرار على موقفه. وذكرت روايات أخرى أن الوليد هو الذى شاهد مهارات الساحر كنوع من اللهو، وأن ذلك كان فى صحن المسجد الجامع بالكوفة. انظر: - البلاذرى: - أنساب، ج ٥، ص ٣١؛ اليعقوبى: - ج ٢، ص ١٦٥؛ المسعودى: - مروج، ج ٢، ص ٣٤٨؛ الفاسى: - العقد، ج ٧، ص ٤٠٧. ومن وافقهم: - د. طه حسين: - الفتنة الكبرى (عثمان) ص ٧٣٤ حيث رفض أن يكون للوليد وابن مسعود دور فى محاسبة الساحر، بل على العكس صرح سيادته بأن الوليد كان من المعجبين بالساحر وأنه كان يسمح له بعرض مواهبه "وغضب لذلك المتزمتون من أهل الكوفة، فعدوا على ذلك المشعوذ المسكين!! قتلوه. وغضب لذلك الوليد وغضب لذلك عثمان؛ فما ينبغى للناس أن يريقوا الدماء عن غير أمر السلطان ولا أن يريقوها بالظنة!!؟"

وعند هذا الحد، فالقضية من النوع العادي، بدليل عدم إخبار الخليفة عثمان بها، ولكن جماعة المعارضة كان لها رأى آخر. فقد عمد أحدهم ويدعى جندب بن كعب - وقيل بن عبد الله - الأزدي من أزد اليمن، إلى المبادرة بقتل الساحر بنفسه، كى يخرج من مركز الوليد. ونعجب من الطريقة الصاخبة التى أتم بها جندب فعلته، وكذا من طريقة المؤرخين واختلافهم فى إثبات الحادثة منذ الآن. فقد ذهب جندب إلى سيف يدعى معقلاً، كان مولى لأحد رجال الأزد، وطلب منه سيفاً قاطعاً. وفى الطريق التقى بشخص آخر يدعى مصعد التيمى من بنى تيم الله بن ثعلبة (لاحظ كثرة أسماء العشائر العربية)، حيث سأله عن وجهته. فأجابه فى شبه محاضرة أنه يريد قتل "هذا العليج الساحر الذى سحر أميرنا الفاجر العاتى. فإنى والله لقد مثلت الرأى فيها فظننت إن قتلت الأمير ستوقع بيننا فرقة تورث عداوة. [لاحظ أن هذا فقط هو المانع، بمعنى أن شخص الوليد يستحق القتل] فأجمع رأى على قتل الساحر". فأيده رفيقه التيمى وأعلن شراكته له فى تحمل التبعة. ثم تابع جندب مسيره حتى "انتهى إلى المسجد"، حيث أكدت بعض الروايات أن الوليد قد سمح للساحر أن يعرض مهاراته فى صحن المسجد، بل كان يستمتع بالمشاهدة!! واندس جندب بين الحضور، وتمكن من قتل الساحر بضربة فصلت رأسه عن جسده^(١).

انقسام الروايات فى تدوين الحادثة

وتسير الروايات واصفة ما حدث بعد ذلك فى خطين متوازيين:- فالطبرى وابن عساكر والمالقي يذكرون أن الوليد بن عقبة وعبد الله بن مسعود اتفقا على حبس جندب، حتى يتبين رأى الخليفة عثمان فى هذا التطور الخطير. ويؤكدون أن رأى ابن مسعود كان

(١) البلاذرى:- أنساب، ج ٥، ص ٣١-٣٢؛ اليعقوبى:- ج ٢، ص ١٦٥؛ المسعودى:- مروج، ج ٢، ص ٣٤٨؛ الفاسى:- العقد، ج ٧، ص ٤٠٤-٤٠٦. بينما ذكر الأصفهاني (تجريد الأغاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٣-٦٤٤) وابن عساكر (تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٤٤) أن جندباً قتل الساحر مباشرة دون هذه المقدمة. وانظر ترجمة جندب عند كل من:- ابن عبد البر:- الاستيعاب، م ١، ص ٥٨٠-٥٨٥ ترجمة رقم ٣٤٧؛ الذهبي:- سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ١٧٥-١٧٧؛ ابن حجر:- الإصابة، م ١، ص ٧٢٢ ترجمة رقم ١٢٣٠. حيث التأكيد على دور جندب فى قتل الساحر فقط دونها سياق درامى.

واضحاً جداً في هذه المشورة، بدليل إجماعهم على ذكر اسمه أولاً: - "فاجتمع عبد الله والوليد على حبسه"^(١). بينما أسهبت الروايات الأخرى في أن الوليد سمع مقولة رئيس شرطته عبد الرحمن بن خنيس الأسدي - الذي جعلوه كذلك رفيقاً له في مجالس اللهو والخمر - بوجوب قتل جندب، لأن الساحر ليس أثماً إنما هو "رجل يلعب، يأخذ بالعين سرعة وخفة". وعندها تحركت عشائر الأزد وزعيمها مخنف بن سليم الأزدي - جد الإخباري الشيعي الشهير أبي مخنف لوط بن يحيى - رافضين قتل صاحبهم ومهددين بالعصيان. ورد الوليد على ذلك باستنفار عصبية المضرية. ووفقاً لهذا التصوير، كادت الفتنة تحدث بين الحيين، لولا أن أحد قيادات ربيعة - ويدعى شبت بن ربيع - رفض إجابة الوليد قائلاً: - "لم تدعو مضر؟ تريد أن تستعين بمضر على قوم منعوا أخاهم منك أن تقتله بعليج ساحر كافر من أهل السواد. لا تحبيك والله مضر إلى الباطل وإلى ما لا يحل". وكنوع من الحل الوسط، اقترح الوليد عليهم سجن جندب حتى يأتي فيه رأى الخليفة عثمان، فوافقوا^(٢).

بمعنى أن الفريقين من المؤرخين اتفقوا على أن جندب قد تعرض للحبس عشية قتله الساحر حتى يأتي فيه القول الفصل من الخليفة عثمان بن عفان، ولكن شتان الفارق بينهما. ونحن نميل لاعتماد ما ذهب إليه الفريق الأول، لاعتدالهم في عرض الأحداث. بينما نجد مبالغة واضحة وتهويل مفتعل من أصحاب الاتجاه الآخر الذين لم يكتفوا بما

(١) الطبري: - ج ٤، ص ٢٧٥؛ ابن عساكر: - ج ٢٦، ص ٣٤٤؛ المالكى: - ص ٥٤. وراجع: - ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ١، ص ٥٨٣؛ ابن حجر: - الإصابة، م ١، ص ٧٢٣-٧٢٤ حيث بعض الاختلاف: - فمثلاً لم يذكر أية دور للصحابي ابن مسعود في معالجة أمر الساحر، كما أن ابن عبد البر يؤكد أن جندباً كان معه رفاق آخرون وأنهم تعرضوا للسجن معه كذلك.

(٢) البلاذري: - ج ٥، ص ٣٢؛ البعقوبي: - ج ٢، ص ١٦٥؛ المسعودي: - ج ٢، ص ٣٤٨؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٣-٦٤٤. وشبت بن ربيع المذكور في المتن من بنى يربوع التميميين له ماضٍ بغیض، تمثل في أنه ارتد مع المرتدين وكان مؤذن لسجاح التميمية التي ادعت النبوة، ثم تاب. وظهر بعد ذلك من الداعين لقتل عثمان بن عفان، ثم كان من شيعة علي بن أبي طالب قبل أن يتقلب عليه ويكون من قيادات الخوارج بحروراء، واعتز هو بأنه "أول من حرّ الحورية". عنه انظر: - ابن حجر: - الإصابة في تمييز الصحابة، م ٣، ص ٥١٠-٥١١ ترجمة رقم ٣٩٣٧.

قالوه أولاً، بل راحوا ينسجون هالات من القداسة على شخص جندب بن كعب أثناء وجوده بالسجن، بقصد إبرازه في صورة شهيد الواجب، بل وضعوا حديثاً نبوياً شريفاً عن أنه جندب الخير الذى أكد النبى محمد ﷺ أنه صاحب الضربة التى تفرق بين الحق والباطل، أى قتله الساحر^(١). وابتداءً، زعم هؤلاء أن الوليد حرص على قتل جندب أثناء وجوده بالسجن، أو كما قال المسعودى: - "أراد قتله غيلة (وفى قراءة أخرى: - بحيلة)"^(٢). ولكن السجن - فى زعمهم - وقف موقفاً بطولياً لصالح جندب، مما عرضه لانتقام الوليد. ذلك أنه، ويدعى أبا سنان دينار ووصف بحسن إسلامه، عاين من جندب حسن تدين وعبادة؛ إذ كان يقوم ليله مصلياً ويصوم نهاره، فجعله ذلك يغامر بإطلاق سراح جندب ليلاً كى يبيت ببيته ثم يعود إلى السجن نهاراً. وفى رواية أن السجن أقتع جندباً بمغادرة الكوفة إلى المدينة المنورة لعرض شكواه على الخليفة عثمان، وعبر عن عدم خشيته من الوليد قائلاً: - "ما أسعدنى إن قتلنى، انطلق أنت راشداً". وبالفعل أمر الوليد - فور علمه بهروب جندب - بقتل السجنان، وفى رواية أخرى أنه أمر بقتله ثم صلبه كى يكون عبرة للجميع^(٣). واستمراراً لهذا التصوير الدرامى، جعلوا السجنان نصرانياً حيث انبهر بصدق عقيدة جندب، وصار يتساءل عن هذا الذى يعده المسلمون مخطئاً ويسجنونه، قائلاً: "والله إن قوماً هذا شرهم، لقوم صدق". ودفعه هذا للاقتناع بالإسلام، وصار يبحث عن أكثر المسلمين تديناً فى الكوفة فوصفوا له الأشعث بن قيس

(١) البلاذرى: - ج ٥، ص ٣١؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني: - ق ١ ج ٢، ص ٦٤٤. وانظر كذلك: ترجمة زيد بن صوحان العبدى قسيم جندب فى هذا الحديث النبوى الموضوع، عند: ابن سعد: - الطبقات الكبرى، ج ٦، ص ٨٤؛ ابن قتيبة: - المعارف، ص ٤٠٢ (وقد أخطأ فجعله جندب بن زهير الأزدي والد الشاب القاتل)؛ الذهبى: - سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٥٢٥-٥٢٨ (حيث ترجيح لرواية هذا الحديث الموضوع فى هامش تحقيق رقم ١ ص ٥٢٦)؛ ابن حجر: - الإصابة، م ٣، ص ٧٠-٧٢، ترجمة رقم ٣٠٠٤. وانظر الملاحظة المهمة عن عدم وجود هذا الحديث فى كتب صحاح الحديث النبوى الشريف، وإنما فقط فى كتب الطبقات التى ترجمت لجندب وزيد، وذلك فى موسوعة أطراف الحديث التى جمعها أبو هاجر محمد السعيد، مطبوعات عالم التراث للطباعة والنشر، بيروت، ط ١ سنة ١٩٨٩، ج ٤، ص ٥٠٣.

(٢) المسعودى: - مروج، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٣) البلاذرى: - ج ٥، ص ٣٢؛ اليعقوبى: - ج ٢، ص ١٦٥؛ الفاسى: - ج ٧، ص ٤٠٥-٤٠٦. وانظر: - ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ١، ص ٥٨٤-٥٨٥ حيث اختلاف كثير فى التفاصيل كأن يقول إن ابن أخى جندب هو الذى قتل الساحر وأطلق سراح عمه جندب.

الكندى ثم جرير بن عبد الله البجلي، غير أنه لم يجدهما في مثل صدق وعبادة جندب، "فاستقبل السجان القبلة وقال:- ربي رب جندب، وديني على دين جندب، وأسلم". ومع هذا فقد أعدمه الوليد وصلبه^(١). وهكذا مما لا طائل من وراءه سوى التشنيع على الوليد واستعداد القارئ ضد سياسته في الحكم ومن كان سبباً في تعيينه ومتسترأ على أخطائه.

رد الخليفة عثمان وعلى العموم فإن الخليفة عثمان قد وصله كتاب الوليد بشأن فعلة جندب، وأنه وعبد الله بن مسعود ارتأيا حبسه حتى يتم الفصل في أمره. فرد بكتاب جاء فيه أن يجعلوا جندباً يقسم يميناً بالله غير حاث أنه قتل الساحر لعدم علمه بالإجراءات الرسمية المتخذة في هذا الشأن، ويميناً آخر "إنه لصادق بقوله فيما ظن من تعطيل حده". وتعزيره بتجديد حبسه فترة حددها لهم عقوبة له على تجاهله الإجراءات المتخذة، ثم يطلق سراحه. وإذاعة منشور عام لأهل الكوفة محذراً من تكرار ذلك ومخاطباً إياهم "ألا يعملوا بالظنون، وألا يقيموا الحدود دون السلطان. فإننا نقيّد المخطئ ونؤدب المصيب"^(٢). بمعنى أن من تسول له نفسه أن يصادر حق الدولة في اتخاذ ما تراه مناسباً من إجراءات حسماً للمشكلات، فستعرض للعقوبة في الحالين:- إن كان مخطئاً بتجاهله الإجراءات الرسمية المتخذة فسيقض منه (وهذا معنى قوله:- فإننا نقيّد المخطئ). وإن كان مصيباً فسيتم تأديبه (المسمى شرعاً بالتعزير). ولا يخفى علينا الدافع وراء هذا المرسوم، والمتمثل في رغبة الدولة في تأكيد حكمها المركزي إلى أبعد الحدود، وحتى لا تترك مثل هذه الأمور ذات الصلة بالشرع لتقدير العوام مخافة الفتنة.

هذا ما يؤكد مؤرخو الفريق الأول، ونراه أكثر مصداقية، عكس التصور الآخر الذي طرحه علينا البلاذري والفاسي المكي عن خروج جندب بن كعب بمساعدة السجان، من

(١) ابن واصل:- تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٤، ولاحظ طبعاً أن الشخصين المذكورين بالمتن كأعبد أهل الكوفة ورعاً وتديناً إنما هما عن تمرّد على عثمان بن عفان تشيعاً لعلّ بن أبي طالب.

(٢) الطبري:- ج ٤، ص ٢٧٥؛ ابن عساكر:- ج ٢٦، ص ٣٤٤؛ المالكى:- ص ٥٤. وقد ذكر ابن عبد البر:- (الاستيعاب، م ١، ص ٥٨٢ و ٥٨٣) أن الخليفة عثمان أمر بإطلاق سراح جندب فوراً دون ذكر للمرسوم. بينما ذكر ابن حجر:- (الإصابة، م ١، ص ٧٢٤) أن الخليفة عثمان أراد قتل جندب ثم عدل عن ذلك بنفيه إلى المشرق.

الكوفة إلى المدينة المنورة " ولم يزل بها حتى كلم فيه علي بن أبي طالب عثمان. فكتب إلى الوليد يأمره بالإمساك عنه، فقدم الكوفة"^(١). هذا في رواية البلاذري التي نرى فيها عودة إلى إقحام اسم علي بن أبي طالب كشاهد على أخطاء عثمان ورجال إدارته في الأقاليم. أما عند الفاسي المكي فإن جندباً "لحق بالحجاز، وأقام بها سنين"، حتى قدم المدينة وفد كوفي للقاء الخليفة عثمان، وكان يضم مخنف بن سليم الأزدي وجندب ابن زهير الأزدي، اللذين قصا على الخليفة قصة جندب وأخبراه بظلم الوليد له. بمعنى أن الخليفة عثمان - وفق هذا الزعم - لم يكن يدري حتى الآن بما حدث، بحيث كتب إلى الوليد: - "أما بعد، فإن مخنف بن سليم وجندب بن زهير شهدا عندي لجندب بن كعب بالبراءة وظلمك إياه. فإذا قدما عليك، فلا تأخذن جندباً بشيء مما كان بينك وبينه!! ولا الشاهدين بشهادتهما. فأني والله أحسبهما قد صدقا. والله لئن أنت لم تعتب ولم تتب لأعزلنك عنهم عاجلاً. والسلام"^(٢). وهي رواية نتمنى لو كانت حقيقية كي تكفي الخليفة عثمان مؤنة الرد على الاتهامات الخطيرة الموجهة له عن تستره على أخطاء ولاته وأبرزهم الوليد بن عقبة.

تصعيد أول للأحداث [المطالبة بعزل الوليد]

وعلى أية حال فإننا نزداد اطمئناناً تجاه استمرار الطريقة المعتدلة لمؤرخي الفريق الأول في تتبع سير القضية حتى الفصل الأخير. وذلك حينما أكد الطبري ورفيقاه أن جماعة المعارضة رفضوا قرار الخليفة عثمان بتجديد حبس جندب والتحذير من تكرار فعلته، وارتأوا تسيير وفد منهم إلى المدينة المنورة لعرض مطالبهم عليه شخصياً. وكان هذا الوفد يضم: - أبا خشة - وقيل أبا حبيبة - الغفاري، وجثامة بن الصعب بن جثامة، وجندب بن زهير الأزدي الذين طلبوا من الخليفة مطلباً وحيداً هو عزل الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة^(٣). وهو ما نفاجأ به لأول مرة في ثنايا هذا البحث، خاصة وأن رواته معتدلون، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن خلفية هذا التطور في سير الأحداث، وهل كان

(١) البلاذري: - أنساب ج ٥، ص ٣٢.

(٢) الفاسي: - العقد، ج ٧، ص ٤٠٦.

(٣) الطبري: - ج ٤، ص ٢٧٥؛ ابن عساكر: - ج ٢٦، ص ٣٤٤؛ المالكى: - ص ٥٤. وعن تصحيح اسم أبي خشة الغفاري، قارن: - البلاذري: - أنساب، ج ٥، ص ٣٤ (ولاحظ أن البلاذري ذكر هذه الشخصيات ضمن الذين شهدوا على الوليد بن عقبة أنه يشرب الخمر).

مثل غيره من الحالات العديدة التي طلب فيها أهل الكوفة عزل ولاتهم السابقين على الوليد. وذلك قبل استعراض رد الخليفة عثمان على هذا المطلب.

وضوح الهوية السبئية على المعارضة

وابتداءً، نلاحظ أن الأمر جد خطير؛ إذ لا يمكن إغفال التطور المهم الذي انتاب جماعة المعارضة بالكوفة هذه المرة. وأعنى به وضوح الهوية السبئية على معتقداتهم وتحركاتهم منذ الآن، أى أخريات حكم الوليد بن عقبة، وليس كما هو شائع فى كتب التاريخ أن السبئية بدأوا يظهرين فى ولاية سعيد بن العاص الذى خلف الوليد فى حكم الكوفة، وبالتحديد من خلال حادثة النشاطج بالكوفة بعد سنة ٣٠هـ (+ ٦٥١م) والتي يقال إنها الشرارة الأولى لانطلاق أحداث الفتنة الكبرى^(١). يدلنا على ذلك نص فريد عن البلاذرى رأينا لأهميته البالغة أن نلحقه كضمانة بآخر الدراسة. ذلك أنه كشف النقاب صراحة عن العديد من أوجه الارتباط بين المعارضين للوليد بالكوفة وبين المنهج السبئى المعادى للخليفة عثمان بن عفان والداعى لولاية على بن أبى طالب بدلاً منه، وذلك من حيث المخطط التنفيذى، وأسواء القيادات، وعلاقتهم بالإدارة فى الكوفة ورئيسها الوليد بن عقبة.

(١) النشاطج: أرض زراعية غنية بإقليم السواد بالكوفة. امتلكها الصحابى الجليل طلحة بن عبيد الله وفق قاعدة جواز مبادلة الأرض التى سنها الخليفة عثمان بن عفان ابتداء من سنة ٣٠ هـ. وقد تملكها مقابل تنازله لأصحابها عن ملكيته لأرض بخير. وأصبحت تدر دخلاً كبيراً خصص معظمه الصحابى الجليل للمعوزين، مما جعلها حديث الجميع بالكوفة. وقيل إن حاشية الوالى سعيد بن العاص صاروا يتمنون له امتلاك مثلها حتى يبارى الصحابى طلحة فى الإنفاق، مما أغضب الحضور من جماعة السبئية يقدمهم الأشر النخعى الذى قال للوالى سعيد: "أتزعم أن السواد الذى أفاء الله علينا بأسيا فانا ملك لك ولقومك من قريش". وأوسعوا ضرباً من جامل الوالى بتلك الأمانة. وقد انتهى الحال بهؤلاء أن أصبحوا حجر عثرة ضد الوالى سعيد، حتى أمر الخليفة عثمان بترحيلهم إلى الشام حيث تولى معاوية بن أبى سفيان إقراهم على خطئهم ثم أعلنوا توبتهم أمام عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والى حمص. وهكذا استمروا بين أخذ ورد، وشاعت فعلتهم فى الأقاليم وأصبحت نموذجاً احتذاه زملاؤهم السبئية فى البصرة والشام ومصر. عن ذلك انظر:- سيف بن عمر:- الفتنة ووقعة الجمل، ص ٣٥ - ٤١؛ الطبرى:- ج ٤، ص ٣١٧-٣٢٢. وراجع:- أبابكر بن العربى:- العواصم، هامش تحقيق رقم ١، ص ١١٦-١١٩.

* ففى البداية، ذكر البلاذرى أنه نقل الخبر عن راويه الشيعى المعروف أبى مخنف لوط ابن يحيى^(١) - حفيد مخنف بن سليم الأزدي أحد المعارضين الرئيسيين للوليد وللخليفة عثمان - والذي استهله بفضح المخطط التنفيذى للسبئية الداعى للطعن فى كفاءة الخليفة عثمان وضرورة خلعه والبيعة لعلى بن أبى طالب بدله. وذلك فى قوله: - "قال أبو مخنف فى إسناده: - لما شاع فعل عثمان وسارت به الركبان، كان أول من دعى إلى خلعه والبيعة لعلى ... " (٢).

* ثم أعلن أسماء القادة الذين حملوا راية العصيان، وهم: - عمرو بن زرارة بن قيس ابن الحارث ابن عمرو بن عداء النخعى، وكميل بن زياد بن نبيك بن هتيم النخعى، وثالثهم الأشتر مالك بن الحارث النخعى، يعنى من قبيلة نخع اليمنية^(٣). فازداد بذلك الرصيد التامرى لزعماء العشائر من اليمنية، إلى جانب من عرفنا من قيادات الأزدي وغيرهم.

* أن المنهج السبئى فى الطعن على الخليفة عثمان بطريقة غير مباشرة من خلال الطعن على الولاية فى الأقاليم، وإظهار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإذاعة ذلك بين الناس

(١) هو أبو مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٨ هـ) شيخ إخبارى الكوفة وصاحب السير والتواريخ. من بيت كبير بالكوفة، لعب أفراداه دوراً كبيراً فى القتال إلى جانب على بن أبى طالب. وهو من أعظم مؤرخى الشيعة، وضعفه علماء الحديث النبوى الشريف وقالوا: - إنه شيعى محترق صاحب أخبارهم، وإنه الكوفى الرافضى، وإنه يروى عن طوائف من المجهولين. عنه انظر: - الإمام أبا الحسن الدارقطنى: - كتاب الضعفاء والمتروكين، حققه وعلق عليه السيد صبحى البدرى، مطبوعات مؤسسة الرسالة ببيروت ط. ١ سنة ١٩٨٤، ص ١٤٦ مسلسل رقم ٤٤٤٩؛ ابن كثير: - البداية والنهاية، م ٤ ج ٨، ص ٧٣١؛ ابن حجر: - لسان الميزان، منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت ط. ٣ سنة ١٩٨٦، ج ٤، ص ٤٩٢ - ٤٩٣. وراجع: - د. عدنان ملحم: المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص ٢٧-٢٩ و ٧٠-٧١ حيث دراسة وافية عن أبى مخنف ومنهجه فى الكتابة ومجموع الروايات التى أخذها عنه قدامى المؤرخين كالبلاذرى والطبرى.

(٢) البلاذرى: - أنساب، ج ٥، ص ٣٠. وعن المخطط السبئى وكيفية تنفيذه بالاعتداد على مكاتبة "من كان استفسد فى الأمصار". انظر: - سيف بن عمر: - المصدر السابق، ص ٤٨ - ٤٩؛ الطبرى: - ج ٤، ص ٣٤٠-٣٤١.

(٣) البلاذرى: - المصدر والصفحة. ويعد هذا انعكاساً حقيقياً لما لاحظته محقق كتاب العواصم (هامش تحقيق رقم ١ ص ٥٨) من أن اليمنية كانوا الهيئة الثانية الأكثر نشاطاً، من الهيئات الثانية التى تشكل منها الألف وثمانمائة متمرد ضد الخليفة عثمان. (انظر ما سبق ص ١ هامش ٥).

قد وضح في قول عمرو بن زرارة: - "أيها الناس، إن عثمان قد ترك الحق وهو يعرفه. وقد أغرى بصلحائكم، يولى عليهم شراركم" (١).

* أن النص أثبت عجز الوليد بن عقبة عن مواجهتهم مرتين: - فهو لم يعرف من أمرهم شيئاً حتى أخبره جاسوس يدعى خالد بن عرفة بن أبرهة بن سنان العذري، حليف بنى زهرة، بما يدبرونه. بمعنى أنه لولا الخلاف العرقى بين الجاسوس وبينهم - فهو قيسى وهم يمنية - لما خانهم بنقل أسرارهم إليه. كما أن الوليد لم يتعامل بحكمة وتعقل معهم؛ إذ إنه حشد لقاتلهم لولا نصيحة غالية أعادته إلى صوابه، فقد قيل له: - "الأمر أشد من ذلك، والقوم مجتمعون. فاتق الله ولا تسعّر الفتنة" (٢).

* أن شعار "التقية" أو الاستتار من شعارات السبئية، قد وضح في تلون دور الأشر مالك بن الحارث النخعي الذي هو أحد الداعين لفكر السبئية وتهيج الناس، ثم نراه يظهر في النص بدور الحكيم المتعقل والناصح الأمين للوليد بعدم اللجوء للحل العسكري، قائلاً: - "أنا أكفيك أمرهم... فأتاهم فكفهم وسكنهم وحذرهم الفتنة والفرقة، فانصرفوا" (٣).

* أنهم كانت لهم خطط متكاملة لتصعيد الأحداث، وذلك بالرد على أى إجراء تتخذه الدولة ضدهم، مما يدل على أن الأمر لم يعد أمراً بمعروف أو نهيّاً عن منكر كما يدعون. فقد ورد في النص أن الوليد بن عقبة كتب إلى الخليفة عثمان بما كان من عمرو بن زرارة، فأمر بنفيه إلى الشام واصفاً إياه بالأعرابي الجلف. فخرجوا في شبه مظاهرة لتوديعه عند خروجه من الكوفة حيث كانت فرصة لظهور أسماء جديدة لقيادات السبئية غير السابقين، مثل: - الأسود بن يزيد بن قيس وعمه علقمة بن قيس بن زيد وقيس بن فهدان ابن سلمة الكندي الذي أخذته الحمية فأنشد شعراً يعرض بالوليد وبالخليفة عثمان، قائلاً: (٤).

(١) البلاذري: - المصدر والصفحة.

(٢) البلاذري: - نفسه والصفحة. وخالد بن عرفة ممن تأكدت صحبته للنبي محمد صلى الله عليه وسلم. وقد حارب في القادسية، واستخلفه سعد بن أبي وقاص على الكوفة بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب عنه انظر: - ابن حجر: - الإصابة، م ٢، ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٣) و (٤) البلاذري: - المصدر والصفحة. ولاحظ أن الوزن الشعري في البيت الأول مخمل، لأن الكلمة الأخيرة فيه كانت أصلاً "وعلانية". فصوبناها عن: - مهدي عبد الحسين النجم: - مالك بن الحارث الأشتر، مطبوعات دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت ط ١ سنة ١٩٩٨، ص ٢٩.

أقسم بالله رب البيت مجتهداً أرجو الثواب به سرّاً وإعلاناً
لأخلعن أباً وهب وصاحبه كهف الضلالة عثمان بن عفان

تصعيد أخير للأحداث [شهادة الزور]

وعلى العموم، فإن هذه الروح السبئية لدى جماعة المعارضة قد وضحت في ردهم على رفض الخليفة عثمان إجابة طلبهم بعزل الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة. رغم أنه أقام الحجة الشرعية على خطأ مسلك أبي خشة - أو أبي حبيبة - الغفاري، وجثامة بن الصعب، وجندب بن زهير، قائلاً: "تعملون بالظنون، وتخطئون في الإسلام، وتخرجون بغير إذن. ارجعوا"^(١). ذلك أنهم رجعوا إلى الكوفة عاقلين العزم بطريقة محمومة على إنجاح مساعهم حيث "لم يبق موتور في نفسه إلا أتاها، فاجتمعوا على رأي فأصدروه"^(٢). وهكذا خرجت إلى الوجود حادثة شهادة الزور الشهيرة التي نجحوا من خلالها في إلصاق تهمة شرب الخمر بالوليد بن عقبة، ووصلت ذروتها بإقامة الحد عليه وعزله عن ولاية الكوفة سنة ٣٠هـ (٦٥١م) ثم اعتزاله الحياة العامة بعد ذلك حتى وفاته، كما سئرى.

أول الخيط تمثلت جهود المعارضة السبئية للإطاحة بالوليد بن عقبة في العمل بطريقة جماعية منظمة لنسج خيوط التآمر ضده في شكل شهادة زور يستطيع من خلالها كل منهم الإضافة إلى جهد من سبقه. وهكذا، حتى تمخض الأمر عن إقامة الأركان الكاملة لتلك الشهادة التي جعلها الشرع الحكيم من السبع الموبقات، لما يترتب عليها من الإيقاع بالمدعى عليه وإن كان بريئاً. أما الخيط الموجود لديهم فكان يتمثل في طريقة الوليد

(١) و(٢) الطبري: - ج ٤، ص ٢٧٥؛ ابن عساكر: - ج ٢٦، ص ٣٤٤؛ ابن الأثير: - ج ٣، ص ٤؛ المالقى: - ص ٥٤.

(٣) انظر ما سبق (ص ٢٥ هامش رقم ٢). وقد ورد في صحيح البخاري أن الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن طعن وأراد الطبيب الاطمئنان على خطورة الطعنة سأله أي الشراب أحب إليه، فأجاب النبيذ. "فأتى بنبيذ فشربه فخرج من جوفه.. فعرفوا أنه ميت". انظر: ابن حجر: - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، م ١١ (كتاب فضائل أصحاب النبي، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان، وفيه مقتل عمر) حديث رقم ٣٧٠٠، ص ٩. وانظر: تعليق ابن حجر على هذا الحديث بأن "المراد بالنبيذ المذكور تمرات نبذت في ماء، أي نقعت فيه. كانوا يصنعون ذلك لاستعذاب الماء".

في تمضية أوقاته الخاصة في منزله بعد انتهاء ساعات العمل، بمعنى أن نقطة الضعف لم تكن في أمر من أمور الحكم (سياسة أو اقتصاد أو اجتماع أو إدارة ... إلخ). ذلك أن ما رجحناه سابقاً عن ميل الوليد لشرب النبيذ كمشروب شاع استخدامه في بعض الأوساط حينذاك كمسهل للهضم وليس بمسكر^(١)، قد استفز أولئك السبئية الجدد للترويج بأنه خمر يوجب الحد. كما أنهم صعدوا هجومهم على الوليد وجعلوه سكيراً لا يفيق حتى عند دخوله المسجد الجامع كي يؤمهم في الصلاة. وحكت الروايات في هذا الشأن الكثير والكثير. وأغلب الظن أنهم استلهموا في ذلك تفاصيل الحادث الذي سبق وقوعه لقدامة ابن مظعون وإلى البحرين الذي عزله الخليفة عمر بن الخطاب وأقام عليه حد الخمر لثبوت الشهادة عليه^(٢).

إحكام التخطيط بيد أننا نعتزف لهم بدقة شديدة في التخطيط؛ إذ نجدهم في الكوفة يطلقون لأنفسهم العنان في القول على الوليد بمبالغة واضحة، بهدف إثارة مشاعر جميع من بالكوفة. بينما في المدينة المنورة وعند عرض الشهادة أمام الخليفة عثمان فهم حذرون للغاية في طريقة أدائها أو في مطالبتهم الخليفة بإقامة الحد عليه، كما سنرى. ومن المؤكد أن هذا هو السبب في انقسام الروايات على نفسها في تحديد أصل التهمة التي اتهم بها الوليد، وبخاصة في مسألة كونه صلى بالناس في المسجد وهو سكران - ما بين راوٍ يجزم بحدوثها بحيث أوردها في غير موضع وبتفاصيل مثيرة، وبين ثانٍ يذكرها سريعاً مؤكداً نقلها عن

(٤) انظر ترجمة قدامة بن مظعون وتفاصيل الشهادة عليه وعزله وإقامة الحد عليه، عند: - ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ٥، ص ٤٤٩-٤٥٤ ترجمة رقم ٢١٣٢؛ ابن حجر: - الإصابة، م ٥، ص ٦٣٤-٦٣٧ ترجمة رقم ٧١١٠. انظر ترجمة قدامة بن مظعون وتفاصيل الشهادة عليه وعزله وإقامة الحد عليه، عند: - ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ٥، ص ٤٤٩-٤٥٤ ترجمة رقم ٢١٣٢؛ ابن حجر: - الإصابة، م ٥، ص ٦٣٤-٦٣٧ ترجمة رقم ٧١١٠.

(٥) البلاذري: - أنساب، ج ٥، ص ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ (خمس مواضع لهذه الحادثة)؛ المسعودي: - مروج، ج ٢، ص ٣٤٤ (موضعان بتفاصيل مختلفة في أصل التهمة، وباختلاف كذلك عن ذات الرواية التي أوردها البلاذري، رغم اشتراكهما في أخذها عن راوٍ واحد هو أبو مخنف لوط بن يحيى)؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٠ و ٦٤١ (موضعان بتفاصيل مختلفة).

آخر بطريقة "والعهدة على الراوى" ^(١)، وبين ثالث لا يذكرها البتة وإنما يذكر فقط أن الوليد قد اتهم بشرب الخمر ^(٢). ونحن نشترك مع الفريق الثالث في نفى جزئية صلاة الوليد وهو سكران، استناداً لتأكيد جميع الرواة أنها لم تطرح أصلاً أمام الخليفة عثمان بالمدينة المنورة. كما أن المنطق يؤكد أن أحداً من خاصة أهل الكوفة أو عامتهم لم يكن يسمح للوليد بذلك، ناهيك عن تفنن الروايات التي أوردتها في ذكر تفاصيل دقيقة تتعارض مع بعضها.

نقطة البدء في التحرك أما عن التحرك الفعلي للمعارضة السبئية، فنفهم من اختلاف الروايات أنه سار في اتجاهين: - محاولة التلصص على حياة الوليد الخاصة، وهو ما أكدته الطبرى الذى فور فراغه من قضية الساحر وجندب وإشارته إلى اجتماعهم على رأى فأصدروه، قال مباشرة: - "ثم تغفلوا الوليد" ^(٣). ونجد أن من سار في هذا الاتجاه من

(١) ابن شبة: - تاريخ المدينة المنورة، ج ٣، ص ٩٧٥-٩٧٦ (رواية شعر الخطيئة أن الوليد صلى وهو سكران)؛ ابن قتيبة: - المعارف، ص ٣١٩؛ يعقوبى: - تاريخ، ج ٢، ص ١٦٥؛ ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ٦، ص ٣٣٠ و ٣٣١؛ ابن عساكر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٤٢ (رواية الحَضِين بن المنذر أبى ساسان عن صلاة الوليد وهو سكران)؛ الذهبي: - سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٤ (رواية الحَضِين بن المنذر)؛ الفاسى المكي: - العقد، ج ٧، ص ٤٠١ (كرر رواية ابن شبة عن شعر الخطيئة)؛ ابن حجر: - تهذيب التهذيب (طبعة دار الفكر)، ج ١١، ص ١٢٦ (نقل رواية ابن عبد البر)، والإصابة، م ٦، ص ٧١٨ (رواية الزبيرى النسابة).

(٢) ابن السائب الكلبي: - جمهرة النسب، ص ٥٢؛ ابن سعد: - الطبقات الكبرى، ج ٦، ص ١٥؛ خليفة: طبقات خليفة، ص ١١ و ١٢٦ و ١٨٩ و ٣١٨؛ ابن شبة: - تاريخ المدينة، ج ٣، ص ٩٧٢ و ٩٧٣ (رواية الحَضِين بن المنذر وليس فيها صلاة الوليد وهو سكران إنما شهادة الشهود أن الوليد شرب الخمر فقط)؛ ابن أعثم الكوفى: - كتاب الفتوح، ج ٢، ص ١٦٧؛ (نص الشهادة أمام عثمان أن الوليد شرب الخمر)؛ الطبرى: - تاريخ، ج ٤، ص ٢٧٥-٢٧٧؛ ابن الجوزى: - المنتظم، ج ٥، ص ٧؛ ابن عساكر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٣٦ (روى فقط شائعة شرب الوليد للخمر، ورفض الأبيات الشعرية عن صلاة الوليد وهو سكران أن تكون من قول الخطيئة)؛ الفاسى المكي: - العقد، ج ٧، ص ٤٠٠ و ٤٠١ و ٤٠٣ (حيث رفض أن يكون الخطيئة هو قائل الأبيات عن صلاة الوليد وهو سكران، وروايته عن آخرين أن أصل التهمة أنه شرب الخمر فقط)؛ ابن حجر: - تهذيب التهذيب (طبعة دار الفكر) ج ١١، ص ١٢٦ (حيث اعتمد رواية الطبرى الخالية من أى تهويل بل رصد لأركان الشهادة الزور دونها ذكر لصلاة الوليد وهو سكران)؛ وأيضاً لذات المؤلف: - تقريب التهذيب، ص ٥٨٣. ولاحظ أن: - د. طه حسين (الفتنة الكبرى عثمان، ص ٧٣٣) قد نفى بشدة تهمة صلاة الوليد بالناس وهو سكران، رغم تأكيد سيادته على شربه الخمر ورقة دينه.

(٣) الطبرى: - ج ٤، ص ٢٧٥؛ ابن عساكر: - ج ٢٦، ص ٣٤٤.

المؤرخين يتدرج بعد ذلك إلى القول بأن هذا التلصص أتى بدليل مادي مكن المعارضين من إحكام شهادتهم أمام الخليفة عثمان فيما بعد بشأن اتهام الوليد بشرب الخمر. ورغم اختلافنا مع هذا الاتجاه لاحتوائه على مبالغاة موسومة بحمى التجسس المحظور شرعاً، فإننا نراه أكثر منطقية من الاتجاه الآخر الذي يحاول تشويه صورة الوليد بمغالة شديدة لا يقرها عقل أو منطق، وذلك من خلال تنافس كل من البلاذري واليعقوبي والمسعودي والأصفهاني في جعل مجون الوليد وخلاعه وخروجه للصلاة بالناس وهو سكران هو الذي دفع المتلصصين لفعل ذلك حتى يحصلوا على بغيتهم^(١)!! وهو ما نراه منطقاً غريباً ودفاعاً عمن تجسس على الوليد في حياته الخاصة. ونرى لزماً علينا تتبع كلا الاتجاهين لنرى كيف تم إحكام هذا المخطط السبئي للإيقاع به.

المحور الأول [عمليات التلصص]

ففى البداية تطالعنا الروايات أن من قام بالتلصص على الوليد هو أبو زينب زهير بن عوف الأزدي وأبو مورع الأسدي. يعنى أنهما من قدامى المحرضين ضده لقتله ولديهما قصاصاً في جريمة القتل الشهيرة. بينما لم يظهر هذه المرة دور لثالثهم جندب بن زهير الأزدي، تعبيراً عن دقة التخطيط؛ إذ إنه أصبح ورقة مكشوفة بعد مشاركته في الوفد المطالب بخلع الوليد أمام الخليفة عثمان، كما سبق القول. ورغم هذه العلاقة القديمة بين الاثنين، فإن البلاذري يصف اشتراكهما في التماس غرة الوليد بالعفوية والصدفة البحتة، وأنه ردأ على شيوع مجون الوليد واستهتاره بالدين. يقول عن أبي مخنف: - "لما صلى الوليد بالناس وهو سكران، أتى أبو زينب زهير بن عوف الأزدي صديقاً له من بنى أسد يقال له مورع [أبا مورع] فسأله أن يعاونه على التماس غرته..."^(٢) وعلى العموم فإن

(١) البلاذري: - ج ٥، ص ٣٢ و ٣٣ و ٣٤؛ اليعقوبي: - ج ٢، ص ١٦٥؛ المسعودي ج ٢، ص ٣٤٤-٣٤٥؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٠. ونذكر ما سبق ملاحظته (ص ٢٣ هامش رقم ٤). عن علاقة الوليد بالشاعر أبي زيد وأن الدكتور طه حسين رأى فيها ما يشين ويعطى الحق للتجسس على شئونه الخاصة، وذلك رغم أن سيادته نفى مسألة صلاة الوليد وهو سكران.

(٢) البلاذري: - ج ٥، ص ٣٣.

الاثنين كانا طليعة لآخرين يوجهونهما ويشيرون عليهما فيما يستجد من أمور، وهؤلاء ظهر منهم:- عبد الله بن جبير الأسدي، وعقبة بن يزيد البكري، وغيرهما^(١).

وتشير بعض الروايات إلى أن المتلصصين عانوا كثيراً للحصول على بغيتهم، مما جعلهم يدفعون رشوة للبواب عبارة عن دينار ذهبي أعطاه له أبو زينب، حسبما أكد البلاذري^(٢). واضطروا كذلك لتصنع منادمة مع الوليد أو بعض حاشيته، بحيث سهر أبو زينب وأبو مورع عنده ليلة بأكملها حتى حصلوا على ما يريدانه^(٣). ووفقاً لهذا، فإن الوليد إما كان حذراً للغاية في التكتّم على نزواته، وإما بريئاً فعلاً كما دافع هو عن نفسه في حوار الغاضب مع ابن مسعود قائلاً: "على أي شيء أستتر به، إنما يقال هذا للمريب". خاصة وهناك إجماع بين الروايات أنه طيلة فترة ولايته بالكوفة لم يتخذ باباً لقصره، فضلاً عن حاجب أو بواب.

المحور الثاني [القول بصلاة الوليد وهو سكران]

ويبدو أن العنت الذي واجهوه في العثور على دليل مادي من داخل بيت الوليد، كان دافعاً لهم كي يفتحوا محوراً جديداً يشحذون من خلاله همهم ويستعدون أكبر عدد من أهل الكوفة ضده. وإلا فما تفسيرنا لوجود هذا الكم من الروايات عن كثرة مجون الوليد وخلاعه وجراته في الخروج للصلاة بالناس في المسجد الجامع بالكوفة وهو سكران. وهو المحور الذي تنافس رواته في جعل الوليد يجاهر بذلك منذ توليه الكوفة^(٤)، بل أكثر من الخوض فيه بتفاصيل متعارضة. فجعلوه تارة يصلي الصبح ركعتين ثم يلتفت إلى المصلين سائلاً إن كانوا يريدون زيادة في الركعات، فشتمه عتاب بن علق، أحد بني عوانة بن سعد، ورماه في وجهه بكف من حصي. وقال جماعة من المصلين حينذاك:-

(١) ابن شبة:- ج ٣، ص ٩٧٢؛ الطبري:- ج ٤، ص ٢٧٥ (الذي يذكر وجود أعوان لأبي زينب وأبي مورع دون تحديد).

(٢) أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٣٣.

(٣) ابن شبة:- ج ٣، ص ٩٧٢ (حيث يصف ذلك قائلاً:- فسألا عنه، وتلفظا حتى علما أنه يشرب)؛ الطبري:- ج ٤، ص ٢٧٥.

(٤) اليعقوبي:- ج ٢، ص ١٦٥؛ ابن واصل:- تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٠ حيث أوردا خبر صلاة الوليد وهو سكران بعد نبر تولية الكوفة مباشرة.

"والله ما العجب إلا من ولاك". ويختتم البلاذرى صاحب هذه الرواية حديثه منوهاً بفضل هذا الثائر عتاب وأنه معدود منذ أيام عمر بن الخطاب في طبقة الأشراف الذين هم أقارب النبي محمد ﷺ، حتى إنه كان يأخذ مثل عطائهم^(١).

ثم عاد لرواية الحادثة تارة أخرى - دون ذكر المصدر هذه المرة - مؤكداً "أن القىء غلب على الوليد في مكانه. وقال يزيد بن قيس الأرحبى ومعل بن قيس الرياحى (من قيادات السبئية أثناء حصار عثمان بن عفان): - لقد أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد ﷺ". وختمها بأبيات الشعر المنسوبة خطأ للحطيفة في هجاء الوليد وإثبات صلاته بالناس وهو سكران^(٢). ولم يخل الأمر ثالثة من إعادة روايتها بطريقة مرور الكرام، وذلك عندما عمد البلاذرى إلى سرد الحادثة عموماً وبدون تفاصيل، وسبق ذلك بقوله (بطريقة توحى بحياده ونزاهته): - "قالوا: - ولم يكن بسيرة الوليد في عمله بأس، ولكنه كان فاسقاً مسرفاً على نفسه". ثم ختم هذا السرد السريع لصلاة الوليد وهو سكران دون تفاصيل جانبية للحادثة، بالقول بأن ذلك جعل أحد المصلين - لم يذكر اسمه - يأخذ على عاتقه الذهاب إلى المدينة المنورة حيث نقل ذلك إلى الخليفة عثمان الذى استدعى الوليد وأقام عليه الحد^(٣).

ونجد المسعودى يروى ذات الحادثة، ولكن بتفاصيل أخرى تستفز القارئ، دون تحديد الراوى الأصيل، فجعل الوليد يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح، "فلما أذنه المؤذنون بالصلاة خرج متفضلاً في غلائله، فتقدم إلى المحراب فصلى بهم أربعاً [وليس ركعتين] وقال: - أتريدون أن أزيدكم؟". وأضاف أن الوليد أطلال في سجوده وسمعوه وهو يقول: - "اشرب واسقنى". فرد عليه عتاب ابن غيلان الثقفى [لاحظ الاختلاف في ذكر الاسم] هازئاً، ولم يرم بكف الحصى في وجهه إلا بعد أن "خطب الناس الوليد". [وهى كلمة توحى بصعود الوليد المنبر رغم أن الوقت هو صلاة الصبح، كدليل على شدة سكره، أو أن الحادثة تكررت أثناء صلاة الجمعة ذات الحضور الجماهيرى

(١) البلاذرى: - أنساب، ج ٥، ص ٣٢ (رواية أبى مخنف).

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢ - ٣٣.

(٣) نفسه والصفحة.

الكبير]. وختم بجعل الوليد لا يأبه بما حدث "فدخل قصره يترنح ويتمثل بأبيات لتأبط شراً:

ولست بعيداً عن مدام وقينة ولا بصفا صلد عن الخير معزل
ولكننى أروى من الخمر هامتى وأمشى الملا بالساحب المتسلسل"

وارتأى المسعودى من نافلة القول أن يذكر هو الآخر أبيات الشعر المنسوبة خطأ إلى الخطيئة الشاعر في ذم الوليد^(١).

وجاءت رواية الأصفهاني لتؤكد انغماس الوليد في الخمر والصلاة بالناس وهو سكران، وذلك بعد ذكر خبر توليته الكوفة مباشرة وتصادمه مع واليها السابق سعد بن أبي وقاص، ليوحى لنا كغيره أنها كانت عادة للوليد. كما حوت الرواية تفاصيل دقيقة عن صلاة الوليد الغداة [يعنى بعد شروق الشمس] أربع ركعات، ثم سألهم في سكره البين إن كانوا يريدون زيادة الركعات، فأجابه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود!! هازئاً:- "ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم". وبعد أن استشهد الأصفهاني بأبيات الشعر المنسوبة للخطيئة في تأكيد تلك التهمة، ذكر مباشرة أن الوليد كان قد "تقيا في المحراب وقرأ في الصلاة رافعاً صوته:-

علق القلب الرباباً بعد ما شابت وشاباً"^(٢)

ورغم تفرد الأصفهاني في بعض التفاصيل، إلا أننا نرى تطابقاً في روايته مع ما ذكره اليعقوبي من حيث صلاة الوليد الغداة "أربع ركعات، ثم تهوع [أى تقياً] في المحراب والتفت إلى من كان خلفه فقال:- أزيدكم"^(٣).

إفلاس رغم التحايل وعلى العموم، فإن هذا المد المتصاعد في اتهام الوليد بالخلاعة والمجون والصلاة وهو سكران، لم يكن سوى للاستهلاك المحلى أى على مستوى الكوفة فقط. كما أن مؤرخي هذا الاتجاه أنفسهم قد اعترفوا بأن أسلوب التلصص على الحياة

(١) المسعودى:- مروج، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٢) ابن واصل:- تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١، ج ٢، ص ٦٤٠-٦٤١.

(٣) اليعقوبي:- تاريخ، ج ٢، ص ١٦٥.

الخاصة بالوليد وتصنع محبته والتودد إلى حاشيته هو الذى أدى إلى عثورهم على بغيتهم. بل نراهم غالوا فى ادعاء أبيات شعرية قيل إن الخطيئة - وهو جرول بن أوس بن مالك ابن جؤية العبسى - قد هجا فيها الوليد وأثبت صلاته وهو سكران. بينما العكس هو الصحيح؛ إذ إن الخطيئة كان معاصراً للوليد أثناء إمرته على الكوفة وزاره مادحاً بقصيدة أثنى د. طه حسين على جودتها^(١). والأبيات المنحولة هي^(٢):

شهد الخطيئة يوم يلقي ربه	أن الوليد أحق بالعدو
نادى وقد نفدت صلاتهم	أزيدكم؟ ثملاً وما يدري
ليزيدهم خيراً، ولو قبلوا	منه، ليزادهم على عشر
فأبوا - أبا وهب - ولو فعلوا	لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك إذ جرئت ولو	خلوا عنانك، لم تزل تجرى

أما أصل الأبيات التى تم معارضتها بالسابقة كذباً وافتراءً، فقد صاغها الخطيئة فى مدح الوليد أثناء محنته، ملتصقاً له العذر ومؤكداً أن الأمر محض افتراء عليه، وهي^(٣):

شهد الخطيئة حين يلقي ربه	أن الوليد أحق بالعدو
خلعوا عنانك إذ جرئت ولو	تركوا عنانك لم تزل تجرى
ورأوا شمائل ما جد متبرع	يعطى على المسور والعسر
فُزِعَتْ مكذوباً عليك ولم	تردد إلى عوز ولا فقر

(١) د. طه حسين:- الفتنة الكبرى (عثمان)، ص ٧٣٤. وقد أورد ثلاثة عشر بيتاً أنشدها الخطيئة فى مدح أبرز صفتين رأهما فى الوليد:- الجهاد والكرم.

(٢) ابن شبة:- تاريخ المدينة المنورة، ج ٣، ص ٩٧٥-٩٧٦؛ البلاذرى:- أنساب، ج ٥، ص ٣٢-٣٣؛ ابن عبد البر:- الاستيعاب، م ٦، ص ٣٣١؛ ابن واصل:- تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤٠.

(٣) د. طه حسين:- المرجع السابق، ص ٧٣٣. ومن أثبت كذب هذه الأبيات كذلك:- ابن عساكر:- تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٣٦؛ الفاسى:- العقد، ج ٧، ص ٤٠٠. وانظر كذلك:- أبا بكر بن العري:- العواصم من القواصم، هامش تحقيق رقم (١) ص ٩٤-١٠٠ وبخاصة ص ٩٨-٩٩.

وقد ثبت كذلك مدى الخطأ في نسبة أبيات أخرى للحطيثة في هجاء الوليد وإثبات صلاته وهو سكران، وهي^(١):-

تكلم في الصلاة وزاد فيها علانية وجاهر بالنفاق
ومح الخمر عن سنن المصلي ونادى والجميع إلى افتراق
أزيدكم على أن تحمدوني فما لكم ومالي من خلاق

الحلقة الأخيرة ثم جاءت الحلقة الأخيرة بتلاقي جميع الخطوط في مصب واحد يصور نجاحهم في الحصول على خاتم الإمارة الخاص بالأمر الوليد، كدليل مادي لتقديمه إلى الخليفة عثمان. وذلك بعد أن أحكموا خطتهم ببقاء مجموعة خارج قصر الإمارة، منهم جندب بن زهير الأزدي، وزيد بن علاقة التميمي وآخرون، بينما دخل أبو زينب الأزدي وأبو مورع الأسدي مع السامريين من حاشية الوليد^(٢). وبطبيعة لا تتناسب وجو الأحداث، انصرف الوليد إلى مخدعه تاركاً لضيوفه حرية البقاء في مجلسهم. ووفقاً للخطة كان آخر من انصرف أبو زينب وأبو مورع، حيث انسلا إلى مخدع الوليد وأخذوا خاتم الإمارة، ثم أسرعوا بالخروج حيث سهل لهما أعوانها مغادرة الكوفة فوراً إلى المدينة المنورة. وفور استيقاظ الوليد لاحظ ضياع الخاتم، فسأل خاصته، فأجابته امرأته (إحداهما تدعى بنت الربيع بن ذى الخمار، والأخرى بنت أبي عقيل) بتفاصيل ما شهدتا من وراء الستار، وأوصاف الرجلين اللذين اقتربا من مخدعه، وأنه كان نائماً ولم ينتبه لهما، فعرف هويتهما وأمر باستدعائهما، لكن الوقت قد فات^(٣). ويبدو أن الطبري - صاحب هذا التصور - أراد أن ينفي عن الوليد كونه ساذجاً ومفتقداً ما للحاكم من فطنة وذكاء، حتى يفقد خاتم

(١) د. طه حسين:- المرجع السابق، ص ٧٣٣-٧٣٤. وانظر:- ابن شبة:- تاريخ المدينة المنورة، ج ٣ ص ٩٧٦؛ ابن واصل:- تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤١؛ ابن عبد البر:- الاستيعاب، م ٦، ص ٣٣١-٣٣٢؛ الفاسي:- العقد، ج ٧، ص ٤٠٢.

(٢) دفعنا لاعتقاد هذه الأسماء وغيرها، كثرة اختلاف المصادر حولها. ونعتقد أن عملهم الجماعي كان في ذروته حينذاك؛ إذ لا ننسى مجموعة المستشارين مثل عبد الله بن جبير الأسدي ورفاقه، وغيرهم ممن شملته قائمة المعارضة ضد الوليد كأبي خشة - أو حبيبة - الغفاري والصعب بن جثامة. انظر مثلاً:- البلاذري:- أنساب، ج ٥، ص ٣٣ (رواية أبي مخنف)، و ص ٣٤ (رواية الواقدي) و ص ٣٤ (رواية الهيثم بن عدي)؛ المسعودي:- مروج، ج ٢، ص ٣٤٥.

(٣) الطبري:- ج ٤، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ ابن عساکر:- ج ٢٦، ص ٣٤٤-٣٤٥؛ المالقي:- ص ٥٥.

الإمارة بهذه البساطة! وبواسطة أولئك المعارضين دوماً لسياسته في الحكم والساخطين عليه في معظم المواقف السابقة!!؟ فأورد جملة ذات مغزى على لسان الوليد فور علمه بحقيقة ضيفيه: - "قال: - ذاك أبو زينب والآخر أبو مورع، وقد أرادا داهية، فليت شعري ماذا يريدان؟". وكررها الطبري في موضع آخر: "ولا يدري الوليد ماذا أرادا من ذلك"^(١). بمعنى أن المعارضين كانوا قد أحكموا خططهم، بينما الوليد ماض في سياسته بقلب مفتوح لجميع أهل الكوفة، ومفترضاً في المعارضين أنهم أحرص على وحدة الصف طالما أن القاعدة الشرعية التي يتحرك الجميع في إطارها هي "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

هذا ما أورده الطبري، بينما عند غيره، كان الحصول على خاتم الإمارة محصلة لكون الوليد مخموراً لا يدري ما يحدث حوله سواء داخل بيته أو في المسجد. إذ روى البلاذري عن أبي مخنف، أن الوليد تغيب عن صلاة العصر في أحد الأيام، وبصعوبة كبيرة تمكن أبو زينب وأبو مورع من دخول بيته "فإذا هما به سكران ما يعقل، فحملاه حتى وضعاه على سريريه، فقاء خمرأ. وانتزع أبو زينب خاتمه من يده، ومضى وصاحبه على طريق البصرة!! حتى قدما على عثمان"^(٢). وعند المسعودي أن الوليد صلى بالناس وهو سكران ثم دخل بيته "فهجم عليه جماعة من المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدي وجندب بن زهير الأزدي وغيرهما. فوجدوه سكران مضطجعاً على سريريه لا يعقل فأيقظوه من رقدته فلم يستيقظ، ثم تقايا عليهم ما شرب من الخمر. فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة"^(٣). وهو تصور استنكفه د. عدنان ملحمة مؤكداً غلبة التشيع على أصحابه المؤرخين^(٤).

نص الشهادة ما إن خرج أبو زينب وأبو مورع بخاتم الإمارة من بيت الوليد، حتى نصحبهما رفاقهما عبد الله بن جبير الأسدي وعقبة بن يزيد البكري وغيرهما بالذهاب

(١) الطبري: - ج ٤، ص ٢٧٦ و ٢٧٧؛ ابن عساكر: - ج ٢٦، ص ٣٤٥.

(٢) البلاذري: - أنساب، ج ٥، ص ٣٣؛ ابن شبة: - تاريخ المدينة المنورة، ج ٣، ص ٩٧٢.

(٣) المسعودي: - مروج، ج ٢، ص ٣٤٥.

(٤) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص ١٣٣-١٣٥.

فوراً إلى المدينة المنورة لعرض الأمر على الخليفة عثمان شخصياً^(١). ولكنهما لم يذهبا بمفردهما، بل خرجا "ومعهما نفر ممن يُعرف من أعوانهما"، هذا في رواية، وفي أخرى "ومعهما نفر ممن يعرف عثمان ممن عزل الوليد عن الأعمال"^(٢). ورغم أن الوقت كان ليلاً، فقد خرجوا أولاً "على طريق البصرة" قبل أن يسلكوا الجادة إلى المدينة مباشرة، تمويهاً على مطارديهم المفترض خروجهم في إثرهم، بلا شك^(٣).

وفور دخولهم على الخليفة عثمان، انبرى أبو زينب وأبو مورع في الكلام بلسان المجموعة قائلين: - "إنا جئناك لأمر نحن مخرجوه إليك من أعناقنا". ولما سألهم الخليفة عثمان عما هو، أجابا بإيجاز شديد: - "رأينا الوليد سكران من خمر، قد شربها، وهذا خاتمه أخذناه وهو لا يعقل"^(٤). وهي مقولة لم يرد فيها رؤيتهم إياه وهو يتجرعها، كما وهذا الأهم لم يفتح موضوع صلاته وهو سكران وعدد الركعات وتمهوعه في المحراب... إلخ. ثم تابع الخليفة عثمان إجراءاته باستشارة على بن أبي طالب الذي أشار باستدعاء الوليد من الكوفة على عجل، حيث بدأت إجراءات الشهادة رسمياً، وتصدى للشهادة هذه المرة أبو زينب وأبو مورع وجندب بن زهير وسعد بن مالك الأشعري "ثم شهد عليه الأيمان". وعندها أمر الخليفة عثمان علياً بن أبي طالب بتنفيذ العقوبة، فأمر عليّ ابنه الحسن ولكنه رفض، فأمر ابن أخيه عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب "فضربه بمخضرة لها رأسان. فلما بلغ أربعين قال له: - أمسك". هذا مختصر ما ورد في هذه الحادثة التي تلاها عزل الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة، وإرسال سعيد بن العاص بدله^(٥).

(١) ابن شبة: - ج ٣، ص ٩٧٢.

(٢) الطبري: - ج ٤، ص ٢٧٥ و ٢٧٦. وسنرى حالاً اختلاف الروايات فيمن سار معها للقاء الخليفة عثمان وأداء الشهادة.

(٣) البلاذري: - ج ٥، ص ٣٣.

(٤) ابن شبة: - ج ٣، ص ٩٧٢. ويشبه هذا الحوار في بعض تفاصيله إلى حد كبير ما قاله الجارود سيد عبد القيس بالبحرين للخليفة عمر بن الخطاب في أصل شهادته أن الوالي عليهم قدامة بن مظعون قد شرب الخمر. انظر ترجمة قدامة عند: ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ٥، ص ٤٥٠؛ ابن حجر: - الإصابة، م ٥، ص ٦٣٥-٦٣٦.

(٥) ابن شبة: - ج ٣، ص ٩٧٢؛ ابن أعثم: - كتاب الفتوح، ج ٢، ص ١٦٦-١٦٨.

ملابسات حول الشهادة بيد أن روايات كثيرة أضفت على الحادثة بُعداً أسطورياً، لكثرة اختلافها حول أسماء الشهود، وصيغة الشهادة، ورد فعل الخليفة عثمان تجاه الشهود، وأخيراً في تفاصيل إقامة الحد على الوليد.

※ أما عن أسماء الشهود: فيلى جانب من ذكرنا، هناك أبو خشة - أو أبو حبيبة - الغفاري وجثامة بن الصعب بن جثامة، وقيل أبوه الصعب بن جثامة. كذلك ورد اسم حمران بن أبان كشاهد وحيد على أنه رأى الوليد وهو يشرب الخمر^(١). مما يوحي بأن الوليد متورط فعلاً في تهمة شرب الخمر؛ إذ لا يعقل اجتماع هذا العدد (حوالي سبعة) على باطل.

※ أما صيغة الشهادة: فقد أورد الطبري أن أبا زينب وأبا مورع تقدمتا للشهادة "وكاع (أى جبن) الآخرين ... قالوا:- كنا من غاشيته، فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر". وفي رواية، أن الخليفة عثمان سألهما:- "أتشهدان أنكما رأيتماه يشرب الخمر؟ فقالا:- لا، وخافا. قال:- فكيف؟ قالوا:- اعتصرناها من لحيته وهو يقيء الخمر"^(٢). وذكر البلاذري أن جندباً بن زهير هو الذى انبرى للشهادة أولاً، وأجاب على سؤال الخليفة عثمان إن كان رأى الوليد وهو يشرب الخمر، قائلاً:- "معاذ الله، ولكنى أشهد أنى رأيته سكران يقلسها من جوفه، وإنى أخذت خاتمه من يده وهو سكران لا يعقل"^(٣). وهكذا جاءت رواية البلاذري - ذى الميول الشيعية - خالية من شهادة الشهود أنهم رأوا الوليد وهو يشرب الخمر. بينما خالفه المسعودي - شريكه فى التشيع - عندما أكد أن جندباً بن زهير ورفيقه أبا زينب قد شهدا مع الآخرين "على الوليد أنه شرب الخمر. فقال عثمان:- وما يدريكما أنه شرب خمر؟ فقالا:- هى الخمر التى كنا نشرها فى الجاهلية. وأخرجنا خاتمه فدفعاه

(١) البلاذري:- أنساب، ج ٥، ص ٣٤؛ ابن حجر:- فتح الباري بشرح صحيح البخارى، فى تعليقه على حديث رقم ٣٦٩٦ (باب مناقب عثمان بن عفان)، م ١٠، ص ٦٠٥.

(٢) الطبري:- ج ٤، ص ٢٧٦ و ٢٧٧؛ ابن عساكر:- تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٤٥. ويلاحظ أن هذه الطريقة فى أداء الشهادة تذكرنا تماماً بنص شهادة أبى هريرة على قدامة بن مظعون أمام عمر بن الخطاب، "قال:- لم أره شرب، ولكنى رأيته سكران يقيء". انظر:- ابن عبد البر:- الاستيعاب ٥، ص ٤٥٠؛ ابن حجر:- الإصابة، م ٥، ص ٦٣٦.

(٣) أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٣٤.

إليه" (١). وهو أسلوب تكرر من المسعودى فى تغييره لبعض ألفاظ الروايات التى أخذها عن سبقة، خاصة أنه نادراً ما يصرح باسم الراوى الأصيل، عكس البلاذرى مثلاً. وهكذا، فإن تضارب الروايات فيما بينها، لما يجعلنا نظمئن إلى خلو صيغة الشهادة من جزئية أن الشهود رأوا الوليد وهو يشرب الخمر، وكذا قولهم عن صلاته وهو سكران.

وقد يحتج البعض بأن هذه الجزئية المهمة من أركان الشهادة قد وردت فى رواية أبى ساسان الحضين بن المنذر الموجودة فى مسند الإمام أحمد بن حنبل (ثلاثة مواضع)، وفى صحيح الإمام مسلم (موضع واحد فى باب حد الخمر). وخلاصتها أنه قال: - "شهدت عثمان بن عفان، وأتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين، ثم قال أزيدكم. فشهد عليه رجلان، أحدهما حمران بن أبان أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ ... " (٢). ونختصر المسافة بذكر النقد القيم الذى وجهه الأستاذ محب الدين الخطيب محقق كتاب العواصم من القواصم، لهذه الرواية بأشكالها المختلفة. فقد أوضح سيادته ابتداءً أن مسألة صلاة الوليد وهو سكران لم ترد فى شهادة الشاهدين، إنما هى من كلام الحضين (وهو أبو ساسان وأبو محمد الحضين بن المنذر بن الحارث الرقاشى، كان من أمراء على بن أبى طالب فى صفين) (٣) "ولم يكن حضين من الشهود ولا كان فى الكوفة وقت الحادث المزعوم. ثم إنه لم يسند هذا العنصر من عناصر الاتهام إلى إنسان معروف". ثم أوضح سيادته كذلك اختلاف صيغ الرواية ذاتها عند الإمام أحمد بن حنبل فى مواضعها الثلاثة من مسنده، رغم أن الراوى الأصيل هو الحضين نفسه وكذا الذين سمعوها منه هم أنفسهم المذكورون فى صحيح مسلم؛ إذ إن الموضعين الأولين "ليس فيهما ذكر للصلاة

(١) مروج الذهب، ج٢، ص ٣٤٥.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل: - المسند، رقم أحاديثه محمد عبد السلام عبد الشافى، مطبوعات دار الكتب العلمية ببيروت، ط ١ سنة ١٩٩٣، ج١، حديث رقم ٦٢٦ ص ١٠٣ ورقم ١١٨٨ ص ١٧٥ ورقم ١٢٣٣ ص ١٨١؛ الإمام مسلم: - صحيح مسلم بشرح النووي (د.ت) باب حد الخمر، حديث رقم ٦، ص ٢١٦.

(٣) ابن حجر: - تهذيب التهذيب (طبعة حيدر آباد، الدكن، الهند، ط ١ سنة ١٣٢٥هـ)، ج٢، ص ٣٩٥.

عن لسان حضين فضلاً عن غيره. فلعل أحد الرواة من بعده أدرك أن الكلام عن الصلاة ليس من كلام الشهود، فاقصر على ذكر الحد^(١).

ونضيف إلى ما ذكر سيادته في هذه الجزئية من نقده، أن الصيغ الثلاثة للرواية عند الإمام أحمد ابن حنبل في مسنده قد احتوت على اختلافات جوهرية كثيرة غير ما سبق، بحيث كانت فرصة طيبة لقدامى المؤرخين أن يدلوا بدلوه في هذه الاختلافات. ففى الرواية الأولى عند الإمام أحمد، ورد كلام الحضين في شكل خبرى عادى وليس تعبيراً عن كونه قد شهد الحادثة: - "أنه قدم ناس من أهل الكوفة على عثمان رضى الله عنه، فأخبروه بما كان من أمر الوليد، أى بشره الخمر ..."^(٢). والصيغة هنا مشابهة تماماً لما أورده ابن شبة في تاريخ المدينة المنورة: - "عن حضين بن المنذر أبى ساسان قال: - ركب ناس من أهل الكوفة إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه، فأخبروه عن الوليد يشرب الخمر ..."^(٣). وفى الرواية الثانية عند الإمام أحمد، ورد كلام الحضين بصيغة المبني للمجهول: - "شهد على الوليد بن عقبة عند عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه شرب الخمر ..."^(٤). وقد كررها البلاذرى رغم اختلاف رجال السند في روايته: - "عن حضين بن المنذر: - أنه شهد على الوليد بن عقبة عند عثمان يشرب الخمر ..."^(٥). ثم نجد ابن شبة يعيد ذكر رواية الحضين في موضع آخر جاعلاً إياه من الحاضرين لدى عثمان أثناء شهادة الشهود، "قال: - شهدت الوليد بن عقبة لما أتى به عثمان قد شرب الخمر ..."^(٦).

(١) أبو بكر بن العربي: - العواصم من القواصم، هامش تحقيق رقم ١، ص ٩٤-٩٩ وبخاصة ٩٧-٩٨. وقد أكد ابن عبد البر (الاستيعاب، ٦م، ص ٣٣٣) أن الحضين لم يكن من الشهود ولا حضر معهم، بل كل دوره أنه "ركب إلى عثمان فأخبره بقصة الوليد، وقدم على عثمان رجلان فشهدا عليه ...".

(٢) مسند الإمام أحمد، ج١، حديث رقم ٦٢٦ ص ١٠٣.

(٣) ابن شبة: - ج٣، ص ٩٧٣ (برواية محمد بن حاتم عن إسماعيل بن إبراهيم عن سعيد بن أبى عروبة عن عبد الله الداناج عن الحضين) لاحظ اختلاف رجال السند.

(٤) مسند الإمام أحمد، ج١، حديث رقم ١١٨٨، ص ١٧٥.

(٥) البلاذرى: - أنساب، ج٥، ص ٣٥ (برواية عباس بن يزيد البحراني).

(٦) ابن شبة: - ج٣، ص ٩٧٣.

وخلاصة ما سبق، يتضح أننا أمام أربع روايات تنفى أن يكون الحضين حاضراً أثناء شهادة الشهود لدى الخليفة عثمان، بينما رواية وحيدة لابن شبة تناقض فيها مع نفسه. كما أنها وإن تشابهت في صيغتها مع صيغة الرواية الموجودة في صحيح الإمام مسلم - في إثبات رؤية الحضين للحادثة "شهدت عثمان وأتى بالوليد..." - إلا أنها اختلفت عنها تماماً بعدم ذكر الصلاة وعدد الركعات.

وهذا يدعونا لمتابعة المفاجأة الأخرى التي قدمها الأستاذ محب الدين الخطيب عن الاختلاف في عدد الركعات التي صلاها الوليد؛ ذلك أن الرواية في الموضع الثالث من مسند الإمام أحمد قد جاء فيها على لسان الحضين "أن الوليد بن عقبة صلى بالناس الصبح أربعاً، ثم التفت إليهم فقال: - أزيدكم؟" ^(١). وهو عين ما رده ابن عساكر ^(٢)، والذهبي ^(٣)، بصدد حكايتها عن هذه الجزئية من شهادة الشهود ضد الوليد بن عقبة. بينما يتعارض ذلك تماماً مع ما جاء على لسان الحضين نفسه في صحيح مسلم من أن الوليد صلى الصبح ركعتين فقط، "ففى إحدى الروايتين تحريف، الله أعلم بسببه. وفي الخاتين لا يخرج ذكر الصلاة عن أنه من كلام حضين. وحضين ليس بشاهد، ولم يرو عن شاهد. فلا عبرة بهذا الجزء من كلامه" ^(٤).

وختاماً لما قيل حول صيغة الشهادة، نعود أخيراً للجزئية الثانية من النقد القيم الذى وجهه الأستاذ محب الدين الخطيب لرواية الحضين بن المنذر الموجودة في صحيح الإمام مسلم، وهى الخاصة بانفراد هذه الرواية بذكر اسم حمران بن أبان كشاهد وحيد أمام الخليفة عثمان على رؤيته الوليد بن عقبة وهو يشرب الخمر. فقد أبان سيادته - دون أن يقول إنه ينقل عن الطبرى - أن حمران هذا شاهد زور؛ إذ "هو عبد من عبيد عثمان. كان قد عصى الله قبل شهادته على الوليد، فتزوج في مدينة الرسول امرأة مطلقة ودخل بها وهى فى عدتها من زوجها الأول. فغضب عليه عثمان لهذا الأمر ولأمر أخرى قبله، فطرده من رحابه وأخرجه من المدينة. فجاء الكوفة يعيث فيها فساداً، ودخل على العبد

(١) مسند الإمام أحمد، ج١، حديث رقم ١٢٣٣ ص ١٨١.

(٢) ابن عساكر: - تاريخ دمشق، ج٢٦، ص ٣٤٢.

(٣) الذهبي: - سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ٤١٤.

(٤) أبو بكر بن العربى: - العواصم من القواصم، هامش التحقيق المذكور والصفحة.

الصالح عامر بن عبد القيس فافترى عليه الكذب عند رجال الدولة، وكان سبب تسييره إلى الشام^(١). ورغم اتفاقنا مع سيادته في نقده للواقع البغيض لحمران بن أبان، إلا أننا لا نهضم حمران حقه في ماض مشرف ذكره له المحدثون من أنه "ثقة" وأنه "أحد العلماء الجللة أهل الوجاهة والرأى والشرف". ذلك أنه حسبما ترجموا، كان من سبى معركة عين التمر ضد الفرس، واشتراه عثمان بن عفان ثم أعتقه، وكان يصلى خلف عثمان ويصحح له ما انقطع من التلاوة، واتخذه من حجابيه، وقيل كان كاتباً له. ثم أدرك منه تغيراً، سواء بدخوله على المرأة المطلقة قبل انتهاء عدتها، أو لأنه أفشى سراً أئتمنه عليه الخليفة عثمان يتعلق برغبته في استخلاف عبد الرحمن بن عوف بعده، فلما أعلنه حمران غضب عليه الخليفة عثمان ونفاه إلى البصرة حيث شهد زورا على أحد صلحائها "يعرض بأنه خارجي" حسبما صرح ابن قتيبة.

ولما عرف عنه ذلك نفى ثانية إلى الكوفة أثناء تكالب المعارضين على الإيقاع بالوليد بن عقبة، فكان ما كان من شهادته عليه بشرب الخمر^(٢).

✽ أما عن رد فعل الخليفة عثمان تجاه الشهود، فقد اهتمته بعض الروايات بممارسة ضغوط كثيرة، واستخدام ألفاظ ذات إيحاء خاص لإثباتهم عن شهادتهم، وأنه تعمد تأخير تنفيذ الحد، بينما أثبت أصحاب المخطط التنفيذي براعة كبيرة في التزام الهدوء والتلطف في طلب تنفيذ الحكم. ومما قيل في ذلك:- إن الخليفة عثمان "أوعدهم وتهدهم" وقيل:- "إن عثمان ضرب بعض الشهود أسواطاً"^(٣). وقيل:- "فزجرهما

(١) هامش التحقيق المذكور، ص ٩٨. وراجع ترجمة حمران بن أبان عند: الطبري:- ج ٤، ص ٣٢٧-٣٢٨ (ذكرها مرتين بتفاصيل مختلفة). وانظر:- ابن حجر:- فتح الباري شرح صحيح البخاري، باب مناقب عثمان بن عفان، م ١٠، تعليقه على حديث رقم ٣٦٩٦ ص ٦٠٥ حيث يؤكد دور حمران في الشهادة على الوليد.

(٢) ابن قتيبة:- المعارف، ص ٤٣٥-٤٣٦؛ يعقوبي:- تاريخ، ج ٢، ص ١٦٩ و ١٧٣. وقارن به الذهبي بـ سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ١٨٢-١٨٣؛ ابن حجر:- تهذيب التهذيب (طبعة الهند) ج ٣، ص ٢٤-٢٥؛ وتقريب التهذيب (طبعة دار المعرفة ببيروت) ج ١، ص ١٩٨؛ والإصابة، م ٢، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٣) البلاذري:- أنساب، ج ٥، ص ٣٤ (رواية أبي إسحاق ورواية الواقدي). ولاحظ أن صاحب الإمامة والسياسة (ص ٣٥) قد ذكر صراحة أن من عيوب الخليفة عثمان "... وتعطيله إقامة الحد عليه (يعنى الوليد) وتأخير ذلك عنه". بل جعلها (ص ٣٦-٣٧) تحدث في حوالى سنة ٣٤هـ.

ودفع في صدورهما، وقال:- تنحيا عنى"^(١). ووفقا لهذا التصوير، اضطر الشهود للاستغاثة بكبار الصحابة. من ذلك ما روى عن لجوئهم للسيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها التي صدقتهم وصارت تردد:- "إن عثمان أبطل الحدود وتوعد الشهود". وتسبب هذا في صدام بينها وبين الخليفة عثمان الذى زعموا أنه "أغلظ لها وقال:- وما أنت وهذا؟ إنما أمرت أن تقرى في بيتك. فقال قوم مثل قوله. وقال آخرون:- ومن أولى بذلك منها؟ فاضطربوا بالنعال. وكان ذلك أول قتال بين المسلمين بعد النبى صلى الله عليه وسلم"^(٢). وفي رواية أخرى، لجأ الشهود الى على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهم. فأتوا عثمان قائلين:- "عطلت الحدود وضربت قوماً شهدوا على أخيك، فقلبت الحكم. وقد قال عمر:- لا تحمل بنى أبى معيط خاصة على رقاب الناس". وزاد طلحة والزبير:- "قد نهيناك عن تولية الوليد شيئاً من أمور المسلمين، فأبيت، وقد شهد عليه بشرب الخمر والسكر فاعزله"^(٣).

وهناك روايات رددت صيغا على لسان الخليفة عثمان أقل عنفاً من السابقة، ولكنها تكشف عن رغبته في التحايل على الشهود. مثل إدعائهم أنه صار يلوح لهم بأخوة الوليد له، "وقال لجندب:- رأيت أخى يشرب الخمر؟"^(٤). وصار يقول لعلى بن أبى طالب آمراً إياه بإقامة الحد:- "دونك ابن عمك، فأقم عليه الحد". بل لا يذكر لعلى جزئية إقامة الحد قائلاً له في رواية أخرى:- "دونك ابن عمك!!"^(٥).

كذلك تعمدوا إظهار مفاصلة الخليفة عثمان في الرد على الشهود، بحيث جعلوا على بن أبى طالب هو البادئ في فتح موضوع إقامة الحد على الوليد وليس عثمان:- "فكلمه على

(١) المسعودى:- مروج، ج٢، ص ٣٤٥.

(٢) البلاذرى:- المصدر السابق والصفحة.

(٣) نفسه، ص ٣٤-٣٥؛ المسعودى:- ج٢، ص ٣٤٥.

(٤) نفسه، ص ٣٤. ص ٢١٦.

(٥) مسند الإمام أحمد:- حديث رقم ٦٢٦ ص ١٠٣ ورقم ١١٨٨ ص ١٧٥. والصيغة الأخيرة أوردها

ابن شبة:- تاريخ المدينة المنورة، ج٣، ص ٩٧٣؛ البلاذرى:- ج٥، ص ٣٥. وانظر كذلك:-

صاحب الإمامة والسياسة، ص ٣٦-٣٧.

في ذلك". و"فكلمه فيه على". و"فكلم على عثمان فيه"^(١). رغم أن العكس هو الصحيح استنادا لباقي الروايات التي جعلت الخليفة عثمان هو البادئ بطلب المشورة من على بن أبي طالب في القضية^(٢). واستنادا كذلك لما هو معروف من أن الخليفة عثمان كان متخذا من على بن أبي طالب وزير له ومستشار في كل الأمور مثلما كان عمر بن الخطاب متخذا من عثمان وعلى بمثابة وزراء له.

أما أغرب محاولة ذكرت في هذا الشأن، فتلك التي رواها البلاذري عن أن الخليفة عثمان فور حضور الشهود لديه لإخباره بأمر الوليد، أرسل لجنة لتقصي الحقائق في الكوفة. وكانت المفاجأة أنها كانت تتكون من همران بن أبان، الذي أكدت الرواية أن الوليد بن عقبة نجح في رشوته بحيث عاد إلى المدينة المنورة "فنقل صورة غير صحيحة لعثمان". وذلك حسب تعبير د. عدنان ملحهم الذي استنكر الحادثة تماماً، دون أن يتبع ترجمة همران أو يذكر شيئاً عن شهادته الزور ضد الوليد^(٣).

ولعل هذه الترهات قد وجدت سبيلها إلى الظهور، كنوع من سد الفراغ الزمني الناشئ عن مرور بعض الوقت بين شهادة الشهود على الوليد أمام الخليفة وبين تنفيذ الحكم بشكل نهائي. وهو أمر ثابت في صحيح البخاري، حيث نلاحظ أن جماعة المعارضة استغلت ذلك لمصلحتها. إذ عملوا بهدوء على تحريض أحد أقارب الخليفة عثمان كي يكلمه في أمر الحد، ونصحوه بالتلطف في الطلب. أما الأشخاص المنوط بهم تنفيذ ذلك، فهم:- المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وهما ممن سيلمع دورهما لصالح على بن أبي طالب بعد ذلك. أما الشخص الثالث الذي انتدب لمفاتيح الخليفة عثمان، فكان عبيد الله بن عدي بن الخيار الذي كانت أمه ابنة عم الخليفة عثمان. وبالفعل تلطف عبيد الله في فتح الحوار مع الخليفة عثمان الذي زجره في البداية، بعد أن لاحظ

(١) مسند الإمام أحمد:- حديث رقم ٦٢٦ ص ١٠٣ ورقم ١١٨٨ ص ١٧٥؛ ابن شبة:- تاريخ المدينة المنورة، ج ٣، ص ٩٧٣ (رواية محمد بن حاتم؛ البلاذري:- ج ٥، ص ٣٥) (رواية عباس بن يزيد البحراني).

(٢) صحيح الإمام مسلم (باب حد الخمر، حديث رقم ٦) ص ٢١٦؛ ابن شبة:- ج ٣، ص ٩٧٣ (رواية عبد الله بن فيروز عن الحضير)؛ ابن عبد البر:- الاستيعاب، م ٦، ص ٣٣٤.

(٣) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، ص ١٣٤ (والخبر منقول عن البلاذري:- أنساب، ج ٤، ص ٥٤٧).

تربص الآخرين للسماح، إذ كان اللقاء على قارعة الطريق. وتوضح لنا الرواية أن السائل عاد خائباً إلى مُرْسَلِيهِ الَّذِينَ طَمَأَنَاهُ قَائِلِينَ: - "قد قضيت ما عليك". ثم فوجئوا ثلاثتهم برسول الخليفة يطلب حضور عبيد الله للقاءه. فتوجس الأولان شراً وقالوا لزميلهما: - "قد ابتليت". ولكن الأمر كان أبسط من ذلك كثيراً؛ إذ تبسط الخليفة في الحوار معه وأعلمه حقه عليه وعلى من أرسله في الطاعة كما هو طائع لله ولرسوله ولأبى بكر ولعمر، ثم أجابه على سؤاله بشأن الوليد بن عقبة قائلاً: - "أما ما ذكرت من شأن الوليد، فسنأخذ فيه بالحق إن شاء الله تعالى. ثم دعا علياً فأمره أن يجلد. فجلده ثمانين"^(١). وقد علق ابن حجر على تباطئ الخليفة عثمان في تنفيذ الحكم قائلاً: - "وإنما أخر إقامة الحد عليه، ليكشف عن حاله ممن شهدوا عليه بذلك. فلما وضع له الأمر، أمر بإقامة الحد عليه. وروى المدائني من طريق الشعبي أن عثمان لما شهدوا عنده على الوليد، حبسه"^(٢). بمعنى أن الخليفة عثمان لم يباطل في تنفيذ الحكم على الوليد بعد نجاح الطاعنين في إقامة الأركان الكاملة للشهادة عليه، ولكن كان بصدد دراسة حال الشهود، لعلمه من أكثر من وجه أنهم شهود زور، بيد أن إصرارهم على شهادتهم جعله يقيم الحد عليه، كما هو معروف. وهذا عين ما فعله عمر بن الخطاب بعد الشهادة على قدامة بن مظعون، حتى إنه زجر الشاهد الرئيسي الجارود لاستعجاله إقامة الحد وهدده بالعقوبة إن لم يسكت عن استعجاله، ثم طالب الشاهدين بإحضار ثالث، ففعلاً"^(٣).

✽ أما عن تفاصيل إقامة الحد على الوليد، فقد تابعت ذات الروايات اتهام الخليفة عثمان بالاستمرار في التحايل لمنع إقامة الحد. ويشير البلاذري إلى أنه "أتى بالوليد وأمر بجلده فلم يقم أحد. فلما قال الثالثة: - من يجلده؟ قال علي: - أنا. فقام إليه فجلده بدرجة يقال لها السبتية، لها رأسان. فضربه بها أربعين. فذلك ثمانون"^(٤). والشاهد في الرواية

(١) ابن حجر: - فتح الباري (باب مناقب عثمان) حديث رقم ٣٦٩٦، م ١٠، ص ٦٠١-٦٠٥؛ ابن شبة: - تاريخ المدينة المنورة، ج ٣، ص ٩٧٠-٩٧١.

(٢) ابن حجر: - فتح الباري، م ١٠، ص ٦٠٢. وانظر توقيت شاذ لإقامة الحد على الوليد إذ جاء متأخراً جداً حتى قارب سنة ٣٤هـ عند: - صاحب الإمامة والسياسة، ص ٣٦-٣٧.

(٣) ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ٥، ص ٤٥١؛ ابن حجر: - الإصابة، م ٥، ص ٦٣٦.

(٤) أنساب، ج ٥، ص ٣٣ (رواية العباس بن يزيد البصري). وانظر تصريح المسعودي (مروج، ج ٢، ص ٣٤٥) " فلما نظر (علي) إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحد توقياً لغضب عثمان لقرابته منه، أخذ على السوط ودنا منه".

كلمة "فلم يقم أحد" التي تدل على خوف الحاضرين من سطوة الخليفة لكثرة تلويحه بكون الوليد أخيه، كما زعمت الروايات.

كذلك جعلوا الخليفة عثمان يتعاطف مع الوليد مخالفا القاعدة الشرعية في إقامة الحدود. فقالوا إنه "ألْبسه جبة حبر وأدخله بيتاً"^(١). ولا يخفى علينا أن الغرض من ذلك أن يتقى الوليد أثر الضرب؛ إذ الخبر: - هو ثوب من قطن أو كتان مخطط كان يصنع باليمن. أما إدخاله البيت فلكى يقلل من فرص التشهير بالوليد أمام الناس، أو لإتاحة الفرصة للوليد كي يؤثر على من سيقوم بعبء جلده. وهو بالفعل ما زعمته الرواية "فجعل إذا بعث إليه رجلاً من قريش (لاحظ الوصف) ليضربه، قال له الوليد: - أنشدك الله أن تقطع رحمي وتغضب أمير المؤمنين عليك. فيكف"^(٢). وختمت الرواية هذا المشهد الدرامي بجعل علي بن أبي طالب يمسك السوط، "ودخل عليه (يعني البيت المغلق) ومعه ابنه الحسن!!؟"، الذي تأثر لضرعة الوليد وخاطب أباه في الامتناع عن تنفيذ الحد، فزجره أبوه مؤكداً أن من تمام الإيذان أن يقيم الحد. وأمام إصرار الوليد على ارتداء الجبة الحبر، نزع منه علي بن أبي طالب كساء آخر كان يرتديه مما عرضه لسباب الوليد، أثناء ضربه إياه بالسوط^(٣). وعند المسعودي، إن سبأاً جارحاً رد به عقيل بن أبي طالب - أحد الحضور - على سباب الوليد لعل، وإن الوليد صار يراوغ علياً حتى لا يمكنه من ضربه "فاجتذبه على فضرب به الأرض، وعلاه بالسوط. فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا. قال: - بل وشرأ من هذا، إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه"^(٤). مما يناقض بداهة ما ذكره البلاذري عن أن الجلد تم في بيت مغلق.

(١) المصدر نفسه والجزء، ص ٣٥؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤١. وعن معنى الخبر، انظر: المعجم الوسيط (مادة حبر، بالفتح والكسر) ص ١٥١-١٥٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نفسه، ص ٣٣ (رواية أبي مخنف)؛ المسعودي: - ج ٢، ص ٣٤٥.

(٤) المسعودي: - المصدر والصفحة.

(٥) صحيح الإمام مسلم، الحديث السابق والصفحة؛ ومسنود الإمام أحمد، الأحاديث الثلاثة السابقة؛ ابن حجر: - فتح الباري، تعليقه على حديث رقم ٣٦٩٦، م ١٠، ص ٦٠٥. وقارن: - ابن شبة: - تاريخ المدينة، ج ٣، الروايات الثلاثة للحضين بن المنذر السابقة؛ ابن عساكر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٤٦؛ الفاسي: - العقد، ج ٧، ص ٤٠٣. وانظر تصريح المالك (التمهيد والبيان، ص ٥٦) "والصحيح أن الذي جلده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، لأن علي رضي الله عنه أمره بجلده. فجلده أربعين، وعلى يعد".

ونلاحظ كذلك اختلاف آخر من النوع المعتدل في تفاصيل إقامة الحد، يقوم أساساً على اختلاف الروايات حول شخص من قام بتنفيذ الحد، وكذا مقداره هل أربعين جلدة أم ثمانين. فقول إن الخليفة عثمان طلب إلى علي بن أبي طالب مباشرة ذلك بنفسه أو اختيار من ينوب عنه. وهذا هو المشهور عند الرواة. حيث اختار علي ابنه الحسن الذي رفض عارضاً على أبيه أن يكل الأمر للخليفة شخصياً أو من يختاره هو غيره. فانتدب علي ابن أخيه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الذي باشر الضرب وعلى يعد حتى بلغ أربعين جلدة. وهذا ما رجحه أغلب المؤرخين والمحدثين، حتى إن الحافظ ابن حجر في تأكيده أن العدد كان أربعين وليس ثمانين جلدة، قد نبه إلى وهم الراوى الأول للحديث الموجود في صحيح البخارى عن عدد الضربات^(١). وهناك من قال بأن سعيد بن العاص - الذي خلف الوليد في ولاية الكوفة - قد باشر تنفيذ الحد "فأورث ذلك عداوة بين ولديها حتى اليوم (أى زمن الطبرى)"^(٢).

ماذا عن الوليد؟ لاشك أن أفكاراً عديدة دارت في رأس الوليد حين تم استدعاؤه للقاء الخليفة عثمان، ومثوله أمام الشهود، كلها تنصب في محاولة الإجابة على سؤال واحد:- لماذا كل هذا؟ فهو يعلم مدى شغب أهل الكوفة وعدم رضائهم عن ولايتهم السابقين، ولكن لماذا يصل بهم الحال معه إلى هذا المنعطف الخطير؟ ألم يشغلهم بالجهاد العسكرى المستمر ويغدق عليهم مغانم الفتوح طيلة السنوات الخمسة؟ ألم يتألف قلوب أصحاب الحاجات منهم؟ ألم يسهر على أمن المواطنين ويدراً الحدود بالشبهات كى يقضى على النعرة القبلية لدى زعماء العشائر؟ وهل هذا معنى تطبيقهم لقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في خصومتهم معه؟ ثم لماذا يتجسسون على حياته الخاصة ويقتحمون عليه داره مرة بعد أخرى، رغم اتخاذه سياسة الباب المفتوح بينه وبينهم؟ وكيف ينعهم أنه لم يشرب الخمر:- ألم يكن الخليفة عثمان - كأخ له - أول من يعلم عنه ذلك، خاصة أنه أقام في كنفه سنوات قبل توليه الكوفة؟ وأين أخته أم كلثوم بنت عقبة وزوجها عبد الرحمن بن عوف من هذا كله؟ إذ لم تشر الروايات على اختلافها إلى أية دور أو شهادة لها

(١) الطبرى:- ج٤، ص ٢٧٦؛ ابن عساكر:- ج٢٦، ص ٣٤٤ و ٣٤٥.

(٢) المصدران السابقان والصفحات.

عن هذا الحادث؟ ثم إنه إن كان يشرب شيئاً، فكيف يقنعهم إنه النبيذ المستخدم كمسهل للهضم وليس خمرًا؟.

وعموماً، فإنه لم ينطق سوى بجملة واحدة، لم يستخدم فيها مؤثرات الأخوة، بل "حلف له وأخبره خبرهم .. فقال: - يا أمير المؤمنين، أنشدك الله، فوالله إنها لخصمان موتوران"^(١). وكان رد الخليفة عثمان على ذلك حاسماً: - "لا يضررك ذلك. إنما نعمل بما ينتهي إلينا. فمن ظلمَ فالله ولى انتقامه، ومن ظلمَ فالله ولى جزائه". ويبدو أن الوليد ألح في الدفاع عن نفسه، بحيث إن الخليفة أكد نيته في إقامة الحد قائلاً: - "نقيم الحدود، ويؤء شاهد الزور بالنار"^(٢).

في أعقاب المحاكمة والحق إن الخليفة عثمان بهذا قد قطع السبيل أمام من تسول له نفسه أن يتهمة بالتستر على الوليد بن عقبة سواء كأحد ولاته، أو كأخ له من أمه. إذ رغم اقتناعه بأن الشهادة كلها زور وأن محركها أصحاب أغراض، كما يتضح من تعليقاته الأخيرة على دفاع الوليد عن نفسه، فإنه أمر بإقامة حد الخمر عليه. وأتبع ذلك بعزله عن ولاية الكوفة وتعيين سعيد بن العاص بدله، وأرسل معه كتاباً يقول فيه: - "من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة (وفي رواية إلى من قرئ عليه كتابي هذا من أهل الكوفة)، سلام. فإني استعملت عليكم الوليد بن عقبة حتى تولت منعه واستقامت طريقته. وكان من صالحى أهله. وأوصيته بكم خيراً ولم أوصكم به. فلما بذل لكم خيره وكف عنكم شره وغلبتكم علانيته، طعتم في سريرته. والله أعلم بكم وبه (وفي رواية: - فإن يكونوا صدقوا فقد قضينا ما كان علينا، وإن يكونوا كذبوا فالله حسبيهم. فاتقوا الله عباد الله ووازرُوا أمراءكم وناصروهم ولا تبغوا عليهم. وإياكم والقذف والبهت، وإن تحقق الأمر السيئ). وقد بعثت عليكم سعيد بن العاص أميراً. وهو شرف أهله ومن لا يطغى في سريرته ولا علانيته. وقد أوصيته بكم خيراً، فاستوصوا به خيراً. والسلام"^(٣).

(١) المصدران السابقان والصفحات.

(٢) ابن شبة: - ج٣، ص ٩٧٤ - ٩٧٥؛ ابن أعثم: - كتاب الفتوح، ج٢، ص ١٦٨.

(٣) الطبرى: - ج٤، ص ٢٧٩.

ومن العجيب أن الوالي سعيد بن العاص لم يرجع إلى مقر ولايته بالكوفة بمفرده، بل "خرج معه من مكة - أو المدينة - الأشر، وأبو خشة (أو أبو حبيبة) الغفاري، وجندب ابن عبد الله (وصوابه ابن زهير) وأبو مصعب (الصعب) بن جثامة. وكانوا فيمن شخص مع الوليد يعيونه. فرجعوا مع هذا". بمعنى أن حلقة مثيرة من حلقات المخطط التنفيذي للبيئة قد انتهت لتبدأ حلقة أخرى أكثر إثارة ستنتهي كما هو معروف، ليس فقط بالإطاحة بسعيد بن العاص من ولاية الكوفة، بل أيضاً بالخليفة عثمان بن عفان نفسه. وكأننا بالوليد بن عقبة، بعد انتهاء جلده يقرأ في لوح الغيب عندما نصح الخليفة عثمان نصيحة غالية:- "أبصرتنى اليوم بشهادة قوم، ليقتلنك عاماً قابلاً"^(١).

ردود فعل قرار العزل يشير الطبرى إلى تباين ردود فعل أهل الكوفة تجاه قرار عزل الوليد، قائلاً:- "كان الناس في الوليد فرقتين:- العامة معه، والخاصة عليه"^(٢). ولا ريب أن الخاصة هؤلاء هم في أغلبهم من زعماء العشائر اليمنية أو من "هو موتور في نفسه" أو "نفر ممن قد عزل الوليد عن الأعمال"، الذين كان من الطبيعي أن يفرحوا لهذا القرار باعتباره ثمرة لتخطيطهم المحكم وجهدهم الجماعى المنظم. أما العامة، فقد تحدثت بلسانهم إحدى العجائز من أهل الكوفة، "قالت:- كان الوليد أدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم للولائد والعبيد. ولقد تفجع عليه الأحرار والماليك. كان يسمع الولائد وعليهن الحداد يقلن:-

ياويلتا قد عزل الوليد ينقص وجاءنا مجموعاً سعيد
في الصاع ولا يـزيد جوع الإماء والعبيد"^(٣)

وهي طريقة غريبة في الترحم على أيام من مضى واستقبال مزعج لمن أتى، تماماً مثلما قيل عند تولية الوليد بن عقبة بدلاً من سعد بن أبى وقاص. بفارق بسيط، أن العامة من أهل الكوفة هم المتحدثون هذه المرة، بينما في السابقة كان خاصة أهل الكوفة هم

(١) ابن شبة:- ج٣، ص ٩٧٤.

(٢) الطبرى:- ج٤، ص ٢٧٧؛ ابن عساكر:- ج٢٦، ص ٣٤٦.

(٣) الطبرى:- ج٤، ص ٢٧٧ - ٢٧٨؛ ابن عساكر:- ج٢٦، ص ٣٤٦. ويقول الأصفهاني (تجريد الأغاني، ق ١، ج٢، ص ٦٤٥) مقارناً بين الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص:- "وكان الوليد أسن منه وأسخر وألين جانباً وأرضى عندهم".

المتكلمون. الأمر الذي يؤكد ما جبل عليه أهل الكوفة من شغب دائم ضد ولايتهم، أكثر مما يدل على اختلاف طريقة حكم كل والي، الوليد بن عقبة مع العامة أكثر من الخاصة، وسعيد بن العاص على العكس منه. لأننا نعلم أن الخاصة استمروا في شغبهم ضد والي سعيد بن العاص بحيث عزلوه عنوة عن ولاية الكوفة أثناء اشتعال الأحوال فيما يعرف ببدايات الفتنة الكبرى.

أما معاصرو الوليد ممن كانت له عليهم يد بيضاء، فقد حزنوا لذلك. ونذكر منهم الشاعر الخطيئة الذي قال أبياتاً في هذه المحنة مؤكداً أن الأمر محض إفتراء وكذب. وهي الأبيات التي تم انتحالها هجاءً بفعل آخرين، كما سبق القول^(١). أما الشاعر أبو زيد الطائي فقد عبر عن اعتزازه بصداقته للوليد وكرمه الزائد حياله وأفراد أسرته، وكشف عن حقيقة ما كان يشربه الوليد فعلاً من أنه كان نبيذاً وليس خمرأً، وكيف استغل الخصوم ذلك، مؤكداً استمراره على الود له ولذكراه، حتى إنه توفي ودفن إلى جواره كما سنرى. وذلك في أبيات شعرية قالها في هذه المناسبة، منها^(٢):

من يرى العير التي لابن أروى على ظهره
يعرف الجاهل المضلل أن الـ
ومنها:-

بعدهما تعلمين يا أم زيد ووجوه
تودنا مشـرقـات
ومنها:-

قولهم شريك الحرام وقد كا
وأبى الظاهر العداوة إلا
ومنها:-

(١) انظر ما سبق (ص ٤٠ هامش رقم ٣).

(٢) ابن شبة:- تاريخ المدينة، ج ٣، ص ٩٧٤؛ ابن واصل:- تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١ ج ٢، ص ٦٤١-٦٤٢.

فأعلمن أننى أخوك أخو الو د حياتى، حتى تزول الجبال
ولك النصر باللسان وبالك ف إذا كان لليدين مصال

وأما الوليد بن عقبة، فقد جعلته الروايات أمام مفترق طرق: - إذ أغلب المؤرخين يقولون باستمراره بعد عزله وإقامة الحد عليه في المدينة المنورة حتى استشهاد الخليفة عثمان والبيعة بالخلافة لعلى ابن أبى طالب (ذى الحجة ٣٥هـ / يونية ٦٥٦م)، وعندها اعتزل الحياة العامة فلا هو مع على بن أبى طالب ولا هو مع معاوية بن أبى سفيان. واختار الإقامة في ضيعته الخاصة بعين الرومية على نهر يسمى البليخ من نواحي الرقة (على مسيرة ١٥ ميلاً منها) بإقليم الجزيرة بأعلى الفرات، وذلك حتى وفاته في سنة ٦١هـ (٨١/ ٦٨٢م) على الأرجح^(١). ولكن هؤلاء المؤرخين لم ينسبوا إلى الوليد فعل شيء ما تجاه تطور الأحداث التي سبقت استشهاد الخليفة عثمان، حتى في الاجتماع الذي حدث بين الخليفة عثمان وولائه على الأقاليم (سنة ٣٤هـ / ٦٥٤م) للتباحث فيما يروج بين الناس من أمر الفتنة^(٢)، لم يكن الوليد بن عقبة - إن كان حاضراً بالمدينة المنورة حينذاك كما يقولون - بين الحاضرين. رغم أن رأيه مهم جداً باعتباره والياً سابقاً على الكوفة أكثر الأقاليم شغباً وأنه قد عانى شخصياً من تأمر هؤلاء السبئية الذين يطعنون اليوم في كفاءة الخليفة عثمان. وكذلك لم ينسبوا إلى الوليد فعل شيء ما لنصرة عثمان بن عفان كخليفة وكأخ له من أمه أثناء حصار المتمردين له قبيل استشهاداه وهو "الشجاع القائم بأمر الجهاد" أثناء ولايته على الكوفة وقبل ذلك في فتح إقليم الجزيرة وشمال الشام. كما أن

(١) ابن سعد: - الطبقات الكبرى، ج٦، ص ١٥؛ خليفة: - طبقات، ص ١١ و ٣١٨؛ ابن قتيبة: - المعارف، ص ٣١٩ - ٣٢٠؛ ابن أبى حاتم: - كتاب الجرح والتعديل، ج٩، ص ٨، ابن عبد البر: - الاستيعاب، م ٥، ص ٣٣٤ - ٣٣٥؛ ابن عساکر: - تاريخ دمشق، ج ٢٦، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ و ٣٣٧؛ ابن الجوزي: - المنتظم، ج ٦، ص ٥؛ ابن واصل: - تجريد الأغاني للأصفهاني، ق ١، ج ٢، ص ٦٤٦ (وقد وصف الموضع بأنه "فوق الرقة")؛ الذهبي: - سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤١٤؛ الفاسي: - العقد، ج ٧، ص ٣٩٩ - ٤٠٠؛ ابن حجر: - تهذيب التهذيب (طبعة دار الفكر) ج ١١، ص ١٢٦؛ والإصابة، م ٥، ص ٧١٩.

(٢) الطبري: - ج ٤، ص ٣٣٣ - ٣٣٥. وانفرد ابن كثير (البداية والنهاية، م ٤، ج ٨، ص ٧٤٥ - ٧٤٦) بأن الوليد ابن عقبة استمر مقيماً بالكوفة بعد عزله وإقامة الحد عليه حتى حضور الخليفة على بن أبى طالب إلى العراق، فخرج هو إلى الرقة.

بعض مؤرخي هذا الاتجاه يجعلون الوليد يدخل البصرة بعد عزله عن الكوفة دونها ذكر سبب أو تفاصيل ذلك^(١).

وهناك فريق آخر من المؤرخين يجعلون الوليد مشاركاً في الأحداث السياسية والعسكرية التي حدثت بعد استشهاد الخليفة عثمان، وكان إلى جانب معاوية بن أبي سفيان ضد الخليفة علي بن أبي طالب، ولكن بالكلام فقط وبقصائد شعرية اتهم فيها معاوية وقيادات البيت الأموي بالعجز والتسوية في الانتقام لعثمان، مما جعلهم يبادلونه الاتهام هم الآخرون^(٢).

بينما نرجح أن الوليد بن عقبة اعتزل الحياة العامة في منفاه الاختياري بالرقعة منذ عزله عن الكوفة وإقامة الحد عليه مباشرة. وذلك تفسيراً لغيابه المفاجئ عن المشاركة في الأحداث التي سادت المدينة المنورة بعد ذلك وحتى استشهاد الخليفة عثمان. كما أن هذا الترجيح يعطينا من المبالغة والتناقض الواضحين في كثير من روايات الفريق الثاني في هذا الشأن، فمثلاً يجعلون شراكة نفعية تحدث بين الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وثالثهم مروان بن الحكم ضد الخليفة علي بن أبي طالب، رغم إشارة ذات الروايات إلى العداوة المتأصلة بين الوليد وسعيد وامتدت لتشمل ذرياتها، لكون سعيد هو الذي قام بجلد الوليد حد الخمر^(٣). وغير ذلك مما لا يغيب عن فطنة القارئ العادي. ولا بأس كذلك من القول بأن الوليد استمر مراقباً للأحداث من مقر إقامته بالرقعة، وصار يرسل أبياتاً شعرية لقيادات البيت الأموي، تذكروهم بالثأر للخليفة عثمان وتتبع قتلته أينما كانوا^(٤). لأن في ذلك انتقاماً له؛ إذ كان من بينهم أيضاً خصومه هو.

(١) خليفة:- طبقات، ص ١١ و ١٨٩؛ ابن عبد البر:- الاستيعاب، م ٥، ص ٣٣٤ - ٣٣٥؛ الفاسي:- العقد، ج ٧، ص ٤١٠.

(٢) اليعقوبي:- تاريخ، ج ٢، ص ١٧٨-١٧٩؛ الطبري:- ج ٤، ص ٤٣٣ و ٤٥٠ (رواية سيف بن عمر)؛ ابن أعمش:- كتاب الفتوح، ج ٢، ص ٢٥٩-٢٦٢.

(٣) انظر أمثلة كثيرة لما قيل عن تحركات الوليد المعادية لعلي بن أبي طالب، عند:- ابن أعمش:- كتاب الفتوح، ج ٢، صفحات ٢٥٩-٢٨٠ و ٣٥٣-٣٥٧ و ٣٩٢-٣٩٦؛ وج ٣، ص ٢-٣ و ١٥٣-١٥٥ و ١٧٥-١٧٦ و ١٩١-١٩٥.

(٤) ابن حجر:- الإصابة، م ٥، ص ٧١٩.

الوليد في أيامه الأخيرة وفي الرقة، حيث طاب له المقام وصار يردد "منك المحشر"^(١)، انصرف الوليد خلال ما تبقى من عمره إلى مباشرة شئونه الخاصة وذريته. باستثناء إشارة وحيدة عن خروجه من الرقة فور علمه بتصاعد الأحداث في المدينة المنورة وحصار المتمردين للخليفة عثمان. فسلك طريق الكوفة إلى المدينة المنورة، ولكنه عند موضع المراض (على طريق الحجاز - الكوفة) التقى بأحد موالى الخليفة عثمان ويدعى بجاد، الذي أخبره باستشهاد الخليفة، فانصرف عائداً وهو يردد أبياتاً شعرية في رثائه، منها^(٢):-

ليت أنى هلكت قبل حديث ... جسمي وريع منه فؤادي
يوم لاقيت بالمراض بجادا ليت أنى هلكت قبل بجادا
وقال في موضع آخر^(٣):-

وكف يديه ثم أغلق بابه وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار مه لا تقاتلوا عفا الله عن كل أمرئ لم يقاتل
وكيف رأيت الله ألقى عليهم العداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعهده عن الناس إدبار المخاض الجوافل

واستمر الوليد على هذا النحو حتى حضرته الوفاة خلال سنة ٦١ هـ (٦٨٢ م) على أرجح الأقوال^(٤). وعندها استحضر جميع ما حدث بينه وبين أهل الكوفة، فدعا قائلاً:-
"اللهم إن كان أهل الكوفة صدقوا علىّ فلا تبارك لي فيما أقدم عليه واجعل مردى شر

(١) ابن عساكر:- ج٢٦، ص ٣٣٦؛ الفاسي:- ج٧، ص ٤٠٠.

(٢) ابن عساكر:- ج٢٦، ص ٣٤٧. وعن موضع المراض، انظر:- ياقوت الحموي:- معجم البلدان، ج٥، ص ٩٣.

(٣) البلاذري:- أنساب، ج٥، ص ٧٢.

(٤) ابن الجوزي:- المنتظم، ج٦، ص ٥؛ ابن كثير:- البداية والنهاية، م ٤، ج٨، ص ٧٤٥-٧٤٦ (ثم أعاد ص ٨٤٤ باقتضاب شديد ذكر وفاة الوليد في سنة ٦٧ هـ). ولاحظ أن:- الفاسي (العقد الثمين، ج٧، ص ٤١١) وابن حجر (تهذيب التهذيب، طبعة دار الفكر، ج١١، ص ١٢٦) قد نقلتا عن أحد الرواة - ويدعى أبا عروبة الحراني - أن الوليد توفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان، دون تحديد لسنة معينة.

مرد. وإن كانوا كذبوا على فاجعله كفارة لما لا يعلمون من ذنوبي"^(١). وكان قد استمر في استقبال صديقه الشاعر أبي زيد الطائي الذي تابع زيارته له في ضيعته الخاصة بالرقّة، يتبادل معه الشعر. وأكد البلاذري في فتوحه أن الوليد أعطى عين الرومية وماءها إقطاعاً لأبي زيد حيث مات ودفن بها إلى جوار قبر الوليد. ولما مر الأمير الأموي مسلمة بن عبد الملك بموضع القبرين، وعلم لمن هما، قال:- "رحم الله أبا وهب، وأثنى عليه". وأثنى كذلك على أبي زيد الطائي قائلاً:- وهذا فيرحمه الله .. إنه كان كريماً"^(٢).

وقد ترك الوليد ذرية بعضها بالرقّة وبعضها بالكوفة. منهم:- ابنه عمرو بن الوليد الشاعر المعروف بأبي قطيفة الذي جعله الأصفهاني فاتحة كتابه الأغاني، وأكد معيشته بالحجاز إلى أن أخرجه وجماعة الأمويين إلى الشام عبد الله بن الزبير أوائل ثورته. وأورد أبياتاً شعرية على لسانه إلى أبيه الوليد أثناء ولايته على الكوفة يشكو إليه شغفه بالجوارى وعدم قدرته على الاقتران بإحداهن وخشيته الافتتان بواحدة، مما يوجب عليه حد الزنا "فابتاع له جارية بالكوفة وبعث إليه بها"^(٣). وإذا كان أبو قطيفة يمثل المعيشة المترفة من شعر وشغف بالجوارى، فإن إخوته الآخرين يمثلون الطابع الجهادي لأبيهم، وهاهو أبان ابن الوليد يقود إحدى الصوائف العسكرية ضد البيزنطيين في سنة ٧٥هـ (٦٩٤م) أثناء توليه إمارة أرمينية وحمص وقنسرين للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. وذلك قبل أن يفرد أرمينية فقط لأخيه الآخر عثمان بن الوليد بن عقبة. ومعلوم أن هذه المناطق كانت من الثغور الحربية المواجهة لمنطقة الحدود مع الدولة البيزنطية^(٤). أما أخوهم عمارة بن الوليد فقد كان صاحب إقطاع بمصر حدده ابن عبد الحكم بأنه كان

(١) ابن عساكر:- ج٢، ص ٣٤٨.

(٢) نفسه، ص ٣٤٩. وانظر:- البلاذري:- فتوح البلدان، ج١، ص ١٨٥ (حيث يذكر أن عين الرومية صارت للخليفة العباسي أبي العباس السفاح ثم أقطعها لأحد رجال الدولة قبل أن يشتريها أخيراً الخليفة العباسي هارون الرشيد).

(٣) الأصفهاني:- كتاب الأغاني، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٩٥٢، ج١، ص ١٢-٣٥ وبخاصة ص ٣١.

(٤) ابن السائب الكلبي:- جمهرة النسب، ص ٥٢-٥٣، ابن حزم:- جمهرة أنساب العرب، ص ١١٥. وانظر:- اليعقوبي:- ج٢، ص ٢٨١.

يشمل "الدور التي تلى أصحاب التبني قبلًا"^(١). وكان خالد بن الوليد بن عقبة من عليّة القوم بالكوفة خلال العقد السابع من القرن الأول الهجري، وعاش حياة اجتماعية صاخبة تنافس خلالها في العديد من أوجه البر مع فتيان الكوفة، مثل ابن عمه عبد الله بن عمار بن عقبة وعمران بن موسى ابن الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله وعبد الملك بن بشر بن مروان الذي كان أسخاهم استناداً لوجود أبيه بشر بن مروان في ولاية الكوفة والبصرة خلال سنة ٧٤هـ (٦٩٣م)^(٢). ومن أحفاد الوليد بن عقبة:- محمد ذو الشامة ابن أبي قطيفة عمرو بن الوليد الذي تولى إمرة الكوفة من قبل الأمير مسلمة بن عبد الملك بعضاً من سنة ١٠٢هـ (٧٢٠م)^(٣). وأخوه عبد الله ابن عمرو بن الوليد الذي حزن كثيراً لزواج عبد الملك بن بشر بن مروان من محبوبته وابنة عمه أم سعيد بنت سعيد بن خالد بن عقبة، وأنشد أبياتاً شعرية في فراقها. ولا يعنى هذا انغماسه في الترف واللهو، بل كان أحد قادة الصوائف العسكرية ضد البيزنطيين^(٤).

الخاتمة

هكذا طويت - بوفاته في منفاه الاختياري بالرقّة - صفحة الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعلى غير المعهود. وحفظ عنه التاريخ أنه ابن ذاك المشرك الشديد العداء للإسلام ولرسول الله ﷺ، كأن القاعدة الشرعية "الإسلام يُجِبُّ ما قبله" لا تنطبق على أمثاله. وحفظت كتب التفاسير القرآنية عنه أنه المعنى بتهمة الفسق في الآيتين القرآنيتين الكريمتين رقم ٦ من سورة الحجرات ورقم ١٨ من سورة السجدة. رغم أنه لا علاقة له بسبب نزول هاتين الآيتين؛ إذ آية الحجرات نزلت عشية غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ٥هـ أو ٦هـ على أكثر تقدير، بينما أسلم الوليد بن عقبة سنة فتح مكة ٨هـ. والآية الأخرى من سورة السجدة نزلت في أبيه عقبة أو في عموم أهل النار من الفاسقين، لصغر

(١) ابن عبد الحكم -: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق وتقديم محمد الحجيرى، مطبوعات دار الفكر ببيروت، ط ١ سنة ١٩٩٦، ص ٢٣٨.

(٢) البلاذرى -: أنساب، ج ٥، ص ١٨٠-١٨١.

(٣) ابن السائب -: جبهة النسب، ص ٥٣؛ الطبرى -: ج ٦، ص ٦٠٤.

(٤) البلاذرى -: أنساب، ج ٥، ص ١٨٢؛ ابن حزم -: جبهة أنساب العرب، ص ١١٥.

سن الوليد وقت نزولها بمكة، إن كانت الآية الكريمة نزلت بمكة، أما إذا كانت مدنية فمعلوم أن مسلمة فتح مكة أو الطلقاء - ومنهم الوليد - لم يسكنوا المدينة المنورة.

ولم يحفظ عنه التاريخ كذلك أنه كان عند ظن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بحسن أدائه لمهمة جمع صدقات عرب بنى المصطلق الخزاعيين بعد سنة ٨هـ، متعظاً بتحذير القرآن الكريم له ولغيره من تكرار حادثة الفسق الأليمة التي فعلها قبله أحد المسلمين. بينما حفظها عنه الخليفان الراشدان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. فانتدبه الأول لمهمة جمع الصدقات مثلما حدث معه في العهد النبوي. ولهذا لم نجد له دوراً في حروب الردة كقائد لأحد الألوية العسكرية أو حتى كجندى عادي، لتأخر دور جامعي الصدقات بعد تمام العمليات العسكرية. ثم نجده في شهر صفر من سنة ١٢هـ يحضر إلى المدينة المنورة حاملاً خمس غنائم معركة المذار جنوب العراق، ورسالة من القائد خالد بن الوليد بتفاصيل العمليات العسكرية على جبهة الفرس. فأعاد الخليفة الصديق انتدابه لجمع صدقات عرب قضاة بدومة الجندل على جبهة الشام، وكان خلاها قسماً للصحابي الشهير عمرو بن العاص. ثم قائداً للواء فتح الأردن، فكان الوليد بن عقبة بذلك رابع أربعة حملوا اللوات العسكرية الأربعة لفتح الشام. وذلك قبل أن تتعرض جبهته لكمين بيزنطي قتل خلاله ابن زميله ومرؤوسه خالد بن سعيد بن العاص، مما اضطر الخليفة الصديق لعزله عن قيادة لواء الأردن وجعلها للصحابي الجليل شرحبيل ابن حسنة.

ثم انتدبه الخليفة عمر بن الخطاب لمتابعة فتح الشام كآحاد الجنود، حتى اطمأن على حسن بلائه في الجهاد أثناء المعارك الكبرى كأجنادين واليرموك وغيرها. وظهر دوره في تأمين الخطوط الخلفية للجيوش الإسلامية في فتح شمال الشام، فولاه على عرب الجزيرة خلال سنة ١٧هـ، ثم عزله رفقا به وبرعايا الدولة من نصارى تغلب وإياد لسياسته المتشددة حيال أنفتهم من الخضوع للحكم الإسلامي.

وجاءت خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، لتشهد متغيرات كثيرة جعلت من الوليد ابن عقبة ومن الخليفة عثمان نفسه ضحايا لها. ذلك أن قاعدة الحساب بين الحاكم والرعية قد تأثرت كثيراً باختلاف طريقة الخليفة عثمان في الحكم من حيث انتهاجه نهجاً ليناً في

التعامل مع الرعية عكس تشدد سلفه عمر بن الخطاب، فضلاً عن اتساع دائرة الإسلام لتشمل أناساً جدداً لم يكونوا بعد قد قبلوا الدين عن فهم وعمق. فأدى ذلك إلى أن أموراً طبيعية عدت أخطاء جسيمة وكانت الشغل الشاغل لطائفة معينة من أفراد المجتمع الإسلامى بحيث نجحوا من خلالها فى الطعن فى كفاءة الخليفة عثمان، وانتهى الأمر بمقتله شهيداً على أيديهم فيما عرف ببدايات الفتنة الكبرى.

ويكفى أن اعتماد الخليفين الصديق وعمر بن الخطاب على الوليد بن عقبة فى المهام السابقة لم يثر مثل هذا الكم من الاتهامات عندما اختاره الخليفة عثمان ليتولى إمرة الكوفة ابتداءً من سنة ٢٥هـ. وقد تمت مناقشة كل هذه الاتهامات وثبت عدم صحتها، وأن الخليفة عثمان اختاره لما يعرفه عنه من شدة وحزم إدارى وكفاية عسكرية لمواجهة تمرد أهل أذربيجان على الحكم الإسلامى ابتداءً من سنة ٢٤هـ منتهزين وفاة الخليفة عمر بن الخطاب، وذلك لأن الكوفة مسئولة ثغرياً عن فتح وتأمين أقاليم الرى وأرمينية وأذربيجان. وكان الأولى أن يحتكم مثيرو هذه الاتهامات إلى الموضوعية فى حكمهم على صحة أو خطأ قرار تولية الوليد بن عقبة الكوفة، بالنظر فى سياسته فى إدارة شئون الإقليم وتقييمها بما تستحقه سلباً أو إيجاباً.

وعند استعراض سياسة الوليد فى حكم الكوفة، لوحظ استمرار شغب أهلها على جميع ولاتهم السابقين عليه أو التالين له، حتى إن الشرارة الأولى لأحداث الفتنة الكبرى المعروفة بحادثة النشاستج قد انطلقت من أرضها. وهى الظاهرة التى تم دراستها وأثرها على الحياة الأدبية والعقلية لأهل الكوفة وأسبابها التى منها تعالى أهل الكوفة على الدولة لدورهم الجهادى فى الفتوحات الإسلامية، وكذا تأجج الروح القبلية لديهم حيث برز خلالها ما للعصبية اليمنية من ثقل سواء من حيث ارتفاع الكثافة العددية لمقاتليهم أو سكناهم أجود أراضى الكوفة المجاورة للضفة اليسرى لنهر الفرات. وهو أمر كان يدره جيداً الوليد بن عقبة الذى حرص على الاستفادة بجهودهم فى ميدان الجهاد العسكرى، استثماراً لدور الكوفة الثغرى ومرابطة أربعين ألف جندى على أرضها يخرجون مناوبة بواقع عشرة آلاف جندى كل عام ثم يعودون ليخرج مثلهم فى العام القادم "فكان الرجل يصيبه فى كل أربع سنين غزوة". فكان الوليد يغزو فى كل عام ثغر الكوفة الأيسر حيث

يسير شمالاً بغرب إلى غربى بحر قزوين، وانتهى في فتوحه إلى باب الأبواب أو الدربند من الأقاليم الرئيسية بأرمينية الكبرى. ويغزو الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان أمامه في ثغر الكوفة الأيمن يعنى شمالاً بشرق حيث إقليم الرى. ناهيك عن مغنم الفتوح التى كان يصيبها رجاله وتوزع على أهالى الكوفة.

وعن أعماله الإدارية، فقد استهلها الوليد بفتح قصر الإمارة أمام جميع أهل الكوفة لعرض أمورهم متى شاءوا، واستمر على ذلك " فلم يتخذ لداره باباً حتى خرج من الكوفة". ورغم ذلك فقد وصل لسمعه الطريقة التى عبر بها خاصة أهل الكوفة من زعماء العشائر عند توليته عليهم بقولهم: - "بئسما ابتدلنا به عثمان. عزل أبا إسحاق (سعد ابن أبى وقاص) الهين اللين الحبر صاحب رسول الله ﷺ، وولى أخاه الفاسق الفاجر الأحمق الماجن". فلم يعتد بهذا القول، واعتبره تنقيساً عن مكنون صدور بعض الخاصة من زعماء اليمينية الذين أحفظهم استئثار قريش بمنصب الولاية فى الكوفة. وجعل نصب عينيه تذويب هذه النعرة القبلية بتقوية قبضة الدولة على مجريات الأمور أو ما يمكن تسميته بمزيد من الاتجاه نحو المركزية، مثلما فعل فى حق ضيافة الغرباء والطارئين على إقليم الكوفة الذى جعله الوليد موكولاً للدولة وحدها وذلك بإنشاء العديد من دور الضيافة الحكومية مثل دار الضيفان. وهو أمر أحفظ هؤلاء الخاصة، لحرمانهم من المكاسب المادية والمعنوية التى كانت تعود عليهم من مبيعات الميرة المقدمة لأولئك الضيوف عند حلهم وترحالهم.

كذلك أحفظ هؤلاء الخاصة حزمه الشديد تجاه الجرائم المرتكبة من ذويهم، مثلما فعل مع ثلاثة من أبنائهم قتلوا جارهم المعروف بابن الحيسمان الخزاعى وقبض الجيران عليهم وشهد الشهود بذلك، فأقام الحد عليهم قصاصاً. ولكن آباءهم أقسموا على الانتقام من الوليد، وأصبحوا منذ ذلك الحين وقود حركة المعارضة التى ضمت كذلك أشخاصاً آخرين مثل كعب بن ذى الحبكة النهدي الذى مارس السحر وقراءة الطالع ورفض محاولات استنابته. فنفاه الوليد بأمر الخليفة عثمان إلى جبل دناوند المعروف بأرض السحرة. ومثل عمير بن ضابئ البرجمي الذى أوتره موت أبيه فى سجن الكوفة بأمر الوليد عقاباً له لسرقته كلب صيد ثمين من جيرانه وشتمه لهم بألفاظ.

وكان من الطبيعي ألا يتقبلوا سياسة الوليد الاجتماعية لأنه اختص بأعطياته طبقة العامة من أهل الكوفة مثل الإماء والولائد والموالي، رغم أنه لم ييخل على أحد بشيء حتى في غير حالات الضرورة الشخصية. مثلما فعل مع الشاعر لبيد بن ربيعة الذي عجز أخيراً عن الوفاء بعهد كان قد قطعه على نفسه منذ سنوات طويلة بالإنفاق على المعوزين أثناء موجات الجفاف والأزمات الطبيعية التي كانت تشهدها منطقة الكوفة. وقد أعطاه الوليد من ماله الخاص وليس من ديوان العطاء بالكوفة، كما أنه خاطب القادرين من على منبر المسجد الجامع بالكوفة أن "أعينوا أخاكم". بمعنى أنه لجأ لأسلوب التكافل الاجتماعي لعلاج مثل هذه الأزمات.

وما يدعو للدهشة، أن تعد إجراءات الوليد السابقة من جملة أخطائه، ليس فقط من خصوم الوليد (من هو "موتور في نفسه" و "نفر ممن قد عزل الوليد عن الأعمال")، بل أيضاً من بعض قدامى المؤرخين ومُحدّثيهم. مثلما قيل عن الإجراء المتخذ في مسألة حق الضيافة إنه تعبير عن اعتداد الوليد بقريشيته وبمكانته من الخليفة عثمان ورغبته في منافسة زعماء العشائر اليمنية الفخر والعز. وبعبارة أخرى، إن الوليد كان يحمل في طياته عصبية القبيلة وأرستقراطية الفاتح المنتصر "بل الحاكم المغرور". وهي مقولة لم نعتد بها، لأنها تعنى اتهام الوليد بن عقبة - ومن ورائه الخليفة عثمان - بالتناقض؛ إذ كيف يعتمد على العصبية اليمنية ذات الشوكة في عمليات الجهاد العسكري التي استغرقت فترة ولايته كلها، ثم هو يستفز زعماءهم على هذا النحو!!!؟

أما أعطياته للعوام، فقد اعتبرت ميلاً منه تجاههم بهدف اتخاذهم سلاحاً للدولة المعتدة دائماً بأرستقراطيتها القريشية كي تستخدمه في الوقت المناسب ضد طبقة الخاصة من زعماء العشائر الأخرى وبخاصة اليمنية.

وقيل عن صداقته للشاعر أبي زييد حرمة بن المنذر الطائي واستضافته بقصر الإمارة إنها بسبب رقة دين الاثنين، وإن اجتماعهما كان دائماً على سكر ومجون. وخاض المؤرخون قدامى ومُحدّثون في هذا الأمر بشكل بدوا معه أنهم يلتمسون العذر لخصوم الوليد فيما فعلوه بعد ذلك من تلصص على الشئون الخاصة للوليد ومغلاة في اتهامه. رغم أن العكس هو الصحيح؛ إذ كانت هذه العلاقة دليلاً على نجاح الوليد في عمله على صدقات

عرب الجزيرة من قبل الخليفة عمر بن الخطاب. فقد انتصر لأبى زيد في قضية ضد أخواله من عرب تغلب، فشكرها له أبو زيد ووطد علاقته به وأكثر من التردد عليه بقصر الإمارة بالجزيرة ثم بالمدينة المنورة وأخيراً بالكوفة. حيث كان يجمع بينهما حب الشعر ونظمه. ويكفى أن هذه المعاملة الكريمة قد أسفرت عن اعتناق أبى زيد للإسلام بعد أن كان نصرانياً.

وهكذا استمرت الأحداث ما بين خصوم يتربصون بالوليد، ومؤرخين يلتمسون لهم الأعذار. ولهذا لم يكن غريباً أن نرصد مواقف حادة أخذت في التصاعد حتى بلغت ذروتها بنجاحهم في عزله عن ولاية الكوفة على نحو مهين. ومما ساعد على غليان الأحداث، تلك القسّمات المشتركة التي بدأت تتضح بين جماعة المعارضة الطاعنين في حكم الوليد بالكوفة وجماعة السبئية الطاعنين في كفاءة الخليفة عثمان وولاته في الأقاليم. وقد لوحظ هذا التشابه العجيب بأوجهه الست من خلال نص فريد حفظه لنا البلاذري في أنسابه عن الإخباري الشيعي أبى مخنف لوط بن يحيى، وألقناه كضميمة بآخر الدراسة.

وقد سارت سياسة المعارضين في الإيقاع بالوليد بن عقبة في أكثر من محور: - محاولة إثبات فشله في الحكم لا سيما في قضية تتعلق بأمر من أمور الشرع الإسلامى، والتجسس على حياته الخاصة التماساً لنقطة ضعف ينفذون منها إليه، والتقول عليه بما وسعهم من جهد وإذاعة ذلك بين أهل الكوفة ليعم السخط ضده، وأخيراً محاولة استقطاب بعض الصحابة الأجلاء المقيمين بالكوفة ضده.

وكانت قضية الساحر بطرونى - أو مطروى - هى الفرصة التى لاحت لهم كي يحققوا أغراضهم. وهى فى الأصل قضية عادية حكم فيها الوليد بإعدام الساحر لفتوى الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود عامل خراج الكوفة ومعلم أهلها الحلال والحرام، بعد أن أقره على جريمته فاعترف ولم يتب. وأراد الوليد أن يكون الحكم عاماً بين الناس، وحدد موعداً لذلك. ولكن جماعة المعارضة سارعت بالتدخل عندما قتل أحدهم - ويدعى جندب بن كعب الأزدى من أزد اليمن - الساحر بنفسه كى يظهر الوليد بمظهر المتعاس عن تنفيذ حد من حدود الله. وأعطت جماعة المعارضة وكذا الروايات التاريخية

للعديد من قدامى المؤرخين ومُحدثيهم، بعداً درامياً لفعلة جندب، خاصة أن الوليد بن عقبة عمل بفتوى ابن مسعود بحبس القاتل جندب وأرسل يستفتي الخليفة عثمان في أمره. وحرصوا كذلك على تصعيد الأمر، فرفضوا قرار الخليفة عثمان بتجديد حبس جندب فترة أخرى تعزيراً له، وتحذير أهل الكوفة من تكرار فعلته، بل أرسلوا وفداً إلى المدينة المنورة لطلب عزل الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة. ولكن الخليفة عثمان رفض طلبهم وأقام الحجة الشرعية على خطأ مسلكهم وأمرهم بالرجوع إلى الكوفة والتزام الطاعة. فرجعوا عاقدين العزم بطريقة محمومة على إنجاح مسعاهم حيث "لم يبق موتور في نفسه إلا أتاها. فاجتمعوا على رأى فأصدروه".

وكانت من ثم شهادة الزور التي نجحوا من خلالها في إلصاق تهمة شرب الخمر بالوليد، تأسيساً بما حدث في حق الصحابي الجليل قدامة بن مظعون وإلى البحرين أيام الخليفة عمر بن الخطاب.

وبالنسبة لمحاولتهم استقطاب أحد الصحابة الأجلاء، فإن ذلك كان يسير وفق المخطط السبئي الذي اخترع أصحابه العديد من المواقف التصادمية بين كبار الصحابة وولاية الخليفة عثمان في الأقاليم (عبد الله بن مسعود مع الوليد بن عقبة بالكوفة، وأبو ذر الغفاري وأبو الدرداء مع معاوية بن أبي سفيان وإلى الشام، وهكذا...). وعلى حين فشلوا مع الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان شريك الوليد في فتوح الرى وأرمينية وأذربيجان انطلاقاً من أرض الكوفة، نجدهم يكثرون من ذكر اسم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود عامل خراج الكوفة كحجر عثرة ضد الوليد وضد تستر الخليفة عثمان على أخطاء واليه. وقد تم تفنيد كل هذه المواقف التصادمية التي افترضوا وقوعها بين ابن مسعود والوليد، ولوحظ أن اسم ابن مسعود قد استغل بهذه الكثافة لاختلافه بشكل حاسم مع الخليفة عثمان في قضية فقهية بحثة تعرف بحادثة نسخ المصحف الشريف، ولم يكن للوليد بن عقبة ولا لسياسته في إدارة شئون الكوفة أية علاقة بالأمر.

ثم جاءت الحلقة الأخيرة عندما نجحوا في إقامة الأركان القانونية لشهادة الزور ضد الوليد بن عقبة بأنه يشرب الخمر مطالبين بعزله وإقامة الحد عليه. وسبقوا ذلك بالتجسس على حياته الخاصة، بل اقتحموا عليه داره، مرة بشكل ظاهر وعلى وأخرى

بشكل مستتر ضمن مجموعة من السامرين، حتى انتزعوا خاتم الإمارة من مخدعه وقدموه للخليفة عثمان كدليل مادي. بمعنى أن نقطة الضعف التي نفذوا منها إلى الوليد لم تكن في أمر من أمور الحكم (سياسة أو اقتصاد أو إدارة... إلخ)، بل في طريقته في تمضية أوقاته الخاصة في منزله بعد ساعات العمل.

ولوحظ ذكاؤهم في التخطيط لهذه الشهادة، فهم في الكوفة يشنون حملة شعواء ضد الوليد أنه يجاهر بشرب الخمر بل يجعلونه يدخل المسجد الجامع بالكوفة للصلاة وهو سكران، ولا يدرى بمن شتمه أو عنفه، ثم يعود إلى منزله وهو يتهايل من شدة السكر ويتقيأ ما شربه عند دخوله مخدعه، أو يتقيأ في المحراب، حسبما صرحوا بذلك بين أهل الكوفة ليستعدوهم ضده. بينما في المدينة المنورة وأمام الخليفة عثمان، نراهم حذرين في انتقاء ألفاظ الشهادة والتركيز على أن الوليد رؤى سكراناً يتقيأ الخمر، ولم يذكروا رؤيتهم له وهو يشربها، كما لم يذكروا تهمة صلاته وهو سكران. وعندما أبطأ الخليفة عثمان في تنفيذ الحد على الوليد، بعد استدعائه من الكوفة وشهادتهم عليه أمامه، ريثما يدرس حال الشهود، نجدهم حذرين في طلب التنفيذ عندما أوعز أعوانهم بالمدينة إلى أحد أقرباء الخليفة بفتح الموضوع معه ونصحوه بالتلطف في الطلب، حسبما نفهم من رواية البخاري في صحيحه عن هذا الجزء من القضية. وهو أمر انتهى فعلاً بأن أمر الخليفة عثمان علياً بن أبي طالب - امتداداً لاستشارته في الأمر منذ بدايته - بأن يباشر تنفيذ الحد في الوليد أو يتتدب من يراه مناسباً لذلك. وأسدل الستار على هذه الواقعة بجلد الوليد أربعين جلدة، وكان السوط ذا رأسين فعدها البعض ثمانين، وعزل الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة.

ورغم هذا، فإن شبهات كثيرة أثirt حول المحاكمة بقصد اتهام الخليفة عثمان بالتحايل على الشهود لإرهابهم، وبالماطلة والتسويق في تنفيذ الحكم، وغير ذلك من اتهامات لتمييع موقف الخليفة عثمان وكذا الوليد بن عقبة أثناء محاكمته، مما ثبت بطلانه من خلال استعراض هذه الشبهات وتفنيدها جملة وتفصيلاً.

وكان لزاماً كذلك استعراض رد فعل الوليد إزاء تطور الأحداث على هذا النحو العجيب منذ اكتشافه سرقة خاتم الإمارة من مخدعه، وعند استدعائه إلى المدينة المنورة وسماعه شهادة الشهود ضده، ومحاولته الدفاع عن نفسه مؤكداً كذب الشهود وأنها

أصحاب أغراض خبيثة، وأخيراً اعتزاله منذ ذلك الحين الحياة العامة في منفاه الاختياري بضيعته الخاصة بناحية الرقة، ولكن بعد مقولته الحكيمة لأخيه الخليفة عثمان بن عفان "أبصرتنى اليوم بشهادة قوم، ليقتلنك عاماً قابلاً". وذلك رداً على إصرار الخليفة عثمان على إقامة الحد رغم اقتناعه بكذب الشهود، قائلاً: "نقيم الحدود، ويؤء شاهد الزور بالنار".

ملحق عن:-

وضوح الهوية السبئية على معتقدات وتحركات المعارضين للوليد بن عقبة وسياسته فى حكم الكوفة

وقال أبو مخنف فى إسناده:-

لما شاع فعل عثمان وسارت به الركبان، كان أول من دعا إلى خلعه والبيعة لعلى:- عمرو بن زرارة ابن قيس بن الحارث بن عمرو بن عداء النخعى، وكميل بن زياد بن نهيك بن هتيم النخعى ثم أحد بنى صهبان. فقام عمرو بن زرارة فقال:- أيها الناس، إن عثمان قد ترك الحق وهو يعرفه. وقد أغرى بصلحائكم، يولى عليهم شراركم .. فمضى خالد بن عرفطة بن أبرهة بن سنان العذرى - حليف بنى زهرة - إلى الوليد. فأخبره يقول عمرو بن زرارة واجتماع الناس إليه. فركب الوليد نحوهم. فقبل له:- الأمر أشد من ذلك، والقوم مجتمعون، فاتق الله ولا تسعّر الفتنة .. وقال له مالك بن الحارث الأشتر النخعى أنا أكفيك أمرهم.. فأتاهم، فكفهم وسكنهم وحذرهم الفتنة والفرقة، فانصرفوا. وكتب الوليد إلى عثمان بما كان من ابن زرارة. فكتب إليه عثمان:- إن ابن زرارة أعرابى جلف، فسيره إلى الشام .. فسيره .. وشيعه الأشتر والأسود بن يزيد بن قيس، وعلقمة بن يزيد وهو عم الأسود، والأسود أكبر منه. فقال قيس بن فهدان بن سلمة من بنى البداء من كندة يومئذ:-

أقسم بالله رب البيت مجتهداً أرجو الثواب به سراً وعلانية
لأخلعن أبا وهب وصاحبه كهدف الضلالة عثمان بن عفان

(عن البلاذرى :- أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٣٠).

oboeikan.com

**بيع وعتق رقاب الجاريات
في العصر الإسلامي
في ضوء نصوص البرديات العربية**

بقلم

سعيد مغاوري محمد

أستاذ الآثار والحضارة الإسلامية المساعد
رئيس قسم الإرشاد السياحي - كلية السياحة
جامعة المنوفية

oboeikan.com

بيع وعتق رقاب الجاريات في العصر الإسلامي في ضوء نصوص البرديات العربية

تمهيد:-

عرفت المصادر العربية الجارية بأنها الأمة لجريها مستسخرة في أشغال مواليتها، والأصل فيها الشابة لختها، ثم توسعوا حتى سموها كل أمة جارية وإن كانت عبوزاً لا تقدر على السعى تسمية بها كانت عليه، والجمع فيهما الجوارى^(١).

ومن ناحية أخرى أوضحت أيضاً بعض المعاجم العربية معنى كلمة (الرق) بمعنى المملوك وجمعها "رقيق"^(٢)، كما عرفها أيضاً صاحب "المصباح المنير" بقوله: "الرق بالكسر العبودية، وهو مصدر رق الشخص يرق من باب ضرب فهو رقيق، ويطلق الرقيق على الذكر والأنثى وجمعه أرقاء، وقد يطلق على الجمع أيضاً فيقال عبيد وليس في الرقيق صدقة أى في عبيد الخدمة"^(٣).

أيضاً أرى أنه من الضروري التمييز بين مصطلح "رقيق" أو "عبد" slave وبين مصطلح "قن" serf، وبالتالي بين مصطلح "عبودية" Slavery ومصطلح "قنانة" serfdom فالرقيق يرغم على القيام بعمل إجباري غير مشروع، تتفاوت مشقته وقسوته حسب رغبة سيده، وتربطه في أغلب الأحيان علاقة أبدية به، كما أن وضعه لا يسمح

(١) أحمد بن محمد المقرئ: المصباح المنير - طبعة مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٧م ص ٣٨.

(٢) الرازي (محمد بن أبي بكر الرازي): مختار الصحاح طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٤٥ هـ / ١٩٣٦م ص ٢٥٣.

(٣) المقرئ: المصدر السابق ص ٩٠.

له بأن يطالب بأن يوفر له قدر معقول من التأمين والحماية ضد هذا الاستخدام غير المشروع من جانب مالكه.

أما "القن" فهو حالة أنصاف الأحرار وأشباههم، أيضا ظهرت فروقا جوهرية بين الرقيق والقن، فالرقيق يتحول بالاسترقاق إلى مال يتصرف فيه مالكه، مثلما يتصرف في ممتلكاته فله أن يبيعه أو يؤجره، وأن يرهنه وأن يوصي به، وفي حالة وفاته تؤول إلى سيده ممتلكاته، إن كان يملك شيئا، كما تؤول إليه كذلك زوجته وأطفاله، فالرقيق لا يحصل على مقابل لخدماته، بل إنه في الشرائع القديمة "قبل الإسلام" كان يحرم من حقه في الحياة ومن حقه في الزواج، ولكنه كان يستكثر بالتوالد كالأنعام، ولم يكن نسله ينسب إليه، وإنما كان هذا النسل ينسب للسيد، على حين أن "القن" لم يكن مملوكا للمالك، ولا هو سلعة تباع وتشترى، كما أن له حقوقا وولايته على ممتلكاته الشخصية وكذلك على زوجته وأطفاله معترفًا بها، وإذا مات مالك الأرض التي يعمل فيها "القن" أو قام هذا المالك ببيعها، فإن الوريث أو المالك الجديد يملك الأرض ولا يملك "القن"^(١).

الرق في العصر الإسلامي

عرف العرب الرق قبل الإسلام وكان بعضهم يمارس تجارة الرقيق بنوعيه الأبيض والأسود، وكان الرقيق الأبيض عندهم مختلف الأجناس وإن كان أقل أهمية من حيث العدد من الرقيق الأسود. جدير بالذكر أن المتاجرة بالرقيق الأبيض عند العديد من القبائل العربية كانت لها جذورها القديمة، فقد كانوا يشترون السبي من العبرانيين^(٢) ويستوردونه من فلسطين، ثم ينقلونه إلى بلادهم للاستفادة منه فيتخذون الإماء الجميلات زوجات لهم والقويات للخدمة، ويكلفون الذكور من الرقيق بالأعمال المختلفة التي تحتاج إلى قوة وذكاء ومهارة وفن. ولعل الدليل على ذلك ما ورد في الإصحاح الثالث من التوراة في قوله: "وابيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهودا ليعبوهم للسبيين لأمة بعيدة، لأن الرب قد تكلم"^(٣).

(١) د. أحمد فؤاد بليغ: مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة - طبع المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة. ٢٠٠٣م ص ٣٠-٣١.

(٢) د. توفيق بن عامر: الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع - طبع كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - تونس ١٩٩٦م ص ٢٨.

(٣) التوراة - الإصحاح الثالث (٨) يوثيل.

جدير بالذكر أيضا أن العديد من القوافل التجارية العربية التي كانت تجوب بلاد اليمن والشام في رحلتى الصيف والشتاء التي وردتا في سورة (قريش) في قوله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ إِلَّا لَفْهُمُ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿١﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(١) صدق الله العظيم.

كانت هذه القبائل والوفود التجارية تعود بالعديد من الأسارى البيض من أصل فارسى أو رومى لتبيعهم في بعض المدن بالحجاز، وكانت هذه العمليات التجارية يمارسها تجار الرقيق، وذلك منذ قصة يوسف عليه السلام والتي كشفت عن بيع سيدنا يوسف ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾^(٢).

ولقد استمرت تجارة الرقيق إلى قبل ظهور الإسلام بسنوات قليلة، وقد ساعد على نشاط هذه السلعة دور قبيلة قريش التجارى آنذاك، حيث كانت تقوم بدور الوسيط التجارى بين البلدان الواقعة شمالى الجزيرة العربية وبين عرب الجنوب، كما كان للإمارات العربية الواقعة شمال الجزيرة العربية والمواليه للسلطة الفارسية والرومية مثل إمارة الغساسنة والمناذرة^(٣).

ولم يكن الرقيق الأبيض عند العرب قبل الإسلام من أصل عجمى فحسب، بل كان لديهم رقيق عربى الأصل ناشئ من غارات القبائل على بعضها بعضاً، وقد يكون لهذا الرقيق مصادر أخرى غير الغارات إلا أنه لا حجة لدينا على وجود استرقاق بسبب الديون أو على بيع الأطفال من قبل عائلاتهم سوى بعض الأخبار التي أوردها صاحب كتاب "الأغاني" والتي لا يمكن اعتبارها مستنداً قطعياً لأنه يوردها في سياق المعاملات التي كانت تعتبر مستكرهه^(٤).

أمثلة على الرقيق لدى العرب

من أبرز الأمثلة على وجود الرقيق الفارسى "الأبيض" لدى العرب - سلمان الفارسى وصهيب الرومى - فسلمان الفارسى كان من أهل أصبهان، وأن أباه كان دهان قريته،

(١) سورة قريش "القرآن الكريم".

(٢) القرآن الكريم - سورة يوسف. آية رقم (٢٠).

(٣) د. توفيق بن عامر: المرجع السابق ص ٢٨.

(٤) مقال للمستشرق برنشفيك Brunschvig عن "عبد" دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٢٥.

وتذكر الروايات التاريخية أنه انتقل إلى الشام، ثم اتصل بنفر من بنى كلب كانوا تجارًا فأعطاهم بقره وغنمه على أن يحملوه إلى بلاد العرب.

فكما وصلوا به إلى وادي القرى ظلموه وباعوه إلى يهودى من بنى قريظة فاشتراه منهم وحمله إلى المدينة المنورة^(١).

ومما يروى أيضا أن سألًا مولى أبى حذيفة بن عتبة .. أصله من إصطخر وكان مملوكًا لبشينة امرأة أبى حذيفة^(٢)، جدير بالذكر أيضا أن المناذرة بالحيرة كان لهم حظًا من هذا الرقيق، وكان فى قصورهم مغنون ومغنيات يجلبونهم ويغالون فى أسعارهم^(٣).

ومن ناحية أخرى أورد المؤرخ البلاذرى روايات تشير إلى وجود الرقيق الأبيض عند العرب، وذكر منهم الأزرق والدنافع بن الأزرق الخارجى، وقد كان عبدًا روميا حداثًا. كما أورد أيضًا ذكرًا لعبد رومى بالطائف يقال له عبيد تزوج سمية أمة الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب^(٤).

كما أورد ابن هشام فى سيرته ذكرًا لغلام كان رفيقًا لعتبة وشيبة ابنى ربيعة يقال له "عداس" وكان نصرانيًا من منطقة نينوى^(٥).

كذلك تشير بعض المصادر العربية إلى رواج القيان الروميات فى بلاط الغساسنة، وقد وصف حسان بن ثابت مجلسًا من مجالس جبلة بن الأيهم أيام كان أمير الغساسنة فقال: "لقد رأيت عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة أهدهن إليه إياس بن قبيص وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها .." ^(٦).

جدير بالذكر أيضا أن مكة المكرمة "بلد الله الحرام" كان بها عددًا لا بأس به من العبيد، حيث كانت بمكة المكرمة جالية من تجار الروم والأقباط يجلبون إليها عدة بضائع

(١) ابن هشام: سيرة ابن هشام طبع مصر سنة ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م ص ١٤٢.

(٢) جورجى زيدان: تاريخ المدن الإسلامى - الجزء ٤ ص ٢١.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ص ٢١٦.

(٤) البلاذرى: أنساب الأشراف ص ٤٨٩ - ٤٩٠ ..

البلاذرى، فتوح البلدان ج ١ ص ٦٥.

(٥) ابن هشام: المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٢.

(٦) الأصفهاني: الأغاني ج ١٦ ص ٢٦ طبعة بيروت سنة ١٩٥٦ م.

ومنها الرقيق وكانت تفرض عليهم الضرائب والعشور^(١)، وقد اتخذ بعض هؤلاء الروم موالى من أشرف مكة مثل: نسطاس مولى صفوان بن أمية ويوحنا مولى صهيب الرومى، وكان صهيب نفسه قد أسر بأرض الروم فاشترى منهم ثم أسلمهم^(٢). وتدل أخباره على وجود أمثاله من أسرى الروم عند العرب وعلى طريقة اقتنائهم^(٣). ويروى أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أطلق على صهيب الرومى "سابق الروم" كما أطلق على بلال الحبشى "سابق الحبشة". جدير بالذكر أن صهيب الرومى كان مولى لعبد الله بن جدعان حسب ما تذكره بعض الروايات وكان رجلاً أحرَّ شديد الحمرة، اشترته قبيلة كلب ثم باعته بمكة المكرمة^(٤).

أما بالنسبة للنساء، فهناك سمية أم عمار بن ياسر التى كانت مولاة لأبى حذيفة ابن المغيرة عم أبى جهل وقد قتلها أبو جهل بعد الإسلام فاعتبرت أول شهيدة فى الإسلام^(٥). ويذكر عنها أنها كانت تركية الأصل وقعت فى الأسر خلال الحروب التى دارت بين الترك والفرس، ثم طوحت بها الانتقالات إلى مدينة الطائف^(٦) فاستقرت بها فترة من الزمن قل أن تأتى إلى مكة المكرمة.

ولقد احتوت العديد من نصوص البرديات العربية وبعض أوراق الكاغد معلومات بالغة الأهمية عن بيع وعتق وتجارة الرقيق فى العصر الإسلامى - بداية من القرن الهجرى الأول حتى نهاية القرن الخامس - الحادى عشر الميلادى. أغلب هذه النصوص محفوظة فى العديد من المجموعات العالمية، وعبر هذه الدراسة سنتناول نماذج مختارة منها.

بيع وعتق الرقاب فى نصوص بعض البرديات العربية وأوراق الكاغد

هناك العديد من نصوص ووثائق عتق ورقاب الجاريات وكذلك أوراق الكاغد المعنية ببيع وشراء الجاريات والعبيد فى العصر الإسلامى خلال القرون الأولى للهجرة.

- (١) الأزرقي: أخبار مكة طبع مكة المكرمة ١٣٥٢ هـ ج ١ ص ١٠١، قطب الدين النهروالى: الإعلام بإعلام بيت الله الحرام تحقيق وستفلد Wustenfled طبع ليبزج leipzig سنة ١٨٥٧ م ص ٥٠.
- (٢) ابن هشام: المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٠ - طبعة القاهرة ١٩٥٥ م.
- (٣) د. توفيق بن عامر: المرجع السابق ص ٢٩.
- (٤) الذهبى: سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٠ - ١٦.
- (٥) السهيلي "أبو القاسم": الروضى الأنف ج ١ ص ٢٠٣.
- (٦) البلاذرى: أنساب الأشراف ص ٤٨٩.

من هذه الوثائق النادرة - ورقة كاغد محفوظة حاليا في متحف الفن الإسلامى بالقاهرة - تحمل رقم سجل (p.cairo, Mus.isl.21191)^(١) مؤرخة بشهر ربيع الأول سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م. أطولها ٣١ × ١٥ سم تكشف هذه الوثيقة استخدام الجاريات من منطقة القرم في آسيا إلى المنطقة العربية، وكذلك وجود وصف كامل لهذه الجارية (فهى سوداء إلى الحمرة)، ثم هى (معتدلة القامة) إلى غيرها من الصفات التى سيرد ذكرها في نص الوثيقة. أيضا ورد بالوثيقة معلومات عن سعر وبيع هذه الجارية ولقد وصل سعرها إلى (٢٥ دينارًا) - ثم يلاحظ وجود عدد (٧) شهود حضروا بيع هذه الجارية.

نص الوثيقة

١- وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، الحمد لله أسأله رحمة من عنده وتوفيقا .
ثبتت.

- ٢- بسم الله الرحمن الرحيم اشترت بمصر
- ٣- فاطمة ابنة نصر المنجج من أحمد بن عمران الطحان
- ٤- ساكن بالموقف بالطحانين جارية في يديه مقره له
- ٥- بالملك تدعا توفيق قومية سودا إلى الحمرة معتدلة
- ٦- القامة كشفا نايته الجبهة بلجا عينا فطسا غليظة
- ٧- الشفتين مثقوبة السفلى منها قصيرة الذقن منكسر
- ٨- الثمن خمسة وعشرين دينارًا معزیه الجعل منها تقابضا
- ٩- وتفرقا عن تراض منهما بيع الإسلام وعهدته طهارة
- ١٠- وسلامه برى البايع من سحاجة يديها ورجليها وشيب
- ١١- رأسها وقلع أضراسها وذلك يوم الخميس لثمان
- ١٢- خلون من شهر ربيع الأول سنة سبع وستين وثلثمائة
- ١٣- شهد بذلك أحمد بن سعد المعنى وعلى بن الغريب
- ١٤- وميمون بن نصر المؤدب وموسى بن اسحق الجوهري

١٥- وحجاج بن أحمد وخلف بن خلدون وعلى بن بشر الصفدي.

وثيقة رقم (٢)

هذه الوثيقة محفوظة في مجموعة (ميخائيل شارتا) برقم سجل (Cp.cam.Mich. ch.Bö48)، أطوالها ٥, ٥×١٢, ٥سم، يلاحظ أن نص هذه الوثيقة جاء خاليا من الأوصاف التي سبق ذكرها في الوثيقة السابق ذكرها. فلم يرد وصف جسمها ولا هيئتها وإنما ورد جنسها فهي (نوبية) - أو (عجمية)، ثم ورد ذكر سعرها وهو (٥, ١٦) دينار. أيضا ورد ذكر اسم السيدة التي اشترت هذه الجارية وهي سيدة اسمها (عالية ابنة الحسين).

نص الوثيقة

- ١- حسبي الله وكفى
- ٢- بسم الله الرحمن الرحيم
- ٣- هذا ما اشترى أبو
- ٤- عيسى بن محمد لعاليه
- ٥- ابنة الحسين بهاها
- ٦- وسمها من أحمد
- ٧- المغربي جارية سودا
- ٨- عجمية الثمن ستة
- ٩- عشر دينار ونصف
- ١٠- بيع البراه من كل عيب
- ١١- ظاهر وباطن وذلك
- ١٢- في شوال سنة
- ١٣- عشر والحق
- ١٤- لا جنون ولا غش ولا
- ١٥- دعوا ... فيه.

٢- وثيقة بيع جارية سوداء نوبية

هذه الوثيقة النادرة محفوظة حالياً فى مجموعة (لوند) بفرنسا برقم سجل (p.lond.inv.oV.4684) أطوالها ٢٦ × ٢١ سم كشفت هذه الوثيقة معلومات عن شراء بعض الأقباط للجاريات وفق شريعة الإسلام، مع وجود عدد (٤) شهود مسلمين على عقد بيع هذه الجارية النصرانية ووصفت بأنها "وصيفة عجمية".

نص الوثيقة

- ١- بسم الله الرحمن الرحيم
- ٢- هذا ما اشترى مينا بن جرجة التطونى من عيسى بن إسماعيل الأوابى المزنى
- ٣- (اشترى منه وصيفة) سودا نوبية عجمية بثلاثة عشر ديناراً معسولة
- ٤- (عز) يزيه وتضمن عيسى بن إسماعيل لمينا بن جرجة لا نهب ولا سرقة
- ٥- بيع المسلم من المسلم لا [عدة فيه ولا] شرط قبض عيسى بن (إسماعيل).
- ٦- من مينا بن جرجة جميع الثمن تاماً وافياً وهى ثلاثة عشر ديناراً وقبض مينا بن جرجة
- ٧- هذه الوصفية العجمية وهى يوم ايز نصرانية وذلك يوم السبت
- ٨- لسبع ليل خلون من شهر رمضان الجارى فى سنة اثنين وسبعين وثلثماية
- شهد إبراهيم بن هرون بن حسان على إقرار البائع والمشتري بجميع ما فيه وكتب بخطه
- ٩- شهد على بن رزق بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب بخطه
- ١٠- شهد عبد الصمد بن يونس (بجميع ما فى) هذا الكتاب وكتب بخطه
- ١١- شهد عبد الرحمن بن المبارك بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب بخطه.

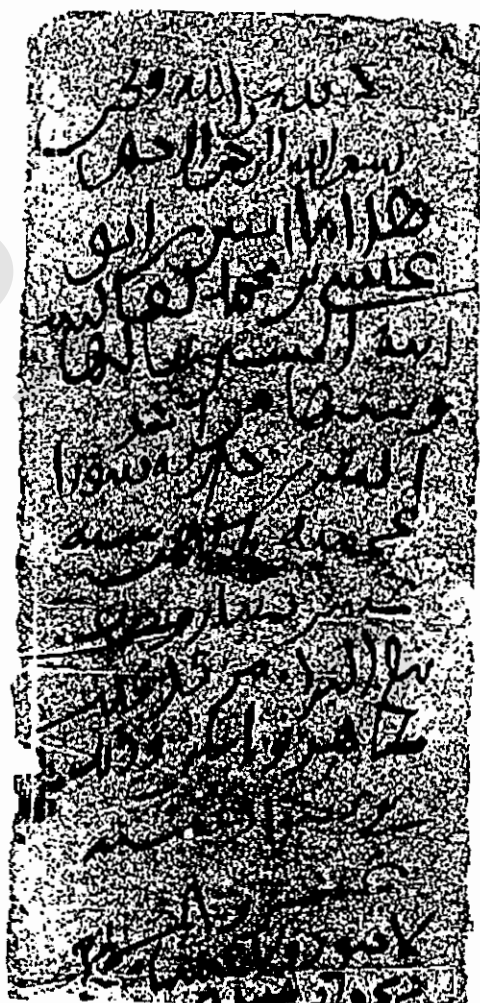
٤- وثيقة عتق رقبة جارية نصرانية

هذه الوثيقة النادرة محفوظة حالياً فى دار الكتب المصرية بالقاهرة - مؤرخة فى شهر رمضان سنة ٣٩٣ هـ..

نص الوثيقة

- ١- هذا الكتاب صحيح وكتب إبراهيم بن
- ٢- بسم الله الرحمن الرحيم توكلت على الله
- ٣- تقول أسطور هيوه ابنت سرجه بن أبليده فى صحة عقلها و

- ٤- بدنھا وجواز أمرھا طایعہ غیر مکرہ ولا مجبرہ طیبہ
- ٥- بذلك نفسها صحیحة البدن كاملة العقل أنها اعتقت
- ٦- صفراء بالعربية واسمها بالقبطية دجاشه ابنت
- ٧- أرنيه جارية أسطور هیوه اعتقت هذه الصبية
- ٨- عتاقة العبيد من موالیهم وملكت نفسها فمتا إدعا
- ٩- ولد لاسطور هیوه أو أحد من تركتها على هذه الصبية
- ١٠- دجاشه بشيء بعد هذا الكتاب بشيء من الخدمة أو شيء
- ١١- من المملكة فدعواه باطل وزور وإفك وعدوان
- ١٢- وكتب ذلك في سلخ رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة
- ١٣- شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيدا
- ١٤- شهد الحسن بن إبراهيم بن علی بن جبریل بن الحسن بن رائق
- ١٥- بجميع ما في هذا الكتاب وكتب بخطه
- ١٦- شهد عبد الرحمن بن الشارك بجميع ما في هذا الكتاب وكتب بخطه
- ١٧- شهد فضالة بن علی بجميع ما في هذا الكتاب وكتب
- ١٨- بخطه.



لوحة رقم (٢)

تاريخ إقليم الأشمونين في العصر الإسلامي في ضوء البرديات العربية

التي عثر عليها واكتشفت في مدينة أشمون
والأعمال والمدن والبلدان والقرى الأشمونية

بقلم

أحمد فؤاد سيد

oboeikan.com

التعريف بمدينة أشمون أو الأشمونين وإقليمها أو كورتها

أَشْمُون : ويقال أَشْمُون، وأهل مصر يقولون : الأَشْمُونين، والنسبة إليها الأَشْمُونِي . قال ياقوت : وهى مدينة أزلية عامرة، أهلة إلى هذه الغاية (ق ٧هـ)، وهى قصبة (عاصمة) كورة (إقليم) من كور (أقاليم) الصعيد الأدنى، غربى النيل، ذات بساتين ونخل كثير . ووصفها المقرئى بأنها "كانت من أعظم مدن الصعيد" .

سميت - كما ذكر الجغرافيون العرب القدماء، والمؤرخون المصريون القدماء، والمؤرخون اليونان والرومان الكلاسيكيون - باسم عامرها، وهو أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح . قالوا : قسم مصر بن بيصر نواحي مصر بين ولده، فجعل لابنه أشمون من أشمون فما دونها إلى منف فى الشرق والغرب، وسكن أشمون أشمون فسميت به .

أما علماء المصريات والتاريخ الفرعونى المحدثين، فذكروا أن مدينة الأشمونين، من المدن المصرية القديمة، وأن اسمها الدينى القديم Hat Khmounou، وكانت هى المركز العام لديانة الإله توت، المسمى خمنون، ومن اسم هذا الإله، سميت المدينة بالقبطى Chmoun، ومنها اسمها العربى أشمون، وأن اسمها المدنى أونو، واسمها الرومى هرموبوليس مجنا Hermopolis Magna ، وكانت قاعدة القسم الخامس عشر بالوجه القبلى، فى زمان الرومان .

والراجح لدينا، أن الإله خمنون، الذى كانت مدينة أشمون هى المركز العام لديانته، هو نفسه الملك القبطى القديم أشمون، الذى نسبت إليه المصادر القديمة، بناء وعمارة

وسكنى أشمون، فنسبت إليه، وهو أمر شائع في تاريخ الأمم الوثنية القديمة، في تأليه أجدادهم وملوكهم الأوائل .

وإقليم الأشمونين، من الأقسام الإدارية القديمة العهد، وقد كانت مدينة الأشمونين، قاعدة لقسم أونو في زمن الفراعنة، ثم قاعدة لكورة الأشمونين في عهد العرب، ثم قاعدة لأعمال الأشمونين من أيام الدولة الأيوبية إلى آخر أيام دولة الجراكسة، ثم قاعدة لولاية الأشمونين في العهد العثماني . وفي سنة ١٢٤١هـ = ١٨٢٦م، صدر أمر من الوالي العثماني، بتسمية ولاية الأشمونين باسم مأمورية أسيوط، وجعلت مدينة أسيوط قاعدة لهذه المأمورية، وبذلك حذف اسم الأشمونين من الأقسام الإدارية بمصر، وأصبحت الأشمونين، قرية من قرى مركز ملوى بمديرية أسيوط . وقد دثرت مدينة الأشمونين القديمة، ومكانها لا يزال ظاهرًا في التل الواقع بجوار سكن بلدة الأشمونين الحالية، بمركز ملوى، بمحافظة أسيوط^(١) .

(١) انظر عن تاريخ مدينة الأشمونين القديم، كما أرخ له المؤرخون المصريون والعرب القدماء (ابن عبد الحكم - المسعودي - ابن وصيف شاه المصري - المقرئزي)، والمؤرخون اليونان والرومان الكلاسيكيون (هروشيوس)، عند ابن عبد الحكم القرشي المصري (ت ٢٥٧هـ) : كتاب فتوح مصر وأخبارها، تحقيق شارل تورى، طبع مطبعة جامعة يل، نيوهافن، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٢١م، ص ٨-١٠ (ذكر نزول القبط بمصر، وسكنائهم بها)؛ المسعودي (ألف كتابه بمصر سنة ٣٣٣هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٦م، ج ٢، ص ٨٥ خبر ٨٠٧؛ ياقوت الحموي (توفي ٦٢٦هـ) : كتاب معجم البلدان، نشره فردناند فستفيلد، طبعة لايسك، ١٨٦٦م، (ج ١-٨)، المجلد الأول، ص ٢٨٣، مادة "أشمون"؛ تقى الدين المقرئزي (توفي ٨٤٥هـ) : كتاب الخطط المقرئزية، طبع بمطبعة النيل بمصر، ١٣٢٤هـ (ج ١-٤)، ١ : ٣٨٥ (ذكر مدينة الأشمونين)؛ و١ : ٢٨-٣٥ (ذكر اشتقاق مصر ومعناها وتعدد أسماؤها)؛ وراجع :

Rocder (G.), Hermopolis 1929-1939 (Heldesheim) 1959, P.7.

وراجع آمال الروبي : الأشمونين (هيرموبوليس مجنا) في العصر الروماني، رسالة ماجستير، أجزيت من كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٢م؛ وراجع محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد القدماء المصريين، إلى سنة ١٩٤٥م، القسم الأول، البلاد المندثرة، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٣ - ١٩٥٤م، القسم الثاني، الجزء الثالث، ص ١٧ (إقليم الأشمونين)؛ الجزء الرابع، ص ٥٩-٦٠ (مدينة الأشمونين) .

ونسب إلى الأشمونين في العصر الإسلامي، جماعة من العلماء، في العلوم الدينية الشرعية التقليدية الإسلامية، منهم أبو إسماعيل ضمام بن مالك الماعفري، ثم الناشري الأشموني، ولد بأشمون سنة ٩٧هـ، وتوفي بالإسكندرية سنة ١٨٥هـ؛ وهجنج بن قيس الحارثي الأشموني، يروي عن حوثر بن مشهر، وعن حذيفة بن اليمان، وروى عنه عبد العزيز بن صالح، وسعيد بن راشد، المصريان. قال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي المصري في كتابه "تاريخ علماء أهل مصر" وكان - يعني هجنج - يسكن الأشمونين من صعيد مصر، وأحسبه من ناقلة الكوفة" مما يدل على أن إقليم الأشمونين، كان منذ الربع الأخير من القرن الأول الهجري، مركزاً لنشر الإسلام والثقافة العربية بالديار المصرية، على يد أبناء القبائل العربية التي شهدت فتح مصر^(١).

ومنذ نهاية القرن الأول الهجري، أو مستهل القرن الثاني الهجري، نزلت بطون قبيلة قريش إقليم الأشمونين، حتى صار هذا الإقليم يعرف ببلاد قريش، والطريف أن البطون الهاشمية القرشية، قد تجاوزت وتحالفت في بلاد الأشمونين، مع البطون الأموية المروانية القرشية، التي استوطنت الأشمونين، على ما بين بنى أمية وبنى هاشم، من نزاع وتخاصم على الخلافة؛ فيقول المقريزي: "وكان ينزل بأرض الأشمونين، عدة بطون من بنى جعفر ابن أبي طالب رضى الله عنه، وكانوا بادية أصحاب شوكة؛ وكان معهم بنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان، حلفاء لهم؛ ومعهم بطن آخر، يقال لهم بنو عسكر، ويقال إن أباهم كان مولى لعبد الملك بن مروان، ويزعمون أنهم من بنى أمية؛ وكان معهم أيضاً، حلفاء

(١) عن العلماء الذين نسبوا إلى مدينة الأشمونين في العصر الإسلامي، انظر أبو سعد السمعاني (ت ٥٦٢هـ): كتاب الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، (ج ١-٥)، طبع دار الجنان - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج ١، ص ١٦٩، مادة "الأشموسى" و"الأشمونى" حيث جعل السمعاني هاتين النسبتين، إلى بلدين تحت نسبة الأشمونى، وترجم لعالم آخر من علماء أشمون، تحت نسبة الأشمونى؛ فيبدو أن الأمر اختلط على السمعاني، لأنه ليس من أهل مصر، فليس ثمة بلدة في صعيد مصر تدعى أشموس، والعلمان اللذان ترجم لهما في مادتي "الأشموسى" و"الأشمونى" كلاهما من علماء وأهل أشمون، المنشوين إليها، كما أفاد ياقوت الحموى، في كتابه معجم البلدان، مادة أشمون؛ وانظر أيضاً كتاب الأنساب للسمعاني، مادة "الأسيوطى"؛ وانظر كذلك كمال الدين الأذفوى (ت ٧٤٨هـ): كتاب الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، مراجعة الدكتور طه الحاجري، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مجموعة تراثنا، سنة ١٩٦٦م.

لهم، بنو خالد بن يزيد بن معاوية، ينزلون دلجة، عند "أشمون". "أما بنو مسلمة، فكانت مساكنهم مع قومهم بنى أمية، بتندة وما حولها من بلاد الأشمونين". ومن أشراف البيوتات القرشية التي استوطنت أيضًا الأشمونين: بنو طلحة: وهم بنو طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، نزلوا طحا المدينة بالأشمونين؛ وبنو بدر وهم بطن من الزيريين، بنى الزير بن العوام رضي الله عنه، نزلوا إقليم الأشمونين وإقليم البهنسة المجاور له في شماله؛ وبنو زهرة، بطن من قريش، منهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، ذكر منهم جماعة ببلاد الأشمونين وما حولها من صعيد مصر.

وقد أدى نزول القبائل العربية - بصفة عامة - بريف مصر وقراها، واستيطانهم وأهاليهم فيها، واتخاذهم الزرع معاشًا وكسبًا، في القرنين الثاني والثالث الهجريين، إلى غلبة العروبة والإسلام على أقاليم الديار المصرية، إذ فشا الإسلام في القبط، وانقاد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام؛ خاصة بعد أن تزوج العرب من بنات القبط، واختلطت أنساب القبط بأنساب المسلمين؛ وظهر تدريجيًا الشعب المصرى العربى المسلم، الذى يدين أغلبه بالإسلام، ويتكلم جميعه اللغة العربية، ويبدو أن إقليم الأشمونين، كان من أوائل وأهم الأقاليم المصرية، التى شهدت هذه الظاهرة^(١).

(١) عن نزول قبيلة قريش بلاد الأشمونين حتى صارت تعرف بـ "بلاد قريش"؛ انظر المقرئى : كتاب الخطط المقرئى ١ : ٣٨٥ (ذكر مدينة الأشمونين)؛ المقرئى أيضًا : كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، مع دراسة في تاريخ العروبة في وادى النيل، تحقيق وتأليف دكتور عبد المجيد عابدين، الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٣٢-٤٣، وص ٤٦-٤٧؛ انظر أيضًا أبو العباس الفلقشندي (ت ٨٢١هـ) قلائد الجبان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الإيبارى، القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، ص ١٣٧ - ١٦٦ (ذكر قبيلة قريش)، وخاصة ص ١٥١-١٥٣؛ وانظر كذلك، الفلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الإيبارى، الطبعة الأولى، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٣٩٧-٣٩٨ (بنو قريش)؛ وص ١٧٤ (بنو بدر)، وص ٢٧٥ (بنو زهرة)؛ وص ٣٢٤ (بنو طلحة)؛ وص ٣٢٠ (بنو ضمرة)، وص ٤٠٩ (بنو كنانة)، وص ٧١-٧٢ (بنو الليث)، وص ٢٢١-٢٢٢ (بنو جهينة)؛ إذ جاورت قبيلة قريش، ببلاد الأشمونين، قبيلتا : جهينة وبلى، من القبائل القضاعية القحطانية، وقبيلة = كنانة، وبنو الليث من كنانة، من قبيلة كنانة ابن خزيمة من القحطانية . وانظر أيضًا المقرئى : الخطط المقرئية ١ : ١٢٨-١٣١ (ذكر نزول العرب بريف مصر، واتخاذهم الزرع معاشًا)؛ و١ : ١٣١-١٤١ (ذكر قبالات أراضى مصر، بعدما فشا الإسلام في القبط، ونزول العرب في القرى)؛ و٤ :

وأخبرنا الكندى في كتابه "ولاية مصر"، أن بلاد الأشمونين - نظرًا لغلبة بطون قبيلة قريش عليها، منذ الربع الثاني من القرن الأول الهجري على الأرجح، بفرعها الأعظمين : بنى هاشم، وبنى أمية، وتحالفهما ببلاد الأشمونين، رغم قدم النزاع والتخاصم بين هذين البيتين القرشيين العريقين - ظلت بلاد الأشمونين ملاذًا وملجأ لخلفاء وأئمة ودعاة بنى أمية وبنى هاشم بمصر في آن واحد؛ فإليها لجأ الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، عند سقوط دولة الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ، وحاول أن يجد فيها عصية قرشية تؤيده هو وجيوشه بمصر، في صراعه مع مطارديه من عساكر دولة الخلافة العباسية الناشئة؛ إلى أن قتل الخليفة مروان، ببوصير من كورة الأشمونين في نفس هذه السنة، وفر أغلب من كان في صحبته ومعيته من أمراء البيت المرواني الأموي إلى بلاد الأندلس .

ومن ناحية أخرى - وبعد ذلك بفترة من الزمن، أضحت بلاد الأشمونين، ملاذًا وملجأ وقاعدة لأغلب الحملات العسكرية، والانقلابات السياسية، التي دبرها الخلفاء الفاطميون، وهم لا يزالون في عاصمتهم المغربية مدينة المهديّة بتونس، من أجل فتح مصر، وانتزاعها من يد خلفاء بنى العباس وولاتهم وأمرائهم عليها، ونقل مقر وعاصمة الخلافة الفاطمية من الديار التونسية، إلى الديار المصرية . على نحو ما حدث في سنوات ٢٥٣هـ - ٢٥٩هـ في الانقلاب الذي قام به الإمام العلوي الذي عرف بابن الصوفي، حيث أعلن خروجه على الخلافة العباسية بمدينة أسوان بأقصى صعيد مصر، وجمع أشياعه وجيش جيوشه، من أسوان وإسنا والأشمونين . وعلى نحو ما حدث في سنوات

٢٦ و ٢٩ = (ذكر المسجد الجامع - ذكر محارب مصر) . وقد أيدت هذا كله أيضًا، البرديات العربية الديوانية الرسمية الحكومية الإدارية الخراجية، والبرديات القضائية الرسمية، التي عثر عليها بمدينة الأشمونين وأعمالها، وهي تمتد من مطلع القرن الأول الهجري، حتى القرن الخامس الهجري؛ راجع أدولف جروهمان : أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ومراجعة عبد الحميد حسن، السفر الثالث، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٢م، ص ٩٢-٩٤، وثيقة رقم ١٦٨؛ السفر الأول، ص ٢١٣-٢٢٠، وثيقة رقم ٦٨، وص ٢٢٠-٢٢٣، وثيقة رقم ٦٩؛ راجع أيضًا :

Khoury (R. G.)- Grohmann (A.), *Chrestomathir De Papyrologie Arabes (Documents relatifs a la vie privé, sociale et administrative dans les premiers siècles islamiques)*, EJ. Brill, Leiden. New York. Koln (1993), PP. 123-124, No. 67., PP. 137-138, No. 77.

٣٠٦هـ - ٣٠٨هـ، بالنسبة للجيش الذي جهزه الخليفة المهدي الفاطمي، وأمر عليه ابنه وولى عهده والخليفة من بعده، الإمام أبو القاسم محمد القائم؛ فأخذ الإسكندرية، وملك جزيرة الأشمونين كلها، وكثيراً من صعيد مصر، وكانت هناك حروب مع عساكر مصر والعراق، ثم عاد إلى المغرب. وعلى نحو ما حدث في سنة ٣٣٦هـ، حين حاول غلبون والى حرب إقليم الأشمونين، خلع طاعة خلفاء بني العباس وولاتهم وأمرائهم بمصر، وتدبير انقلاب عسكري بمدينة الفسطاط ذاتها، اعتماداً على دعاة وشيعة الفاطميين بها آنذاك^(١).

وقد عنى الجغرافيون المسلمون، الذين زاروا مصر، بوصف مدينة الأشمونين، وموقعها الجغرافي، ومواردها الطبيعية الزراعية والحيوانية، وما اشتهرت به من نشاط تجارى وصناعات؛ فذكروا أنها من مدن مصر العظام، ومن أهم مدن صعيد مصر، وذكروا لها كورة (إقليم)، قائمة بذاتها من أقاليم مصر، عرفت باسم كورة الأشمونين؛ وأفادوا أن قصبته (عاصمتها)، مدينة صغيرة حسنة عامرة، بها جنات وبساتين، ونخيل وزروع، وضروب من الحبوب والفواكه والنعم السابعة؛ ويعمل بها ثياب معروفة كثيرة؛ وبها فرمة الخيل والدواب والبغال.

وبينت كتب الخطط المصرية، وكتب قوانين الدواوين المصرية وصناعة خراج مصر، وكتب الأقسام الإدارية والزمومات المالية للأقاليم والبلدان المصرية في العصر الإسلامي، الأهمية المالية والإدارية والعسكرية لكورة (إقليم) الأشمونين؛ فأفادت أنها كانت من أكبر كور (أقاليم) مصر اتساعاً، وأكثرها قراراً عامرة، ذات زمومات مالية؛ فذكر المقرئى، أنه كان فيها مائة وثلاثون (١٣٠) قرية؛ ونقل عن القضاعي في كتابه خطط مصر - الذى

(١) عن التاريخ السياسى لكورة الأشمونين، وأنها كانت ملاذاً لخلفاء بنى أمية، وخلفاء الفاطميين، وأئمة ودعاة العلويين، فى آن واحد، فى القرون الأربعة الأولى للهجرة، قبل قيام دولة الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٣٥٨هـ، انظر أبو عمر الكندى (ت ٣٥٠هـ) : كتاب ولاة مصر، تحقيق رقت كست، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٠٨م، ص ٩٣-٩٧، حوادث سنة ١٣٢هـ؛ وص ٢١٣-٢١٤، حوادث سنة ٢٥٣هـ - ٢٥٩هـ، وص ٢٧٧، حوادث سنة ٣٠٦هـ - ٣٠٨هـ؛ وص ٢٩٥-٢٩٦، حوادث سنة ٣٣٦هـ؛ وانظر أيضاً تقى الدين المقرئى : كتاب الخطط المقرئية، ج ٤، ص ١٥٣-١٥٥ (ذكر مذاهب أهل مصر)؛ وج ٢، ص ١٦٢-١٦٣؛ (ذكر الخلفاء الفاطميين)، وخاصة ص ١٦٣ س ٢-٤.

ألفه في عصر دولة الخلافة الفاطمية بمصر (قرن ٤-٦هـ)، أن الصعيد قسم في عصره إلى ٢٨ كورة (إقليم)، ذكر منها "كورتا الأشمونين، وأسفل أنصنا وأعلاها، وشطب قوص فام"؛ ثم ذكر المقریزی أن الذي استقر عليه الحال في دولة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (قرن ٨هـ)، أن الوجه القبلي ستة أعمال، منها "عمل الأشمونين، وبها الطحاوية". أما ابن الجيعان (قرن ٩هـ)، فقد وصف الأشمونين بأنها "مدينة أعمال الأشمونين"؛ في حين وصفها ابن دقماق (قرن ٨٩هـ)، بأنها "مدينة الإقليم، وبها إقامة متولى الحرب السعيد"؛ ولعل في هذا، إشارة إلى الأهمية الحربية لمدينة الأشمونين، في عصر دولة المماليك الجراكسة^(١).

(١) عن الجغرافيين المسلمين، وكتب الخطط المصرية، وكتب قوانين الدواوين المصرية وصناعة خراج مصر، وكتب الأقسام الإدارية والزمومات المالية للأقاليم والبلدان المصرية في العصر الإسلامي؛ التي تكلمت عن إقليم الأشمونين ومدينته، انظر ابن واضح اليعقوبى البغدادى (ت ٢٩٢هـ) : كتاب البلدان، طبع في مدينة ليدن، بمطبعة بريل ١٨٩١م، بعناية دى غوية، ص ٣٣١؛ أبو القاسم ابن خرداذبة البغدادى (ت نحو ٢٨٠هـ) : المسالك والممالك، طبع في مدينة ليدن، بمطبعة بريل، ١٨٨٩م، بعناية دى غوية، ص ٨١-٨٤ (ذكر كور مصر)؛ أبو إسحاق الأصبخري المعروف بالكرخي (ت ٣٤٦هـ) : كتاب المسالك والممالك، طبع ليدن، بمطبعة بريل، ١٩٢٧م، ص ٥٣ (ذكر ديار مصر)؛ شمس الدين المقدسى البشارى (ت نحو ٣٨٠هـ) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع ليدن، بمطبعة بريل، ١٩٠٦م، بعناية دى غوية، ص ١٩٣-٢١٥، (إقليم مصر)، وخاصة ص ١٩٣-١٩٤؛ أبو عبد الله الهمدانى المعروف بابن الفقيه (ت ٣٦٥هـ) : مختصر البلدان، طبع بمدينة ليدن، بمطبعة بريل، ١٣٠٢م - ١٨٨٥م، بعناية دى غوية (ذكر مصر)؛ أبو القاسم بن حوقل البغدادى الموصلى (ت ٣٦٧هـ) : المسالك والممالك؛ أو صورة الأرض، طبع بمدينة ليدن، بمطبعة بريل، ١٩١٧، بعناية دى غوية، (إقليم مصر)؛ ناصر خسرو المروزي (ت حوالى ٤٨١هـ) : سفرنامه، نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه يحيى الخشاب، مطبوعات معهد اللغات الشرقية، كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، الطبعة الأولى، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م، ص ٧١ (وصف مصر)؛ ابن حبير الأندلسى (ت ٦١٤هـ) : رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، الطبعة الأولى، ص ٢٧-٣٧؛ أبو عبد الله الإدريسي الحسنى الطالبي، المعروف بالشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ) كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (المجلد ١-٢)، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، القاهرة، د.ت ص ١٢٤-١٣٠ (ذكر مصر)، وخاصة ١٢٤-١٢٥؛ أبو عبد الله اللواتى الطنجى، الشهير بابن بطوطة (ت ٧٩٩هـ) : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة، طبع دار صادر - دار بيروت، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م؛ ص ٢٠-٥٤، وص ٢٨١-٢٨٢ (ذكر مصر)، وخاصة ص ٢٨١-٢٨٢. وقارن : القاضى الأجل أبو الحسن المخزومى ثم المصرى (ت ٥٨٥هـ) : كتاب المنهاج في صناعة خراج مصر، مخطوطة بمكتبة المتحف البريطانى بلندن رقم Add ٢٣٤٣، ونشر منه مختارات، كلود كاهين، المعهد

وجائد البرديات العربية، التي عثر عليها

واكتشفت في مدينة أشمون، والأعمال والمدن والبلدان والقرى الأشمونية

وتعد مدينة الأشمونين وأعمالها، من أهم المدن والأقاليم المصرية، التي عثر بها على كميات ضخمة من وثائق البردى العربى، التي ترجع إلى عصور مصر الإسلامية المختلفة. وقد تفرقت وثائق البردى العربى التي عثر عليها بالأشمونين، في عدة مكتبات ومتاحف عالمية؛ أهمها : دار الكتب المصرية بالقاهرة، ومجموعة الأرشيدوق ريز بمكتبة البريتينا بفيينا، ومكتبة جون ريلاندز بمانشستر، ومكتبة هايدلبرج بألمانيا^(١).

ومن الممكن تصنيف وثائق وأوراق البردى العربى، التي عثر عليها في أطلال مدينة الأشمونين القديمة وكمياتها الأثرية، إلى خمس مجموعات :

الفرنسى للأثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٦م؛ أبو المكارم الأسعد بن ممتى المصرى (ت ٦٠٦هـ) : قوانين الدواوين، حققه عزيز سوريال عطية، القاهرة، الجمعية الملكية الزراعية، ١٩٤٣م، الباب الثالث، (في ذكر جملة أعمال مصر، وتفصيل نواحيها، وتحقيق أسماء ضياعها، وكفورها وجزائرها ومدنها، وكل ما يقع عليه اسم الديوان منها، وذلك على حروف المعجم) حيث سجل ابن ممتى أسماء النواحي الإدارية والمالية في عصر سلاطين بنى أيوب، بعد مسح السلطان صلاح الدين الأيوبي، لأراضى مصر الزراعية، وهو ما عرف بالروك الصلاحى؛ مؤلف مجهول (ق ٧هـ) : كتاب تحفة الإرشاد، مخطوط، الجزء الأول منه بمكتبة الجامع الأزهر، والجزء الثانى منه بمكتبة المعهد العالى بدمياط، وهو تسجيل لأسماء النواحي الإدارية والمالية لمصر في العصر المماليكى، بعد الروك الحسامى الذى قام به السلطان حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧هـ؛ شرف الدين بن الجيعان ت. ٨٥٨ هـ، مستوفى ديوان الجيش للملك الأشرف قايتباى : "كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية"، ألفه سنة ٨٨٣هـ طبع دار الكتب المصرية، سنة ١٨٩٨م، بعناية مورتز، وهذا الكتاب هو آخر إحصاء رسمى للبلاد المصرية في عهد حكومة المماليك؛ وانظر أيضاً، تقى الدين المقرئى : الخطط المقرئية، ج ١، ص ١١٦-١١٩ (ذكر أعمال الديار المصرية وكورها)، و١ : ٢١-٢٢ (ذكر محل مصر من الأرض وموضعها من الأقسام السبعة)، و١ : ٣٥١ (ذكر صعيد مصر)، و١ : ٣٢٩ (ذكر ملوى)، و١ : ٣٢٩-٣٣٠ (ذكر مدينة أنصنا)، و١ : ٣٣١ (ذكر دروط بلهاسة)، و١ : ٣٣١-٣٣٢ (ذكر منية الخصيب)، و١ : ٣٨٥ (ذكر مدينة الأشمونين)، وقارن أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذرى (ت ٢٧٩هـ على الأرجح) كتاب فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٦م، ص ٢٥٤، خبر ٥٣٨ .

(١) عن وثائق البردى العربى، التي عثر عليها بمدينة الأشمونين، وما نشر منها، راجع عائشة عبدالرحمن: تقرير عن أوراق البردى العربية المحفوظة بمكتبة البريتينا بالنمسا، طبع القاهرة ١٩٦٦م، ص ٤، و٧، و٨، و٩، و١٠، و١١ .

المجموعة الأولى : وهى الخاصة بدار الإمارة، أو ديوان الخراج المحلى لإقليم الأشمونين؛ وجميع بردياتها وثائق ديوانية رسمية حكومية إدارية خراجية، كتبت بخط ديوانى جميل، بخطوط كتاب مهرة متمرسين محترفين من كتبة الدواوين؛ وعليها أسماء عدد وافر من ولاية صلاة وحرب وخراج مصر، فى عصر خلفاء بنى أمية، وخلفاء بنى العباس؛ وأقدمها يرجع إلى عصر الخلافة الأموية، ومؤرخ سنة ١٠٢ هـ؛ وأحدثها يرجع إلى القرنين الرابع والخامس الهجريين، من عهد الدولة الإخشيدية بمصر، أو دولة الخلافة الفاطمية بمصر . وقد أفادت هذه البرديات، أن كورة (إقليم) الأشمونين، قد انقسمت فى القرنين الأول والثانى الهجريين، إلى قسمين : كورة الأشمونين العليا، وكورة الأشمونين السفلى؛ كما أفادت انضمام كورتى : أعلى أنصنا، وأسفل أنصنا، إلى كورة الأشمونين فى هذين القرنين؛ وإلى انضمام كورتى : قوص، وطحا، إلى كورة الأشمونين، فى بعض الأحيان؛ وهو أمر ألمح إليه المقرئى، عند ذكره لكور مصر وأعمالها؛ كما أفادت هذه الوثائق البردية، أن والى خراج كورة أنصنا، أصبح فى بعض فترات من القرن الثالث الهجرى، متولى خراج إقليم الصعيد كله^(١).

المجموعة الثانية : وهى الخاصة بديوان البريد بإقليم الأشمونين، وهى أقدم وثائق خاصة بتاريخ ديوان البريد فى الإسلام، ويرجع بعضها إلى عصر الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، ويرجع بعضها الآخر إلى عصرى الخليفة الأول والثانى من خلفاء بنى العباس، أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور على التوالى؛ فهى مؤرخة فى سنوات ١٢٧ هـ و ١٣٣ هـ و ١٣٤ هـ و ١٤١ هـ؛ وهى عبارة عن رسائل مرسلة من ولاية

(١) راجع :

Grohmann (A.), Arabische Papyraskunde. In: Handbuch der Orientalistik, Leyde, cologne 1966, pp. 56, 64, 70, 72, 73, 74, 77, 78-79, 80, 81, 86.

أدولف جروهمان : أوراق البريد العربية بدار الكتب المصرية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ومراجعة عبد الحميد حسن، ١٩٦٢ م، السفر الأول، والسفر الثانى، والسفر الثالث، والسفر الرابع، وخاصة السفر الأول، ص ١٠١-١٠٦، وثيقة رقم ٤٥؛ والسفر الأول، ص ٢١٣-٢٢٠، وثيقة رقم ٧٨، وص ٢٢٠-٢٢٣، وثيقة رقم ٦٩؛ والسفر الثالث، ص ٩٢-٩٤، وثيقة رقم ١٦٨، وراجع :

Grohmann (A.), From the World of Arabic Papyris, Cairo, 1995, pp. 196-198, 200-202, 207-208.

صلاة وحرب وخراج مصر، من قبل هؤلاء الخلفاء، إلى رئيس ديوان البريد بإقليم الأشمونين، الكائن بمدينة أشمون، عاصمة هذا الإقليم^(١).

المجموعة الثالثة : وهى الخاصة بأرشفات وسجلات وثائق المحكمة العليا فى إقليم الأشمونين (مجلس الحكم العزيز بمدينة أشمون)، كما جاء فى نص عدد من هذه الوثائق البريدية؛ وبعضها عبارة عن أوامر استدعاء لبعض أصحاب الدعاوى أو المدعى عليهم من أهل أشمون، ليحضرُوا إلى مجلس الحكم العزيز بمدينة أشمون، وهذه الاستدعاءات ترجع للقرن الثالث الهجرى. أما بقية هذه البرديات القضائية، فهى متنوعة؛ وأقدمها مؤرخ سنة ٢٥٩هـ، من عصر الدولة الطولونية بمصر، وأحدثها مؤرخ سنة ٥٩٨هـ من عصر الدولة الأيوبية بمصر؛ وهى تستمر وتطرد دون انقطاع، فتغطى عهد أمراء وملوك الدولة الطولونية، والدولة الإخشيدية، ودولة الخلافة الفاطمية؛ وبعضها عقود زواج وطلاق وخلع ومراجعة، وبعضها عقود بيع وشراء لبيوت مملوكة وعقارات مبنية، وبعضها عقود شراء عبيد. وأفادت بعض هذه الوثائق، أن قاضى إقليم الأشمونين، كان يتولى فى آن واحد القضاء والحكم، والصلاة، والخطابة، ونظر المظالم، فى مدينة الأشمونين وأعمالها^(٢).

(١) راجع :

Ragib (yusuf), "Lettres de Service au maître de poste d'Asmun", *Archéologie Islamique*, 3, 1992, pp. 5-16, P. 5.

وراجع كذلك عن التقسيم الإدارى لإقليم الأشمونين، فى ضوء البرديات العربية الرسمية الحكومية الإدارية الخراجية.

Grohmann (A.), *Problème der arabischen Papyrus - forschung*. In: *Arch. Or.* III (1931) pp. 381-394, 5 (1933) pp. 273-283, 6 (1934) PP. 125-143, pp. 377-398, وخاصة T.3 (1931) pp. 385-390.

(٢) راجع عن البرديات القضائية التى عثر عليها بإقليم الأشمونين وأعماله، وقد نشر عددًا كبيرًا منها أدولف جروهمان فى السفر الأول من كتابه أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية؛ أدولف جروهمان: أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية، السفر الأول، ص ١٠٢، س ١-١٦؛ وص ٦٧-٧٣، وثيقة رقم ٣٨؛ وص ٨٢-٨٥، وثيقة رقم ٤٠؛ وص ١٢٣-١٢٦، وثيقة رقم ٥٢ (لوحة ٨)؛ وص ٨٥-٩١، وثيقة رقم ٤١؛ وص ٩٧-١٠١، وثيقة رقم ٤٤؛ وص ١٨٦-١٩٣، وثيقة رقم ٦٤ (لوحة ١٤)؛ وص ١٩٣-٢٠١، وثيقة رقم ٦٥، (لوحة ١٦)؛ وص ٢٠٢-٢٠٩، وثيقة رقم ٦٦، (لوحة ١٦)؛ وص ٢١٣-٢٢٠، وثيقة رقم ٦٨؛ وص ٢٢٣-٢٢٧، وثيقة رقم ٧٠ (لوحة

المجموعة الرابعة : رسائل إخوانية شخصية، متبادلة بين أهل مدينة الأشمونين مع بعضهم البعض، أو من أهل مدينة أشمون، وأقاربهم وأصدقائهم المقيمين بمدينة الفسطاط، أو المقيمين بمدن أخرى من مدن الديار المصرية؛ وهى تدل على انتشار الثقافة العربية الإسلامية بإقليم الأشمونين بصفة خاصة، وبصعيد مصر بصفة عامة، في القرنين الثاني والثالث الهجريين^(١).

المجموعة الخامسة : بعض أوراق بردية مصورة ملونة، كانت في الأصل أجزاء من كتب أدبية من التراث العربى الإسلامى، عنى نسخها ومصوروها ومجلدوها، بتصوير بعض مشاهد من القصص التى تضمنتها هذه الكتب؛ وهذه الأوراق ترجع إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين، وتوضح تطور فن التصوير الإسلامى بمصر الإسلامية، في العصرين الطولونى والإخشيدى على التوالى^(٢).



(١٩) ح، وص ٢٢٠-٢٢٣، وثيقة رقم ٦٩؛ وص ٢٢٧-٢٣١، وثيقة رقم ٧١ (لوحة ١٩)؛ وص ٢٢٣-٢٢٧، وثيقة رقم ٧٠ (لوحة ١٩) أيضًا؛ وص ١٠١-١٠٦، وثيقة رقم ٤٥؛ وراجع أيضًا :

Khoury (R. G.), *Ghrestomathie* p. 140-141, No. 79., P. 116-117, No. 63., p. 139-140, No. 78., p. 43-46., No. 18., p. 31-35., No. 12.

وراجع كذلك :

Grohmann (A.), *From the World of Arabic papyri*, p. 200-202., p. 196-198.

وراجع أيضًا :

Grohmann (A.), "Arabische papyrous den staatlichen Museen Zu Berlin", *Der Islam*, XXII (22) (1935), pp. 1-68 (وخاصة) P. 33-36, No. 9., P. 48-51, No. 12.

(١) عن البرديات الإخوانية الشخصية التى عثر عليها بمدينة الأشمونين؛ راجع :

Grohmann (A.), *From the World of Arabic Papyri*, Cairo, 1956, pp. 171-173, 175-181.

(٢) عن البرديات المصورة التى عثر عليها بمدينة الأشمونين؛ راجع :

Grohmann (A.), Arnold (T.), *Denkmaier islamischer Bunhkunst*, Florence – Munich 1929.

Version angl.: *The Islamic Book. Acontribution to its art and history from the VII th* (7)

to The XVII (17) Century. Ibid, meme date.

وراجع محمد عبد العزيز مرزوق : *الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر قبل الفاطميين*، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٤م، ص ١٠٩-١١١، وص ٢٣٤-٢٣٥.

oboeikan.com

أهم مراكز تجارة الصحراء المغربية ودورها في قيام الكيانات السياسية

في القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادي عشر للميلاد

د/حسن خضيرى أحمد

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد
كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادى

oboeikan.com

أهم مراكز تجارة الصحراء المغربية

ودورها في قيام الكيانات السياسية

في القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادي عشر للميلاد

تمهيد:-

استشرقت مراكز تجارة الصحراء المغربية عصرًا زاهرًا في القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادي عشر للميلاد، حيث أسهمت بدور كبير ومباشر في عمليات التبادل التجاري بين الأقطار المتاخمة لها شمالاً وجنوباً، وفي تغطية الأسواق الإفريقية بها تحتاج إليه من المنتجات، ولا سيما الذهب والرقيق، الذي كان تجارة دولية معروفة في ذلك الوقت^(١).

على أن محاولات الجيوش العربية للاستيلاء على أطراف الصحراء والسيطرة على مدن المرافئ المرتبطة بالتجارة الصحراوية منذ بداية الفتح العربي لبلاد المغرب، يبرز بجلاء أهمية الدور الاستراتيجي الذي تلعبه هذه المراكز التجارية فيذكر ابن عبد الحكم أن عقبة بن نافع بعد أن تم له فتح زويلة سنة ٤٦ هـ/ ٦٦٦ م^(٢)، بعث جيشًا إلى

(1) pekka Masonen: "Trans - Saharan Trade and the West African Discovery of the Mediterranean World (The third Nordic Conference on Middle Eastern Studies, Finland, 1995 (116 -42) pp. 117 - 119.

A. Bathily., "Relations between the different regions of Africa" in M.El Fasi (editor), General History of Africa, III, Africa from the seventh to the Elventh century, California, 1981, p.745.

(٢) زويلة: مدينة كبيرة قديمة في الصحراء بها جامع وحمام وأسواق، ومنها يدخل إلى بلاد السودان ويحلب من زويلة الرقيق إلى ناحية إفريقية. (البكري، أبو عبد الله بن العزيز الموسى (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م): = كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليفن، وأندرى فيري، تونس ١٩٩٢، ج٢، ص ٦٥٧ - ٦٥٩، مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، لكاتب مراكشي من =

غدامس^(١)، حتى دانت له بالطاعة^(٢)، ويضيف ابن أبى دينار^(٣) أن عقبة بن نافع "بلغ في غزوته هذه إلى بلد السودان".

كما عول عقبة بن نافع في ولايته الثانية سنة ٦١ هـ / ٦٨٠ م، على أن يتوغل في المغرب الأقصى، حتى وصل إلى السويس الأدنى والسويس الأقصى إلى منتهى بحر الرمل، وجاس خلال ديار لمتونة في الصحراء^(٤)، وفي سنة ٩٢ هـ / ٧١٠ م، بعث القائد العربى موسى بن نصير بطلائع جيشه إلى السويس الأدنى، "فوطئهم وسباهم، وأدوا إلى الطاعة، وولى عليهم واليًا من قبله"^(٥)، واكتفى بيسط سيطرته على المدن تاركًا للجماعات والقبائل المحلية استقلالها وسلطة أمرائها، لهذا ظلت سلطة العرب تمارس بعيدًا عن المناطق الداخلية، وخصوصًا منها جنوب المغرب والصحراء^(٦)، وفي أثناء ولاية عبد الله بن الحبحاب سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م، أرسل جيشًا بقيادة عبيد الله بن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى إلى السوس وأرض السودان "فظفر بهم ظفرًا، وأصاب ما شاء من ذهب"^(٧)،

=كتاب القرن السادس الهجرى، نشر وتحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، ١٩٥٨، ص ١٤٥.

(١) غدامس: مدينة في الصحراء، على بعد سبعة أيام من جبل نفوسة، وأهلها بربر مسلمون، ومنها يدخل إلى بلد تادمكة وغيرها من بلاد السودان. (البكرى: المسالك والممالك، ج٢، ص ٦٦٠، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص ١٤٥، ياقوت الحموى: معجم البلدان، دار صادر، بيروت (د.ت)، ج٣، ص ٧٧٤.

(٢) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م): فتوح مصر وأخبارها، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م، ص ١٩٦.

(٣) ابن أبى دينار، أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى (ت ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، بيروت ١٩٩٣، ص ٤٢.

(٤) ابن أبى دينار: المؤنس، ص ٤٢ - ٤٣، السلاوى، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدى المؤلف، الدار البيضاء ١٩٥٤، ج ١، ص ٨٢. (يذكر ابن عبد الحكم أن ولاية عقبة الأولى كانت سنة ٤٦ هـ / ٦٦٦ م ثم عزل عقبة في سنة ٥١ هـ / ٦٧١ م، غير أنه لم يمكث طويلًا، بعيدًا عن إفريقية، إذ إنه عنا تولى يزيد ابن معاوية الخلافة عينه في سنة ٦١ هـ / ٦٨٠ م)، "فتوح مصر وإفريقية، ص ١٩٤ - ١٩٨".

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢٠٥، السلاوى: الاستقصاء، ج ١، ص ١٩٦.

(٦) ناعمى مصطفى: الصحراء من خلال بلاد تكتة، الرباط ١٩٨٨، ص ٣٥.

(٧) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ٢١٧.

ولعل هذا يفسر بعد نظر القادة العرب، في محاولاتهم السيطرة على مراكز ومسالك تجارة الصحراء، لما لها من دور خطير في الواقع الاقتصادي والسياسي، وإن كان هذا الواقع لا يتناقض مع ظاهرة تغلغل الإسلام الذي انتشر عبر الصحراء على أيدي التجار من زناتة وصنهاجة أنفسهم^(١)، بيد أن استمرار تدفق ذهب السودان عبر المسالك الصحراوية، جعل القوى السياسية في المغرب تطمح في بسط سيطرتها على هذه التجارة.

ولم يلبث الخوارج الصفرية، أن أسسوا في أول الصحراء المغربية مدينة سجلت سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م، واتخذوها حاضرة لدولتهم^(٢)، على أن التوغل باتجاه الصحراء، جعل منها فسطاطاً أمامياً للقوافل القادمة من السودان وإليه والحاملة للتبر والرقيق وجلود الحيوانات التي تحتاجها أسواق المغرب والأندلس^(٣)، هذا فضلاً عن موقعها الاستراتيجي الذي يتوسط الطرق الأطلسية للصحراء، جعل منها العاصمة الأولى للصفقة الشمالية للصحراء لقرون عديدة^(٤).

وليس من قبيل الصدفة، أن ينجح الأدارسة في إقامة دولة وكيان سياسي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي^(٥)، وتتضح توجهات الدولة الأدرسية للسيطرة على مسالك تجارة الصحراء، فيؤسس عبد الله بن إدريس بن إدريس مدينة تامدلت كمركز تجاري متقدم، على أبواب مناجم الفضة، يقول البكري^(٦): "... وبها معدن فضة غزير كثير المادة"، ويواصل الأدارسة مد نفوذهم حتى يصل إلى منطقة زاغة على نهر النيجر، والتي سماها ابن خرداذبة ببلاد زاغى بن زاغى^(٧).

(١) ناعمي مصطفى: الصحراء من خلال بلاد تكتة، الرباط ١٩٨٨، ص ٤١.

(٢) البكري: المسالك والممالك، ج ٢، ص ٨٣٦ - ٨٣٧، السلاوي: الاستقصا، ج ١، ص ١٢٤ وراجع: محمود إسماعيل عبد الرازق (الدكتور): الخوارج في المغرب الإسلامي، القاهرة ١٩٨٦ م.

(3) Boville, E. W.: The Golden Trade of the Moors, Oxford University press, 1968, pp.81 - 82.

(4) pekka: Trans - Saharan Trade, p.5.

(٥) ابن أبي دينار: المؤنس، ص ١٢٥ وراجع: حسين مؤنس (الدكتور): معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٠٩ - ١١١.

(٦) البكري: المسالك والممالك، ج ٢، ص ٨٥٥، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص ٢١٣.

(٧) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (توفي حوالي ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م): المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (د.ت)، ص ٨٩، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٩٦ م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، ج ١، ص ١٤١.

ولا شك أن هذا التوجه من قبل الدولة، كان معناه فى الواقع السيطرة على الشريان الحيوى لتجارة الذهب، ضماناً لمصالحها وتوازنها التجارى والاقتصادى، ومن هنا نشأ صراع طويل بين القوى السياسية فى بلاد المغرب، حول السيطرة على مراكز تجارة الصحراء بوجه عام ينوء به مثل هذا البحث فسوف نكتفى بدراسة نموذج منها بوجه خاص، واخترنا لذلك مدينة سجلماسة كموقع متقدم لهذه المراكز التجارية وذلك لأهميتها الخاصة.

سجلماسة كنموذج

تندرج سجلماسة فيما تسميه المصادر التاريخية بلاد القبلة، وهو اصطلاح عام يطلق على مناطق واسعة من الجنوب المغربى، واقتصر مدلوله على منطقة درعة وسجلماسة، ويطلق المقدسى^(١)، ويتبعه ابن الوزان^(٢) لفظ إقليم على سجلماسة، بينما استخدم ابن سعيد المغربى^(٣) لفظاً مغايراً حين قال: "وفى شرقى درعة مدينة سجلماسة، وهى قاعدة ولاية مشهورة، حيث الطول ثلاث عشرة درجة واثنان وعشرون دقيقة، والعرض ست وعشرون درجة وأربع وعشرون دقيقة"، ومن الواضح أن مفهوم الولاية أوسع وأشمل من مفهوم الإقليم، فهل يتعلق الأمر هنا باتساع مجالات نفوذ سجلماسة على حساب المناطق؟

ويبدو أن سجلماسة طبقاً لأقوال الجغرافيين العرب، كانت تضم الواحات الممتدة على طول وادى زيز، فقد ذكر الحسن بن الوزان، أن سجلماسة إقليم يستمد اسمه من المدينة الرئيسية فيه، ويمتد على طول وادى زيز ابتداءً من الخنك من المضيق القريب من مدينة غارسلوان ونزولاً نحو الجنوب على مسافة مائة وعشرين ميلاً، حتى تخوم الصحراء الليبية^(٤)، وعلى هذا فإن امتداد إقليم سجلماسة يناهز ١٣٠ كيلو متراً من الشمال إلى

(١) المقدسى، شمس الدين بن عبد الله بن محمد بن أحمد (ت/ ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٢١٥.

(٢) ابن الوزان، الحسن بن محمد الوزان الزياني (توفى حوالى سنة ١٥٥٢م): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، ١٩٨٠، ج٢، ص ١٢٠.

(٣) ابن سعيد المغربى: على بن سعيد (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م): كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربى، بيروت ١٩٧٠م، ص ١٢٤.

(٤) الحسن بن الوزان: وصف إفريقيا، ج٢، ص ١٢٠.

الجنوب، ولا يمكن تحديد المسافة التي كان يمتد عليها إقليم سجلهاسة، اعتماداً على رواية الحسن بن الوزان ومن سبقه من الجغرافيين، لأن اهتمام كل هؤلاء اقتصر على المناطق الشمالية لمدينة سجلهاسة دون أدنى اهتمام بالمناطق الواقعة إلى الجنوب والشرق والغرب منها، لأنها تدخل في مجالات الصحراء، فقد ذكر البكري في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أن سجلهاسة "ليس في قبيلها ولا في غربيها عمران"^(١).

على أية حال ازدهرت الحركة التجارية في سجلهاسة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بفضل موقعها الاستراتيجي كهمزة وصل بين المراكز التجارية الواقعة على ضفتي الصحراء الكبرى، هذا فضلاً عن اتصالها بعالم ما وراء البحر المتوسط بحوضيه الشرقي والغربي^(٢) وأدى اتساع دائرة الحضارة الإسلامية، وطابعها شبه الصحراوي كمركز حضاري للتنقل السريع أن غدت سوقاً تجارياً كبيراً، لتبادل بضائع الشمال بالجنوب، واجتذبت عدداً غير قليل من التجار من مناطق مختلفة، ومن أصول واثنيات متباينة، يصفها المقدسي^(٣) في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بقوله: "كثيرة الغرباء، موافقة لهم، يقصدونها من كل بلد، ومع ذلك ثغر فاضل برستاقها معادن الذهب والفضة .. ومعدن الذهب بين هذه الكورة وبلد السودان، وليس في العالم أصفى ولا أوسع منه".

أما ابن حوقل^(٤)، فقد أبدى انبهاره الشديد أمام عظمة وازدهار المدينة التي زارها في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حيث أضاف: "و سكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة .. وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباب عظيمة، وفوائد جسيمة، ونعم سابعة، قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة حال".

(١) البكري: المسالك والممالك: ج٢، ص ٨٣٦.

(2) Boville: The Golden Trade of the Moors, p.61.

Bathily: Relations between the different regions, p. 738.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٣٦.

(٤) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي البغدادي (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) : صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت (د. ت)، ص ٦٥.

ويأتى البكرى^(١) فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى بتفصيلات أدق عن هذا المركز التجارى بقوله: "مدينة سجلماسة مدينة سهلية .. حولها أرباض كثيرة، وفيها دور رفيعة، ومبان سرية، ولها بساتين كثيرة، وهى على نهرين تدهما عيون كثيرة، وجامعها متقن البناء.. ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة"^(٢)، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهرين فى صحراء غير عامرة".

ويبدى الإدريسى^(٣) فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى حماساً فى وصفه لهذا المركز التجارى بقوله: "مدينة كبيرة، كثيرة العامر، وهى مقصد للوارد والصادر، كثيرة الخضر والجنات، رائقة البقاع والجهات، ولا حصن عليها، وإنما هى قصور وديار وعمارات متصلة".

ويصف ياقوت الحموى^(٤) فى أوائل القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر للميلادى أهل سجلماسة بأنهم "من أغنى الناس وأكثرهم مالاً"، ويعلل ذلك "لأنها على طريق من يريد غانة التى هى معدن الذهب، ولأهلها جرأة على دخولها"^(٥)، ويدعم هذا رأى ابن خلدون^(٦) بقوله: "... ولهذا نجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس، وأكثرهم أموالاً لبعدهم طريقهم ومشقتهم، واعتراض المفازة الصعبة"، كما لاحظ ابن

(١) البكرى: المسالك والممالك، جـ ٢، ص ٨٣٥-٨٣٧.

(٢) غانة: مدينة كبيرة فى جنوبى بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان، يجتمع إليها التجار ومنها يدخلون فى المفازات إلى بلاد التبر (ياقوت: معجم البلدان، جـ ٤، ص ٨٤، وبينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين، وهى أكبر بلاد السودان قطراً، وأكثرها خلقاً، وأوسعها متجراً. (الحميرى، أبو عبد الله محمد بن عبد المتعم (ت ٨٦٦ هـ/ ١٤٦١ م): كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت ١٩٨٠، ص ٤٢٥).

(٣) الإدريسى: أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٤ م): نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م، جـ ١، ص ٢٢٥.

(٤) ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ٣، ص ١٩٢.

(٥) ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ٣، ص ١٩٢.

(٦) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م): مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون، الإسكندرية (د. ت)، ص ٢٧٨-٢٧٩.

بطوطة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أن كل سكن في سجلهاسة يتكون من بستان يتوسطه بيت للإقامة، كما هو الحال في الصين^(١).

وتأتى الحفريات الأثرية^(٢) بمواقع سجلهاسة وجاو وتادمكة، وما اشتملت عليه من عملات ولقى، لتبرهن على الازدهار الاقتصادى الناتج عن حركة التجارة البعيدة المدى، وتفسر ظهور وتطور كثير من حواضر المغرب الإسلامى خلال تلك الفترة بالذات، ثم تأتى الشواهد الوثائقية لموسوعة الجنيزة في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادى عشر الميلادى، لتؤكد أقوال الرحالة والجغرافيين المسلمين عن سجلهاسة^(٣)، وتعكس في الوقت نفسه تاريخ سجلهاسة الاقتصادى في تلك الفترة موضوع الدراسة، فقد ورد ذكر سجلهاسة في أكثر من موضع في العديد من الرسائل التى بعث بها التجار اليهود من سجلهاسة إلى وكلائهم وذويهم في الفسطاط والإسكندرية^(٤)، ونذكر على سبيل المثال وثيقة مؤرخة في ٢٧ يناير سنة ١٠٤٨م من أحد تجار اليهود في سجلهاسة، نقبس فقرات منها: "في خلال الأيام القليلة القادمة، سوف تتحرك القافلة من سجلهاسة.. وسوف أرسل لك بعض الأشياء مع أبى القاسم عبد الرحمن^(٥)، هذا فضلا عن العديد من الرسائل المرسلة صحبة تجار من سجلهاسة إلى أبى ذكرى بن يوسف كوهين السجلهاسى، وهو وكيل تجار الفسطاط الذى كان يحتفظ بروابط قوية مع موطنه في سجلهاسة، وفي رسالة أخرى: "لقد وصلت تَوّا من المرية^(٦)، بأسبانيا، لقد أرسل لى شريكك من فاس

(١) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م): رحلة ابن بطوطة، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)، ص ٦٣٤.

(٢) تم العثور على دنانير ذهبية ضربت في سجلهاسة يرجع تاريخها إلى عصر الدولة المردارية وعصر دولة المرابطين. (راجع العملات الذهبية الإسلامية WWW. Islamic Coins.net) وكذلك ملاحق البحث ص ٣٨، ٣٩.

(3) S.D. Goitein: Letters of Medieval Jewish traders, Princeton press, 1973, pp. 14, 25,

(4) S.D. Gitein: A Mediterranean Society of the High idle Ages, New York, 967, I, p.279.

(5) Gotien: Letters of Medieval Jewish Traders, P. 151.

(٦) المرية: مدينة على البحر في الأندلس، كان بها من كل الصناعات كل غريبة، وبها كل صنوف أنواع الحرير، وآلات النحاس والحديد إلى سائر الصناعات، وبها من فواكه وادبها الشيء الكثير، وتقصد إليها المراكب من الإسكندرية والشام، ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالا، ولا أنجر منهم في

بالمغرب، ترباسًا ذهبًا لأشترى به ذهبًا لك، وإنى أعتقد أن هذه الفكرة غير طيبة، وإنى "مرسل لك الذهب كما هو .." ^(١)، وقد نجد في بعض الرسائل إشارات مثل تلك التى وردت في الخطاب التالى: "إذا كانت هناك قافلة، وكان يسافر فيها مسلمون مؤتمنون، تكرم بإرسال البضائع معهم" ^(٢).

ويرى أحد الباحثين ^(٣) أن الذى جذب هؤلاء التجار إلى سجلماسة، لم يكن غناها فحسب، وإنما جذبهم إليها كثرة الذهب في غربها، ولذا وجدنا في سجلماسة كثيرًا من التجار الآسيويين الذين جاءوا إليها من نيسابور وسمرقند، وواسط والبصرة، وغيرها، والذين قاموا بدور نشيط في تجارة الشرق ^(٤).

وهكذا غدت سجلماسة في القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، أكبر مستودع للذهب الإفريقى، مما أضفى على اسمها طابعًا أسطوريًا، حيث كان يأخذ منها التجار مختلف السلع بثمن بخس، ويأتون بحمولة جمال كاملة من الذهب الخام ^(٥)، وانعكس ذلك بدوره على بلاد المغرب، حيث غمرها ذهب السودان، وأصبحت بلادًا غنية لدرجة أنه فرض على أهلها أن ينتشروا خارج أراضيها، ويقول أحد الباحثين ^(٦): "لم يكن العامل السياسى وحده هو الذى حرك تجار المغرب نحو التجارة العالمية، ولكن ضغط اقتصاد البلاد الراسخ هو الذى مكن للدعاية الفاطمية أن تنتشر شرقًا"، وتذكر وثائق الجنيزة، أن

= جميع أنواع التجارات. (الإدريسى: نزهة المشتاق، ج٢، ص ٥٦٢)، المراكشى، عبد الواحد المراكشى (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣، ص ٤٥٥).

(١) جواتين: دراسات في التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، تعريب د. عطية القوصى، الكويت ١٩٨٠، ص ٢١٤.

(٢) جواتين: دراسات في التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، ص ٢١٨.

(3) Goitein: The Cairo Geniza as a Source for the History of Muslim Civilization, (Studies

(4) Ibid, p.81.

(٥) ناعمى مصطفى: الصحراء من خلال بلاد تكتة، ص ٤٨ وراجع كذلك:

Pekka Masonen: Trans – Saluran Trade, pp.. 120 – 122.

(٦) جواتين: دراسات في التاريخ الإسلامى، ص ٢٧٠.

شواطئ شرق إفريقيا، وجنوب الجزيرة العربية، والهند وسيلان قد امتلأت بأناس جاءوا من طرابلس والقيروان والمهدية وتلمسان وسجلماسة^(١).

على أن التجارة الكثيفة عبر الصحراء، لم تصبح أساسية ومنظمة، إلا بعد أن أصبح العرب قوة يحسب لها وزنها في الشمال الإفريقي، فالكثير من المراكز الرئيسية لتجارة الصحراء، مثل: سجلماسة، ونول لمطة، وزويلة، وغيرها كانت موجودة في منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ومع ذلك فإن التجارة الكثيفة لم تبلغ أوج ازدهارها إلا في مطلع القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بسبب ارتباطها بشبكة الطرق التجارية في السودان الغربي هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب ولادة المدن الجديدة على حافة الصحراء، مثل: أودغست^(٢)، وكومبي صالح، وتادمكة^(٣)، التي ارتبطت بحكم موقعها وبنياتها التجارية، بتجارة المسافات البعيدة^(٤).

على أن أهم مرحلة اقتصادية عرفتها سجلماسة هي فترة ارتباطها بمدينة أودغست، حتى غدت معرضاً كبيراً لتبادل بضائع الشمال بالجنوب، خصوصاً الملح والذهب. ويصف ابن بطوطة^(٥)، تعامل السودان بالملح في تغازي^(٦) بقوله: "وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة، ويقطعون قطعاً ويتبايعون به، وقرية تغازي على صغرها، يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر"^(٧). وما يجدر ذكره أن ملاحظة

(1) Goitein: OP. Cit, p.81.

(٢) أودغست: بالفتح، ثم السكون وفتح الذال المعجمية والغين المعجمة، مدينة بين صحراء لتونه والسودان، وهي مدينة عظيمة أهله بالسكان. (البكري: المسالك، جـ ٢، ص ٨٤٨، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٢٧٧).

(٣) تادمكة: في بلاد السودان، وهي أشبه بلاد الدنيا بمكة المكرمة، وهي مدينة منيعة بين جبال وشعاب، وتجلب إليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان، ودنانيرهم تسمى الصلح لأنها ذهب محض غير مختومة. (مؤلف مجهول: الاستبصار، ص ١٢٣، الحميري: الروض المعطار، ص ١٢٨ - ١٢٩).

(4) Enc., of Islam, art (Aoudaghost)

pekka: Trans – Saharan Trade, p. 123.

(٥) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٦٨٤.

(٦) تغازي: قرية صغيرة ضاربة في الصحراء جنوب سجلماسة، بها مناجم الملح. (ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٦٨٤).

(٧) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٦٨٤.

خصائص الجسم الاقتصادى، وشكل التغيرات التى استحدثتها استغلال مناجم الملح، وخصوصاً منجم تغازى، ساعد بدوره على تكتيل وإدماج القبائل الصنهاجية فى مقاييس تجارية، عرفت تطوراً كبيراً خلال هذه الفترة التى نحن بصددتها فى هذه الدراسة. وقد ذكر البكرى أن قوماً من صنهاجة يقطنون على طوال الصحراء بين مدينة سجلماسة ومدينة غانا^(١)، كما لاحظ ابن بطوطة أن كل سكان تغازى من صنهاجة، "ويصل السودان إلى بلادهم فيحملون منها الملح"^(٢). أضف إلى ذلك أن الحركة الإنتاجية بين سجلماسة وأودغست، وغيرها من المراكز الواقعة على ضفتى الصحراء، ارتكزت أساساً على نمو مستوى المواصلات، والتوسع فى الاتصال التجارى^(٣)، حيث بدأ استغلال مناجم الملح مع تحول الصحراء إلى محيط سفينة الجمل، الأمر الذى دفع إلى التطور السريع لمدينة أودغست^(٤)، "وصار لها أسواق حافلة .. لا يكاد يسمع الإنسان صوت جليسه لكثرة غوغاء الناس، وتجاراتهم إنما هى بالتبر ليست عندهم فضة"^(٥). هذا فضلاً عن موقع أودغست على مقربة من منجمى الذهب جالام Galam وبامبوك Bambouk شرق السنغال، مما جعلها توفر للأفارقة السود أهم وأعظم ما يحتاجون إليه من ملح وأثواب وخيول^(٦)، وكان ذهب بامبوك أهم ما تجلبه القوافل المغربية فيما بين القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر الميلادى^(٧)، مما حدا بأحد الباحثين^(٨) إلى القول: "أن ثلثى تجارة الذهب المنقولة فى هذه الفترة فى منطقة البحر المتوسط، كانت عن طريق سجلماسة من مناجم الذهب جنوب الصحراء".

وهكذا توثقت العلاقات التجارية بين سجلماسة، وبلاد السودان وغيرها من المراكز التجارية، بفضل شبكة الطرق التى أسهمت بدور كبير ومباشر فى عمليات التبادل

(١) البكرى: المسالك والممالك، ج-٢، ص ٨٣٧.

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٦٨٤.

(3) A. Bathily: Relations, pp. 635 – 736.

(٤) ناعمى مصطفى: الصحراء من خلال بلاد تكتة، ص ٣٤.

(٥) مؤلف مجهول: الاستبصار، ص ٢١٥، الحميرى: الروض المعطار، ص ٦٣ - ٦٤.

(6) Bovill: The Golden Trade, P.82.

(٧) إبراهيم حركات (الدكتور): دور الصحراء الإفريقية فى التبادل والتسويق، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا ١٩٨١، ص ٣٥.

(8) Pekka: Trans-Saharan Trade, PP. 124 – 125.

التجاري، وأصبحت طرق تجارة القوافل الصحراوية تكتسب بعداً مهماً في النظام الاقتصادي الدولي منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي^(١)، فقد بلغت حصيلة الضرائب المفروضة على هذه التجارة السودانية وحدها حوالى ٤٠٠,٠٠٠ دينار سنوي^(٢)، وحتى تتضح لنا بوضوح تحركات القوافل التجارية من سجلماسة وفوق صفحة المغرب وعبر الصحراء، يجدر بنا معرفة الطرق والمسالك التي سلكتها تلك القوافل حتى نصل إلى تعريف شامل لبعض عوامل وخصوصيات البنية الاقتصادية والاجتماعية لمراكز تجارة الصحراء، ممثلة في سجلماسة، وأهم هذه الطرق:

١- الطريق الممتد من سجلماسة إلى ولاتة^(٣)، وهو من أقدم الطرق الممتدة بين شمال الصحراء ومناطق السودان، ويقود إلى مواطن الذهب في السنغال والنيجر الأعلى، وقد سلك ابن بطوطة^(٤)، هذا الطريق سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢م في أثناء رحلته التي قام بها من سجلماسة، حيث مرت بتغازي، حتى وصل إلى مدينة تكدا Takada^(٥)، ومن هذه المدينة عاد إلى مدينة سجلماسة عن طريق إيري - توات - سجلماسة^(٦).

٢- طريق نول لمطة^(٧) - سجلماسة - أودغست، ويعتبر هذا الطريق من أهم الطرق حيث يخرج من واحات السفح الجنوبي للأطلس الصغير، لينساب داخل منطقة مناخها أكثر اعتدالاً، وأقل قسوة من مناخ المناطق الداخلية بالصحراء، وينتهى هذا الطريق في

(1) Goitein: Letters of Medieval Jewish, PP. 23 - 25.

(٢) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة (د.ت)، ص ٢٥٥.

(٣) مدينة ولاتة في شرقي السنغال الحالية، وذكرها ابن بطوطة إيوالاتن، وهو على خط عرض ١٧,٠٢ شمالاً، وخط طول ٦,٤٤ غرباً (راجع: حسين مؤنس "الدكتور": ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف ١٩٨٠، ص ٢٢٦).

(٤) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٦٨٤ - ٧٠٧.

(٥) مدينة تكدا تقع الآن في أحواز جمهورية النيجر (حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته، ص ٢٣٥).

(٦) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٧٠٧.

(٧) نول لمطة: من بلاد السوس الأقصى بالمغرب، وهي مدينة كبيرة في أول الصحراء على نهر كبير يصب في المحيط، وعليه قبائل لمطة ولتونة. (البكري: المسالك، ج ٢، ص ٨٥٤ - ٨٥٥، الحميري: الروض المعطار، ص ٥٨٤).

مدينة أودغست، حيث يتفرع هناك إلى طرق فرعية على هامش الصحراء، تصل بالبضائع إلى مدينة كومبى غانا^(١).

٣- الطريق الذى يبدأ من أودغست مارًا بتامدلت - ايجلى، حتى يصل إلى سجلماسة، وقد نشطت حركة القوافل فى هذا الطريق منذ عهد الأدارسة، الذين تمكنوا من بسط نفوذهم، الذى وصل إلى منطقة زاغة على نهر النيجر^(٢).

٤ - طريق تلمسان - سجلماسة، ويذكر الإدريسى أن القوافل تسير فى هذا الطريق من تلمسان إلى فاس، ومن فاس إلى صفروى - تادلة - أغمات - بنى درعه، حتى ينتهى إلى سجلماسة^(٣).

٥ - الطريق الشرقى (المصرى)، والذى يربط أسواق سجلماسة بمصر والمشرق، يمر بالواحات الداخلة، والكفرة، ثم يتجه إلى السودان الغربى، ومنها يتابع سيره إلى غانة وأودغست^(٤)، ويعتبر هذا الطريق أقصر الطرق البرية، وأقربها مسافة بين مصر وسجلماسة لولا قلة الماء فى هذه الصحراء^(٥)، على أن هذا الطريق عدل فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى إلى طريق سجلماسة، نتيجة لتواتر الرياح وترادف عدوان اللصوص على القوافل^(٦)، وقد سمح النشاط التجارى الذى عرفته سجلماسة بتقوية التبادل بينها وبين عدد من المراكز التجارية الصحراوية الأخرى، مثل: غدامس، وتادمكة، وتوات، وجاو، وكوكو^(٧).

على أن هذه الطرق تأثرت تأثرًا كبيرًا بالتغيرات التى طرأت على الخريطة السياسية لبلاد المغرب فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، والذى يعتبر بحق منعطفًا هامًا، لا فى الخريطة السياسية المغربية فحسب، بل فى ميزان القوى

(١) ناعمى مصطفى: الصحراء من خلال بلاد تكتة، ص ٥٠، وللمزيد من التفاصيل عن هذا الطريق

راجع: Binger, Les Routs Commerciales Du Soudan Occidental, paris, 1886, p. 103

(٢) البكرى: المسالك والممالك، ج٢، ص ٨٥١ - ٨٥٣.

(٣) الإدريسى: نزهة، ج١، ص ٢٤٩.

(٤) البكرى: المسالك والممالك، ج٢، ص ٦٦٢ - ٦٣٢ Binger, op. cit, p.104

(٥) مؤلف مجهول: الاستبصار، ص ١٤٧.

(٦) آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة

١٩٤١، ج٢، ص ٣٥٥.

(٧) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٦٨٣ - ٦٩٠.

العالمية آنذاك، ولعل من أبرز تلك التحولات وأكثرها، تلك القطيعة السياسية والمذهبية بين الفاطميين في مصر والدولة الزيرية في إفريقيا، وما ترتب عليها من هجرة بنى هلال التي أحدثت تبدلات وتغيرات عميقة في هذه الفترة بالذات، ثم قيام دولة المرابطين^(١)، وأصبح النشاط الاقتصادي الصحراوي يتركز في إفريقيا الغربية، التي أصبحت على قول أحد الباحثين^(٢): "منطقة نافعة"، ومن الطبيعي أن تكون صنهاجة الجنوب أكبر مستفيد من هذا التحول، حيث أن تدهور الطرق التجارية بإفريقية، جعل الأهمية تنتقل نحو الطريق المار بديار صنهاجة، التي أصبحت تمتلك مفتاح الطريق نحو السودان^(٣).

ومما يجدر ذكره أن رحلات القوافل التجارية، كانت تعمل متقاربة، حيث تخرج في الشتاء ثلاث قوافل برية، تمر من سجلماسة، "أكبر محطات المغرب التجارية الصحراوية"^(٤)، لتصل هذه القوافل إلى القيروان وطرابلس وبرقة حتى مصر^(٥)، ولا غرو في أن أهم مؤثرات ضعف الحركة التجارية الصحراوية، أو قوتها يتمثل في مدى الضمانات الأمنية التي تتوفر للقوافل، كما أن على القوافل أن تؤدي إتاوات عن حق مرورها أو دخولها إلى أسواق الأراضي السودانية، هذا فضلاً عن حقوق مشابهة تؤدي في المراكز التجارية الشمالية^(٦).

على أن السلع كانت تتنوع وتختلف في أسواق سجلماسة، حيث كان التبادل يشمل: الملح، والودع، والنحاس الأحمر والملون، والأكسية، والدرق اللمطية، وعيائم القطن، والتمر والحبوب^(٧)، مقابل دقيق الذهب (التبر)، والعنبر، والعاج، والأبنوس^(٨)، ويذكر الاصطخرى في هذا الصدد أن عماد تجارة المغرب هو الذهب^(٩). ويضيف البيروني^(١٠):

(١) Bovill: *The Golden Trade*, pp. 59 – 60, 77.78.

(٢) Pekka: *Tans – Saharan Trade*, p. 128.

(٣) ابن الوزان: وصف إفريقيا، الرباط ١٩٨٠، ج١، ص ١٩٨. وراجع أشكال طرق التجارة، ص ٣٥، ٣٦، ٣٧.

(٤) جولتين: دراسات في التاريخ الإسلامي، ص ٢١٩.

(٥) Goitein: *The Gairo Geniza*, V.III, P. 81.

(٦) إبراهيم حركات: دور الصحراء الإفريقية، ص ٣٣.

(٧) البكري: المسالك والممالك، ج٢، ص ٨٦٦، ص ٨٧٢، الإدريسي: نزهة المشتاق، ج١، ص ٢٢٥.

(٨) نفس المصدر، ج٢، ص ٨٧٦ - ٨٧٧.

(٩) الاصطخرى، أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٥٠هـ / ٦٩١م): المسالك والممالك، طبعة

مصر ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، ص ٣٧.

(١٠) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) الجواهر في معرفة الجواهر،

طبعة أولى، حيدر آباد ١٣٥٥ هـ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

أن أهم السلع المغربية التي كانت تفتد إلى أسواق المشرق: "الذهب والتمور واللبود، وقد كان تجار اليهود فى أسواق سجلماسة، يسافرون من المشرق إلى المغرب "حيث يتاجرون بالذهب والديباى والخبز" ^(١). أما تجارة الرقيق فكانت من أسس التبادل التجارى بين مراكز تجارة الصحراء، وأقطار السودان، ومن محور سجلماسة - السودان، كانت الجوارى السوداوات يجلبن إلى السوق الأندلسية ^(٢)، هذا فضلاً عن الرقيق الأسود الذى عرف طريقه إلى أقطار المشرق ^(٣).

على أية حال ساهم النشاط التجارى فى مدينة سجلماسة فى مضاعفة التيارات التجارية والمالية، حتى "صار أهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالاً" ^(٤)، إلى حد أن ثروات التجار فى سجلماسة كانت تقدر فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى بمائة ألف دينار ^(٥)، وكان الدينار الذهبى هو وحدة التعامل الرسمية المتداولة فى أسواق سجلماسة، وساعد على ذلك توفر مقادير الذهب اللازمة لدور الضرب، والواردة إليها من غرب إفريقيا ^(٦)، وكانت العملات فى بلاد السودان الغربى عبارة عن أصداى، وحلقات من النحاس، وقوالب من الملح ^(٧)، على أن تطور حجم التجارة، والزيادة الهائلة فى الحجم التجارى، يرجع إلى تطور سك المعادن والعملات، مما أدى إلى تطور أساليب تجارة المسافات البعيدة بصورة هائلة ^(٨)، ويبدو أن تجار سجلماسة عرفوا السفاتىج ^(٩)، كوسيلة من وسائل

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٣٨٨-٣٨٩.

(٢) اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر (ت ٤٤٠ هـ/ ٨٩٧م): كتاب البلدان، ملحق بكتاب الأعلام النفيسة لابن رسته، ليدن ١٨٩١، ص ٣٤٥، الاصطخرى: المسالك والممالك، ص ٣٥-٣٦.

(٣) إبراهيم حركات: دور الصحراء الإفريقية، ص ٣٤.

Bovill: The Golden Trade, p. 246.

(٤) ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٩٢، ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص ٢٧٨.

(٥) ناعى مصطفى: الصحراء، ص ٤٨.

(6) De La Ronciere: La Decouverte De L'Afrique au Moyen age. T.J.Le Caire, 1934, pp. 146 - 147.

(٧) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص ٦٨٤.

(8) A. Bathily: Relations between the different, p. 743

(٩) السفاتىج: مفردتها سنجة، وهى كلمة فارسية معناها ورقة مالية، أو خطاب ضمان، وكانت تكتب بواسطة الجهابذة والصارفة فى البلاد الإسلامية، وكثر استعمالها خلال القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى. (الخوارزمى، محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧م) : مفاتىح العلوم، القاهرة (د.ت)، ص ٥٨، وراجع: محمد جمال الدين سرور (الدكتور) تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٦٣.

المعاملات المالية، وخاصة أنها تجعل أموالهم في مأمن من اللصوص، وقطاع الطرق، لطول المسافة وبعد الطريق^(١)، كما استخدم التجار الصكوك كوسيلة من وسائل التعامل التجاري في البيوع ووفاء الدين، وشاهد ابن حوقل في نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بأودغست صكًا كتب بدين على محمد بن أبي سعدون، وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار^(٢)، وهذا يدلنا على أن التعامل بالصكوك في ذلك العصر، كان قد بلغ إلى مسافة بعيدة في وسط الصحراء.

الدور السياسي لسجلماصة

اتسم القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بازدياد حدة التنافس والصراع بين القوى السياسية في بلاد المغرب والأندلس، حول السيطرة على مراكز تجارة الصحراء، ومسالك تجارة الذهب بين بلاد السودان والمغرب الإسلامي، وتعددت أسباب هذا الصراع، وتباينت أشكاله، ويمثل الصراع الفاطمي - الأموي في الأندلس، السمة البارزة في تاريخ المغرب والأندلس، خلال هذه الفترة، وليس من سبيل المبالغة إذا قلنا إن هذا الصراع كان له جل الأثر على مجريات السياسة الداخلية والخارجية لكل من النظامين: الأموي السني في قرطبة، والفاطمي الإسماعيلي في المهديّة^(٣)، ومن الصعوبة بمكان فهم كثير من قضايا السياسة الداخلية والخارجية في تاريخ هاتين الدولتين، بمعزل عن دور العامل الاقتصادي في ازكاء هذا الصراع، فلم يكن صراعًا مذهبيًا، أو سياسيًا من أجل السيطرة على أراضٍ جديدة، وفي نفس الوقت لم يكن صراعًا قبليًا تقليديًا بين قبيلتي صنهاجة وزناتة، كما تصوره الكثير من المراجع الغربية الحديثة^(٤). لذلك كان من المفيد الكشف في

(1) Bathily: Op. Cit, P. 744.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٦٥.

(3) الحبيب الجنحاني (الدكتور) دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦، ص ١٥٧.

(4) جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي، ترجمة محمد عبد الحميد هيكل، الإسكندرية ١٩٩١، ص ١٤٥ - ١٥٢، ص ١٥٣ - ١٦٥.

=Levi - Provençal: *Histoire de L'Espagne musulmane*, Paris, 1950, T. 2, pp. 78 - 100, 148 - 196.

H. Forunel: *Les Berbers Etude sur la Conquête de L'Afrique par les Arabes*, Paris, 1881, T. I, pp. 285 - 286.

هذه الدراسة عن دور العامل الاقتصادى من منطلق شمولى تراعى فيه تعددية الأسباب والمحيط.

لما تأكد عبيد الله المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ - ٩٣٤ م) من نجاح دعوته، فر من سلمية^(١) متجهاً نحو المغرب، وبصحبه ابنه أبو القاسم، ونجح في الهرب من الشام إلى مصر متخفياً في زى التجار^(٢)، ولما وصل إلى قسطنطينية^(٣)، لم يشأ أن يلتقى بداعيته أبى عبد الله الشيعى هناك، وإنما يمم وجهه صوب سجلماسة حتى وصلها، وأقام فيها متخفياً^(٤)، ويحفظ لنا صاحب المجالس والمسائرات^(٥)، نص الكلمة التى توجه بها المعز إلى أهل سجلماسة: " .. يا أهل سجلماسة، فعلتم ما فعلتم فى أيام المهدي بالله فعفا عنكم، وأحسن إليكم لحلوله، الذى كان فيكم، ومجاورته إياكم مدة إقامته فيكم"، ويفهم من النص أنه أقام فترة غير قصيرة بين ظهرائى أهل سجلماسة، بيد أن أمير سجلماسة - اليسع بن المنتصر ابن مدرار (٢٧٠ - ٢٩٧ هـ / ٨٨٣ - ٩٠٩ م)، توجس منها خيفة، وجد فى طلبها، وخاصة بعد أن أوعز إليه الخليفة العباسى بالقبض عليها، فنقب عنها، وقبض عليها وأودعها بالسجن^(٦)، إلى أن أطلقها أبو عبد الله الشيعى، عندما استولى على سجلماسة سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م^(٧).

(١) سلمية: بفتح السين المهملة واللام وتشديد الياء بلدة عامرة من أعمال حمص الشام. (ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ٥، ص ١١٣).

(٢) ابن خلدون: العبر، المجد الرابع، ص ٧٠، المقدمة، ص ١٦، المقرئى، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م): المقفى الكبير، ترجمة المهدي عبيد الله، تحقيق محمد اليعلاوى، حوليات الجامعة التونسية العدد ٥٢، ١٩٨٦، ص ٦٩ - ٧٠.

(٣) قسطنطينية: اسم لعمل البلاد الجريدية، وهى بلاد واسعة، ومدن عديدة، ومن مدنها: توزر، والحمّة، وتقيوس، ومدينتها العظمى توزر (البكرى: المسالك، ج ٢، ص ٦٦٢، ٧٠٩، الحميرى: الروض المعطار، ص ٤٨٠).

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٦، السلاوى: الاستقصا، ج ١، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٥) القاضي النعمان، أبو حنيفة النعمان بن محمد (ت ٩٦٣ هـ / ٩٧٤ م): كتاب المجالس والمسائرات، تحقيق الحبيب الفقى وآخرين، تونس ١٩٧٨، ص ٣٩٠، إدريس عماد الدين بن الحسن القرشى (ت ٨٧٢ هـ / ١٢٣٣ م): عيون الأخبار وفنون الآثار: السبع السادس، تحقيق د. مصطفى غالب، بيروت ١٩٨٤، ص ١٠٩ - ١١٠.

(٦) ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٧٤، المقرئى: ترجمة المهدي عبيد الله، ص ٧٠.

(٧) البكرى: المسالك، ج ٣، ص ٨٣٩، ابن أبى دينار: المؤنس، ص ٧٠ - ٧١.

ويتساءل أحد الباحثين^(١) عن سبب اختيار المهدي لسجلماة دون غيرها من بلاد المغرب: "هل كان يطمح في إقامة كيان سياسى في هذه المنطقة، أم أنه كان يفكر في السيطرة على مسالك تجارة الذهب؟"، ويبدو أن رحلة المهدي إلى سجلماة، لم تكن عفو الخاطر، أو محض الصدفة، وإنما تمت وفق خطة دقيقة للدعوة، متصلة بالتعرف على مسالك تجارة الذهب بصفة خاصة، يدعم ما ذهبنا إليه نص مختصر لابن حماد^(٢) يقول فيه: "... إلى أن وصل (المهدي) إلى سجلماة، إما بعلم سبق، وإنما بشيء اتفق".

اهتم عبيد الله المهدي بشئون الأندلس منذ البداية، ولعل إقامته بسجلماة مكتبته من التعرف عن كثب على الوضع في الأندلس، وإلى أهمية المسالك التجارية التي تربط بينها وبين بلاد السودان^(٣)، ومن أجل ذلك اتخذ الفاطميون الدعاية الشيعية في الأندلس من جهة، والجاسوسية من جهة أخرى، وكان يقوم بتلك المهمة دعائهم وغيونهم، الذين كانوا يخفون أهدافهم الحقيقية بستار من المصالح المشروعة كالتجارة أو العلم أو السياحة الصوفية^(٤)، ومن بين هؤلاء العيون الذين أرسلهم الفاطميون إلى الأندلس، نذكر الرحالة البغدادي ابن حوقل، الذي اتخذ التجارة ستارًا يخفى وراءها هدفه الأساسى، وينعته ياقوت الحموى بالتاجر الموصلى^(٥)، كما حاول الفاطميون استقطاب بعض الشخصيات الأندلسية إلى صفهم، فيحاول المهدي استغلال ثورة عمر بن حفصون الثائر في جنوب الأندلس، فيساعدها، ويرتبط مع قائدها بعلاقات تعاون، هذا فضلا عن اعتراف ابن حفصون بزعامة المهدي، والدعاء له في مساجد بلاده^(٦)، وذكر أن المهدي

(1) Hrbek, K., "The emergence of the Fatimids" Africa from the seventh to the eleventh century, Heinemann, California, 1981, p. 318.

(2) ابن حماد، أبو عبد الله محمد بن علي (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ ك): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، الجزائر ١٩٢٧، ص ٦ وما بعدها وراجع: الحبيب الجناحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي، ص ١٧٦.

(3) Hrbek: the emergence of the Fatimids, pp.318 - 319.

(4) أحمد مختار العبادي (الدكتور): دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، طبعة أولى، الإسكندرية، ١٩٦٧، ص ٦٥.

(5) ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج ١ ص ٣٤٨، وراجع: أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب، ص ٦٥.

(6) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، نشر وترجمة لافويتى الكنتري، مدريد، ١٨٦٧، ص ١٥١، وراجع كذلك: دوزي: المسلمون في الأندلس، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي،

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤، ج ١، ص ٢٢٦.

أرسل له بضعة سفن محملة بالذخيرة والأسلحة، بيد أنها لم تصل لابن حفصون، فقد استولى عليها أسطول الخليفة عبد الرحمن بن محمد الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ - ٩٦١ م)^(١).

ومن بين الشخصيات التى اصطفاها الفاطميون، القائد على بن حمدون بن سمالك الجذامى المعروف بابن الأندلسى، الذى قدم إلى المغرب من الأندلس، واتصل بالخليفة المهدي، ثم بابنه القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ / ٩٣٤ - ٩٤٥ م) الذى عهد إليه ببناء مدينة المسيلة، ثم عقد له الولاية على بلاد الزاب، ووقف ابن حمدون مع الفاطميين، وأبلى بلاءً حسناً فى محنتهم مع أبى يزيد، حتى هلك سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م^(٢).

أما فيما يتعلق بالتوسع الفاطمى فى المغرب الأقصى، نجد الخليفة المهدي، يعهد لمصالة ابن جبوس الكتامى بتجريد حملة عسكرية سنة ٣٠٤ هـ/ ٩١٧ م، بالمسير إلى بلد نكور لحرب سعيد بن صالح - أمير نكور - وبالفعل ينجح مصالة فى هزيمة سعيد بن صالح وقتله^(٣). أما الناجون من بنى سعيد وأهله، فقد عبروا إلى مالقة وبجاجة، حيث أمر الأمير عبد الرحمن الناصر باستقبالهم ورعايتهم وإكرام وفادتهم^(٤). وتتمكن أسرة سعيد بن صالح من العودة بمساعدة قرطبة واسترداد عاصمتهم نكور فى نفس السنة، وأعلنوا ولاءهم لقرطبة^(٥).

ولعل هذا الحدث يكشف عن بداية سياسة جديدة للأُمويين فى الأندلس تجاه المغرب، ولا شك أن هذه السياسة، جاءت ردًا على الأهداف التوسعية الواضحة للفاطميين، فقد أدركت قرطبة الخطر الاقتصادى الذى يهددها، فيما لو نجح الفاطميون فى السيطرة التامة

(١) دوزى: المسلمون فى الأندلس، ج١، ص ٢٢٦.

(٢) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبى (ت ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٩ م): المقتبس فى أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن على الحجى، الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨٣، ص ٣٣ - ٣٥، البكرى: المسالك والممالك، ج٢، ص ٧٢٢.

(٣) البكرى: المسالك، ج٢، ص ٧٧١، ابن عذارى المراكشى، أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشى (كان حيًا سنة ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م): البيان المغرب فى أخبار المغرب، بيروت (١٩٤٧ - ١٩٥٠)، ج١، ص ١٧٥.

(٤) ابن عذارى: البيان، ج١، ص ١٨٠.

(٥) البكرى: المسالك، ج٢، ص ٧٧٢.

على المسلك الغربى لتجارة الذهب، وتحويله نحو الشرق، وعزل الأندلس عن الدورة التجارية المغربية.

عمل مصالة بن حبوس، بصفته والى تاهرت والمغرب، على مد النفوذ الفاطمى إلى سواحل نكور، وإلى مكناسة، وفاس، وكان عليه أن يعيد سلطان الفاطميين إلى سجلهاسة والذى كان قد انتقض بعد خروج الخليفة المهدي سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م، حيث ثار أهل سجلهاسة على والى المهدي: إبراهيم بن غالب المزاتى، "فقتلوه ومن معه من رجال الشيعى بعد خمسين يومًا"^(١). وأعادوا أمراءهم القدامى من بنى مدرار، وولوا عليهم واسول بن ميمون الذى لقب بالفتح فى ربيع الأول سنة ٢٩٨هـ/ نوفمبر ٩١٠م^(٢)، ولما تبين للفاطميين صعوبة حكمها مباشرة عن طريق عامل فاطمى يرجع بالنظر إلى السلطة المركزية، أقروا على سجلهاسة الأسرة المدرارية ممثلة فى الأمير المعتز محمد المدرارى، الذى بقى فى الولاية إلى قرب نهاية عهد المهدي، حيث توفى سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م^(٣)، واكتفى الفاطميون بتبعية ولاء هؤلاء الأمراء لهم رغم الاختلاف المذهبى. ولعل ذلك يؤكد أن القيادة الفاطمية لم تكن ترتجل قراراتها، بل كانت تمتلك خطة استراتيجية أملت عليها ضرورة السيطرة على هذا المركز التجارى الحساس الذى يقع على مسالك تجارة الذهب.

على أن حكومة قرطبة، لم تقف مكتوفة الأيدى أمام أطماع الفاطميين فى المغرب والأندلس، إذ كان لها الأخرى عيون ووسطاء منبثون فى أنحاء المغرب، وساعد هؤلاء فى مهمتهم وجود جاليات أندلسية على طول الساحل المغربى، تتمسك بالعقيدة السنية، شديدة الكراهية للمذهب الشيعى^(٤)، هذا فضلا عن قرار عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م بإعلان نفسه خليفة وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين^(٥)، وأمر بلعن الفاطميين على منابر الأندلس^(٦)، ومن الطبيعى أن هذه الخطوة من قبل الناصر لم تجد

(١) البكرى: المسالك، ج٢، ص ٨٣٩.

(٢) نفس المصدر، ج٢، ص ٨٣٩، وراجع: سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور): تاريخ المغرب العربى، الإسكندرية ١٩٩٠، ج٣، ص ٩١.

(٣) البكرى: المسالك، ج٢، ص ٨٣٩. وقارون: ابن عذارى: البيان، ج١، ص ١٨٥.

(٤) أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٩.

(٥) عبد الواحد المراكشى: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص ٥٤.

(٦) أبو حنيفة النعمان: المجالس والسيرات، ص ٢٨٥.

ارتياحاً عند الفاطميين، الذين اعتبروا هذا العمل تعدياً على حق من حقوق أئمتهم، يتجلى ذلك من قول الخليفة المعز^(١): "... كما يتسمى دون من سلف من آبائه .. ونحن نقول إنا أهل ذلك دونه ودون سواه، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه"، كما اهتم الخليفة الناصر بإعداد أسطول بحرى، حتى يصبح قادراً على مواجهة الأسطول الفاطمى، هذا بالإضافة إلى استيلاء الناصر على بعض المدن الاستراتيجية والتجارية المواجهة لساحل بلاده مثل: سبتة وطنجة ومليلة^(٢)، كما عمل الناصر على التحالف مع قبائل البربر ولا سيما قبيلة زناتة، التى عمل على تخريبها، ودفعها إلى قتال صنهاجة حليفة الفاطميين^(٣)، يقول السلاوى^(٤): "... والناصر مُدَّ لَمَن عجز منهم برجاله، مقوٍ لَمَن ضعف بهاله".

وقد عول الناصر على تشجيع وتأييد جميع الثورات والحركات المعادية للدولة الفاطمية، لم يتردد فى مساندة وتأييد أبى يزيد مخلد بن كيداد الزناتى الخارجى، الذى ثار ضد الدولة الفاطمية فى سنة ٣٣٢ هـ/ ٤٣ - ٩٤٤ م، وظلت ثورته مشبوبة، حتى قضى عليها الخليفة المنصور الفاطمى سنة ٣٦ هـ/ ٩٤٨ م وقتل صاحبها^(٥)، وعلى الرغم من فشل هذه الثورة، إلا أنها تركت آثاراً سيئة على مناطق نفوذ الفاطميين فى المغرب الأوسط والأقصى، فقد عزلت إفريقية عن مناطقها الجنوبية، مما أدى إلى ضعف نشاط مسلك تجارة الذهب عن طريق وارجلان^(٦)، هذا فضلاً عن تعاظم نفوذ الأمويين، " حتى ملك الناصر أكثر بلاد المغرب، وبايعته قبائله من زناتة والبربر، وخطب له على منابر من تاهرت إلى طنجة، ما عدا سجلماسة"^(٧)، واستمر هذا الوضع طيلة عهد المنصور.

(١) نفس المصدر، ص ١٦٨.

(٢) البكرى: المسالك، ج ٢، ص ٧٣٥، ص ٧٧٩، ص ٧٨٢.

(٣) أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب، ص ٦٩، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، المجلد الخامس، العدد الأول والثانى ١٩٥٧، ص ٢٠٧.

(٤) السلاوى: الاستقصا، ج ١، ص ١٩٦.

(٥) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن على بن محمد (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م): الكامل فى التاريخ، بيروت ١٩٧٩، ج ٨، ص ٤٣٩ - ٤٤١، وراجع: سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، ج ٣، ص ١٧٤ - ١٨٩.

(٦) الحبيب الجنحاني: دراسات فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، ص ٨٤، وراجع كذلك: Hrbek: The emergence of the Fatmids, PP. 320 J 321.

(٧) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ص ٨٨، السلاوى: الاستقصا، ج ١، ص ١٩٦.

على أن هذا الصراع دخل مرحلة جديدة وحاسمة في عهد الخليفة المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٢ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٢ م) فقد لمس الخطر السياسي والاقتصادي الذي ضربه الأمويون في الأندلس حول إفريقية بسيطرتهم على المغرب الأقصى، وبعض مناطق المغرب الأوسط، للحيلولة دون وصول الفاطميين إلى مسالك تجارة الذهب مع بلاد السودان، فكان عليه أن يواجهه مهامًا جسامًا، لإحكام السيطرة على هذه المناطق وعودتها إلى النفوذ الفاطمي، الأمر الذي جعله يعجل بإعداد حملة عسكرية سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٢ م، يقودها بنفسه على جبل أوراس وبلاد الزاب والتي انتهت بالقضاء على آخر أوكار المقاومة هناك، "حتى استوفت له أمور البلاد كلها"^(١)، ولم يكن غريبًا أن ينتقل هذا الصراع من البر إلى البحر، وقد وقع أول صدام بحري سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٤ م، عندما اعتدى مركب أندلسي كبير على مركب للمعز بالقرب من صقلية، وكان من الطبيعي أن يغضب المعز لجرأة البحريين الأندلسيين، فأمر بإعداد قوات برية بحرية مشتركة يحملها أسطول صقلية، تكون مهمتها متابعة المركب الأندلسي حيثما كان والثأر منه، ولم يكن من العسير على والي صقلية العثور على هذا المركب في ميناء المرية بجنوب شرق الأندلس، ولم يكتف العسكر المعزى بإحراق المركب، بل نزلوا إلى البر بميناء المرية، فاستولوا على المدينة اجتياحًا، وأحرقوا ما به من المراكب والمخازن، وما فيها من المعدات البحرية وعادوا إلى المهديّة سالمين^(٢).

وأمام تهديد الخليفة عبد الرحمن الناصر للوجود الفاطمي في المغرب الأقصى، عول المعز على تجهيز حملة كبرى تربو على عشرين ألف رجل في سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م، بقيادة جوهر الصقلي، ونجح جوهر في إعادة السيادة الفاطمية على المغربين الأوسط والأقصى^(٣)، ثم جعل هدفه الأبعد سجله، وذلك أن أميرها محمد بن الفتح بن ميمون المدراري، انتزع الإمارة من ابن عمه المنتصر الموالي للفاطميين، وانتهى به الأمر أن ترك مذهب الخوارج الصفرية الذي كان يعتنقه بنو مدرار، ودخل في السنة على مذهب مالك

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٩ ص ٤٦، ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٧٩.

(٢) القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، ص ١٦٤ - ١٦٥، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٥١٣ - ٥١٢.

(٣) القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، ص ١٧٠، ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ١٢٤.

في سبيل الدخول إلى دعوة العباسيين، ثم لم يلبث أن اتخذ اللقب الخلفي عندما تسمى بالشاكر لله، وضرب السكة باسمه، والتي عرفت بالشاكرية^(١)، ويبدو أن الشاكر لله نبذ طاعة الفاطميين واستقل بحكم سجلنامه منذ سنة ٣٣٥ هـ/ ٩٤٦ م، يرجع ذلك النقش الموجود على الدينار الشاكري الذي عثر عليه أخيراً في سجلنامه^(٢).

على أن أمير سجلنامه شعر أنه لا طاقة له بجيش جوهر، فلاذ بالفرار إلى بعض حصونه القريبة، بيد أنه وقع في أسر رجال جوهر في نفس السنة، وحمله جوهر هو وصاحب فاس في قفصين على الجمال، قفل بهما راجعاً إلى إفريقية^(٣)، بعد غيبة ثلاثين شهراً قضتها الحملة تجتاح المغرب من أدناه إلى أقصاه، " بعدما دوخ المغرب وخطب لمولاه في سائر بلاد المغرب، ما عدا ستة"^(٤).

وهكذا قضى جوهر في المغرب زهاء سنتين ونيف، ثبت فيها أقدام الفاطميين بإخضاع المغرب الأقصى من جديد لنفوذ الفاطميين، ويشير القاضي النعمان بضرب النقود باسم المعز في سجلنامه بقوله^(٥): "... إن المعز دعا بهال أتاها مما ضرب بمدينة سجلنامه باسمه، ففرقه على من حضر، وقال: تبركوا به، فهذا أول ما ضرب لنا بالموضع الذي فتحه الله علينا". وقد عثر بالفعل على هذه النقود في الحفريات التي كشفت عن مدينة أودغست^(٦).

(١) المصدر السابق، ص ٣٨٨ - ٣٨٩، ابن خلدون، ج ٦، ص ٢٧٠، ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٨٠ وقارون ابن عذارى، ج ١، ص ٢٢٢، حيث يذكر أن جوهر قتل أمير سجلنامه، وهذا لا يتفق مع ما أجمعت عليه المصادر المعاصرة ومن بينها " المجالس والمسائر".

(٢) عثر أخيراً في سجلنامه على دينار للأمير المدراري الشاكر لله، نقش على وجهه: محمد بن الفتح/ لا إله إلا الله وحده/ لا شريك له، محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ونقش على الظهر: الإمام الشاكر لله، محمد رسول الله، المتقي لله، بسم الله ضرب هذا الدينار سنة خمس وثلاثين وثلثائة.

راجع: العملات الذهبية الإسلامية (WWW. Islamiccoins. net) وكذلك: ملاحق البحث ص ٣٨.
(٣) البكري: المسالك، ج ٢، ص ٤٨٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٥٢٥، ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٨٠.

(٤) إدريس عماد الدين: عيون الأخبار، السبع السادس، ص ٩١ - ٩٧، ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٨٠.

(٥) القاضي النعمان: المجالس والمسائر، ص ٢٥٦.

(٦) الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي، ص ١٧٣.

وينتهز الزناتيون حلفاء بنى أمية، فرصة خروج الجيش الفاطمي إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م للقيام بانتفاضة ضد الحكم الفاطمي، محاولين استرجاع سيادتهم على المسالك التجارية، ويستثمر الخليفة المعز الصراع بين زناتة وصنهاجة، فيعتمد على زيري بن مناد الصنهاجي، ثم يعهد بالأمر عند رحيله إلى مصر لبلكين بن زيري، ويخرج بعد توديع المعز إلى المغرب الأقصى حيث يبقى بضع سنوات، وعندما يطلب منه الخليفة العزيز بالله سنة ٢٧١ هـ/ ٩٨٢ م أن يرسل له ألف فارس، يعتذر بتغلب بنى أمية على المغرب الأقصى، وأن الدعاء لهم فيها على المنابر، وأنه قد خرج لمحاربتهم بهؤلاء الرجال^(١).

على أية حال سيطر الأمويون على المسلك الغربى بعد حملة بلكيم بن زيري، وحتى منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، إذ أصبح يخضع لنفوذ المرابطين^(٢).

يتضح لنا مما سبق أن الجوانب السياسية والعسكرية والمذهبية فى الصراع الفاطمى الأموى والذى استمر أكثر من نصف قرن من الزمان ونيف، كان يكمن وراءها العامل الاقتصادى يؤيد ما ذهبنا إليه السياسة التى اتبعها الفاطميون فى حكم سجلماة. ولعل الثروة الذهبية الضخمة التى تجمعت فى خزائن الدولة الفاطمية، وأتاحت للمعز سبك الدينار على شكل الطواحين وحمله على ألفى جمل من إبل زناتة "فاستعظم ذلك الجند والرعية، وصاروا يقفون فى الطرق لرؤية بيت المال المحمول"^(٣)، كما تجمعت بقرطبة ثروة ذهبية ضخمة بالرغم من حملات الفاطميين المتكررة للسيطرة على المسلك الغربى، وعزل الأمويين عنه، وتمتعت بلاد الأندلس بالرخاء الاقتصادى، وزادت ثروتها بعد وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م) حتى لقد بلغ دخل الحكم الثانى

(١) ابن عذارى: البيان، ج١، ص ٣٤٠، وراجع كذلك: جورج مارسية: بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق، ص ١٨٤، وكذلك: حسن خضيرى أحمد (الدكتور): علاقات الفاطميين فى مصر بدول المغرب، القاهرة ١٩٩٦، ص ٣٨-٤٢.

(٢) الحبيب الجناحاني: دراسات، ص ١٧٤.

(٣) المقرئى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨، ج١، ص ١٤٤، إدريس عماد الدين، عيون الأخبار، السبع السادس، ص ١٨٤، وراجع: حسن خضيرى: علاقات الفاطميين، ص ٣٤.

(٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م) ضعف دخل أبيه، وظل ذهب السودان يتدفق عليها من سبتة عبر المغرب الأقصى، مما زاد في ازدهار الحياة الاقتصادية، على نحو ما حدث في دولة بنى زيري في إفريقية^(١).

على أن الأوضاع السياسية لخريطة المغرب والأندلس: طرأت عليها تغيرات عميقة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلاد، فقد خرج المغرب الأقصى منذ نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادى عن نفوذ بنى زيري خلفاء الفاطميين في المغرب، وما لبث أن تصدع حكمهم وتقلص ظله في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادى، وكادت تخرج إفريقية كلها والمغرب الأوسط بعد الهجرة الهلالية، التى أحدثت تبدلات وتغيرات كثيرة، ليس فى خريطة المغرب السياسية فحسب، بل فى ميزان القوى العالمية فى ذلك الوقت^(٢)، وعلى الجانب الآخر تضعف الدولة الإسلامية فى الأندلس، فتصبح عاجزة عن التدخل فى شئون المغرب الأقصى، وينتهى الأمر بسقوط الخلافة الأموية فى الأندلس سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٢م، إيداناً ببداية عصر ملوك الطوائف^(٣).

امتدت مواطن زناة فى سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب، ما بين غدامس والسوس الأقصى^(٤)، وانتشرت عشائرها وبطونها فى المغرب الأوسط، حتى لقد أطلق على هذا الإقليم اسم أرض زناة^(٥)، ونجح خزرون بن فلفل الزناتى فى الاستيلاء على سجلهامة والقضاء على الأسرة الحاكمة من بنى مدرار سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م، وبذلك ينتهى ملك بنى مدرار بسجلهامة^(٦)، وأصبحت زناته تسيطر مباشرة على أهم مراكز تجارة

(١) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية، ص ٣٣٢ وراجع:

Pekka: Trans – Saharan Trade, pp. 124 – 127.

(٢) الحبيب الجنحاني: دراسات فى التاريخ الاقتصادى، ص ٩١، وراجع كذلك: حسن خضيري أحمد: علاقات الفاطميين، ص ٨١.

(٣) أحمد مختار العبادى: دراسات، ص ٨٨ - ٨٩.

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج ١، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٥٧.

(٦) ابن عذارى: البيان، ج ١، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

الصحراء، الواقعة على مسالك تجارة الذهب، وبقيت صنهاجة تقوم بدور حراسة القوافل في منطقتها الشاسعة، الممتدة من غدامس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبال درن شمالاً حتى منحى النيجر جنوباً، حتى "صاروا ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة"^(١)، ولم تكن صنهاجة في الواقع مجرد قبيلة، بل كانت شعباً عظيمًا، يتألف من قبائل، قيل إنها بلغت السبعين عددًا، وانتشرت فوق صفحة المغرب انتشارًا بعيد المدى^(٢).

على أن الوضع السياسى في بلاد المغرب، جعل صنهاجة تطمح في تجاوز دور الوساطة التجارية في منطقة صحراوية، لتصبح لها السيادة الكاملة في المنطقة العمرانية في الشمال، وعلى شبكة المسالك التى تربط بين مدنها وقراها. إن هذا الأمل يتحقق إثر ظهور دعوة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى^(٣)، وقامت هذه الدعوة على التحالف بين لمتونة، وجدالة، ومسوفة، ولمطة. ولعل هذا التحالف كان يمثل تجسيداً حياً لواقع المصالح الاقتصادية، التى تربط بين مختلف المناطق الاقتصادية ومسالك التجارة^(٤). يقول ابن خلدون^(٥): "إن القبيل الواحد، وإن كانت فيه بيوتات متفرقة، وعصبيات متعددة، فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها، تغلبها وتستتبعها، وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصبح كأنها عصبية واحدة كبرى".

على أية حال سارعت صنهاجة إلى جمع شتات أمرها وتوحيد قواها، بفضل الجهود التى بذلتها قبيلة لمتونة القوية، التى كانت تحتكر زعامة صنهاجة الصحراء منذ وقت بعيد، "فالملك والدولة إنما يحصل بالقبيل والعصبية"^(٦)، ويبدو أن سياسة هذا التحالف كانت تقضى بمواصلة الجهود التى بذلت منذ إسلام صنهاجة في مدافعة ممالك السودان والمحافظة على طرق التجارة، يؤيد ما ذهبنا إليه أن أول نقود ظهرت للمرابطين ضربت

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦- ص ٢٧١.

(٢) حسن أحمد محمود (الدكتور): قيام دولة المرابطين، القاهرة ١٩٥٧، ص ٣٦.

(٣) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٨٨.

(٤) ناعمى مصطفى: الصحراء، ص ٧٨.

(٥) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص ٩٩.

(٦) نفس المصدر، ص ١٠٨.

بمدينة سجلماسة^(١)، هذه المدينة التي كانت هدفاً للمرابطين منذ اللحظات الأولى لقيام دولتهم، وأسهب المؤرخون^(٢) في المعارك العديدة التي دارت رحاها على أرض سجلماسة بين المرابطين وزناتة. هذا فضلاً عن المقاومة الباسلة التي أبدتها الزناتيون في دفاعهم عن سجلماسة، وكادت سجلماسة تخرج من يد المرابطين، لولا أن تداركوا أمرهم، وجمعوا صفوفهم وحملوا حملة رجل واحد على الزناتيين. ولعل إصرار المرابطين على فتح هذه المدينة، يفسر لنا أهمية الدور الاستراتيجي الذي يلعبه هذا المركز التجاري الحساس في قيام كيانهم السياسي ودولتهم الفتية.

على أن الدولة المرابطية، وإن كانت قامت على أساس العصبية وتحالف قبائلها، فإنها في الوقت نفسه رفعت شعار مذهب مالك والعودة إلى تعاليم الدين الإسلامي الصحيح، وقد تكتب السيادة لقليلة بسبب دعوة دينية تنشرها بين القبائل الأخرى. وقد فطن لذلك ابن خلدون^(٣)، بقوله: إن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها"، ولكن يجب ألا تغفل أهمية العامل الاقتصادي، بل لا نكون مغالين

(١) عثر على بعض الدنانير المرابطية التي ضربت في سجلماسة، ويرجع تاريخها إلى السنوات (٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م)، (٤٧١ هـ/ ١٠٧٩ م) في عهد أبي بكر بن عمر أول أمراء المرابطين، وكذلك دنانير يرجع تاريخها إلى السنوات (٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م)، (٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م) في عهد الأمير يوسف بن تاشفين، هذا فضلاً عن دينار ضرب في سنة (٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م) في عهد الأمير علي بن يوسف.

راجع: العملات الذهبية الإسلامية (www.Islamiccoins.net)، وكذلك:

* Lavoix, H: *Catalogue des monnaies Muslmanes de La Bibliotheque Nationales de Paris* DCCXCI, pp 550 – 555.

* Michale Michiner: *Oriental Coins and their Values* (The World of Islam) London, 1997, pp. 99 – 100.

وانظر كذلك ملاحق البحث، ص ٣٩.

(٢) ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله (ت ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م): الأئيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، ١٩٧٣، ص ١٢٨، النوري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق الدكتور حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣، ج ٢٤، ص ٢٦١، يذكر النوري أن فتح سجلماسة كان في سنة ٤٥٣ هـ ويذكر ابن خلدون أن فتحها بين سنتي ٤٤٥، ٤٤٧ هـ ج ٧، ص ٥٢، ويرجع أستاذنا الدكتور حسن أحمد محمود السنة الأخيرة (٤٤٧ هـ) قيام دولة المرابطين، ص ١٩٢.

Enc. of Islam, Art (Sijilmasa).

(٣) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص ١١١.

إذا قلنا إن الدوافع الاقتصادية كانت ذات أثر بالغ في توجيه غزوات المرابطين واستنهاض همهم لفتح بلاد المغرب، وتثبيت أركان الدولة حتى غدت إمبراطورية مترامية الأطراف، في عهد أميرها يوسف ابن تاشفين (ت ٤٦٣ - ٥٠٠ هـ / ١٠٧٠ - ١١٠٦ م)^(١)، حيث امتدت من عاصمتهم مراکش في المغرب الأقصى، إلى مدينة الجزائر شرقاً، وبلاد السنغال جنوباً، هذا فضلاً عن الأندلس، ويصف ابن أبي دينار^(٢) ملك يوسف بن تاشفين بقوله: "ملك جزيرة الأندلس والسودان والمغرب إلى جزائر بني مزغناي، ودانت له البلاد، وخطب له على ألف وتسعمائة منبر"، وترك لابنه على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ / ١١٠٦ - ١١٤٣ م) من بعده، دولة قوية عريضة الثراء^(٣)، "وملك من البلاد ما لم يملكه والده، لأنه وجد البلاد هادئة، والأموال وافدة، والملك قد توطأ، والأمور قد استقامت"^(٤).

وإذا كان المرابطون قد استطاعوا أن ينشئوا أهم عملة دولية في أيامهم، فقد كان ذلك بفضل مراقبتهم للمحورين التجاريين، الواقعة عليهما المراكز التجارية الهامة، ولا سيما سجلماسة، وتامدلت، وكلاهما ينتهي إلى المراكز القريبة من مناجم الذهب، فكانت الدنانير المرابطية غاية في الجودة، واكتسبت سمعة عالمية، وأصبحت وسيلة التعامل الدولي، وكان عليها طلب في كافة بلدان حوض البحر المتوسط، حتى أن باحثاً حديثاً^(٥)، أطلق عليها اسم "دولار القرون الوسطى". ومن هنا يمكن القول إن المرحلة الكبرى للذهب الإسلامي، لم تبدأ في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، بل على العكس من ذلك، فهي تبدأ في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. أما مصدر هذا الذهب فهو بلاد السودان، ماراً بسجلماسة، ليصل إلى الأندلس، ثم إلى بلاد أوروبا^(٦).

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٥٦، ابن عذارى: البيان، ج ٤، ص ٤٥، وراجع:

* Pekka: Trans – Saharan Trade, p. 124.

* Boville: The Golden Trade, p. 78.

(٢) ابن أبي دينار: المؤنس، ص ١٣١.

(٣) المراكشي: المعجب، ص ٢٧١، ابن أبي ديار: المؤنس، ص ١٣٣، وقارن النويري، ص ١٣٣، نهاية الأرب، ج ٢٤، ص ٢٧٥، حيث يذكر أن تاريخ وفاة على بن يوسف سنة ٥٣٥ هـ.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ١٥٧.

(5) Goitein: Letters of Medieval Jewish Traders, p. 325, n.5.

(٦) الحبيب الجنحاني: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ١٠١ وراجع كذلك: A, Bathely: Relations, between different regions of Africa, p.738.

وهكذا كانت سجلماة بحكم موقعها المتميز، وبنيتها التجارية، من أهم مراكز تجارة الصحراء المغربية، وغدت نقطة انطلاق الأحداث السياسية، وقاعدة لقيام الكيانات السياسية، وأداة وصل فعالة، ربطت بين شمال القارة الإفريقية وجنوبها، بفضل تجارتها الكثيفة، وعن طريقها تأكدت إخوة عشرات القبائل، التى لم تر فى حدود السياسيين الحمراء إلا خطوطاً وهمية، ترفضها طبيعة معيشتهم، وتتعارض مع وحدتهم العرقية والحضارية، كما كانت منارة علم، وسراج نور فى نشرها للدين الإسلامى فى جنوب القارة الإفريقية.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م): الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٧٩، ج ٨.
- إدريس عماد الدين بن الحسن بن عبد الله القرشي (ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م): عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق الدكتور مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٤ م.
- الإدريسي، الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٤، ٢ جزء.
- الاصطخرى أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م): المسالك والممالك، طبعة أولى مصر، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م): رحلة ابن بطوطة، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت).
- البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسى (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م): كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليفن، وأندرى فيرى تونس ١٩٩٢، ٢ جزء.
- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م): الجماهر في معرفة الجواهر، طبعة أولى، حيدر آباد ١٣٥٥ هـ.
- ابن حماد، أبو عبد الله محمد بن علي (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، الجزائر ١٩٢٧ م.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م): كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة ثانية، بيروت ١٩٨٠ م.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي البغدادي النصيبي (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (د. ت).

- ابن حيان: أبو مروان (ت ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م): المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن على الحجى، بيروت ١٩٨٣ م.
- ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت حوالى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م): نشر دى غويه، ليدن ١٨٨٩ م.
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، (دار الكتاب اللبناني ١٩٨١ م)، دار الفكر اللبناني ١٩٨٨ م.
- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون، الإسكندرية (د.ت).
- الخوارزمى: محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م): مفاتيح العلوم، القاهرة (د.ت).
- ابن أبى دينار، أبو عبد الله محمد أبى القاسم الرعينى القيروانى (ت ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، طبعة ثالثة، بيروت ١٩٩٣ م.
- ابن أبى زرع، أبو الحسن على بن عبد الله (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م.
- ابن سعيد المغربى، على بن سعيد (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م): كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربى، بيروت ١٩٧٠ م.
- السلاوى، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدى المؤلف، جعفر ومحمد، الدار البيضاء ١٩٥٤ م.
- ابن عبد الحكيم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م): فتوح مصر وأخبارها، مكتبة مذبولى، القاهرة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م.
- المراكشى، عبد الواحد المراكشى (ت ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م.
- المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٦٦ م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.

- المقدسى، أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشارى (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- المقریزی، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج١، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨، ١٩٦٧م.
- المقریزی: المقفى الكبير، ترجمة المهدي عبيد الله، تحقيق محمد اليعلاوى، حوليات الجامعة التونسية، العدد ٥٢، ١٩٨٦م.
- مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى، نشر وتحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية ١٩٨٥م.
- مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، نشر وترجمة لافويتى الكنترا، مدريد ١٨٦٧م.
- النعمان، القاضي أبو حنيفة بن محمد بن حيون المغربى (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٤م): المجالس والمسائرات، تحقيق الحبيب الفقى وإبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوى، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٨م.
- التويرى، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣١م): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، تحقيق د. حسين نصار، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م.
- ابن الوزان، الحسن بن محمد الوزان (ت حوالى ١٥٥٢م): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط ١٩٨٠م، ٢ جزء.
- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٨٤م.
- اليعقوبى: أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن واضح (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م): كتاب البلدان ملحق بالأعلاق النفسية لابن رسته، ليدن ١٨٩١م.

ثانياً: المراجع العربية

- إبراهيم حركات (الدكتور): "دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتسويق"، مجلة البحوث التاريخية، الجماهيرية الليبية، السنة الثالثة، العدد الأول يناير ١٩٨١.
- أحمد مختار العبادى (الدكتور): "سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس" صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد الخامس، العدد الأول والثاني ١٩٥٧.

- أحمد مختار العبادى (الدكتور): دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية ١٩٦٧.

- آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده، القاهرة ١٩٤١، ٢ جزء.

- أرشيبا لدلويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠.

- جواتين: دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق الدكتور عطية القوصى، بيروت ١٩٨٠.

- جورج مارسية: بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامى، ترجمة محمد عبد الحميد هيكل، مراجعة الدكتور مصطفى أبو ضيف، الإسكندرية ١٩٩١.

- الحبيب الجنحاني (الدكتور): دراسات فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للمغرب الإسلامى، طبعة ثانية، دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٨٦.

- حسن أحمد محمود (الدكتور): قيام دولة المرابطين - صفحة مجيدة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٧.

- حسن خضيرى أحمد (الدكتور): علاقات الفاطميين فى مصر بدول المغرب، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٩٦.

- حسين مؤنس (الدكتور): معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة ١٩٨٠.

- حسين مؤنس (الدكتور): ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف القاهرة.

- رينهرت دوزى: المسلمون فى الأندلس، ترجمة وتعليق د. حسن حبشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤، ج١.

- سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور): تاريخ المغرب العربى، الإسكندرية ١٩٩٠، ج٣.

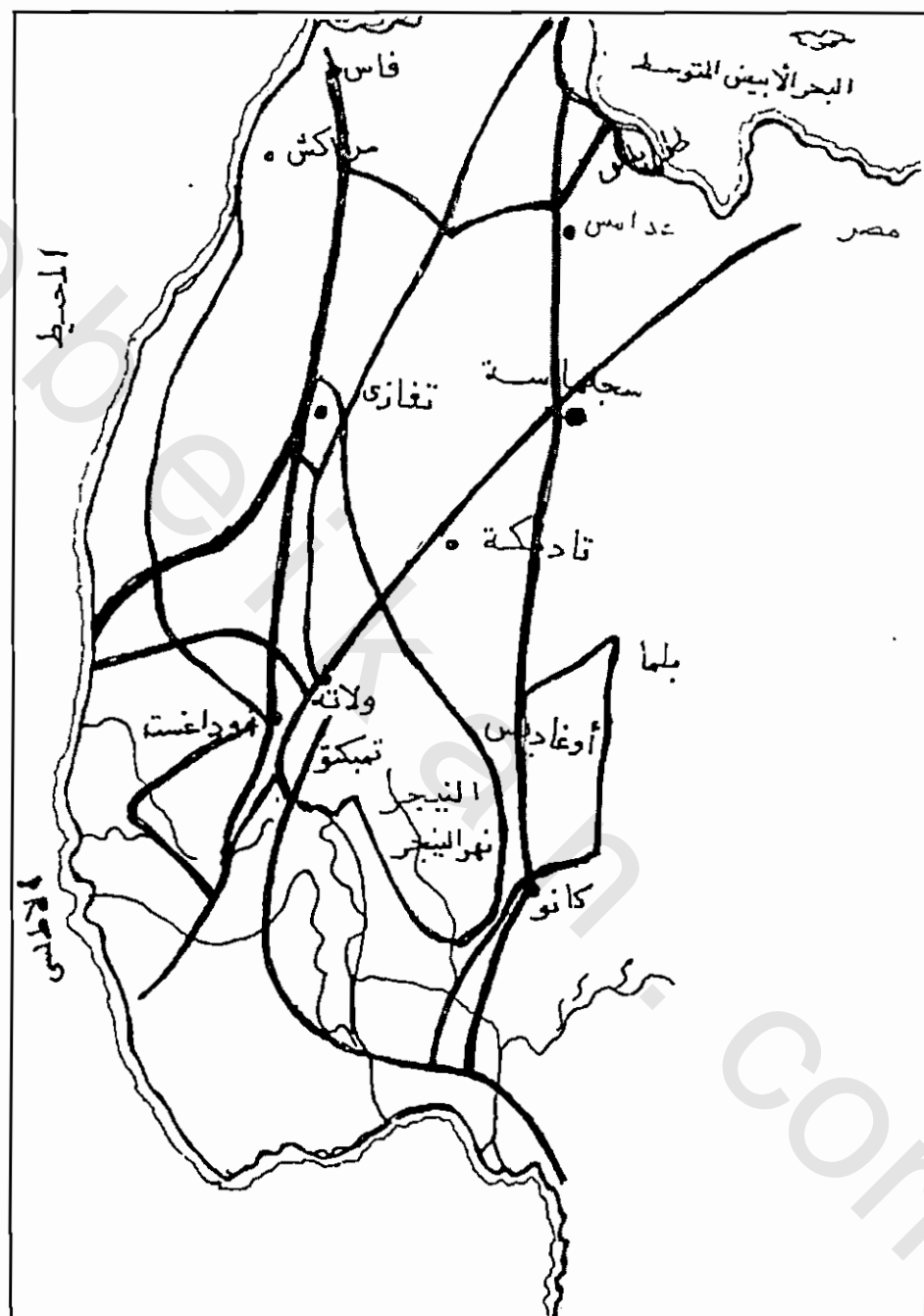
- محمد جمال الدين سرور (الدكتور): تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٥.

- محمود إسماعيل عبد الرازق (الدكتور): الخوارج فى المغرب الإسلامى، القاهرة ١٩٨٦.

- ناعمى مصطفى: الصحراء من خلال بلاد تكنه، الرباط ١٩٨٨.

ثالثاً : المراجع الأجنبية

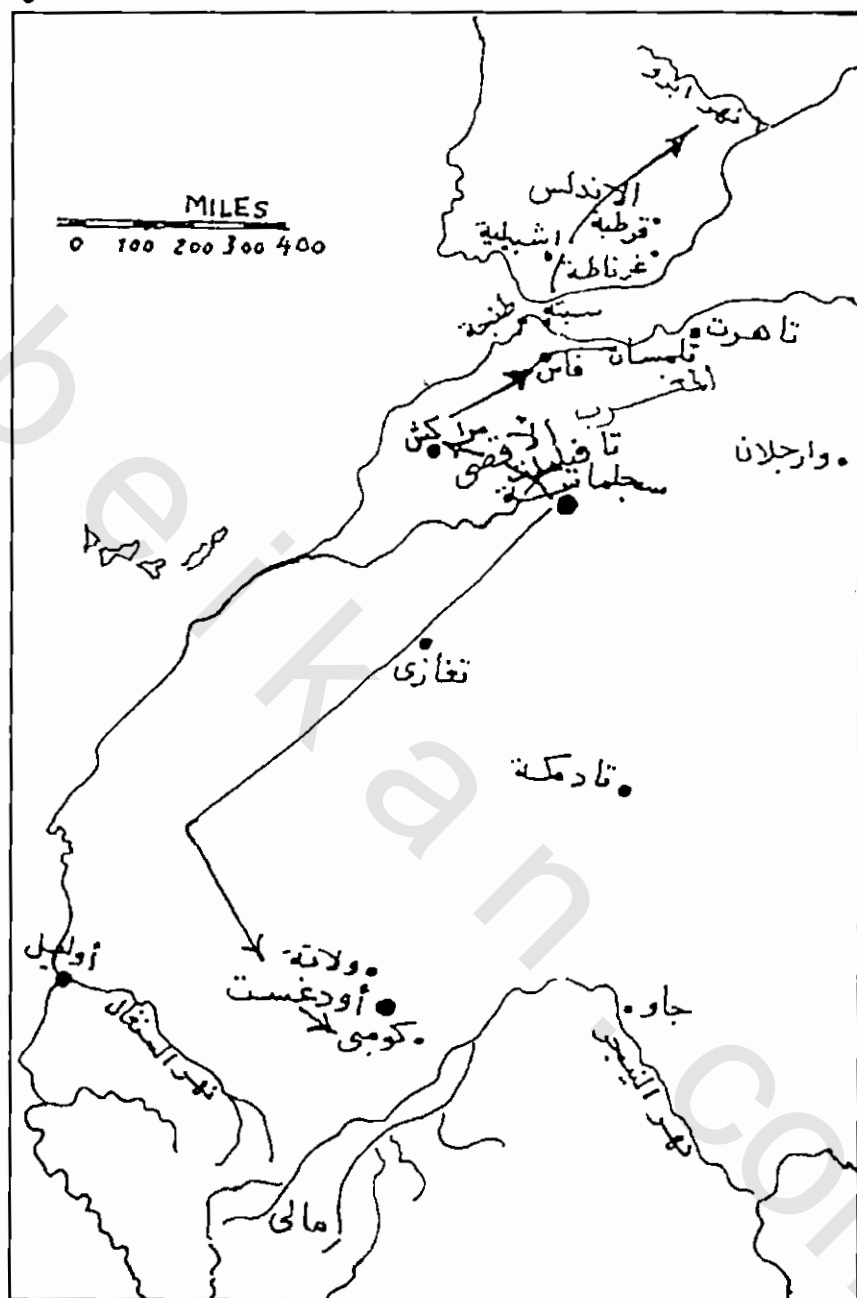
- * A.Bathily., "Relations between the different regions of Africa" in M. El Fasi (editor), General History of Africa, III, Africa from the seventh to the eleventh century, California, 1981, (pp.734 – 749).
- * Binger, "Les Routes Commerciales Du Soudan Occidental," , Paris, 1886.
- * Boville, E. W.: The Golden Trade of the Moors, Oxford University Press, 1968.
- * Encyclopaedia of Islam.
- * Fournel, H.: Les Berbers Etudes sur La coquette de L'Afrique parles Arabes, Paris, 1881.
- * Hrbek, I.: "The emergence of the Fatimids" in M. Elfasi (editor) , General History of Africa, III: Africa from the seventh to the Eleventh century, Heinemann, Unesco, 1981, (pp., 314 - 335).
- * Lavoix, H.: Catalogue des monnaies Musulmanes de Bibliotheque Nationales de Paris DCCXCI.
- Levi Provençal: Histoire de L'Espagne musulmane de Bibliotheque Nationale
- Nicholson: Oriental Coins and Their values (The World of Islam). London 1977.
- Pekka Mithciner: "Trans – Saharan Trade and the West African Discovery of the Mediterranean world (The third Nordic conference on Middle Eastern studies, Finland, 1995).
- * S.D. Goitein: Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton University press, 1973.
- *: A Mediterranean Society, VI, California Press, 1967.
- *: The Cairo Geniza as a source for the History of Muslim Civilization (studia Islamica, V. III. 1955).
- * www. Islamiccoins, net/index. Php.



شكل (٢)

خريطة تبين طرق التجارة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري
الحادي عشر الميلادي

Boville, The Golden Trade of The Moors



شكل (٢)

خريطة تبين طرق التجارة في عصر دولة المرابطين

Saharan Trade and The West African-Pekka, Trans

العهد: محمد الشاكر لله



الوجه

المركز: محمد / لا إله إلا / الله وحده / لا
شريك له / بن الفتح
الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى
ودين الحق ليظهره على الدين كله
ولو كره المشركون



الظهر

المركز: الإمام / محمد / رسول / الله /
المتقى لله / الشاكر / لله
الهامش: بسم الله ضرب هذا الدينار سنة
خمس وثلثين وثلثائة.

القطر: ٩, ١ سم

لوحة (١)

دينار ملداری ضرب فی سجدنامه سنة ٢٢٥ هـ
www.Islamiccoins.net/index.php

العهد: أبو بكر عمر اللمتوني



الوجه

المركز: لا إله إلا الله / محمد رسول الله / الأمير أبو بكر /
بن عمر
الخامس: ومن يتغ غير الإسلام فلن يقبل منه وهو من
الخاسرين



الظهر

المركز: الإمام / عبد / الله / أمير المؤمنين
الخامس: بسم الله ضرب هذا الدينار بسجل مائة سنة
إحدى وسبعين وأربعمائة
القطر: ٢, ٤ سم
القطر: ١, ٩ سم

لوحة (٢)

دينار مرابطى ضرب سجلماسة سنة ٤٧١ هـ

www.Islamiccoins.net/index.php

العهد: يوسف بن تاشفين



الوجه

المركز: لا إله إلا الله / محمد رسول الله / الأمير يوسف
بن / تاشفين

الهامش: ومن يتبع غير الإسلام ديناً.....

الظهر



المركز: الإمام / عبد / الله / أمير المؤمنين

الهامش: بسم الله ضرب هذا الدينار بسجله سنة
أربع وثمانين وأربع مائة

القطر: ٢,٤ سم

القطر: ٢,٥ سم

لوحة (٢)

دينار مرايطى ضرب سجلة سنة ٤٨٤ هـ

www.Islamiccoins.net/index.php

oboeikan.com

ملكية الأراضى والضرائب فى مدينة الرملة

(١٢٨١ - ١٣٣٣هـ) (١٨٦٤ - ١٩١٤م)

من خلال سجلات المحاكم الشرعية

الباحثان

د/ إبراهيم محمد عبد اللطيف، عبد الله

ماجستير فى التاريخ الحديث

مدرس فى وكالة الغوث - غزة

د/ رياض مصطفى أحمد شاهين

الأستاذ المشارك فى التاريخ

بالجامعة الإسلامية - غزة

obeyikan.com

ملكية الأراضى والضرائب فى مدينة الرملة

(١٢٨١ - ١٣٣٣هـ) (١٨٦٤ - ١٩١٤م)

من خلال سجلات المحاكم الشرعية

قامت الدولة العثمانية بإحداث تغيرات بالنسبة للأراضى وقوانينها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فأصدرت سنة ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨م قانون الأراضى المؤقت الذى ألغى وبصورة شرعية نظام الإقطاعات العسكرية والتوجه إلى جعلها أملاك خاصة كما أحالت جباية الضرائب إلى موظفى الطابو^(١) بدلاً من متعهدى الضرائب، وحائزى الإقطاعات، وأصدرت الحكومة لائحة تعليمات بحق سندات وصكوك الملكية للملكية لتطویر الملكية الخاصة للأرض، وجعلها متداولة بين أيدي الناس^(٢).

تسجيل الأراضى

بعد مضى سنتين على صدور لائحة تعليمات سندات الطابو أعلن نظام الطابو فى ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١م، والذى جاء فى ٣٣ مادة بتحويل مديرى المال والقائمين فى الأقضية صلاحية تفويض الأراضى الأميرية وإحالتها إلى طالبىها ومستحقىها وأصحابها، كذلك حدد النظام رسم تسجيل الطابو وكانت تقدر بنسبة ٥٪ من قيمة الأراضى المحتمة،

(١) الطابو: كلمة تركية تعنى الطاعة بالاعتقاد، وقد استخدمت للدلالة على تبعية الأراضى للخزينة وانقياد المتصرف بها لما هو مدون فى السجلات والدفاتر الخاقانية، وسندات التصرف الصادرة عن

نظارة الدفتر الخاقانى، للمزيد انظر دعبس، المر، أحكام الأراضى، ص ٨٠.

(٢) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٢٣١، المر، أحكام الأراضى، ص ٥٩، ٢٩.

إضافة إلى مطالبتهم بدفع ثلاثة قروض ثمن السند، وفي حالة التخلف عن التسجيل يفقد المتصرف حقه في الأراضي وتباع في المزاد العلني^(١).

ولضبط عملية التسجيل وانتقالها فقد أنشأت الحكومة العثمانية في مركز قضاء يافا دائرة لتسجيل الأراضي وعرفت باسم (دائرة الدفتر الخافاني)^(٢). وقد أشارت السجلات والحجج لتسجيل الأراضي، لأول حجة شرعية لسنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م^(٣). وقد أنشئ للدائرة فرع في الرملة عام ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م، وكان يعمل فيه كاتب يوقلمه^(٤). ومن الأراضي التي تم تسجيلها قرى: شلتا، بيت نوبا، المدينة، بعين، دير قديس، وقيا، وبيت فار، ودير طريف، وخربة، حنونة، الخيمة، برفيليا، حبلتا، البرية، زكريا.. حيث كان يتم تسجيل قطعة الأرض وحدودها ومساحتها، والتمييز بين أنواعها من: الميرى، الوقف، الميراث، المملوكة، وبيان قيمة التخمين وأجرة كتابتها، ويتم المصادقة على ذلك من قبل مجلس الإدارة في القضاء^(٥).

فتشير المصادر أنه في سنة ١٢٨٧ هـ، ١٨٧٠ م كان آل الفاروقى يملكون ٥٠,٠٠٠ دونم، بينما كانت أملاك آل التيان تقدر بحوالى ٤٠,٠٠٠ دونم^(٦).

ويتضح من خلال سجلات المحاكم الشرعية الكثير من الأسماء التى تملك أراضي في الرملة وما حولها خلال فترة الدراسة، بحسب الجدول الآتى:

اسم الملاك	مكان الإقامة	موقع الملكية	التبعية الإدارية	المساحة بالدونم	السجلات
حامد المصرى	ملبس	ملبس	قضاء يافا	١٤٠٠	س ش يافا (٦٠) ص ١٠٦ افينرى، ص ٧٧
				تنازل عنها مجبراً للتيان وكسار	

(١) المر، أحكام الأراضي، ص ٦٤ - ٧١.

(٢) س ش يافا (٣٢) ص ١٤.

(٣) س ش يافا (٢٧) ص ٢٧، س ش يافا (٣٩) ص ٧٦.

(٤) عوض، الإدارة العثمانية، ص ٢٣٣ - ٢٣٥.

(٥) الطرادنة، قضاء يافا، ص ٢٧١.

(6) Pamela, Ann, Smith, Palestine and Palestinian, p.13.

اسم الملاك	مكان الإقامة	موقع الملكية	التبعية الإدارية	المساحة بالدونم	السجلات
آل التاجي الفاروقي	الرملة	القيبية خلدا المنصورة	قضاء يافا	٣٣٠٠٠ وهم نسبة إلى الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه	س ش يافا (٥٤) ص ١٠١ - ١٠٢ س ش يافا (١٤٠) ص ٢٦٧ افينرى، ص ٢١١ العسلى، تراث، ص ٢٤٧ - ٢٤٨
				عنه	
جريس بغوص كركور	يافا	الخيمة النعاني	قضاء يافا	٨٠٠٠ يتمى جريس إلى أسرة مسيحية كان لها باع طويل في مجال التجارة	س ش يافا (٨٥) ص ٣٦، ٧١ س ش يافا (٨٦) ص ٢٩٢ س ش يافا (١١١) ص ٢٣١ فلسطين (يافا) ١٦ آب ١٩١١ م، ع ٦٣، ص ٣ Kenneth, p224
حسنى بك الأرناؤطى	يافا	شحمة قزازه	قضاء يافا	٥٠٠٠ ينحدر حسنى بك من أصل ألبانى حظى برئاسة بلدية يافا ١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٤ م	س ش يافا (٤٦) ص ٩١-٩٢ س ش يافا (٨٦) ص ١٩٦ - ١٩٧ س ش يافا (٩١) ص ١٢ - ١٤ Kenneth, p224
أنطون بشارة	يافا	ملبس	قضاء يافا	٤٠٠٠٠٠	س ش يافا (١٤٨) ص ٤١ - ٤٢

اسم الملاك	مكان الإقامة	موقع الملكية	التبعية الإدارية	المساحة بالدونم	السجلات
التيان				نقلت جميع ملكيته إلى الحركة الصهيونية	س ش يافا (١٥٠) ص ٤٠ - ٤١ س ش يافا (١٥٤) ص ٧٧ Pamela, Palestine, p.13
آل كساب	يافا	صرفند	قضاء يافا	- بالاشتراك مع محمد فارس أبو كشك	س ش يافا (١٤٠) ص ٩٥ - ٩٦، ص ١٢٠ - ١٢٢ س ش يافا (١٤٤) ص ٤٤، ٥٨، ٦٠ س ش يافا (١٤٨) ص ٢٧٦ س ش يافا (١٥٠) ص ٢١ - ٢٢ Kenneth, p.224
آل غصين	الرملة	أبو الفضل وادي حنين	قضاء يافا قضاء يافا	- كانوا مسؤولين عن مقام الفصل بن العباس	س ش يافا (١٥٦) ص ١٢٠ س ش يافا (١٦٦) ص ٢٧٥ - ٢٩٩، ٣٠٠ - ٣٠٢
آل بيطار	يافا	رنتيه قولة	قضاء يافا	٨٠٠٠ عرف آل البيطار بهذا الاسم يعلمهم في مجال البيطرة وتجارة الحيوانات	س ش يافا (١٤٠) ص ٢٧٤، ص ٣١٦ - ٣١٧ Kenneth, p. 224

اسم الملاك	مكان الإقامة	موقع الملكية	التبعية الإدارية	المساحة بالدونم	السجلات
أنطوان الكسار	يافا	ملبس قولة	قضاء يافا	- اشترك مع التبان في ملكية أراض ملبس	س ش يافا (٦٢) ص ١٧٩ س ش يافا (٧٦) ص ٣٤-٣٥ س ش يافا (٨٠) ص ٥١-٥٠ س ش يافا (٨٥) ص ٦-٥ س ش يافا (٨٦) ص ٩٧ س ش يافا (٨٨) ص ١٣٨ س ش يافا (٩١) ص ١٠٨-١٠٩ أنفيري، ص ٧٧-٧٦
إسكندر روك	يافا	رنتيه الخيمة فجة	قضاء يافا	- من عائلات يافا المسيحية العاملة في حقل التجارة	س ش يافا (٨٥) ص ٧١، ٣٦، ١٦٦ س ش يافا (٨٦) ص ١٢٦، ٢٩٢، ١٣٠ س ش يافا (٩١) ص ٩٥ س ش يافا (٣٩) ص ٢٥٨، ٢٦٦ س ش يافا (١٤٨) ص ٦٨، ٢٦٦ س ش يافا (١٥٦) ص ١٥٣
آل كارمي من عائلات القدس المسيحية	القدس	كفر وريه	قضاء يافا	٤٨١٤	المنادى، ٢٤ تموز ١٩١٢ م، ع ٤٤، ص ٤ المنادى، ١٣ نيسان ١٩١٣ م، ع ٥٨، ص ٣

اسم الملاك	مكان الإقامة	موقع الملكية	التبعية الإدارية	المساحة بالدونم	السجلات
آل الحسيني	القدس	بيت جبرز بيت سوسين وادي حنين	قضاء يافا	- يشير كنه أن مساحة أراضي آل الحسيني وصلت حوالي ٥٠,٠٠٠ دونم، وأن ملكيتهم فاقت هذه المساحة	س ش يافا (٦١) ص ٧٥ س ش يافا (٨٥) ص ١٤٤-١٤٩ س ش يافا (٨٨) ص ١٤٢-١٤٦ Kenneth, p.224
آل النشاشيبي	القدس	قزازه النعاني شلتا قطره	قضاء يافا	- كانت ملكية النشاشيبي بيد عثمان النشاشيبي	س ش يافا (٥٠) ص ١٢٩- ١٣٢ س ش يافا (٦٢) ص ٢٧٧- ٢٧٨ س ش يافا (٨٣٠) ص ٧١-٨٣ س ش يافا (٨٥) ص ٢٥- ٣٣,١٧١ س ش يافا (٩١) ص ٣٥٤ Kenneth, p.224
آل بطاطو	القدس	خلدا كفرورية	قضاء يافا	- من عائلات القدس المسيحية	س ش يافا (٤٣) ص ٤٧-٤٨ س ش يافا (٣٨٤) ص ٩٣
أبو غوش	أبو غوش	عمواس دير أيوب بيت محير	قضاء يافا	- استمرار للتيارات الإقطاعية ومكانات الالتزام	س ش القدس (٢٨٩) ص ٦٨ س ش القدس (٣٦٢) ص ١٨

اسم الملاك	مكان الإقامة	موقع الملكية	التبعية الإدارية	المساحة بالدونم	السجلات
		سليت			
آل جار الله	القدس	بالو زكريا	قضاء يافا	-	أبو بكر، المتصرفية، ص ٥٣٤
آل العزة	بيت جبرين وتل الصافي	قرازة النعاني شحة	قضاء يافا الإقطاعية قضاء يافا	استمر التيارات القديمة ومكانات الالتزام	س ش يافا (٧٦) ص ٢٢١ س ش يافا (١٤٠) ص ٢٦٦-٣٥٠
آل النحاليني	بيت عطاب	خلدا	قضاء يافا		س ش يافا (١٤٨) ص ٢١٣-٢١٦

ومن هنا يمكن تصنيف الملاكين على مجموعتين الأولى مجموعة الملاكين القدماء الذين شكلوا ملكياتهم على أنقاض مخلفات نظام الإقطاع، ولجوء صغار المزارعين إلى حمايتهم طلباً للأمن والاستقرار مثل: ملكيات أبو غوش، والعزة، وآل بطاطو^(١)، والحسيني^(٢).

وهناك مجموعة ثانية وهم أفندية المدن أو طبقة التجار الناشئة في متصرفية القدس التي وضعت جزءاً لا بأس به من رؤوس أموالها لتنميته في شراء الأراضي، ومنهم عثمان النشاشيبي^(٣). وعلى الصعيد نفسه كان هناك تيار مواز لتوجيهات أفندية المدن المحلية في شراء الأراضي، ويتمثل ذلك في تملك أفندية المدن السورية واللبنانية داخل الرملة، ومن أبرزهم آل سرسق^(٤).

(١) س ش القدس (٣٤٨) ص ٩٣.

(٢) س ش القدس (٤٠٧) ص ١٧٥.

(٣) س ش القدس (٣٨٣) ص ٢٩٧.

(٤) س ش يافا (٦٣) ص ١٤٤.

ومن جانب آخر تملك في أراضي الرملة عائلات أجنبية وصهيونية، ومنها عائلة برجهايم (Berghiem) حيث كانت تقدر أملاكها بحوالى ٢٠,٠٠٠ دونم حول قرية أبو شوشة^(١). وفي المقابل قيام مجموعة من الملاكين المحليين الوافدين بنقل ملكياتهم أو جزء منها في صفقات سرية وعلنية إلى وكلاء الحركة الصهيونية وسماسرتها، وزعماء المستوطنات والمؤسسات والشركات الصهيونية. ففي عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م تنازل ورثة انطون التيان في صفقة واحدة عن ٣٠,٠٠٠ دونم في وادى الحوارث إلى إسحاق أريبة التاجر الموسوى في القدس مقابل دين ترتب على انطون بقيمة ٣٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسى^(٢).

وقد تمت الإشارة إلى ملكية الأجانب للأراضي واليهود في الرملة والقرى التابعة من خلال الجدول التالى :

المشتري	التبعية	البائع	الموقع	المساحة	السجلات
فردريك لودنه المسيحي	ألمانيا		وادي حنين	قطع أراضي أميرية وبيانات تبلغ مساحتها ١٤٦ دونم	س ش يافا (٤٦) ص ١٥٠
الخوارجا فردريك بن لوديك بن فورليك المسيحي	ألمانيا		صرفند الخراب	١٦١٥ دونم	س ش يافا (٣٩) ص ١١٠
صموئيل باولة ونزلنده أولاد	ألمانيا		أراضي في الرملة	غير معروفة المساحة	س ش يافا (١٢٩) ص ٤٦

(١) نبين التوسع الإسكانى العربى وأثره في تكوين العمل المأجور في فلسطين، صامد، ع ٢٦، ص ١٧.
(٢) س ش يافا (١٥٠) ص ٤٠ - ٤١.

المشتري	التبعية	البائع	الموقع	المساحة	السجلات
خريستوفا هوكمين المسيحي			ورنتيه		
الخواجاج جوليوس سلوكته المسيحي	ألمانيا		قرية عاقر	١٦٠٠ دونم يبدل قدره تسعائه ليرة فرنساوى	س ش يافا (٨٦) ص ٢٥٨
أنطوان بن بشارة المسيحي تاجر	إيطاليا		قرية ملبس	١٣٣٢ دونم	الطراونة قضاء ص ٥٨٢
يوحنا كولودريد بن برنادوس تاجر	أسبانيا		خارج الرملة	أربعة كروم	س ش يافا (٢٩) ص ٢٣٨
بيل بن بوش فليبر تاجر	فرنسا		قرية شحمة	١٦٠ دونم	س ش يافا (٤٦) ص ٣٢١
يوسف بن ناصر غبريل اليهودى	الدولة العثمانية	أحمد أبو هنية ومحمد أبو هنية ودرويش البرمكى وابراهيم جبر وحسن سرحان	قرية شحمة	ثلاثة قطع أراضى تبلغ مساحتها ٢٤٥٠ دونم ثم ٣٠٠٠٠٠ قرش	س ش يافا (٣٢) ص ١٥٩ س ش يافا (٣٢) ص ١٦

المشتري	التبعية	البائع	الموقع	المساحة	السجلات
حزقيل بن إبراهيم	الدولة العثمانية		ديران - صرفند العمار	١٣٤٠ دونم ٢٠٦ دونم	س ش يافا (٨٣) ص ١٥٩
هيرش بن اليازر باروشوفسكى	روسيا		ديران	قطعة أرض	س ش يافا (١٠٩) ص ٤٦ س ش يافا (٧٩) ص ٢١٧
زالمن بن باروخ زيلك	روسيا		ديران	قطعة أرض مساحتها ٦٠ دونم	س ش يافا (١٢٩) ص ٢٩٧
الياس بن الف صمويل انتسين	روسيا		ديران	١٣ قطعة أرض	س ش يافا (٧٩) ص ١٩٧
نوح بن موسى كابليسكى	روسيا		ديران	١٣ حصة من أصل ٢١٢٤ حصة في مزرعة في ديران	س ش يافا (٤٦) ص ٣٢٨
الخوaja ديب لين اليهودى	النمسا		وادي حنين	بيارتان وخمس قطع أراضي	س ش يافا (٣٩) ص ٣٩
هاندين الخوaja الفونس مزالتى	فرنسا		وادي الفرس التابع لناحية الرملة	٤٧٠ دونم	س ش يافا (١١١) ص ٥٠

المشتري	التبعية	البائع	الموقع	المساحة	السجلات
داود بن اشيكل اليهودي	اليونان		قرية ملبس	١٢٥٠ دونمًا	س ش يافا (٢٣) ص ٢٥
جوليدس بلوسكبه	ألمانيا	حافظ بن السعيد	قرية شحمة	١٦٠٠ دونم	س ش يافا (٨٣) ص ١٢٠
ملفل برجهايم	ألمانيا		أبو شوشة	٢٠٠٠ دونم مقابل دفع ٤٦٠٠٠ قرش عن أهالي القرية	Conder, tent, vol, 2, p. 25

مصادر ملكية الأراضي وحجمها

يمكن الاستدلال على مصادر ملكية الأراضي ومساحتها في الرملة من خلال سجلات المحاكم الشرعية، وطرق تملك وحيازة الأراضي والعقارات بكافة أنواعها، فمن جهة كان التملك إما عن طريق الإرث الشرعي، أو عن طريق الهيمنة لغير الأصول والفروع^(١)، ويمكن التعرف عليها من خلال حجم الميراث، وعند حصر تركة المتوفى. كذلك يمكن للأراضي أن تصبح من الأملاك عن طريق وضع اليد أو التحكير والتي بموجبها تفوض الأراضي لاستغلالها وفق القاعدة الشرعية في إحياء الأراضي الموات^(٢) كما تتم الملكية عن طريق المعاملات التجارية كالبيع والشراء والرهن وسداد الدين^(٣) أو

(١) س ش يافا (١٨) ص ١٩١. س ش يافا (٣٢) ص ٣٣. س ش يافا (٣٨) ص ٢٤.

(٢) س ش يافا (٢٥) ص ٢٤.

(٣) س ش يافا (٢٧) ص ١٦٥. س ش يافا (٨٦) ص ١٩٧. فلسطين (يافا) ١٦ كانون ثاني ١٩١٣، ع

مبادلته بأشياء أخرى، كالمواشى والسلع والخدمات^(١) وبخاصة الملكيات الصغيرة التي ذهبت إلى الزعامات المنتفذة عن طريق الحصول عليها من صغار الملاك في حال عدم قدرتهم على تسديد الديون المترتبة عليهم^(٢)، ويبلغ الأمر أحياناً قيام أصحاب الأملاك الكبيرة بشراء أراضي قرى بالكامل، كما حدث مع نصرى أفندى الكارمى من تجار القدس الذى قام بشراء أراضي قرية كفرورية البالغ مساحتها ٤٨١٤ دونماً مقابل دفع الضرائب المترتبة على سكان القرية والبالغة ٧٤٥,٥٠٠ قرش^(٣). وتشير حجة شرعية تعود لسنة ١٢٩٧ هـ/ ١٨٧٩ م إلى أن الخواجاطنوس الصلبن المسيحى، اشترى ست قطع من أراضي قرية النعانى التى تقدر مساحتها حوالى ٩٥٩ دونماً^(٤).

وتطالعنا السجلات إلى أن الجارى فى ملك الست أولغا بنت حرير أفندى بنت الخواجاطن عطا الله المسيحية اليافية يقدر بـ ٣ أسهم من ٢٤ سهماً فى كامل العقارات الموروثة عن زوجها عيسى شبيطه الرمل المتوفى من ثلاث سنوات بين دور ودكاكين وبايكة وبيارته الكائنة بالرملة ووادى حنين بموجب قوانين طابو نظامية، وقد اشتراها الوصى على القاصر سليم نعيم بن الخواجاطن عيسى شبيطه الرملى ببذل قدره ٢١٠ ليرات فرنساوى، حيث إن هذا البذل هو ثمن المثل^(٥).

كما أشارت السجلات إلى طرق البيع ومنها: بيع الاستغلال كما أفتى بذلك شيخ الإسلام (على أفندى) كما نصت عليه فى المادة (١٩) من مجلة الأحكام العدلية^(٦) كذلك البيع بطريقة الوفا^(٧)، الذى أفتى به خير الدين الرملى، وحكم بيع الرهن^(٨) كما حدث فى

(١) س ش يافا (٨٣) ص ٩. س ش يافا (٨٣) ص ٩٥.

(٢) س ش يافا (١٠٥) ص ٧. س ش يافا (٨٣) ص ٩٥.

(٣) المنادى (القدس) ٢٤ كانون ثانى ١٩١٢ م، ع ٤٤، ص ٤٠٣.

(٤) س ش يافا (٣٣) ص ٤٨-٤٩.

(٥) س ش يافا (٩٢) ص ١٠٦. س ش يافا (٩٣) ص ١٦.

(٦) باز، سليم رستم شرح المجلة، ص ٦٧-٦٨.

(٧) بيع الوفا: هو عقد يفرغ بموجبه المتصرف أرض أميرية لقاء مبلغ معين يستلفه على شرط أن تبقى له

الحق باسترجاع الأرض منه. للمزيد انظر دفع المبلغ ص ١٧٠.

(٨) س ش يافا (١٥٧) ص ٢٣٣. س ش يافا (٤٦) ص ١٢٦-١٢٧. س ش يافا (٨٤) ص ١٧٠.

قرية المنصورة حيث بيع سهمان من أصل ٧٢ سهماً بيعاً وفائياً^(١) وبالإشارة إلى بيع المثل أو الفراغ القطعى كما حدث بالحصّة التى تقدّر بـ ١٦ سهماً من أصل ٣٨ سهماً فى جميع الدور والبوابك خارج قرية أبو شوشة من الجهة الشمالية الواقعة على التل المعروف (بالأجزاء) حيث إن الخواجا اخريستو بن الخواجا ملفل بركم قد وكل الخواجا تيمونى فى وضع يده على الدار مع الأرض والبناء، وأن يتصرف بهما كيفما يشاء من الإيجار والفراغ القطعى والبيع لمن يرغب بثمان المثل، وذلك حسب الأصول^(٢). للمزيد ارجع إلى الملحق رقم (١).

كما قد جاء من خلال استبدال قطعة أرض بأخرى من خلال الشيخ محمد الخطيب من قرية التعانى والجارى بمزارعته جميع الحصّة الشائعة وقدرها سهم واحد من أصل ستة وستين سهماً من أراضي القرية بموجب قوجان نظامى بقطعتى الأرض الملساء المعدتين للفلاحة إحداهما شرقية مساحتها ١٥١ دونماً شرق قرية أبو شوشة والأخرى غرين مساحتها ١٢٣ دونماً، والتى تعود للخواجا بشاره بن انطون الماردنى وحسن بن حسن أبو جاريش من أهالى القرية مناصفة بينهم ببذل قدره مائة ريال مجيدى لكل واحد منها خمسون ريالاً^(٣).

وأما البيع بالرهن ممثلة بما قامت به أمونه بنت عيسى بن أحمد لطفى حيث وكلت الشيخ يوسف أحمد عبد الرزاق الخيرى الرملى ببيع قطع أراضي لدى قومسيون المبيعات بمبلغ خمس وعشرين ليرة فرنساوى المطلوبة لها ومروونة على نصف الدار برهان نظامى ويأظهار قوجان الرهن^(٤).

بيوت الرملة (الخانات)

إن المعلومات المتوفرة عن بيوت وخانات الرملة تفتقد إلى الدقة، وذلك لعدم اتباع وسائل وأساليب علمية خلال عملية الإحصاءات، ومن جانب آخر كان يمثل مخاوف

(١) س ش يافا (٤٨) ص ١٩٥. شرح المجلد، ص ١١٧٧-١١٧٨.

(٢) س ش القدس (٣٧٩) ص ٧١. س ش القدس (٣٧٠) ص ٨٥.

(٣) س ش يافا (٤٤) ص ١٣٩.

(٤) س ش يافا (٤٧) ص ١١٤.

لدى السكان من ارتباطه بالخدمة العسكرية، فذلك أدى إلى استناد الإحصاءات إلى تقديرات عشوائية^(١). كذلك من الملاحظ خلال الإحصاءات أن نسبة أعداد الأسر في الرملة تفوق مثيلاتها في الأقضية سواء يافا أو اللد حيث بلغت ٤٤٪ من المجموع الكلي^(٢) بحسب الجدول التالي لسنة (١٢٨٧هـ / ١٨٨٧م)^(٣).

المنطقة	عدد الأسر	مجموع السكان
ناحية يافا	١٤٦٥	٨٧٩٠
ناحية الرملة	١٩٠٤٨	١١٦٨٨
ناحية اللد	١٠٦٠	٦٣٦٠

ومن ملاحظة الأرقام الإحصائية في مدينة الرملة والقرى التابعة لها، يتضح انتشار السكان وتركيزهم في المناطق الريفية، وقد كانت تتخذ أشكالاً مختلفة من منطقة لأخرى، فقد أشارت سالتامة سنة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م.

أن ناحية الرملة وقرائها وضواحيها كانت تقدر بحوالى ١٤٧٧ خانة (أسرة) موزعة ما بين المسلمين والنصارى^(٤)، كذلك من الملاحظ خلال الإحصائيات انخفاض أعداد الأسر والسكان، وهذا الأمر يعود إلى عوامل طبيعية وبشرية.

وأشارت السجلات إلى عدد السكان في مدينة الرملة وبلوغهم في سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م ثمانية آلاف نفس^(٥). انظر سالتامة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ في الملحق رقم (٢).

(١) شولش، تحولات جذرية، ص ٤٢.

(2) Hopwood Derek, Therussian prince in Syrian and Palestie, p.28, Patai, Paphel, Israel betwee east and, p.218.

(٣) سالتامة سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م.

(٤) سالتامة سنة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م، ص ١٦٢، ١٦٤.

(٥) س ش يافا (٨٦) ص ٦١.

الأراضي في الرملة

قامت الدولة العثمانية بعملية تنظيم الأراضي التابعة لها للسيطرة عليها، ووضع حد للمتلاعبين بها، فوضعت قانون الأراضي في (١٣٢) مادة وخانة، وقسمت الأراضي إلى خمسة أقسام^(١):

١- الأراضي المملوكة

وهي الأراضي التي تعود ملكيتها إلى الأفراد ويجرى عليها أحكام التصرف بالأموال الشخصية، كالبيع والرهن والهبة والتوريث والبناء والهدم والزراع، فالمالك له الحق بالتمتع والتصرف بها، لكن بشرط عدم مخالفة الأنظمة والقوانين، كما جاء في المادة (١٢٤٨) من مواد مجلة الأحكام العدلية^(٢) وقد شملت الأراضي التي تقام عليها المنازل^(٣)، وكان حق التملك مقصوراً على الأراضي والحوالكير والحدائق والبساتين والكروم في المدينة والقرى التابعة ويعطى حق التملك الخاص بإذن من السلطات العثمانية. وقد قسمت الأراضي المملوكة إلى أراضي تعرف بالعَرَصات^(٤)، وكان يتم استغلال العرصات لإنشاء المرافق الأساسية الملحققة بالمنازل، كالأبار والصهاريج المعدة لجمع مياه الأمطار وحفر التخزين لحزن الأعلاف والحبوب، أو ما يطلق عليها بالمطمورة. كما تشمل الأراضي العشرية، والخارجية، والأراضي المفروزة، وهي الأراضي التي أفرزت من الأراضي الأميرية وملكت تملكاً صحيحاً بناءً على المسوغ الشرعي^(٥) وذلك بحسب الملحق رقم (٣).

٢- الأراضي الأميرية

وهي الأراضي التي تعود ملكيتها لبيت المال والدولة قانوناً، ويملك الأهالي حق التصرف فيها من حيث زراعتها واستغلالها بينما تقوم الدولة بتحصيل ضرائب الأعشار

(١) موسى، صابر، مكتبة الأراضي في فلسطين، ص ٨١. عوض، نظام ملكية الأرض، ص ٥٣ .

(٢) المر، أحكام الأراضي، ص ٤٠-٤١.

(٣) اوين، روجرز، تاريخ فلسطين الاقتصادي، ص ٥٨٥.

(٤) س ش يافا (٥٠) ص ١٢٢.

(٥) المر، أحكام الأراضي، ص ١١-١٢.

السوية عنها^(١)، فلا يجوز تحويلها إلى ملك خاص أو زراعتها بالأشجار المثمرة^(٢)، كما لا يجوز بيعها أو رهنها^(٣). وفي حالة وفاة المنتفع تنقل إلى أولاده للانتفاع بها وليس تملكها، وإن لم يكن له أحد من الورثة تصبح أراضي مملوكة الدولة^(٤).

وتقدم لنا السجلات مثلاً على الأراضي الأميرية منها ما قام به إسماعيل الرملی باستئجار الأراضي الأميرية العائدة لحسن هنية من قرية شحمة لمدة ست سنوات امتداداً من سنة ١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٩ م ببدل إيجار قدره ٧ ليرات فرنساوی^(٥)، لكن من جانب آخر يمكن أن تتحول الأراضي الأميرية إلى أراضي ملك خاص وتمتلك تملكاً صحيحاً عن طريق الفرز، شريطة أن يحسن التصرف بها، فالسلطان هو السلطة الوحيدة المخولة لتمليك الأرض لقاء مبلغ من المال يدفع للخزينة^(٦).

٣- الأراضي المشاع

تعتبر في الأصل أراضي أميرية منحها السلطان لقرية من القرى، ويكون لديها الحق في زراعتها والانتفاع بها، حيث توزع بين أهالي القرية بالتساوي بعد حصر عدد أفدنتها، إذ لا يسمح بإقامة أبنية عليها أو زراعتها بالأشجار، فإن أقيم ذلك يهدم بموجب المواد ٩٣، ٩٤، ٩٥ من قوانين الأراضي^(٧). والأراضي المشاع يمكن أن تصبح متروكة، إذا تركت مدة تزيد عن ثلاثين سنة، ولم يدفع عنها شيئاً من أموال الويركو والأعشار لخزينة المالية^(٨).

ومن الأراضي المشاع^(٩) في قرية صرندنا الخراب أراضي الحفوف الواقعة قبلة طريق سيدنا روبين. كذلك تبرز السجلات عن أراضي مشاع غربي قرية جمزو^(١٠) وأراضي

- (١) س ش يافا (٧٩) ص ٢٤٩. س ش يافا (١١٩) ص ١١.
- (٢) رافق، فلسطين في عهد العثمانيين، ص ٩٤٥. عيساوي، التاريخ الاقتصادي، ص ١١٧.
- (٣) س ش يافا (٥٩) ص ٦٢. س ش يافا (٩٢) ص ١١٦.
- (٤) انظر قانون الأراضي، مادة رقم ٣. المر، أحكام الأراضي.
- (٥) س ش يافا (١١٩) ص ١١. س ش يافا (٧٣) ص ٢٧٤.
- (٦) موسى، صابر، نظام ملكية الأراضي فلسطين، ع ٩٥، ص ٨١. عوض، الإدارة، ص ٢٢٢.
- (٧) اوين، روجرز، تاريخ فلسطين، ص ٥٨٧. كرد، علي، خطط الشام، ج ٤، ص ١٩٣. المر، ديعيس، أحكام الأراضي، ص ٣٠-٣٢.
- (٨) س ش يافا (١٥٧) ص ٢٨٨.
- (٩) س ش يافا (٨٥) ص ٤٨.
- (١٠) س ش يافا (١٣٢) ص ١٢٢.

مشاع في قرية شحمة^(١). وتشير السجلات إلى فراغ ٧٢٠٠ حصة من أصل ٢٨٨٠٠ حصة كاملة في ثلاث قطع أراضي مشاع الكائنة بقرية قزازة، منها الأولى تسمى (بالخزنة)، والثانية المسماة بالبحيرة، والثالثة المشتهرة بنخلة الذهب فراغاً قطعياً لمن شاء وبها شاء من البذل^(٢).

ومن ناحية أخرى قسمها المر في كتابه أحكام الأراضي إلى أربعة أقسام منها: الأحرار الفراغية، ومحلات البيادر، والمراعى المخصصة للمواشي، والمسارج والمحلات التي تستريح فيها الماشية.

وذلك بحسب الملحق رقم (٤) عن الأراضي المشاع.

الأراضي المحلولة

فهى تخص السلطان وانتقلت للحكومة العثمانية كأملك للدولة وكانت تسمى بالمدورة أو المتقلة، لأنها انتقلت من ملكية السلطان إلى ملكية الحكومة، وذلك بعد الثورة التركية ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، وكانت تعرف كذلك بالجفتلك^(٣)، وقد لعبت هذه الأراضي دوراً هاماً عند صدور المشروع الأصغر عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٩م، حيث ينص على بيع الأراضي المدورة بالمزاد العلني مما سهل الأمر على الصهاينة للقيام بشراء هذه الأراضي، ولم تتخذ الحكومة قراراً بشأن مستقبل هذه الأراضي حتى إعلان الحرب العالمية الأولى^(٤).

وتمت الإشارة إلى أراضي محلولة في قرية كفروية التي تقدر بحوالى ٣٠٠٠ آلاف دونم، كما أشارت إلى ذلك جريدة المنادى لسنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م^(٥).

الأراضي الموات:

هى المحلات البعيدة عن القرى والقصبات بدرجة لا تسمع بها من أقاصى العمران صيحة الشخص الجهير، والتي تبعد عن أقصى العمران مسافة ميل ونصف ميل، ولم تكن

(١) س ش يافا (١٢٥) ص ٢٣٥.

(٢) س ش يافا (١٢٩) ص ٢٧١.

(*) الجفتلك : وهى أراضي أميرية، يمكن التصرف بها كالمراعى، ولا يوجد عنها إجارة سنوية تعادل العشر، للمزيد انظر المر، أحكام أراضي، ص ٣٤، وانظر Stein, pp.14,15.

(3) ahand book of Syria including Palestine, p.438. Stein, krnnieth, the land question, pp.14-15.

(٤) المنادى (القدس) كانون أول، ١٩١٢م، ع ٤٢، ص ٢.

في تصرف أحد بالطابو^(١) ولا تصلح للزراعة والحراثة إلا بعد نقلها واستصلاحها. وقد اهتمت الدولة العثمانية بهذه الأراضى، فأعطتها لمن يرغب بالاستفادة منها وإحيائها مجاناً دون مقابل شريطة موافقة نظارة الدفتر الحاقانى الذى يحتوى على سجلات الطابو أو من مأمورى الأراضى فى عواصم الولايات ومراكز الألوية والأقضية^(٢) امتثالاً للرأى القائل: "من أحيا أرضاً مواتاً فهى له إذا أجاز الإمام، ومن أحيا أرضاً مواتاً بغير إذن الإمام فليست له، ولالإمام أن يخرجها من يده ويحكم بمقتضى ما يراه مناسباً لذلك"^(٣)، وهو ما أشارت به محلة الأحكام العدلية وفق المادة (١٢٧٢) لكونه من يحى أرضاً مواتاً بالإذن السلطانى يصبح مالكاً لها^(٤) فيمكن استغلالها واستثمارها من قبل الراغبين فى إحيائها، لهذا قامت الحكومة بتشجيع السكان عرباً وأجانب للاهتمام باستغلال الأراضى الموات مقابل منحهم بعض التسهيلات المادية والعينية^(٥).

الأراضى الوقفية

الوقف: هو حبس العين عن تملكها لأحد من العباد، والتصرف بالمنفعة على الفقراء أو على وجوه الخير، فقد ثبت مشروعيته بالقرآن والسنة والإجماع^(٦).

أقسام الأراضى الوقفية

تنقسم الأراضى الوقفية إلى قسمين: أوقاف صحيحة وهى ما كانت ملكاً صرفاً وفقاً للنهج الشرعى، وغير صحيحة وهى أراضى أميرية رصد ريعها ووضعت مرتباتها من طرف السلاطين أو بإذنهم لجهة خيرية مع بقاء رقبته لبيت المال^(٧).

(١) أبو يوسف: الخراج، ص ٦٦ - ٦٨. قوانين الأراضى، المادة ٦. انظر المر، دعبس.

(٢) انظر المادة (١٠٣) المر، دعبس، أحكام الأراضى، ص ٥٠.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص ٦٨.

(٤) شرح المجلة، ص ٦٨٨ - ٦٨٩.

(٥) المادة رقم (١٠٥) من قوانين الأراضى. انظر المر، أحكام الأراضى، ص ٥١.

(٦) انظر املادة (٤) من قانون الأراضى، المر، أحكام الأراضى، ص ٣.

(٧) المر، أحكام الأراضى، ص ١٩ - ٢٠.

أنواع الأراضي الوقفية

الوقف نوعان:

خيرى

يرصد لمؤسسات ذات نفع خيرى مثل: الجوامع والمدارس، والزوايا (أهلى). ويرصد للذرية من الذكور دون الإناث، وقد يشملهم معاً ومن ثم للفقراء حيث أكثرت الدولة العثمانية من مصادرة أملاك الأغنياء فرد هؤلاء بتحويل بعض أملاكهم إلى وقف أهلى، وكانت الأراضي الموقوفة تتبع فى استعمالها المؤسسات الدينية وتعود فى أصولها إلى التبرعات سواء كانت أوقافاً خيرية أو أوقافاً ذرية أهلية، ولا تحول الأوقاف الأهلية إلى خيرية إلا فى حالة انقضاء عقب الأسرة التى أوقفها، والأراضي الوقفية فى كلا الحالتين لا تخضع لضرائب خاصة بها، والدوافع من وراء هذه الأوقاف، وخصوصاً الأوقاف الذرية هى الخوف من بيع الأراضي أو استيلاء أحد المنفذين عليها^(١).

طرق الانتفاع بالوقف

لجأت الحكومة إلى عدة طرق للانتفاع بالوقف ومنها:

التأجير

حيث يقوم متولى الوقف بإخبار النائب الشرعى أن العقار الموقوف بحاجة إلى إصلاح وأنه لا يوجد مال للقيام بذلك، وعندئذ يرسل النائب الباش كاتب والمعمار للكشف على الوقف، وبعد الكشف يقدم تقريراً يتضمن التوصية بأن الإيجار أنفع لمصلحة الوقف، ومنها وقف الأدهم فى الرملة، حيث استأجر خليل بن عثمان بن علاء الدين الرملى عشرة قراريط من أصل ٢٤ قيراطاً فى الكرم الكائن قبلة زاوية الشيخ الزيلعى بأجرة سنوية أربع ليرات فرنساوى^(٢).

فليس للمتولى تأجير العقارات لأكثر من ثلاث سنوات، ولو انقضت مدة الإيجار على المتولى أن يفسخها^(٣)، ومنها ما كان فى الدعوى المرفوعة من فسخ عقد الإيجار لوقف

(١) س ش يافا (٢٧) ص ٧٣. أوين، روجر، تاريخ فلسطين، ص ٥٨٦.

(٢) س ش يافا (١٣٣) ص ٢٦ - ٣٠. س ش يافا (١١٧) ص ٦٣.

(٣) س ش يافا (٩٠) ص ١١٣. المر، دعبس، أحكام الأراضي، ص ١٩.

دكان جارية بتصرف شمس الدين بريقة، وكان متوليها صالح بن محمد أحمد السردى،
وادعى على سعدى بن الحاج عمر الجعليط اليافى^(١).

الحكر^(٥)

يشمل الحكر جزءاً من العقار مثل: السطح والحائط فى الدور وضمن المحلات والأراضي الزراعية بموجب صكوك شرعية، وللحكر أضرار إذ إن التحكير لمدة طويلة يؤدي إلى عجز الوقف عن الإفادة من الأراضي^(٢)، ويتمثل الحكر بالكرم الجارى فى وقف آل رضوان، حيث يقدر قيمة الوقف كل سنة بعشرة قروش، كما هو ثابت بثبوتات دفاتر الطابو الرسمية^(٣).

بيع الوقف

فهذا مشروط من الواقف بالعودة إلى القاضى، وأن يكون مشروطاً بمسوغ شرعى، كأن يكون خائفاً على خراب الوقف أو من خلال دعوى من وصى على ابنه ولم يكن لديه عائد مady سوى الوقف لبيعه أو للإنفاق على القاصر، مثلما حدث حين حضر محمد شاكى التاجى الوصى على أحمد القاصر، عن درجة البلوغ، وهو يتيم السيد داود بن حسن التاجى الرملى بموجب حجة صادرة من المحكمة، والتمس بيع حصة فى كامل الدار الكائنة بمحلة البشاوية التى ورثها عن والده وقدرها ١٤ حصة من أصل ٧٢٧ حصة فى ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، وأنه يحتاج للمال لضرورة الإنفاق عليه ولا مال تحت يده لينفق منه عليه، والتمس صدور الإذن له ببيعها لمن يرغب بشرائها^(٤).

(١) س ش يافا (١٣٧) ص ٣٤.

(*) الحكر: هو عقد إيجار يقصد به إبقاء الأرض موقوفة تحت يد المستأجر والمحتكر على أن يأذن له المتولى بالبناء على هذه الأرض أو زراعتها، ويحق له بيع البناء أو وقفه، للمزيد انظر المر، أحكام أراضي، وانظر عوض، وانظر س ش يافا (٢٩)، ص ٣١١.

(٢) س ش يافا (٩٠) ص ١١٣.

(٣) س ش يافا (٦٢) ص ٢١٩-٢٢٠.

(٤) س ش يافا (٧٧) ص ١٢٣.

ونخلص من ذلك أن العصر العثماني شهد ازديادًا في أعداد الوقفيات وأحجامها، وتتنوع مجالات الإنفاق عليها والاستفادة منها باعتبارها صدقة جارية لوجه الله، ورغبة في عمل الخير مثل: المساجد والزوايا والتكايا والمدارس والبارستانات والأسئلة، وقد حرصت الدولة العثمانية على الأحكام بشئون الدراسات الوقفية بالرعاية وإخضاعها للرقابة الشديدة لما لها من أهمية وبنية اقتصادية واجتماعية. وللمزيد عن الأراضى الوقفية انظر الملحق رقم (٥).

الضرائب

تفنن السلاطين العثمانيون وولاتهم في فرض الضرائب قبل عصر التنظيمات، حتى بلغ عددها في بعض العهود وفي بعض البلاد سبعة وتسعين ضريبة، وكان السبب في فرض الضرائب الكثيرة هو أن الوالى كان مسئولاً عن النظام في الولاية، كذلك قيام الوالى بجباية ضرائب مبتدعة وغير رسمية لتأمين نفقاته الخاصة ونفقات الولاية العامة، وقد قسمت هذه الضرائب إلى أنواع مختلفة منها:

الويركو^(١)

تم فرض هذه الضريبة بموجب خط كوخان ١٨٣٩، وتنقسم إلى:

ويركو الأملاك: حيث صدر نظام ويركو الأملاك في ١٥ رجب سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م، وتمت صياغته في اثني عشر بنداً، وبدأت تحصيلات الويركو فيها اعتباراً من سنة ١٢٥٧هـ/ ١٨٤١م^(٢)، وبموجب النظام العثماني تم تحويل أئمة ومخاتير جميع بيوت القرى، ثم يجرى بعد ذلك توزيع المبالغ التى قررها مجلس إدارة القضاء على أهالى القرية^(٣).

ويتم فرض الضريبة على كل ذكر بالغ صحيح الجسم وفق مقدار معين من المال يدفعه كل سنة إلى الحكومة، بما يتناسب مع مقدار المال الذى يتقاضاه، فمنهم من يدفع خمسة

(١) الويركو: كلمة تركية، تعنى الجزية أو الخراج، أو مال مبرى أو رسم، وصورها ويربك وتعنى الذهب أو العطاء أو المنح، للمزيد انظر عوض، الإدارة العثمانية.

(١) س ش يافا (٢٨) ص ٢٢١.

(٢) س ش يافا (٦٣) ص ٦٧. دروزة، مذكرات وتسجيلات، ح ١، ص ١٢٣.

عشر قرشاً في السنة من راتبه إذا كان يتقاضى مبلغ خمسمائة قرش في الشهر، فكان راتبه اليومي أربعة وعشرين قرشاً، ومنهم من كان راتبه يفوق خمسمائة قرش^(١).

وقد شكلت الضرائب إيرادات كبيرة لخزينة الدولة العثمانية، فعلى سبيل المثال: بلغت قيمة ويركو الأملاك المخمّنة عن أراضي قرية بيت سوسين سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٤م (٨٧٩٢) قرشاً^(٢). ومن جهة أخرى كان المشتري لأي عقار أو أراضي يقوم بدفع اليركو السنوي المترتب على الأراضي^(٣).

ويركو التمتع

صدر نظام ويركو التمتع في ١٩ ذى القعدة ١٢٥٤هـ/ ٦ شباط ١٨٣٩م، وتم جباية هذا النوع من اليركو على أساس مقدار الدخل الإجمالي للفرد خلال السنة. وقد فرضت على كل ذكر ممن يتبعون الدولة العثمانية ممن يتراوح عمره من عشرين سنة إلى سبعين سنة، لكن أعفى من دفع هذه الضريبة سكان المدن والقصبات، ومنهم الرملة التي انحصرت مواردهم في الزراعة فقط^(٤).

كما أعفى الأئمة والخطباء والمدرسون والطلاب ورجال الدين من أتباع الطوائف غير الإسلامية وأصحاب العلل والعاهات والمسنجونين والملتحقين بالخدمة العسكرية، وخدمة المستشفيات وتجار السفن^(٥).

ويتم تقدير هذه الضريبة بنسب متفاوتة بحيث تفرض على التجار بنسبة ٣٠ في الألف من مجموع الربح السنوي، ثم ارتفعت إلى ٤٠ في الألف بناءً على القرار المؤرخ في سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م، والصادر بشأن الأملاك والأغنام والأعشار، وشملت هذه الضريبة عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م أصحاب الرواتب وبلغت ٥٠ في الألف^(٦). وكان يتم تشكيل لجان التخمين في كل أنحاء الدولة العثمانية، وتتألف كل لجنة من أربعة أشخاص منهم

(١) عيساوي، شارل، التاريخ الاقتصادي، ص ١٤٣.

(٢) الطراونة، قضاء يافا، ص ٣٤٢.

(٣) س ش يافا (٢٩) ص ٤٢.

(٤) كرد، علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٨٦-٨٨.

(٥) البشير (بيروت) ١٧ حزيران ١٩٠٧م، ع ١٨١٠، ص ٣.

(٦) عوض، الإدارة العثمانية، ص ١٧١. كرد، علي، خطط، ج ٥، ص ٨٦-٨٨.

اثنان يتم تعيينهم عن طريق الدولة، واثنان آخران ينتخبان بمعرفة دوائر البلدية وغرفة التجارة^(١). لكن في العام ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥ م صدر نظام خاص يقضى بجمع الضريبة المذكورة على قسمين (مقطوع ونسبي). وبعد العام ١٣٣١ هـ/ ١٩١٢ م أضيف إليها نوع ثالث يسمى (بالضريبة المتحولة)، فالمقطوعة كانت تتراوح بين ١٥ - ٣٠٠ قرش يدفعها الذين يتخذون محلات خاصة والمتعهدين والأطباء والمهندسين، بينما كانت تتراوح الضريبة النسبية ما بين ٨ - ٢٠٪ من الإيراد. وفرضت على الإيراد غير الصافي المقدّر للمحل الذي يشغله المكلف، ومن ثمّ جعل هذا النوع على خمسة أنواع، منها النوع الأول: أصحاب المصارف ونسبة ضريبتهم ٢٠٪ من الإيراد. والنوع الثاني: المشتغلون بالأوراق المالية والوسطاء في إجراءات البيع والشراء والمتعهدون والأطباء والمهندسون ووكلاء الدعاوى. والنوع الثالث: هم تجار الجملة والصيارفة وباعة الأقمشة والمجوهرات، ونسبة ضريبتهم ١٢٪. أما النوع الرابع منهم فهم بائعو الأقمشة والألبسة والأدوية والعطور وكانت نسبة ضريبتهم ١٠٪. أما النوع الخامس فهم أرباب المهن كالتجار والحدادين والخياطين وبائعي الحبوب والمأكولات وأصحاب المقاهي ونسبة ضريبتهم ٨٪.

وأما الضريبة المتحولة ففرضت على أصحاب المحال التجارية والصناعية الذين لديهم عمال، وقد استوفيت منهم بحسب نوع تجارتهم وصناعتهم، وكانت تتراوح بين ٦ - ١٠٠ قرش^(٢).

ضريبة الأعشار

تعد ضريبة الأعشار من الضرائب المتداولة قديماً في الرملة، وكان يتم فرضه على المحاصيل الزراعية بنسبة ١٠٪ من ناتج الأرض^(٣).

وكانت الحكومة تقوم بزيادة نسبة العشر بالتدريج خلال الفترة من ١٣٠١ - ١٣١٨ هـ/ ١٨٨٣ - ١٩٠٠ م حتى وصلت إلى ٦٣، ١٢٪ وذلك بإضافة ٠،٠٥٪ كحصة

(١) عوض، الإدارة العثمانية، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٢) س ش يافا (٣٩) ص ٧١.

(٣) ahand book of Syria including Palestine, pl.45. س ش يافا (٣٩) ص ٤٨. (3)

معارف ونجى بواسطة المتزمين من طبقة الأفندية، حيث يقومون بدفع مبلغ لصندوق الحكومة في بعض الأحيان ثم نجى من أهل المدينة أو القرية أضعافاً مضاعفة^(١). وقد تحولت الضريبة من اقتسام عيني للمحصول إلى تقديرى مع إقصاء الزعامة التقليدية كوسيط مع الدولة، وهكذا دخل أمر فرز وتسجيل الملكية (الطابو) حيز التنفيذ، واستفادت الدولة من طرق تلزيم الضريبة للمحصول مسبقاً على قيمة الضريبة خلال مزاد علنى تعطى للمتقدم بأعلى سعر^(٢)، وكان ملتزم أعشار قصبه الرملة سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م الخواجا بطرس كليس اللاتينى^(٣).

ضريبة الميرى

وكانت هذه الضريبة نوعين، منها ما كان يقدر بـ ٤ في الألف من ثمنها، ومنها ما كان أعظم وأكبر شأنًا وهى العشر، أى أستبقاء عشرة في المائة من المحاصيل غير الصافية إليها. اثنان باسم المعارف والمصرف الزراعى. أما صاحب الأراضي المملوكة لا يدفع العشر من غلاتها، بل يدفع عشرة في الألف من ثمنها في كل سنة، وهذا التقدير يعتبر ظلماً للفلاح، لأن ٥, ١٢٪ من المتوجات غير الصافية هى نسبة كبيرة، بالإضافة إلى أن قضية التخمين للغلات تعتبر خسارة كبيرة للفلاحين حيث كان العشار يتعمد وضع تخمين كبير لابتزاز الأموال من الفلاحين، وكان العشار يتأخر بالقدوم إلى الفلاح ليحجر الفلاحين المضطرين للحصاد للاتفاق على كمية معينة من المحصول لقاء العشر^(٤).

وفى ٩ شعبان ١٢٧٧ هـ ١٨٦١م صدر نظام الواردات العشرية التى تقرر بالالتزام باستثناء الحرير والدخان والزيتون، وبموجب هذا النظام جرى تحصيل العشر عيناً عن القطن وسائر المحاصيل الزراعية، عيناً أو نقداً حسب أوضاع البلدة وفقاً لقرار المجلس برضى الطرفين، وأجاز النظام دفع أعشار حاصلات القمح والشعير بحساب الحزمة أو الكيل، مع ضرورة مراقبة المكاييل المستعملة من قبل المتزمين، وذلك لحماية

(١) العارف، الفصل، ص ٢٣١. اوين، روجر، تاريخ فلسطين، ص ٥٨٠.

(٢) يدران، الريف الفلسطيني، ص ١٢٣.

(٣) س ش يافا (٣٩) ص ٢٦٣.

(٤) كرد، على، خطط، ج ٤، ص ١٩٣. رافق، فلسطين في عهد العثمانيين (٢)، ص ٩٤٧. Stein,

Kenneth, anel and question, pp.16-20.

المزارعين من غدر الملتزمين، وأعفى النظام كل من الحطب والفحم والخضار من الأعشار^(١).

وكان يتم جمع العشر الميري عن طريق الالتزام بوضع جميع العشور في منطقة ما ويتم عرضها في مزاد علني كل عام أو عامين، ويكون المزايد الأعلى صاحب حق العشر في المنطقة، لهذا لم يكن للحكومة قاعدة معينة في جباية الأعشار، وإنما كانت تتم حسب أهوائهم الخاصة^(٢).

ضريبة الرأس

فرضت على كل ذكر بمقدار $\frac{3}{4}$ قرش (٧، ١) شلن، وتم فرض ضريبة على الأرض بواقع ٢١ قرشاً و ٣، ٠٨ استاً للدونم الواحد، وأما الضريبة فكانت تقديرية على المحصول مثل ١٢ حملاً من أشجار التوت، ١٢ مكياً من زيت، ١٢ مد بذور عن كل دونم، وتم فرضها على البساتين ومزارع الكروم والطواحين والخانات والدكاكين وجميع المنشآت الصناعية، وكانت تقديرية أيضاً. لكن توقف العمل بهذه الضريبة بعد الحرب الروسية سنة ١٨٧٨ م^(٣).

ضريبة المعارف:

تعتبر من الضرائب التي كانت تفرض على الأهالي في مدينة الرملة، والتي صدر نظامها في الباب الخامس من نظام المعارف العمومية الصادرة في ٢٤ جادى الأولى سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٢ أيلول ١٨٦٩ م، وكانت الغاية منها إنشاء المدارس وصيانتها ودفع رواتب المعلمين^(٤)، وكانت تضاف إلى ضريبة الويركو وتسلمها الحكومة إلى مصلحة الأشغال العامة^(٥).

(١) عوض، الإدارة العثمانية، ص ١٦٨.
(٢) البشير (بيروت) ٢٤ ربيع الأول ١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٨ م، ع ٩٤٦، ص ٣. البشير (بيروت) ٢٠ آذار ١٩٠٥ م، ع ١٦٩٣، ص ٢.
(٣) عيساوى، التاريخ الاقتصادى، ص ١٤٢.
(٤) س ش يافا (٩٣) ص ٩٧.
(٥) العارف، المفصل، ج ١، ص ٢٣١.

ضريبة بدل الطريق

فرضت هذه الضريبة في جمادى الأول سنة ١٢٨٦هـ/ ٢٧ آب ١٨٦٩م على كل شخص يتراوح سنه ما بين ٢٠ - ٦٠ عامًا، صحيح الجسم يعمل لمدة أربعة أيام في شق الطريق وتعييدها وإصلاحها.

وتم استثناء رجال الدين والأئمة والقساوسة والخاصات ومعلمي المدارس وأصحاب العلل والأمراض والعاهات والعساكر النظامية من هذه الضريبة، وأجاز النظام بدفع المكلف بدلاً مالياً قدره ريال مجيدى مقابل إعفائه من العمل^(١)، وقد تراوحت هذه الضريبة في القضاء ما بين ١٦ إلى ٣٠ قرشاً في السنة^(٢).

ضريبة المستقفات

فرضت هذه الضريبة سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٥١م، وكانت تقدر بخمسة في الألف عن بيوت السكن التي لا تتجاوز قيمتها عشرين ألف قرش، وثمانية في الألف عن البيوت التي تزيد قيمتها عن ذلك المبلغ^(٣). وفي سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م أضيف إلى هذه الضريبة نسبة ٦٪ للتجهيزات العسكرية^(٤)، وتم إعفاء المنازل التي تم تشييدها لإيواء المهاجرين أو لتوطين البدو^(٥).

ضريبة البديل العسكرى

صدر قانون البديل العسكرى سنة ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م على رعايا الدولة من غير المسلمين مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية^(٦)، وكانت تقدر بنسبة ٢٨ قرشاً عن كل شخص سنوياً^(٧)، وكان يطلق عليها بالويركو المقطوع، أو المال المقطوع وأحياناً (بالإعانة الجهادية).

(١) بدران - الريف الفلسطيني، شؤون فلسطينية، ع ٢٧، ص ١٢٣.

(٢) عوض، الإدارة العثمانية، ص ١٧٥.

(٣) كرد، على، خطط، ح ٤، ص ٢٩٩.

(٤) عوض، الإدارة العثمانية، ص ١٧٣.

(5) ahand book of Syria inclding Palesrtine, p245.

(6) Ibid.

(٧) غنايم، لواء عكا، ص ٤٩٧، رافق، فلسطين في عهد العثمانيين (٢)، ص ٩٤٩.

وفي بعض السنين كانت الدولة لا تستطيع تحصيله منهم، وقد سنت الدولة قانونًا لتنظيم دفع البدل العسكري على عشرة أقساط تبدأ من شهر مارس في كل عام وطريقة جبايتها، وقد راعى النظام أن لا تحصل هذه الضريبة من فقراء الفلاحين^(١).

ضريبة الأغنام (المواشي)

تُعد هذه الضريبة قديمة، حيث كانت الحكومة العثمانية تجبئها عن الأغنام والجمال المعدة للنقل بنسبة أربع قروش (بمعدل ٤٠ باره) عن كل رأس، ثم أضيف إليها ٢٠ باره باسم التجهيزات العسكرية ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، وعشر بارات باسم الأسطول ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م إلى أن أصبحت خمسة قروش و ٢٥ باره عن كل رأس، وكان مجموع ما كانت تجبئ الدولة عن هذه الضريبة يتراوح ما بين ١٢ - ١٥ ألف قرش سنوية، وأما الجمال المعدة للحراث فقد كانت معفاة من الضرائب^(٢).

ضريبة الجزية

وكان يتم تحصيلها من أهل الذمة وهي سنوية، وتجبى من الأغنياء والمتوسطين والفقراء، وينسب مختلفة، فيفرض على الأغنياء ١١ قرشا، والمتوسطين ٥ قروش ونصف قرش، والفقراء قرشين ونصف قرش، والمسؤول عن هذه الجزية يسمى (جزية دار)، وكان يتم إنفاقها على فريضة الحج^(٣).

ونستخلص من خلال عرض لنوعية الضرائب المفروضة على السكان إلى كبر حجم الواردات الناتجة عنها سنويًا وإن اختلفت نسبة كل نوع من هذه الضرائب، حيث كانت تشكل ضريبة العشر أهم الواردات، ثم تليها ضريبة الويركو، ثم الضرائب الأخرى تليها بتفاوت في نسبها، وهذا كله كان يفرض على كاهل الأهالي، مما كان يعود بنتائج عكسية عليهم وعلى حياتهم.

(١) العارف، تاريخ غزة، ص ١٩٢.

(٢) العارف، تاريخ غزة، ص ١٩٢.

(٣) العارف المفصل، ص ٣٣١.

الرسوم

فرضت الدولة العثمانية أنواعاً من الرسوم خلال فترة الدراسة في الرملة والقرى التابعة، كما كانت هناك رسوم القرض على الحاصلات التي تنقل من الحقول إلى المدينة، ورسوم أخرى فرضتها، ومنها:

١- رسم الدخان

كان يزرع الدخان في أماكن متفرقة في أماكن الرملة والقرى التابعة، وكان يقدر الرطل منه حوالي ٤٣٢ قرشاً عملة مجيدى^(١)، وكان يستوفى رسم الدخان بموجب نظام إدارة الدخان الذي ينتج في القرى والمدن الصادر ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م، والبالغ قدره ٣٠٪ من الأجرة السنوية لمحلات بيع الدخان، وقد احتكرت الدولة بيع الدخان وصيغ في خمسة وعشرين بنداً، وقد أصدرت في سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م قراراً بتعدي رسم الدخان، وبموجبه أصبحت الرسوم التي تؤخذ من الدخان إما عيناً وهي نصف المحصول، أو نقدًا كأن يقال إن كل أوقية دخان لا تزيد قيمتها على ٧ قروش، يؤخذ عنها ٦ قروش نقدًا، كذلك كل أوقية تتراوح قيمتها ٨ قروش، و٢١ بارة إلى ٢٠ قرشاً يؤخذ عنها رسم قدره ١٠٠٪ بعد إسقاط ٢٠٪ من الثمن، وأما الدخان الأجنبي فقد فرضت الدولة عليه رسمًا يعادل ٧٥٪ من قيمته الأصلية^(٢). وهكذا كانت الحكومة العثمانية تحتكر حق بيع الدخان وإنتاجه، وقد أعطته إلى شركة الربحي ولمدة ثلاثين سنة قابلة للتجديد^(٣). وتشير جريدة فلسطين إلى التدابير الهامة التي اتخذها مدير إدارة الربحي لمنع تهريب الدخان وإبطال المزروعات غير المسموح بها^(٤).

٢- الرسوم الجمركية

هي الرسوم التي كان يتم تحصيلها في القضاء، والتي صدر نظامها في ١٠ شوال ١٢٧٨هـ/ ١٨٢٦م، وبموجب هذا النظام أعفيت منتجات الأفضية من الرسوم

(١) س ش يافا (٢٨). س ش يافا (٣٩) ص ٣٥. س ش يافا (٢٩) ص ٢٦٣.

(٢) عوض، الإدارة العثمانية، ص ١٧٧- ١٧٨.

(٣) س ش يافا (٤٦) ص ١٢٨. العارف، الفصل، ص ٣٣٢.

(٤) فلسطين (يافا) ١٧ آذار ١٩١٢، ع ٢٤٤، ص ٣.

الجمركية إذا استهلكت داخل الحدود والقضاء أو في حالة تصديرها إلى قضاء ليس فيه جمر، فيفرض عليها ضريبة الدفعة بنسبة بارة واحدة عن كل قرش من قيمتها، أى بمعدل ٥, ٢٪^(١).

٣- رسوم الطابو

كانت تستوفي هذه الرسوم من معاملات بيع الأراضي وانتقال الملكية، ويطلق عليها بدل فراغ، وانتقال، وتجبى بنسبة ٥٪ من قيمة تخمين الأراضي^(٢).

٤- رسوم البلدية

صدر هذا النظام سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م، وكان الهدف منه إنشاء مجالس بلدية في المدن والقرى، وقد وضعت موارد للبلديات وكانت على هيئة رسوم تستوفي من الأنشطة التجارية وتراخيص البناء والمهن، ومنها: رسوم الكمبالة، ورسم مزاولة المهنة ومقداره خمسة قروش في الشهر^(٣).

٥- رسوم المحاكم الشرعية

تعد من الرسوم التي كانت تتقاضاها مختلف المحاكم نظير النظر في القضايا والحجج المعروضة عليها، وكان صدور هذا النظام سنة ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م، فكان يقدر رسم الإعلانات الشرعية ببارة واحدة لكل قرش، ورسوم حجة الإثبات بـ ٧٥ قرشاً، ورسم حجة الإبرار والهبة وإقرار الملكية عشرين قرشاً لكل ألف قرش، ورسم حجة إفراز العقارات، وحجة إثبات الوراثة ورسمها نصف بارة لكل قرش، ورسوم النفقة وتنصيب الأوصياء وهي تقدر ما بين ١٠ - ٣٠ قرشاً، ورسم الزواج الذي قدر بحوالى عشرة قروش للبكر، وخمسة للثيب، ورسم طلاق ٥, ٢٪ من قيمة المعجل والمؤجل ورسم قسمة التركة، ومقداره بارة عن كل قرش^(٤). ومنها كذلك رسوم دلالة عن مبيع محتويات

(١) كرد، على، خطط الشام، ج ٥، ص ٩٥.

(٢) س ش يافا (٤٦) ص ١٢٨. س ش يافا (٤٧) ص ١٠٢.

(٣) فلسطين (يافا) ١٠ أيلول ١٩١١م، ع ٧١، ص ٢.

(٤) س ش يافا (٢٧) ص ٦٦. س ش يافا (٦٣) ص ٣٩ - ٤٠.

التركة عشرين قرشاً لكل ألف قرش^(١)، ورسم تركية الشهود للتعريف بالورثة^(٢)، ورسم طابع مقطوع مقداره ثلاثة قروش عن كل ورقة^(٣). كما هو واضح بحسب الجداول الآتية:

جدول يوضح قضايا الرسوم^(٤)

قيمة الرسوم		نوع الرسوم
قروش	بارة	
١٠٠	-	رسم المهر والنفقة
٢٠	-	رسم التبليغ
٤	-	بدل نسبي ومقطوع
٥	+	بدل للتبليغ

جدول يوضح رسوم أخرى ومقاديرها^(٥)

قيمة الرسوم		نوع الرسوم
قروش	بارة	
١٠٠	-	رسم المهر والنفقة
٩	١٠	رسم الحكم على التركة
٤	٣٠	رسم المبيع على المدعية
٤٠	-	رسم الإعلان على التركة

(١) س ش يافا (٩٧) ص ٣٦٠. س ش يافا (٢٧) ص ٦٥.

(٢) س ش يافا (١١١) ص ٣٢٨.

(٣) س ش يافا (٦٣) ص ٥. س ش يافا (١١١) ص ٣٢٧.

(٤) س ش يافا (١٨٠) ص ٤١. س ش يافا (١٧١) ص ٦٥. س ش يافا (١٥٧) ص ٣١١.

(٥) س ش يافا (١٧٠) ص ٣١٢. س ش يافا (١٥٦) ص ٢٦٩.

٣٠	-	اثنان البدل وإعلام حجازى
٣	-	بدل الشىء وتبليغه
٢	-	دوائر مقطوع

وهناك رسوم أخرى، ومنها رسوم على حركة تنقل البضائع من وإلى الرملة. وطبقاً لإحصاء فرنسى لحركة مرور البضائع يسجل شولش (Scholch) رسوم الطريق وحمولة البائع على الطريق ما بين يافا والقدس، حيث ورد سنة ١٣٩٥هـ/ ١٨٧٧م إحصائية لما تم نقله عبر الطريق بما يقدر بـ ١٠٠٠ حاج و ٤٠٠٠ طن من البضائع المستوردة و ١٥٠٠ طن من البضائع المصدرة، كذلك ١٥٠٠ طن من الفواكه والخضار، ويتم توضيح ذلك حسب الجدول الآتى لرسوم حركة النقل^(١).

جدول يوضح حركة النقل على الطريق يافا - القدس سنة ١٨٨٧

أدوات النقل	مع حمولة	دون حمولة	رسوم الطريق
العربات	١٥٥٠	٨٥٠	٢٦٥٥٠ قرشاً
الخيول والبغال	٢٢٠٠٠	١١٠٠٠	٢٧٥٠٠ قرشاً
الجمال	٢١٠٠٠	٨٣٠٠	٣٧٧٢٥ قرشاً
الحمير	٢٥٢٠٠	٢٣٥٠٠	١٨٤٧٥ قرشاً
المجموع			١١٠٢٥٠ قرشاً

(١) شولش، تحولات جذرية، ص ١٧١.

ملحق رقم (١)

استملاك الأراضي بطريقة البيع

المشتري	البائع	نوع العقار أرض، دار	الموقع	الحصة	الثمن	المصدر أو السجلات
محمد بن صالح بن عودة السلال الرملي	الحاج محمد السقا	كرم مشتمل على أشجار متنوعة للشمار وشجر زيتون وصبر محيط.	ظاهر الرملة من الجهة الغربية	١٢ قيراطاً من أصل ٢٤ قيراطاً	سبعين لميرة فرنساوى عيناً	س ش يافا (٣٦) ص ١٠٦
مصطفى بن جبر ومحمد الأسمر	على عابدين بن الشيخ أحمد عابد	كرم المشتمل على غراس زيتون ومنافع وحقوق شرعية تركة إسماعيل عابد	قرية الحديثة	١٢ قيراطاً من أصل ٢٤ قيراطاً	٣٠٠ قرش سعر الريال البشلك بسته قروش وربع مناصفة بينها ١٥٠ قرش لكل منها	س ش يافا (٢٩) ص ٢٠ س ش يافا (٢٨) ص ٢١٥
حسين أحمد حماد الرملي	حسين بك الغصين وكيل النيابة الشرعية بالرملة	كرم مشتمل على شجر مختلف الأشجار وصبر محيط	بظاهر الرملة من الجهة القبليّة		٦٤٤٦ قرشا ٣٠ فضه صاغ الخزينة وتعهد بدفع الويـرـكو المرتـب عليه سنوياً	س ش يافا (٢٩) ص ٤٢

المشتري	البائع	نوع العقار أرض، دار	الموقع	الحصة	الثمن	المصدر أو السجلات
خليل سمور الرومي	سابا ابن صالح الرومي	الدار الشهيرة بدار أشبك	الرملة	ربع حصة سدس ربع حصة	١٢٠٠ قرش ألف مقبوض والباقي ٢٠٠ قرش مقبوض الاعتراف	س ش يافا (٢٦) ص ١٧٣
عبد السلام أفندي أبي الهدى	السيد محمد سعيدى	استبدال ثلاث قطع أراضي بثلاث قطع أخرى قطع الرملة هلى ١- أرض البويرة ٢- أرض اليومية من الجهة القبلية ٣- أرض الحمير	ظاهر الرملة من الجهة الشرقية بثلاث قطع من قرية المنصورة أراضي المنصورة	١٢ سهماً	بالثمن المطلوب لمن شاء بطريقة المقايضة	س ش يافا (٢٩) ص ١٢١
على عبد القادر بن عبد القادر مصطلح	عبد الرازق بن أحمد مصلح	ست عشرة زيتونة فى أرض المحرقة وثمانى زيتونات فى أرض السبيل	قرية بيت نبالا	-	٣٤ ريالاً مجيداً ثمن الزيتونة ٦ ريالات مجيدى	س ش يافا (٤٧) ص ١١١

المشتري	البائع	نوع العقار أرض، دار	الموقع	الحصة	الثمن	المصدر أو السجلات
السيد درويش محمود الحاج على الرملي	أخوه لأبيه موسى الذى آل إليه بالاستحكار ويده واضحة عليه بلا منازع	كرم مشتمل على شجر منوع الثمار وصبر محيط الشهير بكرم (بكرع)	ظاهر الرملة من جهة الغرب	١٢ قيراطاً من أصل ٢٤ قيراطاً	١٦٠ ليرة فرنساوى ذهب عيناً ثمن حال مقبوضة	س ش يافا (٢٥) ص ٢٣٣
حسين بن أحمد الغرابلى	فاطمة بنت حسين السقا الذى آل إليها بطريقة الشرع	كرم مشتمل على أشجار مختلفة وثمار مختلفة ومنافع وحقوق شرعية	ظاهر الرملة من الجهات الغربية	-	٣٠٠٠ آلاف قرش ومائتا قرش صاغ الخزينة ثمناً حال مقبوضة وشهادة الشهود	س ش يافا (٢٥) ص ٢٣٣
حسين بن أحمد جراد الغرابلى	فاطمة بنت رجب السقا الذى آل إليها بالطريق الشرعى	كرم	ظاهر الرملة من الجهة الغربية	-	٤٠٠٠ آلاف قرش من للربال المجيدى الأبيض خمسة وعشرين مقبوض	س ش يافا (٢٦) ص ٤٨

المشتري	البائع	نوع العقار أرض، دار	الموقع	الحصة	الثمن	المصدر أو السجلات
					بالاعتراف والتصديق وشهادة الشهود	
تاردس نصار	السيدة عائشة بنت الشيخ	٣/٢ الدار الكائنة قبلة وقف	محلّة النصارى	٣/٢ الدار	١٢٠ ليرة ذهب	س ش يافا (٤٧)
الرومى من أهالى الرملة	حسن أحمد فخر و شقيقها السيد محمود ووالدته فطومة أبى عبيد وأمونة بنت عمر أحمد راشد زوتى الشيخ حسن أحمد فخر	الأشعرى	بالرملة		فرنساوى	ص ١٢١ - ١٢٢
إبراهيم بن الحاج عيد الخاروف الرملاوى	شقيقة درويش والعبد ابنى إبراهيم الحج عيد الخاروف وصادرت إليه بطريقة الاستحكار	كرم تشتمل على أرض وأشجار ومتنوعة ومنافع وصفوف وأعمدة	ظاهر الرملة من الجهة الغربية	-	-	س ش يافا (٤٢) ص ٢١٥

المصدر أو السجلات	التمن	الحصة	الموقع	نوع العقار أرض، دار	البائع	المشتري
س ش يافا (٢٥) ص ٩٨	٢٥٠٠ قرش صاغ المرسوم	١٢ قيراطًا من أصل ٢٤ قيراطًا	ظاهر الرملة من الجهة الغربية	كرم مشتمل على أشجار متنوعة وصبر محيط تركه الضربيط الرومي	مختار رملة الروم بيافا الخواج خليل هندلي الوكيل الشرعي عن قبيل حبيبة بنت جرجس البارونى الرومى	صالح رياض
س ش يافا (٢٩) ص ٤٢	١٣٥ ليرة فرنساوى ذهب قيمة الدين المرتب بذمة البائع للمشتري مؤجلا لمضى سنة والمصادقة عليه	٢١ قيراطًا من أصل ٢٤ قيراطًا	ظاهر الرملة من جهة الطريق	كرم مشتمل على أشجار متنوعة وصبر محيط المشهور بكرم (بكوع) بطريقة بيع ووعد ووفاء كاشفين منه ما هوله وصار بملكه بشرعية	السيد درويش الحاج على الرملى	السيد عبد الغنى لطفى قويدي الرملى

ملحق رقم (٣)

يمثل بعض الأراضي الملك الخاص

أسماء الأراضي والخواكير والبساتين وأصحابها	الموقع	أنواع الحاصلات المزروعة بالأشجار	كمية الحصة وعدها	السجلات
بيارة محمد سليم أفندى الخيرى	وادي حنين	مختلف الثمار	سهم من أصل ١٦ سهماً	س ش يافا (١٢٤) ص ٤٩
بيارة محمد بن محمد وحمدان وإخوته	وادي حنين	مختلف الثمار	-	س ش يافا (١٢٨) ص ٣ + ٢ + ١
وبيارات محمود شاهين	وادي حنين	مختلف الثمار		
كرم السيد درويش محمد على الرملى كرم (كوع)	ظاهر مدينة الرملة من جهة الغرب	مشمتمل على شجر متنوع للثمار وصبر محيط	١٢ قيراطاً من أصل ٢٤ قيراطاً	س ش يافا (٢٩) ص ٤٢
كرم حبيب أفندى الفاروقه	ظاهر مدينة الرملة من جهة الغرب	مشمتمل على شجر منوع للثمار وصبر محيط	غير معروف	س ش يافا (٢٩) ص ٤٢
كرم حسين أبو عبيد	ظاهر مدينة الرملة من جهة الغرب	مشمتمل على شجر منوع للثمار وصبر محيط	غير معروف	س ش يافا (٢٩) ص ٤٢
كرم يوسف الجرباوى	ظاهر مدينة	مشمتمل على	غير معروف	س ش يافا (٢٩)

السجلات	كمية الحصة وعدها	أنواع الحاصلات المزروعة بالأشجار	الموقع	أسماء الأراضي والحوالكير والبساتين وأصحابها
ص ٤٢		شجر منوع للثمار وصبر محيط	الرملة من جهة الغرب	
س ش يافا (٢٥) ص ١٤٦	غير معروف	مشتمل على شجر منوع الثمار	ظاهر مدينة الرملة من جهة القبلة	كرم حسين بك الغصين
س ش يافا (٢٩) ص ٤٢			ظاهر مدينة الرملة من جهة القبلة	كرم إبراهيم الداية الرومي
س ش يافا (٦٢) ص ٢٢ - ١٩		-	خارج الرملة بالجورة	كرم على الترك
		-	خارج الرملة بالجورة	كرم عيسى شبيطة
		-	خارج الرملة بالجورة	كرم خليل صبحي على الشناوي
		-	خارج الرملة بالجورة	كرم عبد الحميد عابدين
س ش يافا (٦٢) ص ٧١		-	شمال غربي الرملة	كرم خليل حجازي
		-	شمال غربي الرملة	كرم أبو فقوسة

السجلات	كمية الحصة وعدها	أنواع الحاصلات المزروعة بالأشجار	الموقع	أسماء الأراضي والخواكير والبساتين وأصحابها
س ش يافا (٦٨) ص ٢٣		-	شمال الرملة	كرم يعقوب عبد الغنى قويدر
			غرب الرملة	كرم الضبيع
		-	غرب الرملة	كرم عاذر عبد الوهاب
		-	غرب الرملة	كرم سحين أبو كويك
		-	غرب الرملة	كرم عبد الرحمن بن هلال
س ش يافا (٦٢) ص ١٦ + ١٧		أشجار متنوعة وصبر محيط	خارج قسبة الرملة	كرم إبراهيم الشهير بالداية

ملحق رقم (٤)

الأراضي الأميرية والمشاع في الرملة وقراها وضواحيها

أسماء مالكي الأرض	نوعية الأرض (أميرية - مشاع)	موقعها	كمية الحصة
إلياس بن ولف ليون اليشين موسى يتبع دولة فرنسا	أميرية	ديران	٤١ دونمًا
جريس أفندي برغوش كركور المسيحي اليافي	مشاع	أراضي قرية النعاني	١٧ حصة إلاثلث من أصل ٧٢٠٠ حصة
حسين بن عمر أبو قمر من أهالي قرية النعاني	أراضي مشاع	أراضي قرية النعاني في القطعة الشرقية والغربية منها	١٠ حصص من ٧٢٠٠ حصة

أسماء مالكي الأرض	نوعية الأرض (أميرية - مشاع)	موقعها	كمية الحصة
فاطمة بنت حسين الصعیدی وکلت جريس أفندی بولص کرکور	أراضي مشاع	في بيع ما جاء بتصرفها وحق قراها في القطعتين الشرقية والغربية من أراضي النعاني إلى خليل أفندی عبد العزيز الغرة من قرية بنت صرفند بثمان أو بدل قدره ٦٠ ليرة فرنساوی	١٠ حصص من ٧٢٠٠ حصة
عبد الله بن محمد بن الله سالم قرية بدرس وکل وأناب عن (عزت أفندی محجوب المقوس) في بيع وفراغ عموم أرض بدرس ودفع قيمة بدل الرهن المربوط على الحصص	أراضي أميرية في قرية بدرس	عموم أراضي قرية بدرس	-
هيلانة .. ميخائيل عيسى شبيطة من ملة الروم من أهالي الرملة وهبت لأخيها الخواجه عيسى ميخائيل شبيطة	أرض أميرية المعروفة بأرض كشكار، وأرض الغروس، أرض المرواية، أرض المقاية.	في قصبة الرملة من الجهة الغربية بأرض الرملة، خارج قصبة الرملة إلى الغرب من الجهة الغربية	حصة من أصل ٨ حصص حصة من أصل ٨ حصص سهم من أصل ٨ حصص
مشاع المغربي	أرض مشاع	قبة كرم محمد عمر الشهير بالحاج على	أراضي أشجار

أسماء مالكي الأرض	نوعية الأرض (أميرية - مشاع)	موقعها	كمية الحصة
جريس أفندى بن برغوش كركور المسيحي البياني أرادفك رهن أراضي أميرية	أراضي أميرية في عموم ثلاث قطع المشهورة بالحجارة والقناة والسلمونية	قرية الخيمة	س س السهم من ٢١ سهما
الخواجة ملفل بركم وورثته إخوته من بعده	أراضي أميرية المعروفة بأرض القراح ظهور الدياربه مع السمعانية	قرية أبو شوشة	١٠ أسهم من أصل سهم
جليلة ومحمدية بنى مصطفى بن أحمد الدبشة	أراضي مشاع قرية حمزو	قرية حمزو	
السيد أحمد شكرى أفندى	أراضي مشاع	الرملة	
السيد إبراهيم أفندى والشيخ سليمان أفندى والشيخ يوسف أفندى أولاد عبد المجيد أفندى الناجى	في الرملة بيارة كانت بوادى الفرس مارس أبو الفرس الأرض الشهيرة بالسلامة الأرض الشهيرة بالسلمونة الأرض الشهيرة بجبل . أبى عاقلة القطعتان الشهيرتان هما الأولى (السحانية القبدية قبلة الشلال الرحامية) وجميع الحاكورتين		

أسماء مالكي الأرض	نوعية الأرض (أميرية - مشاع)	موقعها	كمية الحصة
	الواقعتين بقرية صيدون، والثانية أراضي عموم مشاع قرية قزارة المعروفة بالخزنة وأخرى (بالجبرية)، والثالثة المعروفة بنخلة الذهب وتابعها، والرابعة المعروفة (حاكورة البراق) قرية المنصورة		
محمود بن محمد بن شعبان القاصر وورث عن والديه خضرة بنت أحمد أراس	قطع أراضي مشاع أربع قطع مشاع المسماة (بالواد) الشقرة، والمسماة (بالوجه المشاع)	قرية عاقر	٩ حصص من ٢٠٦١ حصة
إلياس بن يوسف عبود	بالسلاق بالواد الغربي		
إلياس بن يوسف عبود	قطعة أرض مشاع في أواخر القرية استوفاهما الوصي بواسطة دائرة الأجراء قطعة أرض بيارة بأرض أميرية بوادي حنين بقرية صرفند الخراب	صرفند الخراب (وادي حنين)	مساحة نحو ١٠ دونم

ملحق رقم (٥)

بيان الأوقاف في الرملة وقراها وضواحيها

الواقف	نوعية الوقف	العقار ووارداته	الموقع	بعد انقراض نسل الواقف يؤول إلى	السجلات
وقف الجامع	خيرى	دكان	شمال الرملة	-	س ش يافا (٤٦) ص ٢٤
وقف آل رضوان	ذرى	أراضى	غرب الرملة	-	
وقف وهبة محرم	ذرى	حاصل	شرق الرملة	-	
وقف محمد الرملاوى	ذرى	قطع أراضي وخصص ٨ أسهم من ٢٤ سهمًا والواردات ٣٥٢٢٦٣٢ قرشا	الرملة	وقف له ولورثته من بعده	س ش يافا (٢٥) ص ٢٢٧ س ش يافا (٤٦) ص ٦٣
وقف آل رضوان	ذرى	حكومة وارداتها ٢٦٦٠ قرشا	شمال الرملة	لورثتهم بعدهم	س ش يافا (٢٥) ص ٤٣
وقف جامع حذيفة بن السام	خيرى	دكان ويصرف منه على المؤذنين والخطباء والذين يعملون في المسجد	داخل قصبة الرملة	-	س ش يافا (٩٢) ص ١٢١

الواقف	نوعية الوقف	العقار ووارداته	الموقع	بعد انقراض نسل الواقف يؤول إلى	السجلات
وقف دير مار يعقوب الأرمن بالرملة	خيرى	١- الدار الملك الكائنة داخل قصة الرملة بمحلة السطامي وقدرها ٥٤ حصة من أصل ٦٤ حصة. ٢- جميع الدار المملوكة الكائنة بمحلة السرايا ٣- الخاكورة الكلينة بمحلة السرايا المشتملة على أشجار صبر محيط	محلة البسطامي بالرملة محلة السرايا بالرملة محلة السرايا بالرملة محلة الجميزة		س ش يافا (٥٩) ص ٥٤٩ س ش يافا (٥٠) ص ١٣٤
وقف السيد المتوفى محمد أبو بكر	ذرى	دار	محلة السرايا الرملة	لأولادى وأولاد أولادى من بعدى وفق حجة مؤرخة سنة ١٢٦١ هـ	س ش يافا (٦٧) ص ١٣٥

الواقف	نوعية الوقف	العقار ووارداته	الموقع	بعد انقراض نسل الواقف يؤول إلى	السجلات
وقف دير الروم	خيرى	حاكورة	غرباً + دكاكين (محلّة النصارى)		س ش يافا (٤٦) ص ١١٥
وقف خاتمة المحققين الشيخ ابن الهدى	ذرى				س ش يافا (٥٠) ص ١٣٤
وقف المرحوم الحاج حامد أفندى التاجى	ذرى	بىارة الشهيرة بالبوز	قبلة الرملة		س ش يافا (١١٩) ص ٩١-٨٩
وقف أمين الدين	ذرى	كرم أبو سعيان	خارج الرملة من الجهة القبلىة		
وقف أبى جعفر	ذرى	كرم إسحاق	محلة الباشاوية		س ش يافا (٤٩) ص ٩٢ س ش يافا (١٤٤) ص ٢١٠
وقف الشيخ الخيرى	ذرى	كرم البستانية	غرب الرملة		
وقف جامع	خيرى	مارس	شرق الرملة		س ش يافا

الواقف	نوعية الوقف	العقار ووارداته	الموقع	بعد انقراض نسل الواقف يؤول إلى	السجلات
الرملة					(١٤٠) ص ٢٧٢ - ٢٧١
وقف الخيري	ذري	الشهير بالفارس	شرق الرملة		س ش يافا (١٤٠) ص ٢٧٢ - ٢٧١
وقف الشيخ أبي الهدى	ذري	الشهير بأم بكري	شرق الرملة		
وقف آل رضوان	ذري	كرم درويش أغا	شرق الرملة		
وقف الشيخ الخيري	ذري	أرض شهيرة بالمعطش	غرب الرملة		
وقف شيخ الإسلام خير الدين	ذري	كرم الجبال	الجهة القبلىة		س ش يافا (١٤٠) ص ٢٧٢ - ٢٧١
وقف الشيخ الخيري	ذري	كرم بنات اغبار + دار فى محلة النصارى	شمال الرملة		س ش يافا (٧٢) ص ١١٢
وقف الشيخ الخيري	ذري	كرم الحمامية كرم الوهابت	غرب الرملة غرب الرملة		س ش يافا (٦٢) ص ٤٧٣ س ش يافا

الوقوف	نوعية الوقف	العقار ووارداته	الموقع	بعد انقراض نسل الوقف يؤول إلى	السيجلات
					ص (١٠٩) ١٣٤
وقف محمد أبى كر	ذرى	دار	محلة السرايا بالرملة	وقف صحيح شرعى على أولاد لكن دون الإيجار وهم عبد الرازق وعبد الرحيم وعبد الحليم وأمية ورشيد وقفاً على أولادهم وأولاد أولادهم الذكور دون الإناث بطناً بعد بطن	س ش يافا (٦٧) ص ١٣٥ س ش يافا (٦٧) ص ١٣٥ س ش يافا (٧٣) ص ٢٤٥

المصادر والمراجع

المصادر

- سجلات محكمة يافا الشرعية (س ش يافا).
- سجلات محكمة القدس الشرعية (س ش يافا).
- سالنامة سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م.
- سالنامة سنة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م.

المراجع

- أبو سيف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١١٣ هـ ١٨٢: الخراج، تحقيق القاص محمود الباجي، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٨٤ م.
- عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤ - ١٩١٤، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩.
- باز، سليم رستم، شرح المجلة، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- المر، دعبس، أحكام الأراضي المتبعة في البلاد العربية المنفصلة عن السلطة العثمانية، بيت المقدس، القدس، ١٩٢٣ م.
- الطراونة، محمد، قضاء يافا في العهد العثماني، دراسة إدارية اقتصادية اجتماعية، ١٢٨١ - ١٣٣٣ هـ / ١٨٦٤ - ١٩١٤ م، ط ١، وزارة الثقافة، عمان - الأردن، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.
- شولش، الكسندر، تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦ هـ / ١٨٨٢ م، ترجمة كامل العسلي، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٨ م.
- عيساوي، شارل، التاريخ الاقتصادي، للهلال الخصيب ١٨٠٠ هـ / ١٩١٤ م، ترجمة رؤوف عباس حامد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠ م.
- رافق، عبد الكريم، فلسطين في عهد العثمانيين، الموسوعة الفلسطينية، ق ٢، مج ٢، ط ١، بيروت، ١٩٩٠ م.

- اوين، روجرز، تاريخ فلسطين الاقتصادي في القرن التاسع عشر ١٨٠٠ - ١٩١٨ م، المؤسسة الفلسطينية، ق ٢، مج ١، بيروت، ١٩٩٠ م.
- موسى، صابر، نظام ملكية الأراضي في فلسطين أواخر العهد العثماني، شؤون فلسطينية، ع ٩٥، تشرين أول أكتوبر ١٩٨٦ م.
- قنبجى، جاك، التوسع الرأسمالى العربى وأثره فى تكوين العمل المأجور فى فلسطين، مجلة صامد، ع ٢٢٦، شباط ١٩٨١ م.
- كرد، على، محمد، خطط الشام، مج ٦، مكتبة النورى، دمشق، ١٩٨٣ م.
- العارف، عارف، الفصل فى تاريخ القدس، مطبعة العارف، القدس، ص ١٩٦١ م.
- العارف، عارف، تاريخ غزة، ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م.
- بدران، نبيل، الريف الفلسطينى قبل الحرب العالمية الأولى، مجلة شؤون فلسطينية، ع ٧، عمان، ١٩٨٨ م.
- عنانيم، زهير، لواء عكا فى عهد التنظيمات العثمانية ١٢٨١ - ١٣٣٧ هـ / ١٨٦٤ - ١٩١٨ م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ١، بيروت، حزيران يونيو ١٩٩٩ م.
- دروزة، محمد عزت، مذكرات وتسجيلات، ج ١٠، ط ١، الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار، المركز الجغرافى الفلسطينى، ١٩٨٤ م.

المراجع الأجنبية

- smith, Pamel, Ann, **Palestine and the Palestinians**, 1876 - 1933, London, 1984.
- Hopwood, H. **The Russian in Syria and Palestine** (1943 - 1914) Oxford, 1969.
- Patai, Raphel, **Israel between east and west, study in human relations**, green woed publishing, Corporation westpart, connetieut.
- Stein, Kenneth, W, **The land question in Palestines 1917 - 1974**, London university of north Carolina press, 1984.
- Staff, Naval, **A hand book of Syria** (including Palestine Navel intelligence division, Oxford, 1919.

المجلات والجرائد العثمانية

- فلسطين (يافا) ١٦ كانون ثانى ١٩١٣ م، ع ٢، ٢٠٨.
- البشير (بيروت) ١٧ حزيران ١٩٧ م، ع ١٨١٠، ص ٣.
- البشير (بيروت) ٢٤ ربيع الأول ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٨ م، ع ٩٤٦، ص ٣.

- البشير (بيروت) ٢٠ آذار ١٩٥٥ م، ع ١٦٩٣، ص ٢.
- المنادى (القدس) ٢٤ كانون ثانى ١٩١٢ م، ع ٤٤٤، ص ٤٠٣.
- المنادى (القدس) كانون أول ١٩١٢ م، ع ٤٢٢، ص ٢.
- فلسطين (يافا) ١٧ آذار ١٩١٢ م، ع ١٢٤، ص ٣.
- فلسطين (يافا) ١٩١١، ع ٧١، ص ٢.

* * *

obeyikan.com

**وثائق الحرم القدسى الشريف
وأهميتها فى دراسة التاريخ الاقتصادى
للقدس فى العصر المملوكى**

د. على السيد على محمود

كلية التربية - جامعة القاهرة - فرع الفيوم

o b e i k a n . c o m

وثائق الحرم القدسي الشريف وأهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي للقدس في العصر المملوكي

مقدمة

القدس، ليست مجرد مدينة من عشرات الألوف من مدن الأرض، ولكنها رمز دار ويدور من حوله صراع مرير على مدى أجيال عدة في تاريخ المنطقة العربية. والمثير للانتباه أن القدس كما كانت محورا للدعوة الصليبية بالأمس، فهي محور الدعاوى الصهيونية اليوم. وأنها لم تعرف التعصب سوى حين احتلها الصليبيون، فمات التسامح في بلد التسامح؛ ثم عاد السلام لمدينة السلام حين استعادها العرب تحت راية صلاح الدين، وتدعم السلام حين تم طرد الصليبيين من فلسطين. وعادت مدينة الحب والتسامح تبنى الحضارة وتزرع الثقافة وتعلم الإنسان.

إلى أن كان زمن ردىء، تشرذم فيه العرب، وتباغضوا، وتنافروا فسقطت مدينة السلام في أيدي أعداء السلام. ومرة أخرى عاد التعصب لمدينة التسامح والسلام، ولأن الحب والسلام والحق يتصر دائما في النهاية، فسوف تعود مدينة السلام إلى سابق سيرتها الأولى، ليس بالأمانى، ولكن بتوحيد الجهد العربي وبمواصلة العمل والكفاح ضد عدونا الحقيقي في الداخل والخارج.

وفي العدد التاسع والعشرين بعد المائة الصادر في شهر يونيو عام ١٩٩٩م تحدثنا عن وثائق الحرم القدسي الشريف التي تم الكشف عنها في المتحف الإسلامي في القدس ما بين عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٦م، وأهميتها في دراسة التاريخ الاجتماعي للقدس. فاليوم نواصل المسيرة للكشف عن جانب هام في هذه الوثائق وهو أهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي للمدينة المقدسة في العصر المملوكي "٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧ م". إذ إن هذه المجموعة من الوثائق تلقى أضواءً جديدة على الحياة الاقتصادية قلما تجدها مثيلاً في المصادر التاريخية والأدبية الأخرى والتي اهتمت بالتاريخ القدسي. فهي حافلة بكنز من المعلومات في شتى المجالات الاقتصادية، من حيث الزراعة ونظمها، والطرق التي كانت متبعة، وإيجار الأرض الزراعية، وأحوال الفلاحين، وتحديد كثير من القرى التابعة للقدس، وأنواع التجار، والمؤسسات التي تخدم التجارة، ونظام البيع والرهن، والمكايل والموازين المستخدمة، وكذلك أنواع النقود المستعملة، والحالات التي كان يتحتم فيها تدخل الدولة، والملكية العامة، واحترام الملكية الخاصة، وإقرار التفاوت الاقتصادي بين الناس، وصادرات وواردات القدس، وأرباب الحرف وأهم المواد المستعملة وبعض أدوات الإنتاج، والأجور والمرتبات، وريع بعض الأوقاف وطرق تحصيل الإيجار، وضمان حد الكفاية لسكان المدينة، والصناعات التي اشتهرت بها المدينة، ومحاربة الإقراض بالربا وشيوع عملية القرض الحسن، والمعاملات المالية المختلفة، وأسعار بعض الجوارى والعبيد وبعض الدواب، ووسائل المواصلات، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وحفظ التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع.

الزراعة

احتلت الزراعة مكانة رئيسية بين الأنشطة الاقتصادية السائدة في القدس منذ قديم الزمان وحتى العصر المملوكي. خصوصاً في أطراف المدينة وحولها في كثير من التلال والأودية والقرى بما تحللها من موارد مياه، والتي أمدت المدينة بحاجة سكانها من الحبوب والخضراوات والفاكهة. وفي ذلك يقول الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زارها سنة ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٧م "وسواد رساتيق بين المقدس جبلية كلها، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء، والخيرات بها كثيرة ورخيصة.." كما

يقول في موضع آخر: "وحين يسير السائر من المدينة جنوبا مسافة نصف فرسخ، وينزل المنحدر يجد عين ماء تنبع من الصخر، تسمى عين سلوان. وقد أقيمت عندها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين"^(١).

وتشير المصادر إلى أن بركة سلوان "سلوام" هذه والتي تقع أسفل جبل صهيون في وادى جهنم، والقرية المسماة باسمها كانت تقوم بها كثير من الزراعات على مياه تلك البركة، وكذلك على المجرى المائى الذى يسمى جيحون والموجود فى نفس الوادى^(٢). كما أن الحقول التى كانت تروى من بركة سلوان أو مجرى جيحون تعتبر من أخصب الأراضى الزراعية فى فلسطين، وبعض هذه الأراضى كانت تنتج فى السنة أربعة محاصيل لتوفر مياه الرى اللازمة لها، فضلا عن أنها كانت عامرة بحقول القمح والشعير، وبساتين الفواكه التى امتلأت لها، فضلا عن أنها كانت عامرة بحقول القمح والشعير، وبساتين الفواكه التى امتلأت أشجارها بكثير من التين والعنب واللوز والجوز^(٣).

كما أن القرى المحيطة بالقدس من جهة الشرق كانت تعتبر ضمن أهم المناطق الزراعية التى اعتمدت عليها المدينة فى عصر سلاطين المماليك، ومنها أريحا شرقى بيت المقدس بالقرب من نهر الأردن، وقد كانت إقطاعا لمن يكون نائبا للقدس الشريف^(٤).

يضاف إلى ذلك بعض القرى الواقعة إلى الغرب من المدينة، ومنها قرية تعرف باسم "البقعة"، والتى كانت أرضها من أحسن الأراضى الزراعية. هذه القرى كان بها من موارد المياه ما يفي بحاجتها من الزراعة، فهناك عين ماء العذراء فى المنطقة المنخفضة من

(١) سفرنامة: نشر د. يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م، ص ١٩-٢٠؛ د. على السيد على: القدس فى العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٩٢.

(٢) د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، دار الكتب المصرية، ١٩٧٤، ص ١٥.

Foster: The Travels of Hohn Sandersn in the Levant, London, 1931, p.

(3) Fabri: The Book of the Wanderings of brother Felix Gabri {circa 1480 j 1483 A.D.} Trans, by Aubrey Stewart, London, 1892, Vol. I.p. 279; Le Strange: Palestine Under the Moslems, Florance, 1890.p.84; Lees: Village life in Palasine, London, 1905, p.139.

(٤) مجير الدين الحنبلى: الأنس الجليل بتاريخى القدس والخليل، القاهرة، ١٢٨٣ هـ، ج٢، ص ٤٢٣؛ د. على السيد على: القدس، ص ١٩٢.

وادي القدرون، والتي تسمى بئر أيوب، وهناك عين أم الدرج وهي التي تسمى عين مريم، وكذلك عين اللوزة وغيرها من العيون والآبار التي وفرت لتلك المناطق حاجتها من المياه اللازمة للرى بالإضافة إلى مياه الأمطار^(١).

ومن القرى التابعة لبيت المقدس تذكر لنا الوثيقة رقم ٢٢٣ قرية زكريا البطيخ، وهي قرية تقع على بعد حوالي عشرين كيلو مترًا شمال غرب القدس^(٢). كما تشير الوثيقة رقم ٢٦٥ إلى قرية بيت أونبة وقف الحرم الشريف، وهي اليوم قرية بيتونيا، في ظاهرة بلدة رام الله^(٣) وقرية عين عريك إلى الغرب من مدينة رام الله وكانت وفقًا على الحرم القدسي الشريف^(٤). وقرية نحالين، وهي قرية في قضاء الخليل تقع شمالي مدينة الخليل قرب قرية بيت صوريث وبيت إمر ووادي فوكين وجبعة من عمل القدس الشريف^(٥). وقرية العوجا، وهي قرية معروفة تقع في الشمال الشرقي من مدينة أريحا فيها أراضي مساحتها تتجاوز مائة ألف دونم يزرع فيها الموز والبرتقال. وتقع بالقرب منها عين العوجاء ووادي العوجا الذي تنتهي فيه الأمطار الهابطة من الجبال، هذه القرية وقفها السلطان الظاهر بيبرس على الحرم القدسي الشريف سنة ٦٦٤ هـ^(٦). وقرية نوبا من قرى قضاء الخليل^(٧).

وكما كانت القرى المجاورة لبيت المقدس تمثل المناطق الزراعية التي اعتمدت عليها المدينة في الوفاء باحتياجاتها من الغذاء، فقد كانت هناك بعض الأودية، مثل الوادي الممتد بين بيت المقدس وبيت لحم والخليل، والذي زخر بكثير من الزروع والحدائق والبساتين العامرة بالعنب والتين والزيتون والساق^(٨). فضلًا عن خصوبة أرض ذلك الوادي وكثرة موارده المائية والتي تجعل الحياة تبعث على السرور^(٩).

(١) د. عبد الحميد زايد: نفسه، ص ١٩؛ د. علي السيد علي: نفسه، ص ١٩٣.

(٢) د. كامل جميل العسلي: وثائق مقدسية تاريخية، عمان، ١٩٨٥ م، ج ٢، ص ٧٠.

(٣) المصدر السابق: نفسه، ج ٢، ص ٧٢.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٥، الوثيقة رقم ٤٥٩.

(٥) المصدر نفسه، عمان، ١٩٨٣، ج ١، ص ٢٥٨؛ الوثيقة رقم ٤٨.

(٦) المصدر السابق: نفسه، ج ١، ص ١٧٨، ١٧٧، الوثيقة رقم ٣٤.

(٧) المصدر السابق: نفسه، ج ٢، ص ٩٧، الوثيقة رقم ٩٧.

(٨) ناصر خسرو: نفسه، ص ٣٢.

(9) Thomas Wright: *Early Travels in Palestine*, London, 1889, p.63.

ويمكننا أن نضيف إلى المناطق الزراعية السابقة التلال المحيطة بمدينة بيت المقدس، لا باعتبار ما قد ينبت على سفوحها ومنحدراتها من حشائش وأعشاب تصلح للرعى، ولكن على أساس أن هذه التلال كانت تمثل إحدى المناطق الزراعية الهامة لمدينة القدس ذاتها، وقد اشتهرت هذه التلال باسم المحاصيل التي زرت بها، مثل "تل الفولة" والذي كان يقع على بعد خمس كيلو مترات إلى الشمال من بوابة دمشق في القدس، هذا التل يطل حالياً على الطريق المؤدية إلى نابلس^(١). هذا فضلاً عن بعض المناطق المسطحة داخل المدينة أو خارج أسوارها مباشرة والتي استغلت في الزراعة حسبما يفهم مما أورده الرحالة "كازولا" الذي زارها أواخر القرن الخامس عشر للميلاد^(٢).

بالإضافة إلى الأراضي الصالحة للزراعة الواقعة خارج أسوار المدينة والملاصقة لها، والتي أطلق عليها اسم "الجورة" لمجاورتها لأحد أسوار المدينة. ففي وثيقة وقف السلطان صلاح الدين الأيوبي على الخانقاه الصلاحية بالقدس والتي تمت في الخامس من شهر رمضان سنة ٥٨٥ هـ جاء ذكر أرض الجورة العليا الشمالية وأرض الجورة السفلى الجنوبية، ويتضح من الوقفية أن أرض الجورة العليا الشمالية، والجورة السفلى القبلية أو الجنوبية أنها كانت في المنطقة الواقعة - غربى سور المدينة الحالى ظاهر باب الخليل بين شارع مأمّن الله الحالى وبركة السلطان - وكان بين هاتين الجورتين طريق، كما كان بين الجورتين وسور المدينة طريق سالك إلى باب الخليل، وربما كانت الجورة العليا الشمالية في موقع جورة العناب، والجورة السفلى اليوم في موقع بركة السلطان^(٣).

نظام الزراعة

أما عن نظام الزراعة والآلات المستخدمة في ذلك العصر، فالحقيقة أن المصادر التاريخية التقليدية التي تحدثت عن القدس تكاد تكون خالية إلا من إشارة واحدة وردت عند ابن الصيرفي في ذكره لحوادث سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١م في عهد السلطان الأشرف قايتباي عن أحد أبناء القدس ويدعى برهان الدين العجلوني من "أنه استأجر من وكيلين

(1) Hinkly: "The Modern Wall of Jerusalem", A.A.S.O.R. Vol. 1, pp. 1-28.

(2) Margaret Newett: Canon pietro Casola's Pilgrims to Jerusalem in the year 1494, Machester univ. press, 1907, p.250.

(٣) د. كامل العسلى: وثائق مقدسية، ج١، ص ٨٢-١٠٨.

عن أميرين بالشام قطعة أرض مدة معلومة وحكم بها حاكم شرعى وتوجه ليزرعها فوجدوها مزروعة لغيره فأخذ من الذين زرعوها مقاسمته على عادة البلاد الشامية^(١). وهذه هى الإشارة الوحيدة عن نظام المقاسمة وفيها يقوم أحد الأشخاص باستئجار الأرض من مقطعتها، ويقوم هو بالإنفاق عليها وشراء كل ما يلزمها، ثم يتقاسم ثمن المحصول هو ومن قام بزراعتها^(٢).

وجدير بالذكر أن نظام المقاسمة هذا يختلف باختلاف الأرض ونظام ريها، فتكون تارة مناصفة، وتارة مثالثة، وتارة مرابعة، وتارة خماسة، أو مسادسة^(٣). ويحل نصيب الفلاح من هذه المقاسمة بعد نضج المحصول وحصاده، فتكون المقاسمة بحسب ما اتفق عليه، فيأخذ مندوب المقطع ما يخص سيده، وتكون هذه المقاسمة بحضور شهود نظير أجر يتناولونه من المقطع والفلاح. إلا أننا نلاحظ أن نصيب الفلاح في هذه المقاسمة تراوح ما بين النصف والربع^(٤).

وتضيف وثيقة وقف الأمير سيف الدين تنكز والمثبتة في السجل رقم ٩٢ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس أبعاداً أخرى لنظام الزراعة المتبع في القدس فتقول إن على ناظر الوقف المذكور أن "يستغل الضيعة المذكورة المعروفة بعين قنية" في قضاء رام الله اليوم، وأراضيها بالمزراعة والمفالحة والمعاملة بما فيه المصلحة الراجحة لجهة الوقف .. كما اشترطت الوثيقة على ناظر الوقف "أن يقوم بشراء ما يحتاج إليه من مشترى أبقار وآلات وتقوية فلاح" وأن "لا تؤجر الضيعة المذكورة وأراضيها ولا شئ منها في عقد واحد أكثر من ستين، ولا يستأنف على ذلك عقد حتى ينقضى العقد الأول ويعود إلى يد الناظر"^(٥).

(١) إنباء المصغر بآباء العصر، تحقيق د. حسن حبشى، القاهرة ١٩٧٠، ص ٤١٧-٤١٨.

(٢) د. على السيد: القدس في العصر المملوكى، ص ١٩٦.

(٣) ابن نجيم "زين الدين إبراهيم الحنفى ت ٩٧٠هـ": رسالة التحفة المرضية في الأراضي المصرية، وهى الرسالة السادسة في المخطوط رقم ٤٧٩ مجاميع - مصور ميكرو فيلم رقم ١٥٢٤٧ - دار الكتب المصرية، ص ١٦٤ ب.

(٤) ابن حجر العسقلانى: إنباء الغمر بآباء العمر، تحقيق د. حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧١، ج ٥، ص ١٨٧ - ١٨٨، د. إبراهيم طوخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٣٧-٢٣٨؛ انظر الوثيقة رقم ٦٩٧.

(٥) د. كامل جميل العسلى: وثائق مقدسية، ج ١، ص ١١٩ - ١٢١.

والحقيقة أن المقاسمة والمزارعة والمخابرة ألفاظ مترادفة، وهى اصطلاحات لزراعة الأرض على شطر مما يخرج منها من المحصول، وتختلف المخابرة، وهى لغة مشتقة من الخبير وهو الفلاح، عن المقاسمة والمزارعة فقد اعتبر الفقهاء أن المقاسمة أو المزارعة تكون إذا كان البذر من صاحب الأرض، وهذا ما تؤكد الوثيقة السابقة، على حين يكون البذر من العامل أو الفلاح فى المخابرة. أما المساقات فهى عقد يتضمن معاملة الشخص غيره على شجر أو عنب أو نخل يتعهده بالسقى والتربى نظير قدر معين من الثمر. أما الإيجارة، فهى تختلف من حيث قيمة الإيجار تبعاً لنوع الأرض ونوع ريبها ونوع المحصول، فضلاً عن الأحوال الطارئة من رخاء أو غلاء أو فتن، ثم قسوة ولى الأمر أو عدله^(١).

أما المفالحة فهى إلزام الفلاحين فى الإقطاعات بالفلاحة أى إجبارهم على الفلاحة، والمقريزى يذكر عنها: "ويسمى المزارع المقيم بالبلدة فلاحاً قرارياً، فيصير عبداً لمن أقطع تلك الناحية إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق فهو قن ما بقى ومن ولد له كذلك".

أما عن الحيوانات والآلات التى استخدمها الفلاحون فى ذلك الوقت، فتشير كثير من المراجع إلى أن الوسائل المستخدمة لم تتغير على مر الزمان، ومنها ما هو سائد إلى الآن مثلما كان يتم عند جمع الزيتون من الأشجار، حيث يضرب الزيتون بقطعة من الخشب حتى يتساقط ويتم جمعه بعد ذلك. كذلك كان الفلاح يستخدم فى حرثه للأرض محراثاً خشبياً يجره ثور وحمار، وأحياناً كان يستخدم البقر أو الجاموس فى جر المحراث. وتشير بعض المراجع إلى أن الحمير كانت تشكل بالنسبة للفلاح فى ذلك الوقت أهم الممتلكات التى يحرص عليها، فعليها يحمل أثقاله فضلاً عن قيامها بالعمل فى الحقل، إلى جانب كونها كانت تستخدم فى التنقل إلى الأماكن البعيدة للحمل أيضاً نظراً لطبيعة البلاد الصخرية، كذلك كان لدى أهل بيت المقدس أعداداً كبيرة من الحمير استخدموها فى تنقلاتهم داخل الأراضى المقدسة. بينما كان البقر والجاموس قليلاً بصفة عامة، ولذا حرص الفلاحون على الاستعانة بهما فى الزراعة، ونادراً ما كان يتم ذبحهما وأكل لحومهما^(٢).

(١) د. إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية، ص ٢٣٧-٢٥٦، ص ٥٠٣-٥١٨؛

(2) Lapidus (Ira. Marvin) : Muslim Cities in the Later Middle Ages.

Massachusetts, 1905. pp. 50-52.

د. على السيد: القدس فى العصر المملوكى، ص ١٩٧ وما بها من مصادر ومراجع.

أحوال الفلاحين

لقد قاسى الفلاحون في بيت المقدس من جراء النظام الإقطاعي الذي ساد في ذلك العصر، نظرا لما اقترن به من استغلال وظلم وعسف، وتصور لنا المصادر مدى ما آلت إليه أحوال الفلاحين لدرجة أنه إذا هرب الفلاح فرارا من الظلم والقهر أعيد قسرا، بحيث "جرت عادة الشام بأن من ينزح من دون ثلاث سنين، يلزم ويعاد إلى القرية قهرا، ويلزم بشد الفلاحة، والحال في غير الشام أشد منه فيها"^(١). وكثيرا ما كان الفلاحون يكتبون تعهدا بذلك، فالوثيقة رقم ٦٩٧ بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ٧٠٧ هـ تتضمن تعهدا من عدد من الفلاحين بزراعة الأرض وعمارتها وهم متضامنون في ذلك متكافلون، وأنهم "أشهدوا على أنفسهم طايعين مختارين غير مكرهين ولا مجبرين ولا مغصوبين أنهم عليهم بالإقامة والعمارة بالناحية المذكورة وتعليق أرضها بالزرع والكراب، وأن أحدا منهم لا يتحيد ولا يفارق ولا يظعن عن بلده لا صيفا ولا شتاء إلا لمصلحة..."^(٢).

بل أكثر من هذا، أنهم كانوا يكتبون تلك التعهدات ويكفلهم بعض رؤساء قراهم حتى إذا أخلوا بتعهدهم يكون هؤلاء الرؤساء مسئولين أمام المقطعين، فقد جاء في الوثيقة رقم ٢٦٥ بتاريخ ١٢ رجب سنة ٧٩٠ هـ تعهد من أحد الفلاحين من قرية بيت أونية "بيتونيا" بزراعة الأرض، وقد كفله ثلاثة من رؤساء القرية"^(٣).

وعن الدورة الزراعية أو الأسلوب المتبع في زراعة الأرض في بيت المقدس بوجه خاصة وبلاد الشام بوجه عام، فقد جرت العادة أن يراح شطر من الأرض ويزرع شطر، ثم يبدل الشطران في السنة التالية. أو بعبارة أخرى، سارت بلاد الشام وفق النظام الذي عرف في العصور الوسطى نقلا عن الرومان باسم نظام الحقلين The Two Field Cultivation، تجنباً لإجهاد الأرض ومحاولة تحسين الإنتاج"^(٤).

(١) السبكي "تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١ هـ"، معيد النعم ومبيد النقم، دار الكتاب العربي بمصر

١٩٤٨، ص ٣٤، د. على السيد: القدس، ص ١٩٦.

(٢) د. كامل جميل العسلي: وثائق مقدسية، ج ٢، ص ٧٤.

(٣) المصدر السابق: نفسه، ج ٢، ص ٧٢.

(٤) د. إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية، ص ٢٤٢.

الصناعة

لعب الممالك باعتبارهم الطبقة العسكرية الحاكمة ومن دار في فلكهم دورا هاما كمستهلكين مهمين للمعدات الحربية، ومواد الطعام، والأثاث، فاستخدموا أرباب الحرف والصناع لإعداد ملابسهم وخيامهم وأعلامهم وكثيرا من الأشياء الأخرى. وارتبطت كثير من الصناعات في المدينة بحياة هؤلاء الممالك من أمراء وأتباع^(١). كما شهدت المدينة في السنوات الأولى من حكم الممالك بوجه خاص وطوال عصر الممالك بوجه عام نشاطا عمرانيا هائلا، تمثل في إصلاح وبناء المساجد، والتحصينات والمدارس والربط والزوايا، وعمارة قنوات المياه والأسبلة والحمامات، حيث تم استخدام كثير من البنائين والحجارين والنجارين وأصحاب الحرف المختلفة، ونشطت بذلك عمليات قطع الأحجار من كثير من المحاجر التي وجدت في بيت المقدس، ومنها المحاجر الموجودة في جبل صهيون^(٢). كما كانت صناعة عصر واستخراج الزيت من الزيتون، حيث تكثر أشجاره من الصناعات التي اشتغل بها عدد كبير من أبناء القدس والمناطق المجاورة لها، واستخدام هذا الزيت في صناعة الصابون، والذي كان يصدر إلى كثير من البلدان ومنها مصر^(٣).

ومن الصناعات التي اشتهرت بها مدينة القدس صناعة الشمع، وكان الشمع المقدسى مرغوبا لدى الأجانب والحجاج المسيحيين، حيث تباع منه كميات كبيرة في الأعياد، حيث المعروف أنهم يوقدون كثيرا من الشموع داخل كنيسة القيامة، عندما يدخلون إليها في الأعياد المسيحية المختلفة، كما كان الكثيرون منهم يأخذون معهم بعض الشموع تبركا بأنها صنعت في القدس، أو لإشعالها في كنائسهم في الغرب الأوربي عقب عودتهم^(٤).

كما عرفت بيت المقدس بعض الصناعات الخفيفة والتي ارتبطت بمواسم الحج المسيحية، من هذه الصناعات الحفر على خشب الزيتون، فقد كان لدى أبناء القدس

(١) د. على السيد: القدس، ص ١٩٧-١٩٨؛ Lapius: op.cit., pp.50-52;

(2) Wright (Thomas): Early Travels in Palastine, London 1886, pp.65-66.

(4) Ashtor: A Sorial and Economic Hist. Of the Near Fast in the Middle Ages, London, 1976.306; على السيد: القدس، ص ١٩٩.

(٤) عارف باشا العارف: تاريخ القدس، طبع دار المعارف بالقاهرة، ١٩٥١م، ص ٢١١.

مهارة كبيرة في هذه الصناعة، فكانوا يحفرون على خشب الزيتون أشكالا متنوعة وابتقان عجيب، حيث كانوا يصنعون كثيرا من أدوات الكتابة ولعب الأطفال وأدوات الزينة والهدايا ذات الرموز الدينية التي تستهوى كثيرا من الغربيين، وكانت تلقى رواجاً في شرائها لديهم، ومن المرجح أنه قد تخصص في صنعها المسيحيون المحليون من الطوائف المختلفة والمقيمة بمدينة القدس^(١).

ومن الصناعات المقدسية والتي جاء ذكرها في الوثائق صناعة الأقمشة الكتان والحرير، وكانت تصنع في مدينة بيت المقدس ويعمل منها "المناديل" التي استعملها الناس على مختلف طبقاتهم، وتكون كبيرة أو صغيرة، وإذا ما كان المنديل كبيرا فإنه يلف حول الرأس عند عدم وجود العصا أو الشعرية بالنسبة للنساء، وعند عدم وجود العمامة بالنسبة للرجال، وألوانها اللون الأبيض والأزرق والأحمر^(٢).

ومن الأدوات المنزلية التي كانت تستخدم في كل منزل تقريبا تأتي "الطراحة" التي كانت تفرش على الأرض، ومعظم الطرايح التي جاء ذكرها في الوثائق، وكانت تصنع في القدس وتختلف ألوانها بين الزرقاء والبيضاء والحمراء، وقد تكون بوجه وبطانة زرقاء أو حمراء، أو بيضاء^(٣).

كذلك المخدات أو الوسائد والتي استخدمت لراحة الناس عند الجلوس أو عند النوم، ويبدو أنها كانت مثل تلك المعروفة في أيامنا حيث تحشى قطعة قماش وتوضع في كيس، وكان القماش المستعمل يختلف بحسب الحالة الاجتماعية، فقد يكون من الحرير أو القماش العادي وتحشى بالقطن أو تحشى بورق الموز واللباد الأبيض. أما ألوانها فكانت زرقاء أو بيضاء، أو بيضاء بكيس أحمر أو زيتي حرير، وأحيانا تطرز بالحرير الأحمر أو الأبيض^(٤).

(١) المرجع السابق: نفسه، ص ٥٢؛ د. على السيد: القدس، ص ١٩٩.

(٢) د. محمد عيسى صالحية: من وثائق الحرم القدسي الشريف، حوليات كلية الآداب بالكويت، الحولية السادسة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ص ٢٢.

(٣) المصدر السابق: نفسه، ص ٣٤.

(٤) المصدر السابق: نفسه، ص ٣٤ - ٣٥.

والألحفة التى استخدمت كدثار عند النوم. وقد عرف مجتمع بيت المقدس أنواعا مختلفة من الألحفة، منها ألحفة مربعة ببطانة زرقاء، أو بوجه جوخ أحمر وأخضر ببطانة بيضاء، وقد يكون لونها أزرق وحشوها قطن، ولكل منها ملاءة قطن، وغالبا ما يكون قماش الألحفة من القطن أو الحرير أو الكتان^(١).

كذلك كانت صناعة النسيج من الصناعات المعروفة فى بيت المقدس، فقد جاء فى الوثيقة رقم ٢٢٠ والمؤرخة فى ١٨ شعبان سنة ٧٤٥هـ، وهى من وثائق حصر الموجودات بقصد الإرث أن تركة أحد عمال النسيج فى مدينة بيت المقدس ويدعى أحمد بن موسى بن راجح البصراوى كانت تشتمل "على ثوبين خام قطن ستون ذراعا"، كما جاء بها ذكر بعض الأدوات التى كان يستخدمها هذا النساج وهى "عدة نول خشب كاملة وغزل قطن أيضا تقديره أربع أواق..^(٢)"

كما عرفت مدينة القدس فى عصر سلاطين المماليك صناعة المشغولات الفضية التى يقول عنها ابن شاهين وهو معاصر: "القدس مدينة شريفة عظيمة يعمل فيها فضة ميناء تجلب منها إلى سائر البلاد وأوصافها كثيرة وفضائلها جمة وهذا على وجه الاختصار..^(٣)"

هذا بالإضافة إلى أن القدس عرفت فى ذلك العصر صناعة الزجاج والمشغولات الذهبية، كذلك وجدت بها صناعة الحصير، وبالنسبة لصناعة الحصير هنا فإن الصناع كانوا يستعملون نوعا من القش عرف باسم "قش حصير"، يشترونه بالحمل "أى حول الجمل". وقد بلغ ثمن ٢٢ حملا من ذلك القش ١٨٠ درهما سنة ٧٨٩ هـ، وتعهد المشترون بأن يدفعوا هذا المبلغ وهو ١٨٠ درهما على أقساط كل قسط منها بلغ ثلاثون درهما^(٤). وصناعة السلال من سعف النخيل، فضلا عن صناعة النبيذ فى المناطق المسيحية وخصوصا فى بعض القرى التابعة لها^(٥). وأخيرا تجب الإشارة إلى أن القدس اشتهرت

(١) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٣) كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بوليس راويس، باريس ١٨٩٤، ص

٢٣، د. على السيد: القدس، ص ١٩٩.

(٤) د. كامل جميل العسلى: نفسه، ج ٢، ص ٩٢.

(٥) عارف العارف: نفسه، ص ٢١٢، د. على السيد: القدس، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

طوال ذلك العصر بوجه خاص وطوال العصور الوسطى بوجه عام بصناعة السكر من القصب، حيث كان يتم جمع القصب وتقطيعه، ثم يحمل إلى المعاصر حيث يعصر، ويحصل منه على العصير الذي يتم وضعه في غلايات من النحاس، ويستمر غليه حتى يتم تركيز ذلك العصير، ثم يوضع في سلال رفيعة مصنوعة من سعف النخيل، ثم يترك حتى يجف، وهكذا يتم الحصول على السكر من القصب^(١).

واردات القدس

والحقيقة أن وثائق الحرم القدسي تنفرد بذكر واردات القدس بخلاف المصادر التاريخية التقليدية والتي لم تهتم بهذا الجانب، فمن خلال الوثائق الخاصة بحصر الموجودات بقصد الإرث نجد حشدا كبيرا بأسماء كثير من الواردات، والبلدان التي تم جلبها منها. فمن هذه الواردات بعض أنواع من الملابس الداخلية القصيرة والطويلة التي تلبسها النساء وكذلك الأطفال وتسمى "الرفيق"، وكانت تصنع من الكتان أو الحرير وألوانها البيضاء والمخططة والمخففة، وقد تكون لها حواشي، هذا النوع من الملابس كان يتم صنعه في دمشق، ومنها يصدر إلى كثير من البلدان ومنها القدس^(٢).

ومن الملابس التي تم استيرادها من الإسكندرية كذلك "القباء". وهو نوع من الرداء المحكم المشابه للقفطان، يصل في طوله إلى منتصف عضلة الساق، مشقوق في مقدمته ومغلق عند الصدر، وقد لبسته النساء والرجال، وكان ينسج من القطن أو الصوف أو الحرير. أما ألوانه فالأبيض هو الأكثر شيوعا، وأحيانا يكون اللون الأزرق أو الأخضر أو الأحمر، وغالبا ما كان القباء يزين بفرو السنجاب ويتم استيراده من قبرص^(٣).

ومن الإسكندرية أيضا كان يتم استيراد القمصان، والقميص هو نوع من اللباس بفتحة عنق دائرية وبدون فتحة أمامية، واختلفت أطواله باختلاف رغبات الناس فيه، وتراوحت أكمامه بين الاتساع والضيق، ولبسته النساء، وكان يصنع من الكتان أو القطن أو الحرير، وألوانه بيضاء أو زرقاء أو شمس (أي مختلطة بين الأزرق والأبيض)^(٤). ومن

(1) Burchard of Mount Sion (A.D.1280) in P.P.T.S. Vol.xII, London, 1896, p.99.

(٢) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٢٥.

(٣) المصدر السابق: نفسه، ص ٢١ د. كامل العلي: نفسه، ج ٢، ص ٣٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٢١.

الإسكندرية أيضا تم استيراد نوع من القماش الرفيع المستخدم في عمل الملائات الطرح التي تلبسها النساء، فقد جاء في الوثيقة رقم ١٦٣ والمؤرخة في ٩ ذى القعدة سنة ٧٩٣هـ، وهي وثيقة حصر موجودات إحدى النساء أن من ضمن تركتها "ملاءة طرح"^(١).

كذلك كان بعض النساء يلبسن أنواعا من القمصان البندقية، نسبة إلى مدينة البندقية "فينيسيا الحالية" في إيطاليا، المكبوسة أى البليسيه بلغة عصرنا، ذات أكمام قصيرة صنعت من القطن والحرير"^(٢).

ومن الإسكندرية كذلك تم استيراد نوع من الملابس الداخلية عرف باسم "الفوطة" كانت تلبس كالسراويل وتكون قصيرة غليظة، ومنها ما كان يستعمل لتجفيف الجسم من الماء كالمناشف"^(٣).

ومن مدينة بعلبك في لبنان كان يتم استيراد نوع من المنسوجات أطلق عليه "الكبر"، وهو قطعة من القماش تشد بها الملابس وتربط على البطن، وألوانها الأبيض والأزرق"^(٤). ومن الموصل كان يتم استيراد نوع من القماش الذى عرف باسم "الشاش"، والذى كانت تصنع منه القلائس على شكل مخروط ناقص يخرج من وسطها العلوى مثل التتوء كأنه زر الطربوش"^(٥). ومن كرمنشاه وطاق كسرى جنوب العراق كان يتم استيراد بعض الأقبية، جمع قباء وألوانها الأبيض ذات أكمام ضيقة يلبسها الناس فوق الثياب"^(٦). ومن بلاد الروم، - أى أرمينية - كان يتم استيراد "الجبة الرومى"، وقماش المخمل الذى يستخدم في كثير من الأغراض ومنها المناشف المخمل. ومن مكة كان يتم استيراد بعض البسط المصنوعة من الجلد"^(٧). ومن ماردين في تركيا حاليا كان يتم استيراد الأقمشة الصوفية التى تستخدم في صناعة الجبة. ومن بلغاريا كان يتم استيراد التراكاش وهو جعبة السهام، فقد جاء في الوثيقة رقم ٣٣١ بتاريخ ١٦ محرم سنة ٧٩٦ هـ أن من ضمن تركة صاحب الوثيقة

(١) المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٢) نفسه، ص ٢١؛ د. كامل جميل العسلى. نفسه، ج ٢، ص ٣٧.

(٣) انظر الوثائق: ١٢٦، ١٢٧، ٥١٢، ٩٣، ١٢١، ٢٥٧؛ د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٢٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(٦) د. كامل العسلى: نفسه، ج ٢، ص ٣٧.

(٧) المصدر السابق: نفسه، ج ٢، ص ٣٨.

"تركاش برغالى به قوس ونشاب"^(١). ومن الإسكندرية أيضا كان يتم استيراد قماش رفيع فاخر عرف باسم "الطرح" تصنع منه بعض أنواع الملابس مثل "الملوطة"، وهى رداء فوقانى له ياقة^(٢).

ومن أدوات الزينة التى جاء ذكرها فى الوثائق واستخدمتها النساء لزينة الرأس أو الأذن أو الرقبة أو اليد أو الأصابع "مشخص فلورى" نسبة إلى العملة التى سكبتها فلورنسا من الذهب، و"لوح ذهب جنس صورى" نسبة إلى مدينة صور، وكانت دنانيرها ذهبية، عليها صورة ملوكها من الفرنج منقوشة عليها^(٣).

ومن الأثاث المنزلى، تفيدنا الوثائق أن بيوت المقداسة كانت تفرش بالبسط وغيرها، والتى كانت تصنع من الصوف، ومنها ما كان يتم استيراده من بلاد الأرمن والتى اشتهرت بصناعة البسط ذات الصوف الجيد والقرمزية اللون. كذلك منها ما كان يتم استيراده من مدينة الشوبك المعروفة بالأردن وهى قلعة حصينة بين عمان وأيلة. وكانت تلك البسط منها ما هو كبير ومنها ما هو صغير. كما أن تلك البيوت اقتنت أنواعا من السجاجيد الصوفية ذات اللون الأبيض والأخضر أو العسلى، والمزينة برسومات بيضاء أو المبطن ببطانة مطرزة بأبيض وجعلت لها شرابي زرقاء، وكثير من السجاجيد التى جاء ذكرها فى مجموعة الوثائق كان يتم استيرادها من اليمن وحوران^(٤).

واستعمل المقداسة "النطوع" أى الجلود للجلوس عليها، بعد وضعها على بساط، ومعظم تلك النطوع التى كانت سائدة فى القدس تم استيرادها وصنعها فى مدينة طرابلس بالشام^(٥). بالإضافة إلى ما كان يتم استيراده منها من اليمن، فقد جاء فى الوثيقة رقم ٥٠٣ بتاريخ ٤ ذى القعدة سنة ٧٤٥هـ أن تركة أحد أبناء القدس ويدعى راشد بن هارون بن سمعان النصرانى الشوبكى كان من ضمنها "نطع يمنى جديد"^(٦).

(١) المصدر السابق: نفسه، ج-٢، ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق: نفسه، ج-٢، ص ٤٢.

(٣) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٣٠-٣١.

(٤) المصدر السابق: نفسه، ص ٣٣-٣٤.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٤.

(٦) المصدر نفسه: ص ١٠٥.

ومن الأدوات المنزلية كانت هناك بعض الأواني الفخارية التى جاءت من مصر، وخصوصا الصحون التى اشتهرت مصر بصناعتها والتى ذكرتها الوثائق تحت اسم "الصحون البامانية المصرية" أو "صحون برمان"، ولعلها نسبة إلى قرية "برما" من أعمال الغربية، وهى "برما" الحالية، المتاخمة لمدينة طنطا وتتبع مركزها، التابع لمحافظة الغربية^(١) بمصر.

ومن أنواع الطيب التى استخدمها أهل بيت المقدس فى ذلك العصر "الزباد"، وهو نوع من الطيب كان يستعمل غالبا لعلاج الزكام، وكان يتم حفظه فى أوعية خاصة مصنوعة من قرن حيوان الزباد، وهو يشبه النسور البرى، ولونه بين السواد والبياض، ويتم جلب الزباد وقرن الزباد من الهند أو الصومال أو الحبشة^(٢).

ومن الملابس الجاهزة التى استوردتها القدس من مصر الملابس السلالية، التى هى أردية فوقانية أكمامها ضيقة، أدخلها نائب السلطنة فى مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون، وهى مثل معطف البغلطاق أو البغلوطاق، ويعمل من القطن أو الفراء أو الأتلس^(٣). ومن الإسكندرية كان يتم استيراد نوع من الملابس يسمى "الملوطة" وهى مثل العباءة، غالبا ما تكون مزررة، لبسها الرجال والنساء على حد سواء، غير أن النساء كن يخترن الألوان البيضاء أو السوداء ذات البطانة. ومن بلاد القرم كان يتم استيراد بعض الملابس، والتى ذكرتها بعض الوثائق تحت اسم "الأثواب القرمية المغشاة". والتى يبدو أنها ملابس نسائية مثل: العباءة، أو الملحفة، أو الملاية، أو الحبرة المستخدمة إلى الآن فى كثير من البلدان العربية ترتديها النساء فوق الملابس الأخرى لإضفاء نوع من الوقار والحشمة عليهن، ولم تذكر الوثائق ألوانها^(٤). هذا بالإضافة إلى كثير من الملابس الحريرية التى كان يتم جلبها من الأهواز وهى مدينة جنوب غربى إيران، عاصمة خوزستان،

(١) ابن ممتى: قوانين الدواوين، القاهرة ١٩٩١م، ص ١١٢؛ ابن الجيعان: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، القاهرة ١٧٩٨م، ص ٧٢؛ محمد رمزى: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، القاهرة ١٩٩٤م، ج ٢، ص ٩٦؛ د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٣٦.

(٢) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ١١٠ - ١١٢.

(٣) المصدر السابق: نفسه، ص ١١٢؛ المقرئى: السلوك، ج ٢، ص ٩٧.

(٤) انظر الوثائق ٩٤، ١٢٦، ١٣٢.

وكذلك من خراسان^(١). ومن مدينة بعلبك في لبنان كان يتم جلب نوع من الثياب عرفت باسم النصافي جمع نصفية، وقماشها من الحرير والكتان، وربما كان أيضا من القطن الخشن^(٢).

الأسواق

كان من نتيجة حالة الأمن والاستقرار التي نعمت بها مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك، أن شهدت المدينة نموا سكانيا مطردا: مما ساعد على كثرة الأسواق وازدهارها، بحيث غدت مكتظة بأصناف البضائع، وتعددت تعددا ظاهرا من حيث تلك الأسواق والهدف الذي تعقد من أجله أو السلع التي كانت تباع فيها، إلا أنها تشابهت فيما بينها من حيث تخطيطها ونظامها. أما عن تخطيطها، فإنها كانت عبارة عن مجموعة من الشوارع الطويلة المتوازية، تقفل بأبواب في مداخلها، كما كانت مسقوفة إما بالعقود الحجرية وإما بالأسقف الأخرى التي تتخللها فتحات لينفذ منها الضوء. هذه العقود والأسقف كانت تحمي المارة وأهل السوق من حرارة الشمس والأمطار، فضلا عن وجود بعض الحوائط المنخفضة بداخل كل سوق والتي تمتد على جانبي السوق، ويستطيع أى شخص أن يستخدمها كمقعد إذا شاء الجلوس، وربما كان يستخدمها بعض الباعة لعرض بضائعهم عليها^(٣). كما أن شوارع بعض الأسواق كان لها أسقف من القماش بحيث يسهل تحريكها تبعا لفصول السنة^(٤).

ويصف لنا الرحالة "كازولا" الأسواق بقوله: وما أدهشني حقا مشاهدة تلك الأسواق، فهي طويلة وعبرة عن شوارع مسقوفة وتمتد إلى مسافات بعيدة، وعلى الجانبين الدكاكين المليئة بالمئات والبضائع المختلفة، والتي يقبل الناس على شرائها^(٥). وكانت تلك

(١) د. كامل العسلي: نفسه، ج٢، ص ١٣٧، الوثيقة رقم ٥٩٥.

(٢) المصدر السابق: نفسه، ج٢، ص ١٦٨، الوثيقة رقم ٦٧.

(٣) الخياري: تحفة الأدباء وسلوة الغرباء المعروف برحلة الخياري، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥١٨ تاريخ تيمور، ص ٢١؛ prescott: Once to Sinai, the further Pilgrimage of Frair

Fabri, London 1957, p.174; ص ٣٠٢: د. على السيد علي: القدس في العصر المملوكي،

(4) Joshua praver: The Latin Kingdam of Jerusalem, london, 1972. p.208;

د. على السيد: القدس، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

(5) Margaret Newett: Op.cit.p.251.

الدكاكين تستخدم في عمليات المبادلات التجارية وأعمال البيع والشراء، إلى جانب أنها استخدمت أيضا كمحلات للعمل ومراكز للصناعة حيث وجدت بها أماكن للغزاليين والدباغين والصباغين، كذلك وجد بداخل تلك الأسواق محلات لصانعي الأحذية أو الخياطين الذين يخيطنون الملابس ويبيعونها جاهزة - هذا بالإضافة إلى الصاغة، حيث كان يشغل هذه الصناعة كثير من المسيحيين المحليين ويعرضون في محلاتهم ما تم صناعته من مصوغات^(١).

ومن المرجح أن تكون مدينة بيت القدس قد تميزت عن غيرها من المدن الأخرى بما يمكن أن نسميه "السوق ذات الأنشطة المتعددة" في ذلك الوقت، حيث تشير بعض المصادر المعاصرة إلى أنه وجد بها "الأسواق الثلاثة المجاورة بالقرب من باب المحراب المعروف بباب الخليل وهى من بناء الروم ممتدة قبلة بشام ومن بعضها إلى بعض منافذ، فالأول منها وهو الغربى سوق العطارين وقف الملك صلاح الدين رحمة الله تعالى على مدرسته، والذي يليه هو الأوسط لبيع الخضراوات، والذي يليه لجهة الشرق لبيع القماش وهما وقف على مصالح المسجد الأقصى الشريف. وقد ذكر المسافرون أنهم لم يروا مثل هذه الأسواق الثلاثة في الترتيب والبناء في بلدة من البلدان، وأن ذلك من المحاسن التى لبيت المقدس"^(٢). وتؤكد لنا بعض المصادر المعاصرة تلك الحقيقة بشكل واضح، من ذلك ما يرويه ابن شاهين الظاهري وهو معاصر من قول: "وبالقدس الشريف أسواق كثيرة من جملتها ثلاث قصبات على صف واحد قيل إنه لم يكن بغالب البلاد نظيرها"^(٣).

أما الأسواق التى وجدت على امتداد خط داود وهو الشارع الرئيسى بالقدس فقد كانت على النحو التالى: فمن باب المسجد الأقصى إلى دار القرآن السلامية وتعرف بسوق الصاغة، ومن باب السلامية إلى باب حارة الشرف يعرف بسوق القماش، ومنه إلى خان الفحم يعرف بسوق المبيض، ومن باب الخان إلى قنطرة الجبيلي يعرف بسوق خان الفحم،

(١) د. رشاد الإمام: مدينة القدس في العصر الوسيط، تونس ١٩٧٦، ص ١٥٠. د. على السيد: القدس، ص ٢٠٤.

(٢) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج ٢، ص ٤٠؛ اللقيمي "الشيخ مصطفى أسعد" كتاب لطايف أنس الجليل في تحاييف القدس والخليل، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٣ جغرافية، ورقة ٣٤.

(٣) زبدة كشف الممالك، ص ٢٣، د. على السيد: القدس، ص ٢٠٤.

ومن قنطرة الجبليل إلى درج الحرافيش يعرف بسوق الطباخين، ومنه إلى باب حارة اليهود يعرف بخط الوكالة وهو خان عظيم تباع فيه أصناف البضائع، ومن باب حارة اليهود إلى خان الصرف يعرف بسوق الحريرية، ومن خان الصرف إلى باب المدينة يعرف بخط عرصة الغلال، وقد كانت الأسواق السابقة بطول الشارع الرئيسي للمدينة والذي يعرف بخط داود. أما الأسواق الأخرى، فمنها سوق العطارين، وسوق الزيت، وسوق الفخر، نسبة لفخر الدين صاحب المدرسة الفخرية، وبه المصابن التي يعمل فيها الصابون، ومن هذا يتضح لنا أن كل سوق تخصص في بيع سلعة من السلع والتي تسمى بها السوق في نفس الوقت^(١).

ويروى لنا الرحالة "كازولا" على سبيل المثال وصفا لسوق الطباخين، حيث زاره ووجد الأطعمة تباع مطبوخة وجاهزة للأكل، وقد أعجب بها وبكثرة روادها لدرجة كبيرة، حيث يقول: إن تلك السوق عبارة عن شارع طويل يمتد إلى مرمى البصر، وعندما مشيت في تلك السوق فقد أخبروني أن لا أحد من أهل القدس يطهو طعامه في منزله، وكل ما يشتهي الشخص من طعام يجده في تلك السوق^(٢). كما أن الرحالة "فابري" يورد لنا وصفا شيقا لتلك السوق حيث يقول: زرت صباح اليوم الموافق ٢٨ يوليو سنة ١٤٨٣م أسواق المدينة وشارع الطباخين، حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع وجماعات كبيرة تشتري من المطابخ العديدة، ذلك لأن القوم لا يطبخون في بيوتهم كما نفعل نحن في بلادنا. بل إنهم يتتبعون طعامهم جاهزا من هذه المطابخ. والطهاة ماهرون نظيفون. وفي تلك الأسواق يعرض الطهاة اللحوم بشكل نظيف زائد عن الحد. وبسبب الجفاف يندر وجود الخشب، ولهذا فلا توجد مطابخ في المنازل بسبب الحاجة إلى الوقود أو الأخشاب^(٣).

ومن الأسواق الهامة في بيت المقدس سوق الزيت، حيث كان يباع فيها زيت الزيتون، وبها أيضا المصابن التي يصنع فيها الصابون، وقد كانت هذه السوق موجودة في المنطقة المواجهة لباب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى من جهة الغرب. وقد كانت هذه

(١) مجير الدين الحنبلي: نفسه، ج١، ص ٤٠١ - ٤٠٥؛ د. على السيد: القدس، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٢) د. على السيد: القدس، ص ٢٠٧؛ Margaret Newett: Op. cit. P.251;

(٣) د. على السيد: القدس، ص ٢٠٧ - ٢٠٨؛ P.P.T.S.Vol. Iv, p.111.

السوق كبيرة ومهمة بسبب وجود أصحاب المصابين الذين يشترون الزيت بكميات كبيرة. أما مصدر هذا الزيت فقد كان من الجبال والسهول القريبة من بيت المقدس ومن جبل نابلس^(١).

كذلك سوق القطانين أحد الأسواق الهامة ببيت المقدس، حيث كان يباع فيها القطن، ويقع هذا السوق في حارة باب القطانين، والتي يفتح عليها أحد أبواب المسجد الأقصى وهو المسمى بباب القطانين نسبة لبيع القطن بالسوق الذي عنده^(٢). ومن الأسواق الشهيرة في القدس "سوق السمك" حيث كانت الأسماك من أهم السلع التي يستوردها سكان بيت المقدس من قديم الأزمان، حيث كان أهل مدينة صور يصدرون إليها الأسماك، وهناك أحد أبواب المدينة يسمى "باب السمك" أو بوابة السمك، وهي إلى الشمال من سور المدينة وعندها يقع سوق السمك، كذلك كان يتم استيراد الأسماك من نهر الأردن، وبحيرة الجليل، وسواحل البحر الأبيض المتوسط، وبخاصة من مصر، حيث عرف المصريون تجفيف السمك. وكان السمك المجفف الذي يرد إلى القدس يعتبر من أرخص الأطعمة، ولقى كثيرا من الإقبال عليه وبخاصة من الحجاج المسيحيين والرحالة، ونتيجة للأعداد المتزايدة من هؤلاء الزوار للمدينة في مواسم الحج المسيحية، فقد كان على المدينة أن تواجه تلك الطبقات الزائدة من تلك الأسماك باستيرادها وتخزينها^(٣).

وبالإضافة للأسواق السابقة عرفت بيت المقدس نوعا من الأسواق الموسمية، ومن تلك الأسواق الموسمية السوق الذي كان يقام أمام الباب الرئيسي لكنيسة القيامة أثناء الاحتفالات بعيد الفصح، حيث تباع فيه الحلى والمسابع والصور الخاصة بالقدسيين والتحف الشرقية، ويتردد عليه كثير من المسيحيين والمسلمين المحليين لعرض بضائعهم على زوار المدينة، وكذلك سوق السعف والذي قام كثير من الحجاج المسيحيين بشراؤه. هذا السوق كان يقع في الجانب الجنوبي من كنيسة القديس استيفن ويتجه شرقا من شارع البطريك إلى شارع التوابل مارا بكنيسة القديسة مريم اللاتينية^(٤).

(١) مجر الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ج١، ص ٢٠٤، ٢٨٦، د. على السيد: القدس، ص ٢٠٨.

(٢) المصدر السابق: نفسه، ج٢، ص ٤٠٤.

(3) Smith: Jerusalem, The topography, Economic and History from the Earliest times Vol. I. London MCM, pp. 315-319.

(4) Ency, Britanica, vol. 12, Scotland, 1972, p. 1009.

كذلك عرفت بيت المقدس كثيرا من الأسواق الدورية والتي كانت تقام مرة كل أسبوع، فيقصد أهل الريف المدينة يبيعون فيها محصولاتهم، ويشترون ما يحتاجون إليه من الغذاء والكساء، ولا تزال بعض هذه الأسواق تقام إلى اليوم وفي أيامها المعينة، كسوق الجمعة في القدس ويافا والخليل، ولم تكن هذه الأسواق مقصورة على أهل القدس فقط، بل إن كثيرا من البدو من خارج المدينة كانوا يفدون إليها لبيع منتجاتهم وشراء ما يلزمهم من سلع أخرى، وغالبا ما تكون تلك الأسواق الدورية في الأماكن المكشوفة قرب بوابات المدينة، حيث تعرض فيها منتجات الريف أو حيث تتم أعمال المبادلات التجارية^(١).

ويجب أن نشير أنه كان للسوق وظيفة أخرى غير تبادل السلع وتغيير العملات أو عقد الاتفاقات التجارية. فهي المكان المفضل لتبادل الأحاديث والمعلومات وتناقل الأخبار، حيث لم تكن هناك جرائد يومية فقد كانت السوق من أهم الأماكن لتقصي الحقائق والأخبار فيما يتعلق بالشئون اليومية والعائلية وغيرها. وبهذا كانت السوق إحدى المراكز الإعلامية، فضلا عن أنها شهدت نوعا من المناذاة التي كانت شائعة في ذلك العصر، وفيها يتم الإعلان أو المناذاة عما تريده السلطات من الناس أو ما تريد أن تخبرهم به^(٢).

مؤسسات لخدمة التجارة

من المؤسسات التجارية التي عرفت في بيت المقدس وكانت تؤدي مهمة الأسواق أيضا: القيساريات، والخانات، والرباع التي فوقها، ثم الفنادق، والتي كانت إلى جانب كونها مؤسسات تقوم بجانب مهمة البيع والشراء، بمهمة النزول والإقامة والخازن للواردين من التجار وحفظ أموالهم، كما أنها تؤدي مهمة البيع بالجملة بجانب البيع بالتجزئة.

ففي الوثيقة رقم ٣٥ المؤرخة في ٤ ربيع الآخر سنة ٧٧٨هـ والخاصة بملكية دار بحارة النصارى وبيان حدودها. فبعد أن حددت الوثيقة مكونات الدار، وفي ذكرها

(١) د. علي محمد علي: فلسطين في ماضيها العربي وحاضرها الصهيوني، طبع الدار القومية للطباعة والنشر بدون تاريخ طبع، ص ٢١، د. علي السيد: القدس، ص ٢١٠.

(2) Cunningham: The Holy Land and the Bible, New York, 1888, Vol. I, pp. 460 – 461.

لحدودها ذكرت أن حدها من القبلة دار الشوانى التاجر بقيسارية القدس^(١). هذه القيسارية كانت تشتمل على صفى حوانيت، بعضها وقف على الحرم القدسى الشريف، وبعضها وقف على المدرسة والخانقاه اللتين أنشأهما الأمير سيف الدين تنكز، رحمه الله^(٢). والحقيقة أننا نلاحظ أن القيسارية من حيث تكوينها لم تكن تختلف كثيرا عن الخان أو الوكالة، كذلك كانت تؤدي نفس الغرض، وهو إلى جانب مهمة البيع والشراء، فقد كانت بمثابة نزل للتجار ومحل إقامتهم، فضلا عن أنها مخازن لتجارهم ولحفظ أموالهم^(٣).

أما الخان فقد كان من المؤسسات التى ارتبطت بالأسواق والتجارة أيضا، وهو مبنى ضخم يتوسطه فناء على هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم، ويجدون فى الخان المأوى لهم ولدوابهم خلال رحلتهم، وحتى القرن الخامس عشر الميلادى تعددت تلك الخانات وأصبحت من أهم مؤسسات التجارة الداخلية والخارجية^(٤). وقامت بدور مهم فى مجال تقديم الرعاية لكثير من طبقات المجتمع المقدسى فى ذلك العصر سواء داخل المدينة أو خارجها. وفى خارج المدينة عادة ما كانت الخانات تبنى على هيئة قلاع ذات أبواب ضخمة، وتحتوى على غرف للمسافرين ومخازن للبائع، ودكاكين واسطبلات للدواب، ومن أمثلة الخانات خارج مدينة القدس: الخان الأحمر بين القدس وأريحا، وخان اللبن بين القدس ونابلس، وخان المنية على بحيرة طبرية، عمره الأمير سيف الدين تنكز، وكان المسافرون من دمشق ينزلون فيه فى طريقهم إلى بيت المقدس^(٥).

وقد بلغ عدد ما أمكننا التعرف عليه من خانات القدس فى ذلك العصر ستة عشر خاناً، من هذه الخانات ثلاثة وقفها ثلاثة من سلاطين المماليك وهم الظاهر بيبرس، وبرقوق، والمؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال، وواحد وقفه الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام، وآخر وقفه الأمير ناصر الدين بن دالغادر من أمراء سلاجقة الروم. أما الخان

(١) د. كامل العسلى: وثائق مقدسية، ج٢، ص ٢٧١.

(٢) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، ج١ تحقيق أحمد زكى باشا، طبع دار الكتب المصرية ١٩٢٤، ص ١٦٢؛ د. على السيد: المقدس، ص ٢٠.

(٣) د. نعيم زكى: طرق التجارة الدولية، ص ٢٨٧؛ د. على السيد: المقدس، ص ٢٠٦.

(٤) د. نعيم زكى: نفسه، ص ٢٩٢ - ٢٩٤.

(٥) أحمد سامح الخالدى: المعاهد المصرية فى بيت المقدس، القدس ١٩٤٦م، ص ٩؛ د. كامل العسلى: من آثارنا فى القدس، عمان، ١٩٨٢، ص ٢٩ - ٤٠.

الذى أنشأه السلطان الظاهر بيبرس عندما زار القدس سنة ٦٦٨ هـ، وعرف بخان الظاهر، فقد أوقف عليه بعض القرى في فلسطين ودمشق، وجعل به فرنا وطاحونا، وشرط فيه أشياء من فعل الخير مثل تفرقة الخبز على بابه وإصلاح نعال النازلين به^(١). أما الخان الذى أنشأه السلطان برقوق ويعرف بخان السلطان فقد كان قيسارية فعمرها وحولها إلى خان، وقد قام فان برشام بنشر وثيقة وقفه المسجلة على لوحة من الرخام على بابه في أربعة سطور بخط النسخ جاء فيها:

١- بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذه القيسارية المباركة وقف حرم القدس

٢- الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد خلد الله ملكه

٣- بناية مولانا ملك الأمرا بيدمر كافل الممالك بالشام عز الله أنصاره

٤- إنشاء الفقير إلى الله تعالى السيفى أصنبغا بن بلاط ناظر الحرمين الشريفين في سنة ثمان وثمانين وسبعمائة^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن الخانات في العصر المملوكي كانت تمثل استثمارات جيدة، ولذلك فإن العديد من الأمراء ورجال الأعمال أنشأوا الخانات في القدس، ثم وقفوها على كثير من المؤسسات الدينية أو الخيرية، أو على الفقراء عامة، ابتغاء وجه الله تعالى، ومنهم من وقف على الخانات أوقافا عديدة من عقارات وأراضى زراعية أو منشآت أخرى، ينفق من ريعها على تعمير الخان والإنفاق عليه. أضف إلى ذلك أن هذه الخانات كانت بها طواحين لطحن الغلال للنازلين بالخان وربما لأهل المنطقة المجاورة، وبعضها كان به بعض الورش الصغيرة في الدكاكين الممتدة بطول واجهة الخان للغزل والصباغة أو لصنع الزجاج، وبعضها كان به معاصر لعصر الزيتون، ومصابن لصناعة الصابون، وتزويد النازلين بالخان وسكان المناطق المجاورة باحتياجاتهم منها. وكما كان الكثير منها موقوفا على الحرمين الشريفين بالقدس والخليل، فإن البعض منها كان موقوفا على الحرمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة. ووجد على بعض أبواب هذه الخانات عدد من الأسبلة تقدم الماء بل والطعام لعابري السبيل مجانا، وخصوصا تلك الخانات التى تقع على الطريق التى

(١) مجير الدين الحنبلى نفسه، ج٢، ص٤٣٤.

(2) Van Berchem: Herusalem Ville, Le Caire 1922, p.300

ترتبط بين القدس وغيرها من البلدان، مثل خان بنى سعد على الطريق المتجهة إلى نابلس^(١).

ثم تأتي الرباع كواحدة من المنشآت المعمارية الضخمة التي لعبت دورا مهما في مجال رعاية أبناء مدينة القدس بوجه عام، وأصحاب الورش، وأرباب الصناعات والحرف المختلفة بوجه خاص. وإذا كان سلاطين وأمراء الممالك وأهل الخير واليسار قد حبسوا الكثير من الأوقاف على المؤسسات الصوفية، والتي نزل بها الصوفية رجالا ونساء، وأجريت عليهم الرواتب النقدية والعينية باعتبارهم يمثلون شريحة كبيرة نوعا ما من سكان مدينة بيت المقدس في ذلك العصر، فإن هناك الكثير من الجهود التي بذلت لبناء العديد من "الرباع"، وهي ما يمكن أن نسميها في عصرنا الحالي بالمجمعات السكنية الضخمة أو المساكن الشعبية زهيدة الأجر. وهي التي انتشرت في القدس في ذلك العصر، وكانت تخدم غرضين معا، أولهما توفير السكنى الرخيصة لشريحة ضخمة من سكان المدينة وبخاصة من صغار التجار والباعة وأرباب الصناعات والحرف المختلفة. والمعروف أن هذه الطبقة تمثل الطبقة الدنيا في المجتمع في ذلك العصر، وفي نفس الوقت تمثل أغلبية السكان. أما الغرض الثاني من إنشاء تلك الرباع فهو وقفها على المؤسسات العامة من "ربط" أي منازل الصوفية، و"مكاتب" أو كتاتيب، و"مدارس" و"مياضئ أو مطاهر" وغيرها من جهات البر المختلفة^(٢).

كما تبرز أوجه الرعاية في تصميم تلك الرباع بما تميزت به من ضرورة الحرص على وجود صحن أو فناء مكشوف يتوسط كتلة المبنى، وتلتف حوله بقية الوحدات المعمارية كي تستمد منه معظم حاجتها من الإنارة والتهوية، فضلا عن أنه كان يؤدي عدة وظائف بالغة الأهمية منها تلطيف حدة الضوء، ومنها أنه كان بمثابة مرشح للهواء الذي كثيرا ما يحمل الغبار والأتربة في كثير من أوقات السنة، كذلك كان هذا الفناء يساعد كثيرا على تخفيف ضوضاء الشوارع والطرق. كما أنه يخترن الدفء في الشتاء إذا أغلقت أبواب الربع والفتحات الخارجية لمنع مرور تيار الهواء. وكان يحدث عكس ذلك في الصيف فيساعد

(١) د. كامل العسلي: من آثارنا في بيت المقدس، ص ٦٩ - ٩٦.

(٢) د. على السيد على: "الرعاية الاجتماعية في مكة المكرمة عصر سلاطين الممالك" مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب، جامعة المنيا، يناير ١٩٩٦، ص ٢٤٥.

على تلطيف شدة القيظ، ويزيد من نفعه لهذا الغرض إذا ما زرعت فيه بعض الأشجار، أو توسطته نافورة أو حوض ماء، وهو ما تميزت به الرباع في بلاد الشام بوجه عام، ومدينة بيت المقدس بوجه خاص في ذلك العصر^(١).

وبالإضافة إلى الفناء أو الصحن الذي كان يتوسط الربع، فإن الطابق الأرضي منه كان عبارة عن عدة حوانيت ووكالات للتجار، ولكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل واجهة البناء المشرفة على الطريق العام، بواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربع التي تؤجر لهم بأجور زهيدة شهرية. ولقد تعددت هذه الرباع بشكل كبير في مدينة بيت المقدس، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الربع الذي أوقفه السلطان صلاح الدين الأيوبي على الخانقاه الصلاحية، وكان مجاورا لدار البطرك بالقدس الشريف^(٢). كما أن الربع باعتباره مجمعا سكنيا كان مزودا بطاحون لطحن الغلال، وفرن لإعداد الخبز اللازم للقاطنين، وإسطبل لإيواء الدواب الخاصة بهم نظير رسم بسيط يتم تحصيله منهم، وأحيانا يزود بحمام، أو بعبارة أخرى فإن الربع بمشتملاته كان عبارة عن مبنى يكفى معظم احتياجات سكانه^(٣).

الإشراف على الأسواق

من الطبيعي أن تخضع أسواق بيت المقدس والمؤسسات التي تخدم التجارة لرقابة الدولة التي تمثلت في عدة أشكال، منها أنه كان لكل سوق من أسواق المدينة شيخ، وهؤلاء الشيوخ كانوا يعينون من قبل نائب السلطنة في المدينة من بين أعيان التجار، وكان الشيوخ مسئولين عن النظام ومنع الاحتياال وكذلك جمع الضرائب التي تفرض على أهل السوق^(٤). كذلك كان كل شيخ منهم مسئولا عن أبناء حرفته، فهو المسئول عن رعاية المرضى والفقراء من أبناء حرفته، وتحديد أجورهم، وتحديد مواصفات كل سلعة ومستوياتها، كذلك يتدخل في تحديد سعرها^(٥).

(١) د. فريد شافعي: العمارة العربية في عصر الولاة، القاهرة ١٩٧٢، القسم الأول، ص ٢٩.

(٢) د. كامل العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ٩١ - ٩٢.

(٣) المصدر السابق: نفسه، ج١، ص ٩١ - ٩٣.

(٤) د. علي السيد علي: القدس في العصر المملوكي، ص ٢١١: Lapidus: Op.Cit. p.96

(5) Bayard Dodge: Muslim Education in Medieval Times, Washington, 1962.p.5.

هذا بالإضافة إلى وجود عدد من كان يطلق عليهم عرفاء الأسواق، والذين كانوا بمثابة مساعدين للمحتسب، يعرفهم كيف يتصرفون بين يديه وكيف يخرجون في طلب الغرماء^(١). والوثيقة رقم ٢٠ المؤرخة في ٥ صفر سنة ٧٦٨ هـ تذكر عريف سوق التجار بالقدس الشريف، وهو أحد أعوان المحتسب، حيث لا يمكن للمحتسب أن تدخل الإحاطة بأفعال السوق تحت وسعه، ولذا كان يجعل لأهل كل صنعة عريفاً من صالح أهلها، خبيراً بصناعتهم، خبيراً بغشوشهم وتدليساتهم، ويكون مشهوراً بالثقة والأمانة، ويكون مشرفاً على أحوالهم، ويطلع المحتسب على أخبارهم، وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع وما تستقر عليه الأسعار^(٢).

أنواع التجار

أول نوع من تجار مدينة بيت المقدس في ذلك العصر هو التاجر "السفّار"، والذي جاء ذكره في الوثيقة رقم ٢٠ من وثائق الحرم القدسي الشريف، المؤرخة في ٥ شهر صفر سنة ٧٦٨ هـ. وكان هذا التاجر يدعى "جعفر بن محمد بن أبي بكر السفار من القدس الشريف". والسفّار لقب للتاجر، ويطلق على تجار الدرجة الثانية، وخاصة المتجولين يسمى كذلك "الركّاض"، ويتضح من الكتابة التي جاءت على ظهر الوثيقة أن صاحب الوثيقة كان يلقب بجعفر المكارى، أى الذى يبيع متجولاً ويحمل بضاعته على دابة كاللحمار أو غيره^(٣).

ومن المعروف أن مدينة بيت المقدس في العصور الوسطى بوجه عام وعصر سلاطين المماليك بوجه خاص لعبت دوراً مهماً في ازدهار طرق القوافل التجارية بين مصر والشام، كأحد أهم المزارات السياحية الإسلامية والمسيحية، ولما تميزت به من العديد من الأسواق

(١) ابن الأخوة: كتاب معالم القرية في أحكام الحسبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م، ص ٣٢١.

(٢) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٤٩؛ الشيزرى: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ، ص ١٢.

(٣) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٤٩ - ٥١؛ عن التاجر السفار انظر: الأسبوطى "محمد بن أحمد المنهاجى" جواهر العقود ومعين القضاة والشهود، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥م، ج ٢، ص ٥٩٧.

التي أمدت سكان المدينة وزائريها من الحجاج والتجار بها يحتاجون إليه، مما استتبع بالضرورة وجود نوع من التجار الذين يمكن تصنيفهم تحت اسم "التاجر الخزان"، أي الذي يقوم بشراء السلع في موسمها مع كثرة البائعين لها، ثم حفظه لتلك السلع إلى الوقت المناسب للسفر بها، وهذا النوع من التجار هم "أحوج الناس إلى ضرورة المعرفة بأحوال البضائع في أماكنها وبلادها وكثرتها فيها أو قلتها ورخصها أو غلائها وتوفر ريعها وسلامته أو نقصانه أو عطبه، وانقطاع الطريق أو أمنها، وذلك باستطلاع الأخبار والتقصى من الركبان فإنه ما نفقت قط بضاعة من كثرة وإنما تنفق من قلتها بالإضافة إلى طلابها"^(١). هذا النوع من التجار كان عليه قبل السفر أن يشتري البضائع على دفعات، بين كل دفعة يشتريها والأخرى فترة زمنية تقدر بخمسة عشر يوما، وذلك خشية تقلب الأسعار ارتفاعا أو انخفاضاً. كما أن هذا النوع من التجار يتجنب التنقل بمفرده، فقد كان هؤلاء التجار يقومون بتنظيم القوافل غالبا عن طريق الاتصال الشخصي الذي يتحدد فيه موعد التجمع والرحيل، ومواعيد الوصول التي تتفق مع احتياجات أسواق التوزيع^(٢).

والنوع الثالث من تجار مدينة بيت المقدس يمكن أن نصنفهم تحت اسم "التجار المحليون"، وهم عدة فئات، كل فئة تتاجر في سلعة بعينها، ومن بينهم بائعي العطور والبخور، وفئة تجار الشمع والصابون، ولكل منهم سوق معينة. ثم تجار خيوط الغزل والتوابل وكل أنواع السلع الشرقية والغربية. وفي عصر سلاطين المماليك كان تجار التوابل والنسيج من الطبقات الثرية بوجه عام^(٣).

نظام البيع

إن الوثائق الخاصة بالمعاملات من بيع وشراء في مجموعة وثائق الحرم القدسي الشريف تلقى كثيرا من الأضواء على طرق التعامل والأساليب التي كانت متبعة في تلك

(١) شيخ الربوة: كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر: لبيزج ١٩٢٣، ص ٤٨.

(٢) المصدر السابق: نفسه، ص ٤٩؛ كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، دار سيناء، القاهرة ١٩٩٥، ص ١٧٥؛ د. علي السيد علي: "طريق القوافل القاهرة دمشق عصر الحروب الصليبية"، بحث مقدم لندوة اتحاد المؤرخين العرب ٢١ - ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٠ بالقاهرة، ص ٧-٨.

(٣) د. نعيم زكي: نفسه، ص ٣٠٥.

العمليات، أو فن البيوع. فهى تعطينا فكرة عن وثائق البيع أو وثائق المبيعة والتي كان يشترط فيها ذكر المشتري والبائع، وهل تباعا بأنفسهما أو بوكيليهما، أو أحدهما بنفسه والآخر بوكيله. ثم ذكر الشيء المبيع إن كاملا أو حصة منه، وجريان المبيع فى ملك البائع أو المبيع عليه حين صدور البيع، ووصف الشيء المبيع بما يخرج به عن الالتباس والاشتباه، وتحديد المبيع من جهاته الأربع خصوصا إذا كان عقارا، وذكر الثمن، ونوع النقود المتداولة، وهل هى دنانير ذهبية أم دراهم فضية، وكذا الفلوس النحاس. كما جرت العادة على تصنيف المبلغ زيادة فى الحيلة والحذر، وهو تقليد يكاد يظهر فى معظم وثائق الحرم القدسى الشريف، كذلك كان يجب ذكر التسليم والتسلم، والتخلى والتفرق بالأبدان عن تراص، وضمان الدرك.. أى أن أية ملاحقة أو تبعية أو مطالبة تلحق أو تحدث بعد عقد البيع، يلزم البائع بسدادها، كما يتم ذكر معرفة المتعاقدين بما تعاقدوا عليه المعرفة الشرعية النافية للجهالة، وذكر التاريخ، وأخيرا شهادة الشهود، والذين كان يتراوح عددهم ما بين سبعة شهود وشاهدين^(١).

وفى حالة دفع جزء من الثمن وتأجيل جزء آخر كان يتم ذكر ذلك، فقد جاء فى الوثيقة رقم ٢٢٠ المؤرخة فى ١٨ شعبان سنة ٧٤٥ هـ وهى من وثائق حصر الإرث، أن صاحب الوثيقة ويدعى أحمد بن موسى بن راجح البصروى كان له "فى ذمة عيسى بن محمد المغيرى، بقية ثمن دار مبلغ مائة درهم وخمسين درهما.."^(٢). كما تذكر الوثيقة رقم ٤٩٤ أن صاحب الوثيقة تسلم "سبعة عشر درهما من ثمن حمار باعه بأربعين درهما"^(٣).

ومن الملاحظ أيضا أن نظام البيع بالأجل شمل العديد من عمليات البيع والشراء وكان منتشرا فى القدس فى ذلك العصر. فالوثيقة رقم ٣٧٦ والمؤرخة فى ١٥ رمضان سنة ٧٩٥ هـ تشير إلى أن أحد أبناء بيت المقدس ويدعى "محمد بن يعقوب التاجر بالقدس الشريف والقاطن بدار ابن شاهين بحارة صهيون" قد أقر وهو على فراش الموت وفى حضور بعض الشهود "أنه فى ذمته لمحمود بن يونس التاجر مبلغ ستين درهما نصفها ثلاثون، وفى ذمته أيضا لعبد الرحمن بن محمد بن على المصرى القطان مبلغ ثلاثين درهما،

(١) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٦٣ - ٦٨؛ د. كامل العسلى: نفسه، ج ١، ص ٢٤٨ - ٢٥٢.

(٢) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ١١١.

(٣) المصدر السابق: نفسه، ص ١١١.

وفي ذمته لأحمد النيني ستة دراهم، وذكر أن له عند سليمان بن سمعان المتشرف مبلغ ثلاثين درهما مقسطة في كل أسبوع درهم، وله أيضا عند محمد بن أحمد بن أبي ريش مبلغ أربعين درهما نصفها عشرون درهما في كل جمعة درهمين، وله عند محمد يعرف بابن الشحادة ثلاثين درهما مقسطة في كل أسبوع درهم واحد". واضح من هذه الوثيقة أن صاحبها من تجار الأقمشة، وكما يتضح من محتويات الوثيقة فقد كانت كل معاملاته بالأجل، وأن نظام الدفع كان يتم إما إسبوعيا وعادة كل يوم جمعة، وإما شهريا^(١).

ولم تكن تلك الطريقة من التعامل قاصرة على الرجال، بل شملت النساء كذلك، فهذه الوثيقة رقم ١٦٣ بتاريخ ٩ ذي القعدة سنة ٧٩٣هـ، وهي وثيقة حصر موجودات سيدة تدعى جوهرة بنت صلاح بن أبي بكر، أقرت وهي على فراش الموت "أن في ذمتها لمحمد بن الجوخى التاجر بالقدس الشريف سبعة وثمانين درهما، ولللدلالة المشرفية خمسة وثلاثين درهما"^(٢).

ومن الملاحظ أيضا أن أهل القدس استخدموا طريقة القرض الحسن فيما بينهم، ولضمان الحقوق فقد كان يتم كتابة ورقة بالدين تسمى "حجة". فالوثيقة رقم ٦٣٥ بتاريخ ١٨ محرم سنة ٧٩٣هـ وهي وثيقة حصر موجودات جاء بها أن ضمن ما تم حصره "حجة على محمد بن كيكلدى لحسن بن محمود بمبلغ عشرين درهما" .. و"حجة على حسن بن علي بن جمعة الدمشقي للحرمة حياة بنت بدر الدين بن أبي بكر بمبلغ أربعمائة درهم، وحجة على عايشة بنت اينك باسم الحاجة خاتون بنت عمر بمبلغ أربعين درهما، وحجة على شخص يسمى إسماعيل بن عيسى بن أحمد التركمانى باسم حسن بن محمود ابن عبد الله التركمانى بمبلغ مائتا درهم نصفها مائة درهم وحجة على موسى بن يعقوب ابن حسن العجمي الحلواني باسم الحاج محمد بن مراد بن محمود العجمي السقا بمبلغ مائتا درهم وسبعون درهما"^(٣). ومن الواضح أن هذه الحجج كان يتم الاحتفاظ بها عند شخص مؤتمن من الطرفين، أو يعتبر بمثابة وكيل عن أصحاب الديون إلى حين تحصيل

(١) د. كامل العسلي: وثائق مقدسية، ج١ ص ٨٧-٩١.

(٢) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٨٥.

(٣) د. كامل العسلي: نفسه، ج٢ ص ٨٧-٩١.

مبالغ القروض هذه. وعن الوقت الذى يحين فيه سداد القرض، ففي بعض الوثائق لم يتم النص على ذلك، ويبدو أنه كان يترك تحديده لحين مسرة، ففي الوثيقة رقم ٢٠١ جاء بها أن المعلم على بن محمد بن عبد الله البغدادى الخياط المقيم بالقدس الشريف اقترض من شخص يدعى "شمس الدين محمد بن على بن فهد الحموى مبلغا من الدراهم الفضة الجارية فى معاملة يومئذ خمسة وثمانين درهما، نصفها اثنان وأربعون ونصف درهم على سبيل القرض الشرعى" وبذلك شهد الشهود. ولكن هناك وثيقة تثبت أنه كان من حق المقرض أن يطالب بسداد القرض فى أى وقت يشاء. فالوثيقة رقم ١٩٩ بتاريخ ١٢ جمادى الآخرة سنة ٧٩٧هـ تذكر أن أحد أبناء القدس ويدعى الحاج محمد بن عبد الخالق بن محمد القدسى الطحان، قد اقترض من أحد التجار ويدعى ناصر الدين محمد بن المرحوم علاء الدين على الحموى التاجر بالقدس الشريف من الدراهم الفضة معاملة يومئذ تسعة وثلاثين درهما نصفها تسعة عشر درهما ونصف، هذا المبلغ على سبيل القرض الحسن أو القرض الشرعى، كما نصت الوثيقة على أنه من حق الدائن أن يطالب المدين بالمبلغ متى شاء^(١).

وينبغى أن نشير إلى أنه لم يكن الهدف من القرض الحسن أو القرض الشرعى حسبا جاء فى الوثائق هو أن يكون الدخل الشخصى من العمل، وتشجيع مواجهة احتمالات المكسب والخسارة أثناء ممارسة النشاط الاقتصادى فحسب، بل واضح من الوثيقة رقم ٢٨٧ بتاريخ ١٢ صفر سنة ٧٨٧هـ أن الهدف من هذا القرض الشرعى هو منع استغلال حاجة المحتاجين الذين تضطربهم ظروفهم إلى الاقتراض^(٢). كما لم تكن عملية الاقتراض قاصرة على التجار وأرباب الحرف، بل انتشرت حتى بين أفراد الأسرة الواحدة. ففي الوثيقة المشار إليها أنفاً أقرت الزوجة بأن فى ذمتها لزوجها "بطريق القرض الشرعى من الدراهم الفضة الجارية فى المعاملة الشامية ما يتى درهم نصفها مائة درهم واحدة"^(٣).

(١) د. كامل العسلى: نفسه، ج٢، ص ٣٤-٣٧.

(٢) د. زينب الأشوح: الاقتصاد الوضعى والاقتصاد الإسلامى، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٢٢.

(٣) د. كامل العسلى: نفسه، ج٢، ص ١١١.

ومن الملاحظ أيضا أن عمليات الاقتراض بضمهان كانت معروفة ومنتشرة بين أفراد المجتمع في بيت المقدس في ذلك العصر، فالوثيقة رقم ١٦٣ بتاريخ ٩ ذى القعدة سنة ٧٩٣هـ، وهي إحدى وثائق حصر موجودات إحدى النساء المقدسيات، وقد كانت مريضة على فراش الموت والتي أقرت أن ضمن ما يمتلكه "زوج حلق بلولو، الواحدة رهن عند صدقة التاجر الحلبي والأخرى مع الدلالة المشرفية رهن على ثلاثة دراهم.."^(١).

النقود المتداولة

من المعروف أن مدينة بيت المقدس لم يكن لها نظام نقدي منفصل عن دولة سلاطين المماليك، وهذه الحقيقة تؤكدها المصادر المعاصرة، فالقلقشندي - وهو معاصر - في حديثه عن القدس يقول: "ومعاملتها بالذهب والفضة والفلوس على ما تقدم في معاملة دمشق"^(٢). كذلك من المؤكد أيضا أن أحدا من ولايتها أو نوابها بعد أن تحولت إلى نيابة للسلطنة لم يقيم بسك عملة خاصة، بدليل أن الدينار الجديد والذي يطلق عليه اسم "الأشرفي" نسبة إلى السلطان الأشرف برسباي ظل هو العملة الذهبية في كل من مصر والشام جميعها حتى نهاية العصر المملوكي^(٣). كذلك يؤكد لنا ابن فضل الله العمري، وهو معاصر - أن معاملتها على أيامه كانت الدراهم "ثلثاها فضة وثلث نحاس"، إلا أنه يذكر أنه وجد بها نوع من "الدراهم السوداء" والدرهم منها "ثلث دراهم" مما قيمته أى قيمة الدرهم ثمانية عشر حبة خروب - الخروبة ثلث قمحات .. والدرهم قيمته ثمانية وأربعون فلسا.. وهذه الدراهم السود لم تستخدم في المعاملات في الديار المصرية ولكنها دراهم اسمية^(٤). وكانت تلك الدراهم السود معروفة في الإسكندرية لكنها ربما أقل من

(١) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٨٥.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٤، ج٤، ص ٩٩.

(2) Asthor: op.cit., p.324.

(٤) مسالك الأبصار، ج٥، ورقة ٦٨، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ج٤٣٧٦؛ د. على السيد على: القدس، ص ٢٢٨.

الدراهم السود في القدس، حيث يذكر نفس المصدر أن الدرهم منها في الإسكندرية يعادل نصف درهم من الدراهم التي ثلثاها فضة والثلث نحاس^(١).

وإلى جانب تلك العملات المحلية من درهم ودينار وفلس، فقد عرفت القدس كثيرا من العملات الأجنبية، وتنوعت النقود المتداولة فيها تنوعا يتناسب مع العناصر والأجناس التي كانت تغد إليها، وبخاصة من الحجاج الوافدين من الغرب الأوربي، وغيرهم من البلاد الأخرى، ويؤكد لنا كثير من الرحالة أن العملات التي عرفت في الغرب الأوربي كانت متداولة في بيت المقدس ومعروفة، من ذلك ما يرويه لنا الرحالة فابري والذي زارها أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، أن العملات الفضية الألمانية والتي عليها علامة الصليب وهي من الفضة الجيدة كانت مستعملة^(٢).

كذلك عرفت القدس "الدوكات" وهي عملة بنديقية سكنتها البندقية عام ١٢٩٤م، وقبل ذلك كانت تستخدم في معاملاتها في الشرق "الفلورين" وهي عملة فلورنسة الذهبية، والتي جاء ذكرها في إحدى الوثائق وهي الوثيقة رقم ١٩٧ تحت اسم "افلورى ذهب" وهي ترجمة لكلمة Flori أو Florino الإيطالية^(٣). كما عرفت القدس الدينار الصوري، فقد جاء في الوثيقة رقم ٥٠٣ بتاريخ ٤ ذى القعدة سنة ٧٤٥ هـ أن صداق الزوجة "من الذهب ستة وثلاثون دينارا صورية...". والدينار الصوري هو تقليد للعملة الذهبية الإسلامية قام بسكه الصليبيون في مدينة صور، وعرف أيضا باسم الدينار المشخص لنقش الصليبيين صور ملوكهم عليه، وراج في تعاملاتهم المختلفة في الشرق الأدنى فترة الحروب الصليبية^(٤).

كما تثبت الوثيقة رقم ٢٨٧ بتاريخ ١٢ صفر سنة ٧٨٧ هـ أن الدنانير المهرجة وهي دنانير ذهبية كانت تستعمل خاصة في الحل والأساور والعقود وغيرها، بأن يصاغ في أطرافها حلقات صغيرة أو يجعل في جوانبها ثقب.. هذه الدنانير دخلت في المعاملات أيضا. فقد أقرت الزوجة في هذه الوثيقة أنها تسلمت من زوجها وصار إليها مؤخر

(١) المصدر السابق: نفسه، والصفحة ذاتها.

(2) The Book of the Wandeing of. Vol. II. P.138.

(٣) د. كامل العسلي: نفسه، جـ ٢، ص ٤٢؛ د. على السيد على: القدس، ص ٢٣٠.

(٤) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ١٠٥.

صداقها "من زوجها المسمى أعلاه من الذهب المهرجة المصرى المسكوك أربعين مثقالا - ديناراً - نصف ذلك عشرون مثقالاً ذلك مؤخر صداقها على زوجها.." (١).

وجدير بالذكر أيضاً أن بيت المقدس قاست مثل غيرها من المدن من أثر التلاعب في سك العملات سواء الذهبية أم الفضية وما كان يحدث فيها من غش، من ذلك على سبيل المثال ما يذكره عمدة مؤرخي ذلك العصر، وهو المقرئى من أن المعاملات المالية كانت مستقرة منذ بداية عصر سلاطين المماليك، وبخاصة عصر السلطان الظاهر بيبرس الذى ضرب الدراهم الظاهرية نسبة إليه "وجعلها كل مائة درهم من سبعين درهما فضة خالصة وثلاثين نحاساً وجعل رنكه على الدرهم وهو صورة سبع فلم تزل الدراهم الكاملية - نسبة إلى الملك الكامل ابن العادل الأيوبي والتي سكها سنة ٦٢٢هـ - والظاهرية بديار مصر وديار الشام إلى أن فسدت سنة إحدى وثمانين وسبعمائة بدخول الدراهم الحموية في إمارة الملك الظاهر برقوق قبل سلطنته .. فلما تسلطن .. أكثر من ضرب الفلوس وأبطل الدراهم فتننا قصت حتى صارت عرضاً ينادى عليه في الأسواق" كذلك يؤكد أن تغيير النقود ونقصان قيمة الفضة فيها كان يصحبه كثير من القلاقل والاضطرابات الاقتصادية، وبخاصة في المعاملات في الأسواق والإيجار وأسعار السلع وما إلى ذلك (٢). وهذا ما تؤكد الوثائق في كثير من العبارات مثل: "الدراهم الوازنة الجارية في المعاملة يومئذ بالشام المحروس"، أى الدراهم التى يتعامل بها الناس بأمر من السلطان أو مشرف دار الضرب بعد موافقة السلطان (٣). أو عبارة "الدراهم المتعامل بها يومئذ" (٤).

كما يذكر المقرئى في حديثه عن سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م عقب مقتل السلطان فرج بن برقوق أن الدراهم التى كان يتم التعامل بها كان نصفها فضة ونصفها نحاساً، واستمر إنقاص الفضة منها إلى أن صارت الفضة عشر الدرهم والتسعة أعشار من النحاس، مما

(١) د. كامل العسلى: نفسه، ج ٢، ص ١١١.

(٢) عن ذلك راجع المقرئى: شذور العقود في تاريخ النقود، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٦،

١٢ ج، ورقة ١٠؛ د. على السيد على: القدس، ص ٢٢٩.

(٣) انظر الوثيقة رقم ٣٢٦، د. محمد عيسى صالحية، نفسه، ص ٥٨ - ٦٦.

(٤) د. كامل العسلى: وثائق مقدسية، ج ١، ص ١١٩.

أدى إلى ارتفاع سعر الذهب بشكل كبير، بحيث ارتفع الدينار من خمسة وعشرين درهماً، إلى خمسة وخمسين درهماً. وبذلك اختلت العلاقة النسبية المعروفة منذ أوائل العصر المملوكي، وهى أن الدينار كان يزن عادة ٢٣, ٤ جراماً من الذهب، والدرهم ٩٧, ٢ جراماً من الفضة. أما الفلوس النحاس فكان كل درهم يساوى ٢٤ فلساً^(١).

ومن المرجح أن تكون عمليات التغيير فى قيمة العملة قد صاحبها نشاط كثير من مزيفى النقود المعروفين "بالزغلية"، وإن كانت المصادر التى بين أيدينا لم تشر من قريب أو بعيد إلى ذلك. إلا أنه من الطبيعى أن تتأثر مدينة بيت المقدس بما كان يحدث حولها فى بلدان السلطنة المملوكية وبخاصة العاصمة. فالسلاطين أنفسهم ساعدوا على ذلك الاضطراب فى العملة وقيمتها، وبخاصة السلطان برسباى ومن أتى بعده من سلاطين المماليك، فبعد احتكاره لكثير من أنواع المتاجر عمل على إنقاص معدل العملة، سواء من الذهب أو الفضة أو النحاس، مع الاحتفاظ بقيمتها الاسمية، وقد حذا حذوه كثير من السلاطين من بعده، مما ساعد على زيادة التدهور الاقتصادى الذى شهدته البلاد^(٢).

وجدير بالملاحظة أن التدهور فى العملة المملوكية كان مرجعه إلى عدة اعتبارات، منها سوء الأحوال الاقتصادية التى شهدتها البلاد منذ عهد الجراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧م)، والذى نجم عن عدم الاهتمام بالإنتاج الزراعى والأرض الزراعية والاعتماد على التجارة الخارجية، فلما انهارت التجارة الخارجية سحب ذلك انيار الإنتاج الزراعى، وبالتالي الصناعى، فضلاً عن أن كثرة الحروب الداخلية والخارجية التى شنتها دولة المماليك سببت الاستنزاف الدائم لمواردها الاقتصادية وما أدى إليه ذلك من تلاعب السلاطين بالعملات، وخاصة بعد قلة ما كان يصل من الذهب من السودان، وخصوصاً بعد وصول البرتغاليين إلى ساحل غانا عام ١٤٦٠م ومقايضتهم الأهالى بسلعهم على الذهب، واتجاه هذا الذهب إلى المحيط الأطلسى وليس إلى البحر المتوسط، فشحت العملات الذهبية من مدن إيطاليا، ثم بالتالى من مصر وبلاد الشام. ومما لا شك فيه أن كمية الفلوس التى كانت تسك من النحاس أيضاً قد تأثرت فى أواخر عصر سلاطين المماليك

(١) المقرئى: السلوك، ج٤، ٢٣٢د. كامل العلى: نفسه، ص ١٢٤.

(٢) د. نعيم زكى: نفسه، ص ٣٥٦ - ٣٥٨د. على السيد على: القدس، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

حيث قل ورود النحاس الذي كان يجلبه البنادقة نتيجة لسياسة الاحتكار التي اتبعها السلاطين، ومغالاتهم في أسعار التوابل وغيرها من متاجر الشرق، فضلاً عما أضرت به تلك السياسة من قلة كمية النقد الذي كان يتدفق على البلاد، وانخفاضه بنسبة كبيرة، مما كان له أكبر الأثر في اضطراب المعاملات التجارية وبالتالي في قيمة العملة^(١).

المرتبات والأجور:

تلقي وثائق الحرم القدسي الشريف أضواءً جديدة على المرتبات والأجور في بيت المقدس في ذلك العصر، وهي معلومات نادرة المثال، فقد ذكرت الوثيقة رقم ٣ والمؤرخة في مستهل شهر ربيع الآخر أن راتب أحد مؤدبي الأطفال في كل شهر من شهور السنة هو "ثلاثون درهماً نصفها خمسة عشر درهماً"^(٢). كما جاء راتب قارئ الميعاد، وهو درس ديني للوعظ والإرشاد والحث على التقوى، في المسجد الأقصى الشريف والصخرة الشريفة "خمسة عشر درهماً نصفها سبعة دراهم ونصف"، على أن يقرأ ذلك بالصخرة الشريفة ليلتي الإثنين والخميس من كل أسبوع من بعد صلاة المغرب إلى وقت أذان العشاء، وبالأقصى الشريف ليلة السبت من كل أسبوع من صلاة المغرب إلى العشاء^(٣). وفي وثيقة وقف الأمير تنكز على مدرسته بالقدس كانت رواتب المدرسين والطلبة والقائمين على المدرسة على النحو التالي: المدرس، ستون درهماً فضة، وفي كل يوم من الأيام رطلاً واحداً من الخبز، المعيد، ثلاثون درهماً فضة، وفي كل يوم من الأيام ثلثي رطل من الخبز، الفقهاء، أي الطلبة من الصوفية، لكل واحد من الفقهاء المنتهين في كل شهر من الشهور عشرين درهماً، وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز، وإلى كل واحد من الفقهاء المتوسطين في كل شهر من الشهور خمسة عشر درهماً فضة وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز، وإلى كل واحد من الفقهاء المبتدئين في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة، وفي كل يوم من الأيام نصف رطل واحد من الخبز، وشيخ المحدثين في كل شهر من الشهور أربعين درهماً فضة، وفي كل يوم من الأيام رطلاً واحد من الخبز، وقارئ الحديث النبوي الشريف، في كل شهر من الشهور عشرين درهماً فضة وفي كل يوم من

(١) د. نعيم زكي: نفسه، ص ٣٦٠-٤١٣؛ د. علي السيد علي: القدس، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) د. كامل العسلي: نفسه، ج ١، ص ١٩٥-١٩٦.

(٣) المصدر السابق: نفسه، ج ١، ص ١٩٧-١٩٩؛ ج ٢، ص ١٦٧، الوثيقة رقم ٦٠٣.

الأيام نصف رطل من الخبز، وإلى كل واحد من جماعة المحدثين في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم، وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز، وشيخ الصوفية في كل شهر من الشهور ستين درهما فضة وثلث رطل من زيت الزيتون وثلث رطل صابون، وفي كل يوم من الأيام رطلاً واحداً من الخبز، وإلى كل واحد من الصوفية في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وسدس رطل من زيت الزيتون وسدس رطل صابون، ويزاد الخادم والطباخ للطعام خمسة دراهم فضة. هذا إلى جانب ما كان يتم صرفه لكل واحد منهم من اللحم غير المطبوخ واللحم المطبوخ يومياً^(١).

أما النساء المتصوفات فقد كانت رواتبهن على النحو التالي: شيخة رباط النساء عشرون درهماً في كل شهر، ونصف رطل من الخبز في كل يوم من الأيام، القيمة والبوابة عشرة دراهم فضة في كل شهر، ونصف رطل من الخبز في كل يوم من الأيام؛ الفقيرات العجايز العشرة، سبعة دراهم ونصف درهم لكل منهم في كل شهر، وثلث رطل من الخبز يومياً، قارئ القرآن العظيم، خمسة عشر درهماً في كل شهر من الشهور، ونصف رطل خبز يومياً، قيم الطهارة، عشرة دراهم فضة في كل شهر من الشهور، ونصف رطل خبز يومياً، علماً بأن الخبز كان من خبز الحنطة الطيب^(٢).

كما جاء في الوثيقة رقم ١٥ وتاريخها ١٧ صفر سنة ٧٦٥ هـ أن أجر قارئ القرآن على تربة أحد الأمراء ويدعى الأمير طاز الواقعة بطريق باب السلسلة (على الجانب الشمالى من الطريق) غير بعيد عن الحرم الشريف "خمسة عشر درهماً" شهرياً، مثله مثل بقية قراء القرآن الذين يحضرون للقراءة في التربة المذكورة^(٣).

ضمان حد الكفاية لكل فرد فى المجتمع

وتأتى الوثيقة رقم ٢١ والمؤرخة فى مستهل شهر صفر سنة ٧٧٧ هـ لتوضح لنا أنه كان من حق كل فرد فى مدينة بيت المقدس الحصول على حد الكفاية، الذى يكفل الحياة فى المجتمع. ففى هذه الوثيقة يطلب أحد أبناء بيت المقدس "صدقة من مرتب الرباط

(١) المصدر نفسه، ج١ ص ١٠٦-١١٧.

(٢) المصدر السابق: نفسه، ج١، ص ١١٨-١١٩.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٠١-٢٠٢.

المنصوري"، وعلى ظهر الوثيقة جاء أمر قاضي قضاة القدس الشافعي بمنحه تلك الصدقة، هذه الصدقة خرجت من ديوان الوقف، وهي عبارة عن أربعة أرغفة من الخبز كل يوم. ووضح من الوثيقة أن ديوان الوقف كان يخرج الكثير من أمثال هذه الصدقة للمحتاجين الذين يتم تسجيل أسمائهم في الدفاتر الخاصة بهذا الديوان^(١).

كما يدخل في ضمان حد الكفاية لكل فرد إعداد السكن بأجر زهيد، وكما سبقه الإشارة في حديثنا عن الرباع، وتوفير السكن لمن لا سكن له، فقد جاء في الوثيقة رقم ٢٣ المؤرخة في عشر بقين من شهر صفر سنة سبعين وسبعمائة طلب سكن في إحدى دور الصوفية بالقدس، ومن الواضح أنه كان يتم فحص مثل تلك الطلبات والتحري عن طالب السكن، وفي حالة التأكد من صحة ما أورده من معلومات وبيانات يتم توفير السكن اللازمة، وخصوصا إذا كان من الصوفية، وفي مثل هذه الحالة كان يتم عرض الطلب على قاضي القدس باعتباره مسئولاً عن الأوقاف ليبت في الأمر^(٢).

كما أن الوثيقة رقم ٢٣٢ من مجموعة وثائق الحرم القدسي الشريف تذكر لنا أن أحد أبناء بيت المقدس ويدعى "يعقوب" قد تقدم بطلب لقاضي القدس، لأنه في عائلة كبيرة، وعنده عدة أولاد، وأنه أصبح في فاقة، وليس لديه شيء يرهنه أو يبيعه لكي يتفق منه على أولاده، ويطلب من القاضي أن يأمر له بصرف صدقة كمساعدة من أي جهة كانت يستعين بها على عياله^(٣).

ولضمان توفير الحد الأدنى من الرعاية الصحية، تذكر لنا الوثيقة رقم ٣٦ والمؤرخة في ١٧ محرم سنة ٧٩٧ هـ أن الأمير بدر الدين بن بركة خان، المتوفى سنة ٦٧٨ هـ قد أوقف تربته بالقدس الشريف على مداواة المرضى وتجهيز الموتى. هذه التربة هي الآن في ساحة المكتبة الخالدية بباب السلسلة، وقد تم تأسيسها سنة ١٩٠٠ م، ولكن يضمن الواقف استمرار هذه الخدمة سواء في حياته أم بعد مماته، فقد أوقف عليها قرية دير الغصون الواقعة في قضاء طولكرم في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة طولكرم وعلى بعد ١٢ كيلو

(١) المصدر نفسه، ج١ ص ٢٠٩-٢١٢.

(٢) المصدر نفسه، ج١ ص ٢١٢-٢١٤.

(٣) المصدر نفسه، ج١ ص ١١٥-٢١٦.

متراً منها. وأهمية هذه الوثيقة، فهي إلى جانب بيان دور مثل هذه المنشأة في توفير الحد الأدنى من الرعاية الصحية، فإنها حسمت ما ذهب إليه فان برشام من أن الواقف لهذه التربة هو ابنة بركة خان زوجة السلطان الظاهر بيبرس^(١).

كما تم تخصيص جزء من ريع حمام البطرك بالقدس نظير توفير الرعاية الصحية لجماعة الصوفية في الخانقاه الصلاحية بالقدس، والتي كان قد أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي على الصوفية، وبعد أن حددت الوثيقة رقم ٤٦ من وثائق الحرم القدسي وتاريخها ١٩ محرم سنة ٧٤٧ هـ موقع الحمام ومشمولاته، وأجرة الحمام في اليوم وهي ثلاثة عشر درهماً في كل يوم، على أن يتم دفع عشرة دراهم منها عند غروب شمس كل يوم، ويتم استبقاء ثلاثة دراهم "لأجل دخول الصوفية واغتسالهم في الحمام المذكور"^(٢).

ولم يكن توفير حد الكفاية قاصراً على الرجال، بل شاركت المرأة في ذلك بدور فعال، سواء لأبناء بيت المقدس، أو للقادمين إليها من شتى أنحاء العالم الإسلامي، من ذلك ما جاء بالوثيقة رقم ٨٣٣ والمؤرخة في ٢٥ ربيع الأول سنة ٧٤٧ هـ، من أن صاحبة الوثيقة وتدعى "فاطمة بنت محمد وقد وقفت عمارتها المستجدة بحارة المغاربة بالقدس على من يسكنها من الفقراء العجايز من المغاربة.." ^(٣).

وجوب تدخل الدولة

كان على الدولة أن تتدخل في بعض الحالات وخصوصاً في حالات الميراث، عملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من ترك مالا فلورثته .. الحديث"، والوثيقة رقم ٣٩٥ والمؤرخة في ١٣ جمادى الآخرة سنة ٧٩٥ هـ، وفيها حصر ممتلكات شخص ضعيف على فراش الموت ويدعى خليل بن أحمد بن خليل، وبعد أن حددت الوثيقة التركية، ذكرت أن ورثة هذا الشخص شرعاً هم: "إبراهيم الغلام الشهير بالبرق وزوجته الحاجة

(١) المصدر نفسه، ج١ ص ٢٣٧ - ٢٤٠، p.193، Jerusalem Ville.

(٢) المصدر نفسه، ج١ ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ج١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

خاتون بنت عبد الجليل". وقد أقر صاحب الوثيقة بذلك وهو على فراش الموت في حضور بعض الشهود الذين صدقوا على ما جاء بها^(١).

كما أن الوثيقة رقم ٦٤٩ والمؤرخة في ١١ ذى القعدة سنة ٧٩٣هـ تفيد كيفية تدخل الدولة للمحافظة على أموال الأيتام، ففي هذه الوثيقة تقدم أحد أوصياء الأيتام بطلب إلى قاضي القدس الشافعي باعتباره مسئولاً عن رعاية الأيتام المقدسة، يطلب منه الإذن ببيع أربع من الجوارى، ومملوك، وبغلة، لاستغناء الأيتام عن استبقائهم، وأن عدم بيعهم فيه ضرر على الأيتام فطلب منه القاضي إحضار ما يثبت صحة طلبه فأحضر، فأذن له في البيع، إلا أن القاضي اشترط طرح الرقيق والحيوان بطريقة الإشهار على ذلك، أي البيع بالمزاد العلني كما نقول اليوم^(٢).

ومن الحالات التي أوجبت ضرورة تدخل الدولة وتحقيق العدالة الاجتماعية وحفظ التوازن الاقتصادي والاجتماعي بين أفراد المجتمع ما تشير إليه الوثيقة رقم ٢٧٨ من وثائق الحرم القدسي، وهي عبارة عن "قصة" أي شكوى مرفوعة إلى قاضي القدس من إحدى النساء المقدسيات وتدعى "غالية ابنة عثمان بن ثعلب" تذكر فيها أن والدها خلف وقفاً على الذرية فقام أخوها بالاستيلاء عليه، وحرمها من نصيبها من ريع الوقف، كما أن والدها ترك مائتي رأس غنم، وكرم في أرض ماملا المعروفة في ظاهر القدس على بعد حوالي ميل إلى الغرب من باب الخليل، ودارين، وقطعة أرض زراعية أخرى.. كل ذلك استولى عليه أخوها، وتطلب من القاضي مساعدتها في استرداد حقوقها^(٣).

كما أن الوثيقة رقم ٦٣٦ بتاريخ ٢٦ جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ، وهي من نوع الوثائق التي تتعلق بالسياسة الشرعية "الحسبة"، ذلك أن ثلاثة من اليهود الذين كانوا يشتغلون في القصابة "الجزارة" قد أدخلوا بشروط المهنة، ولذا فقد طُلبوا عند قاضي قضاة القدس الشافعي، وتعهدوا بعدم ذبح لا ضأن ولا ماعز ولا بقرة ولا جمال، لا لهم ولا للمسلمين، وإن خالفوا تعهدهم، دفعوا عشرة آلاف درهم كغرامة. هذه الوثيقة توضح لنا أمراً في

(١) المصدر نفسه، ج١ ص ٢٦٣-٢٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ج١ ص ٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ج١ ص ٢١٧-٢١٨.

غاية الأهمية، فقد جاء في السطرين الثالث والرابع منها أن هؤلاء اليهود قد أشهدوا "على أنفسهم وهم في صحة فهم وسلامة وجواز أمر من غير إكراه ولا إجبار .."، فالشريعة الإسلامية كانت تشترط لصحة أى إقرار أن يكون من مطلق التصرف، إذ لا يقبل هذا الإقرار من الصبى أو المجنون أو من زال عقله، كما أن عبارة من غير إكراه، ولا إجبار عبارة يقصد منها أن الإكراه والإجبار لم يمارس عليهم لأنهم من أهل الذمة، وذلك لضمان أن الإقرار كان برضاهم ولاقتناعهم بجدوى توقيع مثل هذا التعهد، فأين هذا مما يفعله اليهود الآن في فلسطين؟؟

كما تفيد هذه الوثيقة أن تطبيق الشريعة الإسلامية كان ساريا على أهل الذمة في بيت المقدس مثل بقية سكان المدينة من المسلمين، ولم يبد أهل الذمة ومنهم هؤلاء اليهود أية غضاضة في ذلك طالما كان تحقيق العدالة هو الهدف الأسمى^(١).

الملكية العامة

هناك موارد يجب أن تمتلك ملكية عامة حسبما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "الناس شركاء في ثلاث: الماء والهواء والنار" رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، فلقد كانت مدينة بيت المقدس تشكو باستمرار من قلة الماء لعدم وجود أنهار بها، حتى إن أهلها كانوا يشربون من خزانات "صهاريج" أعدت خصيصا لحزن ماء المطر، ذلك أن المدينة قائمة على تلال مرتفعة ذات طبيعة صخرية صلبة، وكان جل اعتمادها على مياه الأمطار، وعلى الينابيع الضئيلة الواقعة في سلوان وهى قرية واقعة إلى الجنوب الشرقى من القدس، وبعض البرك المحيطة بها مثل: بركة ماملا غربى المدينة، وبركة السلطان بين الخليل وبيت لحم، وبركة حزقيا شمال شرقى المدينة، وتسمى أيضا بركة البطرك أو بركة النصارى، إلى جانب بركة إسرائيل التى تعرف ببركة الضأن أو بركة الغنم^(٢).

وكان لدخول بيت المقدس تحت حكم سلاطين المماليك أثره الواضح في ازدياد عدد السكان بها، نظرا لما تمتعت به المدينة من أمن واستقرار، فضلا عما أحاط بالعالم الإسلامى

(١) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٧٤ - ٨١؛ ابن الأخوة: معالم القرية، ص ٩٢.

(٢) عارف باشا العارف: تاريخ القدس، ص ١٧٦ - ١٧٧ د. على السيد على: القدس، ص ٧٠.

آنذاك من ظروف سياسية ساعدت على الهجر إلى المدينة، إلى جانب الظروف الاقتصادية وما كان لها من شأن ملحوظ في التطور السكاني بها^(١).

لذا كان لابد من البحث عن مصادر جديدة للمياه لمواجهة زيادة السكان، وتركزت هذه السياسية في شقين، الشق الأول وهو ضرورة الاستفادة من المياه الجوفية. أما الشق الثاني فهو البحث عن مصادر جديدة للمياه خارج القدس. وفيما يتعلق بالمياه الجوفية، فقد ركز سلاطين وأمراء المماليك جهودهم في حفر كثير من الآبار في شتى أنحاء المدينة، وتركيب أعداد كبيرة من السواقي التي تجرها الجمال لرفع هذه المياه من باطن الأرض، كغيرها من المدن التي ليست بها أنهار في السلطنة^(٢). وتسهيل هذه المياه ليستفيد بها سكانها وزوارها في كثير من المنشآت الاجتماعية من: أسبلة، وحمامات، وأحواض، وسقايات، ومطاهر أو مياضي.

أما عن البحث عن مصادر جديدة للمياه خارج القدس في الأودية المحيطة بها والقريبة منها، وتجميع هذه المياه وتوصيلها إلى المدينة المقدسة عن طريق عدة قنوات أهمها قناة السبيل أو قناة العروب التي كانت تأتي بالماء إلى القدس من عين العروب وبرك سليمان الواقعة في وادي العروب بين الخليل والقدس وعلى بعد ٢٢ كيلو مترا من القدس، حيث ينبع الماء من سبع عيون. ومن وادي البيار عند الكيلو ١٨ على طريق الخليل وفيه خمسة ينابيع. والمياه التي تتفجر من هذه العيون تصب في برك سليمان الثلاث، ثم يسير الماء منها إلى قناة السبيل التي تقوم بتوصيله إلى القدس^(٣). وقد ذكر المقرئ هذا الإنجاز الكبير في حديثه عن سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م بقوله: "وفيها كملت العين التي أجراها الأمير تنكز بالقدس بعدما أقام الصنّاع فيها مدة سنة .. وركب في الجبل مجارى نقب لها في الحجر حتى دخل الماء إلى القدس، فكان له يوم مشهود^(٤)". وقد استمرت

(١) د. علي السيد علي: القدس، ص ٦٥ - ٧٠.

(٢) د. علي السيد علي: "الرعاية الاجتماعية في مكة المكرمة"، ص ٢٠٠ - ٢١٦، راشد القحطاني:

أوقاف الأشرف شعبان بن حسين على الحرمين الشريفين، الرياض ١٤١٦ هـ، ص ١٥٦ - ١٩٥.

(٣) عارف باشا العارف: نفسه، ص ١٧٩ د. كامل العسلي: وثائق مقدسية، ج١، ص ١٠٥.

(٤) السلوك، ج٢، قسم ١، ص ٣٠٢ د. رشاد الإمام: نفسه، ص ١٨٣.

رعاية سلاطين وأمراء الممالك لهذا المصدر حتى نهاية العصر المملوكي^(١). كما وفرت هذه المصادر الجديدة الكثير من المياه حتى داخل المؤسسات الدينية والخيرية والثقافية.. من ذلك أن المدرسة التنكزية التي أنشأها الأمير تنكز بجوار الحرم القدسي الشريف عند الباب المعروف بباب السلسلة، كان في وسطها بركة مثمرة يجرى لها الماء من قناة العروب بحق واجب معلوم، ولهذا المدرسة طهارة تشتمل على خمسة بيوت أحدها مستحم، وفي كل بيت منها جرن حجر يجرى إليه الماء من قناة العروب المذكورة^(٢). كما أنشأ الأمير نفسه بركة ماء عظيمة تقع داخل الحرم ما بين الصخرة والمسجد الأقصى، وهي كبيرة وملبسة بالرخام^(٣). بل لانغالي إذا قلنا إن القدس ظلت تستقى الماء عن طريق برك سليمان هذه وعين العروب حتى سنة ١٩٢٦ م. عندما حلت محلها عين ماء فارة التي تبعد ١٤ كيلو مترا إلى الشمال الشرقي من القدس، وبعدها حلت محلها مياه رأس العين في سنة ١٩٣٥ م، والتي تبعد حوالي ستين كيلو مترا إلى الشمال الغربي من القدس^(٤).

بعض حرف أهل القدس

إن وثائق الحرم القدسي الشريف تقدم مادة خصبة للمهتمين بالتاريخ الاقتصادي، وطبيعة الحياة الاقتصادية لمجتمع بيت المقدس في عصر الوثائق على الأقل، وخصوصا وثائق الإرث وهي التي تبدأ بعبارة "حصل الوقوف على .." و "أشهد على نفسه .." وتسجل كل ما يملكه المتوفى، أو من يتم حصر ممتلكاته وهو مريض على فراش الموت، مع الإشارة إلى مهنته. كأن يكون "قصارا"، وهو من يقصر القماش، أى ينقيه من الأوساخ والأدناس، وهو أشبه بمن يعمل حديثا في المغاسل أو محلات تنظيف وكى الملابس. وعادة ما كان يتجمع أبناء هذه الحرفة عند عين من عيون الماء تسمى عين القصارين، حيث يصحبون معهم القماش أو الملابس المحتاجة إلى القصر، ويغسلونها بهاء تلك العين، وينظفونها، ثم ينشرونها، ويرشونها بالماء مرارا، وحيث يتم تعريضها لحرارة الشمس والهواء، وعندما يتم تنظيفها ويقصر لونها أى يبيض، يتركونها حتى تجف، ثم يجمعونها

(١) مجير الدين الحنبلي: نفسه، ج٢، ص ٤٤٥.

(٢) د. كامل العسلى: وثائق مقدسية، ج١، ص ١٠٩ - ١١٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص ١٣٣؛ د. رشاد الإمام: نفسه، ص ١٨٤.

(٤) عارف باشا العارف: نفسه، ص ١٨٠.

ويأتون بها إلى دكاكينهم^(١). أو "الجدّاد واللقّاط". وواضح من الوثيقة رقم ٥٧٣ أن الجدّاد من يقطع فروع أشجار الزيتون بما فيها من ثمار، أو من يضرب تلك الأغصان بقطعة خشبية حتى يتساقط منها الزيتون، أما اللقاط فواضح أنه الشخص الذي يقوم بالتقاط حبات الزيتون وتجميعها في الأواني الخاصة بذلك تمهيدا لعصرها في المعاصر وما إلى ذلك من أمور^(٢). ومن الحرف التي أوردتها الوثائق حرفة "مغسل الأموات" والتي جاء ذكرها في الوثيقة رقم ٦٥٣، والتي يتضح منها أن هذه الحرفة كانت تلقى رواجاً في أوقات انتشار الأوبئة والطواعين، وحصل بعض المشتغلين بها على مبالغ كبيرة، فقد جاء في هذه الوثيقة أن نصيب هذا المغسل من الطاعون الذي انتشر عام ٧٩٥ هـ بلغ "مائتي ألف درهم"^(٣). وكذلك حرفة "الجمال"، وهذا الاسم يصلح لمن يبيع الجمال بسوق الجمال، ولمن يسوس الجمال، ويفتش عليها، وعلى طعامها وشرابها بأجرة من أصحاب الجمال معلومة تكفيه. وعلى من يستأجر الجمال بأجرة مخصوصة، وهو ينتفع بالتحميل عليها^(٤). وحرفة "الحصري" وهي تدل على من يصنع الحصر التي تفرش في المحلات والبيوت، وكثير من دور العبادة وغيرها، للجلوس عليها^(٥). و"الطحان" وهي وتدل على من كان يستأجر الطواحين لأجل طحن الغلال من قمح وذرة وخلافهما من الحبوب^(٦). و"الحلواني" وهو اسم عند الإطلاق يدل على من يبيع أنواع الحلوى، ومنها الحلوة الطحينية، وأهل هذه الصنعة كانوا في أماكن متفرقة في القدس، وهو شهرون في محالهم، هذه الحرفة كانت قديماً رائجة جداً^(٧). ومن الحرف أيضاً "السقاء" وهو اسم لمن يتعاطى نقل الماء إلى الدور، فيأتى للناس بما يحتاجونه من الماء في كل يوم تقريباً، وله على كل قربة ماء شيء معلوم. ويوجد بعض السقائين ممن يدورون في الأسواق، ويسقى

(١) د. كامل العسلي: نفسه، ج٢، ص ١٦٠؛ محمد سعيد القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، دمشق ١٩٨٨، ج١، ص ٣٥٣.

(٢) د. كامل العسلي: نفسه، ج٢، ص ١٦٤.

(٣) المصدر السابق: نفسه، ج٢، ص ٩.

(٤) محمد سعيد القاسمي: نفسه، ص ٨٣.

(٥) د. كامل العسلي: نفسه، ج٢، ص ٩٢؛ محمد سعيد القاسمي: نفسه، ص ٩٨.

(٦) د. كامل العسلي: نفسه، ج٢، ص ٨٩؛ محمد سعيد القاسمي: نفسه، ج٢، ص ٢٩٠.

(٧) د. كامل العسلي: نفسه، ج٢، ص ٣٤-٣٥؛ محمد سعيد القاسمي: نفسه، ج١، ص ١٠٦.

الواحد منهم الناس بطاسة معه من جرة بيده أو سطل، ومنهم من كان يحمل المياه في قرب لأصحاب المحلات، لرشها في الشوارع على الأقل صيفا وللشرب منها هم والمارة نظير أجر معلوم، وربما أيضا للاستخدامات المختلفة وبخاصة في الأسواق التي خصصت لإعداد الأطعمة^(١) و"الصائع" أو "الصايغ" وهو من يعمل في الذهب والفضة، ويغيرهما من صفة إلى صفة على حسب رغبة الناس واتخاذهم منها أدوات للزينة^(٢). و"الجوخى" وهو من يشتغل ببيع الجوخ والأقمشة المصنوعة منه، ذات الألوان البسيطة كالأسود والأزرق والأحمر وغير ذلك من الألوان^(٣). و"الخلال" واضح مما جاء في الوثيقة رقم ٦٩٥ المؤرخة في ١٧ شعبان سن ٧٠٥ هـ أنه كان يتاجر في الخل، وربما أطلق كذلك على من يقوم بصناعة الخل، خصوصا وأن قصب السكر كان معروفا في بيت المقدس وكما سبقت الإشارة بذلك^(٤). كما ورد ذكر "الحلاق" وهو إلى جانب ما يقوم به من عمل في عصرنا الحالى، كان على دراية بمعالجة بعض الأمراض، وربما تجيير بعض الكسور، فضلا عن عمليات ختان الصبية، وتضميد الجراح^(٥). إلى جانب حرف "الخباز" أى من يخبز الخبز للناس في الأفران نظير أجر معلوم، وكذلك "القفاص" أى صانع الأقفاص من جريد النخل، وكذلك بعض الآنية من الخوص من سعف النخيل، والذي ربما أطلق عليه أيضا اسم "الخواص"^(٦). ومن الحرف أيضا حرفة "القصاب" أى الجزار، وسمى بالقصاب لأنه يذبح الحيوانات من قصبته. و"الأدمى" ويقصد به من يشتغل بتجارة الأدم أى الجلود؛ و"الخيال" ويقصد به من يشتغل بتجارة الخيول، وربما من يقوم برعايتها في طعامها وشرابها أو من يقوم بجرها وخصوصا في المناطق المرتفعة إذا كانت مصاحبة لدواب الحمل في القوافل^(٧). كذلك جاء في الوثيقة رقم ٤٩٤ وهي من وثائق حصر الموجودات أن صاحب الوثيقة كان يعمل "نساخا"، أى ينسخ

(١) د. كامل العسلى: نفسه، جـ ١، ص ٧٨؛ محمد سعيد القاسمى: نفسه، ص ٢١٠ - ٢٤٥.

(٢) محمد سعيد القاسمى: نفسه، جـ ٢، ص ٢٤٦، د. كامل العسلى: نفسه، جـ ٢، ص ٣٧.

(٣) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٨٥؛ محمد سعيد القاسمى: نفسه، جـ ١، ص ٨٥.

(٤) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٤٨، الوثيقة رقم ٦٩٥.

(٥) المصدر السابق: نفسه، ص ٤٤، الوثيقة رقم ٤٦١.

(٦) د. كامل العسلى: نفسه، جـ ٢، ص ٩٢.

(٧) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٦٠ - ٧٤، الوثائق ٣٢٦ - ٣٣٦.

الكتب حيث لم تكن الطباعة قد عرفت بعد، كما جاء ذكر بعض أدوات النسخ وصناعة الحبر. ومن هذه الأدوات جاء ذكر "كيس ضمنه شب وكبريت" و "حجارة وزلط" و "جراب جلد ضمنه قشر بيض"، ويبدو أن هذه الأدوات كانت تستعمل في صناعة الحبر^(١). كما انفردت بعض الوثائق بذكر بعض الوظائف في بيت القدس، منها على سبيل المثال: وظيفة "شيخ الشيوخ"، وهو لقب يطلق على شيخ الصوفية، أو المتولى الإشراف على رجال الطرق الصوفية، كما أطلق أيضا على شيخ الخانقاه الصلاحية بالقدس، والتي أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي على الصوفية بها، كذلك وردت وظيفة "متولى البلد" وهو لقب يطلق على من يسند إليه القيام أو الإشراف على عمل من الأعمال، أو من يتقلد منصبا من المناصب أو ولاية من الولايات. وقد يحل محل لفظة رئيس أو صاحب مشد. كذلك ورد لقب "مستوفى بيت المال" وهو موظف في القدس مهمته الإشراف على تنظيم إيرادات الولاية أو النيابة ومصروفاتها، وجمع الضرائب ومحاسبة موظفى الجباية ومراقبة الحسابات، وهو يلى "الناظر" في المرتبة^(٢). وما جاء في الوثيقة رقم ١٩٢ المؤرخة في ٥ محرم سنة ٧٩٠ هـ من أنه كان لدى "قاضي القضاة الشافعى" موظف يدعى "أمين الحكم"، وهو المسئول عن رعاية شئون الأيتام لدى القاضى، ويقوم بالإنفاق عليهم من تركة والدهم أو يحاسب الوصى عليهم على ما أنفقه من أموال اليتامى^(٣). و "شيخ المغاربة"، فقد كان للمغاربة الذين يحجون أو يجاورون في القدس الشريف زاوية هى زاوية أبى مدين الغوث شعيب بن الحسين الأندلسى، وعليها أوقاف كثيرة، ولهم حارة تعرف بحارة المغاربة في القدس الشريف، وهؤلاء شيخ يشرف على أوقاف الزاوية وينظم أمور المجاورين^(٤). ومنها الناظر على أوقاف الحرمين الشريفين في مكة والمدينة المنورة، ويقصد بها الأوقاف التى تم حبسها في القدس على مصالح الحرمين الشريفين بالحجاز. وواضح مما تذكره الوثيقة رقم ٢٢ والمؤرخة في ذى القعدة سنة ٧٠٧

(١) المصدر السابق: نفسه، ص ١١٠ - ١١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٢ - ١١٣.

(٣) د. كامل العسلى: نفسه، ج ٢، ص ١٠٥ - ١٠٧؛ د. على السيد على: وثائق الحرم القدسي الشريف وأهميتها في دراسة التاريخ الاجتماعى للقدس في العصر المملوكى، مجلة التربية، العدد ١٢٩، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٤) د. محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٨٢، حاشية ١١٠.

هـ أن إمام الروضة الشريفة بالمسجد النبوى الشريف فى المدينة المنورة كان يقوم بتحصيل ربيع تلك الأوقاف، ويشرف على الإنفاق منها على الأماكن الموقوفة عليها. من هذه الأوقاف قرية صغيرة تسمى قرية القصور من أعمال القدس الشريف، ثم وقفها على مرتب الخطيب والمؤذنين ومصالح السقاية المنصورية بالمدينة المنورة، وكانت تدر خمسة آلاف درهم فى السنة. وإن دل هذا على شىء فإنها يدل على عروبة القدس فى عصر سلاطين المماليك ومدى ارتباطها الشديد بأهم المقدسات الإسلامية الأخرى.

المحتويات

٧	تقديم
	العبيد والإماء في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام..
٩	د. فتحي عبد العزيز الحداد
	البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية
٥٣	د. عبد العزيز رمضان
	الجزيرة الفراتية بين الصراع الفارسي البيزنطي من القرن الرابع الميلادي إلى
٨١	د. عقاف سيد صبره
	الفتح الإسلامي..
	الجيش المصري بين التمسير والسيطرة البريطانية
	من تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ إلى أزمة الجيش ١٧ يونيو ١٩٢٧
١٢١	د. فطين أحمد فريد على
	الخلع في الأندلس (دراسة وتطبيق).. الخلع في الدولة الإسلامية
٢١١	د. نريان عبد الكريم أحمد
	الرعاية الاجتماعية في القدس في العصر المملوكي
٢٥٥	د. محمد سالم بكر باعامر
	العقوبات وطرق تنفيذها من خلال صور المخطوطات الإسلامية
٢٧٩	د. منى محمد بدر
	من القرن (٧-١١هـ / ١٣-١٧م)
	الوليد عقبة بن أبي معيط (حياء - ولايته الكوفة)
٣٥١	د. أحمد عبد اللطيف حنفي محمد
	(ما قبل ٨-٦١هـ / ٦٢٩-٦٨٢م)
	بيع وعق رقاب الجاريات في العصر الإسلامي
٤٤٣	د. سعيد مغاوري محمد
	في ضوء نصوص البرديات العربية

- تاريخ إقليم الأشمونين في العصر الإسلامي
 في ضوء البرديات العربية
 ٤٥٧ أ. أحمد فؤاد سيد
- أهم مراكز تجارة الصحراء المغربية ودورها في تيام الكيانات السياسية
 في القرنين (٤، ٥هـ / ١٠، ١١م)
 ٤٧١ د. حسن خضيرى أحمد
- ملكية الأراضي والضرائب في مدينة الرملة (١٢٨١-١٣٣٣ هـ م ١٨٦٤ -
 ١٩١٤م) من خلال سجلات المحاكم الشرعية
 ٥١٣ د. رياض مصطفى أحمد شاهين، د. إبراهيم محمد عبد اللطيف عبد الله
- وثائق الحرم القرسى الشريف وأهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادى للقدس في
 العصر المملوكى
 ٥٦٩ د. على السيد على محمود